اللواء الركن المتقاعد

أ. د. ياسين سويد

موسوعة



تاريخ لبنان

التاريخ السياسي والعسكري

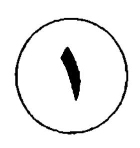
الإمارة المعنية



إسم المجموعة : المقاطعات اللبنانية في إطار بلاد الشام
إسم الكتاب : - الإمارة المعنية (١٥١٦ - ١٦٩٧) -
المؤلف : اللواء الركن المتقاعد أ. د. ياسين سويد
قياس الكتاب : 24 × 17
عدد الصفحات : 560 صفحة
مكان النشر : بيروت
دار النشر والتوزيع : دار نوبليس
تلفاكس : 961-1-583475
تلفون : 961-1-581121 / 961-3-581121
الطبعة الأولى : 2004

اللواء الركن المتقاعد

أ. د. ياسين سويد



المقاطعات اللبنانية في إطار بلاد الشام

التاريخ السياسي والعسكري

الإمارة المعنية (١٥١٦ - ١٦٩٧)

NOBILIS

2004

الفهرس

الفصل الثاني

الإطار الإجتماعي

البنية الإجتماعية للمقاطعات اللبنانية

الفصل الثالث

لمحة عامة عن التنظيمات العسكرية في بلاد الشام

الفصل الرابع
المقاطعات اللبنانية
قبل فخر الدين المعني الثاني أمير الشوف

الباب الثاني
المقاطعات اللبنانية
في عهد فخر الدين المعني الثاني
وحتى آخر العهد المعني (١٥٩٠ - ١٦٩٧)

الفصل الأول
فخر الدين المعني الثاني
حياته السياسية (سيرته في الحكم، طموحه السياسي، تحالفاته العسكرية)

الفصل الثاني

القوى المسلحة عند فخر الدين المعني الثاني

الفصل الثالث
القلاع والمرافئ البحرية في عهد فخر الدين

الفصل الرابع
معارك الأمير فخر الدين - ١ -
المعارك الهجومية التوسعية

الفصل الخامس

معارك الأمير فخر الدين - ٢ -

المعارك الدفاعية

الفصل السادس

الإمارة المعنية بعد فخر الدين

(العودة إلى الصراع المسلح بين الحزبين القيسي واليمني)

الفصل السابع

المقاطعات اللبنانية الأخرى

الخاتمة

فهرس
الخارطات والرسوم والصور

الموضوع
الصفحة

خارطات المعارك:

◆ المعارك الهجومية:

◆ المعارك الدفاعية:

فهرس الوثائق

المصادر: **الصفحة**

- Archives Nationales - Paris (Archives des affaires étrangères, AE, dossier Cote B1 - 1017 et Archives de la Marine, dossier Cote B7 - 218).
- Bibliotèque Nationale de Paris, Pavillon Archives, (Département des manuscrits, dossier cote FR 20.983 fol. 89 - 100).

وثيقة رقم (٥) : رسالة من الشيخ ناصيف بن نوفل الخازن، إلى الملك لويس الرابع عشر، مؤرّخة في أواخر شهر آذار ١٦٩٥، يصف له فيها حال المسيحيين في جبل لبنان بعد عزل الأمير أحمد المعني عن حكم هذا الجبل. ٥٥٧

وثيقة رقم (٦) : رسالة من الشيخ حصن الخازن، إلى المركيز «دي كرواسي» (Charles Colbert, Marquis de Croissy) وزير الخارجية الفرنسية (١٦٧٩ - ١٦٩٦) مؤرّخة في أوائل شهر كانون الأول عام ١٦٩٥، يطلب منه فيها السعي لمنحه قنصلية فرنسا في طرابلس. ٥٥٨

وثيقة رقم (٧) : رسالة من الشيخ حصن الخازن إلى الكونت دي بونشارتران (Louis Phélypeaux, Comte de Pontchartrain) وزير الدولة الفرنسية لشؤون البحرية، مؤرّخة في أوائل شهر كانون الأول عام ١٦٩٥ يطلب منه فيها منحه قنصلية فرنسا في طرابلس. ٥٥٩

وثيقة رقم (٨) : الضرائب المترتبة على البواخر الفرنسية التي رست في مرفأ صيدا بين عامي ١٦٦٦ و١٦٨٢، مع صورة للمرفأ مع القلعة البحرية، في ذلك العهد. ٥٦٠

الإهداء

إلى المؤمنين بصدق،

أنّ وطناً يبنى على التمايز الطائفي

هو جرح قابل للنزف في كل حين،

وأنّ الوطن القادر القويّ،

هو الوطن الديموقراطي العلماني،

الذي به نحلم

وإليه نتطلّع

ي. سويد

المقَـدّمـة

إنّ كتابة التاريخ إقرار وصناعته قرار، بمعنى أن كتابته تلزم المؤرخ الجادّ والرصين بالإقرار الصادق والصريح بوقائع الماضي وحقائقه، بعد البحث عنها والتحقق منها، وهي حقائق يجب الجهر بها وعدم التنكر لها، بعد التأكد من صحتها، وذلك كي نكون صادقين مع أنفسنا ومع مجتمعنا. أما صناعة التاريخ فهي فعل اتخاذ القرار الذي يحدد السلوك المصيري لمجتمع أو لأمة. ولا شيئ غير الإقرار بالتاريخ يمكن أن يفضي إلى حسن اختيار صانع التاريخ لقراره المصيري، لأن استقراء المستقبل يكمن في قراءة الماضي والإستفادة من عبره. وكما تتطلب صناعة القرار التاريخي جرأة واقتحاماً، يتطلب كذلك، الإقرار بالحقائق التاريخية، تجرداً، وجرأة، وبالتالي اقتحاماً.

ي. سويد

غالباً ما تثير الحقيقة التاريخية جدلاً بين المؤرخين، إلا أن ما يهم المؤرخ الرصين هو أن يظل الجدل حول هذه الحقيقة، وبصددها، في مستوى الحقيقة نفسها، علمياً رصيناً منزهاً عن الهوى والغرض.

والحقيقة التاريخية ليست مطلقة ولا مقدسة إلاّ بقدر ما تكون مقنعة للباحث وثابتة في وجدانه المهني، وهي تظل قائمة ما لم تدحضها حقيقة أخرى تلغيها وتثبت بطلانها، فالمؤرّخ، في نظري، أشبه ما يكون بقاض يضع الزمنُ بين يديه أوراقَ دعواه، يمحصها ويدقق بها ليصدر بالتالي حكمه فيها وفقاً لقناعاته، ويظل متمسكاً بأحكامه هذه إلى أن تبرز معطيات أو تظهر أدلّة ووثائق جديدة يمكن أن تؤثّر في قناعاته وتغير في أحكامه السابقة، فعليه، في هذه الحالة، أن يعيد نشر الدعوى والنظر بها من جديد وفقاً لما جدَّ من معطيات أو ما ظهر من وثائق وأدلّة، وعليه أن لا يتردد في تغيير جوهر الحكم الذي سبق أن أصدره تغييراً ينسجم مع قناعاته الجديدة.

وهكذا تظل الحقيقة المطلقة، في التاريخ، كما في العدالة، صعبة المنال، إن لم تكن مستحيلة.

من هذا المنطلق الإيماني بضرورة البحث عن الحقيقة التاريخية، رأيت، عندما قرّرت أن أتصدّى لكتابة تاريخ لبنان «السياسي والعسكري»، أن أحدّد الفترة الزمنية التي أبدأ بها هذا التاريخ، ولم تكن قناعاتي مطابقة لقناعات معظم المؤرّخين اللبنانيين المعاصرين، ذلك ان معظم هؤلاء المؤرخين ارتضوا أن يروا في العهد المعني، ومنذ فخر الدين الثاني بالتحديد، أول عهد ظهرت فيه «مسوّدة» الكيان اللبناني الذي عرف النور في النصف الأول من القرن العشرين (١٩٢٠)، سواء على الصعيد الاجتماعي من حيث التمازج الطائفي، أم على الصعيد الجغرافي من حيث اتساع رقعة الأرض التي تمكن فخر الدين من أن يحكمها.

ورغم اني لا أقرّ الطرح الذي يجعل من فخر الدين الثاني أول مؤسس للبنان الموّحد، انطلاقاً من معطيات وأسباب سوف أتعرض لها في سياق البحث، فإن ما لا يمكن انكاره هو ذلك الموقع التاريخي المميز الذي استطاع الأمير المعني ان يتخذه في تلك الحقبة من الزمن بفضل طموحه السياسي من جهة، وبفضل تسامحه الديني من جهة أخرى[١]، وذلك في عصر كان التسامح الديني مع غير المسلمين يعتبر موقفاً متقدماً وجريئاً ازاء السلطة العثمانية. ولعله تمكن من أن يخلق، دون قصد منه ولا شك، في امارته، وفي ظل حكم شبه متطور، ارضية مشتركة لحياة إجتماعية متسامحة بين الطوائف، وهو ما عدّه المؤرخون نواة للوطن اللبناني فيما بعد، رغم ان الواقع المعاش حالياً في لبنان، والذي تكرر في سياق التاريخ منذ أكثر من قرن ونصف القرن من الزمن، شهد اهتزازات حادة، وذلك بفعل التغليب المستمر للشعور الطائفي على الشعور القومي عند أبناء هذه الطوائف، مما جعل

١ – لا شك في أن ظروف خصومة المعني مع الآستانة، وبالتالي تحالفه مع الغرب المسيحي، هي أحد أهم الدوافع إلى تسامحه الديني هذا.

الأمير المعني مثار جدل تاريخي وسياسي تغذيه التناقضات الطائفية والمصالح المحلية المتوافقة حيناً والمتضاربة حيناً آخر.

وانطلاقاً من هذه المبادئ والقناعات الثابتة لديّ، ومن تمسّكي بعلمية البحث التاريخي، ووجدان المؤرخ الذي يسعى إلى الحقيقة غير متأثر بأي منحى سوى الحقيقة نفسها، فانني أعتمد، بقناعة تامة، وبكل تجرد، الحقائق التاريخية التالية:

١ - إن لبنان (الكيان والدولة)، لم يكن إلا في مطلع القرن العشرين، وبالتحديد مع نشوء دولة لبنان الكبير عام ١٩٢٠، وقبلها، لم يعرف التاريخ كياناً أو دولة باسم «لبنان».

٢ - إنّ «جبل لبنان» لا يعدو كونه واحداً من جبال الشام، وهو إن تميز بمجتمعه الاثني (الماروني) فكما يتميز أي مجتمع محلي في أي بلد من بلدان العالم، (جبل عامل مثلاً)، فلا يجوز، والحالة هذه، أن يعتبر تاريخ هذا الجبل، دون سواه، تاريخاً لكل لبنان.

٣ - إن «جبل الشوف» أو «جبل الدروز» هو موطن الإمارتين المعنية والشهابية ومصدرهما، وقد ظل يحمل اسمه هذا إلى عهد المتصرفية حين ضُم إلى جبل لبنان وتسمى باسمه.

٤ - إن «متصرفية جبل لبنان» التي أنشئت عام ١٨٦١ وظلت قائمة حتى مطلع الحرب العالمية الأولى، ليست هي لبنان (الكيان والدولة والشعب) الذي نؤمن به ونؤرّخه، بل هي كيان فرضته ظروف طائفية معينة، وبتدخل من الدول الأجنبية الكبرى في ذلك الحين، وذلك بعد فشل الصيغة الطائفية التي أنشأتها تلك الدول قبل هذه المتصرفية، للظروف نفسها، وسميت بالقائمقاميتين.

٥ - ان الامارتين، المعنية والشهابية، اللتين اتخذ منهما المؤرخون اللبنانيون المعاصرون أساساً لتاريخ لبنان، لم تكونا مرتبطتين بنشوء كيان لبناني ما، بل لم تكونا معنيّتين بانشاء هذا الكيان، يؤكد ذلك ما نجده لدى المؤرخين الذين عاصروهما وارخوهما، اذ لم ينسب أي منهم إلى هاتين الامارتين نسبة «اللبنانية»، كما لم يسمّ أي منهم امراءهما باسم «امراء لبنان»، بل، على العكس من ذلك، كانت تسمى الامارة المعنية او الشهابية «امارة الدروز»، كما كان يسمى الامير المعني أو الشهابي «امير الدروز»، واذا كان المؤرخون اللبنانيون المعاصرون الذين ارخوا لبنان بعد نشوئه عام ١٩٢٠ قد ألبسوا هاتين الامارتين لبوس «اللبنانية» وسموا امراءهما، تجاوزاً، باسم «أمراء لبنان»، فذلك رغبة منهم في اختراع جذور تاريخية للكيان اللبناني الحديث العهد بالتاريخ. وتؤكد صحة طرحنا هذا كل المصادر التاريخية المعاصرة لهاتين الامارتين، وكذلك الفرمانات السلطانية، ومنها الفرمان السلطاني الصادر عن السلطنة العثمانية والمؤرخ في السادس من رجب عام ١٢٥٦ هـ الموافق للثالث من أيلول عام ١٨٤٠ م، والذي تم بموجبه تعيين آخر الامراء الشهابيين، الامير بشير الثالث، اميراً على «جبل الدروز» و«عشائر الدروز»[٢].

٦ - اذا فرضنا جدلاً أن لبنان هو لبنان المتصرفية أو القائمقاميتين أو الإمارتين المعنية والشهابية، فإن لبنان هذا لا يعني، على الإطلاق، إبن وادي التيم والبقاع وطرابلس وجبل عامل، بل وبيروت، إلاّ إذا اعتبرت هذه المقاطعات ملحقات بالأصل، وذلك غير صحيح وغير مقبول البتة، ومن هنا كانت

٢ - رستم، الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا، مجلده: ١٧٢-١٧٣، وثيقة رقم ٥٧٠، والخازن، مجموعة المحررات السياسية، مجلد١: ٢١ - ٢٢ وثيقة رقم ١٥. وقد وردت ترجمتها عند رستم «قبائل الدروز» وعند الخازن «عشائر الدروز».

دراستنا لتاريخ لبنان بالشكل الصحيح والسليم، بحيث درسنا كل المقاطعات التي ألّفت الكيان اللبناني عند نشوئه عام ١٩٢٠، وهي:

- إمارة الشوف او إمارة الدروز، أو الإمارة المعنية والشهابية، والتي كانت تابعة لولاية دمشق حتى عام ١٦٦٠م، ثم أصبحت، بعد هذا التاريخ، تابعة لولاية صيدا فعكّا.
- إمارتا وادي التيم والبقاع، وكانتا تابعتين لولاية دمشق.
- مقاطعة جبل عامل، وكانت تابعة لولاية صيدا ثم عكا.
- سنجقية طرابلس، وجبل لبنان من ضمنها، وكانت تابعة لباشوية طرابلس.

وأي استقراء للتاريخ اللبناني على غير هذا الشكل هو استقراء خاطئ وغير قائم على أسس علمية صحيحة وموثوقة.

من هنا، آثرت أن أقسّم عملي إلى مجموعتين:

- الأولى: تحت عنوان «المقاطعات اللبنانية في إطار بلاد الشام»، أي تلك المناطق التي كانت مقاطعات (او إمارات) من بلاد الشام، طوال العهود: المعني والشهابي والقائمقاميتين والمتصرفية، والتي كونت دولة «لبنان الكبير» فيما بعد (اي عام ١٩٢٠)، وهذه المناطق هي: إمارات الشوف والبقاع ووادي التيم، ومقاطعة جبل عامل، وسنجقية طرابلس (بما فيها جبل لبنان)، ففي ذلك من الدقة العلمية ما يغني عن التساؤل عن ماهية «لبنان» جغرافياً وتاريخياً ودستورياً. وإذا كنّا قد آثرنا وضع هذه المقاطعات، وفي هذه الفترة من تاريخها، في إطار «بلاد الشام»، فذلك لأنها كانت مرتبطة، سياسياً وإدارياً، بولايات هذه البلاد (إمارات الشوف ووادي التيم والبقاع من ولاية دمشق، ومقاطعة جبل عامل من ولاية صفد ثم صيدا فعكّا، وسنجق طرابلس من ولاية طرابلس).

- الثانية: تحت عنوان «لبنان الانتداب»، وهي فترة «لبنان الكبير» التي ضمّ لبنان، إثرها، كل تلك المناطق، ثم فترة «الجمهورية الأولى»[٣] حتى آخر عهد الانتداب الفرنسي (١٩٢٠-١٩٤٣).

ويهمّني، في هذا المجال بالذات، ان اؤكد انني وضعت عملي، في هذا الاطار، اقتناعاً مني بالحقائق التاريخية الثابتة، والتزاماً بوقائع الماضي، دون أي اعتبار للحاضر، او تنبؤء بالمستقبل[٤].

وكان من أهم المصادر التي ساعدتني في إنجاز هذا العمل، ما وجدته في المكتبات العامة التي زرتها ببيروت (مكتبة جامعة القديس يوسف، والمكتبة الوطنية (قبل اندثارها)، والمتحف الوطني، ومكتبة يافث في الجامعة الأميركية) من أعمال المؤرخين العرب والأجانب، وما وجدته لدى الرحالة الأوروبيين الذين قصدوا بلاد الشام في القرون الأربعة المنصرمة، من وقائع وأحداث سجلها هؤلاء في أثناء تجوالهم بهذه البلاد. ورغم وقوع بعضهم في المبالغة أحياناً، فقد كانت كتاباتهم، بصورة عامة، أفضل عون لي في تقصّي

---

٣ - انني مقتنع بوجهة نظر الرئيس حسين الحسيني الذي يرى ان الجمهورية الأولى، في لبنان، هي جمهورية الإنتداب (من عام ١٩٢٦ حتى عام ١٩٤٣)، وتأتي بعدها الجمهورية الثانية (١٩٤٣ - ١٩٩٠)، ثم الجمهورية الثالثة التي نحن فيها اليوم.

٤ - نشرت مجلة الحوادث اللبنانية في عددها الصادر بتاريخ ١٩٧٨/٢/١، بحثاً بعنوان (لبنان شرقي وعربي بشخصية وطنية مميزة) للدكتور كمال الصليبي أستاذ التاريخ في الجامعة الأميركية ببيروت، يبدي فيه رأياً مماثلاً، إذ يقول الدكتور الصليبي في بحثه هذا: «لا يجوز للمؤرّخ، مهما كان موضوعه، أن يلجأ في كلامه عن الماضي إلى استعمال المصطلحات السياسية والإجتماعية بمفهومها الحاضر، وكثيراً ما يقع المؤرخون اللبنانيون المعاصرون، وكذلك غيرهم من المؤرخين العرب المعاصرين، في هذا الخطأ، فكلمة «لبنان» مثلاً لم يكن لها، قبل أواخر عهد الأمراء الشهابيين، مدلول سياسي، بل كانت فقط عبارة جغرافية تدل على الجبل اللبناني، وفي بعض الأحيان، على بعض هذا الجبل، دون غيرها».

المعلومات الدقيقة والمباشرة عن هذه الحقبة من تاريخ «المقاطعات اللبنانية». كذلك، كان من أهم المصادر ما وجدته من وثائق في المكتبة الوطنية بباريس (Bibliothèque Nationale) وفي المحفوظات الوطنية بباريس أيضاً (Archives Nationales) وفي مصلحة التاريخ لجيش البرّ الفرنسي بفنسين (Sce Historique de l'Armée de terre - Vincenne)، وهو ما اعانني كثيراً في كتابة تاريخ «لبنان الانتداب»، متبعاً، ما استطعت، الأسلوب العلمي الرصين في البحث والتقميش والتحقيق، ثم التحليل والاستنباط، مستنيراً، لكلّ ذلك، بما استطعت الاطلاع عليه من مصادر ومراجع، (وأخصّ منها الوثائق)، محاولاً التوفيق بين ما تناقض منها، معطياً الأولوية في الترجيح إلى المنطقي والمعقول، بحثاً عن الحقائق الثابتة بالحجة الدامغة.

واني، إذ أتقبّل، بصدر رحب، وانفتاح علمي، كل مناقشة أو نقد لهذا الطرح، أدعو كل المؤرخين المخلصين لوطنهم، الصادقين مع أنفسهم ومع رسالتهم المقدسة، كمؤرخين ملتزمين بمبادئ العلم والحقيقة المجردة، ادعوهم جميعاً للاسهام في اعادة النظر بكتابة تاريخ لبنان بشكل علمي **صحيح وسليم ومتجرّد عن أي هوى أو غرض.**

إنّ كتابة التاريخ شأن أساسي في بناء الأوطان، ولا شك في أن الكتابة الخاطئة لتاريخ هذا الوطن المعذب أسهمت، إلى حد كبير، في عذابه وتمزيقه، وتفتيته وتقاتُل أبنائه. وفي اعتقادي، ان كتابة علمية صحيحة ومتجردة لتاريخ لبنان تصحح المفاهيم الخاطئة التي تلقنتها أجيالنا المتعاقبة، سوف تسهم إسهاماً كبيراً في إعادة العافية لهذا الوطن، ووضعه في المسار القويم، ليتألق ساطعاً بين أوطان هذا المشرق المتألّم.

إنّ عمر الوطن، أي وطن، لا يقاس بالمدى الزمني، وانما بهمة ابنائه وعزمهم على ترسيخ بنيانه وتوطيد أركانه، وانطلاقاً من هذا المبدأ، لا يهمني ان كان عمر وطني «خمسة آلاف عام» كما يدّعي المدّعون، أو «ثمانين عاماً» كما أقول، بل كل ما يهمني هو ان يكون أبناء هذه الوطن عازمين حقاً على ترسيخ بنيانه وتوطيد اركانه واعلاء شأنه بين الأوطان، تماماً كما يفعل العدو القابع على حدودنا الجنوبية، والذي لم يمض على اغتصابه لارضنا العربية في فلسطين أكثر من خمسة عقود من الزمن، فهل نحن فاعلون؟

بيروت في أول كانون الثاني ٢٠٠٢

اللواء الركن المتقاعد

أ. د. ياسين سويد

الباب الأوّل

الأطر العامة للمقاطعات اللبنانية

الفصل الأول

الإطار التاريخي:
لمحة عامة في تاريخ المقاطعات اللبنانية

١ - دولة لبنان الكبير في القرن العشرين:
نشوؤها والبحث عن جذورها في القرن التاسع عشر

في الأوّل من أيلول ١٩٢٠ وقف الجنرال «غورو» المفوّض السامي الفرنسي في مقرّه بقصر الصنوبر ببيروت، يعلن مولد «دولة لبنان الكبير»[1] وفي ٢٣ أيار عام ١٩٢٦ أعلن المفوّض السامي الفرنسي هنري دي جوفنيل قيام «الجمهورية اللبنانية» ورسم الدستور الصادر في التاريخ نفسه حدود هذه الجمهورية كما يلي:

شمالاً: من مصب «النهر الكبير» على خط يرافق مجرى النهر إلى نقطة إجتماعه «بوادي خالد» الصاب فيه على علوّ «جسر القمر».

شرقاً: خط القمّة الفاصل بين «وادي خالد» و«وادي نهر العاصي» (أورونت) ماراً بقرى: «معيصرة - حربعانة - هيث - ابش - فيصان» على علوّ قريتي: «بريفا ومطربا»، وهذا الخط تابع حدود بعلبك الشمالية من الجهة الشمالية الشرقية والجهة الجنوبية الشرقية، ثم حدود أقضية بعلبك والبقاع وحاصبيا وراشيا الشرقية.

جنوباً: حدود فلسطين كما هي معيّنة في الإتفاقات الدولية.
غرباً: البحر المتوسّط[٢].

وقد تبنّى دستور «الجمهورية اللبنانية» في مادته الأولى حدود «دولة لبنان الكبير» دون أيّ تعديل، وكما وردت في المادة الأولى من القرار رقم ٣١٨ الذي كان الجنرال غورو قد سبق أن أصدره بتاريخ ٣١ آب ١٩٢٠ أي عشيّة إعلانه لهذه الدولة، وقد نصّت هذه المادة على أنّ هذه الحدود هي المعترف بها «من قبل الجمهورية الفرنسية المنتدبة ومن لدن جمعية الأمم»[٣].

فما هي الجذور التاريخية لهذا الكيان الجديد في منطقة المشرق العربي؟.

أدّت السياسة التي انتهجها إبراهيم باشا المصري في أثناء حكمه لبلاد الشام (١٨٣١ - ١٨٤٠)، وتدخّل الدول الكبرى آنذاك (النمسا وفرنسا وبريطانيا العظمى وبروسيا وروسيا)، بالإضافة إلى الدولة العثمانية، في الشؤون الداخلية للإمارة الشهابية، وخصوصاً في عهد الأمير بشير الثالث، إلى قيام منازعات طائفية مسلّحة بين الموارنة والدروز، الطائفتين الكبريين في هذه الإمارة، نتج عنها تقسيم الإمارة إلى قائمقاميتين: واحدة درزية وأخرى مسيحيّة، يفصل بينهما طريق بيروت - دمشق، وترتبطان إدارياً، ومباشرة، بوالي صيدا الذي كان مركزه بيروت، ممّا أدّى إلى إنهاء عهد الأمير بشير الثالث، وبالتالي عهد الإمارة الشهابية ذاتها. إلاّ أنّ هذا التنظيم لم يعمّر طويلاً (١٨٤٢ - ١٨٦٠)، إذ ما أن كادت الأمور تستتبّ في كلّ من القائمقاميتين حتى نشب القتال من جديد بين الطائفتين وبصورة أشدّ عنفاً، ممّا أدّى إلى تدخّل جديد من قبل الدول الكبرى نفسها، حيث وضعت هذه الدول، في باريس، وفي ٣ آب ١٨٦٠، بروتوكولاً[٤] تدخّلت بموجبه عسكرياً لوقف القتال في هذه المنطقة،

فقرّرت أن ترسل إلى (سوريـــا) حملة عسكرية (Corps expéditionnaire) بقيادة الجنرال دي بوفور دوتبول (le général de Beaufort d'Hautpoul) قوامها إثنا عشر ألف رجل نصفهم فرنسيّون[٥] والنصف الآخر من باقي الدول الأوروبية المشتركة في المؤتمر (البند الأوّل والثاني من البروتوكول) على أن تعزّز هذه الحملة بقوّات بحرية مشتركة من الدول نفسها إذا اقتضى الأمر (البند الرابع من البروتوكول) وقد حدّد البروتوكول مهمّة هذه القوّات بأن تقدّم المساعدة للسلطان كي يتمكّن من «إتخاذ التدابير الحاسمة والفعّالة لوقف إراقة الدماء في سوريا، وتكون شاهدة على حزمه في تأكيد النظام والسلام بين الشعوب الخاضعة لسيادته» (الفقرة الأولى من البروتوكول)[٦]. كما حدّد فترة الإحتلال بستة أشهر فقط (البند الخامس من البروتوكول).

(أنظر الجزء الرابع: القائمقاميتان).

وفي هذه الأثناء، وبالتحديد في ١٥ شباط عام ١٨٦١ أرسل الجنرال دي بوفور دوتبول، قائد الحملة، إلى وزير الحربية الفرنسية، تقريراً أرفقه بجدول إحصائي يدعم فيه إقتراحاً سابقاً له بإنشاء دولة لبنانية حدودها كالآتي:

شمالاً: النهر الكبير.

شرقاً: مرتفعات سلسلة جبال لبنان الشرقية وجبل الشيخ بشكل يحفظ الحدود الحالية (حدود ١٨٦١) لمناطق بعلبك والبقاع وحاصبيا وراشيا.

جنوباً: الحدود الحالية (حدود ١٨٦١) لمناطق الحولة وبلاد بشارة.

غرباً: البحر المتوسّط.

وقدّر بوفور موارد هذه الدولة بـ٢١٨٦٧٠٠٠ قرشاً، وأنّ بإمكانها أن تعبّىء ٨٣٨٥٠ مقاتلاً. وفيما يلي تعريب لهذا الجدول الإحصائي:[٧]

جدول إحصائي
للمناطق المقترح جمعها لتشكيل دولة لبنان

الحدود:

شمالاً: النهر الكبير.

شرقاً: تلال سلسلة جبال لبنان الشرقية وجبل الشيخ بشكل يؤدّي إلى الإحتفاظ بالحدود الحالية لمناطق بعلبك والبقاع وحاصبيا وراشيا.

جنوباً: الحدود الحالية لمناطق الحولة وبلاد بشارة.

غرباً: البحر الأبيض المتوسّط.

أرقام الضرائب المفروضة حالياً			١٢٢٩٧٠٠٠ قرشاً
عدد البنادق			٨٣٨٥٠
السكان	مجموع السكّان		٤٨٧٩٥١
	إسرائيليون		٢٠٦٠
	مسلمون	أكثرية	٧٦٨٦٥
	متاولة		٥٥١٧١
	دروز		٤٤١٦٠
	كاثوليك		٢٣٤٧٥
	أرثوذكس		٦٨٠٤٠
	موارنة		٢٠٨١٨٠

مداخيل الدولة:

- ضريبة الميري	١٢،٢٩٧.٠٠٠
- جمارك ومداخيل مباشرة من بيروت	٦،٠١٠،٠٠٠
- جمارك ومداخيل مباشرة من طرابلس	١،٥٠٠،٠٠٠
- جمارك ومداخيل مباشرة من صيدا	٢،٠٦٠،٠٠٠
- مجموع المداخيل المقبوضة حالياً من الدولة في جميع البلدان المذكورة أعلاه.	٢١،٨٦٧،٠٠٠ قرشاً

- توزّع الرجال المسلّحين بين مختلف الطوائف:

- مسيحيون	٥٢٢٩٠
- دروز	٩٩٥٠
- مسلمون	١١٢١٠
- متاولة	١٠٤٠٠
مجموع البنادق	٨٢٨٥٠

بيروت /١٥ شباط ١٨٦١

الجنرال قائد الحملة في سوريا

بوفور دوتبول

(التوقيع)

وتجدر الإشارة في هذا المجال، إلى أنّ الحدود الحالية للجمهورية اللبنانية، وهي حدود دولة لبنان الكبير كما أعلنها الجنرال غورو عام ١٩٢٠، تبدو مستوحاة، إن لم تكن منقولة، عن الإقتراح الوارد في تقرير الجنرال دي بوفور دوتبول عام ١٨٦١، مع فارق في تخطيط الحدود الجنوبية. ولهذا التخطيط قصّة تعود إلى العام ١٩١٦ عام إتفاقية سايكس بيكو الشهيرة، ففي هذه الإتفاقية التي

عقدت بين الحكومتين البريطانية والفرنسية، قسم المشرق العربي إلى مناطق نفوذ كما يلي:

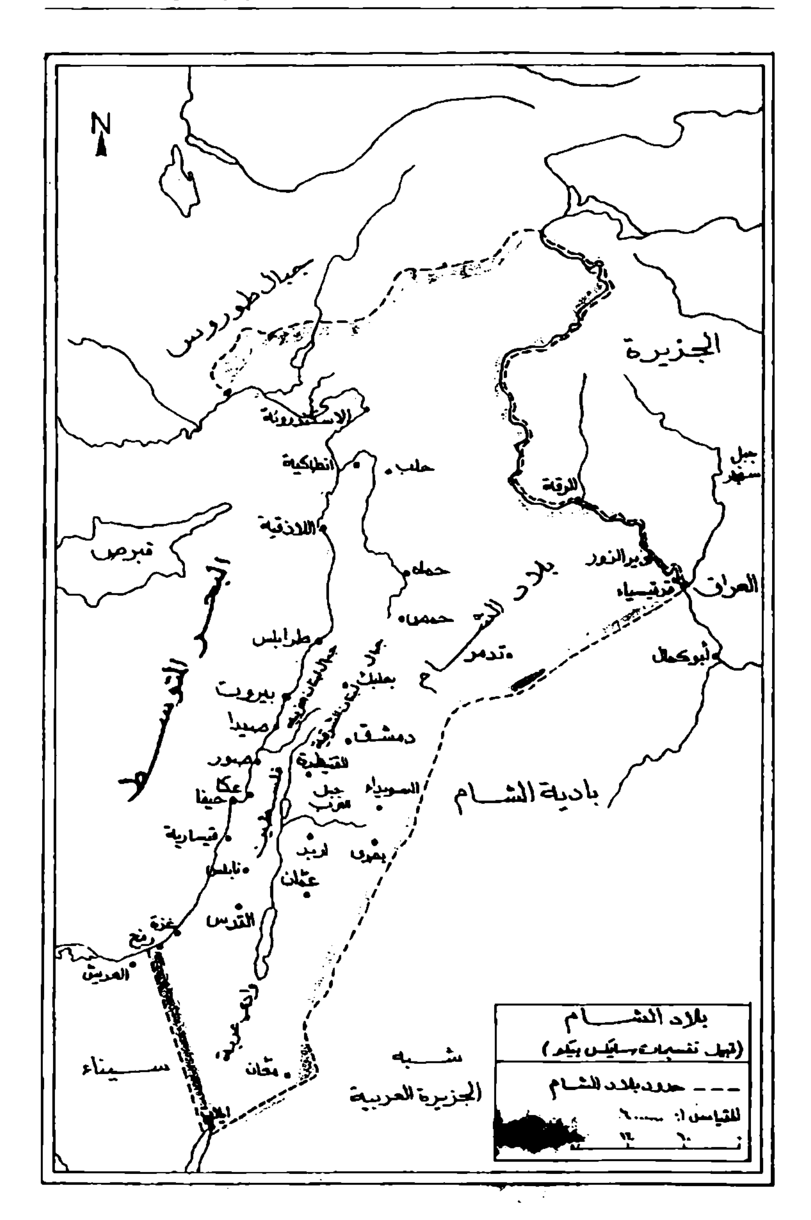
- منطقة سوريا الداخلية (أ) والمنطقة الزرقاء (سوريا الساحلية) = منطقتا نفوذ فرنسيتان.

- منطقة العراق الداخلية (ب) والمنطقة الحمراء (العراق الساحلية لجهة الخليج العربي)= منطقتا نفوذ إنكليزيتان.

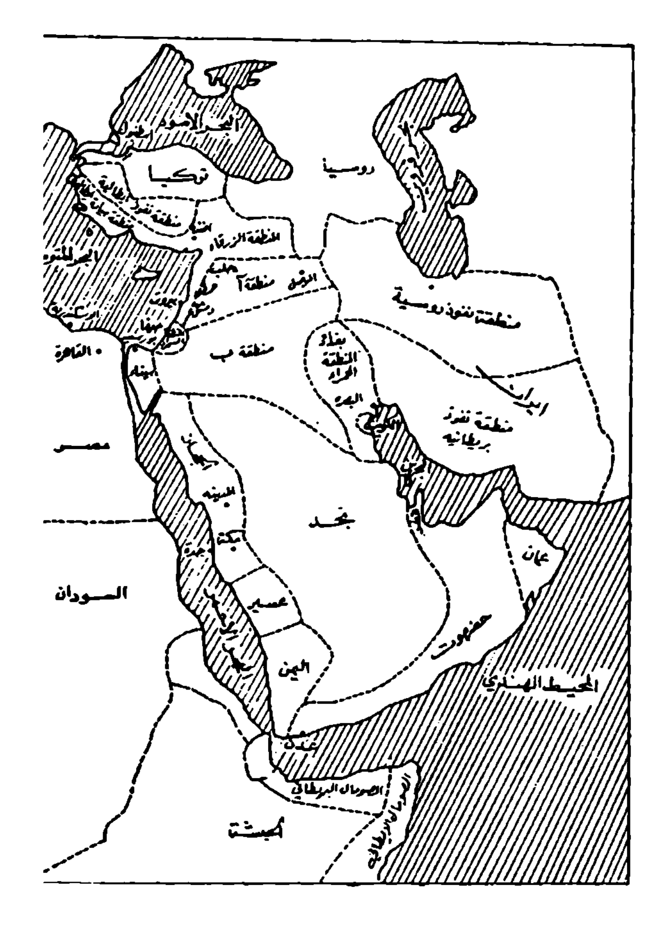
- أمّا المنطقة السمراء فتنشأ فيها إدارة دولية يعيّن شكلها بعد استشارة روسيا وباقي الحلفاء وممثّلي شريف مكّة، وهذه المنطقة هي (فلسطين)، والجدير بالذكر أنّ منطقة الجليل الأعلى لم تكن ضمن المنطقة السمراء هذه بل كانت ضمن المنطقة الزرقاء أي منطقة النفوذ الفرنسي، وبكلمة أخرى، كانت ملحقة بلبنان، ممّا يدلّ على أنّ اقتراح الجنرال دي بوفور دوتبول هو الذي كان سيعمل به في الأساس.

وفي الثالث من شباط عام ١٩١٩ رفعت المنظّمة الصهيونية العالمية، بدعم من وزارة الخارجية البريطانية، مذكّرة رسميّة إلى المجلس الأعلى لمؤتمر الصلح المنعقد في (فرساي) بفرنسا، ومن ضمن ما طالبت به هذه المذكّرة، حدوداً لفلسطين - إسرائيل المستقبل - «تبدأ في الشمال، عند نقطة على شاطىء البحر الأبيض المتوسّط في جوار مدينة صيدا، وتتبع مفارق المياه عند تلال سلسلة جبال لبنان، حتى تصل إلى جسر القرعون، فتتجه منه إلى البيرة متّبعة الخط الفاصل بين وادي القرعون ووادي التيم، ثم تسير في خطّ جنوبي متّبعة الخط الفارق بين المنحدرات الشرقية والغربية لجبل الشيخ (حرمون) حتى جوار بيت جن...»(٨).

وما أن باشرت بريطانيا بممارسة إنتدابها على فلسطين حتى بدأت، بتأثير من الضغط الصهيوني عليها، تخطّط لتنفيذ وعد بلفور الصادر عام


N
جبال طوروس
الجزيرة
الإسكندرونة
انطاكية
حلب
اللاذقية
قبرص
البحر المتوسط
الرقة
جبل سنجار
دير الزور
قرقيسياء
العراق
حماه
حمص
طرابلس
تدمر
أبوكمال
بعلبك
بيروت
صيدا
دمشق
صور
القنيطرة
عكا
حيفا
السويداء
جبل العرب
بادية الشام
قيسارية
اربد
بصرى
نابلس
عمان
القدس
غزة
رفح
العريش
سيناء
معان
شبه الجزيرة العربية
بلاد الشام
حدود بلاد الشام
للقياس

خارطة توضيحية
لاتفاقية سايكس - بيكو (١٩١٦)



(عن كتاب: السياسة الدولية في الشرق العربي، جـ ٤: ٢٠٣ للدكتور عادل

١٩١٧ والقاضي بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وبدأت الصهيونية، من جانبها، تمارس ضغطاً كبيراً على فرنسا، الدولة المنتدبة على لبنان وسوريا، كي تتمكّن من إقناعها بالتنازل عن الحدود المرسومة حسب إتفاقية سايكس - بيكو، وذلك لمصلحة فلسطين، أي - إسرائيل المستقبل -، وحركت الرأي العام اليهودي ضدّها، ووقفت بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية إلى جانب المطالب الصهيونية، بينما أصرّت فرنسا على موقفها المبدئي وتمسّكها بإتفاقية سايكس - بيكو، وقام الجنرال البريطاني «أللنبي» بتعديل هذه الحدود لمصلحة الصهيونية، وذلك بأن أدخل أراضي الحولة ضمن حدود فلسطين، عندما دخل بجيوشه سوريا ولبنان، كما أبرق إلى حكومته مؤيّداً المطالب الصهيونية. وسعت شخصيات أميركية صهيونية المسعى نفسه، إلاّ أنّ الجنرال غورو، قائد القوّات الفرنسية في سوريا ولبنان آنذاك، رفض الإذعان لهذه المطالب رفضاً باتاً[٩].

وفي كانون الثاني عام ١٩٢٠ أُلّفت في فرنسا حكومة إشتراكية جديدة، وقد اتخذت هذه الحكومة، في سياستها بالشرق الأوسط، خطاً متشدّداً، بحيث ازدادت تمسّكاً بالحدود المرسومة وفقاً لإتفاقية سايكس - بيكو، وأوفدت الحركة الصهيونية أحد قادتها (ناحوم سوكولوف) لمقابلة رئيس الجمهورية الفرنسية آنذاك، لكنه لم ينل منه أيّة تنازلات إقليمية[١٠].

إلاّ أنّه في منتصف عام ١٩٢٠ اتفقت الدولتان الحليفتان، بريطانيا وفرنسا، على تخطيط الحدود بين سوريا ولبنان وفلسطين والعراق، ورسم الجنرال غورو الحدود الحالية للبنان في آب من العام نفسه، وبعد الإتفاق مع الحكومة البريطانية، فجاء هذا الإتفاق يسلخ عن المنطقة الزرقاء قطاع الجليل الأعلى بكامله ويضمّه إلى المنطقة السمراء أي إلى فلسطين، فيحقّق الصهيونيون جزءاً من أطماعهم بأرض لبنان، دون أن يحققوا كلّ أطماعهم

فيها، وقد عبّر الصهيونيون عن سخطهم على هذا الإتفاق في المؤتمر الثاني عشر الذي عقدته منظّمتهم سنة ١٩٢١ حيث أظهروا عدم رضاهم عن حلّ مسألة الحدود الشمالية مع دولة «لبنان الكبير» المنشأ حديثاً، زاعمين أنّ حلّ تلك المسألة لم يكن لمصلحة الصهيونية أبداً، وجاء في القرار الذي اتخذه مؤتمرهم ذلك الحين ما يلي:

«... ويجد المؤتمر نفسه ملزماً بالإعراب عن أسفه على أنّ مسألة الحدود الشمالية لأرض إسرائيل لم تجد سبيلها إلى حلّ مرض حتى الآن، على الرغم من جميع المساعي التي بذلتها اللجنة التنفيذية... ويأمل المؤتمر أن تستجيب الحكومة الفرنسية لمصالح الشعب اليهودي وتفي بها»(١١).

لقد كان الحدّ الشمالي لفلسطين، وفقاً لإتفاقية سايكس بيكو، يمرّ بالزيب شمال عكا حتى الطابغة شمال طبرية، وفي تشرين الثاني سنة ١٩١٨ رسمت اللجنة الإستشارية الصهيونية لفلسطين الحدود الشمالية للدولة اليهودية فجعلتها تمتدّ من الليطاني إلى بانياس، وجاء هربرت صموئيل أوّل مفوّض سام بريطاني في فلسطين، وكان أحد زعماء الصهيونية في بريطانيا، فاقترح أن تصل الحدود الشمالية لفلسطين حتى الضفّة الشمالية لليطاني، وكان موقف بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية مؤيّداً لهذه المطالب الصهيونية، إلاّ أنّ فرنسا وقفت بحزم في وجه هذه المطامع، وكان إعلان فرنسا لدولة لبنان الكبير عام ١٩٢٠ ضربة قاسية لمطامع الصهيونية في جنوب لبنان ومياه الليطاني، وإن تكن قد تمكّنت من اجتزاء الجليل الأعلى بكامله وهو جزء من بلاد بشارة أو جبل عامل، كما سنرى. وعندما وقع اتفاق الحدود بين بريطانيا وفرنسا في كانون الأوّل عام ١٩٢٠، ورسم الحدّ الشمالي لفلسطين بحيث يمتدّ من رأس الناقورة غرباً حتى المالكية فالمطلّة شرقاً، لم يُرض ذلك الحركة الصهيونية،

وصبّت جام غضبها على فرنسا، وحين صدر قرار التقسيم عام ١٩٤٧، أُدخل الجليل الأعلى ضمن حدود الدولة العربية الفلسطينية التي أقرّها هذا القرار، فشكّل ذلك عازلاً بين إسرائيل ولبنان، إلاّ أنّ إسرائيل لم تلبث أن استولت على الجليل الأعلى دافعة بحدودها نحو الشمال حتى أصبحت ملاصقة لحدود لبنان.

وعودة إلى مشروع الجنرال دي بوفور دوتبول عام ١٨٦١، فقد رفضت الدول الكبرى، وكذلك الدولة العثمانية، تبنّي هذا المشروع، إلاّ أنّ سفراء هذه الدول اتفقوا فيما بعد، مع الباب العالي، على وضع نظام خاص لجبل لبنان سمّي نظام «المتصرّفية» وسمّي الحاكم الذي سيحكم جبل لبنان بموجب هذا النظام، متصرّفاً مطلق الصلاحية. وفي التاسع من حزيران عام ١٨٦١ أقرّ هذا النظام المؤلّف من ١٧ مادة وعين داود أفندي الأرمني أوّل متصرّف لجبل لبنان على سبيل التجربة لمدّة ٣ سنوات تمّ بعد انقضائها إدخال بعض التعديلات على النظام الموضوع ثم أقرّ من جديد وأعلن في التاسع من أيلول عام ١٨٦٤. ويقضي هذا النظام بأن يكون جبل لبنان متصرّفية مؤلّفة من ٧ أقضية هي: الكورة، والبترون، وكسروان، وزحلة، والمتن والشوف، وجزين، ويقسم كلّ قضاء إلى عدّة مديريات، وبين هذه المديريات إثنتان ممتازتان ومرتبطتان مباشرة بالمتصرّف هما: دير القمر والهرمل. وقد حدّدت المادة الثالثة من هذا النظام جبل لبنان كما يلي:

- قضاء الكورة: يشتمل على الكورة من الجهة التحتية والأرض المجاورة الآهلة بأقوام من الروم، إلاّ أنّ قصبة القلمون التي على ساحل البحر ومعظم سكّانها من المسلمين فإنها مستثناة من ذلك.

- قضاء البترون: يشتمل على جبة بشري والزاوية وبلاد البترون.

- قضاء كسروان: يشتمل على بلاد جبيل وجبة المنيطرة والفتوح وكسروان الأصلي حتى نهر الكلب.

- قضاء زحلة: يشتمل على زحلة وضواحيها.

- قضاء المتن: يشتمل على المتن مع ساحل النصارى وأرض القاطع وصليما.

- قضاء الشوف: يبتدىء من جنوب طريق الشام حتى جزين.

- قضاء جزين: يشتمل على جزين وإقليم التفاح.

وقد استمرّ العمل بهذا النظام حتى ١٨ حزيران ١٩١٥ إذ أبطلت تركيا العمل به بعد أن دخلت الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا وألحقت جبل لبنان بولاياتها[١٢].

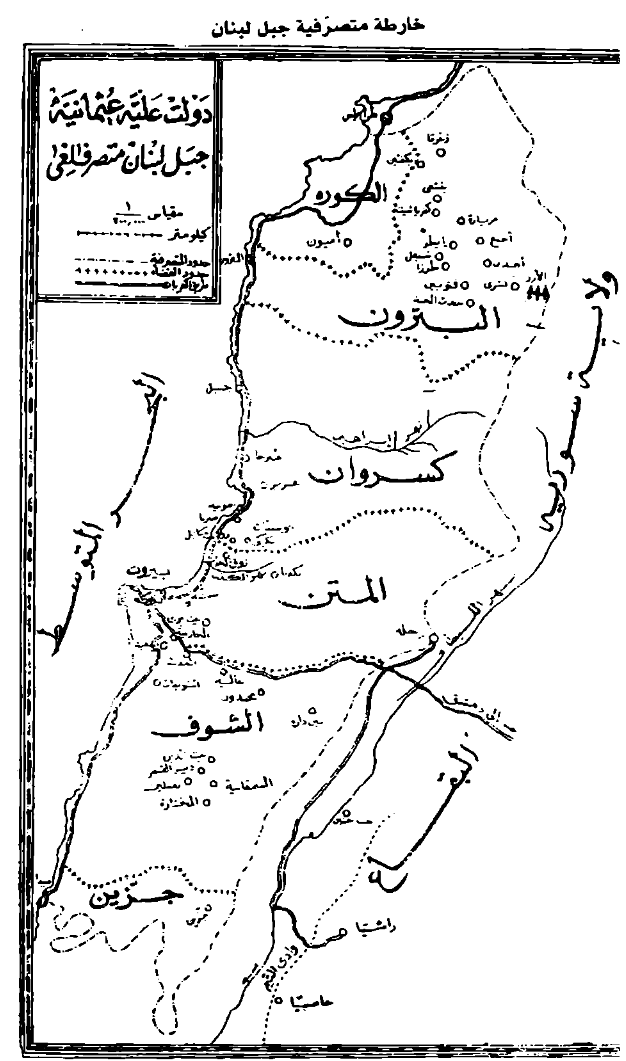
(أنظر: الجزء الخامس: ألمتصرفية)

٢ - غياب مفهوم الدولة في بلاد الشام: الأيالة والسنجق

إذن، كان القرن التاسع عشر قرن انتهاء الإمارة، وبداية تبلور كيان دولي عرف أوّلاً بالقائمقاميتين ثم بالمتصرّفية وأخيراً بدولة لبنان الكبير، ثم بالجمهورية اللبنانية، فماذا كان عليه الحال في العهد المعني؟ أي في القرنين السادس عشر والسابع عشر؟

لا شك أنّ مفهوم الدولة كان غائباً غياباً تاماً في العهد المعني وبعده في العهد الشهابي، ليس في المقاطعات اللبنانية فحسب، بل في بلاد الشام كلّها، فقبل عام ١٨٦١ كانت جميع المناطق التي تشكّل اليوم الجمهورية اللبنانية بحدودها الحالية أجزاء من الولايات الشامية الخاضعة للسيادة العثمانية،

خارطة متصرفية جبل لبنان



(عن كتاب: لبنان منذ عهد المتصرّفية إلى بداية الإنتداب، للدكتور أحمد طربين).

وقد ورث العثمانيون، منذ مطلع فتحهم لهذه البلاد عام ١٥١٦، من جملة ما ورثوه عن أسلافهم المماليك، التقسيم الإداري الذي كان معمولاً به في بلاد الشام في أواخر العهد المملوكي، مع بعض التعديل، فبينما كانت سوريا تقسم في العهد المملوكي إلى ٦ نيابات هي: دمشق وحلب والكرك وطرابلس وحماة وصفد[١٣] إذا بالحكم الجديد يستبدل «النيابة» المملوكية «بالولاية» أو الايالة» العثمانية (والايالة بالتركية تعني الولاية بالعربية) ويعمد في العام ١٥٢٠ إلى تبنّي تقسيم جديد لسوريا حيث قسمها إلى ثلاث ولايات أو ايالات هي: دمشق وطرابلس وحلب، وقسم كلّ ولاية إلى عدد من الألوية أو السناجق، وقد ظلّ هذا التقسيم معمولاً به حتى أواخر الحكم العثماني. فكانت ولاية دمشق تتضمّن عشرة سناجق منها صيدا وبيروت والقدس ونابلس وصفد وغزّة جنوباً وتمتدّ شمالاً حتى تبلغ تدمر، كما كانت ولاية طرابلس تتضمّن خمسة سناجق وحلب تسعة[١٤]، وكان يعهد بشؤون الأيالة (أو الولاية) إلى والٍ يمنح لقب (باشا)، ومن هذا اللقب استمدّت الولاية إسم (بشالق Pachalik) أيضاً. وكان هذا الوالي أو الباشا يسمى (بيلربك Beylerbey) أي (بك البكوات)، وهو برتبة (مير ميران) أي (أمير الأمراء)، كما يعهد بشؤون اللواء أو السنجق إلى (بك) يسمّى (سنجق بكي) أي (بك اللواء) وهو برتبة (ميرلوا) أي (أمير اللواء)، فكانت الدولة، إذ تُقطِع واحداً من الولاة أو (الباشوات) مقاطعة أو (ولاية) ما، تفرض عليه أن يجبي الضرائب والرسوم المترتّبة على هذه المقاطعة للدولة العلية، ويقدّم لها عدداً من المحاربين تفرضه هي بعد أن يجهّزهم بالأسلحة والذخائر والخيول، وكان هو بدوره يولّي من هم دونه، من الإقطاعيين، السناجق أو (الألوية) ويفرض عليهم جباية الحصّة المترتّبة على سناجقهم من الضرائب وإعداد العدد اللازم من المحاربين. ففي عهد السلطان سليم الثاني، كان على ولاية دمشق أن تقدّم في

حالة الحرب ٢١٩٧ مقاتلاً، وعلى ولاية طرابلس أن تقدّم ١٨٢١ مقاتلاً، وعلى ولاية حلب أن تقدّم ٢١٤٥ مقاتلاً، ولا يخفى أنه كان على الوالي أو الباشا (وهو المقاطعجي الأكبر وصاحب المقاطعة) وكذلك (البك) أن يشتري مقاطعته بالمال عاماً بعد عام[١٥]، مقابل ذلك، لم يكن معظم هؤلاء يتقاضون رواتب محدّدة وإنّما كانوا يستفيدون من حصّة من الضرائب التي يجبونها، إلاّ أنّ بعض الولايات والألوية كان مستثنى من هذا النظام حيث يخصّص لمن يتسلّمه من الولاة والأمراء رواتب محدّدة تسمّى (ساليانة)[١٦].

ويذكر ساطع الحصري أنه اطّلع على رسالة تركية عنوانها «قوانين آل عثمان در مضامين دفتر ديوان» أي «قوانين آل عثمان في ما يتضمّنه دفتر الديوان» وقد وضعها مؤلّفها «عين علي أفندي» في أوائل القرن السابع عشر ميلادية (١٠١٨هـ = ١٦٠٩م.)، وكان أميناً للدفتر الخاقاني بالدولة العثمانية في ذلك الحين. ويصف الأستاذ الحصري هذه الرسالة بأنها «أشمل الوثائق التي أطلعنا عليها عن التقسيمات الأدارية في الدولة العثمانية»، وقد جاء في هذه الرسالة أنّ أيالة الشام (دمشق) كانت تقسم في ذلك الحين (أوائل القرن السابع عشر)، إلى ١١ لواء، وإنّ مجموع العساكر المفروضة على هذه الولاية هو ٢٦٠٠ خيّال، وإن أيالة طرابلس كانت تقسم إلى ٥ ألوية ومجموع العساكر المفروضة عليها هو ١٤٠٠ خيّال، وإنّ أيالة حلب كانت تقسم إلى ٧ ألوية ومجموع العساكر المفروضة عليها هو ٢٥٠٠ خيال[١٧].

وجدير بالذكر أنّ السلطان سليم الأوّل العثماني (١٥١٦) ميّز إمارة الشوف بامتياز خاص إذ عهد إلى الأمير فخر الدين الأوّل المعني حكم هذه الإمارة، وقد بقيت هذه المقاطعة في عهدة المعنيين أمراء البلاد حتى أواخر القرن السابع عشر (١٦٩٧)[١٨].

وقد أنشئت ولاية طرابلس بعد الفتح العثماني بأكثر من نصف قرن، أي سنة ١٥٧٩[١٩]، أمّا ولاية صيدا فقد أنشئت سنة ١٦٦٠ بعد أن سلخت بعض المقاطعات عن ولاية دمشق وألحقت بالولاية الجديدة[٢٠]، كما ألحقت بها مدينة بيروت[٢١] وسنجق صفد[٢٢]. «بغية تأمين مراقبة صارمة على لبنان حيث بدأت تطلّعات الإستقلال في عهد فخر الدين الثاني»[٢٣].

٣ – المقاطعات اللبنانية في التاريخ وانتماءاتها الإدارية والسياسية

ونعني بالمقاطعات اللبنانية تلك المقاطعات من بلاد الشام التي كانت تابعة في الأصل، وفي العهدين المملوكي والعثماني، إلى نيابات أو ولايات شامية (حسب التوزيع الإداري الذي وضعه المماليك أو العثمانيون لهذه البلاد)، والتي كوّنت، بعد ثلاثة قرون من حكم الأمير فخر الدين المعني الثاني أمير الشوف. دولة لبنان الكبير.

وهذه المقاطعات هي:

١ – إمارة الشوف. ⎤
٢ – إمارة وادي التيم. ⎬ (من ولاية دمشق)
٣ – إمارة البقاع. ⎦
٤ – مقاطعة جبل عامل (من ولاية صفد ثم صيدا فعكا).
٥ – سنجق طرابلس (من ولاية طرابلس).

١ – إمارة الشوف:

الشوف منطقة جبلية تمتدّ من وادي بيت الدين إلى سطح الجبل المسمّى «بجبل الباروك» وتقسم إلى قسمين: الشوف الحيطي (نسبة إلى الحيطان التي

عمّمها المعنيون في أبنيتهم التي بنوها بتلك المنطقة)، وقاعدته المختارة، ومن قراه: مجدل معوش ومرستي ووادي الست ومشمشية وكفرنيس وحارة جندل وعين قنية وعماطور وبتاتر وبطمة ونيحا، وفي هذا القسم تقع قلعة شقيف نيحا المسمّاة أيضاً بإسم «تيرون». والشوف السويجاني، (نسبة إلى تصغير السياج، وذلك لأنّ المعنيين كانوا يحيطون حظائر مواشيهم وخيامهم في تلك المنطقة بالسياج) وقاعدته بعقلين، وهي أوّل مكان عمّر في الشوف، ومن قراه: عينبال وغريفة والجديدة والخريبة والمزرعة والكحلونية وبيقون والسمقانية[٢٤]. إلاّ أنّ الشوف امتدّ بعد ذلك واتسع، وخصوصاً في العهد المعني، حتى أصبحت اللفظة تعني جبل الشوف بكامله ويضمّ سبع مقاطعات هي:

١ - **مقاطعة الشوف**: المذكورة آنفاً.

٢ - **مقاطعة المناصف**: وهي من وادي بيت الدين إلى جسر القاضي، قاعدتها دير القمر، ومن قراها: بشفتين وكفر قطرا وكفر فاقود ودير بابا وكفرحيم ودير كوشي وكفر حمل.

٣ - **مقاطعة الشحار**: وهي من جسر القاضي إلى الدامور، قاعدتها عبيه، ومن قراها: رأس المطير، والبنية، وكفر متى، ودقون، والناعمة، والمعلّقة، وبعورتا، وعين درافيل، والدامور.

٤ - **مقاطعة الغرب**: وهي قسمان: الغرب الأعلى (أو الأقصى) وهو من طريق دير القمر إلى عاليه فنهر الغابون، قاعدته عيتات ثم عاليه ومن قراه: بيصور وشملان (أو شملال) وعيناب ودفون ورمحالا ومجدليا ويمكين والقماطية وبخشتيه وبسوس والكحالة وسوق الغرب وبدادون وحومال وبليبل. والغرب الأدنى (أو الأسفل) وهو من طريق دير القمر إلى

الشويفات، قاعدته الشويفات، ومن قراه: بشامون وعين عنوب ودير قوبل وسرحمول (أو صرحمور) وعرمون وفساقين وعير كسور.

٥ - **مقاطعة الجرد**: وهي من نهر الغابون (آخر حد للغرب الأعلى) إلى نهر الصفا، حتى المديرج، قاعدتها بتاتر، ومن قراها: بحمدون، وشانيه، والرويسة، وشرتون، وكفر عميه، والدوير، وشوريت، والرملية، والمشرفة، وبدغان، ومجدل بعنا، وشارون، ورشميا، وعين تراز.

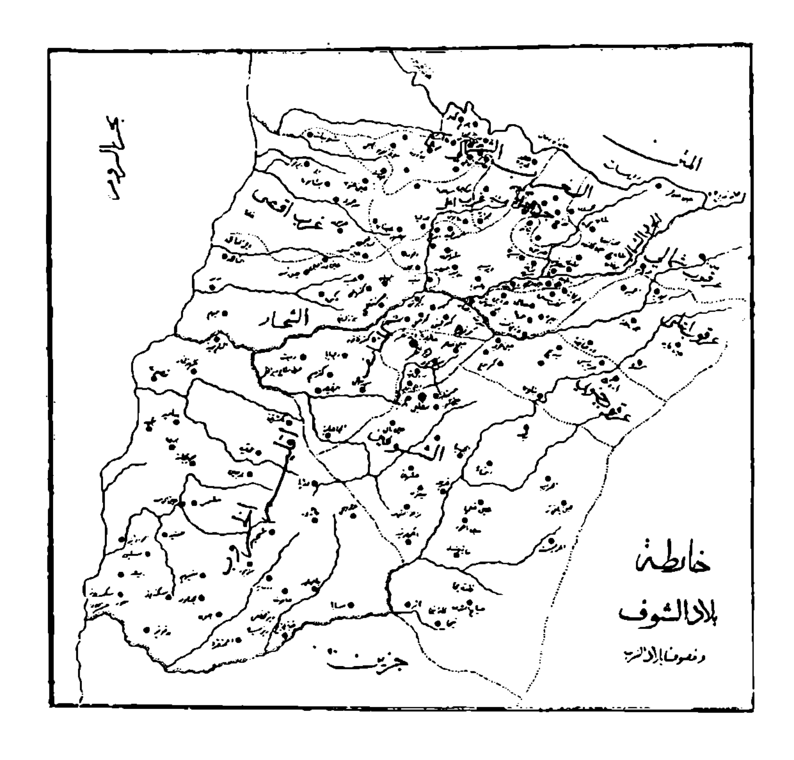
وهي قسمان: الجرد الجنوبي وقاعدته رشميا، والجرد الشمالي وقاعدته بتاتر.

٦ - **مقاطعة العرقوب**: من المعاصر إلى سطح جبل الباروك ومن وادي الست إلى أوّل الشوف، وهي قسمان: العرقوب الأعلى (أو الشمالي) قاعدته عين زحلتا، ومن قراه: اغميد وبمهريه والورهانية، والعرقوب الأدنى (أو الجنوبي) قاعدته الباروك، ومن قراه: بتلون، وعين وزين، وبريح، والفريديس، وكفر نبرخ، وعين دارة.

٧ - **مقاطعة إقليم الخروب**: قاعدتها شحيم، ومن قراها: مزبود والمغيرية وعانوت والبرجين والمعنية والوردانية وسبلين وحصروت وجون والبرغوثية ومجدلونا وداريا والرميلة وعلمان وكترمايا والزعرورية والزيتونية والدبية والقريعة وبسابا وبرجا[٢٥].

في أوائل القرن الثاني عشر ميلادية، كان الشوف، وبلاد الغرب المجاورة لبيروت، إمارة يحكمها الأمير بحتر من التنّوخيين، وفي العام ١١٢٠م. أرسل طفتكين صاحب دمشق الأمير معن الأيوبي مع عشيرته إلى البقاع، ومنها إلى الجبال المطلّة على ساحل بيروت، ليقاتل الصليبيين الذين كانوا قد احتلّوا السواحل، وما أن قدم الأمير معن إلى تلك الجبال حتى إتصل بأمراء الغرب من

خارطة بلاد الشوف
وخصوصاً بلاد الغرب



(عن كتاب تاريخ بيروت، لصالح بن يحيى، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط ٢ ١٩٢٧، وهو نسخة مأخوذة عن مخطوطة للكتاب موجودة بدار الكتب الوطنية بباريس.
(Fond arabe 1670, ancien fond 821) (حققها ونشرها الأب لويس شيخو اليسوعي).

التنوخيين وأقام معهم أوثق صلات المودّة والتحالف والقربى، وبادله الأمير بحتر، أمير الغرب، المودّة والثقة وأنزله في صخراء بعقلين من بلاد الشوف، وكانت خالية من العمران والسكان، فهجر الأمير معن المضارب والخيام وأمدّه الأمير التنوخي بالبناة الذين شيّدوا له مساكن من الحجر، فسكنها الأمير معن وحثّ عشيرته على البناء، فعمرت المنطقة وكثر سكّانها، واتخذ الأمير معن من بعقلين قاعدة له، وظلّ أميراً عليها حتى توفّي عام ١١٤٩ ميلادية، فكان جدّ الأمراء المعنيين الذين حكموا الشوف بعده وانتسبوا إليه[٢٦].

وقد خلف الأمير معن في حكم الشوف ولده الأمير يونس، فالأمير يوسف بن يونس، فالأمير سيف الدين بن يوسف، فالأمير عبدالله بن سيف الدين، فالأمير علي بن عبدالله، فالأمير بشير بن علي، فالأمير محمّد بن بشير، فالأمير سعد الدين بن محمّد، فالأمير عثمان بن سعد الدين، فالأمير أحمد بن عثمان، فالأمير ملحم بن أحمد، فالأمير يوسف بن ملحم، فالأمير فخر الدين بن عثمان (وعثمان هو أخو الأمير يوسف بن ملحم). وفي عهد فخر الدين بن عثمان (أو فخر الدين الأوّل المعني) انتقلت إمارة الشوف بصورة نهائية من الأمراء التنوخيين إلى أنسبائهم المعنيين، وذلك في مطلع الفتح العثماني وبعد وقعة مرج دابق عام ١٥١٦م، عندما خلع السلطان سليم الأوّل العثماني على الأمير فخر الدين خلعة الإمارة «وفوّض إليه كلّ أمور الشام وجعله مقدّماً على الجميع»[٢٧].

ويقول الدكتور عادل إسماعيل بهذا الصدد: «كان لدى سليم الأوّل من الحكمة ما جعله يقبل بأن يحكم الدروز أمراؤهم، فأعطى فخر الدين الأوّل إمارة الشوف التي بقيت مقاطعة معنية حتى القرن السابع عشر، بينما أعطيت بقية المقاطعات السورية واللبنانية في هذا العهد إلى حكّام أجانب»[٢٨].

ولكن هذا القول يبقى خاضعاً للمناقشة خصوصاً أنّ وادي التيم والبقاع وجبل عامل، على الأقل، من المقاطعات الشامية، لم تخضع في هذا العهد لأيّ حاكم أجنبي.

وقد ظلّت إمارة الشوف، في العهد التنوخي، ثم في العهد المعني بعده، تابعة إدارياً لولاية دمشق، وذلك حتى عام ١٦٦٠ حيث أنشئت ولاية صيدا، فأصبحت هذه الإمارة ملحقة بها. أما من حيث الإنتماء السياسي، فقد ظلّ التنوخيون، طوال حكمهم لبلاد الغرب، موالين لحكّام الشام من المماليك، يساعدونهم في قتالهم ضد الصليبيين، وكذلك المعنيون في أثناء حكمهم للشوف. إلاّ أنّه، لمّا ضعفت شوكة الحكم المملوكي وبدت عليه إمارات التردّي، إنقلب الحاكم المعني في الشوف، وهو الأمير فخر الدين الأوّل المعني، على السلطان المملوكي، قانصوه الغوري، وانحاز إلى العثمانيين في معركة مرج دابق سنة ١٥١٦م. إلاّ أنّ ولاء المعنيين لحكّام الشام من الولاة العثمانيين لم يدم طويلاً، فكان الصراع بين الإمارة المعنية والولاية العثمانية في دمشق، مريراً ودموياً، وقد بلغ أوجه في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني (١٥٩٠ - ١٦٣٣).

٢ - وادي التيم:

منطقة جبلية تقع بين البقاع وحرمون، يحدّها شرقاً وادي العجم وإقليم البلان وشمالاً سهل البقاع وغرباً مرجعيون وجنوباً سهل الحولة[٢٩].

وقد جاءت هذه التسمية نسبة إلى «تيم اللّه بن ثعلبة» وهي قبيلة عربية، يمنيّة الأصل، نزحت مع القبائل النازحة من الجزيرة العربية في العصر الجاهلي (في القرون الثلاثة الأولى للميلاد) ونزلت في جبل عامل (أو بلاد بشارة) ثم استقرّت بعد ذلك في المنطقة التي سمّيت بإسمها، ويقسم وادي

التيم إلى قسمين: الوادي الأعلى وقاعدته راشيا (الوادي) نسبة إلى الوادي نفسه، والوادي الأسفل وقاعدته حاصبيا(٣٠).

في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي كان وادي التيم منطقة خاضعة للحكم الصليبي، وقد جعل هؤلاء بلدة حاصبيا قاعدة لهم وحصّنوها بالجند وبآلات الحرب، ولمّا نزح الشهابيون، في عهد الملك العادل نور الدين زنكي، ملك الشام، من حوران سنة ١١٧٢م.(٣١)، (وكانوا قد قدموا إليها مع الموجات الأولى للفتح العربي)، إستقرّوا، بقيادة أميرهم الأمير منقذ بن عمرو الشهابي، في وادي التيم، في صحراء الظهر الأحمر، بين الكنيسة والجديدة، وراحوا يقاتلون الصليبيين بضراوة وبأس شديدين فهزموهم في معارك عدّة واحتلّوا حاصبيا(٣٢)، واتصلوا بالمعنيين في الشوف وكان أميرهم يومذاك الأمير «يونس»، وتمّ بين العائلتين الشهابية والمعنية تحالف وطيد أدّى إلى انتصاراتهما المتابعة على الصليبيين، ثم إلى المصاهرة فالإتحاد الوثيق بين المقاطعتين: وادي التيم والشوف(٣٣). وقد ظلّ هذا التحالف قائماً طوال حكم المعنيين والشهابيين في هذه البلاد، أي حتى منتصف القرن التاسع عشر ميلادية، وكان من أثر هذا التحالف وهذه المصاهرة أن تسلّم الأمراء الشهابيون حكم البلاد المعنية، بعد أن انقرضت سلالة المعنيين بوفاة آخر أمرائهم الأمير أحمد المعني عام ١٦٩٧م. فانتقل حكم بلاد الشوف ووادي التيم بعد ذلك إلى عائلة واحدة هي العائلة الشهابية.

يلتصق تاريخ وادي التيم، إذن، منذ أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، بتاريخ الأسرة الشهابية التي التزمت، في إنتمائها السياسي، خطّ الدولة الأيوبية المناهضة للصليبيين، ثم خط الدولة المملوكية فيما بعد، مع الإحتفاظ بالتحالف مع المعنيين بصورة أمينة وجدية، حتى أنّ أميرهم، الأمير منصور، لم يتردّد في

أن يشارك الأمير فخر الدين المعني الأوّل، أمير الشوف، وجان بردي الغزالي نائب المماليك في الشام، في انقلابهما على السلطان المملوكي قانصوه الغوري في مرج دابق سنة ١٥١٦م، وانحيازهم إلى الدولة العثمانية، وكانت مكافأة الأمير منصور على ذلك أن خلع السلطان العثماني عليه «وأقطعه بلاد وادي التيم»(٣٤) وقد استمرّ هذا التحالف بين حكّام وادي التيم من الشهابيين وحكّام الشوف من المعنيين، طوال حكم العثمانيين لبلاد الشام، كما ناصر الشهابيون المعنيين في حروبهم المتعدّدة ضدّ العثمانيين.

هذا من الناحية السياسية، أمّا من الناحية الإدارية، فقد كان وادي التيم جزءاً من نيابة دمشق في العهد المملوكي، وظلّ جزءاً من ولاية دمشق في العهد العثماني، ودخل فترة من الزمن في الحكم المعني ثم انضمّ إلى الشوف في العهد الشهابي، ولم يصبح وادي التيم جزءاً من لبنان إلاّ في العام ١٩٢٠، عام إعلان دولة لبنان الكبير.

في عام ١٦٨٨ - ١٦٨٩ كتب الرحّالة الفرنسي «دي لا روك» (De la Roque) عن وادي التيم ما يلي: «وادي التيم تابع لحكومة دمشق، ولكن يحكمه سيّد درزي لا يعترف بسيّد أعلى سوى الأمير الكبير الذي يقيم في بلاطه بدير القمر، وهي قرية صغيرة في بلاد الشوف»(٣٥).

ورغم أنّ لبنان الحديث فصل عن وادي التيم قسماً منه هو الوادي الأعلى وقاعدته راشيا وألحقه بالبقاع، فلا يزال ذلك الوادي يحمل إسمه وتاريخه، ولا تزال حاصبيا قاعدة له.

٣ – البقاع:

عرّفه ياقوت الحموي بأنه «أرض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق، فيها قرى كثيرة ومياه غزيرة نميرة»(٣٦) وعرف أيضاً «ببقاع العزيز» نسبة إلى

الملك العزيز إبن السلطان صلاح الدين الأيوبي، كما عرف عند الإفرنج بسوريا المجوّفة (Coele - Syria)، وعرف عند العرب بإسم «مرج الروم»، وهو سهل فسيح يمتدّ بين جبل لبنان والجبل الشرقي ويقسم إلى قسمين: البقاع الشرقي والبقاع الغربي[٣٧]، ومن أهمّ مدنه وقراه قديماً وحديثاً: بعلبك وسرعين ورأس بعلبك واللبوة والهرمل وكرك نوح وقب الياس (أو قبر النبي الياس) وعنجر (أو عين الجر، ومنها كانت تشرب معظم قرى البقاع)، ومشغرة[٣٨]، وراشيا، وقد ألحقت به من وادي التيم، وزحلة.

كان البقاع، في عهد المماليك، تابعاً إدارياً لنيابة دمشق، وظلّ في العهد العثماني تابعاً لولاية دمشق أيضاً، وقد حكمه أمراء من بني الحنش نحو قرنين، منذ أواخر القرن الرابع عشر حتى أواخر القرن السادس عشر الميلادي (١٣٨٩ - ١٥٩١ تقريباً) وأشهرهم ناصر الدين بن الحنش (١٤٩٩ - ١٥١٨)، ثم حكمه أمراء من آل حرفوش عدّة قرون، وبالتحديد من النصف الثاني من القرن السادس عشر إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أي نحو ثلاثة قرون، وكان أوّل من عرف منهم الأمير علي بن موسى الحرفوشي الذي قتل عام ١٥٩٢، وأخرهم الأميران سلمان وأسعد الحرفوشيان اللذان هزما في معركة بعلبك عام ١٨٦٤، وقد استسلم أسعد بعدها للسلطات العثمانية فنفته إلى أدرنة، أما الأمير سليمان فوقع في الأسر ومات فيه بدمشق عام ١٨٦٦م، وبذلك انقرضت هذه الأسرة التي حكمت البقاع زمناً طويلاً[٣٩]. وتنسب هذه الأسرة إلى حرفوش بن خزاعة بن لحي من قبيلة مضر الذي قصد مع قومه بلاد الشام مقاتلاً في أثناء الفتوح وفي النصف الأوّل من القرن السابع الميلادي، واستقرّ في بعلبك بعد أن فتحها أبو عبيدة بن الجراح[٤٠].

وظلّ البقاع في عهد الأمراء الحرفوشيين تابعاً لولاية دمشق، وقد حكمه هؤلاء بصفتهم عمّالاً للدولة العثمانية من قبل ولاتها في الشام، إلاّ أنّ هؤلاء

الأمـراء كـانـوا يترجـحـون في الموالاة والـتـحـالـف بين والي دمشـق تـارة وبين أمراء الشوف من آل معن تارة أخرى وآل سيفا حكّام طرابلس تارة ثالثة، وقد تمكّن الأمراء المعنيون، ومن بعدهم الشهابيون، في فترات مختلفة من حكمهم، من الإستيلاء على أجزاء واسعة من البقاع، وأحياناً على البقاع كلّه، كما حصل بعد انتصار الأمير المعني فخر الدين الثاني على مصطفى باشا والي دمشق وحلفائه الحرفوشيين في عنجر سنة ١٦٢٣، وكما حصل بعد انتصار الأمير الشهابي ملحم على أسعد باشا العظم والي دمشق وحلفائه الحرفوشيين في برّ الياس سنة ١٧٤٨. وفي منتصف القرن التاسع عشر، وبعد أفول الحكم المصري عن بلاد الشام، عاد البقاع من جديد إلى ظلّ الحكم العثماني، حيث أضحى لواءً وظلّ تابعاً لولاية دمشق بإسم «لواء بعلبك وشرقي البقاع»، وتسلّم العمّال العثمانيون حكم هذا اللواء مباشرة، إلاّ أنّ هؤلاء العمّال لم يكونوا على وفاق مع الأمراء الحرفوشيين فأخذوا يضطهدونهم ويلاحقونهم[٤١] حتى أجهزوا عليهم نهائياً عام ١٨٦٤ كما قدّمنا، ولم يصبح البقاع جزءاً من لبنان إلاّ في العام ١٩٢٠ عام إعلان دولة لبنان الكبير.

٤ – جبل عامل:

جبل عامل أو جبل عاملة أو جبال بني عاملة أو جبل الجليل أو جبل الخليل أو بلاد بشارة، تلك هي الأسماء المتعدّدة التي عُرف بها قديماً جبل عامل من لبنان الجنوبي اليوم، أمّا تسميته بجبل عامل أو جبل عاملة أو جبال بني عاملة فهي نسبة إلى بني عاملة بن سبأ «وهو الحارث بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن يزيد بن كهلان بن سبأ»[٤٢] وهم قوم «من القبائل اليمانية التي خرجت إلى الشام عند سيل العرم ونزلوا بالقرب من

دمشق في جبل هناك يدعى بجبل عاملة»[٤٣]، وأمّا تسميته بجبل الجليل فقد أوردها اليعقوبي في كتابه «البلدان» إذ قال: «وجبل الجليل وأهلها قوم من عاملة»[٤٤]. وعُدّ هذا الإقليم من جند دمشق ولا يزال القسم الجنوبي منه والمغتصب من أرض فلسطين المحتلّة يعرف بإسم الجليل الأعلى، وأمّا تسميته بجبل الخليل فقد أوردها إبن الأثير في تاريخه[٤٥] دون أن يذكر سبباً لذلك، وأمّا تسميته ببلاد بشارة فهي نسبة إلى أحد حكّامه من بني عاملة المسمّى بالأمير «حسام الدين بشارة بن أسد الدين بن مهلهل بن سليمان بن أحمد بن سلامة العاملي، هكذا ساق نسبه إبن فتحون في تاريخه»[٤٦].

أمّا حدود جبل عامل، فهي، كما رواها معظم المؤرّخين، كما يلي:

شمالاً - نهر الأولي، وجنوباً - نهر القرن الجاري من شمال طير شيحا إلى البحر جنوب قرية الزيب، وغرباً - البحر المتوسّط، وشرقاً - أرض الخيط إلى الوادي المسمّى بعوبا إلى نهر الفجر في الحولة[٤٧].

وتذكر مجلّة «العرفان» لصاحبها الشيخ أحمد عارف الزين الحدود نفسها مع إضافة ما يلي: «وتدخل في هذا الحد صيدا وجزين وقسم من قرى عكا. على أنّ التقسيم والتقليم أصابا جبل عامل... فترى الكثيرين يفصلون صيدا عنه مع أنها عاصمته... ويقطعون عنه جزين... وكانت هذه القصبة ردحاً من الزمن عاصمة جبل عامل الدينية الكبرى... واقتطعت منه عدّة قرى هي تابعة لعكا من عهد الأتراك... واقتطع الاتفاق الإنكليزي الفرنسي الأخير عدداً من القرى منها هونين وقدس ويوشع والمالكية وحانوتا وتربيخا الخ..»[٤٨].

إلاّ أنّ أوضح تحديد لجبل عامل هو ما ذكره الشيخ أحمد رضا في مجلّة العرفان قال فيه: «وحدّ هذه الجبال (عاملة) يبتدىء من الشمال بمصبّ نهر

الأولي شمالي صيدا فتدخل مدينة صيدا فيه، ثم يذهب صعداً إلى الشرق شمالي قرية البرامية ويتجاوز في خطه قرية روم من جهة الشمال إلى أن يصل إلى جزين فيضمّ إليها واديها وشالوفها... ويقطع جبل التومات منحدراً إلى مشغرة ويتصل بنهر الليطاني من شمالي سحمر، ثم يذهب إلى أن ينحطّ على ينبوع نهر الحاصباني، ويتجه عندئذ جنوباً على مجرى النهر المذكور فيدخل فيه جبل الظهور ومشغرة وعين التينة وسحمر ويحمر وميدون وقلية وزلاية ولوسة من قرى البقاع الجنوبي، وتدخل فيه قرى كوكبا وبرغز وسوق الخان من ناحية حاصبيا، ثم ينتهي هذا الخط على ضفّة بحيرة الحولة الغربية وينعطف غرباً جنوبي مقام النبي يوشع وشمالي الهراوي ويمتدّ غرباً فيتبع مجرى وادي فارة وينتهي عند مصبّ وادي القرن جنوبي قرية البصة والزيب فتدخل فيه قرية الخالصة من الحولة وهونين وقدس ويوشع وصلحة والمالكية وتربيخا من القرى التي ألحقت بفلسطين، وتدخل فيه قرية البصة»(٤٩).

ويذكر الشيخ علي الزين عدداً آخر من القرى التي فصلت عن جبل عامل وألحقت بفلسطين مثل: «ابل القمح والناقورة وحانوتا وسعسع وديشوم والمنارة والمطلّة الخ...» كما يعدّد القرى التي فُصلت عن جبل عامل وأُلحقت بإقليم الشوف ومقاطعاته في أثناء المعارك مع المعنيين والشهابيين، وخصوصاً في أثناء حكم الأمير بشير الثاني الشهابي وبعد وفاة الجزار، فيذكر «قرى مقاطعة جزين، وجزين قاعدة المقاطعة، وقرى بكاسين ووادي جزين، وقيتولي، وبسري، وروم، وعازور، وصليما، وبتدين اللقش، ومشموشة، والحمصية، والخربة، وقتالة، وكفرحونا، وكفرتعلا»، ثم قرى مقاطعة إقليم التفاح الشمالي مثل: «الهلالية، والبرامية، والبرغوثية، ولبعا، وكفرفالوس، ومجدليون، والصالحية، والمية ومية، ومغدوشة»، ثم قرى مقاطعة جبل الريحان ومنها: «الريحان وهي

القاعدة، والوردية، واللويزية، والعيشية، وعرمتى، والصويرة، والجرمق، وغيرها من القرى والمزارع التي تخلّلت هذه المقاطعات»(٥٠).

ويجدر بنا أن نذكر ما قاله إبن خلدون في هذا المجال إذ قال: «ولا يَخفى أنّ الجولان متصل بجبال بني عاملة لا يفصله عنها غير عرض مرج الحولة وهو حوالي الميل الواحد» وما قاله الهمذاني عند وصفه لجزيرة العرب إذ قال: «ديار عاملة مجاورة للأردن، وجبل عاملة مشرف على عكا من قبل البحر ويليها ويطلّ على الأردن» وقال: «وأمّا عاملة فهي في جبلها مُشرَفٌ على طبريا إلى نحو البحر»(٥١).

أمّا الأمير حيدر الشهابي فقد حدّد في تاريخه مقاطعات جبل عامل في العهد الشهابي إذ قال: «مقاطعات جبل عامل الثلاث وهي مقاطعة ديار بشارة ومقاطعة إقليمي الشومر والتفاح ومقاطعة الشقيف»(٥٢).

يقسم جبل عامل، أو بلاد بشارة، إلى قسمين: الأوّل، بلاد بشارة الجنوبية، وتمتدّ من نهر القرن جنوباً إلى نهر الليطاني شمالاً، وتضمّ أربع مقاطعات هي: تبنين وهونين وقانا ومعركة، وكان حكّام هذه المقاطعات الأربع من آل الصغير، وقبلهم بنو شاكر، وتؤلّف هذه المقاطعات اليوم قضائي صور ومرجعيون، والثاني بلاد بشارة الشمالية، وتمتدّ من نهر الليطاني جنوباً إلى نهر الأوّلي شمالاً، وتضمّ ثلاث مقاطعات هي: الشقيف والشومر والتفاح التي تُعرف الآن بناحية جباع، وكان حكّام الشقيف من آل صعب، أمّا حكّام الشومر والتفاح فكانوا من آل منكر، وتؤلّف هذه المقاطعات اليوم قضاء صيدا. يضاف إلى هذين القسمين: مقاطعة جزين التي كان يحكمها مقدّمون ينتسبون إلى آل الصغير حكّام بلاد بشارة الجنوبية ويعرفون بمقدمي جزين(٥٣).

ويضيف البعض إلى هذه المقاطعات الثماني مقاطعة تاسعة هي: مقاطعة جبل الريحان، فالشيخ علي الزين، معتمداً على كتاب «الحركات في لبنان» لأبي شقرا، يرجّح أن يكون جبل الريحان مقاطعة من مقاطعات جبل عامل(٥٤)، ويرى هذا الرأي أيضاً السيد محمّد جابر آل صفا(٥٥) وكذلك السيد محسن الأمين والشيخ سليمان ضاهر(٥٦) اللذان يرجعان في رأيهما هذا إلى ما ورد في تاريخ الأمير حيدر الشهابي من أن «جبل الريحان حتى مشغرة من أعمال البقاع» كانت تابعة لجبل عامل.

إنّ تاريخ جبل عامل هو، بصورة عامة، مشوّش وغير واضح، ويعود ذلك إلى أنّ معظم مؤرّخي هذا الجبل، في العهد العثماني، اضطرّوا مراراً لأن يتلفوا ما لديهم من مستندات ووثائق تاريخيّة، خشية ما كان يمارسه الحاكم العثماني عليهم من ضغط وإكراه، الأمر الذي أدّى إلى فقدان معظم الأصول التاريخيّة لجبل عامل(٥٧). وإنّ الجهد الذي بذله المؤرّخون المحدثون أمثال الشيخ أحمد رضا والشيخ محمّد تقي آل فقيه والسيّد محسن الأمين والسيّد محمّد جابر آل صفا والشيخ علي سبيتي والشيخ سليمان ضاهر والشيخ علي الزين وسواهم، لم يستطع أن يقدّم لنا سوى النزر اليسير من هذا التاريخ، إلاّ أنّه على قلّته، مهمّ ومفيد.

من هنا نجد أنفسنا غير قادرين على الحسم في موضوع حدود هذا الجبل من الوجهة التاريخيّة، إلاّ أنّ ما قدّمناه هو أقصى ما يمكن تحقيقه في هذا المجال.

كان جبل عامل في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، وهو بدء تاريخ الحروب الصليبيّة في المشرق العربي، خاضعاً لحكم «الضحّاك بن جندل» أمير وادي التيم، إلاّ أنّه في العام ١١٣٢م. إستولى الملك إسماعيل بن بوري ملك دمشق، على بلاد عاملة وضمّها إلى مملكته(٥٨). وفي القرن الثالث عشر

الميلادي، في عهد الظاهر بيبرس البندقداري من ملوك دولة المماليك البحرية، إستولى الصليبيّون على قلعة الشقيف وبلاد عاملة وجعلوا منها مملكة بإسم «المملكة الشقيفية»، إلاّ أنّ الظاهر بيبرس إستعاد هذه المملكة من الصليبيين عام ١٢٦٨م، وجعل من بلاد عاملة نيابة قاعدتها قلعة الشقيف(٥٩).

وفي هذا القرن بالذات، القرن الثالث عشر الميلادي، برز الحكم الإقطاعي لأوّل مرّة بروزاً جلياً في جبل عامل، وكان حكّامه من آل وائل(٦٠) ورثوا الحكم عن الأمير حسام الدين بشارة بن أسد العاملي، الذي كان له الفضل في جمع أجزاء هذه البلاد وتوحيدها حتى أنها عرفت فيما بعد بإسمه (بلاد بشارة)(٦١).

وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، إنتقل حكم جبل عامل إلى أسرة جديدة، هي على الأرجح من أصل غير عربي، من المماليك المصريين، وهي أسرة (آل سودون). وقد حكمت هذه الأسرة جبل عامل نحوماية وستين عاماً، منذ عام ١٤٧٨، إلى أن انقرضت تماماً بعد معركة جرت بينها وبين آل الصغير أحفاد آل وائل عام ١٦٣٩م.(٦٢) على يد الشيخ حسين الصغير.

وقد شارك في هذه المرحلة، في حكم جبل عامل، أسرة أخرى أصلها من قرية «عيناثا» هي أسرة «آل شكر» التي ظلّت تنازع «آل الصغير» الوائليين الحكم ردحاً من الزمن، وكانت قواعد حكم هذه الأسرة في قرى عيناثا وقانا وتبنين، وانقرضت هذه الأسرة على يد علي الصغير في معارك جرت بينها وبين آل الصغير في كلّ من عيناثا وقانا وتبنين سنة ١٦٤٩ قتل فيها زعيم آل شكر المدعو أحمد، كما قتل معظم رجالهم وفرّ الباقون(٦٣)، وتسلّم آل علي الصغير حكم البلاد بعدهم، فحكموا بلاد بشارة الجنوبية (تبنين وهونين وقانا ومعركة) وجعلوا تبنين قاعدتهم.

يتبيّن، ممّا تقدّم، أنّ الأسر الإقطاعية التي حكمت جبل عامل منذ القرن الثالث عشر الميلادي إلى القرن السادس عشر، أي إلى مطلع الفتح العثماني لبلاد الشام، هي أربع: **الأسرة البشارية**، نسبة إلى الأمير حسام الدين بشارة بن أسد العاملي. **والأسرة السودونية** (آل سودون)، **والأسرة الشكرية** (آل شكر) وأخيراً **الأسرة الوائلية الصغيرية**، نسبة إلى علي الصغير حفيد الأمير محمّد بن هزاع الوائلي الذي عاصر السلطان صلاح الدين الأيوبي وتغلب على بشارة بن مقبل القحطاني وانتزع حكم البلاد منه[٦٤]، وقد تمكّنت هذه الأخيرة، بعد معارك طاحنة ودموية، من انتزاع الحكم والتفرّد به مدّة طويلة من الزمن فلعبت دوراً حاسماً ومهماً في سياسة جبل عامل وتاريخه ومصيره[٦٥].

إلاّ أنه، بعد الفتح العثماني مباشرة، برزت إلى الوجود السياسي في جبل عامل أسرتان جديدتان أخذتا تنافسان الأسرة الوائلية على الزعامة السياسية هما: آل صعب حكّام الشقيف من بلاد بشارة الشمالية، وقاعدتهم النبطية، وآل منكر حكّام إقليمي الشومر والتفّاح من بلاد بشارة الشمالية أيضاً، وقاعدتهم جباع[٦٦].

ورغم أنّ آل علي الصغير كانوا أكثر هذه الأسر نفوذاً وأقواها شكيمة، فقد كان لكلّ أسرة إستقلالها الإداري بالمقاطعة أو المقاطعات التي تحكمها، فالحاكم الإقطاعي حرّ في إدارة إقطاعته، يتصرّف بشؤونها ويحمي حدودها، دون أن يكون هنالك سلطة فوق سلطته، أمّا سلطة الدولة فكانت إسمية، وتتلخّص في حقّها باستيفاء الضرائب والرسوم المقطوعة وفقاً لشروط الالتزام، ودون أن يكون لها الحق بالتدخّل في الشؤون الداخلية للبلاد، وكان لكلّ حاكم جنده الخاص به للدفاع عن مقاطعته حتى إذا هوجم واحد منهم هبّت باقي المقاطعات تسانده وتؤازره[٦٧]. وقد تمكّنت هذه الأسر الثلاث، في فترات

مختلفة، وبفضل قوّتها وضعف الحكّام الخارجيين، من الإستقلال بمقاطعاتها إستقلالاً ذاتياً تاماً.

إلاّ أنّ ذلك لم يكن يعني أنّ جبل عامل خارج عن سلطة الإمبراطورية العثمانيّة، فقد كان تابعاً لسنجقية صفد التي كانت تابعة لولاية دمشق، وذلك قبل إنشاء ولاية صيدا (١٦٦٠م.) وبعدها عكا، وكان الولاة العثمانيون «يلزّمون» جباية الرسوم والضرائب المترتّبة على جبل عامل إلى من يرغب من رجال الإقطاع في ذلك العهد، عاماً بعد عام، وكان أوّل من تقدّم من آل معن لالتزام مقاطعات جبل عامل هو فخر الدين المعني الثاني الذي التزم سنجقية صفد سنة ١٦٠٣ من مراد باشا والي الشام، ونازعه عليها بعد ذلك الأمير يونس الحرفوش أمير البقاع، وكان هذا النزاع سبباً لخصومات ومعارك شديدة بين الطرفين كان النصر في نهايتها للأمير المعني الذي استطاع أن يستولي على جبل عامل طوال مدّة حكمه لإمارة الشوف، ففي سنة ١٦١٢م. كانت قلعتا بانياس والشقيف بيد فخر الدين، وكان وكيله على بانياس، الشيخ حسين اليازجي، وكيلاً كذلك على القسم الشرقي من بلاد بشارة، ووكيله على الشقيف، الشيخ حسين الطويل، وكيلاً على إقليمي الشومر والتفّاح[٦٨]. وفي أثناء غياب الأمير فخر الدين بتوسكانة (١٦١٣ - ١٦١٨) تسلّم أخوه الأمير يونس بلاد عاملة متخذاً صور مقرّاً له، كما تسلّم عامله الشيخ حسين اليازجي مقاطعة تبنين وجعلها مقرّاً له «وكانا يقودان الشعب بأجمعه وقت الحاجة ويوجّهانه حيث أراداه»[٦٩] حتى أنّ العامليين حاربوا إلى جانب المعنيين ضدّ آل سيفا في وقعة الناعمة سنة ١٦١٦م. وبقيادة الأمير علي المعني، إبن فخر الدين، وكانت ميسرة الجيش المعني في هذه الوقعة مؤلّفة من العامليين ومن رجال الأمير علي الشهابي حاكم وادي التيم[٧٠]. إلاّ أنّ غياب فخر الدين عن المسرح السياسي سنة ١٦٣٣م. أضعف سلطة خلفائه المعنيين في جبل عامل، لذا لم يكن

حكمهم فيه مستقرّاً تماماً، بل تخلّلته ثورات واضطرابات كثيرة كان أهمّها عامي ١٦٦٦ و١٦٦٧ كما سيتبيّن معنا.

ولهذه الأسباب، خاض إقطاعيو جبل عامل معارك ضارية ضدّ الحكم المعني، ثم ضدّ الحكم الشهابي بعده، وضدّ الولاة العثمانيين في كلّ من دمشق وصيدا وعكا، كما أسهموا إسهاماً فعّالاً في القتال ضدّ الجيش المصري المنهزم من بلاد الشام عام ١٨٤٠ وضدّ حلفائه الشهابيين، فقتلوهم في رميش ووادي الجش وشفا عمرو، وانتصروا عليهم واستولوا على صفد وطبريا والناصرة وأجلوا المصريين عنها(٧١).

وكانت القضية العربية قد بدأت تتحرّك على كلّ مستوى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فبدأ بروز الحركات العربية التحرّرية في كلّ بلاد الشام وفي مصر، وأنشئت الجمعيات الوطنية السريّة، وأخذت الحركة القوميّة العربيّة تشقّ طريقها في كلّ أراضي العرب بما فيها جبل عامل، داعيةً العرب إلى التحرّر والإستقلال، وكان من الطبيعي أن يندمج جبل عامل، خلال هذه المرحلة، بالتيارات العربية الصاعدة في المنطقة ضدّ الحكم العثماني، فتنشأ فيه الحركات العربية التحرّرية التي نشأت في باقي الأقطار العربية، ويخوض مع هذه الحركات جميعها معركة التحرّر من الحكم العثماني حتى عام ١٩١٨، ثم يصبح بعد ذلك بسنتين (سنة ١٩٢٠) جزءاً من الكيان اللبناني.

ونختتم هذه اللمحة التاريخيّة عن جبل عامل بفقرة من مذكّرات البارون دي توت التي نشرها عام ١٧٨٤م.، وقال فيها عن العامليين ما يلي:

«إنّ القلاع التي يسكنونها تجعلهم أكثر تحفّزاً للثورة، وتجعل إخضاعهم أكثر صعوبة، كلّ جبل عندهم حصن، وكلّ مالك إقطاعي كبير... وقد اتفقوا على أن يدفعوا الضريبة السنوية للدولة وقدرها ماينا كيس ليتصرّفوا بجبالهم وفي ظلّ زعمائهم»(٧٢).

٥ – سنجق طرابلس:

تعتبر طرابلس من أكثر بلدان الشام أمجاداً وأرقاها حضارة، فقد وصف الرحّالة ناصر خسرو في كتابه «سفر نامة» في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي (١٠٤٧) حضارة طرابلس في ذلك الحين بقوله: «وحول المدينة المزارع والبساتين وكثير من قصب السكّر وأشجار النارنج والترنج والموز، والليمون والتمر، وكان عسل السكّر يجمع حينذاك... وأربطتها أربع أو خمس طبقات، ومنها ما هو ست، وشوارعها وأسواقها جميلة ونظيفة حتى تظنّ أنّ كلّ سوق قصر مزيّن، وقد رأيت في طرابلس ما رأيت في بلاد العجم من الأطعمة والفواكه بل أحسن منه مئة مرّة... ويصنعون فيها الورق الجميل مثل الورق السمرقندي بل أحسن منه، وهي تابعة لسلطان مصر... وتحصّل المكوس بهذه المدينة فتدفع السفن الآتية من بلاد الروم والفرنج والأندلس والمغرب العشر للسلطان... وللسلطان بها سفن تسافر إلى بلاد الروم وصقلية والمغرب للتجارة»[٧٣].

وقد قامت في طرابلس، في القرن الحادي عشر الميلادي، إمارة قوية مزدهرة أشادها أمراء من «بني عمار» وامتدّ نفوذها من عكّار في الشمال إلى جبيل في الجنوب، واستمرّت نحو نصف قرن حتى سقطت بيد الصليبيين عام ١١٠٩م، وقد اشتهر بنو عمار في إمارتهم هذه بتشجيعهم للعلم والثقافة فأسّسوا مكتبة عظيمة كانت تحتوي على أكثر من مأية ألف مجلّد، إلاّ أنّ الصليبيين أحرقوها عند احتلالهم للمدينة، واهتمّ بنو عمار كذلك بالزراعة والصناعة فقيل إنه كان في إمارتهم هذه نحو أربعة آلاف نول للنسيج[٧٤]. وقد حكم هذه الإمارة من بني عمّار ثلاثة هم: أمين الدولة أبو طالب الحسن بن عمار، وكان مولّفاً غزير التأليف إلاّ أنه لم يبق شيء من مؤلّفاته التي أتلفت في أثناء الحروب، وابن أخيه جلال الملك أبو الحسن علي بن عمار، وابن أخي جلال

الملك فخر الملك أبو علي بن عمار الذي ازدهرت طرابلس في عهده ازدهاراً كبيراً، ولا يزال يسمّى نهر «أبو علي» في طرابلس باسمه تقديراً له[٧٥].

ورزحت طرابلس بعدها تحت حكم الصليبيين مدّة طويلة، أي نحو قرنين من الزمن، ضمّ خلالهما الصليبيون إليها المدن المجاورة لها مثل جبيل وعرقا وطرطوس وما بينها، وجعلوا منها جميعاً إمارة صليبية (أو كونتية) يحكمها برتراند بن ريموند دي سان جيل وذريته من بعده، وقد أصبح لهذه الإمارة، في أثناء الحكم الصليبي، شأن عظيم تساوى مع شأن الإمارات الصليبية الأخرى في الشرق مثل أورشليم وأنطاكية والرها إن لم يفقه، وظلّت كذلك حتى احتلّها المسلمون من جديد عام ١٢٨٧م. في عهد السلطان قلاوون، فخضعت لدولة المماليك المصرية وسمّيت نيابة أسوة بباقي النيابات التي أسّسها المماليك في بلاد الشام[٧٦].

وفي مطلع الفتح العثماني عام ١٥١٦م. تولّت الدولة العثمانية أمر طرابلس وجعلت تولّي عليها ولاة من قبلها، فكان ابن إدريس البدليسي أوّل والٍ تنصبه الدولة العثمانية على طرابلس، تولاّها منذ سنة ١٥١٧م. حتى سنة ١٥٢٠م.[٧٧]. وظلّت طرابلس على هذه الحال يتولاّها والٍ إثر والٍ تعيّنه الدولة العلية، وكان أبرز هؤلاء الولاة جميعاً: الأمير منصور عسّاف التركماني حاكم غزير وكسروان، وقد تولاّها منذ عام ١٥٢٣م. حتى عام ١٥٤٩م، ثم منذ عام ١٥٧٤م. حتى عام ١٥٧٩م.[٧٨]، وكان نفوذه قد اتسع وشوكته قد قويت، خصوصاً بعد أن فتك بمحمّد آغا شعيب حاكم طرابلس وأمراء فتقا وغيرهم، فقرّر السلطان مراد الثالث حينئذ إنتزاع طرابلس من الأمير منصور العسّاف وجعلها باشوية (أو ولاية، أو وزارة، أو إيالة) وتسليمها إلى يوسف باشا سيفا الكردي حاكم عكار، وذلك عام ١٥٧٩م، وهكذا صارت طرابلس ولاية مثلها مثل دمشق وحلب، وقد ضمّت هذه الولاية خمسة ألوية أو سناجق هي: حمص

وحماة وجبلة والسلمية وطرابلس، أما سنجق طرابلس نفسه فكان يشمل المقاطعات التالية: بلاد جبيل والبترون وجبة بشري والكورة والزاوية والضنية وعكار والحصن وصافيتا[٧٩].

أمّا الأهميّة الاستراتيجيّة لهذه الولاية فهي أنها تشرف على جبال العلويين وعلى جبل لبنان والطريق الساحلية الموصلة إلى البقاع، كما أنها تشمل وادي العاصي وتمتدّ على طول ساحل البحر المتوسّط من اللاذقية إلى نهر الكلب[٨٠]. وكان على هذه الولاية أن تقدّم للسلطة المركزية في استانبول ١٨٢١ مقاتلاً في زمن الحرب، وتدفع لها ضريبة سنوية مقدارها ٩٦١٨٤ قرشاً[٨١]، أمّا ثمن التزام الولاية فكان يراوح بين ثمانين ألفاً ومائة ألف دوكا (Ducat)[٨٢].

وما أن تسلّم يوسف باشا سيفا حكم ولاية طرابلس حتى أخذ يحصّن المدينة ويعزّز حاميتها بالجند والسلاح، ثم تحوّل إلى مقارعة جيرانه العسافيين في غزير وكسروان، فقضى على آخر حاكم منهم هو الأمير محمّد بن منصور العسّاف حيث قتله غيلة في المسيلحة عام ١٥٩٠م. وضمّ إليه غزير وكسروان، فخلا له الجوّ في البلاد وسيطر على الولاية سيطرة تامّة، وامتدّ نفوذه حتى وصل إلى حمص وحماة، ولكن خصماً قوياً عنيداً لم يتمكّن ابن سيفا من قهره هو أمير الشوف فخر الدين المعني الثاني الذي ظلّ خصماً له طوال حياته، رغم علاقة المصاهرة التي تربطهما، وهكذا فقد هزم فخر الدين يوسف باشا سيفا في معركة جرت بينهما عند نهر الكلب عام ١٥٩٨ وتولّى فخر الدين كسروان لمدّة سنة واحدة ثم أعادها إلى إبن سيفا برضاه[٨٣].

كذلك جرت حروب متعدّدة بين ابن سيفا وعلي باشا جنبلاط والي حلب، وكان فخر الدين حليفاً لهذا الأخير، فكان ابن سيفا ينهزم أمام الحليفين في

معارك وينتصر في أخرى، ولم ينته خصام الواليين، والي طرابلس ووالي حلب، إلاّ بسقوط هذا الأخير عام ١٦٠٧.

وقد حكم يوسف باشا سيفا ولاية طرابلس منذ عام ١٥٩٧ حتى عام ١٦٢٤، إلاّ أنّ فترة حكمه هذه كانت تتخلّلها فترات متقطّعة يضطرّ فيها ابن سيفا إلى التخلّي عن الولاية لسواه من الولاة الذين تعيّنهم الدولة العثمانية بدلاً منه، إلاّ أنهم يكادون لا يذكرون في تاريخ هذه الولاية بالنسبة إلى ما قام به ابن سيفا من أعمال. وفي عام ١٦٢٤م. توفّي ابن سيفا مخلفاً في الولاية ابنه الأمير قاسم الذي لم يفتأ أن سلّم البلاد إلى الأمير فخر الدين بعد عام واحد فقط (١٦٢٤ - ١٦٢٥) وبعد تسمية هذا الأخير والياً على عربستان وسلطاناً للبر «من حدود حلب إلى حدود القدس» عام ١٦٢٤، إلاّ أنّ قاسم بن سيفا عاد فتسلّم طرابلس بعد القضاء على فخر الدين ولعام واحد أيضاً ١٦٢٤ - ١٦٢٥ عزل بعده عنها، وتوالى الولاة على طرابلس بعد ذلك حتى آخر العهد المعني (١٦٩٧)، وقد بلغ عددهم عشرين والياً في فترة لم تتجاوز الإثنين والستين عاماً، وكان آخرهم أرسلان باشا المطرجي (١٦٩٢ - ١٦٩٧).

وإذا كان ما يميّز الولاة الذين حكموا ولاية طرابلس، في القرن السابع عشر الميلادي، بأنّ أغلبيّتهم من أصل غير شامي (سيفا والنيشنجي وكاتاجاج والأرناؤوطي والكبرلي والمطرجي الخ...) فإنّ أهمّ ما يميّز الولاة الذين حكموا هذه الولاية في القرن الثامن عشر أنّ معظمهم من أصل شامي ومن أسر شامية لا تزال معروفة إلى يومنا هذا، وأكثرهم وأهمّهم من أسرة العظم الدمشقية (إبراهيم باشا العظم ١٧٠٣، عبد الرحمن باشا العظم ١٧١٤، سعيد باشا العظم ١٧٣٣ - ١٧٣٤، سليمان باشا العظم ١٧٣٤ - ١٧٥٣، محمّد باشا العظم ١٧٣٥ - ١٧٥٦، يوسف باشا العظم ١٧٧٤ - ١٧٧٦، عبدالله باشا العظم ١٧٨١ - ١٧٨٢، خليل باشا العظم ١٧٩١ - ١٧٩٢ و١٧٩٥

- ١٧٩٨ ثم يوسف باشا العظم ١٧٩٨ - ١٧٩٩. وأخيراً عبد الرحمن باشا العظم ١٧٩٩ - ١٨٠٠)[٨٤].

ويحدّثنا الرحّالة الفرنسي ڤولني (Volney)، في كتابه عن رحلته التي قام بها إلى الشرق خلال عامي ١٧٨٤ و١٧٨٥، عن باشا طرابلس فيقول: «يتمتّع باشا طرابلس بكلّ الحقوق العائدة لمنصبه هذا. فالشؤون العسكرية والمالية في يده، ويستمدّ سلطانه بمثابة التزام لمدّة سنة واحدة وبعقد من الباب العالي، ويبلغ ثمن هذا الإلتزام ٧٥٠ كيساً (Bourse) أي ما يعادل ٩٣٧٥٠٠ ليرة (Livre)، بالإضافة إلى تكليفه إمداد قافلة الحج إلى مكة بالمؤن... وهو يتعهّد حوالى خمسماية خيال بتكييف سيء يشبه وضع خيّالة حلب، مع بعض الرماة من المغاربة»[٨٥].

وقد تميّز النصف الأوّل من القرن التاسع عشر في ولاية طرابلس ببروز حاكم قادر هو مصطفى آغا بربر الذي انتزع الحكم فيها من عبدالله باشا العظم في أوائل هذا القرن بالإتفاق مع أحمد باشا الجزار حاكم عكا، ومصطفى آغا بربر هو مصطفى بن يوسف القرق من طرابلس، وبربر لقبه، نشأ يتيماً، ولمّا شبّ خدم الأمير علي الأيوبي في الكورة والشيخ رعد في الضنية ومشايخ بني زخريا في القويطع، وخدم الأمير يوسف الشهابي حتى عام ١٧٨٨، ثم انخرط في وجاق الإنكشارية في طرابلس بزعامة مصطفى آغا الدلبة، ثم خدم الجزار بعكا فكافأه وعيّنه في بيروت، ثم اتفق بربر مع الجزار على انتزاع قلعة طرابلس من يد الوالي عبدالله باشا العظم وأصبح متوليها، ثم أصبح بربر زعيماً لوجاق الإنكشارية في طرابلس، ولمّا آلت ولاية طرابلس إلى الجزار عيّنه الجزار متسلّماً عليها بلقب قائمام، وبذلك يكون مصطفى بربر قد جمع إليه السلطتين العسكرية والمدنية في طرابلس حتى وفاة الجزار عام ١٨٠٤م، إلاّ أنه بعد ذلك، عام ١٨٠٨م، آلت السلطة المدنية في طرابلس إلى علي بك الأسعد

العكاري، وكان وكيلاً لوالي دمشق كنج يوسف باشا، وقد حاول الوالي المذكور إنتزاع القلعة من بربر إلاّ أنّ بربر قاوم حصار الوالي له مدّة أحد عشر شهراً انتهت بفراره إلى صيدا ولجوئه إلى واليها سليمان باشا، ولمّا عزل كنج يوسف باشا عن ولاية دمشق وعيّن سليمان باشا مكانه على ولاية طرابلس أعاد بربر إلى قائمقامية طرابلس. وقد تفرّد بربر بحكم طرابلس مدّة طويلة ووقف إلى جانب عبدالله باشا والي عكا في نزاعه ضدّ الدولة العثمانية، وفي عام ١٨٢٤م عزلت الدولة العثمانية مصطفى بربر وأمرت بإعدامه ومصادرة أملاكه فلجأ إلى الأمير بشير الثاني الذي أمّن له الإنتقال إلى مصر ولجوئه إلى محمّد علي باشا الذي حصل له على العفو من الباب العالي وأعاده إلى طرابلس، فمال بربر إلى سياسة محمّد علي باشا بعد ذلك، تماماً كما فعل الأمير بشير الثاني، واشترك معه في حصار عكا عام ١٨٣١، وقام بحماية السواحل لمصلحة الجيش المصري في كلّ من صور وصيدا وبيروت وطرابلس حتى اللاذقية، وقد عاونت قوّات الأمير بشير مصطفى بربر في صدّ الوالي العثماني الجديد الذي عُيّن على طرابلس عام ١٨٣٢، وبذلك أعاد المصريون تعيين بربر متسلّماً على طرابلس واللاذقية حيث ظلّ في منصبه هذا حتى عام ١٨٣٣ حين عزل ولجأ إلى الأمير بشير الذي استصدر له عفواً من إبراهيم باشا لإعادته إلى طرابلس، إلاّ أنّ المنيّة وافته قبل عودته إليها عام ١٨٣٤م. وكان إبراهيم باشا قد أجرى تعديلات في الإدارة في بلاد الشام وأصبحت طرابلس إثر ذلك مديرية عام ١٨٣٢، فعيّن يوسف آغا شريف مديراً لمديرية طرابلس بعد وفاة بربر عام ١٨٣٤[٨٦].

وظلّت طرابلس تحت الحكم المصري حتى عام ١٨٤١ حيث شاركت في الثورة ضدّ هذا الحكم، وما أن أفل الحكم المصري عن بلاد الشام حتى عادت

طرابلس إلى الإدارة العثمانية كولاية مستقلّة، بعيداً عن نظام القائمقاميتين. وفي عام ١٨٦٤ أعاد العثمانيون تنظيم البلاد الشامية فبرزت إلى الوجود ولاية جديدة عُرفت بإسم ولاية سوريا وشملت ٨ سناجق أو متصرّفيات هي: دمشق وطرابلس وبيروت واللاذقية وعكا وحماة والبلقاء وحوران، وهكذا أصبحت طرابلس سنجقاً يديره متصرّف، ويشمل أقضية طرابلس وعكار وصافيتا والحصن، كما شمل سنجق بيروت أقضية بيروت وصيدا وصور ومرجعيون[٨٧]، بينما أصبح جبل لبنان متصرّفية مستقلّة منذ عام ١٨٦٤، وأمّا البقاع فظلّ، كما كان في السابق، تابعاً لدمشق.

من الممكن أن نقف في تقديمنا التاريخي للمقاطعات اللبنانية عند هذا الحد، ولكن شمول البحث في تأريخنا للعهد المعني، ثم العهد الشهابي بعده، يتطلّب منا أن نخصّ منطقة جبل لبنان من سنجق طرابلس، ومدينتي صيدا وبيروت من إمارة الشوف، ببعض التفاصيل التاريخية التي سوف نحتاجها في سياق بحثنا، خصوصاً وأنه من المهم في نظرنا أن نحدّد ماهية العلاقة التاريخية لجبل لبنان بولاية طرابلس من جهة وبالإمارة المعنية من جهة ثانية، بالإضافة إلى التعريف التاريخي الصحيح لحدود هذا الجبل في مختلف المراحل التاريخية التي مرّ بها.

أمّا فيما يتعلّق بصيدا وبيروت، فنقدّم عن كلّ منهما لمحة تاريخية موجزة باعتبارهما المدينتين اللتين اتخذ منهما الأمير المعني الكبير، بعد بعقلين عاصمته في الشوف، مقرّاً له وعاصمة لإمارته، فحظيا بالنصيب الأكبر من اهتمامه وعنايته، كما أنّ كلاً منهما ستشكّل، فيما بعد، عاصمة لولاية تسمّى بإسمها.

جبل لبنان:

واحد من جبال بلاد الشام، عرّفه ياقوت بأنه «جبل مطلّ على حمص، يجيء من العرج الذي بين مكة والمدينة حتى يتصل بالشام، فما كان لفلسطين فهو جبل الحَمَل، وما كان للأردن فهو جبل الجليل، وبدمشق سنير، وبحلب وحمص وحماة لبنان...»[٨٨] وقال عنه الرحالة الشهير إبن جبير، الذي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي، أي في عهد الإحتلال الصليبي للشرق: «وجبل لبنان المذكور هو حدّ بين بلاد المسلمين والإفرنج، لأنّ وراءه إنطاكية واللاذقية وسواهما من بلادهم، ... وفي سفح الجبل المذكور حصن يُعرف بحصن الأكراد، هو للإفرنج، ويغيرون منه على حماة وحمص، وهو بمرأى العين منهما...»[٨٩]، وقال عنه في مكان آخر: «وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا، فيه أنواع الفاكهة، وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة»[٩٠]. أمّا الرحّالة الفرنسي أوجين روجيه (EUGÈNE ROGER) الذي عاش في بلادنا في عهد الأمير المعني فخر الدين الثاني في النصف الأوّل من القرن السابع عشر الميلادي، فقد تحدّث بإسهاب عن جبل لبنان، وممّا قاله:

«هذا الجبل الجليل هو واحد من أعلى الجبال تحت السماء، مساحته نحو ستين فرسخاً، ويسمّى جبل لبنان. وهو يشمل في الوقت الحاضر نحو ٤٠ قرية وفي سفحه نحو ٢٥ قرية، يسكنها جميعها الموارنة الذين يحرثون هذا الجبل»[٩١].

وأوضح تعريف يمكن أن نجده لجبل لبنان في العهد المعني وما قبله هو ما أورده الدكتور كمال الصليبي في كتابه «تاريخ لبنان الحديث» إذ قال: «أمّا عبارة (جبل لبنان) فكانت تطلق أصلاً على المناطق التي يسكنها الموارنة في أقصى الشمال، وهي جبة بشري وبلاد البترون وجبيل، وكانت منطقة كسروان، التي

يسكنها الموارنة أيضاً، تعتبر جزءاً من جبل لبنان حيناً، ومنفصلة عنه حيناً آخر. وكانت عبارة (جبل لبنان) يقابلها ما سُمّي بـ(جبل الدروز) أو (جبل الشوف)، وهي المنطقة الواقعة إلى الجنوب من كسروان، عبر طريق بيروت - دمشق»[٩٢].

أمّا جبل الشوف، أو جبل الدروز، فلم يكتسب إسم (جبل لبنان) إلاّ في النصف الأوّل من القرن التاسع عشر وفي أواخر عهد الإمارة الشهابية، ولم يُعرف بالضبط سبب إنتقال هذه التسمية من الشمال إلى الوسط بإتجاه الجنوب، ولكن يرجّح أنّ نزوح الكثير من أهالي جبل لبنان في خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر إلى جبل الشوف هو الذي أكسب هذا الأخير تسميته الحديثة[٩٣]. هذا هو رأي المؤرخ الصليبي، أما نحن فنرى أن جبل الشوف لم يكتسب اسمه الجديد (جبل لبنان) إلاّ بعد ضمّه إلى متصرّفية هذا الجبل عام ١٨٦٤.

وكان جبل لبنان، بما فيه كسروان، في العهد المملوكي، جزءاً من نيابة طرابلس[٩٤]، وظلّ كذلك في العهد العثماني، أي بعد أن استبدل إسم النيابة بإسم الولاية. ويروي الرحّالة أوجين روجيه (E. ROGER) أنّ باشا طرابلس كان يعيّن حكّام مقاطعات هذا الجبل ويجبي منهم الضرائب السنوية التي كانت تقدّر بنحو ١٠٠٠ ليرة (LIVRES)[٩٥].

وقد حكم كسروان، من جبل لبنان، في العهد المملوكي، أسرة تركمانية الأصل هي أسرة آل عسّاف، وقد استقرّت هذه الأسرة في حصونها بالأزواق ونهر الكلب وجونيه، ولمّا فتح العثمانيون بلاد الشام (عام ١٥١٦) تعزّز حكم العسافيين على كسروان وامتدّ حتى جبيل، فاتخذوا غزير قاعدة لإمارتهم

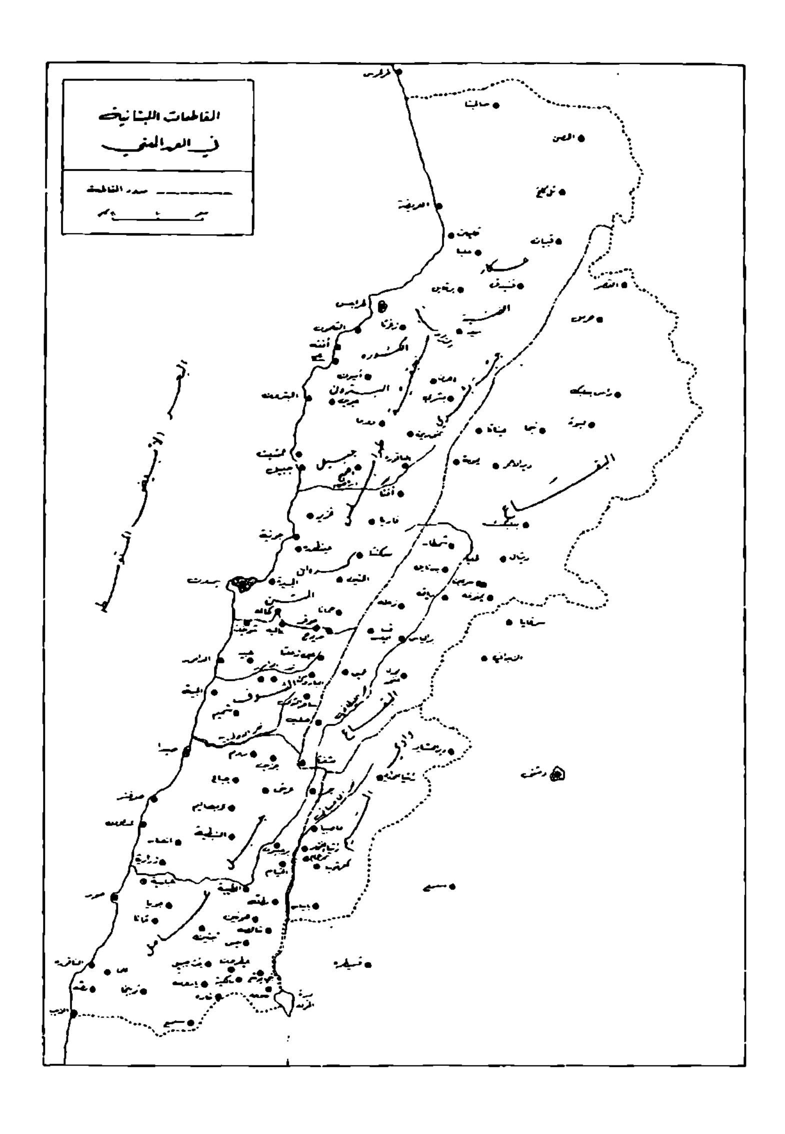
الصغيرة، ثم اتسعت إمارتهم هذه من بيروت جنوباً حتى عرقا شمالاً، وضمّت البترون وبشري والزاوية والكورة والضنية، وخصوصاً في أيام الأمير منصور العساف (١٥٥٢ - ١٥٨٠م.). إلاّ أنّ حكم هذه الأسرة لم يدم طويلاً، إذ قضي عليها بمقتل آخر أمرائها محمّد بن منصور العساف غيلة عند مضيق المسيلحة قرب البترون عام ١٥٩٠، وذلك على يد يوسف باشا سيفا حاكم طرابلس الذي ضمّ إليه إمارة العسافيين وتزوّج بإمرأة ضحيته واستولى على أموال آل عسّاف وأملاكهم[٩٦]. إلاّ أنه، في العام ١٥٩٨، إستولى الأمير فخر الدين المعني الثاني أمير الشوف على مقاطعة كسروان، بعد أن هزم يوسف باشا سيفا في معركة جرت بينهما عند نهر الكلب، ثم أعادها إليه بعد عام. وفي عام ١٦١٨م.، وبعد عودته من توسكانة، إستولى فخر الدين من جديد على كسروان وولّى عليها أبا نادر الخازن، الذي بقي والياً على هذه المقاطعة حتى عام ١٦٣٤ حيث رفعت ولايته عنها بعد القضاء على فخر الدين، ولكنّ ولايتها عادت إليه عام ١٦٣٧م.، في أوائل حكم الأمير ملحم المعني لبلاد الشوف[٩٧]. وفي العام ١٦٦٠ أنشئت ولاية صيدا وأصبحت مقاطعة كسروان تابعة لهذه الولاية.

وتولّى حكم بلاد جبيل والبترون والكورة وجبة بشري في القرن السابع عشر آل حمادة الشيعة، وظلّوا يحكمون هذه المناطق حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر (١٧٧٠م.) حيث انتهى حكمهم لتلك النواحي في عهد الأمير يوسف الشهابي[٩٨].

وقد تولّى فخر الدين المعني الثاني بلاد جبيل والبترون عام ١٦٢١ وظلّت تحت حكمه إلى حين القضاء عليه، وكان يتولّى هذه البلاد، نيابة عن الأمير أو

الباشا، مقدّمون يحكمون المقاطعات، ويديرونها باسمه. ولم يكن حكم المقدمين لهذه المقاطعات في العهد المعني أمراً جديداً، فقد عرف هذا الجبل حكم المقدمين منذ زمن بعيد، وكان أشهرهم مقدمو مقاطعات بلاد جبيل والبترون وجبة بشري الذين ظلّوا، حتى مطلع الرابع عشر الميلادي، يتمتّعون بزعامة قوية وشعبية كبيرة في المقاطعات التي يحكمونها، فكانوا يتعهّدون المقاطعات ويجبون منها الضرائب للدولة في زمن السلم، ويقودون رجالها إلى القتال في زمن الحرب. إلاّ أنه لم يمض قرن على حكم المماليك لهذه البلاد حتى بدأت زعامة هولاء المقدمين تضعف وشعبيتهم تتلاشى، وذلك بسبب الحزم الذي كان يبديه نوّاب الحكم المملوكي في طرابلس تجاه هؤلاء الإقطاعيين، فتحوّل المقدمون بالتالي إلى جباة للضرائب والمكوس ليس أكثر، وأصبح همّهم الوحيد أن يحظوا برضى هؤلاء النواب لكي يبقوا في مناصبهم(٩٩).

وقد حافظ جبل لبنان على وضعه الجغرافي السالف الذكر خلال الحكم الشهابي الذي خلف الحكم المعني لإمارة الشوف، أي منذ أواخر القرن السابع عشر حتى أواخر النصف الأوّل من القرن التاسع عشر. إلاّ أنّ حدود هذا الجبل اتسعت عند إنشاء (متصرّفية جبل لبنان) عام ١٨٦٤، لتشمل الشوف، وجـزين، وزحلة والمتن بالإضافـة إلى الكورة والبترون وكسروان (كما مرّ معنا)، ثم استقرّت فيما بعد على وضعها الحالي حين أصبح جبل لبنان محافظة من محافظـات الجمهورية اللبنانيـة. ولكن يجب أن لا يغرب عن بالنا أنّ التحديد الإداري لمنطقة ما لا ينطبق بالضرورة على التحديد التاريخي لها.


المقاطعات اللبنانية
في العهد المعني
حدود المقاطعة
عكار
جبيل
كسروان
الشوف
البقاع

صيدا:

كانت صيدا، في العهد المملوكي، تابعة لنيابة الشام، وتؤلّف إحدى ولاياتها (والولاية هنا بمعنى السنجق أو الإقليم). يحدّثنا القلقشندي عن هذه الولاية في القرن الخامس عشر الميلادي فيقول، نقلاً عن ابن فضل الله العمري صاحب «مسالك الأبصار»: «هي ولاية جليلة واسعة العمل ممتدّة القرى تشتمل على نيف وستمئة ضيعة»(١٠٠)، كما يقول أنّ متولّيها كان أمير طبلخانة أحياناً، وأمير عشرة أحياناً أخرى، وأنّ بقلعتها بحرية وخيّالة وكشّافة وطوائف من المستخدمين(١٠١).

وفي مطلع الفتح العثماني عام ١٥١٦م. ولّى السلطان سليم على بيروت وصيدا ونواحيهما الأمير محمّد بن قرقماس (محمّد بك قرقماز اوغلو)، وكانت صيدا في هذه الأثناء قد اضمحلّت وفقدت أهميّتها التي كانت لها في العصر الفاطمي، وأصبحت أقرب إلى القرية منها إلى المدينة، وظلّت على هذه الحال إلى أن اتخذها الأمير فخر الدين المعني الثاني مقرّاً له وعاصمة لإمارته، وذلك عام ١٥٩٤م، فأخذت تستعيد مكانتها نظراً لما كان يتمتّع به هذا الأمير من مكانة مرموقة بين أقرانه من أمراء الإقطاع في بلاد الشام. وفي أثناء غياب فخر الدين بتوسكانة (١٦١٢ - ١٦١٨) أسند أحمد باشا الحافظ والي دمشق سنجقية صيدا إلى ابن البستنجي، كما أسند بيروت وكسروان إلى حسين بن يوسف باشا سيفا صاحب طرابلس، إلاّ أنه في عام ١٦١٤ عزل حافظ باشا عن ولاية دمشق، وأسندت الولاية إلى جركس محمّد باشا الذي استصدر عفواً من الباب العالي عن الأمير فخر الدين، كما أسند إلى أخيه الأمير يونس المعني سنجقية صيدا وبيروت ونواحيهما، وإلى إبنه الأمير علي سنجقية صفد(١٠٢).

ولمّا عاد فخر الدين من توسكانة عام ١٦١٨ تمكّن، خلال عامين (١٦١٨ - ١٦٢٠)، من استعادة سلطانه السابق، حتى أنّ السلطان العثماني أنعم عليه،

عام ١٦٢٤، بلقب سلطان البر، وولاّه على ولاية «عربستان» الممتدّة من حدود حلب إلى القدس. وفي فترة حكم فخر الدين لصيدا، شهدت هذه المدينة إزدهاراً «لم تشهده منذ أيام الدولة الفاطمية»(١٠٣)، فقد اعتنى بها الأمير المعني عناية خاصة، فعمل على تحسينها وتوسيعها بعد أن كانت قرية مهملة، ورمّم أبنيتها وقلاعها، ووسّع مرفأها وشجّع صناعاتها وتجارتها، وجعل منها مقرّاً للقناصل الأوروبيين، فربطها تجارياً بدول الغرب كتوسكانة وفرنسا وإسبانيا وغيرها، وبنى فيها الفنادق والخانات الأنيقة (خان الإفرنج وخان الرز)، وربطها ببيروت شمالاً بواسطة جسر الأولي، وبصور جنوباً بواسطة جسر القاسمية، إلاّ أن الحذر الدائم من إنزال بحري عثماني في صيدا اضطرّ فخر الدين لأن يردم مرفأ هذه المدينة بالرمال والحجارة وحطام السفن كي يبعد عنها الأسطول العثماني، ممّا أثر على النشاط التجاري في المدينة تأثيراً سيئاً وإلى حدّ كبير، وأسهم بالتالي في توقّف نهضتها العمرانية والتجارية، بل واضمحلال هذه النهضة، خصوصاً بعد أفول نجم فخر الدين.

وفي العام ١٦٣٨، وبعد مقتل فخر الدين في الآستانة، عُيّن أحمد آغا الشمالي حاكماً على صيدا وبيروت، إلاّ أن ابن علم الدين قتله في خلدة في العام نفسه، وذلك على أثر الصراع الذي قام بين الحزبين القيسي واليمني. وفي عام ١٦٤٢ تسلّم محمّد باشا الأرناؤوط والي طرابلس حكم بيروت وصيدا فسلّمهما بدوره إلى كيخياه زلفي آغا، وفي عام ١٦٥٦ تسلّم محمّد باشا الأرناؤوط الوزارة فسلّم صيدا وبيروت إلى إسماعيل آغا(١٠٤)، وفي عام ١٦٦٠ أعلن أحمد باشا الكبرللي (إبن الصدر الأعظم محمّد باشا الكبرللي، ووالي دمشق يومذاك) صيدا ولاية(١٠٥)، وسمّى عليها علي باشا الدفتردار وزيراً.

يرى بعض المؤرّخين أنّ الباب العالي جعل من صيدا باشوية بقصد مراقبة الجبل(١٠٦)، أي بلاد الشوف والغرب والجرد والمتن وكسروان، ويوافق هذا الرأي ما جاء عند الدويهي والشهابي من أنّ هذه الباشوية أنشئت «حتى يحطّم ذراع أولاد العرب»(١٠٧) أو حتى «يرفع أولاد العرب»(١٠٨)، والمعروف أنّ المناطق المذكورة أعلاه كان يحكمها إقطاعيون مثل آل عماد في الشوف وآل علم الدين في الغرب والجرد والمتن، كما كان آل معن وال حمادة وآل أبي اللمع وآل الخازن مطاردين في بلاد جبيل وكسروان(١٠٩).

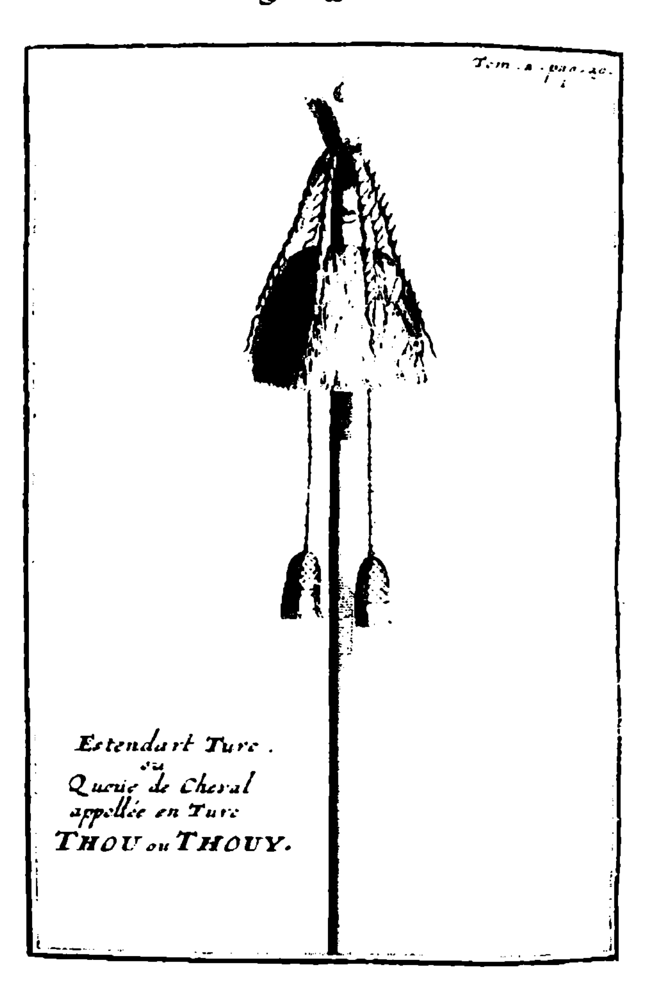
وقد تحدّث الرحّالة الفرنسي «دارفيو Le Chevalier D'Arvieux»، في مذكّراته عن بيروت عام ١٦٦٠، فقال: «إنّ حكومة هذه المدينة هي من ضمن حكومة صيدا، وإنّ الباشا يرسل إليها واحداً من أبرز ضبّاطه يديرها له... وليس للباشا في هذه المدينة (بيروت) سوى سريتين من الفرسان كلّ منهما تتألّف من مئة فارس، وعدد من المشاة كاف لحراستها، وعندما تحتاج المدينة لعدد أكبر من الجند فإن الباشا يرسل إليها حاجتها»(١١٠).

وذكر المعلوف في كتابه «تاريخ مدينة زحلة» أنّ ولاية صيدا التي أنشئت عام ١٦٦٠ كان يتبعها من المقاطعات: الشوف والجرد والمتن والغرب وكسروان وإقليم جزين وإقليم الخروب، وأنها امتدّت في زمن الشهابيين عام ١٧٠٠ حتى أصبحت «من جسر المعاملتين شمالاً إلى صفد جنوباً»(١١١).

وذكر الرحّالة الفرنسي فردريك هاسّلكيه (F. Hasselquest) الذي زار صيدا في منتصف القرن الثامن عشر (١٧٤٩ - ١٧٥٢) أنّ هذه الولاية تشمل أراضي عكا والجليل وجبال لبنان الشرقية (Anti-Liban) وأنّ حاكمها هو باشا بثلاث رتب (Pacha de 3 queues)(١١٢).

من المؤكّد إذن أنّ صيدا، بعد فخر الدين، لم تحكم حكماً وطنياً حتى فجر الإستقلال، فقد توالى عليها، منذ عام ١٦٦٠، الولاة العثمانيون، الذين يعيّنهم

صورة «التوغ»



(Tournefort, Relation, T2 p. 294)

الباب العالي، ومن أشهرهم: محمّد باشا الأرناؤوط الذي خلف علي باشا الدفتردار مباشرة (١٦٦٤)، وأرسلان باشا المطرجي أوّل الولاة على صيدا في مطلع العهد الشهابي (١٦٩٨).

وفي أيام الأمير بشير الأوّل الشهابي، وقبلان باشا المطرجي (١٧٠٠)، عرفت ولاية صيدا، في الربع الأوّل من القرن الثامن عشر، ولاة من آل العظم مثل أسعد باشا العظم (١٧٣٠) وسعد الدين باشا العظم (١٧٣٩) وسليمان باشا العظم (١٧٤٣) ومصطفى باشا العظم الملقّب بالقواص (١٧٤٩). وفي عام ١٧٧١ تولّى الشيخ ظاهر العمر صيدا بعد معركة عنيفة بينه وبين الجيش العثماني المتحالف مع الأمير يوسف الشهابي أمير الشوف، وقد جرت هذه المعركة جنوب صيدا في مكان يدعى «براك التل»، وترك العثمانيون وحلفاؤهم في ساحة القتال نحوألف وخمسماية قتيل. وبعد اغتيال الشيخ ظاهر العمر في عكا عام ١٧٧٥، تسلّم أحمد باشا الجزار ولاية صيدا (عام ١٧٧٦)، ونقل في العام التالي (١٧٧٧) عاصمة الولاية منها إلى عكا، حيث ظلّ فيها حتى وفاته عام ١٨٠٤[١١٣].

وبعد وفاة الجزار، عين الباب العالي والياً على صيدا إبراهيم باشا الذي ظلّ في منصبه هذا حتى عام ١٨٠٧ حيث خلفه تابعه سليمان باشا. وبعد وفاة هذا الأخير عام ١٨١٩ تولّى صيدا مكانه عبدالله باشا بن علي باشا الخزندار (وكان علي باشا هذا كتخدا سليمان باشا)، وظلّ عبدالله باشا والياً على صيدا حتى خضوعها للحكم المصري على يد إبراهيم باشا عام ١٨٣١. وقد عرفت صيدا ما بين عامي ١٨٤١ و١٨٦٤ - أي ما بين خروج الحكم المصري من بلاد الشام وإلغاء ولاية صيدا - عدداً من الولاة العثمانيين عددتهم السالنامة التركية التي طبعت في بيروت عام ١٩٠١[١١٤]، ولا نرى فائدة من ذكرهم في هذا المجال.

وفي عام ١٨٦٤ أعاد العثمانيون تنظيم الأقاليم في بلاد الشام، فأنشأوا ولاية سوريا وجعلوا صيدا قضاء من أقضية سنجق بيروت[١١٥]، ثم قضاء في ولاية بيروت المنشأة عام ١٨٨٧م.

بيروت:

خضعت بيروت للحكم الصليبي منذ أوائل القرن الثاني عشر الميلادي (١١٠٩م.)، وظلّت رازحة تحت حكمهم حتى انتزعها منهم السلطان صلاح الدين الأيوبي في أواخر القرن المذكور (١١٨٧م.)، وذلك بعد إنتصاره الشهير عليهم في موقعة حطين[١١٦]. وقد حكم، في هذه الفترة، إمارة الغرب المسمّاة في ذلك الحين بجبل بيروت، أمراء عرفوا بأمراء الغرب، وهم من بني بحتر الذين يعود نسبهم للأمير ناهض الدولة أبي العشائر بحتر... بن تنوخ بن قحطان... بن تميم بن النعمان بن المنذر بن ماء السماء... بن يعرب بن قحطان، جدّ العرب، وقد استقرّوا في هذه المنطقة (الغرب) في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، فحكموها، وكانت إمارتهم (إمارة الغرب) تشمل معظم بلاد الشوف الحالي وما يعرف اليوم منه بالغربين الأسفل والأعلى، وبعض مناطق الشحّار والمناصف[١١٧].

وبعد وفاة صلاح الدين عام ١١٩٤م. عاد الصليبيون فحكموا بيروت مدّة قرن تقريباً، من عام ١١٩٨ إلى عام ١٢٩١ حين خلصها منهم القائد المملوكي عليم الدين سنجو الشجاعي في عهد الملك الأشرف خليل[١١٨].

وقد حاول الصليبيون بعد ذلك، عدّة مرّات، إحتلال بيروت، فلم يوفقوا، حاولوا ذلك بعد ثماني سنوات من سقوطها بيد المماليك، أي عام ١٢٩٩، كما حاولوا عام ١٣٠٥ وعام ١٣٣٤ فباءت جميع محاولاتهم بالفشل[١١٩]، وظلّت بيروت في عهدة المماليك مدّة قرنين وربع القرن (١٢٩١ - ١٥١٦) كانت في

خلالها تابعة لنيابة دمشق(١٢٠). وجدير بالذكر أنه ما أن تسلّم المماليك حكم بيروت حتى ولّوا عليها أمراء الغرب البحتريين وأوكلوا إليهم حمايتها من غزوات الصليبيين والقراصنة. وقد استقرّ حكم بيروت لهؤلاء الأمراء عام ١٢٩٤ فأقاموا على حراستها تسعين فارساً «إنقسموا ثلاثة أبدال كلّ شهر بدل ثلاثون فارساً تقيم ببيروت. وفي إنقضاء الشهر يحضر بدلهم»(١٢١). وظلّ البحتريون يحكمون بيروت حتى الفتح العثماني عام ١٥١٦، وقد عرفت هذه المدينة في عهدهم إزدهاراً وعمراناً لم تعرفهما منذ زمن بعيد(١٢٢)، كما قيض لهذه الأسرة مؤرّخ نابه منها كتب تاريخها فأصبح كتابه مرجعاً لجميع الباحثين(١٢٣). ولم يغيّر العثمانيّون كثيراً في التنظيم الإداري لبلاد الشام بعد فتحهم لها، بل جلّ ما فعلوه هو أنهم سمّوا النيابة ولايةً وجعلوا بلاد الشام ثلاث ولايات بدلاً من ست، وقسموا كلّ ولاية إلى سناجق، وكانت بيروت واحداً من السناجق العشرة التي تألّفت منها ولاية دمشق.

أمّا حكّام بيروت من الأمراء التنّوخيين فقد اضطهدوا لثباتهم في الولاء للمماليك، سادة بلاد الشام السابقين، وقُدّم عليهم من والى العثمانيين وناصرهم، وخصوصاً في وقعة مرج دابق، أمثال فخر الدين المعني الأوّل وجان بردي الغزالي نائب دمشق، ولكن الغزالي انقلب على العثمانيين، بعد فترة وجيزة، فقضوا عليه وشتّتوا أنصاره، أمّا فخر الدين المعني الأوّل فقد نال لديهم حظوة لم ينلها أحد سواه، وكان أميراً على الشوف، فقدّموه على جميع الأمراء من بلاد الشام، وسمّوه «سلطان البر». ورغم أنّ التنّوخيين، وهم أخوال المعنيين، افتدوا أنفسهم، بعد استتباب الأمر للعثمانيين، وعادوا إلى ديارهم وقصورهم، فإنّ نجمهم قد أفل وحكمهم في الغرب وبيروت قد زال، وحلّ محلّهم آل علم الدين اليمني في الغرب وآل عساف التركماني في بيروت(١٢٤)، إلى أن قضى عليهم الأمير علم الدين اليمني غيلة في عبيه، عام ١٦٣٣، ولم يُبقِ على أحدٍ منهم، فانقطعت ذريّتهم.

وتمكّن بنو عسّاف حكّام كسروان وبلاد جبيل من بسط سلطانهم على بيروت فحكموها إلى أن انتزعها منهم يوسف باشا سيفا صاحب طرابلس عام ١٥٩٣ بعد أن قضى على آخر أمرائهم عام ١٥٩٠، منهياً بذلك حكم بني عسّاف وسلالتهم(١٢٥). ثم ما لبث أن انتزع الأمير فخر الدين، أمير الشوف، كسروان وبيروت من ابن سيفا بعد معركة نهر الكلب عام ١٥٩٨ ثم ردّهما إليه بعد عام، إلاّ أنه، بعد عودته من توسكانة عام ١٦١٨، عاد فاستولى عليهما من جديد، وجعل بيروت مقرّاً شتوياً له، تاركاً صيدا لإبنه الأمير علي، وظلّت بيروت في عهدة فخر الدين حتى نهاية حكمه. وقد اعتنى فخر الدين ببيروت عناية فائقة فحصّنها وحسّن مرفأها وصان غابتها الصنوبرية وزادها تشجيراً، وبنى فيها قصراً لسكناه كما بنى فيها الكثير من الدور وأنشأ الكثير من الحدائق، ومن أشهر مبانيه: برج الكشّاف الذي لا تزال (ساحة البرج) تسمّى بإسمه إلى اليوم، والخان المعروف بخان الوحوش، والحمّامات والأسواق والفنادق، وقد استعان في كلّ ذلك بالمهندسين والفنّانين الإيطاليين وأشهرهم تشيولي (Cioli) وفانيي (Fagni)، وقد ازدهرت بيروت في عهده إزدهاراً عظيماً حتى أنها أصبحت مدينة تجارية من الدرجة الأولى على الساحل الشامي.

وانتقل حكم بيروت بعد سقوط فخر الدين إلى ابن أخيه الأمير ملحم بن يونس المعني الذي حكمها أكثر من عشرين عاماً (١٦٣٧ - ١٦٥٨) توفّي بعدها في صيدا عام ١٦٥٨ إثر إصابته بحمّى خبيثة، ومنذ ذلك الحين، إنتقل حكم بيروت إلى يد الدولة العثمانية التي أعلنت صيدا ولاية عام ١٦٦٠، وضمّت بيروت إليها، وأخذت تعيّن على صيدا وبيروت ولاة من قبلها.

أمّا في العهد الشهابي، فقد كان الأمراء الشهابيون يحكمون بيروت بين الفينة والأخرى حسب قوّة كلّ منهم وسلطانه، وقد أشادوا فيها الكثير من المباني والقصور والأسواق والخانات والدواوين وأنشأوا الكثير من الجنائن

والبساتين[١٢٦]، وكان ينتزعها منهم بين الحين والآخر حكّام أشدّ منهم وأقوى مثل الشيخ ظاهر العمر صاحب عكا، وأحمد باشا الجزار والي عكا بعد مقتل ظاهر العمر، ولم يستقرّ الحكم للشهابيين في بيروت إلاّ بعد موت الجزار عام ١٨٠٤، في عهد الأمير بشير الشهابي الثاني، وحتى عام ١٨٣١، حين دخلتها الجيوش المصرية بقيادة إبراهيم باشا، وكانت قد انحطّت سياسياً واقتصادياً وعمرانياً لكثرة ما لاقت من الدمار والأهوال على يد ظاهر العمر والجزار[١٢٧]، وعادت المدينة إلى الحكم العثماني من جديد بعد أن جلا المصريون عنها عام ١٨٤١.

وعندما أنشئ نظام القائمقاميتين عام ١٨٤٢، استثنيت منه كما استثنيت صيدا وصور وطرابلس، ونقل مركز الولاية من صيدا إلى بيروت، وظلّت بيروت على هذه الحال حتى عام ١٨٦٤ حين أصبحت سنجقاً تابعاً لولاية سوريا التي أنشئت في العام نفسه، وقد ضمّ سنجق بيروت أقضية بيروت وصيدا وصور ومرجعيون[١٢٨]، وكان يديره متصرّف يعيّنه والي سوريا. وفي عام ١٨٨٨ أعلنت بيروت ولاية وألحق بها كلّ من ألوية بيروت وطرابلس ونابلس واللاذقية وعكا، وكانت أقضية بيروت وصيدا وصور ومرجعيون تشكّل لواء بيروت، كما كانت أقضية طرابلس وحصن الأكراد وعكار وصافيتا تشكّل لواء طرابلس[١٢٩].

ومنذ ذلك الحين، أخذت بيروت تستعيد أمجادها الغابرة وازدهارها الضائع، فبدأت تتسع وتنمو وتكبر بالنظر إلى مركزها الجغرافي من جهة، ومركزها السياسي والإقتصادي والإداري من جهة أخرى، حتى أصبحت عاصمة لدولة لبنان الكبير عام ١٩٢٠[١٣٠].

حواشي الفصل الأول

(١) «إنّ إعلان دولة لبنان الكبير قد جرى أمس (١ الجاري) في بيروت، من قبل الجنرال غورو، ووسط جوّ من الحماس الشديد».

"La Proclamation du Grand Liban a été faite hier ler à Beyrouth par le Général Gouraud au milieu d'un grand enthousiasme". "De Al-Province, Beyrouth le 2 sept. 1920".

(Sce historique de l'Armée de Terre à Vencennes - Section Outre - mer - Archives A 2 - 31).

والجدير بالذكر أنه، قبل هذا الإعلان بثلاثة أعوام (١٩١٧)، كان واحد من قادة الفكر المسيحيين في لبنان، هو اسكندر عمون والد فؤاد عمون، يندّد في إحدى رسائله لجريدة الشمس، بالإستعمار الفرنسي على بلادنا، ويحلم «بولايات متحدة عربية على مثال الولايات المتحدة الأميركية». وهي موجودة في المصلحة التاريخية لجيش البرّ الفرنسي بفنسين).

(Sce historique de l'Armée de Terre à Vencennes - Section Outre - mer - Archives Cote 7 N 1640).

(٢) المادة الأولى من الدستور اللبناني، وقد عدّلت الفقرة المتعلّقة بالحدود الجنوبية في هذا الدستور بالقانون الدستوري الصادر بتاريخ ٩ تشرين الثاني ١٩٤٢ والمنشور في الجريدة الرسمية بتاريخ ١٠ تشرين الثاني ١٩٤٣ (عدد ٤١٠٦ ص ٥٠) فأصبحت كما يلي: حدود قضاءي صور ومرجعيون الجنوبية الحالية.

(٣) حذفت هذه الفقرة من المادة الأولى من الدستور بالتعديل الذي أجري عليه بالقانون الدستوري المشار إليه سابقاً (الجريدة الرسمية عدد ٤١٠٦ ص ٤١).

(٤) Sce historique de l'Armée de terre à Vincennes - Section ancienne - Archives G 4 - 1.

(٥) بلغ عدد القوّات الفرنسية في هذه الحملة ١٨٥ ضابطاً و٥٥٤٤ رتيباً وجندياً، وظهر ذلك في مذكّرة وجهها الجنرال بلونديل (Blondel) مدير الأفراد والعمليّات العسكرية في وزارة الحرب الفرنسية إلى رئيس ديوان الوزير بتاريخ ٣٠ تموز ١٨٦٠. وقد اقتصرت الحملة على الفرنسيين فقط.

(Sce historique de l'Armée de Terre à Vincennes - Section ancienne -Archives G 4 - 1, ordre général N° 2)

(٦) حدّد وزير الخارجية الفرنسية توفنيل (Thouvenel) في رسالة منه إلى الأميرال غاملان (Gamelin) وزير الحربية بالوكالة، بتاريخ ٤ آب ١٨٦٠، مهمّة هذه الحملة في سوريا كما يلي:

«السعي، بتدابير فورية وفعّالة، لإيقاف نزف الدم، ووقف الجرائم المرتكبة بحقّ المسيحيين والتي يجب أن لا تظلّ بلا عقاب».

(Sce historique de l'Armée de Terre à Vincennes - Section ancienne - Archives G 4 - 1).

(٧) (Sce historique de l'Armée de Terre à Vincennes - Section ancienne - Archives G 4 - 1, lettre N° 38). وقد أصدر الجنرال «بوفور دونبول» أمراً عاماً أنشأ بموجبه الحملة التي كلّف قيادتها.

(٨) وزارة الدفاع الوطني - الجيش اللبناني - الأركان العامة، ومؤسّسة الدراسات الفلسطينية، بيروت القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، ص ٧٦، وراجع النص الإنكليزي للمذكّرة في:

J. C. Hurewitz, Diplomacy in the Near and Middle East. A documentary Record, 1914 - 1956, vol. II (Princeton, 1956, p. 46).

(٩) القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، ص ٥٢٨ - ٥٢٩.

(١٠) م. ن. ص ٥٣٠.

(١١) م. ن. ص. ٨٠.

(١٢) خاطر، لحد، عهد المتصرّفين في لبنان، ص ١٢ - ١٧، والجدير بالذكر أنّ القرار رقم ٣١٨ الذي سبق ذكره والذي أصدره الجنرال غورو في ٣١ آب ١٩٢٠ كان قد ألغى المتصرّفية بعد أن ألحق بها الأقضية الأربعة التالية: بعلبك والمعلقة وراشيا وحاصبيا، كما ألحق بها سنجق بيروت وقسماً من سنجقي صيدا وطرابلس، ليكوّن منها جميعاً «دولة لبنان الكبير».

- Rabbath, Formation Historique du Liban politique et onstitutionnel, p. 348.

(١٣) - Thoumin, Histoire de la Syrie, p. 242.

(١٤) - Rabbath, op. cit. p. 167.

Voir aussi: Ismaïl, Adel, Histoire du Liban, T. I, p. 48.

(١٥) «يؤكّد تقرير لأحد قناصل فينيسيا أنّ كلاً من البشالق السورية الكبيرة يكلّف من يرغب الحصول عليه من ٨٠ إلى ١٠٠ ألف دوكا» (Lammens, La Syrie, T. 2, p. 61) والدوكا (Ducat) عملة ذهبية كانت تساوي الوحدة منها عشر فرنكات فرنسية قديمة.

(Mouterde, Précis d'Histoire de la Syrie et du Liban, p. 94).

(١٦) Jouplain, La question du Liban, pp. 83 - 84 -.
- Rabbath, op, cit. p. 167.
وأنظر كذلك، ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٢٩ - ٣٢.

(١٧) ساطع الحصري، م. ن، ص ٢٢٠ - ٢٢٤.

(١٨) Ismaïl, Adel, Histoire du Liban, T. I, pp. 54 - 55 -.

(١٩) Dib, Histoire de l'Eglise maronite, T. I, pp. 31 - 32 -.
والدويهي، تاريخ الأزمنة، ص ٢٨١.

(٢٠) Jouplain op. cit., pp. 83 - 84 -.
- Dib, op. cit. T. I, p. 114.

(٢١) D'Arvieux, Mémoires, T. II, pp. 352 - 353 -.

(٢٢) Dib, op. cit. T. I, p. 32 -.

(٢٣) Rabbath, op. cit., p. 167 -.
مع تحفّظنا تجاه هذا الرأي. إذ نعتبر أنّ تطلّعات الإستقلال هذه بقيت محصورة بإمارة الشوف. وبأميرها فخر الدين المعني الثاني دون سواه من الأمراء المعنيين بعده.

(٢٤) طنّوس الشدياق، أخبار الأعيان في جبل لبنان ج ١: ٢٦.

(٢٥) م. ن. ج ١: ٢٤ - ٢٨، وانظر أيضاً، إسماعيل حقي بك، لبنان، مباحث علمية وإجتماعية، ج ١: ٤٦ - ٤٨، والبستاني، دائرة المعارف مجلّد ١٠: ٦٢٦ (من مقالة عن الشوف بقلم الأمير شكيب أرسلان) وانظر كذلك: اليازجي رسالة تاريخية في أحوال لبنان في عهده الإقطاعي، ص ٥، إلاّ أنّ اليازجي يعتبر، بعكس البستاني، أنّ المقاطعة السابعة من جبل الشوف هي المتن وليس إقليم الخروب. كما يروي القس حنانيا المنير في كتابه (الدرّ المرصوف في تاريخ الشوف) المنشور في مجلّة المشرق (مجلّد ٤٨: ٦٢٧) أنه لمّا توفي الأمير أحمد معن آخر الأمراء المعنيين الذين تولّوا حكم جبل الشوف «إجتمعت بعد وفاته مشايخ البلاد من السبع مقاطعات وهي: الشوف والعرقوب والجرد والشحار والغرب والمتن وكسروان، لأنه كان حاكماً في البلاد، وأجمع رأيهم على تسليم الحكم للأمير بشير». كذلك ورد في كتاب، تاريخ بيروت، لصالح بن يحيى، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٢٧، خارطة مفصّلة لبلاد الشوف بمقاطعاتها السبع، وقد رأينا من المفيد إدراجها في كتابنا، (أنظر الخارطة).

(٢٦) الشدياق، المصدر السابق، ج ١: ٢٣٥ وإسماعيل حقي بك، لبنان، مباحث علمية وإجتماعية، ج ١: ٣٢٣. و (Catafago, Journal asiatique, mars - avril 1864, pp. 266 - 267)

(٢٧) الشدياق، م. ن. ج ١: ٢٣٦ - ٢٣٩، واسماعيل حقي بك، م. ن. ج ١: ٣٢٢ - ٣٢٤، إلاّ أنّ الدكتور كمال الصليبي يرى أنّ فخر الدين الأوّل «لم يكن له وجود» ويسند رأيه هذا بأدلّة تظلّ موضوعاً للنقاش. (مجلّة الحوادث اللبنانية عدد ١٠/٢/٩٧٨ وملحق النهار عدد ٢١/٧/٩٦٦ و٣١/٨/٩٦٦، وأبعاد القومية اللبنانية، ص ٨٥ - ١١١).

(٢٨) - Ismaïl, Adel, op. cit., T. I, p. 54.

(٢٩) المعلوف، عيسى إسكندر، مجلّة الآثار سنة ١٩٢٧ ص ٢٢٥.

(٣٠) م. ن.: ٢٢٥ - ٢٢٦ وانظر أيضاً: تاريخ الشهابيين بقلم أحد أمرائهم من وادي التيم، تحقيق الدكتور سليم هشي، ص ١٥ حاشية ٢.

(٣١) الأمير حيدر الشهابي، تاريخه، ج ١: ٢٦٣.

(٣٢) م. ن.، ص. ٢٧٠ - ٢٧١.

(٣٣) تاريخ الأمراء الشهابيين بقلم أحد أمرائهم من وادي التيم ص ٢٩ - ٢٢، وانظر أيضاً دائرة المعارف للبستاني، مجلّد ١٠: ٥٩٠.

(٣٤) تاريخ الأمراء الشهابيين بقلم أحد أمرائهم من وادي التيم، ص ٤٩.

(٣٥) - De la Roque, Voyage de Syrie et du Mont-Liban T. I., p. 228.

(٣٦) ياقوت، معجم البلدان، ج ١: ٢٥٠.

(٣٧) البستاني، دائرة المعارف، مجلّد ٥: ٥٢٢.

(٣٨) مجلّة العرفان، سنة ١٩٢٤: ٢٩١ - ٢٩٧.

(٣٩) العرفان، م. ن. ص. ن، وانظر أيضاً: ميخائيل ألوف، تاريخ بعلبك، ص ١١٠ - ١١١. إلاّ أنّ ألوف يرى أنّ هذه الأسرة حكمت بعلبك طوال خمسة قرون منذ النصف الثاني من القرن الرابع عشر إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وربما يستند بذلك إلى أنّ أحد أمراء هذه الأسرة الأمير علاء الدين الحرفوش كان أميراً على بعلبك في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي، وفي عهد الظاهر برقوق الذي استعان به على تركمان كسروان، وأنّ علاء الدين المذكور قتل في موقعة جرت بين حاكم دمشق يلبغا ونعير أمير العرب عام ١٣٩٣ م. (ألوف، م. ن. ص: ٨٦ - ٨٧).

(٤٠) العرفان، م. ن. ص. ن. وألوف م. ن. ص ٨٦.

(٤١) العرفان، م. ن. ص. ن. وألوف م. ن. ص ١١٠ - ١١١.

(٤٢) إبن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٢: ٤٠٢.

(٤٣) أبو الفدا إسماعيل، التواريخ القديمة من المختصر في أخبار البشر ص ١٩٠.

(٤٤) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٨٣.

(٤٥) «ورحل هو (أي المزيز) والعساكر إلى جبل الخليل وهو الذي يُعرف بجبل عاملة»، إبن الأثير، الكامل في التاريخ ج ١٢: ١٢٩.

(٤٦) محمّد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص ٢٨.

(٤٧) محسن الأمين، خطط جبل عامل ص ٤٧، نقلاً عن السبيتي، الجوهر المجرّد في شرح قصيدة علي بك الأسعد، وانظر أيضاً: سليمان ضاهر، تاريخ قلعة الشقيف ص ٤ نقلاً عن: العقد المنضد لشبيب باشا الأسعد.

(٤٨) سنة ١٩٣٧: ٢.

(٤٩) أحمد رضا، مجلّة العرفان، سنة ١٩٤٣: ٢١٩ - ٢٢١.

(٥٠) علي الزين، للبحث عن تاريخنا، ص ١٦٢ - ١٦٣.

(٥١) أحمد رضا، المصدر السابق، سنة ١٩٤٥: ٢١٩، وأنظر: الهمذاني، صفة جزيرة العرب ص ١٣٢ و١٢٩.

(٥٢) الأمير حيدر أحمد الشهابي، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، قسم ١: ٥، تحقيق رستم والبستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٦٩.

(٥٣) أحمد رضا، مجلّة المقتطف، سنة ١٩١٠: ٤٢٩ - ٤٣١، ومجلّة العرفان سنة ١٩٤٥: ٢١٩ - ٢٢١ وناصيف اليازجي، رسالة تاريخية، ص ١٣.

(٥٤) علي الزين، المرجع السابق، ص ١٦٤ - ١٦٥، أبو شقرا، الحركات في لبنان ص ١٥٠.

(٥٥) تاريخ جبل عامل ص ٢٤، ويذكر المؤلّف أنّ جبل الريحان هذا مع جزين ومشغرة، ألحقوا فيما بعد بجبل لبنان.

(٥٦) محسن الأمين، المرجع السابق، ص ٥١، وسليمان ضاهر، المرجع السابق، ص ٤، ويشك السيّد محسن الأمين في أن تكون مدينة صيدا نفسها داخلة في جبل عامل، ثم يؤكّد أن الحولة، وكذلك صفد، لم تكونا من جبل عامل (م. ن. ص ٥٢). أما الشيخ سليمان ضاهر فينتقد المؤرّخين الذين يتسامحون بتوسيع حدود جبل عامل فيجعلونه يضمّ لبنان وصفد، والذين يضيّقون هذه الحدود فيجعلونه قسماً من بلاد بشارة «القبلية» أو قسماً من الشقيف (م. ن. ص ٤).

(٥٧) آل صفا، المرجع السابق ص ١٠٠ - ١٠١.

(٥٨) الأمير حيدر أحمد الشهابي، تاريخه (الفرر الحسان)، ج ١: ٣٣٣، تحقيق نعوم مغبغب.

(٥٩) القلشندي، صح الأعشى، مجلّد ١٤: ٤١، منشورات مطبعة السلام، مصر، ١٩٠٠(*).

(*) يختصّ الجزء الأوّل من تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابي (الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان) بسرد الأحداث من مولد النبي (صلعم) إلى موت الأمير أحمد المعني، ويختصّ الجزء الثاني (نزهة الزمان في تاريخ جبل لبنان) بسرد الأحداث من وفاة الأمير أحمد المعني وانتقال الحكم للشهابيين إلى ولاية الأمير بشير الكبير، والثالث (الروض النضير في ولاية الأمير بشير الكبير) بسرد الأحداث خلال ولاية الأمير بشير الثاني الكبير. وقد حقّق نعّوم مغبغب الأجزاء الثلاثة وطبعها بمصر عام ١٩٠٠. أمّا الدكتوران رستم والبستاني فقد حققا الجزئين الأخيرين فقط (المهد الشهابي)، وقد إعتمدنا، في هذا الجزء، النسخة التي حقّقها نعّوم مغبغب.

(٦٠) آل صفا، المرجع السابق، ص ٣٦.

(٦١) م. ن. ص ٣٧.

(٦٢) م. ن. ص ٤٠ - ٤١.

(٦٣) سليمان ضاهر، معجم قرى جبل عامل، العرفان، سنة ١٩٢٢: ٤٣٤، ٤٣٨، ٥٢٧.

(٦٤) شبيب باشا الأسعد، العقد المنضد، ص ١٦ و١٧ وآل صفا، المصدر السابق ص ٣٦ و٤٥.

(٦٥) آل صفا، المرجع السابق، ص ٤٦ - ٤٧.

(٦٦) أحمد رضا، مجلّة المقتطف، سنة ١٩٠٦: ٢١٩ - ٢٢١ وسنة: ١٩١٠: ٤٢٩ - ٤٣١. وهناك أسر تولّت الحكم في مقاطعات جبل عامل في بعض الفترات السياسية إلاّ أنّ حكمها لم يكن مستقرّاً لمدد طويلة، من هذه الأسر: آل الزين في ساحل صور، وآل برو في جبل الريحان، وآل داغر في منطقة أنصار، وال شامي في منطقة بنت جبيل (الزين، للبحث عن تاريخنا، ص ٣٦١ - ٣٦٣).

(٦٧) آل صفا، المرجع السابق، ص ١٠٤ - ١٠٥.

(٦٨) محمّد تقي آل فقيه، جبل عامل في التاريخ ج ٢: ٢٣.

(٦٩) م. ن. ص ٣١.

(٧٠) الخالدي، تاريخ فخر الدين ص ٥٢، والشهابي، تاريخه، ج ١: ٦٤٩.

(٧١) آل صفا، المرجع السابق، ص ١٤٩ - ١٥١.

(٧٢) - Baron de Tott, mémoires sur les Turcs et les Tartares, T. IV, pp. 122 - 123.

(٧٣) ناصر خسرو، سفرنامة، تعريب يحيى الخشّاب ص ١٣، والترنج: وتسمّى أيضاً البادر نجوية، نبات ساقه مستقيمة مربّعة مفرّعة طولها قدمان فأكثر، أو بقلة كبيرة النفع في الأمراض السوداوية، وتعرف ببقلة الأترجية والترنجان (محيط المحيط ج ١: ٥٩ و١٦٤). والأربطة جمع رباط وهو في الأصل ملاذ الصوفية وأمثالهم من النسّاك، ولكن يتبيّن من النصّ أنّ الأربطة مبان

متعدّدة الطبقات. ويقول البستاني (دائرة المعارف ج ١: ٢٤١) إنّ الصليبيين مرّوا على طرابلس سنة ١٠٩٩م. «فحاربوا أميرها وصالحوه على مالٍ افتداها به منهم، وهناك رأوا، لأول مرة، قصب السكر، فأعجبهم ونقلوا منه إلى سيسيليا (صقلّية)».

(٧٤) البستاني، دائرة المعارف ج ١١: ٢٤٢.

(٧٥) البستاني، م. ن. ج ١١: ٢٤٢ وعبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ص ٦٣ - ٧٦.

(٧٦) البستاني، م. ن.، ج ١١: ٢٤٢ وسالم م. ن. ص: ١١٣ – ١٢١.

(٧٧) البستاني م. ن. ج ١١: ٢٤٢ وسميح وجيه الزين، تاريخ طرابلس ص ١٨٣.

(٧٨) إمتدّ ملكه سنة ١٥٧٢ من جسر المعاملتين إلى حماة (المعلوف، تاريخ زحلة ص ٩٦).

(٧٩) - Ismaïl, Adel, op. cit. T. I., p. 48.

وانظر أيضاً: - Jouplain, op. cit. pp. 83 - 84.

والدويهي، تاريخ الأزمنة ص ٢٨١، و - Lammens, Henri, La Syrie, Vol. II, P. 60.

(٨٠) - Dib, op. cit., T. I., p. 114. وانظر أيضاً: - Thoumin, op. cit., p. 255.

(٨١) - Jouplain, op. cit., p. 184. أمّا الرحّالة الفرنسي الطبيب دي هاي دي كورمنين Des Hayes de Courmenin الذي زار الشرق عام ١٦٢١ فيذكر في كتابه: رحلة المشرق (Voyage du Levant) ص ٢٨٦ أنّ أمير طرابلس يدفع للصدر الأعظم ضريبة سنوية مقدارها ألف ليرة. ويذكر أنّ هذا الأمير يدعى «يوسف» والمقصود يوسف باشا سيفا بالذات.

(٨٢) - Lammens, op. cit. vol II, p. 61. والدوكا عملة ذهبية كانت متداولة في فينيسيا منذ القرن الثالث عشر، وقد ضربت بعض الدول الأوروبية، وبعض المقاطعات الإيطالية، عملة مشابهة لها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

(٨٣) الحتوني، نبذة تاريخية في تاريخ المقاطعة الكسروانية، ص ٥٧.

(٨٤) الدويهي، المرجع السابق، ص ٣٢٠ – ٢٨٠ والشهابي، تاريخه، ج ١: ٧٢١ – ٧٤٣ وسميح الزين، المرجع السابق، ص ١٩٥ – ٢٠٢.

(٨٥) - Volney, Voyage en Syrie et en Egypte, p. 281.

ويحدّد المؤلّف في مكان آخر عدد الرماة المغاربة بمئتين، كما يحدّد عدد سكّان الولاية، باستثناء كسروان، بمئتي ألف نسمة، أما كسروان فيحدّد عدد سكّانها بـ ١١٥ ألفاً.

(Volney, ibid, pp. 356 - 357)

(٨٦) رستم، بشير إبن السلطان والعزيز ص ٢٣ - ٢٤ و٧٠ - ٧١ وسميح الزين، المصدر السابق ص ٢٧٩ - ٢٨٢.

(٨٧) رستم، لبنان في عهد المتصرّفية ص ٢١٣، وعندما أصبحت بيروت ولاية عام ١٨٨٧ صارت طرابلس لواء مؤلّفاً من الأقضية الأربعة نفسها. (المديرية العامة للآثار، يوميات لبناني في عهد المتصرّفية، تحقيق الدكتور هشي، ص ٣٨).

(٨٨) ياقوت، معجم البلدان، مجلّد ٧: ٢٢٥.

(٨٩) إبن جبير، رحلة إبن جبير، ص ٢٢٩.

(٩٠) إبن جبير م. ن. ص ٢٦٠.

(٩١) - E. Roger, La terre Sainte, p. 416.

ويبدو أنّ دي لا كروا (De la Croix) الذي زار هذه البلاد في أواخر القرن السابع عشر الميلادي، قد استعان بما قدّم سلفه روجيه من معلومات حين قال: «إنّ جبل لبنان هو واحد من أعلى الجبال تحت السماء، وهو واقع بين طرابلس الشام ودمشق، ومساحته نحو ستين فرسخاً تقريباً»...

(De la Croix, La Turquie chrétienne, L III p. 294).

(٩٢) الصليبي، تاريخ لبنان الحديث ص ١٢.

(٩٣) الصليبي، م. ن. ص ١٣.

(٩٤) مجلّة المشرق، سنة ١٩٤٢ ص ٢.

(٩٥) - E. Roger, op. cit., p. 243.

(٩٦) الدويهي، المصدر السابق، ص ٢٨٧، والمعلوف، تاريخ فخر الدين ص ٦٠، وقرألي، فخر الدين ودولة توسكانة ج ٢: ص ٩٧.

(٩٧) الحتوني، نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية ص ٥٧ و٦٥ و٧١ - ٧٢.

(٩٨) الشدياق، المصدر السابق، ج ١: ١٩٣ - ١٩٧.

(٩٩) الصليبي، المرجع السابق، ص ٢١ - ٢٢.

(١٠٠) القلقشندي، المصدر السابق، ج ٤: ١١١.

(١٠١) م. ن. ج ٤: ٢٠٢ وأنظر أيضاً: عبد العزيز سالم، المصدر السابق، ص ١٥٩.

(١٠٢) الدويهي، المصدر السابق ص ٣٠٦، ويذكر الرحّالة الفرنسي داهي دي كورمينان (Des Hayes, baron de Courmenin) الذي زار صيدا عام ١٦٢١ أنّ الأمير علي بن فخر الدين استضافه

فيها باحترام كبير. (Des Hayes, baron de Courmenin, Voyage du Levant, p. 441).

(١٠٣) سالم، المرجع السابق، ص ١٨٨.

(١٠٤) الدويهي، المصدر السابق، ص ٣٣٨ و٣٤١ و٣٥٢.

(١٠٥) الدويهي، م. ن. ص ٣٥٩ وأنظر أيضاً: المعلوف، دواني القطوف ص ١٩٤ والشهابي، المصدر السابق، ج ١: ٧٣٢ و:

- Jouplain, op. cit., p. 83.

- Lammens, op. cit Vol. II,. p. 60.

- Thoumin, op. cit., p. 255.

(١٠٦) - Lammens, op. cit. T II, p. 60.

- Dib, op. cit., T. I, pp. 114 et 119.

(١٠٧) الدويهي، المصدر السابق، ص ٣٥٩.

(١٠٨) الشهابي، المصدر السابق، ج ١: ٧٣٢، ويرفع هنا بمعنى يزيل.

(١٠٩) الدويهي، المصدر السابق، ص ٣٥٨ - ٣٥٩ والشهابي، م. ن. ح ٧٣١ - ٧٣٢.

(١١٠) - D'Arvieux, op. cit. T II,.p.p 352 - 353 (Garnison de Barut en 1660).

(١١١) المعلوف، تاريخ مدينة زحلة، ص ٩٦.

(١١٢) - Hasselequiest, Frédéric, Voyage dans le Levant (dans les années 1749 - 1752), p. 241.

(١١٣) الخوري، منير، صيدا عبر حقب التاريخ، ص ٢٥٦ - ٢٨٦.

(١١٤) م. ن. ص ٢٩٨.

(١١٥) رستم، لبنان في عهد المتصرّفية، ص ٢١٣.

(١١٦) سقطت بيروت بيد صلاح الدين في ٦ آب ١١٨٧م. (حتي، لبنان في التاريخ، ص ٣٦٧).

(١١٧) الأب لويس شيخو اليسوعي، بيروت، تاريخها وآثارها ص ٦٨ وأنظر أيضاً: الشدياق، المصدر السابق، ج ١: ٢٤ - ٣٦، وأنظر منشور تولية بحتر على إمارة الغرب من جبل بيروت عند صالح بن يحيى، تاريخ بيروت ص ٤٠ - ٤٢.

(١١٨) صالح بن يحيى، م. ن. ص ٢٣ - ٢٤.

(١١٩) أنظر تفصيلاً لذلك عند صالح بن يحيى م. ن. ص ٢٦ - ٢٧، ٢٩ - ٣٠ و٩٦ - ٩٧ وأنظر أيضاً: الأب لويس شيخو اليسوعي، المصدر السابق ص ٦١ - ٦٢.

(١٢٠) قسم المماليك بلاد الشام بعد فتحها إلى ست مقاطعات دعوها «الممالك الشامية» ووضعوا على رأس كلّ منها نائباً للسلطنة، وكانت كبرى هذه الممالك «مملكة دمشق» التي قسّمت إلى أربع صفقات منها: الصفقة الشمالية التي كان يشرف عليها نائب بعلبك، والتي قسّمت بدورها إلى أربع مناطق أو ولايات هي: البقاع البعلبكي، والبقاع العزيزي، وصيدا وبيروت (تاريخ بيروت، لصالح بن يحيى، المحققون، المقدّمة ص ٢).

(١٢١) صالح بن يحيى م. ن. ص ٣٧، وقد أصبحت بيروت في عهد البحتريين قاعدة بحرية مهمة وأقيم فيها مصنع للشواني (السفن) في عهد الأمير يلبغا العمري في القرن الرابع عشر الميلادي، إلاّ أنّ هذا المصنع توقّف بعد موت يلبغا مباشرة (١٣٦٦م.) (صالح بن يحيى م. ن. ص ٢٩ - ٣٠).

(١٢٢) تجدر العودة إلى ما كتبه القلقشندي عن بيروت في القرن الخامس عشر الميلادي (صبح الأعشى، ج ٤: ١١٠ - ١١١).

(١٢٣) هو صالح بن يحيى البحتري التنّوخي، عاش في النصف الأوّل من القرن الخامس عشر الميلادي، فروى أخبار أسرته منذ مطلع حكمها إلى أيامه، وذلك في كتابه «تاريخ بيروت» الذي يعدّ أهمّ مرجع عن آل بحتر أمراء الغرب، وقد سبق أن استشهدنا به مراراً.

(١٢٤) يذكر الدويهي (تاريخ الأزمنة ص ٢٣٦) أنه حضر إلى السلطان سليم العثماني بعد فتح دمشق «الأمير قرقماس إبن الأمير يونس بن معن، والأمير جمال الدين اليمني، والأمير عسّاف، وغيرهم، دون أمراء العرب التنّوخيين لأنهم كانوا من صوب الجراكسة» فولّي الأمير قرقماس بلاد الشوف، والأمير جمال الدين بلاد الغرب، والأمير عسّاف كسروان وبلاد جبيل. ويقول الشدياق (أخبار الأعيان ج ١: ٢٣٨) أنّ الذي قدم على السلطان سليم في دمشق بعد احتلالها هو الأمير فخر الدين المعني والد الأمير قرقماز، وأنه، أي السلطان «خلع عليه... وفوّض إليه كلّ أمور الشام، وقدّمه على الجميع».

(١٢٥) نجد تفصيل ذلك في حديثنا عن حكم آل عسّاف في جبل لبنان.

(١٢٦) أنظر ذلك بالتفصيل في: البستاني، دائرة المعارف ج ٥: ٧٤٩.

(١٢٧) في عام ١٧٧١ حضرت المراكب المسكوبية إلى ساحل بيروت ودكّت إبنتيها بناء لطلب من ظاهر العمر، كما أحرق أهل السفن بعض أبراجها وملكوها ثم نهبوها، وفي عام ١٧٧٢ حضرت المراكب المسكوبية من جديد بناء لطلب من ظاهر العمر والأمير يوسف الشهابي فحاصرتها ودكّت أسوارها وأبنيتها طوال أربعة أشهر حتى تخلّى الجزار عنها، وكان متسلّماً عليها من قبل الأمير

يوسف نفسه، وفي عام ١٧٩١ إستولى الجزار عليها، وكان أصبح والياً على عكا، فضبط أملاك آل شهاب فيها وأحرق دورهم. (البستاني، دائرة المعارف، ج ٥: ٧٤٩).

(١٢٨) رستم، لبنان في عهد المتصرّفية، ص ٢١٣.

(١٢٩) المديرية العامّة للآثار، يوميات لبناني في عهد المتصرهفية، تحقيق الدكتور هشي ص ٣٨.

(١٣٠) تميّزت الفترة الواقعة بين عامي ١٨٤١ و١٨٨٧، في المقاطعات اللبنانية، وخصوصاً في بيروت وصيدا، وفيما يتعلّق بالتنظيم الإداري، بالإضطراب وعدم الوضوح، وذلك لسرعة تغيير الولاة والمتصرّفين من جهة، وللتنافس الحاد الذي كان قائماً بين صيدا وبيروت من جهة ثانية، حيث كان الوالي في صيدا يغادرها ليقيم في بيروت نظراً لمركزها الإقتصادي والإجتماعي المميّز. (أنظر دراسة وافية عن التطوّر التاريخي للمقاطعات اللبنانية للدكتور مسعود ضاهر في مجلّة «دراسات» الصادرة عن كلية التربية بالجامعة اللبنانية ببيروت، العدد ١/١٩٧٥).

الفصل الثاني

الإطار الإجتماعي

البنية الإجتماعية للمقاطعات اللبنانية

١ - الإقطاع أساس التركّز السياسي في المقاطعات اللبنانية:

لقد ورث العثمانيون عن أسلافهم المماليك في بلاد الشام، وفي القرن السادس عشر، نظاماً إقطاعياً واضح المعالم، وكان هذا النظام وليد التفاعلات الإجتماعية التي عرفتها تلك البلاد منذ بدء عصر الإنحطاط العبّاسي (القرن الحادي عشر الميلادي) وبدء الغزو الصليبي (في أواخر القرن ذاته) والتي نتجت عن عوامل عدّة أهمّها:

أ - ضعف السلطة العبّاسية، وهي دولة الإسلام الرسمية، وما تبع ذلك من نشوء دويلات عديدة ومختلفة، إذ رافق بدء زوال الدولة العبّاسية، وما كانت تمثّل من فكر إجتماعي إسلامي مناقض تماماً لمبدأ الإقطاع، تيارات إجتماعية دخيلة كانت جميعها عوامل ضغط لتقليص هذا الفكر وإحلال الفكر الإقطاعي محلّه. من هنا، وبتأثيرٍ من الأفكار الإسلامية، إتخذ الإقطاع المستورد من الغرب إلى بلدان الشرق الإسلامي شكلاً مختلفاً عن الشكل الذي اتخذه في البلدان الأوروبية، حيث نشأ أصلاً. فبينما نرى «الإقطاع الغربي، في العصور الوسطى، قائماً على الإرث الثابت والدائم وعلى حقّ البكورة (أي حقّ الإنتقال في العائلة الواحدة من الإبن البكر إلى الإبن البكر (Droit de primogéniture)

وعلى عدم الحقّ بالتصرّف بالأرض وبالافلاح المرتبط بالأرض، نرى الإقطاع الشرقي لا يعترف بالإرث الثابت ولا بحقّ البكورة، ويترك للشيخ المنتدب على الأرض حقّ التصرّف بها»[١]. كما لم يعرف الإقطاع في هذه البلدان ما عرفه الإقطاع في الغرب من الإستعباد أو الرقّ (Servage) والتصرّف بالفلاح المقيم على الأرض المباعة (Tenures) والسخرة (Corvées) وحقوق الإقطاع ورجال الأكليروس، وذلك كلّه بتأثير من المبادىء الإسلامية القائمة على المساواة المطلقة بين أبناء المجتمع الإسلامي، وبتأثير من النظم الإسلامية التي كانت سائدة في العهدين المملوكي والعثماني، والتي لا تعترف بالتوارث في الإقطاع، كما تحصر حقّ الإقطاعي بجباية الضرائب فقط لمدّة أقصاها مدى الحياة[٢].

ب - الغزو الصليبي للمشرق العربي، وما حمله هذا الغزو من بذور النظام الإقطاعي الذي كان سائداً في أوروبا وإنكلترا في ذلك الحين، فقد انتشر الإقطاع أوّل ما انتشر بغزوات الفرنجة في شمال إيطاليا وألمانيا، ثم في البلاد السلافية، فأسبانيا، وتبنّى النورمانديون بعد ذلك النظام الإقطاعي المنتشر في أوروبا وطوّروه، وحمله خلفاؤهم فيما بعد إلى إنكلترا في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، ثم إلى جنوب إيطاليا، فسيسيليا بعد ذلك. ومن إنكلترا، إنتشر الإقطاع في سكوتلندا وإيرلندا، وأخيراً، حمله الصليبيون معهم إلى الشرق في أواخر القرن ذاته (سنة ١٠٩٦م). إلاّ أنهم لم يتمكّنوا، بفعل المبادىء الإسلامية، كما قدّمنا، من تطبيقه تطبيقاً أوروبياً خالصاً.

ج - الغزو المملوكي الذي حمل فكرة الإقطاع العسكري من مصر إلى بلاد الشام، والذي انتهى، في مطلع القرن السابع عشر الميلادي، إلى إقطاع عائلي كان أساس التركّز السياسي في المقاطعات اللبنانية في العهد العثماني فيما بعد، فقد كانت الطبقة الحاكمة في دولة المماليك (منذ منتصف القرن الثالث عشر

الميلادي وحتى مطلع القرن السادس عشر) منظّمة بشكل جيوش إقطاعية، وكان السلطان المملوكي يخوّل كبار حكّام البلاد الشامية حقّ تسمية الأمراء والخيّالة وحقّ إقطاعهم إقطاعات في بلادهم، ففي العام ١٣٠٦م. مثلاً، قسّمت جهات كسروان «إلى إقطاعات ووزّعت على ثلاثماية فارس تركماني أوكل إليهم حماية الشاطىء من أنطلياس، قرب بيروت إلى ضواحي طرابلس»[٣]، وهؤلاء الفرسان هم من آل عسّاف الذين حكموا تلك الجهات مدّة طويلة من الزمن فيما بعد. كذلك كان المماليك يمنحون أمراء القبائل والعشائر إقطاعات محدّدة ويكلّفونهم أمر حراستها، ومن هذه القبائل والعشائر التي تزعّمت المقاطعات اللبنانية في مطلع العهد المملوكي: بنو صبح في كسروان قبل (آل عسّاف) وبنو بشارة في جبل عامل (بلاد بشارة) وبنو الحنش في البقاع، وبنو الحمراء في البقاع أيضاً (في القرنين الرابع عشر والخامس عشر) وبنو بحتر أو تنوخ في الغرب، وبنو رمطوني (الأمير علم الدين سليمان إبن سيف الدين غلاب الرمطوني الملقّب بالكبير)[٤] في ضواحي بيروت، وبنو الجيش (أجداد الأمراء الأرسلانيين) بعرمون في ضواحي بيروت أيضاً[٥]. ولكن ما أن احتلّ العثمانيون مصر وبلاد الشام حتى قضوا على الإقطاع العسكري المملوكي في مصر بصورة نهائية، إلاّ أنهم أبقوا عليه في بلاد الشام بعد أن استبدلوا به إقطاعاً عسكرياً عثمانياً، وكافأوا زعماء القبائل الذين ناصروهم بأن ثبّوتهم في إقطاعاتهم ومنحوهم إقطاعات أخرى علاوة عليها (كالمعنيين والجنبلاطيين)، كما عاقبوا سواهم ممن ظلّوا حلفاء للمماليك بأن انتزعوا منهم إقطاعاتهم وشرّدوهم (كبني بحتر أمراء الغرب). ولكن الإقطاع العسكري العثماني لم يستمرّ طويلاً، إذ ألغيت الإقطاعات العسكرية جميعها بعد ثورة علي باشا جنبلاط والي حلب عام ١٦٠٥ - ١٦٠٧، فبعد هذه الثورة لم نعد نسمع بإقطاعات عسكرية عثمانية في بلاد الشام[٦].

د - عامل البيئة الجغرافية الذي تميّزت به المقاطعات اللبنانية ذات الطبيعة الجبلية، والذي منحها شخصية إستقلالية لم تعرفها باقي المقاطعات، ففي العهد المملوكي كما في العهد العثماني، لم تكن للحكومة المركزية، أو للسلطان، سيطرة تامة عليها، مما حدا بالسلطة المركزية لأن تحكم هذه المقاطعات بواسطة حاكم محلّي منها، مكتفية من الحكم باستيفاء الضرائب المترتّبة عليها، وبعدد من المقاتلين يقدّمه أميرها، أو متسلّمها، في أثناء الحرب، للسلطة المركزية، وهكذا نشأ في هذه المقاطعات أمراء من الأسر البارزة فيها، تولّوا أمرها، وأخذت السلطة المركزية تجدّد الولاية لهم سنوياً عليها، طالما يحظى هؤلاء برضى السلطة وعطفها لقاء مال يشترون به الولاية أو رشوة يقدّمونها للنافذين لدى النيابة أو الولاية أو السلطنة، وأصبح كلّ أمير يحرص على أن يحتفظ بالإمارة لنفسه ولذريته من بعده، فعرفت المقاطعات اللبنانية، من جرّاء ذلك، أسراً إقطاعية تداولت الحكم في المقاطعات المختلفة بصورة مباشرة، وحافظت على إنتقال الحكم فيها من الإبن البكر إلى الإبن البكر دون أن يكرّس، مع ذلك، حقّ البكورة كما عرفه النظام الإقطاعي الأوروبي، إذ كانت السلطة الحاكمة تحتفظ لنفسها، عند غياب الأمير لسبب ما (وفاة أو طرد) بحقّ اختيار الخلف، والتجديد له سنوياً، مع مراعاة التقليد المتبع، وهو اختيار الإبن البكر مبدئيا، مما خلق، بالتالي، طبقة أرستوقراطية شبيهة بطبقة النبلاء في النظام الإقطاعي الأوروبي، هي طبقة الأمراء والمقدمين والمشايخ، وتأتي بعدها طبقة العامة أو الفلاّحين[٧]، فكان الأمراء إذا تولّوا مقاطعة ما يقسمونها إلى إقطاعات صغيرة يدير شؤونها أمراء (أدنى من الأمراء الحكّام مرتبة) ومقدمون ومشايخ، وكانت هذه الطبقة من النبلاء تسمّى (مقاطعجية) أمّا الطبقة الثانية، وهي طبقة العامة أو الفلاّحين، فهي المسؤولة عن حراثة الأرض وزراعتها واستثمارها، وتعطى

الأرض للفلاّح بنـاء على إتفاق مقاسمة (Métayage)، وهذه هي الصلة القانونية التي كانت قائمة، في عهد الإقطاع هذا، بين الفلاحين وكبار الملاكين (المقاطعجيين)، في المقاطعات اللبنانية، بل كانت هذه الطريقة هي الأكثر إنتشاراً في هذه المقاطعات، ويعني إتفاق المقاسمة أن يستأجر الفلاّح الأرض من مالكها على أن يقاسمه هذا الأخير غلّتها بنسبة معيّنة قد تبلغ الربع أو الثلث أو النصف[٨]، ويكون الدفع عينا (en nature) ممّا يسهّل التعامل بين الأطراف المتعاقدة[٩]. وهكذا كان الإقطاع في المقاطعات اللبنانية قائماً على هرم قاعدته العامة أو الفلاحون، ورأسه الأمير الحاكم، وبين رأس الهرم وقاعدته يوجد (المقاطعجيون) الذين يديرون الآلة الإقطاعية ويحرّكونها، فيحثّون الفلاّح على العمل في الأرض حتى إذا أنتجت أخذوا من إنتاجها الحصّة المقرّرة لهم ولأميرهم الذي يدفع بدوره الحصّة المفروضة على الإمارة إلى السلطة المركزية.

يتبيّن ممّا تقدّم أن الأمير هو صلة الوصل بين أتباعه في الإمارة (من مقاطعجيين وفلاّحين) وبين السلطة الحاكمة، ولاية كانت أم سلطنة، وكان الأمير يستمدّ، في الأصل، سلطته من والي الولاية، إلاّ أنه كثيراً ما كان هذا الأمير أو ذاك يتجاوز الوالي ليستمدّ سلطته من الباب العالي مباشرة، فيأتي الفرمان بتوليته من السلطان وليس على الوالي إلاّ أن يرضخ وينفذ، وكثيراً ما كان الوالي يؤمر بتجييش الجيوش لتنفيذ فرمان سلطاني بتسليم إمارة ما بالقوة إلى الأمير الجديد إن لم يذعن الأمير المعزول لأمر السلطنة.

وكان لكلّ إمارة ثمن[١٠]، وكان يحظى بالإمارة من يدفع أكثر، أو من يتمكّن من انتزاع الإمارة بالقوّة، وغالباً ما كان الباب العالي يذعن لذلك، إلاّ متى رأى في قوّة الأمير خطراً يتهدّد مصالحه، عندها يجنّد جنده وجند الولاة وباقي الإقطاعيين المنافسين لمحاربة الأمير المتنفّذ، مستعملاً، في إستمالة

الحلفاء، كلّ وسائل الترغيب والتشويق، وفي مقاتلة الخصوم كلّ وسائل التهديد والتخويف والتآمر.

وكان على كلّ أمير أن يطلب تجديد إمارته سنوياً، وفي هذه الحالة، يتولّى الوالي مراسلة الباب العالي في الأمر، فإذا وافق يخلع الوالي على الأمير من جديد خلعة الإمارة مؤكّداً حقّه هو في الثمن، وحقّ الباب العالي في الضريبة، وفي تجنيد عدد من الجند يطلب من الأمير تقديمه عند الحاجة، ويرجع الأمير في ذلك إلى المقاطعجيين في إمارته فيوزّع عليهم الضريبة اللازمة وعدد الجند الذي يجب أن يقدّمه كلّ منهم(١١). وقد جرت العادة أن يجدّد للأمير كلّ سنة، إلاّ إذا أغري الوالي والباب العالي، بثمن أعلى، أو إذا أغضب الأمير أحدهما، فتنزع منه الإمارة، ومن هنا، كان لكلّ أمير يؤمن لنفسه، بالإضافة إلى الأرباح المادية الهائلة المستوفاة من الضرائب التي كانت ترهق كواهل الفلاّحين، عدداً من الجند يوفّر له القوّة اللازمة لمقاومة الوالي أو المنافس على الإمارة إذا لزم الأمر. ويظلّ الأمراء من العائلة الواحدة يتولّون الإمارة، في الأحوال العادية، خلفاً عن سلف، بحيث تستمرّ متوارثة(١٢) (أو شبه متوارثة)، كما يظلّ الأمراء، بدورهم يُقطعون المقاطعجيين المتعاملين معهم في إمارتهم، الإقطاعات التي كانت لهم، بحيث تستمرّ كذلك في سلالتهم متوارثة (أو شبه متوارثة)، ولا يقطع ذلك التوارث إلاّ خلاف يحصل، كما قدّمنا، بين الأمير والسلطة الحاكمة، أو بين الأمير وأحد المقاطعجيين عنده.

أمّا إذا إنقرضت سلالة الأمير ولم يبقَ من ذريته ذَكَر يتولّى الإمارة، فتعمد السلطة المركزية عندئذ إلى دعوة ذوي الإقطاعات في الإمارة إلى إنتخاب أمير من بينهم(١٣)، كما حصل عندما انقطعت السلالة المعنية بوفاة الأمير أحمد المعني عام ١٦٩٧، لتنتقل الإمارة بعدها، بالإنتخاب، إلى الأسرة الشهابية.

ويهمّنا أن نشير، في هذا المجال، إلى ما أوضحه الدكتور عادل إسماعيل، حول عدم وراثية الإمارة في العهد العثماني، ورغم أن استمرارية الإمارة في الأسرتين المعنية والشهابية يدلّ على عكس ذلك، يقول الدكتور إسماعيل: «لم يكن العثمانيون يعترفون بوراثية ثابتة للمقاطعات، إذ عندما يغيب أمير، لا يخلفه إبنه بالضرورة، بل بوسع السلطان أن يمنح المقاطعة أياً كان ممن يبرهن أمانة أكثر تجاه الباب العالي، أو كرماً أكثر تجاه الخزانة الإمبراطورية أو خزانة الباشا، ولكن تجدر الملاحظة أنّ حكومة الجبل غالباً ما كانت إستثناء لهذا المبدأ، فالمعنيون، والشهابيون، قد وصلوا، بفضل إدارتهم الجيّدة، إلى حكم البلاد بطريقة التوارث، حتى منتصف القرن التاسع عشر»[١٤]، نضيف إلى ذلك أن ليس الجبل وحده هو الذي حافظ على الشكل الوراثي في الإمارة، بل نجد الأمر نفسه عند الأمراء الحرفوشيين في البقاع والشهابيين في وادي التيم والسيفيين في طرابلس والأسر الحاكمة في جبل عامل.

٢ - صلاحيات الأمير الإقطاعي والمقاطعجي وواجباتهما - تقاليد الإقطاع:

الأمير هو الإقطاعي الأكبر أو الحاكم العام الذي يتولّى حكم إمارة أو مقاطعة ما، فيوزّعها إلى إقطاعات يعهد بكلّ منها إلى مقاطعجي من أتباعه، وكان المقاطعجي عادة يتحدّر من عائلة تنتسب إلى طبقة أعلى من طبقة باقي العائلات في الإقطاعة، لذا كان يعطى حقّ الإشراف على عدّة ضياع يديرها بإسم الأمير[١٥]. ويرتّب العرف والتقليد، بالإضافة إلى الشرائع المعمول بها، لكلّ من هؤلاء صلاحيات وامتيازات، كما يرتّب عليهم حقوقاً وواجبات.

وكان الأمير يتصرّف بالإقطاعات العائدة لإمارته فيجبي منها الضرائب والمكوس ويدعو المقاطعجيين فيها لتعبئة الجند وحمل السلاح في أيّ وقت، وكان

مستقلاً في إدارة إمارته فلا تتدخّل الدولة في شؤونها الداخلية طالما أنّ الأمير يدفع ما يترتّب عليه من أموال وضرائب، وكان الأمير، في مجال القضاء، بمثابة قاض إستثنائي أو تمييزي بالنسبة إلى رعيته، كما كان يتولّى حلّ الخلافات التي تحصل بين المقاطعجيين التابعين له فيما بينهم أو بين مقاطعجيي إقطاعاته وفلاحيها، أو بين فلاّحي إقطاعة من إقطاعاته فيما بينهم، هذا إذا صعب على المقاطعجي حلّ الخلاف[١٦]، فإذا كانت الشكوى على المقاطعجي نفسه أمر الحاكم المقاطعجي بإنصاف الشاكي، فإن لم يفعل أرسل إليه مباشراً من قبله ينزل في داره ولا ينفكّ عنه ولا يرحل إلاّ بأمر من الأمير وبعد أن يدفع المقاطعجي المشكو منه للشاكي حقّه أو يرفع عنه ظلامته، وتكون نفقة المباشر وعلف جواده على عاتق المشكو منه مع غرامة يدفعها هذا الأخير للمباشر، إلاّ إذا كانت الشكوى لسبب دين فتفرض الغرامة حينئذ على الشاكي والمشكو منه معاً، وتكون في الدين ٥٪ من الدين المقبوض، ويتصرّف الأمير التصرّف ذاته إذا كان الخلاف بين إثنين من المقاطعجيين التابعين له أو بين أهالي إقطاعتين من إقطاعاته.

ومن صلاحيات الأمير أيضاً أن يحكم على المذنب من أيّة إقطاعة من الإقطاعات التابعة له، إذا ارتكب جرماً يستوجب القتل أو قطع اليد مثلاً، أي أنّ الحكم بالكبائر والعقاب عليها هو من حقّه، أيّاً كان مرتكب الجرم من التابعين لإمارته، وفي أيّة إقطاعة من إقطاعات الإمارة حصل، كما أن للأمير الحق بأن يقيم في كلّ إقطاعة عاملاً من قبله لمراقبة تنفيذ هذه الأحكام[١٧].

وأمر الأمير لا يُردّ وطاعته واجبة، يعقد ما يشاء من التحالفات سواء مع الأمراء وحكّام المقاطعات المجاورة أو مع الدول الأجنبية (فخر الدين المعني والأمير بشير الشهابي) شرط أن لا تمسّ هذه التحالفات أمن الدولة المركزية وسلامتها، وإذا خرج عليه خارج من جماعته أو قاتله حاكم منافس أو والٍ حاقد

فبإمكانه أن يأمر بتعبئة الجند في جميع أنحاء مقاطعته ويسير للقتال فوراً دون أيّة معارضة، إلاّ أنه يعمد غالباً إلى أخذ رأي أولي الأمر من قومه فيجمع الأمراء والمقدمين والمشايخ ويستشيرهم في الخطة التي ينوي اتباعها والعمل الذي يريد القيام به.

وكان على الأمير، مقابل ذلك، أن يرعى أحوال إمارته ويحكم بين رعاياه بالعدل ووفقاً للتقاليد والشرائع المتبعة، كما كان عليه أن يؤدّي الضريبة سنوياً لخزانة الوالي أو السلطنة مع ما يستتبع ذلك من هدايا وهبات للوالي وللباب العالي، وأن يقدّم للدولة ما يفترض أن يقدّمه لها من جند عند الحاجة[١٨]، وكان عليه أن يسهر على الأمن في أرجاء إمارته، فيمنع كلّ تجاوز على القانون، ويدفع كلّ ظلم ينزل برعاياه.

وكان الأمير يجمع سنوياً الضرائب والمكوس والأموال المفروضة على إقطاعاته حسب الإتفاق الحاصل بينه وبين المقاطعجيين التابعين له، وهي ما تسمّى (بالميري)، فيرسل ما يستحق من هذه الأموال إلى الولاية أو السلطنة، ويحتفظ بالباقي كنفقة له وكواردات لخزينة الإمارة، مما يرتّب عليه مسؤوليات مادية جسيمة، إذ يجب عليه أن يعتني بحالة الإمارة العمرانية والإقتصادية والعسكرية والإدارية، فينشىء الجسور والقلاع والأبراج والحصون والحدائق العامة وأقنية المياه والمرافىء، ويحسن أحوال المزارعين ويدفع رواتب الجند والمستخدمين في إدارته، ممّا يوفّر له ولا شك تحسين أحوال إمارته وتدبير شؤون سياسته وتوفير عدد من الجند مناسب لحمايته. وعليه فوق كلّ ذلك، أن يدفع كلّ سنة ثمن الإمارة، ولو كان باهظاً، وما يستتبع هذا الثمن من رشاوى في الولاية أو السلطنة أو فيهما معاً.

أما المقاطعجي، سواء كان أميراً أم مقدماً أم شيخاً، فمن إمتيازاته أنه لا يُقتل ولا يُسجن ولا يُضرب، ولكن يصادر ماله أو يتلف عقاره أو ينفى، وإذا دخل

على الأمير وكان مذنباً فلا يهينه، وإذا كتب إليه الأمير كتاب غضب فعليه أن يثبت فيه ألقابه وكراماته، ومن صلاحياته أنه يتصرّف بإقطاعاته أمراً ونهياً ويقضي بين رعاياه بالعدل، فإن شكا أحد منهم إليه ظلامة فعليه أن ينصفه، فإن لم يفعل شكاه المتظلّم إلى الأمير الذي يأمر المقاطعجي بإنصافه، فإن لم يفعل «عاد الرجل إلى الحاكم فأرسل معه مباشراً من قبله (لكي) ينجز أمره بنفسه على غريمه ولا يكون لصاحب المقاطعة عتب عليه»[١٩]. ومن صلاحيات المقاطعجي أن يحكم على المذنب من أهل إقطاعته بالسجن أو الضرب أو كليهما، أمّا الحكم بالموت أو بقطع اليد فهو من حقّ الأمير وحده.

وعلى المقاطعجي، مقابل ذلك، أن يجمع الضرائب والمكوس والأموال المفروضة على الأعناق والعقارات من فلاّحي إقطاعته، وذلك حسب الإتفاق الحاصل بينه وبين الأمير، فيرسل ما يستحقّ منها إلى الأمير ويظلّ الباقي نفقة له[٢٠].

وقد كان للإقطاع في ذلك الحين تقاليد يتحتّم على الجميع مراعاتها والتقيّد بها، فهناك أصول في المكاتبة وفي المقابلة تختلف باختلاف المراتب، ففي المكاتبة مثلاً، يكتب الأمير إلى كلّ من أصحاب الرتب المار ذكرهم (الأمراء والمقدمين والمشايخ) مبتدئاً بعبارة «الأخ العزيز» ولا خلاف في أن يكون المكاتَب بهذه الصيغة أميراً أو مقدماً أو شيخاً، أمّا إذا كان من العامّة فمعنى ذلك أنه قد منح رتبة المشيخة، فكلّ أمير يجري عليه هذا اللقب، ولكن ليس كلّ من يجري عليه هذا اللقب صار أميراً، بل قد يكون شيخاً.

والأمراء طبقات، لذا كان الأمير الحاكم يكتب إلى كلّ أمير حسب طبقته، وكذلك المقدمون والمشايخ، فكان يكتب إلى الأمراء مثلاً، على نصف طبق من الورق، أمّا الباقون فيكتب إليهم على ربع طبق فقط، وكان الأمير يوقّع كتابه إلى الأمراء من عائلته وفوق اسمه كلمة «أخ»، أمّا الباقون فلا يختم الأمير كتابه

إليهم بكلمة «أخ» بل بعبارة «محب مخلص»، وأمّا العامّة وبعض المشايخ فكانت تختلف كتابة الأمير إليهم حسب قوّة العشيرة ومركزها بين العامّة، فمنهم من كان يبدأ كتابه إليهم بكلمة «عزيزنا» ومنهم من كان يكتب إليهم مبتدئاً بعبارة «حضرة عزيزنا» ومنهم من يكتب إليهم «أعزّ المحبّين» وهم عامة الجمهور، وتكون كتابة «عزيزنا» بربع طبق من الورق، أمّا «أعزّ المحبّين» فتكون بثُمن (١/٨) طبق فقط. وينهي الأمير كتابه إلى هؤلاء جميعاً بختم (طرة) نقش عليه كلمة (الفقير) إلاّ أنّ الكاتب غالباً ما كان يشوّش رسم هذه الكلمة كي لا تقرأ إحتراماً لمركز الأمير. أما الكتابة إلى الأمير فإنّ الجميع يدعونه «سيداً» ويدعون أنفسهم تجاهه «عبيداً» باستثناء الأمراء من عائلة الأمير نفسها فيدعون أنفسهم «أولاداً» أو «أبناء عمومة»، وكان الأمير إذا كتب كتاب غضب يضع ختمه في أعلى وجه الصفحة، أمّا إذا كان الكتاب كتاب رضى، فيضع ختمه على ظاهرها، وتلك عادته مع الجميع[٢١].

وفي المقابلة، كان الأمير ينهض إذا دخل عليه أحد الأمراء من عائلته، وينزل عن بساطه ويقف حتى يصل إليه الأمير الوافد فيسلّم عليه ويقبّل كتفه، أمّا إذا دخل عليه أمير من غير عائلته فلا ينهض حتى يبدأ الأمير الوافد بالتحية ثم يتقدّم ليقبّل عضده أو زنده، وإن كان الداخل مقدماً أو شيخاً فكان الأمير ينهض بعد أن يبادره الوافد بالتحية ثم يتقدّم ليقبّل حرف راحته مما يلي الإبهام، أمّا من دون هؤلاء من الرعايا فمنهم من كان الأمير ينهض عند دخوله عليه ويهمّ بتقبيل يده، ومنهم من كان لا ينهض له ولا يمكّنه من تقبيل يده، ومنهم من لا يُسمح له إطلاقاً بالدخول عليه. إلاّ أنه كان للقاضي عند الأمير منزلة خاصة إذ كان بمنزلة الأمراء عنده، بعكس رئيس الشرطة الذي كان في مرتبة العامة ولو كان شيخاً[٢٢].

٣ – الأرض والفلاح في المقاطعات اللبنانية:

يعرّف كلود كاهين المقاطعة بأنها «إقليم يُكلّف أحد الأعيان إدارته تجاه خزانة الدولة بقصد جباية الضرائب حسب التعرفة المتفق عليها سلفاً»[٢٣]. ويقول دومينيك شفالييه بهذا الصدد إنّ هذه المسؤولية «لم تكن تناط في (جبل) لبنان بواحد من الأعيان فقط، بل بزمرة من الأعيان يحمل أعضاؤها جميعاً لقب مقاطعجيين»[٢٤]. وكان هؤلاء الأعيان (أو هذه الأسر الأعيان) يقسمون مقاطعاتهم إلى «إقطاعات» صغيرة يتسلّم كلاً منها «شيخ» من أسرة نافذة في المقاطعة[٢٥].

وكانت الأرض، في هذه الإقطاعات، على أنواع:

– إمّا «بكلكا» أي أنّ ملكيتها تعود للأمير الحاكم، (وهي مشتقّة من لفظة تركية: بيليك).

– وإما «ملكاً» أي أنّ ملكيتها تعود لزارعيها (وقد كانت معظم الأراضي المزروعة في جبل لبنان من هذا النوع).

– وإما «وقفاً» أي أنّ ملكيتها تعود إلى المؤسّسات الدينية والخيرية، (وقد حوّلت معظم هذه الأراضي، في آخر العهد المملوكي، إلى إقطاعات).

– وإمّا «مشاعاً» أي أنّ ملكيتها تعود للسلطان، وهي ما كانت تسمّى بالأراضي السلطانية أو الأراضي الأميرية (في جبل لبنان، كان هذا النوع مقتصراً على المراعي والغابات فقط).

– وأخيراً «أرضاً مواتاً» وهي الأرض البكر التي لا تدخل في ملكية أحد، وإنّما تصبح ملكاً لمن يحييها عن طريق زراعتها وتعميرها[٢٦].

كما كانت «الإقطاعات» على أنواع:

- التيمار، وهي الإقطاعات الصغيرة التي تقلّ وارداتها عن عشرين ألف أقجة[٢٧].

- الزعامت، وهي الإقطاعات المتوسّطة التي تراوح وارداتها بين عشرين ألف ومئة ألف أقجة.

- الخاص، وهي الإقطاعات الكبيرة التي تزيد وارداتها عن مئة ألف أقجة.

وهكذا كان كلّ لواء أو سنجق في الولاية يضمّ عدداً من التيمارات والزعامتات، أما الإقطاعة «الخاص» فكانت تعطى عادة لأمير الأيالة أو أمير اللواء.

ولقد درجت الدولة العثمانية على تقسيم كلّ قطر تحتلّه إلى عدد من الإقطاعات الصغيرة والمتوسّطة والكبيرة بحيث يتضمّن كلّ منها عدداً مختلفاً من القرى، وكانت تمنح الإقطاعات الصغيرة إلى الجنود المحاربين والإقطاعات المتوسّطة إلى صغار القادة، أمّا الإقطاعات الكبيرة «الخاص» فكانت تسلّمها إلى الأمراء من القادة، ولكن ذلك لم يكن يعني إطلاقاً حقّ «الملكية» وإنّما يعني «حقّ جباية الرسوم والضرائب» المترتّبة على هذه الإقطاعات فقط[٢٨]. ولكن يظهر أنّ المقاطعات اللبنانية التي نحن بصددها لم تخضع لهذا النوع من التقسيم، إذ ظلّت، بأيدي أمراء تقليديين كانوا يوزّعون بأنفسهم الإقطاعات على الأسر النافذة في المقاطعة، ولم نعرف، في القرن السادس عشر، قوانين وشرائع ثابتة تتعلّق بتوزيع الإقطاعات على المزارعين في هذه المقاطعات، وكان عدد القرى في كلّ إقطاعة يكثر أو يقلّ حسب حجم الإقطاعة نفسها، وكان حجم الإقطاعة يكبر أو يصغر حسب أهمية الأسرة المقاطعجية وصلاتها بالأمير الحاكم[٢٩].

وكانت المقاطعة ملكاً إقطاعياً مشروطاً للأمير، والملكية هنا تعني الحيازة فقط، بحيث ترتبط هذه الحيازة بسلطة الأمير على سكّان هذه المقاطعة، وهي

تختلف عن الأرض المملوكة بدون شروط، والتي تسمّى «أملاكاً» أو «عقارات»، بأنّ هذه الأخيرة إقطاع خاص للأمير لا ترتبط حيازته لها بأية إلتزامات، بعكس المقاطعة التي تخضع للضريبة المتوجّب دفعها لمالك الأرض الأعلى، أي للدولة. وينتج عن ذلك أعباء مختلفة يتحمّلها الفلاّح في كلّ من النوعين، بحيث يدفع الفلاّح في المقاطعة ضريبة الدولة المتفق عليها مسبقاً، مع ما يتبعها من التزامات عائدة للأمير نفسه، بينما يدفع الفلاح في أملاك الأمير أو عقاراته الريع المتفق عليه حسب اتفاق «المقاسمة» لمالك الأرض أي الأمير، ثم الضريبة العائدة للدولة باعتبارها المالك الأعلى لكلّ أراضي السلطنة، وكان أصحاب المقاطعات والإقطاعات يملكون عادة عقارات عديدة تقع إمّا في مقاطعاتهم (أو إقطاعاتهم) أو في مقاطعات سواهم[٣٠]. بالإضافة إلى ذلك، كانت العقارات ذات الملكية المطلقة غير المشروطة تتمتع بميزات أخرى أهمّها حرية المالك في التصرّف بالأرض، وحرية نقل ملكيتها من يدٍ لأخرى، وإمكان تعيين نوع المزروعات التي يجب على الفلاّحين الشركاء أن يزرعوها، وهي أمور لم تكن تتميّز بها المقاطعات أو الإقطاعات (ذات الملكية المشروطة)[٣١]، ممّا كان يتيح للإقطاعيين مالكي العقارات تكديس الثروات على حساب الفلاّحين الكادحين.

أمّا الفلاّحون العاملون في هذه الأراضي، فكانوا على نوعين: النوع الأوّل، هم الفلاّحون الذين يستثمرون الأرض وفقاً لحقهم في التصرّف بها واستعمالها إستعمالاً حرّاً، على أن يدفعوا الضريبة المفروضة للإقطاعي صاحب المقاطعة وللخزينة، فكانت ملكيتهم لهذه الأرض «ملكية فلاّحية صورية» مبنية على حقّ التصرّف والاستعمال الحرّ فقط، وقد كان الفلاّحون في المناطق الجبلية بجبل لبنان وعلى الساحل من هذا النوع، إلاّ أنهم لم يكونوا يمتلكون سوى قطع من الأرض صغيرة ومتناثرة يكاد مردودها لا يكفي لإعالة أسرهم. والنوع الثاني هم الفلاّحون الذين كانوا يستأجرون الأرض على أساس المشاركة، وخصوصاً

المشاركة بالمغارسة، وهو النوع الذي شاع في معظم المقاطعات اللبنانية، وتعني المشاركة بالمغارسة أن يقدّم الإقطاعي مالك الأرض للفلاّح أرضاً غير مغروسة فيغرسها هذا الأخير حتى إذ أثمر الغرس أصبح الفلاّح مالكاً لقسم منها، الأمر الذي يجعله شريكاً للإقطاعي في ملكية الأرض وفي محصولها، ويجعله بالتالي مرتبطاً بالأرض وبالإقطاعي صاحب الأرض(٣٢).

وهكذا يمكن تصنيف الفلاّحين في هذه المقاطعات كما يلي:

- الفلاّحون المالكون للأرض ملكية صورية أو إسمية، وهؤلاء لا يتمتّعون بكامل حقوق المالك.

- الفلاّحون الشركاء، وهؤلاء يرتبطون بالأرض وبالإقطاعي ارتباطاً مباشراً فيصبحون تابعين له.

- الفلاّحون الذين يملكون قطعاً صغيرة من الأرض لا تكفي عادة لسدّ حاجاتهم فيستأجرون من الإقطاعي أرضه حسب اتفاق «المقاسمة»، وهؤلاء فئة تقع في الوسط بين الفئتين السابقتين(٣٣).

وكان الفلاّحون في المقاطعات اللبنانية يسكنون القرى عادة حيث توجد الأراضي الصالحة للزراعة، وكانت هذه القرى تتألّف من عدد من المنازل يراوح بين الخمسة أو الستة وبين الثمانين منزلاً، وكانت القرى الصغيرة تتألّف عادة من «بيت» واحد بمعنى «عائلة» واحدة، أمّا الكبيرة منها فتقسم إلى «أحياء» يقطن كلّ حيّ منها «بيت» أو «عائلة» واحدة، وكانت أراضي القرية تقسم عادة إلى جلالي وكروم وسليخ وأراضي صخرية صعبة المسالك تزرع عادة زيتوناً، وكانت معظم هذه الأراضي «ملكاً» لأهالي القرية، أمّا الأراضي «المشاع» في القرية فهي الأراضي الصخرية الموات والمراعي والأحراج والغابات، ويشرف على هذه الأراضي عادة مجلس القرية، وغالباً ما كان أهالي القرية الواحدة يستعملون مرافق عامّة مشتركة (سبل المياه وبيادر درس القمح والمناحل وأمكنة

جماعية لتربية دود القز)... ممّا يخلق بينهم روابط متينة ووثيقة من التعاون والتفاهم المشترك تصل غالباً إلى درجة القربى والمصاهرة[٢٤]، الأمر الذي جعل الإقطاعي يجد سهولة لا مثيل لها في تعبئة القوى البشرية في أيّ ظرف لردّ أيّ اعتداء أو للقيام بأيّ عمل.

ويذكر المؤرّخ الدكتور كمال الصليبي أنّ التنظيم الإقطاعي في إمارة الشوف وفي العهد المعني كان على درجة عالية من التنسيق، خصوصاً بين الزعامتين الدينية والإقطاعية، وذلك عائد إلى الترابط الوثيق بين سكّان هذه الإمارة من فلاّحين وزعماء إقطاع ورجال دين، الأمر الدي افتقده الإقطاع الذي كان قائماً في جبل لبنان في ذلك الحين، إذ كان التنسيق مفقوداً بين رجال الدين من الإكليروس وبين المقدمين من أصحاب الإقطاع الذين إنخفضت مرتبتهم في عهد المماليك «فأصبحوا جباة للضرائب، تابعين للحكّام المماليك في طرابلس» ثم أصبحوا في العهد العثماني «مكروهين لدى الكهنة والعامة على السواء»[٢٥].

لقد كان الفلاّح في المقاطعات اللبنانية، في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وحتى منتصف القرن التاسع عشر، أساس الإقتصاد في هذه المقاطعات، وكانت القرية أساس البنية الإجتماعية والسكانية فيها، وكان توزيع هذه القرى في كلّ إقليم أو إقطاعة أو مقاطعة، بشكل مكثّف، وبتمازج سكّاني عجيب، مذهبي وطائفي خصوصاً. عاملاً هاماً من عوامل اتحاد أهالي هذه القرى وتفاهمهم، وبالتالي من عوامل قوّة الأمير صاحب المقاطعة واستقرار المقاطعة نفسها، وقد ظلّت هذه الظاهرة مسيطرة في المجتمعات المختلفة في المقاطعات اللبنانية حتى منتصف القرن التاسع عشر، حين بدأت الدول الأجنبية تتدخّل بشكل مباشر في شؤون هذه المقاطعات، زارعةً بذور التفرقة المذهبية والطائفية، ممّا أدّى إلى حوادث عامي ١٨٤١ و١٨٦٠.

٤ – أهمّ الأسر الإقطاعية في المقاطعات اللبنانية:

لم يؤد تبدّل الأحكام في بلاد الشام في مطلع القرن السادس عشر، بسبب إنهيار حكم المماليك واستتباب الحكم للعثمانيين بعدهم، إلى تبدّل أساسي وجذري في الزعامات الإقطاعية للمقاطعات اللبنانية، وذلك لأن السياسة التي اتبعها الحكم المملوكي في إدارة هذه المقاطعات لم يبدّلها الحكم اللاحق تبديلاً جوهرياً، وظلّت المقاطعات اللبنانية في العهد الجديد تخضع لأمرائها الوطنيين وتكاد تتمتع باستقلال ذاتي فعلي، شرط أن تدفع هذه المقاطعات الضريبة المتوجّبة عليها إلى السلطنة، بينما كانت باقي المناطق في بلاد الشام تخضع للسيطرة العثمانية خضوعاً تاماً، وسبب ذلك هو صعوبة حكم المناطق الجبلية وصعوبة إخضاعها للإدارة المركزية، وقد نتج عن هذا الأمر أن نشطت الحياة السياسية في المقاطعات اللبنانية، وتمكّن الزعماء الإقطاعيون الوطنيون فيها من أن يتحرّكوا تحرّكاً مستقلاً عن تحرّك الحكومة المركزية وسياستها، حتى أنّ معظمهم تمكّن من أن ينشىء في مقاطعاته قوى مسلّحة خاصة به، بينما كانت الحياة السياسية شبه منعدمة في باقي المقاطعات من بلاد الشام، وذلك بسبب خضوعها مباشرة لحكم الباشوات الذين كانوا حذرين من أيّ تحرّك وطني، وبسبب إنتشار ثكنات الجند الإنكشاريين العثمانيين فيها بشكل لم يكن يسمح بنموّ الروح الوطنية[٣٦].

لذا، ظلّ الحكم في معظم المقاطعات اللبنانية في مطلع الحكم العثماني، أي مطلع القرن السادس عشر، موزّعاً بين حكّامٍ معظمهم من أمراء القبائل والعشائر التي كانت مستقرّة في تلك المقاطعات، فكان السيفيون في عكّار والضنية والزاوية، والعسّافيون في جبة بشري والبترون وجبيل والفتوح وكسروان، والشهابيون في وادي التيم، والتنوخيون (أو البحتريون) في المتن

والغرب والجرد، والمعنيون في الشوف والعرقوب[٢٧]، وكذلك كان الحرفوشيون في البقاع وآل الصغير وآل صعب وآل منكر في جبل عامل.

وكان من الطبيعي أن يكافيء العثمانيون من ناصرهم في قتالهم ضدّ المماليك وأن يعاقبوا من ناصر المماليك ضدّهم، فقرّبوا المعنيين وولّوهم بلاد الشوف كلّها وقدّموهم على غيرهم من الأمراء، كما أنهوا حكم البحتريين إذ ولّوا جمال الدين اليمني على مقاطعاتهم، ونجح المعنيون في نشر الأمن والإستقرار في المقاطعات التي حكموها، كما اهتمّوا بالحياة الإقتصادية في تلك البلاد، فلعبوا دوراً رئيسياً في تاريخ المقاطعات التي كوّنت، بعد أربعة قرون من الزمن، أوّل دولة لبنانية بالمعنى القانوني للدولة[٢٨].

وكان هؤلاء الأمراء يتبعون، محليّاً، والي دمشق أو طرابلس أو عكا، ثم صيدا فيما بعد، وتحت إمرتهم شبكة من الأمراء والمقدمين والمشايخ تؤمّن لهم الإتصال بمختلف فئات الشعب، أي بالفلاّحين الذين يقومون بزراعة الأرض في الإقطاعات التابعة لمقاطعاتهم، ومن أبرز الأسر «المقطاعجية» التي كانت مسيطرة على الإقطاعات في ذلك العهد، بالإضافة إلى أسر الأمراء الإقطاعيين حكّام المقاطعات، نذكر:

أ - من الأمراء:

- آل علم الدين في جبل الشوف (بعد فخر الدين عام ١٦٣٥).

- آل أرسلان في الغرب الأعلى.

- الراسنحاشيون في الكورة (رأس نحاش) وهم من الأكراد الذين وضعهم السلطان سليم في مقاطعة الكورة عام ١٥٥٨ للدفاع عنها ضدّ الإفرنج.

ب - ومن المقدمين:

آل الحصروني وآل الصواف في جبة بشري (من عام ١٦١١ حتى عام ١٦٩٢).

- آل أبي اللمع في المتن - كفرسلوان - (أصبحوا أمراء بعد واقعة عين دارة عام ١٧١١).

- آل الشاعر في البترون، وال الصواف في الشبانية، وآل مزهر في حمّانا.

- مقدمو جاج والعاقورة وأيطو وبنو علي الصغير مقدمو جزين.

ج - ومن المشايخ:

- آل الخازن في بلاد جبيل وكسروان (منذ عام ١٦١٣).

- آل حبيش في غزير (منذ عام (١٦٨٠).

- آل حمادة في بلاد جبيل والبترون وجبة المنيطرة.

- آل نكد في الشحّار والمناصف.

- آل عماد في العرقوب (أصبحوا فيما بعد روساء الإتحاد اليزبكي المؤلّف من آل تلحوق وآل عبد الملك في العهد الشهابي وبعد عام ١٧١١).

- آل الدحداح في الفتوح (في مطلع العهد الشهابي، عام ١٧٠٤).

- آل جنبـلاط، وقد إستقرّوا في مزرعــة الشوف في العهد المعني عام ١٦٣٠، وتولّوا مقاطعات الشوف في العهد الشهابي بعد وقعة عين دارة، عام ١٧١٢(٣٩).

وقد أجرى الأمراء الشهابيون تعديلاً مهماً على هذا الترتيب، خصوصاً بعد المعركة الحاسمة والمنتصرة التي خاضها الأمير حيدر الشهابي (القيسي) ضدّ الحزب اليمني في عين دارة عام ١٧١١ حيث قضى على اليمنية قضاء مبرما، ثم عمد إلى تعزيز النظام الإقطاعي في البلاد وذلك بأن استولى على

جميع الأراضي التي كانت في حوزة اليمنيين وأعاد توزيعها على الأسر الإقطاعية القيسية البارزة التي حالفته في وقعة عين دارة.

يقول الشدياق في ذلك «ثم نهض الأمير - أي الأمير حيدر - من الباروك إلى دير القمر ظافراً وجلس والياً، (فأمّر) المقدمين (اللمعيين) وأباح الزواج بينه وبينهم[٤٠]، فتزوّج بنت الأمير حسين وأزوج بنته من الأمير عسّاف إبنه، وأقطعه قاطع بيت شباب وبكفيا... ثم أقطع قبلان (القاضي) إقليم جزين، وأقطع علي (النكدي) الناعمة وما يليها، واستخلص من الأمير يوسف أرسلان مقاطعة الغرب الأعلى لأنه كان يميل إلى اليمنية وأقطعها محمّد (تلحوق) وأخاه بشيراً وأقامهما ضدّاً للأمير يوسف المذكور، وأقطع الشيخ جنبلاط (عبد الملك) مقاطعة الجرد (وشيّخه) ليجعل أهلها اليمنيين قيسيين، ورفع مراتب هؤلاء المشايخ بكتابته لهم الأخ العزيز، وخصّ لذاته خمس قرى هي: بعقلين ونيحا وعماطور وبتلون وعين دارة»[٤١]. وقد أضيفت إلى هذه الأسر، في الوقت نفسه، أسرة آل الصالح التي أُقطعت رشميا (وقد عرفوا فيما بعد بآل الخوري)، وفي منتصف القرن الثامن عشر أقطع الشهابيون أسرتين أخريين هما: آل الضاهر وقد أقطعت الزاوية عام ١٧٥٠ وآل أبي صعب وقد أقطعت القويطع عام ١٧٥٢، وقد منحت هذه الأسر الثلاث لقب المشيخة[٤٢].

ويمكن القول أنه، بعد عين دارة عام ١٧١١، أصبح وضع الأسر الإقطاعية في المقاطعات اللبنانية، كما يلي:

- أضيفت إلى الأمراء أسرة أبي اللمع وأقطعت بيت شباب وبكفيا بالإضافة إلى المتن.
- لم يبقَ من المقدمين سوى آل مزهر وقد اقتصر نفوذهم على حمّانا.
- صنّفت أسر المشايخ الثماني الآتية: آل جنبلاط وآل عماد وآل نكد وآل تلحوق وال عبد الملك وآل حبيش وآل الخازن ثم آل الدحداح فيما بعد، في طبقة

«المشايخ الكبار» ومنحت حقّ الإقطاع في مقاطعة واحدة على الأقل، فكان لآل جنبلاط الشوف، ولآل عماد العرقوب، ولآل نكد المناصف والشحار والناعمة، ولآل تلحوق الغرب الأعلى، ولآل عبد الملك الجرد، ولآل حبيش غزير، ولآل الخازن كسروان، ولآل الدحداح الفتوح، كما أخذ آل العازار إقطاعاً في الكورة(٤٢).

وبقي آل حمادة في الشمال مشايخ على جبة المنيطرة وعلى جبة بشري إلى أن طردهم منها الأمير يوسف الشهابي في منتصف القرن الثامن عشر، فصار مقدمو الجبة يعيّنون بقرار من والي طرابلس، كما بقيت العائلات الثلاث الحاكمة في جبل عامل متحدة بزعامة آل علي الصغير، وال شهاب في وادي التيم وآل حرفوش في البقاع، ولم يكن لهذه الأسر أيّ ارتباط بنظام الإقطاع السائد في جبل الشوف وكسروان آنذاك.

٥ – الحزبية في العهد المعني: القيسية واليمنية:

إنّ أبرز السمات التي ميّزت المجتمع في المقاطعات اللبنانية في العهد المعني، بل أفضلها على الإطلاق، هي انقسام هذا المجتمع انقساماً حزبياً لا طائفياً، بحيث يلتقي في «القيسية» كما يلتقي في «اليمنية» أسر ورجال من جميع الطوائف دون عقد طائفية ولا حساسيات مذهبية، وكانا هما الحزبين الوحيدين اللذين عرفا في ذلك العهد.

ترجع القيسية واليمنية، في أصولهما، إلى عرب الجاهلية، حيث تمثّلت القيسية بقبائل نزار وتميم وربيعة ومضر من عرب خراسان وما حول الفرات بالعراق، وكانت قيس تتزعّم هذا التحالف، بينما تمثّلت اليمنية بقبائل أخرى هجرت جنوب الجزيرة واستوطنت بلاد الشام فعرفت باليمنية، كما استوطن

قسم منها خراسان أيضاً، وكانت قبيلة بني كلب تتزعّم يمنية الشام بينما تتزعّم الأزد يمنية خراسان.

وجاء الإسلام فحمل معه، في أثناء فتوحه للعراق وبلاد الشام، القيسية واليمنية بين عرب الشمال وعرب الجنوب، وكان عرب الشمال ينتسبون إلى العدنانية بينما انتسب عرب الجنوب إلى القحطانية، ومع مرّ الزمن تحوّل التحالفان إلى حزبين سياسيين أثّرا إلى حدّ كبير في الإتجاهات السياسية للإمبراطورية العربية وما خلّفتها من دول أو دويلات لمدّة قرون طويلة، سواء كانت هذه الدول في المشرق العربي أم في مغربه أم في أوروبا (الأندلس).

ولقد اشتدّ الصراع القيسي - اليمني أكثر ما اشتدّ في العصر الأموي، إذ اعتمد معاوية، على اليمنيين في حكمه، إلاّ أنّ خلفاءه بعده أخذوا يراوحون بين القيسية تارة واليمنية تارة أخرى، فاتسع الخلاف بين الحزبين حتى شمل العالم الإسلامي كلّه، ودام قروناً منذ مطلع الفتوح الإسلامية في القرن السابع الميلادي حتى مطلع القرن الثامن عشر (١٧١١م.)[٤٤].

وكان من الطبيعي أن تحمل القبائل العربية، التي استوطنت المقاطعات اللبنانية، إنقساماتها معها، فتظهر القيسية واليمنية في إمارة التنوخيين في العهد المملوكي، ثم في إمارة المعنيين والشهابيين بعدهم في العهد العثماني، وتستفيد السلطة الحاكمة، سواء كانت مملوكية أم عثمانية، من هذا الإنقسام فتنمّيه وتغذّيه، فإذا به يشمل، في العهد المعني ومطلع العهد الشهابي، حتى عام ١٧١١، جميع الناس في جميع المقاطعات اللبنانية بجميع طوائفهم ومذاهبهم، ويكون سبباً لحروب مريرة وطاحنة بينهم، وهكذا نرى، في العهد المملوكي، آل بحتر يتزعّمون الحزب القيسي، وآل أرسلان الحزب اليمني، كما نرى في العهد المعني، آل معن ثم آل شهاب يتزعّمون الحزب القيسي، وآل علم الدين الحزب اليمني[٤٥]. ومما يجدر ذكره أنّ المعنيين كانوا في الأصل يمنيين، إلاّ أنّ خلافاً

حصل بين الأمير فخر الدين الأوّل المعني وبين الأمير جمال الدين الأرسلاني، وكلاهما يمنيان، بسبب التنازع على حكم الشوف والغرب وغير ذلك من أمور الحكم والسلطة، فانحاز المعني إلى القيسية، وانحازت معه عائلته كلّها، ومن خلفه منها في الحكم بعده[٤٦].

وقد استمرّ النزاع بين الحزبين يهدأ حيناً ويتفاقم أحياناً، وكانت السلطة العثمانية تستغلّ هذا النزاع لمصلحتها فتذكي ناره، وجرت بين الفريقين معارك ضارية، ومن أهمّ هذه المعارك: وقعة العاقورة التي جرت عام ١٥٢٤ بين مالك اليمني وهاشم العجمي القيسي، وكانا شيخي العاقورة، وقد هدمت البلدة إثر هذه المعركة وأقفرت من سكّانها حتى عاد اليمنية إليها ورمّموها، أمّا القيسية فبقوا في طرابلس وضواحيها[٤٧]، ووقعة عرنا عام ١٦٣٥ بين الأمير ملحم المعني والأمير علي علم الدين (وكان الأتراك قد نصّبوه أميراً على الشوف بعد فخر الدين) وحلفائه من عسكر الكجك أحمد والي دمشق، وقد انتهت هذه الوقعة بفوز الأمير ملحم وعودته أميراً على الشوف، ووقعة وادي القرن عام ١٦٥٠ بين الأمير ملحم أيضاً وبشير باشا والي الشام، الذي جاء من دمشق على رأس جيشٍ ومعه الأمير علي علم الدين ليتسلّم إمارة الشوف بقرار من الوالي نفسه، وقد انتهت هذه الوقعة كذلك بانتصار الأمير ملحم المعني وهزيمة الباشا والأمير وتشتّت جيشهما.

إلاّ أنّ أهمّ هذه الوقعات جميعها كانت وقعة الغلغول عام ١٦٦٦ عند برج بيروت، وقد جرت بين الأمير أحمد المعني آخر أمراء المعنيين، وبين الأمير محمّد إبن الأمير علي علم الدين، وانتهت بهزيمة اليمنيين ومقتل أحد قادتهم المقدّم عبدالله بن قايدبيه بن الصواف من الشبانية، وفرار أمرائهم من آل علم الدين إلى دمشق حيث استوطنوها، واستقلّ الأمير أحمد المعني بالشوف والغرب والجرد والمتن وكسروان، وظلّ أميراً عليها حتى عام ١٦٩٢ حيث تمكّن اليمنيون،

آل علم الدين، من الوصول إلى حكم الشوف والمناطق التابعة للمعنيين، وظلّوا فيها حتى عام ١٦٩٤، حين جمع الأمير أحمد المعني حزبه، ونهض لقتال الأمير موسى علم الدين، أمير الشوف والجرد والمتن والغرب وكسروان وإقليمي جزين والخروب، إلاّ أنّ هذا الأخير ما إن سمع بزحف القيسيين نحوه حتى لاذ بالفرار، واستولى الأمير المعني على البلاد من جديد[٤٨].

والجدير بالذكر أنه كان لكلّ من القيسية واليمنية رايتها، فراية القيسية كناية عن قطعة من القماش الأحمر في وسطه قرنفلة بيضاء، وراية اليمنية كناية عن قطعة من القماش الأبيض تزيّنه زهرة من الخشخاش حمراء[٤٩].

وبعد موت الأمير أحمد المعني عام ١٦٩٧ وتسلّم الشهابيين - وهم قيسيون - الحكم، حاول اليمنيون السيطرة على البلاد من جديد، فقضي عليهم نهائياً، في عهد الأمير حيدر الشهابي وفي وقعة عين دارة عام ١٧١١م، فكانت هذه الوقعة نهاية الإنقسام الحزبي التاريخي بين هذه القبائل والأسر، وبداية إنقسام حزبي جديد حلّ محلّ القديم وهو الصراع الذي قام مجدّداً ولا يزال، بين (اليزبكية) نسبة إلى يزبك جدّ آل عماد الذين تزعّموا هذا الحزب، و(الجنبلاطية) نسبة إلى آل جنبلاط الذين تزعّموا هذا الأخير[٥٠].

حواشي الفصل الثاني

(١) - Ismaïl, Adel, Histoire du Liban, T. I., p. 24.

(٢) - Ibid, pp. 24 - 25.

والصليبي، تاريخ لبنان الحديث ص. ٣٢.

(٣) - Poliak, Feudalism in Egypt, Syria, palestine and the lebanon, p. 9.

وانظر أيضاً: صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص. ٢٧، والشدياق، أخبار الأعيان ج ١: ٢٠٨.

(٤) أنظر تفصيلاً وافياً عن الأمير علم الدين سليمان الرمطوني الكبير وعن أبيه سيف الدين غلاب وعن رمطون في (أوراق لبنانية، عام ١٩٥٦: ٢٧٠ - ٢٧٦).

(٥) - Poliak, op. cit. p. 13.

وانظر أيضاً: صالح بن يحيى، المصدر السابق ص. ٢٩ و٤١ و٩١ و٩٢ و١٦٧ و١٩٨ و٢١٦ والشدياق، المصدر السابق، ج ١: ١٢٢ و١٣٢ و٢١٧ و٢٣٤، أما بنو الحمراء في البقاع فالمقصود بهم مشايخ بني حيمور (إسماعيل حقي، لبنان، مباحث علمية واجتماعية، ج ١: ٢٠٦، واليازجي، رسالة تاريخية ص. ١٠).

(٦) - Poliak, op. cit. p. 44.

(٧) - Rabbath, E, Formation historique du Liban, pp. 168 - 169.

- Ismaïl, A., op. cit., T. I., p. 22.

(٨) في العهد المملوكي، كانت هذه النسب كما يلي: الثلث أو الربع من غلّة الأرض إذا كانت عادية، والنصف إذا كانت مرويّة، والخمس أو السدس إن كانت حديثة الإستثمار، والسبع أو الثمن إن كانت ساحلية ومعرّضة لغزوات القراصنة الأوروبيين. أمّا في العهد العثماني فقد ظلّ الأسياد الإقطاعيّون محتفظين بنظام المقاسمة هذا حتى القرن الثامن عشر حيث أصبحوا يتقاضون نصف الأغلال أو ثلثيها ضريبة على حاصلات الأرض ومنتوجاتها. (Poliak, op. cit., pp. 65 - 66).

(٩) - Rabbath, op. cit., p. 170 - Ismaïl. op. cit., T. I. p. 25.

(١٠) كان ثمن إمارة الشوف في عهد الجزار ستة جياد وخمسين ألف قرش خدمة، وكثيراً ما كان ينال الإمارة من فضلت هديته على هدية سواه (إسماعيل حقي، المصدر السابق، ج ١: ٢٠٥).

(١١) كانت الضريبة التي تدفعها إمارة الشوف إلى خزينة الولاية قبل الإحتلال المصري ٢٣٠٠ كيس سنوياً، وفي عهد الإحتلال المصري صارت ٤ الاف كيس (إسماعيل حقي، م. ن. ج ١: ٢٠٥ - ٢٠٦).

(١٢) حقي، م. ن.، ج ١: ٢٢٢.

(١٣) حقي، م. ن. ج ١: ٢٠٥ ويذكر المؤلّف أن المقاطعجيين (الأمراء والمقدمين والمشايخ) ينتخبون الحاكم ويرفعون اسمه إلى الوالي الذي يقرّه أو يرفضه، فإن أقرّه خلع عليه الولاية وإن رفضه فعلى أعيان البلاد أن ينتخبوا سواه.

(١٤) - Ismaïl, A., op. cit., T. I., p. 24. Note 43.

وانظر أيضاً: إسماعيل حقي، م. ن. ج ١: ١٦١ واليازجي م. ن. ص. ٨.

(١٥) - Chevalier, D., La société du Mont-Liban, p. 82.

(١٦) وكان لأمير الجبل (الشوف) إمتياز خاص، إذ أنه كان مرجعاً لحكّام العشائر والقبائل النازلة بجواره (جودت باشا، تاريخ جودت، ص. ٢٥٤).

(١٧) حقي، المصدر السابق، ج ١: ١٦٢ واليازجي، رسالة تاريخية، ص. ٩.

(١٨) كان يفرض على كلّ مقاطعة عدد من الخيّالة يتناسب مع مواردها بمعدّل خيال واحد عن كلّ ٥ الاف اقجة، فكان عدد الخيّالة المفروض على أيالة دمشق مثلاً في القرن السابع عشر ٢٦٠٠ خيّال وعلى أيالة طرابلس ١٤٠٠ خيّال (طربين، أزمة الحكم في لبنان صفحة ١٠، والحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية ص. ٢٣١ - ٢٣٢).

(١٩) اليازجي، المصدر السابق، ص. ٨ - ٩، وحقي، المصدر السابق، ج ١: ١٦٢.

(٢٠) - Rabbath, E., op. cit., p. 170.

(٢١) حقي، المصدر السابق، ج ١: ١٦٢ - ١٦٣، واليازجي، المصدر السابق، ص. ١١ - ١٢، وتجدر الإشارة إلى أنّ الشهابيين، في مكاتباتهم، كانوا يعاملون المشايخ الحماديين معاملة الأمراء.

(٢٢) حقي، م. ن. ج ١: ١٦٤ - ١٦٥، والمعلوف، دواني القطوف، ص. ٢٤٥ - ٢٤٩.

(٢٣) - Cahen, c., Notes pour l'Histoire de la Himaya, cité par Chevalier, D., Société du Mont-Liban.

(٢٤) - Chevalier, D., Ibid.

(٢٥) - Jouplain, La question du Liban, p. 85.

(٢٦) أ. سميليانسكايا، الحركات الفلاحية في لبنان، تعريب عدنان جاموس ص. ٣١ - ٣٢.

(٢٧) الاقجة، أو الأسبر (Aspre) عملة عثمانية فضية كانت معروفة في مطلع العهد العثماني ثم أصبحت تدريجياً عملة ذهبية تستعملها خزينة الدولة العثمانية في الولايات بقيم مختلفة (Journal Asiatique, 6 ème série, V3 pp. 422 - 425 et Poliak, op. cit. p. 42 Note 3).

(٢٨) الحصري، المرجع السابق، ص. ٢٩ - ٣٠.

(٢٩) كان المشايخ الجنبلاطيون مثلاً يملكون، في مطلع القرن التاسع عشر، نحو مايتي قرية يقطنها أكثر من ثلاثين ألف نسمة، وهي أقاليم الشوف وجزين والتفاح والخروب وجبل الريحان، وفي الوقت نفسه كان المشايخ النكديون يملكون إقليمي المناصف والشحّار اللذين كانا يضمّان أكثر من ثلاثة عشر ألف نسمة في إحدى وثلاثين قرية، وكان الأرسلانيون يملكون إقليم الغرب الأسفل وفيه سبعون قرية ونحو أربعة آلاف نسمة (سميليانسكايا، المصدر السابق: ص. ٣٣ - ٣٤).

(٣٠) سميليانسكايا، م. ن. ص. ٣٦ - ٣٨.

(٣١) م. ن. ص. ٣٩.

(٣٢) م. ن. ص. ٤٢ - ٤٤، وبالإضافة إلى ذلك كان الفلاّحون الشركاء ملزمين بتزويد الإقطاعي بمختلف أنواع المؤن مثل البيض والجبنة والطيور والسمنة والحليب والأخشاب والفحم، كما كانوا يعملون أحياناً في بناء بيته أو غير ذلك من الأعمال (م. ن. ص. ٤٥)، بالإضافة إلي الخدمة العسكرية التي كانت تطلب منهم عند الحاجة.

(٣٣) م. ن. ص. ٤٨.

(٣٤) م. ن. ص. ٥٦ - ٥٧.

(٣٥) الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص. ٢١ - ٢٢.

(٣٦) - Thoumin,R., Histoire de la Syrie, p. 254 et pp. 259 - 260.

(٣٧) - Touma T., Paysans et institutions féodales chez les Druzes et les Maronites du Liban du XVIIe siècle à 1914 T. I., p. 35.

(٣٨) - Touma, T. Ibid. pp. 35, 47.

(٣٩) - Rabbath, op. cit., p. 173.

- Chevalier, op., cit., p. 88.

- Poliak, op. cit. p. 56.

وانظر أيضاً: المعلوف، تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني، ص. ٥٥، واسماعيل حقي، المصدر السابق، ج ١: ١٦٠ - ١٦١، وقرأ لي، فخر الدين ودولة توسكانة، ج ٢: ٩١، والشدياق، المصدر السابق، ج ١: ٣٤ و٥٦ و٦٩ - ٧٠ و٨١ و٩٠ و١٢٥ و١٤١ و١٥٩ و١٩٠ و١٩٣ و٢١٤.

(٤٠) أمّرهم أي جعلهم أمراء، ولم يكن الزواج مباحاً بين الأمراء ومن دونهم مرتبة.

(٤١) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢: ٢١٥ - ٢١٦، وانظر أيضاً، م. ن. ج ١: ١٧٥ و١٧٩ والصليبي، المصدر السابق، ص. ٣٦ - ٣٧.

(٤٢) الشدياق، م. ن. ج ١: ٨٤ و٨٦ و١٠٤.

(٤٣) الصليبي، المرجع السابق، صفحة ٣٨ - ٣٩، وانظر أيضاً:

(Touma, T. op. cit., T. I. p. 71 - 72).

(٤٤) حتي، تاريخ العرب، ج ١: ٢٥٠ - ٢٥١ و Touma, Ibid., T. I., p. 61. -

(٤٥) الصليبي، المرجع السابق، ص. ٢٤ - ٢٥ و Touma, Ibid., p. 62. -

وحتي، تاريخ لبنان صفحة ٤٣٩. ومن بين الأسر القيسية المعروفة في ذلك العهد، بالإضافة إلى آل معن وآل شهاب: آل أبي اللمع وآل الخازن وآل حبيش وآل تلحوق وآل جنبلاط وآل عبد الملك وآل مزهر وآل القاضي وآل عماد وآل عطاالله وآل العيد، ومن بين الأسر اليمنية بالإضافة إلى آل علم الدين: آل أبي هرموش، وآل أرسلان، وآل الصواف، وآل الدحداح، أمّا آل نكد فقد كانوا في الحياد بين الحزبين لذا كان يطلق عليهم لقب «بيضة القبان». وكان ينتصر لليمنيين في معظم معاركهم آل سيفا في طرابلس وآل حرفوش في بعلبك والبقاع، بالإضافة إلى ولاة دمشق، وكذلك آل علي الصغير، ومقدّمو جزين وزعماء جبل عامل، وحلفاؤهم من آل منكر وآل صعب، الذين كانوا متعصّبين لحزبيتهم اليمنية (الأمير حيدر الشهابي، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، منشورات الجامعة اللبنانية، تحقيق الدكتورين رستم والبستاني، ج ١: ٨).

(٤٦) المعلوف، تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني، ص. ٥٦.

(٤٧) المعلوف، م. ن. ص. ٢٩، وتاريخ مدينة زحلة، ص. ٨٢.

(٤٨) الشدياق، المصدر السابق، ج ١: ٢٩٤ - ٢٩٥ وص. ٢٩٧ - ٣٠٠، والمعلوف، تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني ص. ٢٩.

(٤٩) - Touma, T. op. cit., T. I., p. 62.

- Chebli, M. Fakhr. II, Prince du Liban, p. 24.

- Nantet, Histoire du Liban, p. 78.

(٥٠) المعلوف، فخر الدين، ص. ٣٠، والشدياق، المصدر السابق، ج ٢: ٣١٤ - ٣١٥. والصليبي، المرجع السابق، ص. ٣٨ - ٣٩، وتاريخ الأمراء الشهابيين بقلم أحد أمرائهم من وادي التيم، ص ٩٢ - ٩٧.

وانظر أيضاً: - Touma, op. cit., T. I., p. 70.

- Rabbath, op. cit., p. 177.

- Jouplain, op. cit., p. 121.

ويرى الدكتور فيليب حتي أن اليزبكية حلّت محلّ القيسية، والجنبلاطية حلّت محلّ اليمنية (لبنان في التاريخ ص. ٤٣٩). إلاّ أننا لا نرى هذا الرأي باعتبار أن الأسرتين الزعيمتين للحزبية الجديدة (عماد وجنبلاط) هما في الأصل قيسيتان، ويعود الإنقسام الحزبي الجديد إلى خلاف بين الشيخ جنبلاط جنبلاط جدّ الجنبلاطيين في عهد فخر الدين وبين الشيخ يزبك بن عبد العفيف جدّ آل عماد في ذلك العهد أيضاً. واستمرّ بين الأسرتين حتى أصبح حزبية يزبكية وجنبلاطية في العهد الشهابي (الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص. ٣٩، وأنظر أيضاً: اليازجي، رسالة تاريخية، ص. ١٩، وتاريخ الأمراء الشهابيين بقلم أحد أمرائهم من وادي التيم ص. ٩٨ و١٠٠).

الفصل الثالث

لمحة عامّة عن التنظيمات العسكرية في بلاد الشام

أوّلاً – التنظيم العسكري المملوكي قبيل الفتح العثماني:

كان التنظيم العسكري في دولة المماليك، قبيل الفتح العثماني لبلاد الشام، شبيهاً بجميع التنظيمات العسكرية التي كانت قائمة في البلدان ذات النظم الإقطاعية في ذلك الحين، وبمعنى آخر، كانت دولة المماليك قائمة على نوع من الإقطاع العسكري اتخذ شكل الجيوش الإقطاعية، وكانت هذه الجيوش تأتمر بأمر السلطان وتتألّف من ثلاثة أقسام رئيسية هي:

١ - **مماليك السلطان**: أو المماليك الملكيون، وكانوا يسمّون أيضاً «المشتروات» و«السلطانية» و«السيفية»، وهم في الأصل ملكٌ للسلطان يشتريهم شخصياً لحراسته، ثم تطوّروا حتى أصبحوا جيشاً خاصاً به، يحميه ويقوم بخدمته، وقد بلغ عددهم عند بعض السلاطين نحو ثمانية آلاف، وكانت مهمّتهم، بالإضافة إلى الدفاع عن عرش السلطان ضدّ أيّ عدوّ خارجي، الدفاع عنه ضدّ الأعداء الداخليين أيضاً. وقد لعب هؤلاء المماليك، بحكم وظيفتهم، دوراً هاماً في تاريخ السلطنة، بسبب قربهم من السلطان ونفوذهم لديه، إذ ان كثيراً ما كان موقفهم يقرّر مصير السلطان نفسه، أي احتفاظه بالعرش أو تخلّيه عنه. وكانوا يرتقون في الرتب حتى وصل بعضهم إلى السلطنة، كما كان

من حقّهم أن يصبحوا أمراء قادة للجند، وكان بينهم ضبّاط يعرفون «بالخاصكية» وهم رسل السلطان الخاصون، برتبة مرافق، وكان بينهم مقدمون يعرفون «بمقدمي المماليك» يشرفون على ثكنات الجيش أو يعطون التوجيهات لمماليك السلطان أو «يثقفون المماليك الفتيان» ويدرّبونهم(١)، وكان لهم رواتب شهرية «جامكية» يقبضونها من إيراد إحدى إقطاعات السلطان الخاصة التي يديرها ديوان يسمّى «ديوان المفرد» أو «ديوان الاستادارية»، وهو عبارة عن مجلس إداري يرأسه «الاستادار الكبير» ويكلّف إدارة الشؤون المالية للسلطنة. كما كان يمنح هؤلاء المماليك إقطاعات من الأرض يستثمرونها، ومكافآت على خدماتهم، ومنحاً سنوية لشراء ألبستهم، ولحماً يومياً لعيالهم، وعلفاً لخيالهم، وكانوا يتقاضون في مناسبات الأعياد «ضحايا» و«هبات» كما كانوا يتقاضون في زمن الحرب «علاوات»(٢).

٢ - **مماليك الأمراء**: وكان هؤلاء يشكّلون جيش الإقطاع في الإمبراطورية باعتبارهم جنداً لدى أمراء الإقطاع فيها، فقد كان كلّ أمير صاحب مقاطعة (والمقاطعة تتألّف عادة من عدّة قرى) يوزّع مقاطعته إقطاعات على أمراء الجند في جيشه، على أن يقدّم كلّ منهم عدداً من الجند. وهكذا كان أمراء الجند يختلفون في الأهمية والمرتبة باختلاف الإقطاعة التي يتسلّمونها، وبالتالي باختلاف عدد الجند الذي يفرض عليهم تقديمه. وكان على أمير المقاطعة، في كلّ حال، أن يحتفظ بثلثي واردات مقاطعته لهؤلاء المماليك، وأن يبلغ «ديوان الجيش» (الديوان الذي يدير هذه المقاطعات وهو أهمّ دواوين الدولة المملوكية) عن كلّ تغيير يطرأ على وضع الجند في مقاطعته، سواء من حيث العدد أم الراتب أم الرتبة، ليسجّل ذلك التغيير في الديوان.

وكانت أهمية هذه الجيوش الإقطاعية تختلف باختلاف حجمها، لذا كان يطمح بعض الأمراء إلى توسيع رقعة مقاطعاتهم، وذلك بأن يضمّوا إليها مقاطعات أخرى بقصد الإستقلال عن السلطان، إن لم يكن خلعه، لذا، كان العدد النظري للجيش في أيّة مقاطعة من هذه المقاطعات يختلف اختلافاً كلياً عن العدد الحقيقي، فإذا سجّل الأمير في ديوان الجيش رقماً ما باعتباره عدد الجند في مقاطعته[٣]، فمعنى ذلك أن العدد الحقيقي لجيشه يتجاوز الرقم المسجّل أضعافاً مضاعفة.

٣ - جند الحلقة: وهم خيّالة يختارهم السلطان من مماليكه القدماء أو من مماليك الأمراء، ومن سواهم، فيأتمرون بأمره دون أن يكونوا ملكاً له، وهم القوّة الضاربة لديه يتوسّلها للدفاع عن ممتلكات السلطنة ضدّ أيّ عدوّ خارجي، وقد بلغ عددهم في القرن التاسع الميلادي، وفي بلاد الشام فقط، نحو ٢٤ ألف خيّال[٤]، وكانوا ينتظمون في وحدات عسكرية مؤلّفة من ألف خيّال أو مئة أو أربعين أو عشرة أو خمسة، ولكلّ من هذه الوحدات أمير يحمل وثيقة خطية بهذا اللقب.

وكان هؤلاء الأمراء من قادة الجند مختلفي الرتب باختلاف عدد الجند الذي يأمرونه، فكان فيهم:

- أمير الألف، أو مقدّم الألف، أو نقيب الألف، ويأمر وحدة من ألف خيّال.
- أمير المئة، أو مقدّم المئة، أو نقيب المئة، أو الباش، ويأمر وحدة من مئة خيّال. (وأحياناً مئة وعشرين).
- أمير الحلقة، أو مقدّم الحلقة، أو أمير الطبلخانة (سمّي كذلك لأنّ الموسيقى كانت تعزف على باب مسكنه استقبالاً ووداعاً، كما كانت تعزف على باب أمير المئة أو الألف) ويأمر (حلقة) من أربعين خيّالاً (وأحياناً ثمانين).
- أمير العشر، ويأمر عشرة خيّالة (وأحياناً عشرين).

- أمير الخمس، ويأمر خمسة خيّالة.

وفي وقت الحرب، كان يحقّ لأمير المئة أن يقود ألف مقاتل، وكان يسمّى حينئذ «أمير الألف» أو «مقدّم الألف» أو «مقدّماً» فحسب. كما أنّ أمير الطبلخانة أو مقدّم الحلقة لم يكن له سلطة على جنده الأربعين إلاّ في وقت الحرب فقط[٥]. وكان كلّ فارس من فرسان (الحلقة) يمنح، كراتب، إقطاعة محدّدة من الأرض يعيش من إنتاجها، إلاّ أنّ الأرض تبقى ملكاً للسلطان في كلّ حال، ولا يكون للمملوك إلاّ حقّ الاستثمار أو «حقّ الإستعمال» فقط. أمّا أمير الألف فكان السلطان يمنحه إقطاعة كبيرة، وكانت جميع هذه الإقطاعات تدار من قبل ديوان الجيش[٦]. وكان هذا الجيش سريع التعبئة سريع التحرّك يمكنه الإنتقال إلى أيّ مكان في الإمبراطورية بسرعة قصوى، فهو جيش (الحامية) (Gamison) يظلّ دوماً بحالة الإستعداد والتأهّب، وكان يعهد إلى (ديوان الجيش) صلاحية تعهد الجند في (أجناد الحلقة) وتفقّد أحوالهم والتفتيش على خيولهم وضبط أشكال هذه الخيول وشيّاتها (أي علاماتها المميّزة) والتأكّد من صلاحيتها للخدمة، وكان لا يدخل في سلك الأجناد هذا إلاّ الخيول الجيّدة الصالحة للخدمة (دون البغال والبراذين). وكان على أمراء الأجناد معرفة أحوال جندهم وخيلهم معرفة تامة، كما كان عليهم أن يقدّموا لديوان الجيش كشفاً يومياً عن حضور الجند في الأجناد، وعن تغيّبهم وأسباب هذا التغيّب، وعن العدد الحاضر والمتغيّب في كلّ جند، وعن حالات الوفاة للجند والنفق للحيوانات[٧].

٤ - **الأمراء**: هم القادة العسكريون، ويعينون بمنشور (مرسوم)[٨]. وكان هؤلاء الأمراء يتولّون، بالإضافة إلى قياداتهم العسكرية، مناصب إدارية في البلاد، فكان أمراء الخمس يرثون آباءهم في القيادة، وكان أمراء العشر يتولّون حكم ولايات صغيرة أو يعيّنون كموظّفين من الدرجة الصغرى، وكان أمراء

الطبلخانة يتولّون الإشراف على القلاع والحصون أو يتولّون حكم ولايات كبيرة، وكان أمراء المئة يتولّون وظائف إدارية عالية، وكان يتمّ ذلك بتعيين من السلطان نفسه مبني على انتخاب فعلي يجري في صفوف المماليك التابعين لكلّ أمير. وكان السلطان يعاقب هولاء الأمراء بسجنهم في قلعة «الكرك» شرق الأردن(٩).

٥ - **البحرية:** حتى العام ١٣٦٥، لم يكن لدى المماليك سلاح بحري على الساحل الشامي، إلاّ أنّ غزو الفرنجة القبارصة (من أسرة لوسينيان) للإسكندرية ونهبهم للمدينة، في ذلك العام، دفع المماليك إلى التفكير باقتناء أسطول حربي بحري، فقرّروا بناء هذا الأسطول في بيروت باعتبارها قريبة من جزيرة قبرص (وكانوا قد عزموا على غزوها)، وباعتبار أنّ الخشب اللازم لبنائه متوفّر في غابة الصنوبر الواقعة بجوار المدينة. وهكذا صدر الأمر من القاهرة للمباشرة ببناء الأسطول العتيد، وبوشر فعلاً ببناء السفن، فبني منها ناقلتان وسمّيتا بإسمي أميرين من أمراء المماليك، هما سنقر وقراجا، وأُتي بجيوش من دمشق تركّزت بين الساحل البيروتي ومصنع السفن هذا بقصد حمايته من مفاجآت التخريب من قبل حاكم قبرص، إلاّ أن العمل توقّف فجأة وتركت السفن المبنية، وكذلك الزوارق الحربية، في أماكنها أمام بيروت(١٠).

٦ - **الخيّالة والمشاة والمدفعية:** كانت الخيّالة عماد الجيش في الدولة المملوكية، ممّا جعلها متخلّفة عن العثمانيين قرناً كاملاً بسبب تبنّي هؤلاء للمشاة كسلاح أساسي في جيوشهم. فبينما كان العثمانيون يعتمدون مشاة «الإنكشارية» الأشدّاء في تنظيماتهم العسكرية، ظلّ المماليك متمسّكين بخيّالتهم دون أن يلقوا بالاً إلى ما لحق بها، بسبب إنعدام الإنضباط وسوء الحالة الإقتصادية، من وهن وضعف وانحلال. ورغم أنّ الخيّال المملوكي كان

يساوي، كما يقول ابن أياس، ألف خيّال عثماني، فإنّ شجاعته لم تحل دون هزيمة نكراء لقيتها جيوش المماليك بقيادة قانصوه الغوري في مرج دابق عام ١٥١٦ [١١]. يضاف إلى ذلك إهمال المماليك لقوّة النار الحديثة المتمثّلة بالمدفعية، إذ إنّ أوّل مرّة ظهرت فيها المدفعية على الساحل الشامي كانت عام ١٤٠٤، وذلك إثر هجوم بحري قام به الأميرال الفرنسي «بوسيكو (Boucicaut)» حيث قصف بيروت بمدفعية أسطوله البحري قصفاً مريعاً [١٢]. فكان إذن على هؤلاء المماليك (البرجيين) أن يتعلّموا الدرس ويعزّزوا أسلحتهم بهذه المدفعية الحديثة التي أحرزت البحرية الفرنسية، بسببها، في هذا الهجوم، نجاحاً هائلاً، لما تكشّفت عنه من قوّة نار صاعقة، تماماً كما فعل العثمانيون الذين تبنّوا فوراً هذه المدفعية [١٣]، فإذا بهم يفاجئون بها أعداءهم المماليك في مرج دابق، ويذيقونهم بواسطتها مرّ الهزيمة.

٧ - **وسائل الإتصال والإنذار:** كان الدفاع عن الساحل الشامي، من بيروت إلى صيدا، في مطلع القرن الرابع عشر، منوطاً بأمراء العرب البحتريين، فكان هؤلاء يرسلون إلى بيروت نحو ثلاثين خيّالاً يتمركزون على مشارف المدينة باتجاه البحر، يبدّلونهم كلّ شهر، ومهمّتهم هي الإنذار فقط [١٤]. أمّا وسيلة نقل الإنذار فقد أمّنها المماليك بشكل اشتهروا به إلى حدّ كبير، إذ كانوا يستخدمون، لنقل الأخبار في النهار، حمام البطاقة أو الحمام الزاجل [١٥]. أمّا في الليل، فقد أنشأوا، بين بيروت ودمشق، سلسلة من النيران توقد على رؤوس الجبال بدءاً «بظاهر بيروت» فـ«رأس بيروت العتيقة» فـ«جبل بوارش» فـ«جبل يبوس» فـ«جبل الصالحية» ومنه إلى قلعة دمشق، «فالنار للحوادث في الليل، وحمام البطاقة للحوادث في النهار، والبريد للأخبار» [١٦]. ويرى الأب لامنس، كما يرى معظم المؤرّخين، ان «الأبراج التي نجدها منتشرة على طول الساحل، قرب طرابلس مثلاً، يظهر أنها ترجع إلى ذلك العهد، وأنها

شيّدت لحماية الساحل من الغزوات البحرية وهجمات الأساطيل الإيطالية والقبرصية وفرسان رودوس»(١٧).

٨ - **أجناس الجند:** يقول بولياك إنّ الجيوش الإقطاعيّة المملوكية، في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، كانت تتألّف في غالبيّتها من قبائل (الأوردو الذهبي) أي القبائل التترية في روسيا الشرقية، ثم أصبحت تتألّف في معظمها، وفي القرنين الخامس عشر والسادس عشر، من القوقازيين والشراكسة بنوع خاص، وكان هولاء ينتسبون إلى الأتراك ويتكلّمون لغتهم(١٨)، رغم أنّ اللغة الرسمية للبلاد والدولة كانت العربية. ويرى محمّد كرد علي رأي بولياك في أنّ أكثرية الجيش المملوكي كانت من الشراكسة أو الأتراك، والباقين من أهل البلاد(١٩)، إلاّ أنه كانت للعرب كتائب خاصة يقودها أمراؤهم ويستدعون للقتال عند الحاجة «وجيوش بني حمدان وبني مرداس وبني كلاب وبني كلب وآل الفضل وغيرهم من الملوك والأمراء عرب صرف»(٢٠).

٩ - **الحالة العامّة للجيش قبيل الفتح العثماني:** كان الجيش المملوكي، قبيل الفتح العثماني، بحالة من الفوضى لا مثيل لها، وذلك بسبب تخلخل نظام الحكم كلّه، فقد دبّ التفسّخ في وحداته، وعمّ بين صفوفه الإهمال والإنحلال الخلقي وعدم الإنضباط، وأخذ الأمراء، القادة العسكريون، يتاجرون برواتبهم ورواتب جندهم واعتدتهم، بعد أن راهنوا على انهيار النظام وقرب نهايته، وكان أشدّهم فطنة وتبصّراً من أخذ يفاوض العثمانيين سرّاً لينحاز إلى جانبهم في المعركة الفاصلة (١٥١٦م.)، ولم يعد أهل البلاد يثقون بالجند المملوكي، جند قانصوه الغوري، الذين أصبحوا، بسبب عوزهم وعدم انضباطهم، وزراً على أهل البلاد، حيث ينزلون عليهم «ضيوفاً» لا حدّ لمطالبهم ولا وقت لرحيلهم، ويتركون ليتصرّفوا، حسب غرائزهم وشهواتهم، نهباً للأموال وهتكاً للأعراض(٢١). وهكذا تجمّعت هذه الآفات كلّها، من عفن في نظام الحكم إلى

عفن في هيكلية البناء العسكري، وتخلّف لا يغتفر في تنظيم الجيش وتدريبه وتسليحه، إلى انهيار في المعنويات وخيانة من النواب والأمراء (خير بك نائب حلب الذي كان قائداً لميسرة الجيش المملوكي في مرج دابق، وجان بردي الغزالي نائب دمشق وغيرهما)(٢٢)، بالإضافة إلى تمسّكهم المتحجّر بسلاح الخيّالة غير آبهين بالأهمية التي وصل إليها سلاح المشاة بعد تطوّر الأسلحة، ومتجاهلين تماماً وجود سلاح المدفعية(٢٣)، كلّ ذلك قاد المماليك إلى النهاية المحتومة والمنتظرة على يد العثمانيين في مرج دابق عام ١٥١٦م.

ثانياً – التنظيم العسكري العثماني

كانت القوّات المسلّحة العثمانية، في مطلع القرن السادس عشر، مولّفة من القوّات النظامية التالية:

أوّلاً - جيوش البر: وتتألّف من:

١ - جيوش المشاة، وهي:

١ – الإنكشارية Les Janissaires

٢ – السلاحية أو القرداحية Les Djébedjis ou Armuriers

٣ – المدفعية Les Topdjis ou Canonniers

٤ – النقل Les Top - Arabadjis ou Soldat du train

٢ - جيوش الخيّالة أو الفرسان، وهي:

١ – السباهي (les Sipahs) أي الرماحون.

٢ – السلاحدار (les Silihdars) أي حملة السلاح.

ويسمّى هذان الجيشان معاً «الأودجاق» (Odjak) لتمييزهما عن الجيوش الأخرى.

٣ - **الجيوش العثمانية الأخرى**: بالإضافة إلى الجيوش السابق ذكرها كان لدى العثمانيين:

١ - جيوش المرتزقة في الإقطاعات العسكرية المسمّاة: زعامت وتيمار وخاص.

٢ - جيوش الإقاليم (عسكر الإيالات).

٣ - الجيوش الخاصة بالباشوات.

٤ - الجيوش الإستثنائية.

ثانياً - البحرية العثمانية

ونقدّم فيما يلي تعريفاً موجزاً لهذه الجيوش:

أوَلاً - جيوش البر:

١ - جيوش المشاة:

أ - الجيش الإنكشاري: Les janissaires

وتعني هذه الكلمة: «يني تشري» (Yéni - Tchéri) أي الجيش الجديد، أو العسكر الجديد، وقد تألّفت هذه القوّات في الأصل في عهد السلطان أورخان (Orkhan) ثاني سلاطين بني عثمان (١٣٢٦ - ١٣٥٩م.) الذي ابتكر طريقة فريدة من نوعها لتأليف هذا الجيش، إذ كان يعمد إلى غزو بلاد النصارى المتاخمة لحدوده - وهي بلاد حرب من الوجهة الشرعية - فيأتي منها بجماعات من الأطفال يضعها في مؤسّسات خاصة تقوم بتربيتها وتنشئتها تنشئة عسكرية وإسلامية، حتى تمكّن من إنشاء جيش قوي وكبير استطاعت الإمبراطورية العثمانية أن تعتمد عليه في معظم فتوحاتها، بل كان سبب عظمتها وقوّتها خلال قرون[٢٤] وفي وقتٍ لم يكن لأوروبا من الجيوش إلاّ الزمر المسلّحة.

أمّا سبب تسمية هذا الجيش «بالإنكشارية» فهو أنه، لمّا أسّسه أورخان، باقتراح من وزيره قره خليل جاندارلي، قصد ذات يوم «اماسيه» وكان فيها رجل من الصالحين «الدراويش» يدعى الحاج بكتاشي مؤسّس فرقة «الدراويش البكتاشيين» وسأله أن يسمّي الجيش الجديد فسمّاه هذا الاسم ودعا له بالنصر والتوفيق(٢٥). ويرى محمّد كرد علي، ونحن نوافقه على ذلك، أنّ العثمانيين خالفوا الشريعة الإسلامية بإنشائهم هذا الجيش من أولاد الذميين اللقطاء على الصورة التي كانوا يأخذونهم فيها، ولو اعتبروا أنهم اتبعوا في ذلك العرف والمصلحة، إذ إنّ الشريعة الإسلامية لا تجيز إكراه الذميين على استرقاق أولادهم(٢٦).

ويرى «دوهسون» أنّ هولاء الأطفال كانوا يؤخذون في البدء من البلدان المسيحية دون تمييز، ثم أصبحوا يؤخذون، بالأفضلية، من ألبانيا وبوسنيا وبلغاريا بعد الفتح العثماني لهذه البلدان، وأنه نادراً ما كان العثمانيون يضطرّون لاستعمال العنف للحصول عليهم، إذ أنّ الأهل أنفسهم كانوا يقدمون أولادهم عن رضى لكي ينخرطوا في الجيش الإنكشاري، ويعتبرون ذلك مصدر فخر لهم لما اكتسبه هذا الجيش من شهرة في الإمبراطورية وفي العالم، وكان جمع الأطفال اللازمين يتمّ مرّة كلّ ثلاث سنوات أو أربع. ثم أنه لمّا كثر عديد الجيش الإنكشاري لم يعد من الضروري أخذ الأطفال المسيحيين بل صارت تعطى الأفضلية لأولاد الإنكشاريين أنفسهم، كذلك لمّا كثرت فتوح الإمبراطورية العثمانية في البلاد النصرانية واستقرّت أمور الحكم والدولة، لم يعد يلزم الفتى المسيحي بتغيير دينه لكي ينخرط في صفوف هذا الجيش. وقد ظلّت هذه الأنظمة سائدة طوال ثلاثة قرون، أي حتى عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥)، حين أرغمت الإضطرابات الداخلية والحروب الخارجية الجنرال أوزدمير بن عثمان باشا (Oeuzdemir - Oglou Osman - Pascha)،

وبعده الصدر الأعظم كوجاسنان باشا (Codja - Sinan - Pascha)، على أن يقبل في صفوف الجيش الإنكشاري كلّ أنواع الرجال من مختلف الطبقات ومن مختلف الأمم في الإمبراطورية - باستثناء العبيد - طالما أنه ينتمي إلى أمّة تنضوي تحت لواء السلطنة(٢٧).

باشر أورخان بإنشاء هذا الجيش عام ١٣٣٠م. بعد أن حلّ فرقة من المشاة تدعى (يايا Yayas) كان قد أنشأها قبل شهور ثم قرّر إستبدالها بالجيش الإنكشاري(٢٨). إلاّ أنّ تنظيم هذا الجيش لم يكتمل إلاّ في عهد السلطان محمّد الثاني (١٤٥١ - ١٤٨١)، ثم في عهد السلطان سليمان الأوّل القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦).

فرق الجيش الإنكشاري:

كان الجيش الإنكشاري مؤلّفاً من أربعة أنواع من الفرق تتألّف كلّ منها من عدد من الوحدات التي تدعى (أورطة Orta) أو أوضه أي غرفة (Oda)، وهي الوحدة الأساسية في هذه الفرق جميعها، ويراوح عديدها بينماية وخمسماية رجل، أي بين سرية وكتيبة، فهي تكون سرّية في زمن السلم، أمّا في زمن الحرب فتعزّز حتى تصل إلى كتيبة من خمسماية رجل، ولم يكن عديد الأورطة موحّداً بين مختلف الفرق في الجيش الإنكشاري، كما كانت هذه الوحدات موزّعة بين العاصمة اسطنبول والأقاليم ومواقع الحدود(٢٩).

وتأتي هذه الفرق من حيث الأهمية على الشكل التالي:

أ - **السكمان أو السكبان**: Seyman - ou Segban وتعني «خادم الكلاب» أو حارسها، وسمّوا كذلك لأنهم كانوا يقودون الكلاب أمام أمرائهم عند مسيرهم للصيد، قال البوريني فيهم: «وهم عبارة عن طائفة كان وصفهم أنّ الواحد منهم يحمل البندقية على ظهره ويقود الكلب في ساجوره (قيده) ويمشي أمام الأمير والكبير حتى يسير إلى الصيد»، ثم قال: «ولم يكونوا أوّلاً

شيئاً حتى جاء إلى بلاد الشام أمير يُقال له أبو سيفين تولّى ولاية نابلس، فصحب منهم ماية رجل يستعين بهم على رعايا بلاد نابلس لأنهم لا يخلون من نوع شراسة، فاعتاد الأمراء استصحابهم إلى ولاياتهم فكثروا. وقد أضيف هذا العسكر إلى جوقة الإنكشارية»[٢٠]. وقد اقتنى الأمير فخر الدين المعني الثاني من السكمان جيشاً من نحو خمسة عشر ألف مقاتل، كما اقتنى السيفيون في طرابلس، وكذلك الحرفوشيون في بعلبك، جنداً من السكمان أيضاً.

ب - **فرقة أبناء الأعاجم** (Adjemis - Oglans): وكان جند هذه الفرقة يؤخذون من أبناء الشعوب الأجنبية الخاضعة للإمبراطورية العثمانية حيث كانوا ينشأون تنشئة إسلامية وعسكرية، وكانت تظلّ هذه الفرقة في العاصمة باستمرار، سواء في زمن الحرب أو السلم، حيث كان يتدرّب فيها الأحداث من الجنود قبل توزيعهم على الفرق المقاتلة[٢١].

ج - **فرقة الجماعة** (Djemaat): وكانت موزّعة بين العاصمة إسطنبول ومواقع الحدود.

د - **فرقة البلك** (Beuluk): وكانت موزّعة بين إسطنبول والأقاليم.

أهمّ الرتب والوظائف في الجيش الإنكشاري:

كان الآغا (Agha) هو القائد الأعلى للجيش الإنكشاري باعتباره أعلى ضبّاط هذا الجيش رتبة، وكان، بحكم قيادته لهذا الجيش، جنرالاً قائداً لموقع العاصمة إسطنبول وضابطاً أوّل لدى الصدر الأعظم، وكان يساعده في قيادته قائد فرقة السكمان ويدعى «سكمان باشي - (Seyman - Bachi) الذي كان، بالإضافة إلى وظيفته كمساعد أوّل للآغا وكقائد لفرقة السكمان، ينوب عن الآغا في قيادة الجيش أثناء الحرب وفي قيادة موقع العاصمة. يليه في المرتبة والوظيفة «القول كيخيا (Koul-Kehay)» أو القيّم المالي للجيش، وهو المكلّف

تدبير الشؤون الإقتصادية والمالية وشؤون النظام والإنضباط. وهكذا كانت تؤول القيادة الفعلية للجيش إلى أحد المساعدين: السكمان باشي أو القول كيخيا، باعتبار إنشغال الآغا المستمر إلى جانب الصدر الأعظم.

وكان هولاء الضباط الثلاثة، بالإضافة إلى ثلاثة من قادة الوحدات (الأورطة) يكوّنون المجلس الحربي أو الديوان الحربي للفرقة ويسمّى «أودجاق أغالري» (Odjak-Aghaleri)[٣٢].

التدريب في الجيش الإنكشاري:

كان المدرَّبون الأحداث من الإنكشاريين يتلقّون فنّ التدريب العسكري، وكذلك القراءة والكتابة، في وحدات (أورطة) هي فرقة أبناء الأعاجم التي كانت بمثابة معهد التعليم للجيش الإنكشاري، ومن هذا المعهد، يوزّع هؤلاء المدرَّبون، بعد إتمام تدريبهم، على وحدات الفرق الثلاث الأخرى (السكمان والبلك والجماعة) حيث يقومون بتدريب الجند على القتال، كما كان لكلّ أورطة واحد من هؤلاء المدرّبين، يعلم جندها القراءة والكتابة، كما كان لها مدرّبون دينيون يعلمون الشريعة الإسلامية ويسمّون «خوجا» (Khodja). وكان الجنود الإنكشاريون يتدرّبون على القتال في باحات ثكناتهم حيث كانوا يتدرّبون على بنادق الأرقبوز أو البنادق القداحة (Arquebuses) وعلى القوس، إلاّ أنّ سلاحهم جميعاً كان الأقبوز[٣٣].

عديد الجيش الإنكشاري:

بلغ عديد الجيش الإنكشاري في عهد السلطان محمّد الثاني (١٤٥١ - ١٤٨١) اثني عشر ألف مقاتل، ثم أصبح في عهد السلطان سليمان الأوّل (١٥٢٠ - ١٥٦٦) أربعين ألفاً، وفي عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) ستين

ألفاً، وفي عهد السلطان محمّد الثالث (١٥٩٥ - ١٦٣٠) ماية ألف وألفا وستماية مقاتل (حسب إحصاء عام ١٥٩٨). وظلّ هذا الجيش ينمو ويكبر حتى زاد على مايتي ألف مقاتل في السنوات الأولى من عهد السلطان محمّد الرابع (١٦٤٨ - ١٦٨٧)[٣٤]، إلاّ أنّه بدأ يتقلّص بعد ذلك تدريجياً، وفي عهد هذا السلطان بالذات، حتى أصبح في العام ١٦٥٢ خمسة وخمسين ألف مقاتل فقط، ولكن الإضطرابات التي أثارها الجند المسرّحون من هذا الجيش اضطرّت السلطان إلى إعادة قسم كبير منهم، فارتفع عديده عام ١٦٥٥ إلى ثمانين ألف مقاتل، ومع ذلك استمرّ السلاطين في سياسة خفض عديد هذا الجيش وإضعافه نظراً للسطوة التي بلغها والتي كانت كثيراً ما تهدّد مصير السلاطين أنفسهم، معتمدين، في أوقات الحروب، للتعويض عن النقص في العديد، على ما يمكن تعبئته من الرجال المتطوّعين والمفروضين على الأقاليم المحتلّة، ومن الجند غير النظاميين الذين لا ينالون أجراً إلاّ عن الفترة التي يستخدمون خلالها في القتلى. ورغم أن هذه السياسة أدّت إلى إستقرار داخلي في الإمبراطورية العثمانية وإلى إقتصاد في نفقات الجيش، إلاّ أنها كانت سيّئة بالنسبة إلى مصير الإمبراطورية، وخصوصاً في حربها الأخيرة ضدّ روسيا (عام ١٨٧٧ - ١٨٧٨م.)[٣٥]، إذ حرمتها من أعظم جيوشها وأصلبها وأشدّها بطشاً وأمهرها في ميادين القتال[٣٦].

أنواع الجند في الجيش الإنكشاري:

كان الجيش الإنكشاري يتألّف من ثلاثة أنواع من الجند هي:

الأولى: جنود الخدمة الفعلية أو الإشكندجي (Eschkindjis).

الثانية: المرتزقة، أي الأفراد المسجّلون للإنخراط بهذا الجيش ليملأوا الفراغ فيه عند الضرورة، أي في زمن الحرب، بينما يتابعون في الأوقات العادية

أعمالهم ومهنهم، ولا يقبضون أجرهم إلاّ عن الفترة التي ينخرطون خلالها في الجيش، وكان عدد هؤلاء يربو على المائة والخمسين ألف رجل.

الثالثة: العثمانيون، على اختلافهم، وكان عددهم كبيراً، وكان هولاء يفتخرون بأن ينتسبوا إلى هذا الجيش العريق في إمبراطوريتهم، فيحملون إسم الإنكشاري ويلبسون زيّه، ويسمّون «المرشّحين» (Tesstacdjis)(٢٧).

رواتب الجند في الجيش الإنكشاري:

كان على الجندي الإنكشاري، في زمن السلم، أن يخدم ثلاث سنوات حتى يصبح له الحق بالمعاش، وكان يبدأ بـ«أقجة (aspre)» في اليوم، إلاّ أنّ الجندي الشجاع يميَّز فينال، بعد المعركة، زيادة تراوح بين «أقجتين» و«ثلاث»؛ وظلّ هذا النظام معمولاً به حتى عهد السلطان سليمان الأوّل (١٥٢٠ - ١٥٦٦) الذي أعاد تنظيم رواتب الجند فوضع ثلاثة أصناف من الرواتب:

الأوّل: للجنود الأحداث (كوجك Koetschek) من ٣ إلى ٧ أقجة يومياً (لجنود الخدمة الفعلية).

الثاني: للجنود القدماء الذين تميّزوا بشجاعتهم في أثناء القتال، ويحملون على أجسادهم آثار فعالهم المجيدة في الحروب من جراحات وغيرها، من ٨ إلى ٢٩ أقجة يومياً.

الثالث: للضباط وللجنود مشوّهي الحرب أو المقعدين (outourac) من ٣٠ إلى ١٢٠ أقجة يومياً.

إلاّ أنّ هذا النظام لم يكن يطبق على فرقة أبناء الأعاجم المقيمين في العاصمة بصورة دائمة، فقد كانت رواتب الضباط والجند في هذه الفرقة تراوح بين ٢ و٢٩،٥ أقجة في اليوم، وذلك حسب الرتبة وسني الخدمة.

أمّا الضبّاط العاملون في الخدمة الفعلية، فكانت رواتبهم اليومية تراوح، في عهد هذا السلطان بالذات، بين ١٢٠ أقجة (وهو الحدّ الأدنى لراتب آمر السرية أو قائد الأورطة، ويشكّل، في الوقت ذاته، الحدّ الأعلى لراتب الضابط أو الجندي المشوّه أو المقعد - الصنف الثالث) و٢٤ ألف قرش أو ١٥٠٠ أقجة (وهو الحدّ الأعلى لراتب الآغا قائد الجيش)، وكان هؤلاء يقبضون رواتبهم مع الجند[٣٨].

بالإضافة إلى ذلك، فقد كان للآغا وكبار قادته امتيازات مادية إضافية يستفيدون منها على حساب الجند، بل من حسابهم، فقد كان للآغا مثلاً، وبعد موافقة الصدر الأعظم، صلاحية ترقية الضباط إلى مختلف الرتب في جيشه، وكان يقبض على كلّ ترقية مكافأة مالية (جائزة) من الضابط المرقى، ويقبض كذلك مكافأة مالية من الضابط الذي يظلّ في منصبه سنة بعد أخرى (باعتبار أنّ التجديد للضباط في مناصبهم يتمّ سنة فسنة) فكان يجتمع لديه، من جرّاء هذه المكافآت، سنوياً، نحو مايتي ألف قرش يتوزّعهم بينه وبين مساعده الأوّل، القول كيخيا (الثلثان للآغا والثلث الباقي للقول كيخيا) كما كان (الآغا نفسه) وقادة الوحدات ينالون من رواتب الجند نسبة محدّدة (١٢٪ تقريباً). وإذا ما تغيّب جندي عن القبض لسبب أو لآخر، فلقائد الأورطة الحقّ بالإحتفاظ بالراتب اليومي لهذا الجندي حتى ٢٠ أقجة، يعطي قسماً منها للآغا الذي يعطي بدوره قسماً منه لمكتب الكتبة (أي أمانة سرّ الجيش).

كذلك، كان للآغا وقادة الوحدات الحقّ بأن يرثوا ضبّاط الجيش وجنوده، وكان يتمّ ذلك على يد بيت المالجي (أي ضابط الخزانة في الجيش) الذي عليه أن يحصي تركة الموروث ويحصر إرثه، فإن كان له ورثة شرعيون يؤخذ من تركته العشر فقط يوزّع على الآغا وبيت المالجي وقائد أورطة الموروث، وإن لم يكن له ورثة تعود التركة كلّها إلى الآغا الذي يعطي بدوره العشر إلى بيت

المالجي وقائد الأورطة، هذا إذا كانت التركة تزيد عن عشرة آلاف قرش، أمّا إذا كانت عشرة آلاف قرش أو أقل، فإنها تصادر وتعود إلى خزانة الدولة، وعلى الآغا أن يدفع لخزانة الدولة، لقاء حقّه بالإرث، مبلغ عشرين ألف قرش سنوياً.

أمّا في الأقاليم فكان قادة الأقاليم أو المقاطعات (السردار Serdar) يتمتعون، بالنسبة إلى تركات الجند في أقاليمهم أو مقاطعاتهم، بحقّ الإرث الذي يتمتع به الآغا بالنسبة إلى جند العاصمة، مع فارق بأنّ عليهم أن يتركوا للآغا كلّ إرث يزيد عن ١٥٠٠ قرش.

ويرث قادة جيوش المشاة الثلاثة الأخرى: السلاحية (Djébedjis) والمدفعية (Topdjis) والنقل (Top - arabadjis) جندهم عندما تقلّ التركة عن ألف قرش، أمّا إذا زادت عن ذلك فتعود إلى خزانة الدولة، وأمّا في جيش الفرسان: السباهي والسلاحدار، فيعود حقّ الإرث هذا إلى خزانة الدولة فقط.

إلاّ أنّ أكبر فائدة مادية كان يجنيها الضباط هي المبالغ الطائلة التي كانوا يحصلون عليها من جرّاء الفرق الحاصل بين مجموع رواتب الجند التي كانوا يقبضونها حسب العدد النظري لجنود وحداتهم (الأورطة) وبين ما كانوا يدفعونه من رواتب للعدد المحقق من الجند في هذه الوحدات، إذ أنّ العدد النظري للوحدة كان يزيد بصورة دائمة عن العدد المحقّق[٣٩].

وفي عهد السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ - ١٧٧٤) جرى تعديل على هذه الرواتب بسبب المبالغ الباهظة التي تنفقها الدولة لتسديدها وبسبب الترف الزائد الذي كان يصيب الضباط من جرائها، فخفضت رواتب الضباط حتى أصبح راتب آمر السرية أو قائد الأورطة لا يتعدّى الـ١٢٠ أقجة يومياً (وهو أعلى حدّ لراتب الجندي كذلك) كما أصبح الحدّ الأعلى لراتب الضابط العام ١٥٠ أقجة يومياً، وراتب الآغا قائد الجيش ٣٠٠ أقجة يومياً[٤٠].

التجهيزات العامة والعسكرية:

١ - **التغذية:** كانت الدولة تقدّم للجيش الإنكشاري بعض المواد الغذائية الأساسية مثل اللحوم والأرز والخبز، وكانت تزوّد الوحدة (الأورطة) بكمية من لحم الغنم ومن الخبز يومياً، وفي عيد الأضحى كان يقدّم خروف لكلّ أورطة، وهذا كلّ ما كانت الأورطة تتسلّمه من الدولة كمواد غذائية طبيعية. إلاّ أنّ قائد الأورطة كان يزوّد أورطته بالكمية اللازمة من الأرز والزبدة والخضار، وفي أوقات الحرب، كانت الدولة تزوّد الأورطة بكميات إضافية من اللحم والخبز، أمّا باقي المواد اللازمة للتغذية فكان أمر تدبيرها يقع على قائد الأورطة نفسه، وهذا هو الحال في باقي جيوش المشاة: السلاحية والمدفعية والنقل، أمّا الخيّالة فلم تكن تزوّد بشيء من هذه المواد على حساب الدولة.

٢ - **اللباس:** لم تكن الدولة تزوّد بالألبسة أكثر من اثني عشر ألف إنكشاري في العاصمة، وذلك بسبب النظام الذي كان قد وضعه السلطان محمّد الثاني (١٤٥١ - ١٤٨١) وحدّد فيه عديد الجيش الإنكشاري بإثني عشر ألف رجل، وكبر الجيش الإنكشاري بعد محمّد الثاني وزاد عديده، إلاّ أنّ النظام الذي وضعه هذا السلطان فيما يختصّ بلباس الجند لم يتغيّر، رغم كلّ الضغوط التي مارسها الجيش في سبيل ذلك، فقد كانت الدولة تقدّم لهؤلاء الجند، كلّ سنة، كمية من الجوخ السالونيكي (Drap de Salonique) بألوان مختلفة، حيث كانت تقسم هذه الأجواخ إلى ١٢ ألف قطعة كلّ منها سبعة أذرع، وتصنع غلالات (Dolama, ou Tuniques) للجند، كما كان يخصّص لكلّ جندي، بالإضافة إلى ذلك، سبعة أذرع من القماش الأبيض المشوب بالصفرة للعمامات وسبعة أذرع أخرى للقمصان، وقد كانت هذه البضاعة تسلّم إلى قائد الأورطة الذي كان يوزّعها، حسب هواه، على جند وحدته، وكان يفضّل عادة أن يعطيها لأقدم الرتباء والجنود في الخدمة.

وكانت معظم الصناعات اللازمة متوفّرة في الجيش الإنكشاري بما يشبه الإكتفاء الذاتي تقريباً، فكانت أورطة من فرقة البلك، مثلاً، متفرّغة لصناعة الخبز، وأورطتان من فرقة الجماعة متفرّغتين للحوم، كما كانت بعض الوحدات متفرّغة لأعمال التزجيج (الزجاج) والسلاحية (تصليح الأسلحة)، وقيادة الزوارق وصنع الصناديق[٤١].

٣ - **الزيّ العسكري**: في مطلع الدولة العثمانية، أي في عهد السلطان عثمان الأوّل (١٢٩٠ - ١٣٢٦)، لم تكن البزّة العسكرية تختلف كثيراً عن لباس البورجوازيين العثمانيين، لأنه لم يكن في ذلك الحين سوى العسكريين من متطوّعي الأقاليم، وعندما أنشأ أورخان (١٣٢٦ - ١٣٥٩) الجيش الإنكشاري، لم يغيّر كثيراً في الزيّ العسكري لهذا الجيش باستثناء القلنسوة (Bonnet ou Kulah) التي أعطاها لوناً أبيض ليميّزها عن ألوان القلانس التي كان العامّة يلبسونها، إلاّ أنّه في عهد السلطان مراد الأوّل (١٣٥٩ - ١٣٨٩) خليفة أورخان، بدأ ضبّاط الإنكشارية يلبسون القلنسوة الحمراء (bourk) المطرّزة بالذهب مقلّدين بذلك الأمير سليمان باشا إبن أورخان.

ثم أصبح للإنكشارية بعد ذلك بزّة موحّدة (uniforme). فكان زيّ الرتباء والجنود يتميّز بشكل القبّعة (casque) أو العمامة (Turban) أو القلنسوة الخاصة بالحفلات (Ketché) دون النظر إلى اللون[٤٢]. أمّا الضبّاط قادة الوحدات (الأورطة) في مختلف الفرق فكان زيّهم لا يتميّز إلاّ بلون الحذاء، إذ كان ضبّاط (البلك) ينتعلون أحذية حمراء، أمّا ضبّاط باقي الفرق فكانوا ينتعلون أحذية صفراء، وينتعل الرتباء أحذية سوداء.

وكان الضبّاط العامّون يتميّزون بقبّعاتهم المزركشة بالريش (السكّف أو الكوكا Uskiuf ou Couca) وكذلك كان للآغا زيّ خاص به.

وكانت اللحى علامة مميّزة من علامات جند الإنكشارية وضبّاطهم، ففيما يختصّ بالجند، كان يمنع على الفتيان منهم أن يلتحوا، ولا يسمح بذلك إلاّ للمسنّين منهم، وأمّا فيما يختصّ بالضبّاط، فكان على القادة الكبار منهم (الجنرالات) والضبّاط الأربعة الأول في كلّ أورطة أن يلتحوا إجبارياً، ولا يسمح لباقي الضبّاط بذلك[٤٣].

٤ - **السلاح**: لم تكن الدولة تقدّم السلاح للعسكريين في أوقات السلم، فكان الذين يخدمون منهم في العاصمة مزوّدين بنبابيت (massues) فقط، وكان حمل السلاح ممنوعاً عليهم، وكان يسمح لهم، فقط بحمل سكين يضعونها في زنانيرهم، أمّا العسكريون المتمركزون في مواقع الحدود، والبحرية في المرافىء، فقد كان مسموحاً لهم أن يحملوا السلاح، وكان سلاحهم السيوف والمسدّسات.

وفي أوقات الحرب، كان على العسكري نفسه أن يتجهّز بالسلاح، وعلى حسابه الخاص، ولذا، كان له مطلق الحرية في اختيار السلاح الذي يريده أو يتوافر له، فالأرقبوز (البندقية القداحة arquebuse) والسيف، والمسدّس والدبّوس الحديدي (Masse d'armes) والخنجر، والصفيحة (cimeterre) والفأس، هي الأسلحة العادية للمشاة[٤٤]، والسيف، والرمح، والغدّارة، والقوس، والسهم، والمزراق (الرمح القصير Javelot) أو الحربة، بأطوالها المختلفة، والأسلحة النارية أحياناً (بنادق الفتيل والصوّان) هي أسلحة الخيّالة. وكان العسكري يعتني بأناقة سلاحه وبتزيينه إلى حدّ المبالغة، فكانت هناك السيوف المفضضة (المطلية بالفضّة) وكذلك المسدّسات، وكثيراً ما كانت هذه السيوف والمسدّسات تزركش برموز وأسماء وآيات قرآنية رسمت كلّها بخطّ بديعٍ مذهّب. وكانت الدولة، في كلّ حال، تتعهّد مخازن للأسلحة والذخيرة سواء في العاصمة أو في عدّة مواقع على حدود الإمبراطورية، وكان

جيش السلاحية (أو القرداحية Djébedjis ou armuriers) هو المسؤول الوحيد عن تعهّد هذه المخازن، وهو الذي كان مكلّفاً نقلها إلى الميدان حيث يقوم القادة بتوزيع الأسلحة والذخيرة على الجند الذين لم يتوفّر لهم الحصول على سلاح أو ذخيرة، وكان كلّ سلاح يخرج من مخازن الدولة يعتبر مفقوداً ولا يعود إليها[٤٥].

٥ - **الراية** (Bannière): كان للجيش الإنكشاري راية كبيرة (بيرقا) يسمّى (الإمام الأعظم) وذلك تيمّناً بإسم الإمام أبي حنيفة صاحب المذهب الحنفي في الإسلام، والذي هو المذهب الرسمي للدولة، وكانت هذه الراية من الحرير الأبيض، وقد طرّز عليها بخطّ كبير آيات قرآنية تناسب ظروف حملها، كتلك التي تدعو إلى الجهاد في سبيل الله، والتي تدعو لأولي الأمر بالنصر المبين، مثل: «أنا فتحنا لك فتحاً مبينا» ومثل: «إن ينصركم الله فلا غالب لكم» الخ... وكانت تنصب هذه الراية في الميدان أمام خيمة الآغا قائد الجيش مع أعلام الفرق الأربع مطوية ضمن أغماد حمراء، ومع التوغ (Toug)[٤٦] ذي الثلاثة أذناب من الخيل، وهو العلم الخاص بالآغا (الجنرال قائد الجيش)، كما كان لكلّ أورطة علمها أو بيرقها، نصفه أحمر والنصف الآخر أصفر، وكان ينصب أمام خيمة قائد الأورطة.

وكان لكلّ أورطة، بالإضافة إلى العلم، شعار خاص (Nischan ou insigne) يميّزها عن باقي الوحدات، وكان هذا الشعار يرمز إمّا إلى سلاح أو حيوان أو نبتة، أو شيء ما، ويرسم على الخيم والفوانيس وأبواب المساكن[٤٧].

العقوبات العسكرية:

كان يوجد في أنظمة الجيش الإنكشاري خمسة أنواع من العقوبات العسكرية هي:

- الحبس المؤقّت، وكان الحكم به من صلاحية الضباط الأعوان.

- الجلد البسيط، وكان الحكم به من صلاحية الأودا باشي (رئيس الغرفة) الذي ينفّذه بيده وبالسوط ٣٩ جلدة على ظهر المحكوم، وعلى وقفاه، وهو منبطحٌ أرضاً.

- الجلد الكبير، وكان الحكم به من صلاحية قائد الأورطة الذي كان يأمر بجلد المحكوم ٧٩ جلدة بالسوط ينفّذها شاويش القطعة.

ويتطلّب حكم الجلد، بنوعيه، ولتنفيذه، موافقة الآغا قائد الجيش والصدر الأعظم.

- الحبس المؤبّد، وكان المحكوم ينفّذه في إحدى قلاع الدردنيل أو البوسفور.

- الموت، وكان المحكوم ينتظره في إحدى قلاع الدردنيل أو البوسفور، حيث ينفّذ فيه الحكم ليلاً، خنقاً، وبالأنشوطة، ثم ترمى جثّته في المحيط.

أمّا الضبّاط العامون، فكانوا يعاقبون، عادة، بالتجريد، ثم بالنفي.

ولم يكن حكم الموت ينفّذ بالإنكشاري علانيةً، ولم تكن العقوبة العسكرية تنفّذ به علانية إلاّ عند الضرورة، كأن تكون الجريمة واقعة على شخص ما، وكان المتهم يمثل أمام محكمة مولّفة من ستة ضبّاط كبار، يرأسها الصدر الأعظم ويشترك فيها الآغا قائد الجيش، ويتمّ تجريد المحكوم، قبل تنفيذ الحكم، بأن تنتزع عمامته عن رأسه ويمزّق طوق سترته علامة تجريده، وذلك كي ينزل برتبته إلى مستوى العامة، ثم ينفّذ الحكم به.

وكانت عقوبة الفرار في زمن السلم الحبس أو الجلد، أمّا في زمن الحرب، فبالإضافة إلى ذلك، يشهّر بالعسكري الفار ويعتبر منبوذاً ومرذولاً وجباناً لا يستحقّ شرف الذود عن حياض الدين والدولة، وكثيراً ما كان رؤساء هؤلاء العسكريين يغالون في معاقبة مرؤوسيهم الفارين بأن يقطعوا أنوفهم أو

آذانهم أو يحكموا عليهم بالموت خنقاً، ويتمّ تنفيذ الحكم الأخير في الميدان في جناح خاص بالجلاّدين يسمّى «ليلك - تُشادري» (Leilék - Tochadiri)(٤٨).

أنظمة وتقاليد خاصة بالجيش الإنكشاري:

كان العسكري الإنكشاري يتمتّع بامتيازات خاصة ومهمّة لم يكن يتمتع بها سواه من عسكريي باقي الجيوش العثمانية، فكان يصنّف في المرتبة الأولى بالنسبة إلى عسكريي هذه الجيوش، ولا يعاقب إلاّ من قبل ضبّاطه، ولا يدفع ضرائب، ولا تصادر أملاكه إلاّ نادراً. وكان لآغا الإنكشارية أفضلية على قادة باقي الجيوش وكذلك على وزراء الدولة، ولم يكن يتقدّمه من قادة الجيوش الأخرى في الإحتفالات العامة سوى قادة جيشي الخيّالة (السباهي والسلاحدار) وذلك في احتفالات عيدي الأضحى والفطر فقط، لأنّ هذين الجيشين هما أقدم من الجيش الإنكشاري. وكان لهذا الآغا مرتبة الباشا بتوغ (Toug) ذي رتبتين (ذنبي خيل) وهي مرتبة (جنرال بنجمتين)، أمّا في وقت الحرب، فكان ينال مرتبة الباشا بتوغ ذي ثلاث رتب (ثلاثة أذناب) أي (جنرال بثلاث نجوم)، وكان يحقّ له عدم مرافقة الجيش إلاّ إذا كان يقوده السلطان بنفسه، وفي غير هذه الحالة، كان يرسل على رأس الجيش واحداً من مساعديه. إلاّ أنه منذ العام ١٥٩٤ (عهد السلطان مراد الثالث) حين أرغم الصدر الأعظم، كودجك سنان باشا، آغا الإنكشارية على مرافقته للحرب في هنغاريا، لم يعد أغوات الإنكشارية يتمتّعون بهذا الإمتياز. وكان الآغا مكلّفاً رسمياً، مع مساعديه القول كيخيا والسكمان باشي، بالسهر على حماية الأمراء، وكان على الآغا أن يلقي النظرة الأخيرة على السلطان المتوفّى لكي يتأكّد من أنّ وفاته كانت طبيعية، ولكي يطمئن الشعب والجيش ويزيل من أفكارهما الشكوك.

وكان أهمّ امتياز يتمتع به الجيش الإنكشاري هو أنّ السلطان مسجّل في الأورطة الأولى من فرقة البلك، وقد جرت هذه العادة منذ عهد السلطان سليمان الأوّل (١٥٢٠ - ١٥٦٦)، وعلى هذا خصّصت إحدى غرف الأورطة للسلطان، بصورة رمزية، فكانت تزيّن بتاج سلطاني وتظلّ دائماً مغلقة.

وكان أنظمة هذا الجيش، في مطلع تأسيسه، وفي عهد مؤسّسه السلطان أورخان، لا تسمح للإنكشاري بالزواج، إلاّ أنّ هذا المنع لم يعد قائماً بعد السلطان أورخان[٤٩].

لقد ساعد تأسيس الجيش الإنكشاري، كأكبر قوّة مشاة عسكرية منظّمة عرفتها الإمبراطورية العثمانية في ذلك الحين وأقواها، على ازدياد شأن هذه الإمبراطورية وتوسيع رقعة فتوحها، ولكن الإمتيازات الفائقة التي منحت إلى هذا الجيش، من قبل السلاطين العثمانيين، أدّت إلى سيطرة الجيش الإنكشاري على المجتمع والحكم في الإمبراطورية باعتباره القوّة الضاربة فيها، فأصبح يشكّل خطراً كبيراً على السلطان بدلاً من أن يكون الحماية الأكيدة له، وكثرت الإنتفاضات والثورات فيه[٥٠] ممّا حمل السلطان عبد الحميد الأوّل (١٧٧٤ - ١٧٨٩) على محاولة الخلاص منه بإلغائه فلم يفلح، وظلّ الأمر على هذه الحال حتى عهد السلطان محمود الثاني الذي تمكّن من القضاء على الإنكشاريين نهائياً، وحلّ الجيش الإنكشاري في جميع أنحاء السلطنة العثمانية، وذلك عام ١٨٢٦[٥١].

٢ - جيش السلاحية أو القرداحية: (Les Armuriers ou Djébejis):

يهتمّ هذا الجيش بحماية مخازن الأسلحة والذخيرة والعناية بها ونقلها إلى القطع المقاتلة في الميدان، ولم ينظّم تنظيماً نهائياً وثابتاً إلاّ في عهد

السلطان محمّد الثاني (١٤٥١ - ١٤٨١) حيث لم يكن يزيد عديده عن أكثر من ٧٠٠ رجل، وفي عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) زيد عديده حتى ٧٥٠٠ رجل، وأصبح مولّفاً من فرقتين: البلك والجماعة، حيث تؤلّف كلّ فرقة منهما من عدد من الوحدات (الأورطة). وكان قسم من هذا الجيش مستقرّاً في العاصمة القسطنطينية، بينما كان القسم الثاني منه موزّعاً على مواقع الحدود، وكان يقود هذا الجيش ضابط برتبة جنرال ويسمّى «دجبدجي باشي» (Djébedji - Baschi)، ويذكر الرحّالة الفرنسي ديهي دي كورمينان (Des Hayes de Courmenin) إنّ عديد هذا الجيش كان عام ١٦٢١ نحو عشرة آلاف رجل[٥٢].

٣ - جيش المدفعية: (Les Canonniers ou Topdjis):

أنشىء في عهد السلطان مراد الثاني (١٤٢١ - ١٤٥١)، وفي عهد السلطان محمّد الثاني (١٤٥١ - ١٤٨١) حدّد عديده بسبعماية رجل فقط، إلاّ أنه زيد إلى خمسة آلاف في عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥)، وكان قسم منه مستقرّاً في مدينة غلطة (Galata) على ضفاف البوسفور، في ثكنة تدعى «توبخانة» (Topkhané) أي «ثكنة الطوبجية أو المدفعية»، وكان القسم الثاني موزّعاً في الأقاليم، وكان يقود هذا الجيش ضابط برتبة جنرال يدعى «الطوبجي باشي (Topji - Baschi)[٥٣].

٤ - جيش النقل: (Top - arabadjis):

أنشىء في عهد السلطان مراد الثاني وذلك لنقل المدافع إلى الوحدات المقاتلة في ميدان القتال، وكان عديده نحو ٣ آلاف رجل، ومركزه في العاصمة

القسطنطينية، وكان يقوده ضابط يدعى (طوبعربجي باشي) (Top - Arabadji Baschi)

وكانت رواتب القادة والجند في هذه الجيوش شبيهة برواتب القادة والجند في الجيش الإنكشاري، كما كانت تتلقّى التجهيزات نفسها التي كان الجيش الإنكشاري يتلقّاها سواء في السلم أو الحرب(٥٤).

٢ – جيوش الخيّالة أو الفرسان

١ - جيش السباهي أو الرمّاحين:

يعود هذا الجيش في إنشائه إلى زمن أقدم من الزمن الذي أنشىء فيه الجيش الإنكشاري، وكان عديده في عهد السلطان محمّد الثاني نحو عشرة آلاف خيّال، ثم زاده السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ – ١٧٣٠) إلى إثني عشر ألفاً، وكان يقسم إلى بُلُكين، يقود كلاً منهما ضابط يدعى «بلكباشي» (Beuluk - Baschi) ويقود الجيش ضابط يدعى (السباهي آغا) (Sipah - Agha). وكان الخيّالة في هذا الجيش على نوعين: السباهي بالمعاش وهم عسكر الباب العالي (Soldats de la Porte) ويتقاضون رواتب يومية تدفع لهم كلّ ثلاثة أشهر، والسباهي بالإقطاع وهم عسكر الأقاليم الذين يتمتعون بإقطاعات عسكرية يتوارثونها(٥٥).

٢ - جيش السلاحدار (Silihdars) أو حملة السلاح:

هذا الجيش من الخيّالة هو أقدم من جيش السباهي، وقد كان عديده في عهد السلطان محمّد الثاني ثمانية آلاف فارس، إلاّ أنّ السلطان أحمد الثالث زاده حتى بلغ اثني عشر ألفاً، ويشبه تنظيمه تنظيم جيش السباهي، ويسمّى قائده (السلاحدار آغا) (Silihdar Agha).

وكان يلحق بهذين الجيشين من الخيّالة (السباهي والسلاحدار) أربعة بلكات تسمّى:

البُلُكات الأربعة أو (Beuluk - Erbéa) وهي:

- الألوفدجيان اليمين (Eulufedjian Yémin) أي جند المعاش اليمين.
- الألوفدجيان اليسار (Eulufedjian Yessar) أي جند المعاش اليسار.
- الغرباء اليمين (Ghourébai Yémin).
- الغرباء اليسار (Ghourébai Yessar).

وتعتبر هذه البُلُكات الخيّالة الأربعة أقدم سلاح للخيّالة في الإمبراطورية، أنشأها السلطان أورخان (١٣٢٦ - ١٣٦٩) وسلّمها العلم الإمبراطوري الكبير، وكانت مؤلّفة في الأصل من ٢٤٠٠ فارس ثم زاد عديدها تدريجياً حتى بلغ ١٦ ألفاً، إلاّ أنه بسبب الإضطرابات التي خلقتها في الأمبراطورية في عهد مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠) وإبراهيم الأوّل (١٦٤٠ - ١٦٤٨) أعيدت إلى حجمها الأصلي في عهد السلطان محمّد الرابع (١٦٤٨ - ١٦٨٧) أي إلى ٢٤٠٠ فارس، وأدمجت نهائياً في جيشي الخيّالة: السباهي والسلاحدار (أدمج بُلُكا اليمين في جيش السباهي، وبُلُكا اليسار في جيش السلاحدار وأصبح قادة هذه البلكات الأربعة تابعين إلى قائدي الجيشين اللذين أدمجت بُلُكاتهم بهما).

عديد الخيّالة:

كانت قوّة الخيّالة موازيةً دائماً لقوّة المشاة الإنكشارية، إلاّ أنها خفضت إلى ٢٥٤٩٠ خيّالاً في عهد السلطان محمّد الرابع، ثم رفعت بعد ذلك بسنوات إلى ٥٠ ألف خيّال، عندما رأت السلطنة أنه من الضروري زيادة عديد الجيش الإنكشاري، ولكن عديد الخيّالة عاد فتعرّض للتخفيض في العهود التالية، ففي عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ - ١٧٣٠) كانت الخيّالة تسمّى كلّها

(السباه) (Sipah) أو (البُلُك ألتي Khalk Alti - Beuluk)، وكان عديدها يصل، في زمن الحرب، إلى ٢٦ ألف خيّال، وفي زمن السلم إلى نصف هذا العدد. وكانت أهمّ مراكزها في القسطنطينية وأضنة (Andrinople) وبروسة (Brousse) وفي جوار هذه المدن، ثمّ توزّعت بعد ذلك في مختلف الأقاليم(٥٦).

رواتب الخيّالة:

كان راتب الخيّال يختلف باختلاف سني خدمته(٥٧)، وكان كلّ من قائدي السباهي والسلاحدار يقبض راتباً سنوياً حدّده «دوهسون» بـ٤٨ ألف قرش، ولكن عليه أن يدفع من هذا الراتب رواتب ضباط الأركان في جيشه، ولم تكن الدولة تقدّم للفارس شيئاً من التجهيزات أو التغذية أو السلاح، بل كانت كلّها على نفقته وعلى حسابه الخاص(٥٨).

رايات الخيّالة (Etendards):

كان للسباهي رايات حمراء، وللسلاحدار رايات صفراء، أمّا رايات البُلُك الأربعة فكانت خضراء مخطّطة بخطوط بيضاء(٥٩).

أسلحة الخيّالة:

كانت أسلحة الخيّالة هي التالية:

- الرمح والصفيحة (cimeterre) (وهو سيف ذو نصل عريض).
- النبل (dard) (وهو كناية عن قضيب طوله قدمان ونصف القدم وينتهي بطرف حديدي) وكان الخيالة يستعملونه بمهارة فائقة.
- السيف (وكان يعلّق بجانب السرج ماراً تحت فخذ الخيّال بشكل لا يمنعه من استعمال المسدّس أو البندقية).

- المسدّس والبندقية الخفيفة (carabine).
- القوس والسهام (في الكنانة).
- الترس أو المجن.
- بنادق الفتيل والصوّان، والغدارات.
- وكان بعض الخيّالة يرتدي سترة من الزرد[٦٠].

هذه الجيوش الستة التي ذكرناها آنفاً (جيشا الخيّالة وجيوش المشاة الأربعة) كانت تؤلّف القوّة الرئيسة والنظامية الضاربة للإمبراطورية العثمانية، وكان القادة الستة لهذه الجيوش هم الجنرالات الوحيدون في الخدمة الفعلية في زمن السلم. فكان أحدهم لا يخرج مع جيشه إلى الميدان إلاّ إذا كان على رأس هذا الجيش باشا بثلاث رتب (أي توغ بثلاثة أذناب من الخيل Toug à 3 queues de cheval) أو جنرال بثلاث نجوم) ويسمّى هذا الباشا: السر عسكر (Séraskier) أو (المشير). وكان قادة جيشي الخيّالة وجيش السلاحية يؤخذون عادة من بين الموظّفين المدنيين الذين يسمّون قبودجي باشي، أمّا قيادة جيشي المدفعية والنقل فكانت تعطى دائماً لأقدم الضبّاط في هذين الجيشين[٦١].

التدريب العسكري - التكتيك:

لم يكن العسكريون في الجيوش العثمانية يتدرّبون على القتال وتشكيلاته وعلى استعمال السلاح وتداوله بصورة نظامية وفي نطاق الوحدة، بل كانوا يتعلّمون فقط: الرمي بمهارة، ويعني ذلك كلّ أنواع الرمي، كرمي السهام ورمي البندقية ورمي المدفع، وكان رمي السهام هو المفضّل عند السلطان محمّد الثاني الذي كان يستعمل السلاح بحذاقة فائقة[٦٢]، أمّا التمرين المفضّل عند الخيّالة فكان رمي الجريد، ويصف الرحّالة (دارفيو Chevallier d'Arvieux)

(١٦٣٥ - ١٧٠٢) هذا التمرين بقوله: «ينقسم الخيّالة إلى قسمين بينهما مسافة شاسعة، بحيث يقفون متقابلين، ثم يندفعون بسرعة فائقة بعد أن يرخوا لخيلهم الأعنة، ويحاولون بمئة جولة أن ينالوا من ردف الذي يقاتلونه، وعندما يصبحون قريبين جداً منه، يرشقونه على ظهره بقضيب يحملونه باليد اليمنى، ولا يسمح لهم أن يرشقوه مواجهة.

«إنها لمتعة كبرى أن ترى بأيّة مهارة يدورون كي يتّقوا الضربة، إنهم يقفون على ركابات خيلهم القصيرة جداً لكي يضربوا بقوّة وشدّة، وعندما يرمون القضيب يعودون ليلتقطوه عن الأرض وهم على ظهور الجياد، وذلك بأن ينحنوا من جانب السرج أو يلتقطه بعضهم بقضيب آخر، ذي عقافة، وبعضهم الآخر، قدم في الركابة وأخرى على الأرض، ممسكاً الأعنة بيد وباليد الأخرى عُرْف (crin) الحصان، يلتقط القضيب ويعود ليستوي على السرج بمهارة عجيبة، ثم يتابع جريه، وبعضهم الآخر يدور برشاقة فيلتقط القضيب الذي رشقوه به أو يتقي الضربة بقضيبه»[٦٣]. وكانوا يعلّمون الجند مختلف أنواع الرياضة، واستعمال القوس والنشاب بالإضافة إلى المسايفة ورمي الجريد.

أمّا عن التكتيك، فيكفي أن نذكر ما أورده (ف. لوت F. Lot) بهذا الصدد إذ قال:

«يظهر أنّ التكتيك - في الشرق - لم يتغيّر منذ ألفين أو ثلاثة آلاف سنة، إنه دائماً سيطرة الخيّالة بالتكتيك المسمّى بارتيك (Parthique) وهو الدوران حول العدو بخيّالة تمطره بوابل من السهام، ثم التظاهر بالهروب، ثم التجمّع من جديد عند أوّل إشارة، ثم الصدمة الأخيرة، السيف ممتشق أو الرمح مسدَّد»... أمّا النصر في هذا القتال فهو نتيجة «جَلَدٍ وتدرّب وتمرين مع هيبة القادة وكفاءتهم، بالإضافة إلى عناصر أخرى غير محدودة ولا يمكن للفكر أن يحيط بها»[٦٤].

إلاّ أنّه لا يمكننا أن نوافق (لوت Lot) على هذه النظرة الإجمالية والبسيطة للتكتيك في الشرق في العصور الوسطى، إذ لا شكّ في أنّ القتال قد أخذ، في هذا العصر، وفي الشرق نفسه، أشكالاً أخرى أكثر تقدّماً من أشكال «الكرّ والفر» الذي يقصده الكاتب، وإن لم يكن قد بلغ، من التقدّم، ما بلغه الفن العسكري في أوروبا في تلك العصور.

ولا بدّ، أخيراً، من الإشارة إلى ما كتبه المؤرّخ محمّد كرد علي في هذا المجال إذ قال: «كانوا – أي العثمانيين – يبدون مهارة فائقة في التقدّم وكشف قوّة العدو والإحاطة به وتعجيزه، ويكمنون له»[٦٥]، وإلى ما ذكره الرحّالة (لوبران Le Brun) (١٧٠٠م.) من أنّ الجنود العثمانيين يجيدون بمهارة الرمي بالبنادق، ثمّ قال: «وقد رأيتهم بأمّ عيني يرمون بها وهم يجرون على ظهور خيولهم»[٦٦].

٢ – الجيوش العثمانية الأخرى

١ - جيوش المرتزقة في الإقطاعات العسكرية المسمّاة «زعامات وتيمار[٦٧] وخاص»:

عمدت الإمبراطورية العثمانية، منذ بدء توسّعها، إلى توزيع قطاعات من الأرض على العسكريين في الأقاليم، وذلك بقصد الدفاع عن هذه الأقاليم من جهة، ومكافأة هؤلاء العسكريين من جهة أخرى، فكان الخيّال (السباهي) مثلاً، الذي يُقطع إقطاعة ما، يستفيد من هذه الإقطاعة غرامات مادية كان يفرضها على فلاّحي هذه الأرض، كما كان له عليهم حقّ السيادة. وقد سبق أن تحدّثنا عن حقوق الإقطاعي وواجباته في فصل سابق، ولكن ما يجب أن نشير إليه هنا هو أنّ انتقال حقّ استثمار الإقطاعة من خيال (سباهي) إلى آخر، سواء

بالرضى أو بالوفاة أو لوريث الخيال المتوفّى، لم يكن ليتمّ إلاّ بإرادة الإقطاعي الأكبر الذي هو أمير الإقطاع، كما أنّه لم يكن يحقّ لهذا الخيّال أن يمنح حقّ الاستثمار هذا إلى أهله أو أقاربه. وكان لهؤلاء الخيّالة فقط، من دون جميع الأتراك، حقّ اقتناء الإقطاعات والقرى، وكان على الخيّال أن يقيم في إقطاعته، وأن يقدّم عدداً من الخيّالة المسلّحين في أوقات الحرب وعندما يطلب منه ذلك، وأن يسير على رأسهم للقتال. وكان عدد المقاتلين المطلوب من صاحب الإقطاعة يختلف باختلاف واردات كلّ إقطاعة، بحيث كان عليه أن يقدّم خيّالاً واحداً عن كلّ ٢ (أو ٥) آلاف أقجة يجنيها من إقطاعته، لذا، كانت هذه الإقطاعات تقسم إلى ثلاثة أنواع:

١ - **التيمار** (Timar): وهي الإقطاعات الصغيرة التي يقلّ إيرادها السنوي عن ٢٠ ألف أقجة.

٢ - **الزعامت** (Ziamet): وهي الإقطاعات المتوسّطة التي يراوح إيرادها السنوي بين ٢٠ ألف و١٠٠ ألف أقجة.

٣ - **الخاص** (Khass): وهي الإقطاعات الكبيرة التي يزيد إيرادها السنوي عن ١٠٠ ألف أقجة[٦٨].

وكانت الأقاليم تقسم، إدارياً وعسكرياً، إلى ثلاثة أقسام متتالية:

١ - **الإيالة**: يديرها باشا يسمّى «بيلربك» (Beiler - Bey) أي «بك البكوات» وهو برتبة «مير ميران» أي «أمير الأمراء»، وتقسم الإيالة إلى ألوية أو سناجق.

٢ - **اللواء**: أو السنجق، يديره بك يسمّى «سنجق بك» (Sandjak - Bey) أو «بك السنجق» بمعنى «بك اللواء»، وهو برتبة «ميرلوا» أي «أمير اللواء». ويقسم اللواء أو السنجق إلى إقطاعات صغيرة: تيمار وزعامت.

٣ - التيمار والزعامت: وهي الإقطاعات الصغيرة التي يديرها الخيّالة «السباهي» كما ذكرنا. أمّا الإقطاعات الكبيرة «الخاص» فكانت تخصّص لأمراء الإيالات والألوية. وهكذا، ففي زمن الحرب، كان الخيّال «السباهي» صاحب الإقطاعة الصغيرة أو المتوسّطة «التيمار أو الزعامت» بجمع ما يطلب منه من خيّالة مسلّحين، ويسير على رأسهم ليضع نفسه هو وخيّالته بتصرّف أمير اللواء أو بك السنجق، الذي يجمع بدوره من تجمّع لديه من خيّالة من جميع الإقطاعات الواقعة تحت نفوذه، ويسير بهم جميعاً ليضع نفسه بتصرّف أمير الأمراء أو بك البكوات أو البيلربك، الذي، بدوره أيضاً، يضع كلّ هذا الجيش بتصرّف الحاكم العام للإقليم، أو الباشا. وكانت معظم أسلحة هذا الجيش الرماح والصحائف والحراب، وكان بعضهم يعتمر الخوذ ويلبس قمصاناً من الزرد[٦٩]. وفي العام ١٢٧٦ سنّ السلطان مراد الأوّل قانوناً يسمح بموجبه الإرث في الإقطاعات العسكرية ولكن للإبن الذكر المباشر، فإذا لم يكن للخيّال صاحب الإقطاعة ولد ذكر انتقلت ملكية الإقطاعة إلى الدولة (الباشا) الذي يمكنه إقطاعها لأيّ خيّال آخر من الإقليم نفسه، وكان يسمح بجمع عدّة تيمارات في يد خيّال واحد بحيث تصبح زعامت، إلاّ أنه لم يكن يسمح بتقسيم الزعامت إلى تيمارات.

وهكذا، وفي خلال قرنين من الزمن، ظلّ الباشا يمنح الإقطاعات العسكرية، مهما كان نوعها، إلى الإبن البكر من صاحبها المتوفّى، إلاّ أنه في العام ١٥٣٠ سنّ السلطان سليمان الأوّل قانوناً حدّد بموجبه الإقطاعات التي يسمح للباشا بالتصرّف بها، وهي الإقطاعات الصغيرة (التيمار) أمّا باقي الإقطاعات فيعود حقّ منحها إلى السلطان نفسه بفرمان خاص (Teudjih - Ferman)[٧٠].

وكانت الزعامتات والتيمارات في مختلف الأقاليم التابعة للإمبراطورية العثمانية تقدّم نحو مئتي ألف مقاتل، وذلك في عهد السلطان سليمان الأوّل (١٥٢٠ - ١٥٦٦)، ولكن في عهد خلفائه، وخصوصاً مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥)، لم يعد أصحاب الإقطاعات يتقيّدون بتعليمات الحاكم العام وأوامره، فكانوا لا يستجيبون لطلبه ولا ينضوون تحت لوائه في القتال دون أن يتمكّن من معاقبتهم أو الإنتقام منهم، مما أفقد الإمبراطورية العثمانية جزءاً من قوتها لا يستهان به، ومقابل ذلك، أخذ الباشوات يعمدون إلى بيع هذه الإقطاعات لحسابهم الخاص، فكان التيمار أو الزعامت يباع لعدّة أشخاص في وقت واحد، وإذا كان كلّ مشترٍ يحمل براءة تملّكه للإقطاعة، فإنّه كان يتبادل مع خصمه النزاع والقتال، فتضطرب أحوال البلاد ويصبح من العسير السيطرة على المتنازعين. وقد حاول السلطان مصطفى الثاني (١٦٩٥ - ١٧٠٣) إصلاح الحال بأن جرّب إعادة العمل بالقانون الذي يمنع على الباشا التصرّف بالإقطاعات سوى الصغيرة منها، ولكنه لم يفلح، إذ أصبحت الوزارة تقوم مقام الباشوات في مخالفة الشرائع والقوانين وزرع بذور الفساد والرشوة، هكذا لم يعد لهذه المؤسّسة العسكرية الناتجة عن الإقطاع العسكري أيّة قيمة عسكرية تذكر(٧١).

٢ - جيوش الأقاليم أو عسكر الإيالات (Eyalet - Askéris):

بالإضافة إلى ما تقدّم، كان على كلّ إقليم أن يقدّم في زمن الحرب عدداً من الجند يراوح بين ١٥ ألف و٣٠ ألف مقاتل (من مشاة وفرسان) مسلّحين ومدرّبين على حسابهم الخاص، فالأكراد مثلاً، المقيمون في ديار بكر وشهرزول (Scheherzoul) وڤان (Van) كانوا يقدّمون للإمبراطورية نحو ٢٥

ألف مقاتل، والتركمان كانوا يقدّمون نحو عشرة آلاف مقاتل، والبلغار كانوا يقدّمون نحو ستة آلاف رجل (في عهد السلطان مراد الأوّل عام ١٣٧٦)، وكان هؤلاء يقومون بوظائف البيطريين والخدم، كذلك كانت كلّ من ڤالاشيا (Valachie) ومولداڤيا (Moldavie) تقدّم عدّة وحدات من الجند المسيحيين الذين كانوا يستعملون في الأشغال العامّة للطرق العسكرية[٧٢]، وذلك لأنه لم يكن يسمح للذمي في الإمبراطورية العثمانية أن يشترك في القتال[٧٣].

٣ - الجيوش الخاصة بالباشوات (Capou - Khalki):

تتألّف الجيوش الخاصة بالباشوات من عسكر اللاوند (Lewend)، ومن الدارعين (Cuirassiers) الذين يستفيدون من إقطاعات (الخاص Khass) التي هي في الأصل للحاكم يستغلّونها بالنيابة عنه، ومن الحكّام الذين لهم الحقّ بإقطاعة «خاص»: السنجق بك أو أمير اللواء، وتعطيه إقطاعته عادة مدخولاً يراوح بين مئتي ألف وخمسماية ألف أقجة سنوياً، والبيلربك (Beylerbey) أو أمير الأمراء ويرتفع مدخول إقطاعته إلى ضعفي مدخول إقطاعة السنجق بك، وكان على هؤلاء أن يقدّموا خيّالاً واحداً عن كلّ ٥ آلاف أقجة، وبهذا يختلفون عن إقطاعيي التيمار والزعامت (الذين كان عليهم أن يقدّموا خيّالاً واحداً عن كلّ ٣ آلاف أقجة).

إلاّ أنّ المؤسّسة العسكرية بدأت بالإضمحلال والفساد في عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) عندما تحوّلت السناجق إلى باشويات يحكم كلاً منها باشا برتبة جنرال بنجمتين أو ثلاث (Pacha à 2 ou 3 tougs).

وكانت هذه الجيوش الخاصة بالباشوات، بالإضافة إلى الخيّالة الذين تقدّمهم التيمارات والزعامتات، تبلغ، جميعها، نحو أكثر من ٤٥٠ ألف مقاتل، حيث يشترك قسم منها في حروب الإمبراطورية، ويظلّ الباقي في الأقاليم

لحراستها. وقد ظلّت هذه التنظيمات قائمة إلاّ أنّ تطبيقها لم يستمرّ، بل ألغي بفعل الفساد والتمزّق، حتى أصبحت التيمارات والزعامتات والجيوش الخاصة بالباشوات، جميعها، تكاد لا تصل إلى الستين ألف مقاتل(٧٤).

٤ - الجيوش الإستثنائية:

هذه الجيوش هي:

أ - عسكر الميري (Les Miri Askéris): وهم جنود نظاميّون تعاقديون بالمعاش، يشكّلون كتائب من المشاة والخيّالة عديد كلّ واحد منها ألف رجل، ويُشرف على تدريبهم وتنشئتهم ضبّاط يدعى أحدهم «البنباشي» (Binbaschi)، أو «ضابط الألف». ويُقبل، في هذه الكتائب، كلّ رجل يتقدّم مسلّحاً ببندقية أو سيف أو رمح أو زوج من المسدّسات، حيث ينخرط في هذا الجيش ويقبض خمسة وعشرين قرشاً ليشترك في معركة واحدة. أمّا راتبه الشهري فيكون: قرشين ونصف القرش لرجل المشاة، وخمسة قروش للخيّال. أمّا الضابط قائد الكتيبة فيقبض ألفي قرش عن كلّ معركة، بالإضافة إلى ما يقتطعه من رواتب الجند وهو العُشر. ويُمَدّ عسكر الميري عند وصولهم إلى ميدان القتال بالمؤن لهم والعلف لخيولهم وبالخيام، وعندما ينتهي القتال، تترك لهم الحرية إمّا بترك الخدمة أو بتجديد التعاقد.

كان انحطاط جيوش المرتزقة في الإقطاعات العسكرية وانحلالها هو السبب الأساسي والمباشر لنشوء هذا الجيش الذي ازدهر في عهد السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ - ١٧٧٤) وشكّل قسماً كبيراً من قوّته العسكرية، إذ كان هذا السلطان يخشى زيادة عديد جيشي الإنكشارية والخيّالة (السباهي)، فاعتمد هذه الطريقة ليستبدل بها هذين الجيشين اللذين أصبحا خطراً على السلطنة، وقد بلغ عديد عسكر الميري في أوّل معركة في الحرب الروسية

العثمانية سنة ١٧٦٩ نحو ٩٧ كتيبة أي نحو ٩٧ ألف جندي، ولكن جنود هذا الجيش كانوا بلا انضباط، وضبّاطهم كانوا بلا تجربة[٧٥].

ب - **النفريرلي أو الجنود المحليّون (Les Yerli Néfarats)**: وهم جنود يؤخذون من حوالي موقع معيّن محدّد، بحيث يعزّزون هذا الموقع عند الحاجة، ويشكّلون قوى نظامية تنتظم في «بلكات» (Beuluks) تقاتل عند وقوع الخطر المداهم، ثمّ تحلّ عند زوال الخطر.

ج - **الدال كيليدجي أو السيوف المشرعة (Les Dal Kilidjs) (Sabres nus)**: وهي سرايا يراوح عديد كلّ منها بين ٢٠٠ و٥٠٠ مقاتل يختارون من مختلف الجيوش، ويتقاضى كلّ منهم راتباً يومياً يراوح بين ١٠ و٢٠ أقجة، ويستخدمون في العمليات العسكرية الأكثر خطورة مثل حرب الخنادق وزرع الألغام والانقضاض، ويتقاضى الجندي المتميّز منهم في هذه العمليات علاوة على الراتب قدرها ٣ أقجة، وعندما تنتهي الحرب يعود هؤلاء الجند إلى جيوشهم الأصلية، إلاّ أنهم يظلّون محتفظين طوال حياتهم بالإمتيازات التي اكتسبوها أثناء خدمتهم في هذا السرايا.

د - **السردان غيتشدي (Les Serden - Guetchdis) أو «الفدائيّون»**: وهم يشكّلون سرايا تؤلّف على شاكلة السرايا السابقة (السيوف المشرعة) إلاّ أنّ جنودها أكثر جسارة واقتحاماً، لذا، فهم يكونون طليعة تلك السرايا في عمليات الهجوم الخطيرة، وهم عادة من الإنكشاريين الذين ينتظمون في وحدات (بيارق Beïrak) تتألّف كلّ منها منماية وعشرين مقاتلاً، ويقبض كلّ من هؤلاء المقاتلين، عند تعاقده، مبلغاً يراوح بين ١٠ و٢٠ قرشاً بالإضافة إلى راتب يومي يراوح بين ٥ و١٥ أقجة. وعلاوة على ذلك، يقبض أحدهم مكافأة على شجاعته، وينالون، في المناسبات المهمة، منحاً بالغة، ويسمّى قائدهم «آغا السردان غيتشدي أو آغا الفدائيين (Serden - Guetchdis Agha).

هـ - المتطوّعون (Les Gueumulius):

وهم رجال يحملون السلاح إمّا بسبب مما يعانون من شقاء وبؤس، أو لأنهم قدريون أو محبّون للسلب والغنائم. ففي وقت الحرب، يعمد رجال الدين (الدراويش) إلى تحريك المشاعر الدينية في المواطنين في مختلف الأقاليم، (دفاعاً عن الدين والدولة وجهاداً في سبيل الله) فيتألّف من هؤلاء المتطوّعين، في معظم الأقاليم، مجموعات مسلّحة يقودها أكثر أفرادها بسالة وجرأة، وتنضوي كلّ منها تحت راية جيش من الجيوش النظامية (عادة تحت راية الجيش الإنكشاري) لتسير مع هذا الجيش إلى ميدان القتال، وتكبر هذه المجموعات ويزيد عددها كلّما أوغلت في مسيرها نحو ساحة المعركة. أمّا الطعام فكانت تتدبّره من أهالي الضياع والقرى التي تمرّ بها «وويل لمن يرفض مطالب هذه المجموعات المجاهدة في سبيل الله». إلاّ أنه ما أن تنضمّ هذه المجموعات إلى الجيوش النظامية حتى توزّع عليها المواد الغذائية والتجهيزات اللازمة طوال مدّة خدمتها، ولا تُلزم بالبقاء في الخدمة بعد انتهاء المعركة[٧٦].

ثانياً – البحرية العثمانية:

لم تصبح القوّات البحرية العثمانية ذات أهمية إلاّ بعد الاحتلال العثماني للقسطنطينية عاصمة بيزنطية عام ١٤٥٣[٧٧]، وكان قائدها المدعو «بلطة بن سليمان بك» (Balta Oglou Suleyman Bey) وهو برتبة «قبودان» (Capoudan) قد اشترك في احتلال العاصمة البيزنطية بأسطوله الصغير، فنال، مكافأة له، رتبة «قبودان باشا» (Capoudan Baschi) بتوغين اثنين (جنرال بنجمتين) ثمّ رقّي بعد ذلك ببضع سنوات إلى رتبة وزير.

وبلغت هذه البحرية، في عهد السلطان بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢) قوّة لا يُستهان بها، إذ إنه، لمّا أراد هذا السلطان غزو سواحل المورة، أمر بإنشاء سفن كبيرة، فأنشئت اثنتان طول كلّ منهما ٧٠ ذراعاً وعرضها ٣٠ ذراعاً، وأقيم في كلّ منهما مدافع كبيرة، كما أنشئت ثلاثماية سفينة صغيرة وكبيرة من مختلف الأحجام(٧٨).

ولمّا اعتزل بايزيد الثاني عرش السلطنة تسلّمه السلطان سليم الأوّل (١٥١٢ - ١٥٢٠) الذي انصرف عن الإهتمام بالقوّة البحرية واشتغل بالحرب في إيران ونواحي بلاد العرب (رغم أنه اهتمّ بدار الصناعة البحرية فعمّر المخازن وأنشأ أحواض المياه)، فضعف الأسطول البحري العثماني عمّا كان عليه في عهد سلفه، ولكن خلفه السلطان سليمان الأوّل (١٥٢٠ - ١٥٦٦) عاد فاهتمّ من جديد بالأسطول البحري وجدّد القوّة البحرية في الإمبراطورية، كما تابع الإهتمام بدار الصناعة البحرية كسلفه، فاستطاع بذلك أن يسيطر على البحر الأبيض المتوسّط سيطرة تامة، وأن يجوب بأساطيله مياه بحر الهند رغم ما كان للبرتغال في هذا البحر من قوّة هائلة(٧٩).

وهكذا، فمنذ عهد سليمان الأوّل، أخذت البحرية العثمانية ترفع راياتها في الخليج العربي وفي البحرين الأبيض والأحمر، إلاّ أنّ هذه البحرية، بعد سليمان الأوّل، وفي عهد السلطان سليم الثاني (١٥٦٦ - ١٥٧٤)، تلقّت هزيمة ساحقة في خليج ليبانت (Lepante) في ٧ تشرين الأوّل عام ١٥٧١، على يد الأساطيل المسيحية المتحالفة(٨٠)، ومنذ ذلك الحين، أخذت تعمل للنهوض من كبوتها، وقد أحسّت بمرارة الهزيمة، فتمكّنت من ذلك في أواخر القرن السابع عشر، وبهمّة إثنين من كبار قادتها هما: الأميرال غازي حسن والأميرال كوجك حسن.

ويصف الرحّالة الفرنسي ديهي دي كورمينان (Des Hayes de Courmenin) عام ١٦٢١ ومثله فيرمانل (Fermanel) (عام ١٦٣٠) حالة الأسطول البحري العثماني بالتفصيل في النصف الأوّل من القرن السابع عشر، فيقول إنّ هذا الأسطول كان مؤلّفاً من نوعين من السفن الشراعيّة (Galère):

١ - **النوع الأوّل**: سفن الحكومة المركزية في القسطنطينية، وعددها يراوح بين ٤٠ و٤٧ سفينة.

٢ - **النوع الثاني**: سفن الأقاليم في الأرخبيل.

أمّا سفن النوع الأوّل، أي سفن الحكومة المركزية، فلم تكن تسلّح وتخرج من موانئها إلاّ في فصل الصيف، أمّا في فصل الشتاء، فكانت تعرّى من سلاحها وتودع في ميناء القسطنطينية، وكان السلطان، إذا أراد أن يُخرج سفينة منها، فإنه يعطي قبطانها أو ريّسها (Rays) مدفعاً وأشرعةً والحبال اللازمة، ويزوّده بمئتي نوتي تركي وسبعة عشر بحّاراً مدرّباً، مع أربعة آلاف فلس (Ecus) ليدفع لهم أجورهم بمعدّل عشرين فلساً لكلّ واحد منهم، كما كان يزوّد السفينة بخمسة عشر قنطاراً من البسكوت، أمّا اللحوم وسواها من المواد الغذائية، فكان على ربان السفينة أن يشتريها بنفسه. ولم يكن السلطان يسلّح من هذه السفن سنوياً أكثر من ٣٠ أو ٣٥ سفينة، بينما يظلّ الباقي منها في المرفأ حيث يحتفظ به لحالات الطوارىء، ولكن المرجّح هو أنه لم يكن ليستطيع تسليحها وإخراجها جميعها بسبب النقص في البحّارة.

وأمّا سفن النوع الثاني، أي سفن الأقاليم، فتظلّ مسلّحة دوماً، في الصيف كما في الشتاء، ومهمّتها حراسة جزر الأرخبيل الواقعة خارج الدردنيل، وفي هذه الحالة، يكون حاكم الإقليم هو أمير البحر بالنسبة إلى السفن التابعة لإقليمه، وعليه أن يتعهّد هذه السفن مع بحّارتها من مدخول إقليمه ووارداته،

أمّا السلطان فإنه يزوّده بالسفينة ومدفعيتها وأشرعتها وخيامها وحبالها وما يلزمها من البارود، وعلى حاكم الإقليم أن يجهّزها بجند من اللاوند (Lewend) وما يحتاجه هؤلاء من كساء وغذاء وعتاد. وكان عدد السفن التابعة للأقاليم جميعها نحو ٤٠ سفينة موزّعة في رودس (سبع) وقبرص (ست) والمورة (إحدى عشرة) ومصر (ثمان) وفي أماكن مختلفة من جزر الأرخبيل (ثمان)(٨١).

إلاّ أنّ القوّة البحرية للسلطنة أخذت في الإنحطاط والتدهور بعد ذلك، فزالت شوكتها عن سواحل الهند واليمن والحبشة، وقلّ نفوذها في البحر الأبيض المتوسّط، وحصرت همّها في المحافظة على ما لديها من ممالك وأقاليم، مكتفيه بفتح بعض الجزر الصغيرة مثل كريت.

وحاول السلطان أحمد الثالث (١٧٠٧ - ١٧٣٠) أن يعيد للسلاح البحري العثماني عظمته، فصرف همّه إلى إكمال الأمور البحرية وأنشأ غليوناً كبيراً، وتقدّمت في عهده صناعة الغلايين في دار الصناعة البحرية بالآستانة، فصار الأسطول العثماني كلّه من الغلايين، وصارت السفن الشراعية مخصّصة لمعاونة الغلايين فقط بعد أن كانت هي السفن المقاتلة، وبالفعل، تمكّن هذا السلطان من أن يعيد للبحرية العثمانية شيئاً من هيبتها، ولكن ليس كلّ هيبتها التي كانت لها سابقاً(٨٢).

وعاد من خلف السلطان أحمد الثالث من السلاطين ليهمل من جديد القوّة البحرية للسلطنة، وذلك بعد أن أُهملت الحروب البحرية كلّها، فصار الأسطول العثماني يخرج إلى البحر الأبيض المتوسّط ليقوم بدوريات الحراسة فقط، ويعود في الخريف ليستقرّ في دار الصناعة التي أُهملت بدورها، نظراً للتكاليف الباهظة التي يمكن أن تكلّفها صناعة غليون واحد. وفي عهد السلطان

مصطفى الثالث (١٧٥٧ - ١٧٧٤) وبعده السلطان عبد الحميد الأوّل (١٧٧٤ - ١٧٨٩) تخلّت السلطنة عن استعمال السفن الشراعية نهائياً. ولم تحتفظ منها إلاّ بسفينة الأميرال (بَشْتَردا Baschtarda) التي كانت مزيّنة تزييناً رائعاً، والتي أصبحت تستعمل في المناسبات الإحتفالية فقط[٨٣]. وقد بلغ هذا السلاح، في أواخر القرن الثامن عشر، ٢١ سفينة مقاتلة أهمّها:

- ٤ بوارج كلّ منها بـ ٣ جسور (Vaisseau à 3 Ponts).
- ٦ حرّاقات أو قرغاطات (Frégate).
- ٤ أغربة أو مراكب حراسة (Corvette).

مع نحو ٤٠ زورقاً (Chaloupe) مدفعياً وقاذفاً للقنابل[٨٤].

حواشي الفصل الثالث

(١) - Poliak, Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and Lebanon, p, 6.

(٢) - Thoumin, Histoire de la Syrie, p. 240.

- Poliak, op. cit., p. 4.

- محمّد كرد علي، خطط الشام، ج ٥: ٢٢.

- قازان، فؤاد، لبنان في محيطه العربي ص ٢٣٠ وشهاب، موريس، تاريخ لبنان العسكري ص ١٣٣.

(٣) - Thoumin, op. cit., pp. 240 - 241.

- شهاب، المرجع السابق. ص ١٣٤.

- قازان، المرجع السابق. ص ٢٣٠.

(٤) بلغ عددهم في دمشق ١٢ ألفاً منهم ٣ الاف من الأمراء، وفي حلب ٦ آلاف منهم ألفان من الأمراء، وفي طرابلس ٤ آلاف منهم ألف أمير، وفي صفد ألف وفي غزّة ألف. محمّد كرد علي، المصدر السابق. ج ٥: ٢٣).

(٥) - Thoumin, op. cit. p. 240.

- Poliak, op. cit. p. 3.

- شهاب، المرجع السابق. ص ١٣٣.

- كرد علي، المرجع السابق، ص ٢٢ - ٢٣.

- قازان، المرجع السابق، ص ٢٣٠.

ويضيف القلقشندي على هؤلاء أمراء المشرينات (صبح الأعشى ج ١٣: ١٩٠).

(٦) قازان، المرجع السابق، ص ٢٣٠. وكان ديوان الجيش (أو ديوان الإقطاع) هو صاحب الحق بإسناد هذه الإقطاعات إلى الأمراء والجند ومراقبتها، وكان مركزه الرئيسي في القاهرة، وله فرعان، واحد مخصّص لمصر، والثاني مخصّص للجيش الشامي في سوريا، وكان له مدير يدعى (ناظر ديوان الجيش) ومساعد يدعى (صاحب ديوان الجيش)، وانظر أيضاً:

- Poliak, op. cit., pp. 5 et 20.

(٧) - Thoumin, op. cit., p. 240.

- شهاب، المرجع السابق، ص ١٣٣.

- كرد علي، المرجع السابق. ص ٢٣.

(٨) أنظر نماذج من هذا المنشور عند القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٢: ١٦٩ - ١٨٤. لمقدّمي الألوف، وص ١٨٤ - ١٩٠ لأمراء الطبلخانة وص ١٩٠ - ١٩٧ لأمراء العشرات ومن في معناهم كأمراء العشرينات ونحوهم ممّن لم يبلغ شأو الطبلخانات.

(٩) شهاب، المرجع السابق، ص ١٣٤ - ١٣٥.

(١٠) - Lammens, La Syrie, T. 2, pp. 6 - 8.

- Thoumin, op. cit., p. 244.

ويذكر صالح بن يحيى أنه في عهد الأمير يلبغا العمري (المتكلّم عن السلطان لحداثة سنّه) صدر الأمر للأمير بيدمر الخوارزمي (نائب دمشق سنة ٧٦١هـ = ١٣٦٠م.) بالتوجّه إلى بيروت ليعمّر من حرشها مراكب كثيرة، حمّالات وشواني، للدخول بها إلى قبرص، وباشر بيدمر بصنع المراكب على مسطبة بظاهر بيروت صنعت خصيصاً لذلك، بعد أن جلب صنّاعاً من سائر أنحاء المملكة، كما جلب جنداً من دمشق وضعها بين البحر والمراكب كي تمنع صاحب قبرص من غزو الساحل وحرق المراكب المصنوعة. فلمّا توفّي يلبغا (ليلة ١١ ربيع الآخر ٧٦٨هـ) أوقف العمل في هذه المراكب ولم ينزل منها إلى البحر سوى حمّالتين كبيرتين الواحدة بإسم سنقر والثانية بإسم قراجا، وهما أميران من أمراء ذلك الحين، وبقيتا بعد ذلك بساحة بيروت حتى تلفتا وتلفت كذلك بقية الشواني التي لم تنزل إلى البحر، وكان قد صرف عليها مال كثير.

(صالح بن يحيى، تاريخ بيروت ص ٢٩ - ٣٠)

(١١) - Lammens, op. cit., V. 2, pp. 49 - 50.

(١٢) - Ibid, p. 19.

(١٣) - Ibid., p. 43.

(١٤) - Ibid., pp. 17 - 18.

ويقول صالح بن يحيى في ذلك «وفي أيام ناصر الدين الحسين استقرّوا أمراء الغرب تسعين فارس وانقسموا ثلاثة أبدال كلّ شهر بدل ثلاثون فارس تقيم ببيروت، وفي انقضاء الشهر يحضر بدلهم» (صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٣٧).

(١٥) أو الحمام الرسائلي، وقد أفرد القلقشندي في كتابه (صبح الأعشى، ج ١٤: ٣٨٩ - ٣٩٤) باباً خاصاً في (مطارات الحمام الرسائلي وذكر أبراجها المقرّرة بطرق الديار المصرية والبلاد الشامية) في العهد المملوكي، ومسافات طيرانه.

(١٦) (Lammens, op. cit. V. 2 pp. 17 - 18) وصالح بن يحيى، م. ن. ص ٣٥، ويذكر ابن يحيى في مكان آخر (م. ن. ص ٣٢) «... فشالوا النار ليلاً إشارة لوصول الفرنج إلى بيروت، فوصلت النار بالتدريج في تلك الليلة إلى دمشق».

(١٧) Lammens, op. cit., V. 2, p. 18. -

(١٨) Poliak, op. cit., p. 3. -

(١٩) محمّد كرد علي، المرجع السابق. ج ٥: ٢٤.

(٢٠) م. ن. ص. ٢٣ - ٢٤.

(٢١) Lammens, op. cit. V. 2, pp. 43 - 46. -

- Thoummin, op. cit., p. 250.

(٢٢) Lammens, op. cit., V. 2, pp. 49 - 50. -

وأنظر: إبن اسباط، تاريخ، مخطوطة في مكتبة الجامعة الأميركية ببيروت، ص ٢١٧.

(٢٣) Thoumin, op. cit., p. 250. -

(٢٤) الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، ص ١٦ - ١٧ ومحمّد كرد علي، المرجع السابق، ج ٥: ٢٥ - ٢٦.

- D'Ohsson, Tableau gl. de l'Empire Ottoman, T. VII, pp. 310 - 311.

(٢٥) محمّد كرد علي، المرجع السابق، ج ٥: ٢٥.

(٢٦) م. ن. ص. ٢٦.

(٢٧) D'Ohsson, op. cit., T VII, pp. 326 - 328. -

والجدير بالذكر أنّ الرحّالة الفرنسي دي كورمينان Des Hayes de Courmenin، الذي زار بلاد المشرق عام ١٦٢١ أعجب بالنظام السائد لدى الجيش الإنكشاري في ذلك الحين وتمنّى لو كان من الممكن أن يسود هذا النظام لدى المشاة في بلاده.

(Des Hayes de Courmenin, Voyage, p. 198).

(٢٨) D'Ohsson, op . cit. T. VII, pp 308 et 310. -

(٢٩) Ibid., p. 313. -

ويذكر المؤرّخ نفسه أنّه، في أوائل القرن التاسع عشر (١٨٢٤م.) كانت تضمّ هذه الفرق الأربع ٢٢٩ أورطة منها (٧٠) أورطة في إسطنبول والباقي موزّع في الأقاليم .(Ibid, p. 312).

(٣٠) محمّد كرد علي، المرجع السابق، ج ٥: ٢٨.

(٣١) D'Ohsson, op. cit., T. VII, p. 313 -

(٣٢) Ibid., pp. 313 - 315 -

(٣٣) Ibid., p. 327 -

- Des Hayes de Courmenin, Voyage, p. 201.

(٣٤) يذكر Des Hayes de Courmenin الذي قام برحلته إلى البلدان العثمانية عام ١٦٢١ أنه وجد الإنكشاريين وغيرهم من الجنود المرتزقة، في جميع الأقاليم الواقعة تحت الحكم العثماني، فكان في الجزائر مثلاً ١٥ ألف إنكشاري، و١٤ ألف زناتي (Zenat) وفي المغرب ٣٠ ألف مغربي (Mores). كذلك كان هنالك مرتزقة في كلّ من تونس وطرابلس الغرب والقاهرة ودمشق. وكان هولاء المرتزقة محاربين أشدّاء، وكانوا يقبضون رواتبهم من باشوات الأقاليم التابعين لها.

(Des Hayes de Courmenin, Voyage, pp. 204 - 205).

(٣٥) D'Ohsson, op. cit., T. VII pp. 330 - 331, et: Ency. Brit. Russo - Turkish war -

(٣٦) قضي على هذا الجيش نهائياً في عهد السلطان محمود الثاني سنة ١٨٢٦ م.، إذ فتك الأهالي والبحرية برجاله جميعاً فقتل منهم من قتل، وهم كثيرون، وألحق من تبقّى منهم، وهم قلّة، بالجيش التعليمي الجهادي الذي أنشىء حسب النظام الجديد وعلى الطريقة الأوروبية الحديثة، وقد سميت الوقعة التي قضي فيها على الجيش الإنكشاري «بالوقعة الخيرية».

(٣٧) D'Ohsson, op. cit., T. VII, p. 332 -

(٣٨) Ibid. pp. 332 - 339 et Hammer, Histoire de l'Empire Ottoman, V. 2, p. 141 -

وكانت تعطى الأقجة Aspre بشكل أوراق تساوي كلّ منها عدداً من الأقج Aspres يسدّد بواسطتها الضبّاط قادة الوحدات (الأورطة) رواتب جنودهم، وكانت الأقجة الواحدة تساوي مبلغاً يراوح بين ١٢ و٢٠ قرشاً D'Ohsson, op. cit. T. VII, p. 337. ويذكر محمّد كرد علي (خطط الشام، ج ٢: ٢٦) كما يذكر معظم المؤرّخين الفرنسيين، أنّ عسكر الإنكشارية كانوا يقبضون رواتبهم مرّة كلّ ٣ أشهر «بأبّهة وطنطنة».

(٣٩) D'Ohsson op. cit. T. VII, p. 334 - 336 -

(٤٠) Ibid., p. 340 -

(٤١) Ibid., p. 341 - 343 -

وكان السلطان يزود الإنكشارية، في زمن الحرب، بخيل لحمل أمتعتهم (حصان لكلّ عشرة) وجمال لحمل خيامهم (جمل لكلّ عشرين).

(Tournefort, Relation, p. 310)

et: (D. H. De Courmenin, Voyage, p. 200 et Fermanel, Voyage, p. 111).

(٤٢) يذكر ڤيلامون (Villamont) (١٥٨٨) أنّ الجندي الإنكشاري كان يعتمر قبعة من الفلّين الأبيض تسمّى (زاركولا Zarcola) تتدلّى حوافيها على كتفيه. تماماً كقبّعات البورجوازيين الفرنسيين في ذلك الحين.

(Villamont, Voyage, Livre III, p. 400).

(٤٣) - D'Ohsson, op. cit., T. VII, pp. 343 - 344.

(٤٤) محمد كرد علي، المرجع السابق، ج ٥: ٢٦، وأنظر أيضاً:

- D'Ohsson, op. cit., T. VII, p. 345 et Villamont, op. cit. Livre III, p. 399.

(٤٥) محمّد كرد علي، المرجع السابق، ج ٥: ٢٦، وانظر أيضاً:

- D'Ohsson, op. cit., T. VII, pp. 334 - 336 et

- Villamont, op. cit. Livre III, p. 399.

(٤٦) يقال إنّ جنرالاً عثمانياً فقد في إحدى المعارك جميع راياته، وتمزّق جيشه، فبادر إلى قطع ذنب حصانه ورفعه على حربة ليجمع حوله جيشه من جديد ويحرز الإنتصار. فاتخذ ذلك رمزاً للجيش وراية له.

(- D'Arvieux, Memoires, p. 415 - 416.

- Tournefort, op. cit., p. 294. et

- D'Ohsson, op. cit., T. VII, pp. 346 - 347).

(٤٧) **أهمية الطناجر في حياة الأورطة:** من الأمور الطريفة في الأورطة أنّ (طناجرها) متساوية في الكرامة مع شعارها وعلمها، فقد كانت كلّ أورطة مجهّزة بثلاث (طناجر) كبيرة تستعمل لإطعام الجند. وكانت غيرة الأورطة على هذه الطناجر معادلة تماماً لغيرتها على علمها أو شعارها. فإذا انتزع العدو طناجر أورطة ما، في القتال، منها، فإنّ جميع ضباطها يعاقبون بتخفيض الرتبة (الكسر). وإذا أعيد الاعتبار إليهم فلا يمكن أن يعودوا إلى الأورطة نفسها، ولا يحقّ لهذه الأورطة بعد ذلك، إطلاقاً، أن تحمل طناجرها في عرض عام، وتلك إهانة تلحق بالوحدة ولا تزول عنها أبداً.

(D'Ohsson, Ibid., pp. 347 - 348).

(٤٨) - Ibid., pp. 351 - 353.

- Le Brun, Voyage, pp.138 - 139.

(٤٩) - D'Ohsson, op. cit. T. VII, pp. 353 - 355.

وفي كلّ حال، لم يكن زواج الإنكشاري مرغوباً فيه باعتبار أن الجندي المتزوّج يفكّر بعائلته وأولاده أكثر من تفكيره بمهنته، ولكن من أراد ذلك يمكنه الزواج بعد حصوله على ترخيص من رئيسه، ويسمح له بالنوم خارج الثكنة، إلاّ أنّه لا يرقى أبداً لرتبة رئيس غرفة Oda - baschi، ولذلك كان الكثير منهم يحجم عن الزواج (D. H. de Courmenin, Voyage, p. 199).

(٥٠) - D'Ohsson, op. cit. T. VII, pp. 358 - 359.

(٥١) لا يخفى أنّ هذا الجيش هو الذي خلع السلطان بايزيد الثاني (١٥١٢) وقضى على مراد الثالث (١٥٩٥) وهدّد محمّد الثالث (١٥٩٥ - ١٦٠٢) بالخلع، وقتل السلطان عثمان الثاني (١٦٢٢) شرّ قتلة، وخلع خلفه السلطان مصطفى الأوّل (١٦٢٣) بعد شهرين فقط من تنصيبه على عرش السلطنة، وقتل السلطان إبراهيم عام ١٦٤٨. (Tournefort, op. cit. p. 312) وكان آخر من قتله الإنكشاريون من سلاطين آل عثمان السلطان سليم الثالث (١٨٠٧) (محمّد كرد علي، المرجع السابق، ج ٥: ٢٧).

(٥٢) - D. H. de Courmenin, op. cit. p. 203.

- Tournefort, op. cit. p. 314 et:

- D'Ohsson, op. cit. T. VII, pp. 362 - 363.

(٥٣) - D'Ohsson, Ibid., T. VII, p. 363 et:

- Tournefort, op. cit., p. 314.

ويذكر D. H. De Courmenin (١٦١٢) و(Fermanel) (١٦٢٠) كلاهما أنّ عديد هذا الجيش كان في تلك الآونة ٤ آلاف رجل.

- (D. H. De Courmenin, op. cit., p. 203. et

- Fermanel, Voyage d'ytalie et du Levant, p. 110).

وقد استعمل العثمانيون سلاح المدفعية لأوّل مرّة عام ١٤٤٠ في حصارهم لسمندريا Sémandrie أو سانت اندريه Ste. André.

(٥٤) - D'Ohsson, op. cit., T. VII, pp. 363 - 364.

(٥٥) - Tournefort, op. cit.,p p. 316 - 320.

- D'Ohsson, op. cit. T. VII, p. 365 et

- D. H. de Courmenin, op. cit., pp. 195 - 196.

ويذكر الرحّالة الفرنسي «فيرمانيل» (Fermanel) بهذا الصدد ما يلي: «يوجد في تركيا نوعان من المرتزقة، نوع تتعهّده الأقاليم، وآخر يتعهّده السلطان، والنوع الثاني يسمّى (عسكر الباب العالي)

ويبلغ عددهم عادة ٢٤ أو ٢٥ ألف خيّال ويسمّون (السباهيين Espaïs) بالإضافة إلى ٨ آلاف (سباهي تيمار Espaïs de Timar)... يعبأون عندما يريد السلطان تشكيل جيش كبير.

(Fermanel, Voyage, p. 109).

ويذكر أنّ رحلة فيرمانيل إلى هذه البلاد كانت عام ١٦٣٠.

(٥٦) - D'Ohsson, op. cit., T. VII, pp. 365 - 368.

(٥٧) وجدنا تحديدات مختلفة لراتب الخيّال عند العديد من الرحّالة الأوروبيين، ولكن هذه التحديدات تختلف باختلاف الزمن الذي تمّت الرحلة فيه إلى الإمبراطورية العثمانية، أو نشرت فيه المذكّرات، فقد ذكر دي هاي دي كورمينان (Des Hayes de Courmenin) الذي قام برحلته عام ١٦٢٤ أنّ راتب الخيال (دون تمييز بين السباهي والسلاحدار) كان يراوح بين ١٠ و٤٠ أقجة يومياً.

(D. H. de Courmenin, Voyage, p. 197).

وذكر فيرمانيل (Fermanel) عام ١٦٢٠، أنّ هذا الراتب كان يراوح بين ١٢ و٢٠ أقجة يومياً. (Fermanel, Voyage, p. 110) وذكر ليبران (Le brun) عام ١٧٠٠ أنه كان يراوح بين ١٥ و٤٠ أقجة يومياً (Le Brun, Voyage, p. 148) أمّا تورنيفور Tournefort عام ١٧٢٧، فقد ميّز بين نوعين من الخيّالة: نوع تؤمن له التغذية من سراي السلطان ويراوح راتب الخيال منه بين ١٢ و١٠٠ أقجة يومياً، ونوع آخر يبدأ راتب الواحد منه بـ٢٠ أو ٣٠ أقجة يومياً، ويزداد تبعاً لجدارة الخيال وكفاءته.

(Tournefort, Relation, p. 316).

وأخيراً، ذكر دوهسون D'Ohsson الذي نشر كتابه بباريس بين عامي ١٧٨٨ و١٨٢٤، أن راتب الخيّال، دون تمييز، كان يراوح بين ٦و٩٩ أقجة يومياً. (D'Osson, op. cit., T. VII, p. 368). وهكذا، فإننا لا نجد كبير فرق بين هذه الأرقام رغم تباعد الفترات الزمنية.

(٥٨) - D'Ohsson, op. cit., T. VII, p. 368 et:

- Tournefort, op. cit., pp. 316 - 317.

(٥٩) - D'Ohsson, op. cit., T. VII, p. 368.

(٦٠) - Fermanel, op. cit., pp. 109 - 111.

- Tournefort, op. cit., p. 317.

- D. H. De Courmenin, op. cit., p. 107.

- Villamont, Voyage, Livre III, p. 404.

- ومحمّد كرد علي، المرجع السابق، ج ٥: ٢٧.

(٦١) عرفت الإمبراطورية العثمانية وحدات أخرى نظامية في مطلع القرن الثامن عشر مثل:

- القاذفين Les bombardiers ou Bombardjis أنشئت عام ١٧٣٢.

- اللغامين Les Mineurs ou Lagoumndjis.

- سرية الخيام والموسيقى Tschadir - Mehteris.

(D'Ohsson, op. cit., T. VIII, pp. 368 - 369).

(٦٢) Ibid, p. 370 -

(٦٣) D'Arvieux, Mémoires (1660) T. I, pp. 324 - 325 -

(٦٤) F. Lot, L'art militaire en Orient, T. 2, p. 349 -

و«بارتيك» نسبة إلى الإمبراطورة الهارتية التي كانت قائمة في بلاد فارس في القرون الميلادية الأولى.

(٦٥) محمّد كرد علي، المرجع السابق، ج ٥: ٢٧.

(٦٦) Le Brun, Voyage, p. 136 -

(٦٧) كانت إقطاعات الزعامت والتيمار لا تعطى إلاّ لخيالة السباهي. لذا، كان هناك نوعان من هذه الخيّالة: السباهي بالمعاش وهم خيّالة السلطان، والسباهي بالإقطاع وهم خيّالة التيمار أو خيّالة الأقاليم.

(- Toumefort, op. cit., pp. 316 - 320.

- D'Ohsson, op. cit., T. VII, pp. 364 - 365 et pp. 372 - 378 et

- D. H. de Courmenin, op. cit., p. 195 - 196).

(٦٨) D'Ohsson, op. cit., T. VII, pp. 372 - 373 -

وانظر أيضاً: الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، ص ٢٠ – ٣٠. إلاّ أن الحصري يذكر أن على صاحب الإقطاعة، دون تحديد نوعها، أن يقدّم فارساً عن كلّ ٥ الاف أقجة. (م. ن. ص ٢٩) بينما يذكر «دوهسون» أنّ صاحب إقطاعة التيمار أو الزعامت يقدم خيالاً واحداً عن كلّ ٣ آلاف أقجة وصاحب إقطاعة (الخاص) يقدم خيالاً واحداً عن كلّ ٥ الاف أقجة.

(- D'Osson, op. cit., T. VII, pp. 373 et 380).

(٦٩) Le Brun, op. cit., p. 148 -

والحصري، م. ن. ص ٣٠ – ٣١.

و D. H. De Courmenin, op. cit., pp. 195 - 196 -

(٧٠) D'Ohsson, op. cit., T. VII, p. 374. -

(٧١) Ibid, pp. 375 - 376. -

et: - Tournefort, op. cit., pp. 318 - 320.

ويذكر فيرمانيل (Fermanel) أن السلطان كان بوسعه أن يجمع عام ١٦٣٠ من سباهي التيمار، من الجزائر وتونس ودمشق وحلب وأرضروم ومصر، نحو (١٥٠) ألف مقاتل، وإذا جمع هؤلاء إلى جيوش الأقاليم، فإنّ المجموع العام لهذه الجيوش يصل إلى (٨٠٠) ألف مقاتل.

(Fermanel, Voyage, p. 112).

إلاّ أنّ (فيرمانيل) يرى أنّ قيمة هذه الجيوش المرتزقة لم تعد كما كانت في السابق، بعد أن انصرفت عن مهمّتها القتالية إلى جمع المال وانساقت وراء شهواتها، ففسدت قوّتها وحميتها وشجاعتها.

(٧٢) D'Ohsson, op. cit., T. VII, pp. 378 - 379. -

(٧٣) لم تكن السلطنة العثمانية تقبل في صفوف جيوشها مقاتلين غير مسلمين، وذلك لأنّ القتال في شريعة هذه السلطنة هو دفاع عن الدين الإسلامي والدولة الإسلامية، وجهاد في سبيل الله والإسلام، ولا يمكن أن يقوم به إلاّ مسلم، ولكن الباب العالي كان يقبل أحياناً خدمات الأجانب العسكريين من غير المسلمين كمهندسين وضباط تدريب فقط.

(D'Ohsson, Ibid. pp. 385 - 386).

(٧٤) Ibid., pp. 380 - 381. -

(٧٥) Ibid., p. 382. -

(٧٦) Ibid., pp. 383 - 384. -

ويذكر الرحّالة الفرنسي ڤيلامون (Villamont) (عام ١٥٨٨) أنواعاً أخرى من الجند في الإمبراطوريّة العثمانيّة مثل:

- الأكانج Les Aquanges الذين يستقرّون على حدود الإمبراطوريّة للتخريب في ديار العدو وإزعاجه، وهؤلاء يعيشون من الغزو لأنّ الدولة العثمانيّة لا تمنحهم شيئاً مقابل أعمالهم.

- المغامرون (Les Avanturiers) ويسمّيهم الأتراك (الدالي Delly) ويبلغ عديد هؤلاء نحو (٦٠) ألف خيّال، وهم، كالأكانج، يعيشون من الغزو لأنّ الدولة لا تمنحهم رواتب، وإنّما يقومون بمغامراتهم الحربيّة حبّاً بالشهرة والمجد والصيت البطولي، ويلبس هؤلاء عادة لباساً عجيباً يتعمّدون فيه إظهار غرابتهم تجاه العدو، كأن يستترون بجلد الدب أو الأسد ويعتمرون قلانس من جلد النمر والفهد مزيّنة بريش من ذنب النسر، كما يعلّقون على الترس الذي يحملونه ريشاً من جناح النسر أيضاً، وهم عادة خيّالة خفاف مسلّحون بالصحائف (Cimeterres) والنبابيت

(massures) والنبال (dards) والحراب (Demi-piques) ويُلبِسون خيولهم لباساً من جلد الأسد أو غيره من الوحوش المفترسة.

(Villamont, Voyage, L. III, p. 407).

كما يذكر الرحّالة نفسه أنه كان بإمكان الإمبراطوريّة العثمانيّة أن تحشد، في ذلك الحين، نحو أكثر من مليون مقاتل، من تركيا وجميع الأقاليم والبلدان الخاضعة لها، إلاّ أنّ جيشها العادي كان يبلغ نحو (٢٠٠) ألف مقاتل فقط (Ibid., p. 408). ويذكر محمّد كرد علي بدوره أنواعاً أخرى من الجند في هذه الإمبراطوريّة مثل:

- الدالاتية، أي الأدلاء، وأصل الكلمة فارسي بمعنى دليل.
- الهوارة، وهم صنف من العسكر غير المنتظم.
- والتفنكجية، من تفنكجي، صاحب البندقية، وهم جند من الرماة بالبنادق (محمّد كرد علي، المصدر السابق، ج ٥: ٢٨).

(٧٧) أنشئت في الدولة العثمانيّة، بعد احتلال القسطنطينيّة، دارٌ للصناعة البحريّة أو «ترسانة» صنعت فيها عدّة سفن في فترة قصيرة من الزمن (جودت باشا، تاريخ، ص ١٤٣).

(٧٨) جودت باشا، م. ن. ص ١٤٥.

(٧٩) م. ن. ص ١٤٦ - ١٤٧ و١٦٠ - ١٦١.

(٨٠) كانت الأساطيل المتحالفة بقيادة الأميرال دون جون أوف أوستريا (Don John of Austria)، وكان الأسطول العثماني بقيادة علي باشا، القائد العام، وكلّ من: محمّد سلق، حاكم الإسكندريّة، قائداً للجناح الأيمن، وألوغ علي باشا، حاكم الجزائر، قائداً للجناح الأيسر.

(Encyclopedia Britannica, T, XIII, P. 979).

(٨١) - D.H. de Courmenin, op. cit. pp. 209 - 216 et:

- Fermanel, op. cit., pp. 115 - 118.

إلاّ أنّ (فيرمانيل Fermanel) يختلف عن (دي كورمينان de Courmenin) بأنه يوزّع سفن الأقاليم على الشكل التالي: رودس (٧ سفن)، شيو (Chio) (٩)، قبرص (٤)، المورة (٩)، مصر (٥)، وفي أماكن مختلفة من جزر الأرخبيل (٧) فيكون المجموع: ٤١ سفينة Fermanel, Ibid. p. 118. وللتذكير، كانت رحلة (فيرمانيل) عام ١٦٣٠ أمّا رحلة (دي كورمينان) فكانت عام ١٦٢٤.

(٨٢) جودت باشا، المصدر السابق، ص ١٧٣ و ١٧٥.

(٨٣) م. ن. ص ١٧٦ - ١٧٧.

وانظر: - D'Ohsson, op. cit., T. VII, p. 424.

(٨٤) - Ibid., pp 424 - 426.

الفصل الرابع

المقاطعات اللبنانيّة قبل فخر الدين المعني الثاني أمير الشوف

يصعب على الباحث في تاريخ المقاطعات اللبنانيّة قبل فخر الدين المعني الثاني أن يحدّد بوضوح أوضاع هذه المقاطعات في تلك الفترة، وذلك لأنه ليس من الممكن فصل تاريخ هذه المقاطعات عن التاريخ العام للبلاد الشامية التي كانت تشكّل هذه المقاطعات أجزاء من نياباتها أو ولاياتها، وسنحاول في هذا الفصل أن نتبيّن، مما يتوفّر لدينا من وثائق ومراجع، وعن طريق الإستدلال والإستنتاج، الأوضاع العامة في المقاطعات اللبنانيّة قبل فخر الدين المعني الكبير.

مما لا يقبل الجدل أنّ المقاطعات اللبنانيّة كانت خاضعة، في هذه الفترة، ومن حيث التنظيم العسكري، إلى المنهج المملوكي ثم العثماني، فقد ظلّت هذه المقاطعات حتى منتصف القرن التاسع عشر، بحكم الأراضي الملتزمة أو أراضي الضمان (pays abonné)، وهي كناية عن أراضٍ أو مقاطعات التزمها الحاكم من والي الشام[١] أو من السلطنة مباشرة، وكان للمقاطعجيّين في هذه المقاطعات جيوش خاصة، كما كان عليهم أن يقدّموا للوالي، ممثّل الدولة في الإقليم، وفي أثناء الحرب، عدداً محدّداً من الخيّالة يختلف باختلاف المدخول السنوي الذي تنتجه هذه المقاطعة، وقد سبق أن بينّا ذلك في الفصول السابقة[٢]. ولم تُلغ هذه الجيوش إلاّ في زمن الحكم المصري لبلاد الشام في النصف الأوّل من القرن

التاسع عشر، وبالتحديد في العام ١٨٢٢ عندما ألغى إبراهيم باشا المصري الإقطاعات العسكريّة في هذه البلاد وذلك بتجريده السكّان من السلاح واخضاعهم لنظام التجنيد العسكري الإلزامي[٣]. ولكن ذلك لا يعني أنّ الإقطاعات العسكريّة ظلّت حتى القرن التاسع عشر تزوّد السلطنة بالمقاتلين، بل بعكس ذلك، بدأت هذه الإقطاعات بالإضمحلال والإختفاء تدريجياً منذ مطلع القرن السابع عشر، أي بعد ثورة علي باشا جنبلاط والي حلب (١٦٠٥ - ١٦٠٧) ومحاولته الإستيلاء على بلاد الشام وإيقاعه الهزيمة بالجيوش العثمانيّة الإقطاعيّة قبل أن تتمكّن الدولة من سحق ثورته والقضاء عليه. ويحدّد بولياك عدّة أسباب لتراجع الإقطاع العسكري في الدولة العثمانيّة واضمحلاله، منها:

- إزدياد البنادق الحربيّة التي أخذ الفلاّحون يقتنونها ويتدرّبون عليها، مما أدّى إلى إنخفاض قيمة الخيّالة ولا سيّما في المناطق الجبليّة.

- الأثر الذي تركه مشاة علي باشا جنبلاط ومرتزقته في إضعاف روح القتال لدى مشاة الإقطاعيّين وخيالتهم.

- الإضطرابات والثورات المتتالية في الإقطاعات العسكريّة.

- تهرّب الإقطاعيّين من القيام بواجباتهم العسكريّة نحو الدولة لبعد إقطاعاتهم عن حدود الإمبراطوريّة[٤].

إمارة الشوف: وهكذا، ففي خلال القون السادس عشر، كان المعنيّون في إمارة الشوف، والحرفوشيّون في البقاع، والشهابيّون في وادي التيم، والعسّافيّون وآل حمادة في جبل لبنان[٥]، والسيفيّون في عكّار وطرابلس، والشكريّون والمنكريّون والصعبيّون في جبل عامل، وكانت هذه الأسر جميعها أسراً إقطاعيّة تتولّى الحكم في هذه المقاطعات وتنشىء فيها جيوشاً إقطاعيّة خاصة بها لحماية مصالحها بالدرجة الأولى، ثم لتأمين العدد المطلوب تأمينه من الخيّالة أو

الجند يقدّمونه للولاة في أثناء الحرب، وقد عرفت هذه المقاطعات خيّالة التيمار والزعامت (Timar Espaïs)، كما عرفت المرتزقة السكمان وحملة البنادق وسواهم من أنواع الجند المعروف في الدولة العثمانيّة في ذلك الحين.

ففي إمارة الشوف، خلف المعنيّون أخوالهم التنّوخيّين في الحكم في مطلع القرن السادس عشر، وكان أشهرهم فخر الدين المعني الأوّل الذي حكم «من حدود يافا إلى طرابلس، وبنى بنايات وقلاعاً عظيمة، واستراح الناس في حكمه، وإطاعته العرب»(٦)، وقد بدأت شهرة الأمير المعني الأوّل بعد وقعة مرج دابق ١٥١٦ حين انحاز إلى العثمانيّين ضد المماليك، فكافأه السلطان سليم الأوّل العثماني بأن ولاّه إمارة الشوف ولقّبه بسلطان البر.

لم يحدّد أحد من المؤرّخين عديد الجيش الذي كان يقوده الأمير فخر الدين الأوّل في وقعة «مرج دابق» التي دامت «من طلوع الشمس إلى ما بعد الظهر»، والتي أدّت إلى هزيمة المماليك وكانت المفتاح الذهبي الذي فتح به السلطان سليم العثماني بلاد الشام، ولكن يتفق المؤرّخون جميعاً على أنّ هزيمة السلطان المملوكي قانصوه الغوري في هذه المعركة الحاسمة كانت نتيجة عاملين اثنين هما:

١ - الجيش المنظّم الذي خاض العثمانيّون به المعركة، والمجهّز بمدفعيّة لم يعرف الجيش المملوكي مثلها، إذ قيل أنّ الجيش العثماني بلغ في المعركة نحو ٤٠ ألف مقاتل مجهّزين بأحدث المدافع، وقيل أنهم بلغوا ٨٠ ألف مقاتل مجهّزين بثمانماية مدفع، مقابل أربعين ألف مقاتل مملوكي هم خليط من الشراكسة والمصريّين وعسكر الشام، غير مجهّزين بأيّ نوع من أنواع المدافع.

٢ - خيانة نوّاب السلطان المملوكي وقادة الميمنة والميسرة من جيشه، فقد خانه، عند بدء القتال، اثنان من خيرة نوّابه وقادته هما: خير بك نائب حلب، قائد الميمنة، وجانبردي الغزالي نائب دمشق، قائد الميسرة، وكانا قد اتفقا، قبل

المعركة، مع السلطان العثماني، على أن ينحازا إليه في أثناء القتال لقاء أن يولي خير بك على مصر وجانبردي الغزالي على الشام.

وما أن بدأ القتال بين الجيشين حتى انحاز خير بك ومن معه إلى ناحية الجيش العثماني، فانهزمت ميمنة المماليك، ثم انحاز جانبردي الغزالي ومن معه إلى تلك الناحية أيضاً، فانهزمت مسيرتهم، وأمّا ابن معن، وكان في مقدّمة الجيش إلى جانب الغزالي وخير بك، فلما رأى ما جرى من قائدي الميمنة والميسرة قال لمن معه من أمراء الساحل: «دعونا ننفرد فننظر لمن تكون النصرة فنقاتل معه»، ثم انحاز، مع أمراء الساحل، إلى العثمانيّين عندما أيقن أنّ هزيمة المماليك باتت مؤكّدة، وهكذا، لم يبق مع الغوري من جنده سوى مماليكه المصريّين والشراكسة، أمّا ما عداهم من عسكر الشام والشوف والساحل، وقدّر عددهم بثلاثة عشر ألف مقاتل، أي ربع الجيش، فقد انضمّوا إلى خصمه العثماني، فكانت «مرج دابق» النهاية المفجعة لحكم المماليك في بلاد الشام ولسلطانهم البائس قانصوه الغوري(٧).

وخلف الأمير فخر الدين المعني الأوّل على بلاد الشوف إبنه الأمير قرقماز والد الأمير فخر الدين المعني الثاني الشهير، وكان كوالده رجلاً قديراً، إلاّ أنّ أيّام حكمه كانت زاخرة بالإضطرابات والحروب بين الحزبين التقليديّين في إمارته: القيسي واليمني، كما كان النزاع المسلّح مستمرّاً بين الأسرتين الحاكمتين في كلّ من عكار وجبل لبنان، آل سيفا في عكار، وآل عساف في جبل لبنان، وكان المعنيّون حلفاء العسّافيّين بحكم الجوار من جهة، وبحكم خصومتهم لآل سيفا من جهة أخرى. وفي العام ١٥٨٤ نهبت خزانة السلطان في جون عكار، وكانت في طريقها إلى الآستانة، فانتقم حاكم طرابلس جعفر باشا الطوشي من آل سيفا بحرق بلاد عكار كلّها، إلاّ أنّ السيفيّين أقنعوا الباشا بأنّ خصومه هم آل عساف وحلفاؤهم آل معن في الشوف، فكتب هذا إلى الوزير

الأعظم والي مصر، إبراهيم باشا، الذي جيّش جيشاً من عشرين ألف مقاتل جمعه من مصر وحلب والشام وقبرص، ونزل بعسكره في مرج «عرجموس» بالبقاع، وأخذ يتهيأ لمحاربة المعنيّين والعسّافيّين بعد أن انضمّ إليه أخصام آل معن جميعاً، وخصوصاً أمراء الغرب اليمنيّين من آل علم الدين، ولم يكن في مقدور المعنيّين وحلفائهم العسّافيّين الوقوف في وجه جيش كهذا، ففرّوا متفرّقين في البلاد، بينما أمسك عليهم إبراهيم باشا طريق البحر والبقاع، ثم دخل بجيشه بلاد الشوف وأحرق نحو ٤٠ قرية من قرى آن معن وقضى في «عين صوفر» على نحو ستماية رجل من وجهاء الدروز وعقّالهم بعد أن غدر بهم، ورغم ذلك فقد حارب آل معن الجيش العثماني حرباً يائسة فقتلوا من جنده نحو خمسماية كما قتلوا قائداً من قادته يدعى «أويس باشا»، وشارك الأسطول العثماني في الحرب ضد آل معن، فضرب الساحل عند صيدا وأنزل في المدينة أربعة آلاف جندي عاثوا فيها فساداً، وأسروا من أهلها ثلاثة آلاف ولم يتركوا فيها شيئاً ثميناً إلاّ وأخذوه معهم، ولم يرحل الوزير العثماني عن الشوف إلاّ بعد أن أرسل إليه الأمير قرقماز مالاً (مئة ألف دوكا Ducat) وسلاحاً (٤٨٠ بندقيّة) وخيلاً وأشياء ثمينة، أمّا قرقماز فإنه، لما رأى تألب الجميع عليه وتآمرهم ضده، لجأ إلى مغارة في بلاده قرب جزين تدعى مغارة «نيحا أو شقيف تيرون» حيث ظلّ فيها إلى أن مات قهراً وغمّاً (عام ١٨٥٨)[٨].

إنّ التنظيم العسكري الذي كان سائداً في إمارة الشوف في العهد التنّوخي، وخصوصاً في عهد أمراء الغرب من آل بحتر، هو التنظيم العسكري المملوكي نفسه الذي سبق أن تحدّثنا عنه[٩]، وقد ظلّ هذا التنظيم سائداً في مطلع العهد العثماني وفي مختلف المقاطعات المحتلّة من قبل العثمانيّين حتى ثورة الغزالي (١٥٢٠ - ١٥٢١) «حيث حلّت جيوش المماليك المحليّة وأصبح النظام السائد هو النظام العثماني العسكري للمقاطعات»[١٠]، وقد تبنّى

المعنيّون عندئذ، كسائر حكّام المقاطعات اللبنانيّة، معظم التنظيمات العسكريّة العثمانيّة مثل السكمان (من الإنكشاريّة) وخيّالة التيمار (من جيوش الإقطاعات العسكريّة) وحملة البنادق واللاوند، وغيرهم.

إمارة وادي التيم: وفي وادي التيم، عُرف الشهابيّون، منذ أن استقرّوا في هذا الوادي، في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، بأنهم مقاتلون أشدّاء، فقد كانوا قبل ذلك حلفاء للسلطان صلاح الدين الأيوبي، يعاضدونه في حروبه ضد الإفرنج وضد الملك محمود نور الدين زنكي ملك الشام «وكان صلاح الدين يجعلهم أمام عسكره»[١١]. وكانت عشائر الشهابيّين تعدّ نحو خمسة عشر ألفاً بقيادة أميرهم الأمير منقذ بن عمرو الشهابي عندما رحلت في العام ١١٧٢م. إلى وادي التيم لتستقرّ فيه، وكان الصليبيّون قد احتلّوا هذا الوادي وحصّنوا عاصمته حاصبيّا «بآلات الحرب والعساكر العديدة»[١٢]. فلمّا علموا بتوجّه الشهابيّين نحوهم بدأوا يستعدّون للقتال، وكان في وادي التيم من الفرنجة نحو خمسين ألف مقاتل، بين فارس وراجل، بقيادة بطريق لهم يدعى قنطورا[١٣] أو (الكونت اورا)، وطلب قنطورا من صاحب «قلعة الشقيف» - وهو القائد العام للصليبيّين في جبل عامل والساحل من صيدا إلى عكا - أن يمدّه بالجند فأمدّه بخمسة عشر ألف مقاتل، حتى بلغ جيشه خمسة وستين ألفاً، وتوجّه قنطورا بهذا الجيش اللجب لقتال الشهابيّين صباح يوم الخميس (في ٢١ صفر ٥٦٩هـ.) وكان هؤلاء، وعلى رأسهم قائدهم الأمير منقذ الشهابي، قد تمركزوا في الظهر الأحمر من البقاع الغربي، وبدأوا بدورهم يستعدّون للقتال.

والتقى الجيشان في ضحى ذلك اليوم، ودار بينهما قتال عنيف استمرّ حتى غروب الشمس، واستمرّ القتال ثلاثة أيّام على هذه الحال، إذ كان الجيشان خلالها يتقابلان في النهار ويستجمعان قواهما في الليل، إلى أن كان اليوم الثالث حين هزم الصليبيّون وتشتّتت جيوشهم، فركب الشهابيّون أكتافهم

وتتبّعوهم مطاردين وهم يفرّون إلى رؤوس الجبال، ففرّ قسم منهم إلى قلعة الشقيف وفرّ قسم آخر إلى الجولان، وفرّ قنطورا ومن معه إلى حاصبيا ليعتصموا بها، فلحقه الأمير منقذ بجيشه، ودارت بين الفريقين معركة بالنبال إستمرّت من الصباح إلى المساء، وفي الليل بنى الشهابيّون حول البلدة متاريس ليتحصّنوا بها ضد نبال العدو، فرماهم الصليبيّون بالمجانيق والصخور، وانتظر الشهابيّون هبوط الليل من جديد، ثم شنّوا على الصليبيّين المتحصّنين بالبلدة هجوماً عاماً استمرّ طوال الليل. وفي الصباح، طلب الصليبيّون الأمان فأمّنوا على أن يخرجوامن البلدة بلا سلاح، أمّا قنطورا فقد بقي متحصّناً بالقلعة مع خمسماية من رجاله ولم يستسلموا، فحاصرهم الأمير منقذ وظلّ قائماً على حصارهم مدّة عشرة أيام عمل خلالها على نقب أسوار القلعة وهاجمهم في اليوم العاشر، وكانت قد نفدت مؤونتهم وذخيرتهم، فقتلهم جميعاً «ولم ينج منهم أحد»(١٤). ويبالغ المؤرّخون العرب في تقدير خسائر الصليبيّين في هذه المعركة فيقدّرونها بثلاثة آلاف وخمسماية قتيل، أمّا خسائر الشهابيّين فيقدّرونها بتسعماية فارس(١٥). وما أن بلغ صاحب قلعة الشقيف ما حصل بصاحبه قنطورا وجيشه حتى أرسل إلى الأمير منقذ يطلب الصلح، أمّا الملك نور الدين زنكي فقد أعجب ببسالة الشهابيّين وشجاعتهم فأرسل يهنّئهم وخصّهم بكثير من الهدايا وأقطعهم الأرض التي احتلّوها، كما أعجب الأمير يونس المعني صاحب الشوف ببسالة هؤلاء القوم فزارهم في وادي التيم مهنّئاً، ومنذ ذلك الحين توطّدت بين الأسرتين الشهابيّة والمعنيّة، صداقة بلغت حدّ التحالف والمصاهرة.

وفي العام ١٢١٨م. حاول الصليبيّون احتلال وادي التيم من جديد، وكان على رأسهم ابن عم قنطورا الذي سبق ذكره، وعلى رأس الشهابيّين الأمير عامر الشهابي، فتصدّى بجيشه للمهاجمين بعد أن استنجد بحليفه الأمير عبدالله بن

سيف الدين المعني حاكم الشوف الذي هبّ لنجدته فوراً، وفي «مرج الخيام» إلتقى الجيشان، فدارت الدائرة على الشهابيّين وحلفائهم المعنيّين في البدء، إلاّ أنه، بعد قتال استمرّ ثلاثة أيام، تمكّن الأمير عامر من أن ينتصر على خصومه الصليبيّين ويطردهم من كلّ وادي التيم، وقد كافأه السلطان صلاح الدين الأيّوبي، أمير بلاد الشام يومذاك، بأن أقطعه سهل البقاع(١٦).

وفي العام ١٢٨١ م، إشترك الأمير قرقماز إبن الأمير عامر الشهابي، صاحب وادي التيم، على رأس جيش من أربعة آلاف فارس، في القتال ضد التتار (المغول)، إلى جانب الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي، وكانت الوقعة بظاهر حمص، في الناحية الشماليّة منها، يوم الخميس في آخر تشرين الأوّل ١٢٨١م. (رجب ٦٨٠هـ.)، وكان مع السلطان قلاوون نحو خمسين ألف مقاتل، أمّا التتار فكانوا نحو ثمانين ألفاً على رأسهم مونكاتمور إبن هولاكو، وقد دام القتال في هذه الوقعة من الصباح إلى «ما بعد العصر» وهزم التتار فيها وقتل قائدهم مونكاتمور، وعاد الأمير قرقماز «منها مكرماً محظوظاً من الملك»(١٧).

وفي العام ١٤١٤م. إشترك الأمير قاسم إبن الأمير محمّد الشهابي حاكم وادي التيم مع السلطان أبو الفتح داود رابع ملوك الجراكسة وصاحب دمشق، في القتال ضد الفرنجة الذين نزلوا على الساحل عند الدامور، وتحالف معهما الأمير أحمد إبن الأمير عثمان المعني حاكم الشوف، وقد قاتل الأميران الشهابي والمعني، إلى جانب السلطان الداودي، قتالاً شديداً، وأبليا بلاء حسناً، حتى ظفر السلطان بالنصر وطرد الغزاة بعد أن أهلك منهم خلقاً كثيراً، وعاد إلى دمشق، بينما عاد الأمير قاسم إلى حاصبيا «ظافراً مغموراً بنعم السلطان»(١٨).

وفي العام ١٥١٦ إشترك الأمير منصور الشهابي أمير وادي التيم مع الغزالي نائب دمشق وخير بك نائب حلب، ومع الأمير فخر الدين المعني الأوّل أمير الشوف وغيره من أمراء الساحل، في وقعة مرج دابق بين السلطان المملوكي

قانصوه الغوري والسلطان العثماني سليم الأوّل، وانحاز الأمير الشهابي مع حلفائه المعنيّين وأمراء الساحل إلى العثمانيّين، في أثناء القتال، وبعد أن تخلّى عن السلطان المملوكي نائباه الغزالي وخير بك، مما أدّى إلى هزيمة الجيش المملوكي وموت السلطان الغوري كما سبق أن قدّمنا. يقول أحد الأمراء الشهابيّين من وادي التيم في ذلك: «كتب الغوري إلى نائبه الغزالي في الشام أن يجمع رجال البلاد فكتب الغزالي إلى الأمير منصور أن يحضر إليه برجاله، وتماهدا سرّاً أنه متى قامت المصاف يفرّ الأمير منصور معه إلى عسكر السلطان... ولما شعر الغوري بخيانة نائبه أمره بأن يتقدّم لجسّ الخبر قاصداً بذلك قتله... ولكنه فرّ إلى عسكر السلطان سليم ومعه الأمير منصور وبعض مناصب لبنان، فانكسر الغوري وقتل فأنعم السلطان على الأمير منصور وخلع عليه وأقطعه بلاد وادي التيم»[١٩]. ولا يذكر المؤرّخون للشهابيّين، بعد هذا التاريخ، وحتى عهد فخر الدين المعني الثاني، وقائع تذكر[٢٠].

إمارة البقاع: وكان البقاع، بحكم اتصاله الجغرافي المباشر بدمشق، أقرب المقاطعات اللبنانيّة إلى نيابة دمشق في العهد المملوكي (أو ولايتها في العهد العثماني)، وبالتالي أكثر هذه المقاطعات تأثّراً، بل وتطبيقاً لتنظيماتها الإداريّة والعسكريّة، وكان أمراء البقاع من آل حنش (ثم حرفوش فيما بعد) قادة عسكريّين مرموقين، وأوّل من ذكر منهم في التاريخ محمّد بن الحنش الذي تسلّم حكم البقاع من منطاش نائب دمشق المملوكي في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي (١٣٨٩م.) إلاّ أنه ثار على منطاش بعد فترة وجيزة (١٣٩٠م.) فاحتلّ وأنصاره قلعة بعلبك وتمركز فيها، وحاول منطاش احتلال القلعة بجيش أرسله من دمشق فلم يتمكّن من ذلك. إلاّ أنه استطاع في النهاية اقتحامها وإلقاء القبض على ابن الحنش وأنصاره حيث أعدمه بأن «قطعه نصفين تحت جدران القلعة»، وخلف محمّد بن الحنش إبنه علاء الدين الذي تابع الثورة ضد منطاش

ولاقى مصير أبيه بعد فترة وجيزة، وفي العام نفسه (١٣٩٠م.)[٢١]، ويرى بعض المؤرّخين أنّ علاء الدين هذا كان من القادة العسكريّين ذوي المكانة في العهد المملوكي، فقد «نال إمرة الطبلخانة، من الرتب العسكريّة، في أيام المماليك الشراكسة، نحو عام ١٣٩٠م، وكان قائداً لعشران البقاع في وقعة منطاش الشهيرة، فقتله منطاش»[٢٢].

ويذكر صالح بن يحيى هذه الوقعة بالتفصيل في تاريخه[٢٣]، وموجزها أنه في العام ٧٩١هـ. (١٣٨٨م.) خرج تركمان كسروان على الملك الظاهر برقوق فاستعان بعلاء الدين بن الحنش أمير عشران البقاع لإخضاعهم، فجرّد علاء الدين جيشه على كسروان وأخضع التركمان وقتل زعماءهم، وفي الوقت نفسه كان منطاش قد لجأ إلى عرب نعير بأرض عذرا بظاهر دمشق بعد هزيمته في وقعة شقحب[٢٤]، وثار مع نعير البدوي أميرهم على السلطان الظاهر برقوق، فأرسل هذا الأخير لمقاتلتهم سيف الدين يلبغا الناصري[٢٥] نائبه على الشام، وعزّزه بعشران البقاع وعليهم أميرهم علاء الدين بن الحنش، وبأمراء الغرب وعليهم فخر الدين عثمان بن يحيى، ولمّا التقى الجيشان هزم الناصري وحلفاؤه وسقط الكثير من عسكر الغرب والبقاع قتلى وجرحى وقتل علاء الدين ابن الحنش نفسه على يد منطاش، وكان علاء الدين برتبة أمير طبلخانة، إلاّ أنّ السلطان برقوق عاد فانتصر على منطاش في هذه الوقعة وطارده حتى قبض عليه في حلب واعتقله ثم أمر بقتله عام ٧٩٥هـ. (١٣٩٣م.)[٢٦].

وبعد مقتل محمّد بن الحنش وابنه علاء الدين في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، مرّت فترة من الزمن، نحو قرن تقريباً، ظلّ فيها تاريخ البقاع وأمرائه غامضاً وغير واضح، حتى تسلّم حكم هذه المقاطعة، في العام ١٤٨٨، أمير من أمراء هذه الأسرة هو «عساف بن الحنش» الذي تمكّن من توسيع

منطقة حكمه حتى شملت بيروت وصيدا، فأصبح متولّياً على البقاع وصيدا وبيروت بأمر من نائب السلطان في دمشق، وكان شجاعاً حكيماً قوي الشخصيّة، الأمر الذي جعله خصماً لنائب دمشق قانصوه اليحياوي الذي أمر بسجنه ثم إعدامه في آب عام ١٤٩٦، وتولّى حكم البقاع بعده شهاب الدين أحمد بن الحنش الذي لم يبق في الحكم أكثر من سنين حيث توفّي عام ١٤٩٨، وفي العام ١٤٩٩ تولّى حكم البقاع أشهر أمراء هذه الأسرة وأقدرها، وهو: ناصر الدين محمّد بن الحنش، الذي انتزع حكم البقاع من أخيه حسن واستمرّ فيه حتى مطلع الفتح العثماني عام ١٥١٨[٢٧].

قضى الأمير ناصر الدين في الحكم تسعة عشر عاماً (١٤٩٩ - ١٥١٨) بين محالف لنائب دمشق ومخاصم له، وكان طموحه الكبير يدفعه لأن يوسع رقعة حكمه باستمرار، وقد كان سياسيّاً محنكاً بالإضافة إلى كونه قائداً عسكرياً، ففي العام ١٥٠٢ أرسل جنده إلى دمشق لمساعدة نائبها دولت بك في ترويض الدمشقيّين وجمع الضرائب منهم، إلاّ أنّ تحالفه مع دولت بك لم يطل، إذ أنه في نهاية العام نفسه (١٥٠٢) غزا نائب دمشق البقاع فهرب ناصر الدين من وجهه، وما أن غادر جيش دمشق البقاع حتى عاد إليها ابن الحنش، وفي العام ١٥٠٤ عاود دولت بك الكرّة فغزا البقاع من جديد وأحرق مركز الأمير في مشغرة وعاد إلى دمشق، ولكن الأمر انتهى عند هذا الحد بين أمير البقاع ونائب دمشق بسبب وفاة هذا الأخير في آب عام ١٥٠٤.

لقد كان ناصر الدين ذا طموح كبير، وذلك كان مصدر نزاعاته مع جيرانه، فقد حاول في شتاء ١٥٠٣ - ١٥٠٤ أن يضم إليه الجليل الأعلى من جبل عامل إلاّ أنه فشل، فقد جمع نحو خمسة آلاف مقاتل وسار بهم لمحاربة صاحب بلاد بشارة «عبد الساتر بن بشارة» الذي جمع لمواجهته جيشاً صغيراً، والتقى الجيشان في «شيحين» في يوم عاصف ممطر، ودارت الدائرة على ناصر الدين

وجيشه رغم كثرة عدده وقلّة عدد جيش إبن بشارة، وخسر ناصر الدين في هذه الوقعة نحو مايتي قتيل(٢٨).

وقد كان لناصر الدين حلفاء مثل محمّد بن سعيد حاكم شرق الأردن، والأمير فخر الدين عثمان بن معن أمير الشوف.

وبعد موت دولت بك نائب دمشق، تسلّم نيابة دمشق بالوكالة متسلّم يدعى «قلج» الذي تحالف مع ناصر الدين أمير البقاع، حتى أنه لم يكن ليستطيع تنفيذ الأحكام في نيابته بدون مساعدة من جند أمير البقاع، ويقول ابن طولون إنه، في أحد الأيام، شوهد قلج أمام أفواج من مشاة البقاع يطوف معهم أحياء دمشق داعياً إياهم لفرض الأمن فرضاً، وقد استطاعوا ذلك بالفعل(٢٩).

وفي العام ١٥٠٥ تسلّم «سيباي» نيابة دمشق، وظلّ التحالف قائماً بين النيابة وأمير البقاع، حتى أنّ سيباي قدّم العون العسكري لناصر الدين أثناء خلافه مع حاكم بيروت في نهاية العام ١٥٠٥ فدخل البقاع لمساعدته وأرسل جنده إلى بيروت لتخريب أملاك الحاكم البيروتي، إلاّ أنه بعد فترة وجيزة (٧ أشهر فقط) دبّ الخلاف بين الحليفين بسبب الضرائب، وسار سيباي بجيشه إلى البقاع (حزيران ١٥٠٦) لقتال إبن الحنش، إلاّ أنه عاد أدراجه بعد ثورة قام بها البدو بحوران، وسوي الخلاف بين الأمير ونائب السلطان(٣٠).

وفي مطلع العام ١٥١٢ سمّي ناصر الدين بن الحنش أميراً على البقاع وحاكماً لصيدا، وفي آذار ١٥١٢ دخل الأمير دمشق ليتصالح مع نائبها حليفه القديم سيباي، وظلّت العلاقات طيّبة بين الحليفين، فعمّ الهدوء والأمن البقاع وصيدا ودمشق فترة طويلة، حتى دخول العثمانيّين إلى بلاد الشام.

وكان ناصر الدين من الحنكة والدراية إلى حدّ أنه استطاع أن يظل على وئام مع المماليك في أواخر أيامهم(٣١)، ثم انتقل، في مطلع الفتح العثماني، إلى مداراة العثمانيّين والتفاهم معهم، دون أن يؤثّر ذلك في حكمه على الإطلاق،

وسارت الأمور بينه وبين العثمانيّين على خير ما يرام، وتحالف مي الغزالي نائب دمشق في مطلع الفتح العثماني، فوضع جنده بتصرّف الغزالي لفرض الأمن في الشام، وأكرمه الغزالي بأم قدّم له رأس عدوّه اللدود علاء الدين بن العماد المقدسي حاكم القدس، وأصبح ناصر الدين، في هذا العهد، حاكماً لمنطقة تمتدّ من حمص إلى حوران، والناطق الرسمي بإسم القبائل الشامية في نظر العثمانيّين[٣٢]، إلاّ أنّ شهر العسل هذا لم يدم طويلاً بين الأمير البقاعي وحكّام الشام الجدد، إذ أثقل العثمانيّون كواهل الأمراء المحليّين بالضرائب، فثار عليهم ابن سعيد حاكم شرق الأردن حليف ناصر الدين وقريبه عام (١٥١٧) واعتصم في هضاب اربد يقاتلهم، وخشي السلطان سليم أن ينضم ناصر الدين إليه، فأقدم على عزل ناصر الدين عن إمارة البقاع (كانون الثاني ١٥١٨) وتسليمها إلى ابن قرقماز ضاماً إليه بيروت وصيدا، فأصبح هذا الأخير أميراً على صيدا وبيروت والبقاع، وسيّداً على كلّ الأملاك والمقاطعات التي بذل ابن الحنش جهداً كبيراً للسيطرة عليها[٣٣]، وطبيعي أن لا يرضخ ناصر الدين لهذا التغير المفاجيء من قبل العثمانيّين فهبّ لمقاتلة ابن قرقماز، وهبّ السلطان سليم (وكان في دمشق يستعدّ لمواجهة شاه إيران) لمؤازرة الأمير الجديد، وسار من دمشق بعشرة آلاف من الجند مع أربع قطع من المدافع، واتجه نحو الجنوب، على طريق بصرى، ثم انحاز نحو الغرب ليحتلّ وادي التيم، الطريق من البقاع إلى فلسطين، وهي الطريق الوحيدة التي يمكن لابن الحنش أن يسلكها ليلتحق بحليفه وقريبه ابن سعيد في جبال اربد، وحاول ابن الحنش أن يتجنّب الفخ الذي نصب له فسلك طريق الجبال مع قافلة تبلغ نحو ألف بغل محمّل ومع نسائه ورجال قبيلته (وقد بلغوا نحو عشرة آلاف نسمة) مجتازاً الجبال التي تفصل مجرى الليطاني عن وادي التيم، حاسباً أنه يصل في النهاية إلى صفد ثم يجتاز نهر الأردن عند جسر بنات يعقوب ويلتحق بابن سعيد في شرق الأردن، إلاّ أن

السلطان سليم أرسل الغزالي ليقطع عليه الطريق جنوب بحيرة طبريا، فاصطدمت قافلة ابن الحنش بجند الغزالي، وكانت المعركة قصيرة ودامية، إذ هوجم الغزالي من الجهات الأربع وفتك رماة السهام من جماعة ابن الحنش بجند الغزالي الذي وقع في الكمين دون أن يتبصّر، ولم يكن الغزالي مزوّداً ببنادق (arquebuses)، فانسحب جيشه نحو صفد وتابع ابن الحنش طريقه نحو اربد[٢٤].

ولكن معركة ابن الحنش مع الغزالي لم تنته عند هذا الحد، فقد غادر السلطان سليم دمشق وترك الغزالي نائباً عليها وعلى كلّ فلسطين وحمص، وما أن غادر السلطان سليم دمشق حتى ظهر ابن الحنش في البقاع. وكان الخطأ الذي وقع فيه ابن الحنش مميتاً، إذ اتجه شمالاً فبعدت المسافة بينه وبين حليفه وسنده ابن سعيد، واغتنم الغزالي الفرصة فطلب إلى أمراء حماة وطرابلس أن يساعدوه في القضاء على ابن الحنش، وحوصر ناصر الدين من كلّ الجهات، وتخلّى عنه معظم أنصاره، فخاض، قرب بعلبك، معركة يائسة (في أوائل نيسان ١٥١٨) هزم على أثرها وقتل، وقتل معه واحد من زعماء آل حرفوش الذين سيتسلّمون حكم البقاع فيما بعد[٢٥].

وتابع ابن قرقماز حكم البقاع مطمئنّاً بعد موت ناصر الدين بن الحنش، إلاّ أنه لم يعمّر طويلاً، إذ قتله الغزالي في أيلول من العام نفسه (١٥١٨) ونصّب مكانه ابن ناصر الدين، شهاب الدين أحمد[٢٦]. ثم استمرّت إمارة البقاع تقليديّة بعد ذلك دون حوادث مهمة حتى أوائل عهد فخر الدين المعني الثاني عام ١٥٩١، حيث برز أوّل حاكم من آل حرفوش هو الأمير علي بن موسى الحرفوشي، وبهذا الأمير بدأ حكم أسرة آل حرفوش في البقاع.

ويحدّثنا المعلوف[٢٧] عن هذه الأسرة بقوله: «وكانت لهم - أي لآل حرفوش - إمارة الطبلخانة من راية وطوخ (Toug) وطبول وزمور، فإذا مشوا

تدقّ أمامهم الطبلتان، وتتقدّمهم رايتهم الحمراء ذات الخط الأخضر... ومن حصونهم اللبوة وقب الياس وحدث بعلبك وحصن القروح وغيرها... وقد اشتهروا بالبسالة والحروب» ويصفهم المؤرّخ البعلبكي مخايل ألوف بأنهم «كانوا من البأس والسطوة والفروسيّة في مكان عظيم» وأن أحدهم الأمير حرفوش الخزاعي «عقدت له راية بقيادة فرقة في حملة أبي عبيدة بن الجراح» في الفتح العربي لبلاد الشام[٣٨].

مقاطعة جبل عامل: ولم تكن القوى المسلّحة في جبل عامل مختلفة عن غيرها من القوى المماثلة في المقاطعات اللبنانيّة، والتي كانت تشكّل وفقاً لنظام الإقطاع الذي كان سائداً في ذلك الحين، إلاّ أنه لم يتوفّر لدى مؤرّخي هذه الفترة من تاريخ جبل عامل، في المجال العسكري، ولأسباب سبق أن أوردناها، معلومات تجعل الباحثين يحدّدون، بوضوح وبالتفصيل، تنظيم هذه القوى وعديدها ومستواها، وان تجمع لديهم معلومات مكثّفة عن المعارك التي خاضها هذا الجبل في العهدين المعني والشهابي، والتي سوف ندرس أهمّها في فصول لاحقة من هذا الكتاب.

وجلّ ما يمكننا قوله في هذا المجال هو أنّ جبل عامل، وخصوصاً قلاعه الشهيرة مثل قلعة الشقيف وقلعتي هونين وتبنين، كان مسرحاً لكثير من المعارك الضارية بين الجيوش الصليبيّة والجيوش الأيوبيّة والمملوكية، كما كان هذا الجبل نفسه، قبيل الفتح العثماني، مسرحاً للنزاعات المسلّحة بين الأسر الإقطاعيّة الحاكمة فيه، إلاّ أنه، ما ان انزاح الحكم الصليبي، ثم الحكم المملوكي، عن كاهل العامليين، حتى تمتع الجبل بشيء من الإستقلال الذاتي، في ظلّ زعمائه الإقطاعيّين، وفي ظل الإدارة العثمانيّة الجديدة، وظلّ الوضع في جبل عامل على هذه الحال حتى عهد فخر الدين المعني الثاني الذي كان أوّل أمير معني حاول السيطرة على هذا الجبل[٣٩].

ويحدّثنا بعض المؤرّخين العامليين أن الأسر الإقطاعيّة التي كانت تحكم جبل عامل، في القرن السادس عشر الميلادي، كانت تلتزم بما يلتزمه رجال الإقطاع تجاه السلطة المركزيّة من «تأمين الطرق وحفظ الأمن داخل حدود المقاطعة»، وأن يلبّي الإقطاعي «برجاله وفرسان مقاطعته، دعوة والي الإيالة عند وقوع حرب أهلية أو دولية ويشترك في أيّة معركة يوجّه إليها»(٤٠)، ولا غرو فقد كان الشعب العاملي، كما يصفه أحد مؤرّخيه، محمد جابر آل صفا، «شعباً حربياً باسلاً يهزأ بالمنايا، ويرى الموت حياة خالدة تحت شفار السيوف»(٤١).

وقد اتقن العامليون بعض فنون الحرب ومارسوها ممارسة عمليّة، يصف لنا المؤرّخ ال صفا نفسه هذا الشعب بقوله «وانصرف الشعب العاملي كلّه في ذاك العهد لممارسة فنون الحرب واحكام خطتي الدفاع والهجوم، وكانوا لا همّ لهم في فترات السلم إلاّ شحذ السيوف وتسديد المرمى والكر على ظهور الخيل يعلّمونها أولادهم منذ الصغر»، وأمّا نظام الدفاع عن البلاد «فقد كان على درجة من الرقي تدهش الباحثين»(٤٢). ومن فنون القتال التي أتقنها العامليون: الرمي بالبنادق، وضرب الرماح، وسرعة الإلتئام والتعبئة عند إعلان النفير، والكرّ في الهجوم، واليقظة والحذر في الدفاع(٤٣)، وتحصين القلاع والحصون وشحنها بالسلاح والمقاتلين وإجادة القتال فيها.

وكان لكلّ مقاطعة من مقاطعات جبل عامل راية خاصة يلتئم المقاتلون حولها، إلاّ أنّ الإتحاد بين هذه المقاطعات كان تاماً ومتيناً، فإذا هوجمت إحداها «هبّت المقاطعات كلّها هبّة رجل واحد، واتحدت كلمتهم على صدّ المعتدي بقوّة السلاح»(٤٤). وكانت راياتهم من نسيج حريري أخضر وأحمر، وقد طرّز عليها، بالنسيج الأبيض، آيات قرآنيّة وعبارات دينيّة مثل «نصر من الله وفتح قريب» أو «لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله» أو «لا فتى إلاّ علي ولا سيف إلاّ ذو الفقار» وكانت راياتهم تتقدّم جيوشهم في أثناء القتال(٤٥).

وكان إطلاق النار هو الإشارة الرسميّة للتعبئة عندهم «فإذا سمعوا طلقاً نارياً في إحدى قراهم أجابوا بإطلاق الرصاص طلباً للنجدة، وتتبعهم في ذلك القرى المتصلة حتى يمتدّ الصوت على ما قيل من جباع في سفح لبنان إلى البصة على حدود عكا»(٤٦).

أمّا أسلحة المقاتلين فكانت في معظمها البنادق والسيوف والخناجر والرماح، وكانوا يقاتلون مشاة وفرساناً، وكانوا يتحصّنون في القلاع مستخدمين النار المحرقة وبعض أنواع المدافع والبنادق، وأما عدد المقاتلين في جبل عامل في ذلك الحين فلم نعرف له رقماً محدّداً، وإن كنا نعلم أنّ هذا العدد قد بلغ، في عهد التحالف العاملي مع الشيخ ظاهر العمر، أي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، نحو عشرة آلاف مقاتل(٤٧).

وقد عرف العامليون صنع الذخائر كالبارود الذي اشتهرت بصنعه قرية «بيت ليف» العاملية(٤٨).

وكان جبل عامل، منذ القدم، منطقة حصينة ومنيعة أنشئت فيها قلاع وحصون عديدة تعهّدها العامليون باستمرار وإن لم يكونوا قد بنوها بأنفسهم، ولا بدّ من سرد أسماء أهم هذه القلاع لإظهار مدى أهمية هذا الجبل من الوجهة العسكريّة لدى جميع الفاتحين، نذكر: قلعة أبي الحسن، وقلعة هونين(٤٩) وقلعة الشقيف الشهيرة، أو شقيف أرنون، وقلعة شمع (بناها آل الصغير سنة ١١٦٣هـ.) وقلعة دوبية وقلعة تبنين(٥٠).

سنجق طرابلس: وعرفت طرابلس، في ظلّ دولة بني عمار في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وخصوصاً في ظلّ فخر الملك بن عمار (٤٩٢ - ٥٠٢هـ. = ١٠٩٨ - ١١٠٨م.)، قوّة عسكريّة لا يستهان بها، فهي نفسها القوّة التي وقفت في وجه الصليبيّين وحالت بينهم وبين دخول طرابلس مدّة «سبع سنوات كاملة»، وهي نفسها التي أتاحت لفخر الملك أن يستولي على

جبلة ويضمّها إلى إمارته فأصبحت تضمّ «جبلة وانطرطوس وعرقة وطرابلس وجبيل». ويحدّثنا ابن الأثير ان فخر الملك كان يدفع للجند والضعفى جرايات من أموال الأغنياء(٥١). ولم تسقط طرابلس في أيدي الصليبيهين إلاّ بعد حصار طويل وغارات متعدّدة إستمرّت منذ عام ٤٩٥هـ. (١١٠١م.) حتى عام ٥٠٢هـ. (١١٠٨م.) إذ ان المدينة كانت «حصينة للغاية» وكان فخر الملك «قد اتخذ أهبته لحصار طويل»(٥٢)، ولم تسقط إلاّ بعد إنقلاب داخلي في المدينة أطاح أسرة بني عمّار(٥٣)، وبعد أن تضامن أمراء الفرنجة جميعاً على فتحها، فحاصرها الأسطول البروفنسي الجنوي من البحر، وتنكريد صاحب أنطاكية، وبلدوين صاحب مملكة بيت المقدس، وبرتراند بن ريموند السنجيلي «بحضور الصليبيّين مجتمعة» من البر(٥٤). ويقول الدكتور عبد العزيز سالم إنه، عندما اقترب الصليبيّون من أسوار المدينة وأسندوا أبراجهم عليها، «إستمات أهل طرابلس في الدفاع عن مدينتهم، وابتكر بعض أهل الصناعات من رجالها طريقة تهدف إلى إحراق الأبراج الصليبيّة، وتعطيل الكباش المخصّصة لنطح الأسوار لنقبها» ويصف، نقلاً عن ابن القلانسي، واحدة من هذه الطرق العربيّة المبتكرة لإحراق أبراج الفرنجة بالزيت المغلي والنار المحرقة وسواها(٥٥).

وما أن احتلّ الصليبيّون طرابلس حتى جعلوا منها عاصمة لكونتيّة صليبيّة حكمتها الأسرة التولوزية حتى سنة ١١٨٧م. ثم الأسرة البوهمنديّة بأنطاكية حتى سنة ١٢٨٧م. ثم أصبحت بعد ذلك مديريّة مستقلّة (commune) ثم حامية جنوية، إلى أن تحرّرت على أيدي المماليك عام ١٢٨٩م.

ويحدّد «لامنس» حدود هذه الكونتية فيقول إنها كانت تمتدّ «من قلعة المرقب شمالاً حتى جبيل وجسر المعاملتين جنوباً»(٥٦)، وكانت تشرف على «شيزر والطريق الموصل بين حمص وحماة بواسطة قلاع الحصن الشرقي وبعرين ورفنيه»(٥٧)، كما كانت تشرف على الإسماعيليّين بواسطة قلاع مرقية

والعليقة والمرقب، مما دعا هؤلاء إلى بناء قلاع لهم تعرف «بقلاع الدعوة» مثل قلعة مصياف والقدموس والرصافة والكهف والخوابي[٥٨].

وقد عرفت طرابلس، في عهد الكونتيّة، نظاماً حربياً خاصاً أشبه بالنظام الإقطاعي الغربي، بل مستمداً منه. فكان «الكونت» هو القائد الأعلى للجيش، يليه في القيادة مقدّم عسكري يدعى «كونتابل connetable» يتولّى عنه قيادة الجيش في أثناء غيابه أو مرضه، ويساعد المقدّم العسكري في وظيفته هذه مساعد برتبة «مرشال»، وكان جيش الكونتية مؤلّفاً من ثلاثة آلاف مقاتل بين فرسان ومشاة، وكان عدد الفرسان فيه قلّة تكاد لا تتعدّى الثلاثماية خيّال، إلاّ أنهم كانوا نخبة الجيش وقوّته الضاربة. ويرى ابن القلانسي[٥٩] أنه يجب إضافة مقاتلي المردة من خيّالة ومشاة، على عديد الجيش الصليبي المذكور آنفاً، لأنهم كانوا أعظم أعوان الفرنجة، وكان الكونت يجمعهم من أعماله، وكان معظمهم من مهرة الرماة بالقوس والنشاب[٦٠].

بالإضافة إلى الجيش المقاتل، كان هنالك، في كلّ قلعة أو حصن من قلاع الكونتية وحصونها المنتشرة في أرجائها، حاميات يختلف عديدها باختلاف أهمية الحصن أو القلعة، ويرأسها قائد يدعى «ناظر أو مستحفظ»[٦١]، وأهمّ هذه الحاميات: حامية قلعة «سان جيل» المشرفة على طرابلس.

أمّا القوّة البحريّة فكانت مهملة في أول الأمر في كونتية طرابلس، إذ كانت هذه الكونتيّة تعتمد، من الوجهة البحريّة، إمّا على أساطيل جنوى والبندقيّة (وكان أسطول جنوى قد أسهم إسهاماً فعّالاً في احتلال الصليبيّين لطرابلس) وإمّا على السفن البيزنطيّة التي كانت تبحر ما بين طرابلس وقبرص، ولم تشعر كونتية طرابلس بحاجتها إلى بناء أسطول بحري يساعدها على الدفاع عن سواحلها إلاّ بعد تكرار غارات الأسطول المملوكي المصري على هذه السواحل، وخصوصاً غارة هذا الأسطول على طرابلس عام ٥٧٦هـ. (١١٨٠م.) ممّا حدا

ببوهمند الرابع صاحب طرابلس بعد ذلك، إلى إنشاء أسطول حربي بحري[٦٢].

واستردّ المسلمون طرابلس من أيدي الصليبيّين في عهد السلطان المملوكي قلاوون، بعد أن زحف إليها بجيش بلغ عديده ٣٢ ألفاً من المشاة وعشرة آلاف من الخيّالة، وحاصرها حصاراً مريراً استمر ٣٤ يوماً، ضربها خلاله بالمجانيق حتى نقبت أسوارها وتثلمت، ولمّا يئس المدافعون عن طرابلس من إمكان الصمود رحلوا عنها إلى قبرص، ودخلها جيش قلاوون في الرابع من ربيع الآخر سنة ٦٨٨هـ.[٦٣] (٢٦ نيسان ١٢٨٩) بعد أن خسر عدداً كبيراً من جنده، وقتل من أهل طرابلس بعد سقوطها في أيدي المماليك نحو سبعة آلاف[٦٤] وأسر أكثر من ألف، وبسقوط طرابلس في أيدي المماليك، إنتهت الإمارة الصليبيّة التي دامت في طرابلس نحو قرنين من الزمن تقريباً (١١٠٨ - ١٢٨٩م.) وعادت طرابلس وما جاورها من إقطاعات وقلاع وحصون إلى الدولة المملوكيّة. وقد حلّ بطرابلس، بعد تحريرها مباشرة، نحو ستماية من الفرسان المماليك كانوا أوّل جيش مملوكي يحلّ بها بعد استردادها من الصليبيّين.

وفي عهد السلطان قلاوون نفسه، أصبحت طرابلس نيابة سلطانيّة تضمّ ستة أعمال كبرى (عمل حصن الأكراد، وعمل حصن عكار، وعمل بلاطنس، وعمل صهيون، وعمل اللاذقية، وعمل المرقب) وستة أعمال صغرى (عمل انطرطوس، وعمل جبة المنيطرة، وعمل الطنين، وعمل بشرية أو بشري، وعمل جبلة، وعمل انفة)، وست نيابات مستحدثة تسمّى قلاع الدعوة (الرصافة، والخوابي، والقدموس، والكهف، والمنيفة، والعليقة)[٦٥].

إلاّ أنّ الحرب لم تنته بين طرابلس والصليبيّين بعد رحيل هؤلاء عنها، إذ اتخذ الصليبيّون من جزيرة قبرص قاعدة لشن غاراتهم المتكرّرة على الساحل الشامي، ومنه طرابلس التي كانت أكثر مدن هذا الساحل تعرّضاً

لغاراتهم، وكان موقع قبرص الجغرافي قبالة الساحل الشامي وقربها منه يؤهّلها للقيام بهذا الدور. فاهتمّ المماليك بإنشاء الأساطيل البحريّة للذود عن هذا الساحل وتجنيد البحّارة وصنع الشواني (أي المراكب)، وكتب «يلبغا»[٦٦] إلى طرابلس وغيرها من بلاد الساحل لكي ينشئوا مراكب حربية ويجمعوا الرجال لاستخدامهم في هذه المراكب، إلاّ أنّ موت يلبغا عام ١٣٦٦م. (كانون الأوّل) أدى إلى توقّف العمل في صناعة هذه السفن. وأهمّ غارة شنّها الفرنجة من قبرص على طرابلس تلك التي جرت أوّل عام ٧٦٩هـ. = ١٣٦٧م. وقد اشترك فيها نحو ١٦ ألف مقاتل من أهل البندقيّة وجنوى وقبرص وكريت ورودوس وفرنسا وهنغاريا، في نحو ١٣٠ سفينة ما بين شواني وأغربة وطرائد وشخاتير وقراقر (مفردها قرقورة، وهي سفينة كبيرة معدّة لنقل المؤن والأقوات ولوازم الأسطول)، ونزل هذا الجيش على ساحل طرابلس وكان فيه ألف خيّال والباقي مشاة، وكان نائب المدينة غائباً عنها مع قسم كبير من جندها، إلاّ أنّ أهل المدينة لم يفاجأوا بنزول الفرنجة في ساحلهم فتلقّوهم بالسهام والنبال، ودار بين الفريقين قتال عنيف تقهقر الطرابلسيّون في أوّله نحو داخل المدينة، واندفع الفرنجة إليها ليعملوا فيها نهباً وتخريباً، ولكن ما أن توغّلوا في داخل أسواقها حتى تداعى الطرابلسيّون للقتال من جديد وأطبقوا على الفرنجة وأعملوا فيهم القتل حتى سقط منهم، حسب رواية أبي المحاسن[٦٧]، نحو ألف قتيل، ومن المسلمين نحو أربعين قتيلاً، وانسحب الفرنجة على أثرها منهزمين إلى سفنهم، وقد تمّ بعدها الصلح بين السلطان المملوكي وملك قبرص عام ٧٧٢هـ. (١٢٧٠م.)[٦٨].

ولم تسلم طرابلس كذلك من غارات القراصنة الجنوبيّين الذين كانوا يغيرون على السواحل الشامية مع بعض القراصنة من قبرص ورودس، وقد اضطرّت هذه الغارات المتتالية الأشرف برسباي إلى غزو قبرص واحتلالها سنة

٨٣٠هـ. = ١٤٢٦م. «باعتبارها وكراً من أوكار القراصنة»[٦٩]، وقد اشترك في هذا الغزو أمراء وجند وأغربة من طرابلس[٧٠].

إلاّ أنّ طرابلس لم تقاوم العثمانيّين الذين دخلوها عام ١٥١٧ بلا قتال، وذلك بسبب ما عانته من جور السلطان المملوكي قانصوه الغوري وظلمه، مما جعلها تأمل في حكم عادل ومطمئن في العهد الجديد، وقد دخلها السلطان سليم بعد احتلاله بعلبك وولّى عليها أوّل متسلّم من قبله هو إبن إدريس البدليسي (١٥١٧ - ١٥٢٩)، وكانت طرابلس في ذلك الحين مقاطعة مهمة تشمل مدينة طرابلس نفسها وجبيل والبترون وجبة بشري والكورة والزاوية والضنية، وما لبث طرابلس أن انتقلت إلى حكم آل سيفا عام ١٥٧٩ حيث أعلنت باشوية وتسلّم الحكم فيها يوسف باشا سيفا الذي جعل منها مقاطعة ذات شأن عسكري كبير، إذ تمكّن من توسيع رقعة نفوذه حتى شملت، بالإضافة إلى طرابلس، عكار وجبلة والمرقب والحصن وجبة بشري وجبيل، وكان واسع الطموح، كفخر الدين المعني الثاني أمير الشوف، نده ومعاصره ومنافسه وخصمه، فكان لا بدّ من أن يقع بين الزعيمين صدام دام إستمرّ سنوات طويلة، بل طوال سنوات حكمهما معاً.

ولم يكن الدفاع عن طرابلس ينحصر بأسوارها فقط، بل كانت تقوم في الجهة الشرقية منها قلعة برية حصينة «ومزوّدة بشرفات ومقاتلات حجريّة، وبأعلاها عرادات لتيسير مهمّة الدفاع عنها من البر»[٧١]، كما كان يحيط بالسور من جهة الشرق - باعتبار أن البحر كان يحيط بالمدينة من جهاتها الثلاث الأخرى - خندق ذو باب حديدي محكّم[٧٢]، وقد أقام الصليبيّون، قبل احتلالهم لطرابلس، قلعة برية على الهضبة الواقعة شرق المدينة، وهي قلعة «سان جيل» الشهيرة، وقد بنوها بهدف السيطرة على المدينة وإحكام الحصار حولها، وقد استعمل المماليك، بعد استردادهم للمدينة، هذه القلعة للدفاع

عنها، كما استعملها سائر الذين حكموا طرابلس بعد المماليك. ومن الذين كانوا يتولّون الدفاع عن طرابلس، بالإضافة إلى حاميتها من الجيش المملوكي، فرق محلية من العربان والخيّالة والتركمان والأكراد، وكذلك فقد أسهم أمراء الغرب البحتريون في الدفاع عن طرابلس وردّ غارات القبارصة عنها من خلال دفاعهم عن الساحل الشامي من طرابلس إلى بيروت.

أمّا الدفاع البحري، فقد أمّنته طرابلس في العهد الفاطمي بواسطة أسطول بحري تمكّن، بقيادة علي بن حيدرة في العام ٣٨٧هـ. (٩٩٧م.)، من التغلّب على الأسطول البيزنطي الذي كان متوجّهاً إلى صور لمساعدة الأمير علاّقة الثائر على الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي، كما كان لهذا الأسطول الفضل في القضاء على ثورة علاّقة[٧٣]. وعزّز أمراء بني عمار، في أثناء حكمهم لطرابلس، أسطولهم البحري الذي لعب دوراً مهماً في مقاومة الحصار الصليبي للمدينة عام ٤٩٩هـ. (١١٠٥م.)، قال ابن الأثير «ثم إنّ ملك الروم أمر أصحابه باللاذقيّة ليحملوا الميرة إلى هؤلاء الفرنج الذين على طرابلس، فحملوها في البحر، فأخرج إليها فخر الملك ابن عمار أسطولاً، فجرى بينهم وبين الروم قتال شديد فظفر المسلمون بقطعة من الروم، فأخذوها، وأسروا من كانوا بها وعادوا»[٧٤]. إلاّ أنّ طرابلس خسرت معظم أسطولها في أثناء هذا الحصار وخصوصاً بعد تدخّل الأسطول الجنوي في القتال، حيث غرقت معظم قطع الأسطول الطرابلسي وظلّ الباقي عاجزاً عن مقاومة الحصار الصليبي.

ولم تجدّد طرابلس أسطولها البحري في عهد المماليك باعتبار أنّ هؤلاء كانوا يهتمّون بالجيش أكثر من اهتمامهم بالأساطيل البحريّة، ورغم ذلك فقد اشتركت بعض الأغربة الطرابلسيّة، في هذا العهد، في احتلال جزيرتي قبرص وأرواد[٧٥].

إلاّ أنّ المماليك لم يهملوا حماية ميناء المدينة وساحلها وتحصينهما ضد غزوات القراصنة الفرنج، فأنشأوا لذلك سلسلة من الأبراج الدفاعيّة المتينة والقويّة، فكانت هذه الأبراج تمتدّ على طول الشاطىء من مصبّ نهر أبي علي شمالاً حتى قرية البحصاص جنوباً، كما أبقوا على بعض القلاع الصليبيّة بعد أن رمّموها وحصّنوها[٧٦]. ومن أهمّ التحصينات البرية والبحرية التي عرفتها طرابلس في العهدين الصليبي والمملوكي نذكر:

- قلعة سان جيل (صليبيّة).
- أبراج الميناء (مملوكيّة)، وهي سبعة: برج الشيخ عفان، وبرج السباع، وبرج رأس النهر وبرج المغاربة أو برج عز الدين، وبرج السراي أو برج الديوان، وبرج المشتى، وبرج أبي العدس، ولم يبق من هذه الأبراج السبعة سوى آثار أربعة هي: برج السباع، وبرج الشيخ عفان، وبرج السراي وبرج رأس النهر.
- برج البحصاص القائم على مدخل طرابلس الجنوبي عند قرية البحصاص (مملوكي)[٧٧].

ومن المفيد أن نذكر، في آخر بحثنا عن طرابلس، ما أورده النويري الإسكندري في مخطوطته (الإلمام بالإعلام) نسخة محمود حمدي رقم ٤١٩٣ بدار الكتب المصريّة (صفحة ٦٧ - ٦٨) عن وقعة طرابلس التي جرت بين القبارصة وأهل طرابلس سنة ٧٦٩هـ. (١٣٦٧م.) والتي مرّ ذكرها معنا، قال النويري الإسكندري: «لما أتى القبرصي اللعين إلى ميناء طرابلس لقتال من بها من المسلمين نزلت فرسانه ورجاله من الأسطول إلى الساحل وزحفوا إلى البلد ودخلوه، فصار أهل البلد يرمونهم بالحجار من أعلى الديار، فرأوا في أنفسهم العبر من كثرة رمي الحجار، وقاطع عليهم جيش المسلمين من جهة الساحل ما بين فارس وراجل، فسمعت الفرنج بقطع المسلمين عليهم الطريق، فنشف في فم كلّ واحد منهم الريق، وضربتهم المسلمون بالسيوف فصاروا صرعى على

الأنوف، هذا بين الساحل والبلد، وأمّا من كان منهم داخل البلد فقاتلوا من قاتلهم من المسلمين إلى أن قتلت النصارى أجمعين، ولم يقتل من المسلمين بطرابلس سوى إحدى وعشرين، ومنهم من قال لم يقتل من المسلمين بطرابلس سوى أربعة أنفس... وقتل خارج البلد من الإفرنج نحو ثمانماية علج... منهم من قال قتل من الفرنج أربعماية علج، ومنهم من قال هدم المسلمون قنطرة بين طرابلس والبحر كان المسلمون يمرّون عليها ويروحون، فلما هدمها المسلمون تخلّفت الفرنج عن المرّ لهدمها فقتلهم المسلمون عن آخرهم. ومنهم من قال: تحصّنت جماعة من الفرنج بدار طرابلس معهم أسلحتهم لما تيقّنوا من نصرة المسلمين عليهم... فرمى المسلمون النار بالدار فاحترقت الدار والكفار»[٧٨].

وفي جبل لبنان، اقتنى المقدمون الجند بشكل واسع، وكان هؤلاء - أي المقدمون - كناية عن زعماء قرويّين «يقومون على تدبير شؤون القرى في زمن السلم ويقودون أتباعهم إلى القتال في زمن الحرب»[٧٩].

وكان جبل لبنان، كما قدّمنا، تابعاً إدارياً لطرابلس، بل كان جزءاً من سنجقها، يحكمه مقدمون أهمّهم مقدمو بشري والبترون وجبيل، وكان الولاة يختارونهم من بين الأسر النبيلة في الجبل[٨٠]، ويدير القرى في إقطاعات هؤلاء المقدمين مشايخ كما هو الحال في النظام الإقطاعي السائد في ذلك الحين، إلاّ أنّ غير المسلمين من رعايا الدولة لم يكونوا يخضعون للخدمة العسكرية في جيوش السلطنة[٨١] باعتبارهم «أهل ذمة»، لذا، كان هؤلاء المقدمون يحتفظون بجندهم، إمّا لمحاربة السلطة في بعض الظروف، أو لمحاربة بعضهم البعض الآخر في ظروف أخرى.

ولقد قاوم مقدمو الجبل المماليك، في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، بضراوة وبأس شديدين، ولا غرو، فقد كان جند الجبل يتميّزون بالبأس والقوّة والشجاعة[٨٢]، وكان عهد فخر الدين المعني الثاني أوّل عهد في التاريخ العربي

لهذه المنطقة اشترك فيه المواطن المسيحي، إلى جانب المواطن المسلم، دفاعاً عن الوطن.

ويذكر المؤرّخون أخباراً عن معارك كثيرة جرت بين أهل الجبل والمماليك، بسبب نجدة أهل الجبل «للإفرنج الذين في السواحل» ومعاونتهم لهم في محاربة المسلمين، ومدّهم «بالميرة»(٨٣)، ومن هذه المعارك:

- سنة ١٢٨٣م. (٦٨١هـ)، غزا الملك المنصور قلاوون جبة بشري فسلكت جيوشه وادي حيرونا (شهر أيار ١٢٨٣) حتى وصلت إلى إهدن فحاصرتها مدّة أربعين يوماً واحتلتها (حزيران) ودكّت القلعة التي كانت في وسطها والحصن الذي كان على رأس الجبل (مكان كنيسة سيّدة الحصن حالياً)، ثم انتقلت إلى بقوفا فاحتلتها (في شهر تموز) ثم احتلت حصرون وكفر صارون، وفي ٢٢ آب زحفت هذه الجيوش إلى الحدث فحاصرتها وهدمتها(٨٤)، ثم تحوّلت إلى قلاع المرقب والكرك وحصن برزين وصهيون فاحتلتها(٨٥).

- سنة ١٢٩٢م. (٦٩١هـ) أمر الملك الأشرف خليل بن المنصور قائده الأمير بدر الدين بيدرا (نائب السلطنة بمصر وقائد العسكر) بأن يتوجّه لمحاربة كسروان وأهل الجبل «لأنّ المذكورين كانوا نجدة الإفرنج»(٨٦)، وأن يحشد معه معظم العساكر المصريّة «وصحبة من الأمير الأكابر شمس الدين سنقر الأشقر (نائب دمشق) والأمير قراسنقر المنصوري (نائب حلب) والأمير بدر الدين بكتوت الأتابكي، والأمير بدر الدين بكتوت العلائي، وغيرهم... وأتاهم من جهة الساحل ركن الدين بيبرس طقصو والأمير عز الدين ايبك الحموي وغيرهما»(٨٧)، كما حشد معه أمراء الغرب التنوخيّين، وقصد بجيشه الضخم جبال كسروان لمحاربة أهلها، فاستعدّ لقتاله من أهل الجبل «ثلاثون مقدماً بثلاثين ألفاً ما عدا الكمناء»(٨٨)، ودار بين الجيشين قتال عنيف انتهى بهزيمة جيش السلطان وتفرّقه، وكان أهل الجبل قد نصبوا كمائن للمهاجمين،

واحداً في وادي المدفون، وآخر في نهر الفيدار، «لحفظ الطرقات والمذاهب» المؤدية إلى الجبل، فوقع المنهزمون من جند السلطان في هذه الكمائن وقضي عليهم(٨٩).

- سنة ١٣٠٢م. (٧٠٢هـ.) وعلى أثر نزول قوّات الإفرنج عند نهر الدامور، في عهد الملك الناصر محمّد بن المنصور، تحرّك الكسروانيّون والجرديون لمناصرتهم، فحشد أقوش الأفرم نائب دمشق وسيف الدين اسندمر نائب طرابلس وشمس الدين سنقر المنصوري نائب حلب، وأمراء الغرب التنوخيّون جيشاً لمحاربة الكسروانيّين والجرديّين، عندها إجتمع مقدمو الجبل وتوابعهم «وأحاطوا بالجيش من كلّ جهة وهزموه وقتلوا نفراً كثيراً وغنموا أمتعتهم»(٩٠). ويذكر الدبس، وكذلك ابن القلاعي «أنّ الوقعة كانت عند مدينة جبيل، وان المقدمين الذين نزلوا من الجبال كانوا ثلاثين في العدد، وكان المشهورون فيهم: خالد مقدم مشمش، وسنان وأخوه سليمان مقدمي ايليج، وسعادة وسركيس مقدمي لحفد، وعنتر مقدم العاقورة، وبنيامين مقدم حردين»(٩١)، وقد نصب هؤلاء المقدمون لجيش السلطان كميناً من ألفي مقاتل عند نهر الفيدار وكميناً آخر من ألفين أيضاً عند نهر المدفون، وانقضّوا بثلاثين ألف مقاتل على جيش السلطان فقتلوا «حمدان» قائده «وقد وجدوه على الطريق منفرداً» وفتكوا بمعظم الجيش وغنموا أمتعته وسلاحه وأربعة آلاف من خيله، وقدمت نجدة لجيش السلطان من الأكراد (طرابلس) فوقعت في الكمينين على الفيدار والمدفون وقضي عليها، وقتل من أمراء الغرب التنوخيّين في هذه الوقعة: نجم الدين محمّد، وأخوه شهاب الدين أحمد، ولدا جمال الدين حجي، كما قتل من المقدمين: بنيامين صاحب حردين(٩٢).

- سنة ١٣٠٤م. (٧٠٤هـ.) جهز أقوش الأفرم من جديد جيشاً لمحاربة الكسروانيّين والجرديّين وسار إليهم (يوم الإثنين ثاني المحرم سنة ٧٠٥هـ.)

بنحو خمسين ألف مقاتل، ولاقاه من جهة طرابلس جيش آخر بقيادة سيف الدين أسندمر وشمس الدين وسنقر المنصوري، وأطبق الجيشان على كسروان والجرد، وطلع أسندمر «إلى جبل كسروان من أصعب مسالكه» واجتمعت العسكر على الكسروانيّين «واحتوت على جبالهم ووطت (وطئت) أرضاً لم يكونوا يظنّون أنّ أحداً يطالها، وقطعت كرومهم وأخربت بيوتهم وقتل منهم خلق كثير وتمزّقوا في البلاد»(٩٣). ويقول الدويهي، نقلاً عن ابن الحريري وابن سباط، إن الدروز جمعوا من رجال الجرد عشرة آلاف مقاتل لمقاتلة جيش السلطان، وإنّ الجيشين (جيش الجرد وجيش الأفرم) إلتقيا عند عين صوفر، فجرى بينهما قتال عنيف انتهى بهزيمة الجرديّين(٩٤). ويعلّق المطران الدبس على ذلك بقوله «وأمّا من هم الذين سمّاهم صالح بن يحيى الجرديّين وسمّاهم الدويهي في أوّل كلامه الجبليّين، فلا شكّ في أنهم غير الكسروانيّين، لذكر المؤرّخين المذكورين فريقين لا فريقاً واحداً، ونرى أنهم سكّان العمل المسمّى إلى الآن الجرد ومن قراه رشميا وشارون وبتاتر وبحمدون، وأنهم كانوا دروزاً، ويظهر أنّ هؤلاء لم يكونوا في طاعة الأمراء التنوخيّين حكام الغرب... ويظهر أنّ الدروز الجرديّين والموارنة الكسروانيّين كانوا حينئذ متفقين»(٩٥).

وقد أمر أقوش، بعد هذه الوقعة مباشرة، أن يستقرّ التركمان في كسروان، فأقطعه لأمراء منهم من آل عسّاف «فجعلوا دركهم، من حدود أنطلياس إلى مغارة الأسد وجسر المعاملتين، ثلاثة أبدال، كلّ ماية فارس منهم يقيمون شهراً في الدرك وتكون سكناهم في برج جونية»(٩٦).

إلاّ أنّ الحرب بين الكسروانيّين ودولة المماليك، وبينهم وبين أمراء الغرب التنوخيّين حلفاء المماليك، لم تنته بإقطاع العسّافيّين جبل لبنان، إذ انه في العام ١٣٨٨م. (٧٩١هـ.) خرج يلبغا الناصري نائب حلب وتمربغا منطاش نائب ملطية على السلطان الملك الظاهر برقوق، فأرسل هذا لمحاربتهم، من مصر،

جيشاً بقيادة جركس الخليلي أمير ياخور بمصر، وتحالف أمراء الغرب التنوخيّون مع جيش السلطان، كما تحالف الكسروانيّون والتركمان وعساكر الشام والعربان مع يلبغا ومنطاش، ودارت بين الفريقين معارك ضارية انتهت بهزيمة الخليلي ومقتله وتفرّق عسكره، واستولى يلبغا ومنطاش على بلاد الشام. وفي الوقت نفسه، جرت معارك عنيفة بين الكسروانيّين وأمراء الغرب التنوخيّين انتهت بهزيمة التنوخيّين ومقتل تسعين من رجالهم وحرق عدد من قراهم مثل عيناب وشملان وعيتات وعين عنوب، إلاّ أنّ أهل الغرب عادوا فجمعوا قواهم واستعدّوا للقتال من جديد بعد أن تنادى لنصرتهم «رجال الجرد والشوف» فعاد الكسروانيّون والتركمان والجرديّون إلى ديارهم(٩٧). ولكن الملك الظاهر برقوق عاد فأرسل عسكره لمحاربة تركمان كسروان «فتواقعوا في جورة منطاش تحت زوق مكايل» وهزم التركمان وقتل منهم خلق كثير، وأمّر الملك الظاهر برقرق على بشري مقدماً هو يعقوب بن أيوب «وكتب له بذلك صحيفة نحاسية»(٩٨).

وفي العام ١٥١٥م. إنحاز العسّافيون في معركة مرج دابق، إلى السلطان سليم العثماني الذي أقطعهم، مكافأة لهم، كلّ كسروان وبلاد جبيل، فاتسعت الإمارة العسّافيّة وقوي نفوذها حتى شملت كلّ جبل لبنان وعكار، مما أثار ضغينة آل سيفا حكّام طرابلس، فدبّر واليها، يوسف باشا سيفا، مكيدة قضى بها على حكم العسّافيّين باغتيال آخر أمرائهم، الأمير محمّد بن منصور العسّافي، عام ١٥٩٠، وضمّ إمارتهم إليه، كما سبق أن قدّمنا.

أمّا حروب المقدمين فيما بينهم فكانت كثيرة، إلاّ أنها في مجملها كانت حروب كمائن واغتيال أكثر منها صداماً بين جيوش تنتظم في صفوف وتقاتل حتى الهزيمة أو النصر، من ذلك: مقتل محمّد آغا شعيب والي طرابلس في كمين أعدّه له المقدّم عبد المنعم بن سيف الدين بإيعاز من الأمير العسّافي نفسه (١٥٢٢)، ومقتل مالك اليمني شيخ العاقورة في كمين أعدّه له أهل جبة المنيطرة

بعد حرقه لها (١٥٢٤)، ومقتل المقدّم عبد المنعم بإيعاز من الأمير العسّاف نفسه (١٥٢٤)، ومقتل كمال الدين عبد الوهّاب مقدم أيطو على يد المقدّم عبد المنعم إبن يوحنا مقدم بشري (١٥٢٧)، ومقتل المقدّم عبد المنعم بن يوحنا في كمين أعدّه له المشايخ الحمادية بإيعاز من ست الملوك زوجة كمال الدين ثأراً لزوجها (١٥٤٧) (وبقتله انقرض مقدّمو بشري الذين ولاّهم آل سيفا)، ومقتل المقدّم عشينا مقدّم بشري على يد أخيه المقدّم رزق الله مقدم بشري أيضاً (١٥٧٠)، ومقتل المقدّم داغر بن حسام الدين مقدّم بشري بإيعاز من والي طرابلس، ومقتل إبن أخيه المقدّم عسّاف بن موسى مقدّم بشري أيضاً بإيعاز من الأمير العسّاف وثأراً للمقدّم داغر (١٥٧٣)، وأخيراً مقتل مقدّمي جاج الأربعة بإيعاز من يوسف باشا سيفا والي طرابلس، لأنهم كانوا حلفاء للأمير فخر الدين الثاني المعني (١٦٠٠م.)، وكان قتلهم أحد أهمّ أسباب الحروب المتواصلة بين المعني وابن سيفا كما سنرى[٩٩].

حواشي الفصل الرابع

(١) - Poliak, Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and Lebanon, pp. 51, 56.

(٢) كان على ولاية دمشق أن تقدّم، في أوائل القرن السابع عشر، ٢٦٠٠ خيّال، وعلى ولاية طرابلس أن تقدّم ١٤٠٠ خيّال (الحصري، البلاد العربيّة والدولة العثمانيّة، ص. ٢٣١ - ٢٣٢)، كذلك كان على الأولى أن تقدّم، في عهد السلطان سليمان الثاني، في أواخر القرن السابع عشر، ٣١٩٧ مقاتلاً، وعلى الثانية أن تقدّم ١٨٢١ مقاتلاً، (Jouplain, La question du Liban, p. 182).

(٣) - Poliak, op. cit., p. 75.

(٤) - Ibid., p. 44.

(٥) أنظر الفصل الأوّل (جبل لبنان)..

(٦) محمّد كرد علي، خطط الشام، ج ٢: ٢٣٨.

(٧) الشهابي، تاريخه (الغرر الحسان)، ج ١: ٥٥٩ - ٥٦٠. والدويهي، تاريخ الأزمنة ص. ٢٣٤ - ٢٣٥ ومحمّد كرد علي، المرجع السابق. ج ٢: ٢١٩ - ٢٢٠.

(٨) الشهابي، المصدر السابق، ج ١: ٦١٨ - ٦١٩، والدويهي، المصدر السابق. ص. ٢٨٤ وتاريخ الطائفة المارونيّة ص. ١٧٨، ومحمّد كرد علي، المرجع السابق: ج ٢: ٢٤٠ والشدياق، أخبار الأعيان ج ١: ٢٣٨ وانظر: Bouron, Les Druzes. pp. 108 - 109.

et: Mariti, Giovani, Istoria di Faccardino, p. 33.

ويذكر ماريتي نفسه رواية مخالفة إذ يقول إنّ إبراهيم باشا سلّم إمارة آل معن إلى ابن الحرفوش، ولكن الأمير قرقماز عاد فاستردّها منه عام ١٥٨٦ بعد قتال مرير، وانّ قرقماز قد توفّي بعد ذلك في العام نفسه بسم دسّه له أحد رجال الحزب اليمني (Mariti, Ibid., pp. 40 - 45)، ولكننا لم نجد سنداً لهذه الرواية.

أمّا عرجموس، فقد قال عنها ياقوت في معجمه: «عرجموس، بالسين، قرية في بقاع بعلبك يزعمون إنّ فيها قبر حبلة بنت نوح» (ياقوت، معجم البلدان، ج ٦: ١٤١)، وقال المعلوف إنها على مقربة من محلّة الفيضة وهي الآن خربة لا سكّان فيها، وذكرت في التواريخ بإسم «وطاعرجموس، ومرج عرجموس» خيّم فيها إبراهيم باشا والي مصر سنة ١٥٨٤ للإقتصاص من سارقي الخزانة السلطانيّة في جون عكار (المعلوف، تاريخ مدينة زحلة، ص. ٤٢ حاشية ١).

(٩) كان المماليك قد أوكلوا إلى هؤلاء الأمراء أمر حماية بيروت والغرب من الصليبيّين. أنظر تفصيلاً لذلك في تاريخ بيروت لصالح بن يحيى، حيث نجد أخباراً كثيرة عن حروب أمراء الغرب إلى جانب المماليك ضد الصليبيّين من جهة وضد الثورات في الداخل من جهة أخرى (ثورة منطاش، ووقعة شقحب ص. ٢١٢ - ٢١٦).

(١٠) Poliak, op. cit., p. 42. -

(١١) تاريخ الأمراء الشهابيّين بقلم أحد أمرائهم من وادي التيم، تحقيق الدكتور هشي، ص. ٢٩.

(١٢) م. ن. ص. ٣٠.

(١٣) م. ن. ص. ٣٠ - ٣١ والشهابي، المصدر السابق، ج ١: ٣٥٢ - ٣٥٣.

ويرى الدكتور كمال الصليبي أنّ إسم «قنطورا» محرف عن الكلمة السريانية «قنطورنا» المأخوذة عن اللاتينيّة (Centurion) أي قائد المئة (النهار، عدد ٤ شباط ١٩٧٥) فقنطورا لم يكن إذن ملكاً كما ذكر الشهابي، وإنّما كان قائداً لمعسكر الإفرنج في حاصبيا، وهذا هو الأرجح.

كما يرى أنّ قصّة الحروب بين الشهابيّين والصليبيّين في وادي التيم غير ثابتة باعتبار أنّ المصادر القديمة المعتمدة كأصول لتاريخ بلاد الشام في تلك الفترة مثل تاريخ إبن القلانسي وتاريخ إبن الأثير وتاريخ أبي شامة المقدسي، لم تأتِ على ذكر هذه الحروب إطلاقاً، كما ينفي نفياً قاطعاً علاقة التحالف والمصاهرة التي يُقال إنها قامت في تلك الفترة بين الشهابيّين والمعنيّين، باعتبار أن الإتصال بين الإمارتين الشهابيّة والمعنيّة كان مستحيلاً، لأنه بينما كان وادي التيم تابعاً للدولة المملوكيّة، كان الشوف «أرضاً محتلّة» من الصليبيّين وتابعاً لمملكة أورشليم اللاتينيّة (النهار، م. ن.) إلاّ أنّ هذا الرأي يظلّ خاضعاً للنقاش إلى حدّ كبير، باعتبار أنّ أحداً من المؤرّخين، قدماء ومحدثين، لم يؤيّده.

(١٤) الشهابي، المصدر السابق، ج ١: ٣٥٣، والشدياق، المصدر السابق، ج ١: ٣٧ - ٣٨.

(١٥) هذا عند الأمير حيدر الشهابي (جـ ١: ٣٥٢ - ٢٥٣) أمّا ما ورد في تاريخ الأمراء الشهابيّين بقلم أحد أمرائهم من وادي التيم فيذكر أنّ خسائر الصليبيّين كانت ٣ آلاف قتيل أمّا الشهابيّون فقد خسروا ٣٥٠ قتيلاً (ص. ٣٠)، ويوافقه على ذلك تقريباً، محمّد كرد علي، (خطط الشام، ج ٢: ٤٠ - ٤١) الذي يرى أنّ عدد الصليبيّين الذين تحصّنوا بقلعة حاصبيا مع قنطورا هو ٣٠٠ وليس ٥٠٠ وقد قتلوا جميعهم، إلاّ أنه من الصعب الأخذ بهذه الأرقام سواء من حيث الفرق بين عدد المقاتلين في كلا الجيشين (١٥ ألف مقاتل مقابل ٦٥ ألفاً) أم من حيث عدد القتلى من الفريقين.

(١٦) تاريخ الأمراء الشهابيّين بقلم أحد أمرائهم، ص. ٣٤، إلاّ أن الشدياق (أخبار الأعيان، ج ١: ٣٨) يؤرّخ هذه الوقعة في العام ١٢٤٠م.. بينما لم نجد ذكراً لها عند الدويهي، والأمير حيدر الشهابي.

(١٧) تاريخ الأمراء الشهابيّين بقلم أحد أمرائهم، ص. ٣٥، إلاّ أنّ الدويهي (تاريخ الأزمنة، ص. ١٤٤) وكذلك الأمير حيدر (تاريخه، ج ١: ٤٥٠) اللذين ذكرا هذه الوقعة، لم يأتيا على ذكر الشهابيّين بالإسم فيها، رغم أن الأمير حيدر ذكر العرب الذين اشتركوا فيها وهم: «مهنا الحياري وأولاد عمّه وأمراء الجبال، ما عدا بيت التّوخ فلم يحضروا هذه الوقعة» ولكن الذي يرجّح إشتراك الشهابيّين في هذه الوقعة هو ما أورده الأمير حيدر نفسه، وفي مكان آخر من الصفحة نفسها (٤٥٠، حاشية ١)، من أنّ جميع عساكر الشام قد اشتركوا فيها إذ قال: «فلاقاه (أي لمونكاتمور) السلطان مع جميع نوّابه وسائر عساكر مصر والشام، حتى سنقر الأشقر»، وهذا الأخير كان خصماً للسلطان قلاوون قبل هذه الوقعة إلاّ أنه دخل بعد ذلك، وقبلها أيضاً، في طاعته، وحالفه فيها ضد التتار، وقد اعتبره الأمير حيدر من الفرسان المعدودين في هذه الوقعة. كما يؤكّد الشدياق (أخبار الأعيان، ج ١: ٣٩) إشتراك الشهابيّين فيها.

(١٨) تاريخ الأمراء الشهابيّين بقلم أحد أمرائهم، ص. ٤١ - ٤٢ والشدياق، أخبار الأعيان، ج ١: ٤١، وقد ذكر الدويهي (تاريخ الأزمنة، ص. ٢٠١) هذه الوقعة عام ١٤١٢م، دون أن يأتي على ذكر دور الشهابيّين والمعنيّين فيها، وذكرها الأمير حيدر (المصدر السابق، ج ١: ١٥١٩) عام ١٤١٤م، متجاهلاً هو الآخر دور الشهابيّين والمعنيّين فيها.

(١٩) تاريخ الأمراء الشهابيّين بقلم أحد أمرائهم من وادي التيم، ص. ٤٩، وانظر: الشدياق، المصدر السابق، ج ١: ٤٢، وانظر كذلك: الأمير حيدر الشهابي، المصدر السابق، ج ١: ٥٥٩ - ٥٦٠، والدويهي، تاريخ الأزمنة، ص. ٢٣٤ - ٢٣٥.

(٢٠) وذلك لأنّ جميع المعارك التي خاضها الشهابيّون بعد مرج دابق كانت بالتحالف مع المعنيّين الذين كانوا يشكّلون الجناح الأقوى في هذا التحالف.

(٢١) (Hours et Salibi, Mélange de l'U.S.J. 1967, pp. 3 - 5) ومنطاش هو تمربغا منطاش الأشرفي، كان نائباً على ملطية، على حدود الروم في سلطنة الظاهر برقوق الأولى، ثم عصى عليه وأقدم مع يلبغا الناصري نائب حلب على خلعه وإعادة حاجي بن الأشرف شعبان إلى السلطنة (٧٩١هـ. = ١٣٨٩م.) إلاّ أن برقوق خرج من سجنه في الكرك في السنة التالية حيث قاتل منطاش وانتصر عليه سنة ٧٩٢هـ./ ١٣٩٠م. (صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص. ٢٠٩ حاشية ١).

(٢٢) المعلوف، مجلّة العرفان، سنة ١٩٢٤: ٢٩١.

(٢٣) صالح بن يحيى، المصدر السابق، ص. ٢١٢ - ٢١٦.

(٢٤) جرت وقعةشقحب بين السلطان برقوق ومعه كمشبغا الحموي نائب حلب وأمراء الغرب من جهة، وبين منطاش ومعه السلطان صلاح الدين حاجي بن شعبان من جهة أخرى، وكان على ميمنة برقوق كمشبغا وأمراء الغرب، فانهزم أمراء الغرب (وكان على رأسهم فخر الدين عثمان بن

سيف الدين بن يحيى أميرهم) وعادوا إلى بلادهم، إلاّ أنّ السلطان برقوق عاد فانتصر في هذه الوقعة بينما فرّ منطاش ولجأ إلى عرب النمير بظاهر دمشق كما قدمنا (صالح بن يحيى تاريخ بيروت ص. ٢١١ - ٢١٤). وكمشبغا الحموي هو كمشبغا اليلبغاوي ولي نيابة حلب في أيام يلبغا الناصري، ولما خرج منطاش على برقوق قدم كمشبغا إلى برقوق من حلب وقاتل معه، ثم عيّنه برقوق، بعد عودته إلى السلطنة، أتابكاً لعسكر مصر، وتوفي معتقلاً في الإسكندريّة عام (٨٠١هـ./ ١٤٠٠م.)، والسلطان صلاح الدين حاجي بن شعبان، ولي السلطنة للمرّة الأولى بلقب «الملك الصالح» (٧٨٣ - ٧٨٤هـ. = ١٣٨١ - ١٣٨٢م.) ثم وليها للمرّة الثانية خلال فترة خلع الظاهر برقوق، ولقب «بالملك المظفر» (م. ن. ص. ٢١٢ حاشية ١ و٢).

(٢٥) إشترك سيف الدين يلبغا الناصري، مع تمربغا منطاش، في عصيان أدّى إلى خلع الظاهر برقوق سنة (٧٩١هـ. ١٣٨٩م.) وكان إذ ذاك والياً على حلب ثم تخاصم مع منطاش فأدّى ذلك إلى سجنه، ولمّا عاد برقوق إلى السلطنة أخرجه من السجن وأعاده إلى نيابة حلب، ثم سلّمه نيابة دمشق سنة (٧٩٣هـ. ١٣٩١م.) حيث ظلّ فيها مدّة قصيرة اعتقله بعدها السلطان برقوق وقتله بحلب في السنة التالية (م. ن. ص. ٢١٠ حاشية ١).

(٢٦) صالح بن يحيى م. ن. ص. ٢٠٩ حاشية ١.

(٢٧) - Hours et Salibi, Mélange, pp. 5 - 6.

(٢٨) - Ibid., p. 9.

(٢٩) - Ibid., p. 11.

(٣٠) - Ibid., p. 12.

(٣١) عندما دخل قانصوه الغوري دمشق في طريقه إلى مرج دابق لمحاربة العثمانيّين، كان الأمير ناصر الدين بن الحنش الأمير الوحيد من بين الزعماء المحليّين الذين دعوا لاستقبال السلطان، وقد ساهم أمير البقاع في المجهود الحربي المملوكي بألف دينار وبكثير من الخيل والجمال والحيوانات المعدّة للأكل وغير ذلك من المؤن والمعدّات، ساهم بها الأمير البقاعي طوال مدّة إقامة الجيش المملوكي في دمشق، كما أوكل إليه السلطان حفظ الأمن في ربوع الشام خلال تغيّبه في ساحة القتال.

(Hours et Salibi, Ibid., pp. 13 - 14).

(٣٢) - Ibid. , p. 15.

(٣٣) - Ibid., p. 18.

(٣٤) - Ibid., p. 19.

(٣٥) Ibid., p. 21 -

(٣٦) Ibid.. -

(٣٧) المعلوف، العرفان، سنة ١٩٢٤: ٢٩٧.

(٣٨) ألوف، تاريخ بعلبك، ص. ٨٦.

(٣٩) أنظر الفصل الأوّل (جبل عامل).

(٤٠) الزين، للبحث عن تاريخنا، ص. ٣٦٢ - ٣٦٣.

(٤١) آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص. ٨٢.

(٤٢) م. ن. ص. ٨٣ و١٠٥ والمقصود بذلك العهد (العهد العثماني).

(٤٣) آل صفا، م. ن. ص.٨٤ - ٨٧.

(٤٤) م. ن. ص. ١٠٥.

(٤٥) م. ن. ص. ٩٠ حاشية ١، ويذكر المؤلّف أنّ إقطاعيي جبل عامل لم يكونوا ملزمين برفع العلم الرسمي للدولة في اجتماعاتهم (م. ن. ص. ن. حاشية ١).

(٤٦) أحمد رضا، المقتطف، سنة ١٩١٠: ٤٢١.

(٤٧) آل صفا، المرجع السابق. ص. ٨٤، والمقتطف، سنة ١٩٠٢: ٣٣٦

(٤٨) محسن الأمين، خطط جبل عامل، ج ١: ٢٠٧.

(٤٩) م. ن. ص. ٢٧٧ - ٢٧٨.

(٥٠) م. ن. ص. ٢٤٧ - ٢٤٨ وص. ٢٣٢ - ٢٣٣ و٢٠٧ - ٢١٠.

(٥١) سالم، عبد العزيز، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ص. ٧٣ ،٧٦، وابن الأثير، الكامل في التاريخ ج ١٠: ٤١٢.

(٥٢) سالم، م. ن. ص. ٩٣.

(٥٣) م. ن. ص. ١٠٥.

(٥٤) م. ن. ص. ١١٧.

(٥٥) م. ن. ص. ١١٧ ، ١١٨ وابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص. ١٧٩ - ١٨٠.

(٥٦) Lammens, La Syrie, T. I, p. 220. -

(٥٧) سالم، المرجع السابق. ص. ١٣٧ - ١٣٨.

(٥٨) سالم، م. ن. ص. ١٢٨ و Lammens, op. cit., T. I. p. 221.

(٥٩) إبن القلانسي، المصدر السابق، ص. ١٩٧.

(٦٠) سالم، المرجع السابق، ص. ١٩٩ - ٢٠٢ و Lammens, op. cit. T. I., p. 255.

(٦١) سالم، م. ن. ص. ٢٠٢.

(٦٢) م. ن. ص. ٢٠٣ - ٢٠٤ ويجب أن لا نهمل ذكر منظّمات الرهبان العسكريّين في هذا العهد، مثل (جماعة الفرسان الاسبتارية) التي أقطعها الكونت ريموند الثاني إقطاعات كبرى في كونتية طرابلس سنة ١١٤٢م. والتي ازداد نفوذها بعد ذلك، أي سنة ١١٦٣م. بعد أن اقطعها بارون مرقبة الحصن الشرقي وحصن وادي لوش، وسنة ١١٧٧م. بعد أن أقطعها ريموند الثالث حصن وادي الأحمر الواقع على طريق انطرطوس - رفنية، وسنة ١١٨٠م. بعد أن اقطعها ريموتد الثالث نفسه حصن الطوفان، وسنة ١١٩٩م. بعد أن أقطعها بوهمند مدينة المرقب، حتى أصبحت المرقب بعد ذلك، وفي مطلع القرن الثالث عشر الميلادي، قاعدة دولة مستقلّة تحاصر جبل الإسماعيليّة حصاراً تاماً، هي دولة الاسبارتية. ومثل (جماعة فرسان المعبد، أو فرسان الداوية) التي تمتعت كذلك بإقطاعات كبرى، مما أضعف نفوذ الكونتية في طرابلس، وأضعف، بالتالي، جيشها، بحيث أصبحت هاتان المنظّمتان الدينيّتان، وفي عهد الأسرة النورمانيّة (أسرة بوهمند) تحملان، لوحدهما، عبء الدفاع عن الكونتية وما جاورها من إقطاعات لهما، ضد هجمات المسلمين (سالم، م. ن. ص. ٢١٢ - ٢٢٢).

(٦٣) أبو المحاسن، إبن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧: ٣٢٠ - ٣٢١، ويذكر المؤرّخ نفسه أنّ حصار طرابلس استمرّ من مستهلّ شهر ربيع الأوّل حتى الرابع من ربيع الآخر (م. ن. ج ٧: ٣٢١).

(٦٤) قتل في هذه الوقعة من كبار القادة في جيش قلاوون: الأمير عز الدين ممن، والأمير ركن الدين منكورس إبن عبدالله الفارقاني، والأمير أحمد بن الأشل، وكان المردة يهاجمون، من معاقلهم في حدث الجبة وكفر صارون وحصرون واهدن وبشري، الجيش المملوكي الذي يحاصر طرابلس، فهاجم قلاوون معاقلهم وهدم قلاعهم، وفرّ الآلاف منهم إلى قبرص (سالم م. ن. ص. ٢٨٨ - ٢٩٣) وانظر أيضاً: الشدياق، أخبار الأعيان، ج ١: ٢٠٦، وحتي، لبنان في التاريخ، ص. ٢٩٧) أمّا أبو المحاسن فلم يحدّد عدد القتلى والأسرى الطرابلسيّين في هذه الوقعة بل قال: «وشمل القتل والأسر سائر من كان بها، وغرق منهم في الماء جماعة كثيرة» (أبو المحاسن، المصدر السابق. ج ٧: ٣٢١).

(٦٥) بلاطنس: قلعة كانت تقع غرب مدينة مصياف، وانطرطوس: ثغر من ثغور الشام شمال طرابلس، وعمل الظنيين: كورة تقع بين مصياف وفامية، والمرجّح أنها المنطقة المعرفة اليوم بالضنية، وبشرية هي بشري البلدة اللبنانيّة المعروفة، والخوابي: قلعة كانت تقع شمال طرابلس بين سهل القليعة وساحل البحر، والقدموس: قلعة كانت تقع جنوب غربي شيرز بالقرب من ثغر بانياس، والمنيفة: حصن كان يقع على جبل الرواديف. والعليقة: قلعة كانت تقع بالقرب من المنيفة على بعد

ساعة منها. والكهف: قلعة كانت قائمة على هضبة قرب منابع نهر مرقية بالقرب من القدموس. وللمزيد من الإيضاح، راجع: القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤: ١٤٢ - ١٤٩ (من قواعد المملكة الشامية: أ طرابلس) وراجع أيضاً: سالم، المرجع السابق، ص. ٣١٠ - ٣١٦.

(٦٦) هو الأمير يلبغا بن عبدالله الخاصكي الناصري أحد كبار الأمراء بمصر في سلطنة الناصر حسن (٧٤٨ - ٧٥٢هـ. = ١٢٤٧ - ١٣٥١م، و٧٥٥ - ٧٢٦هـ. = ١٣٥٤ - ١٢٦١م.) قتل في ربيع الآخر سنة ٧٦٨هـ. = كانون الأول سنة ١٣٦٦م. وكان هو المتكلّم عن السلطان لحداثة سنّه (صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص. ٢٩ حاشية ٢، وسالم، طرابلس الشام، ص. ٢٣٧ - ٢٤٦).

(٦٧) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٦٨١١: ٥٢ - ٥٣.

(٦٨) سالم، المرجع السابق، ص. ٢٤٨ - ٢٥١.

(٦٩) م. ن. ص. ٢٥١ - ٢٥٣، ويذكر صالح بن يحيء، تاريخ بيروت ص. ٢٤٢ - ٢٥٢) لمحات من فتح قبرص، إلاّ أنه يجعل هذا الفتح عام ٨٢٩هـ.. (م. ن. ص. ٢٥٠ - ٢٥١).

(٧٠) صالح بن يحيى، م. ن. ص. ٢٤٢ - ٢٥٣.

(٧١) سالم، المرجع السابق، ص. ٢٩١، وانظر أيضاً: ناصر خسرو، سفرنامة، تعريب يحيى الخشاب، ص. ١٢ والجدير بالذكر أنّ ناصر خسرو قد قام برحلته إلى هذه البلاد في أواخر القرن العاشر الميلادي.

(٧٢) ناصر خسرو، م. ن. ص. ١٢.

(٧٣) إبن القلانسي، المصدر السابق، ص. ٥٠.

(٧٤) إبن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١: ٤١٢.

(٧٥) سالم، المصدر السابق، ص. ٢٩٤ - ٢٩٥ وانظر أيضاً: صالح بن يحيى، المصدر السابق، ص. ٢٤٢ - ٢٥٣.

(٧٦) سالم، م. ن. ص. ٢٩٦ - ٢٩٧.

(٧٧) سالم، م. ن. ص. ٤٣٦ - ٤٥٠.

(٧٨) سالم، م. ن. ص ٤٥٩ - ٤٦٠ وهناك أقوال كثيرة عن هذه الوقعة وردت في المخطوطة نفسها، ويمكن الرجوع إليها في المرجع نفسه (ص. ٤٦٠ - ٤٧١) إذ إنه لا مجال لذكرها كلّها هنا، مع الإشارة إلى أنّ رواية النويري الإسكندري هذه تختلف، من حيث عدد القتلى من الطرفين، عن رواية أبي المحاسن التي سبق أن أوردناها عند الحديث عن الوقعة.

(٧٩) الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص. ٢١.

(٨٠) Jouplain, La question du Liban, p. 87.

(٨١) كان معظم سكّان الجبل، قبيل الفتح العثماني، من المسيحيّين الموارنة.
(Ibid., pp. 77 - 78).

(٨٢) الصليبي، المرجع السابق، ص. ٢١، ويذكر الدكتور عبد العزيز سالم أنّ هؤلاء الجند كانوا يجيدون «الرمي على القوس الثقيل بالنشاب الخارق» (سالم، المرجع السابق، ص. ٩٢، و١٢٩) وانظر: .(Lammens, La Syrie, T. I. p. 255).

(٨٣) الشدياق، المصدر السابق، ج ١: ٢٠٥ - ٢٠٦ والصليبي، المرجع السابق، ص. ٢١، وسالم، المرجع السابق، ص ٩١ - ٩٢ وص ١٢٩ وص. ٢٢٥ - ٢٢٩، وحتي، المرجع السابق، ص. ٣٩٢، وانظر لذلك أيضاً، الأب بطرس ضو، تاريخ الموارنة، ج ٢: ٤٢٥ - ٤٨٥.

(٨٤) الدبس، الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل، ص. ٢١٨، والدويهي، تاريخ الأزمنة، ص. ١٤٥ - ١٤٦، والشدياق، المصدر السابق، جـ ١: ٢٠٦.

(٨٥) الشدياق، المصدر السابق، جـ ١: ٢٠٦ والشهابي، المصدر السابق، ج ١: ٤٥١ - ٤٥٢.

(٨٦) الشدياق، م. ن. ص. ٢٠٧، ويذكر الشدياق هذه الوقعة سنة ١٢٩٣.

(٨٧) صالح بن يحيى، المصدر السابق، ص. ٢٤ - ٢٥.

(٨٨) الشدياق، المصدر السابق، جـ ١: ٢٠٧.

(٨٩) الشدياق، م. ن. ص. ن. إلاّ أنّ صالح بن يحيى ينسب هزيمة جيش السلطان في هذه الوقعة إلى إهمال بيدرا وسوء تدبيره، ويذكر أنّ بيدرا هذا قد نال رشوة من أهل الجبل واحتجّ الناس عليه لذلك. (صالح بن يحيى، المصدر السابق. ص. ٢٥ - ٢٦)، وقد أورد هذه الوقعة، نقلاً عن صالح بن يحيى، المطران الدبس في الجامع المفصل، ص. ٢٢٠ - ٢٢١ وزاد عليها: «هذا ما قاله صالح بن يحيى، وذيّله الأب شيخو بحاشية قال فيها: ورد خبر غزوة الأمير بيدرا لكسروان في تاريخ المماليك للمقريزي وتفاصيله لا تختلف عما ذكره المؤلّف هنا» وقد ذكر صالح بن يحيى (ص. ٢٦) أن بيبرس طقصو هو الذي أخبر السلطان أنّ بيدرا أرتشى من الكسروانيّين. وقد وصف ابن القلاعي في قصيدته الزجليّة هذه الوقعة وصفاً دقيقاً (أنظر: إبن القلاعي، حروب المقدمين، ص. ٥١ - ٥٤)، كما ذكرت هذه الوقعة في الوثيقة المثبتة بآخر كتاب إبن القلاعي المذكور (ص. ٨٥ - ٨٨) والتي تثبت أنّ آل أبي اللمع الدروز، مقدمي الشحّار والجرد في ذلك الحين، قد شاركوا في القتال إلى جانب أهل كسروان ضد عسكر الشام المملوكي، وان الهزيمة وقعت على عسكر الشام (إبن القلاعي، م. ن. ص. ٨٦ - ٨٧).

(٩٠) الدويهي، تاريخ الأزمنة، ص. ١٦٠ والدبس، المصدر السابق، ص. ٢٢٢.

(٩١) الدبس، م. ن. ص. ٢٢٢ وابن القلاعي، المصدر السابق. ص. ٥١ - ٥٤.

(٩٢) الدويهي، المصدر السابق، ص. ١٦٠ - ١٦١ والدبس، المصدر السابق، ص. ٢٢٢ - ٢٢٣.

(٩٣) صالح بن يحيى، المصدر السابق، ص. ٢٧ - ٢٨ (نقلاً عن النويري والصلاح الكتبي) والشهابي، المصدر السابق، ج ١: ٤٨٠، والدبس، المصدر السابق، ص. ٢٢٣ - ٢٢٤، والدويهي المصدر السابق، ص. ١٦٢ إستناداً إلى ابن الحريري وابن سباط، إلاّ أنّ هذه الوقعة وردت عند الدويهي سنة ١٢٠٧م. وليس سنة ١٣٠٥. ويعزو الدبس (ص. ٢٢٤) ذلك إلى خطأ من الناسخ إذ يقول في ذلك: «وسنة ١٣٠٧م. = ٧٠٧هـ. نرى هنا زلّة قلم من الناسخ بتعيين هذه السنة، والصواب سنة ٧٠٥هـ. لأنه إذا كان أقوش أمر بجمع العساكر واجتمعت سنة ٧٠٤هـ. إلى آخرها، فلا يظن أنه أخّر مسيرته إلى سنة ٧٠٧هـ. بل سار في أوّل سنة ٧٠٥هـ. وقد اتفق كلاما صالح والدويهي على تعيين يوم الإثنين ثاني محرم، ونحن نوافق الدبس على رأيه هذا، خصوصاً أن الدويهي ينتقل مباشرة في تاريخه من حوادث سنة ١٣٠٤ إلى حوادث سنة ١٢٠٧ دون أيّ ذكر لحوادث سنتي ١٣٠٥ و١٣٠٦.

(٩٤) الدويهي المصدر السابق ص. ١٦٣، وانظر أيضاً: الشهابي، تاريخه، ج ١: ٤٠، ويروي إبن اسباط (مخطوطة مصوّرة عن نسخة الفاتيكان Vaticano arabe manuscrit N° 270 ج ٢: ١١٣ - ١١٤) من أحداث سنة ٧٠٥هـ. هذه الوقعة كما يلي: «وفي هذه السنة سار جمال الدين اقوش الأفرم نايب الشام بعساكر الشام وغيرها يوم الإثنين ثاني المحرم إلى جبال كسروان وكانوا سكّانها عصاة مارقين من الدين، فأحاطت العساكر الإسلاميّة بتلك الجبال المنيعة وترجّلوا عن خيولهم وصعدوا في تلك الجبال من كلّ الجهات، وقيل إن العساكر كانوا نحو خمسين ألف فارس وراجل، ووصل نايب الشام اقوش الأفرم إلى جبال جرد كسروان واحتووا على جبالهم وأخرب القرايا وقطع كرومها ووطى العسكر أرضاً لم يكن أهلها يظنّون أنّ أحداً من خلق الله تعالى يصل إليها... وقتلوا وأسروا جميع من بها من الدرزيّة والكسروانيّين وغيرهم من المارقين... وكانوا أمراء الغرب برجالهم في هذه الفتوح وقتل منهم الأمير نجم الدين محمّد وأخيه الأمير شهاب الدين ولدي الأمير جمال الدين حجي إبن محمّد إبن حجي إبن كرامة إبن بحتر التنوخي بقرية نيبيه من كسروان... ثم ان العساكر بواسطة أهل كسروان أحرقوا عين صوفر وشمليخ وعين وزيه وبعطوش وغيرهم من بلاد الجرده... وتذكر الوثيقة المثبتة في آخر كتاب إبن القلاعي (حروب المقدمين صفحة ٨٥ - ٨٨) والوارد ذكرها سابقاً (حاشية ٨٩) أنّ السلطان المملوكي برقوق أعاد الكرة على جبال كسروان فهاجمها سنة ١٣٠٧م. وأحاط العسكر بالبلاد «خمسين ألف من قب الياس إلى انطلياس وخمسين ألف من قب الياس إلى نبع الخارجية وخمسين ألف من الخارجية (وردت عند إبن القلاعي بمعنى كسروان) إلى نهر إبراهيم للبحر، وحطّوهم تحت الحصار وظلّوا أربع شهور حتى ملكوا البلاد» (إبن القلاعي، م. ن. ص. ٨٧ - ٨٨).

(٩٥) الدبس، المصدر السابق ص. ٢٢٥ - ٢٢٦ أمّا الدويهي فقد ذكر كلمة الجبليّين، بمعنى الجرديّين في حوادث سنة ١٣٠٤م. (تاريخ الأزمنة ص. ١٦٢) وأمّا صالح بم يحيى فقد ذكر الوقعة (ص. ٢٧ - ٢٨) وأتى على ذكر الجرديّين دون أن يأتي على ذكر الدروز.

(٩٦) الشدياق، المصدر السابق، ج ١: ٢٠٨، وصالح بن يحيى، المصدر السابق، ص. ٢٩، يقول صالح بن يحيى في ذلك: «وأقطعوه - أي كسروان - للتركمان بثلاثماية فارس وتدركوا - أي جعلوا دركهم - من البحر ودروب البر من ظاهر بيروت إلى حدّ عمل طرابلس، واستمرّوا إلى وقتنا هذا، وشهروا بتركمان كسروان وعرفوا به». وانظر أيضاً: الدويهي، تاريخ الأزمنة. صفحة ١٦٢، وكان آل عساف حكّاماً على الكورة في ذلك الحين (الشدياق، المصدر السابق، ص. ٣٠١).

(٩٧) يميّز الشهابي، المصدر السابق، جـ ١: ٥٠٣ حاشية ١، بين الجردين: جرد الغرب وهو بتاتر والرميلة ومجدل بعنا وبدغان وشارون وبحمدون ورشميا وكفر عمّيه وغيرها، ويسمّيهم «أهل الجرد» ويصنّفهم حلفاء لأمراء الغرب التنوخيّين، وجرد كسروان (ص. ن. حاشية ٣) ويسمّى أهله «الجرديّين» ويصنّفهم حلفاء للكسروانيّين دون أن يحدّد القرى التي تدخل في هذا الجرد. وانظر أيضاً للوقعة نفسها: الدبس، المصدر السابق، ص. ٢٣٦ - ٢٣٧، والدويهي، المصدر السابق، ص. ١٨٩ - ١٩٠، والشدياق، المصدر السابق، ص. ٢٠٩ وصالح بن يحيى، المصدر السابق، ص. ٢١٢ - ٢١٥.

(٩٨) الشدياق، م. ن. ج ١: ٢٠٩ والدويهي م. ن. ص. ١٩٠، وانظر أيضاً الشهابي. م. ن. ص. ٥٠٣ والدبس م. ن. ص. ٢٣٧.

(٩٩) الشدياق م. ن. ج ١: ٢١١ - ٢١٤، ولا نرى حاجة لتفصيل هذه الوقائع، إذ إننا أوردناها لتبيان الوضع المضطرب بين مقدمي الجبل، مما كان يستدعي ولا شك كونهم جميعاً على أهبة الإستعداد للقتال باستمرار.

الباب الثاني

المقاطعات اللبنانية
في عهد فخر الدين المعني الثاني
وحتى آخر العهد المعني
(١٥٩٠ ـ ١٦٩٧)

الفصل الأوّل

فخر الدين المعني الثاني
حياته السياسيّة
(سيرته في الحكم، طموحه السياسي، تحالفاته العسكريّة)

نسبه ونشأته:

هو الأمير فخر الدين (الثاني) بن قرقماز بن فخر الدين (الأوّل) بن عثمان بن ملحم بن أحمد بن عثمان بن سعد الدين بن محمّد بن بشير بن علي ابن عبدالله بن سيف الدين بن يوسف بن معن بن ربيعة الأيّوبي، من بني نزار ابن معد بن عدنان المنتسبة إليه العرب المستعربة[١].

ولد فخر الدين عام ١٥٧٢ في بعقلين عاصمة الإمارة المعنيّة آنذاك، من أم تنّوخيّة ذات شخصيّة فذّة وصيت نبيل هي «الست نسب» شقيقة الأمير سيف الدين التنّوخي، وكان والده الأمير قرقماز قد ورث الإمارة عن أبيه فخر الدين الأوّل (سلطان البر)، فترعرع فخر الدين مع أخيه الأمير يونس، في كنف والديه، حتى بلغ الثانية عشرة من عمره في العام ١٥٨٤، حين فقد والده الذي فرّ من وجه إبراهيم باشا والي مصر، بعد حادث جون عكار في العام نفسه، ولجأ إلى مغارة «تيرون» حيث مات فيها عام ١٥٨٥[٢].

واحتضن الأميرين الصغيرين فخر الدين ويونس، بعد موت أبيهما، أمهما «الست نسب» وخالهما «الأمير سيف الدين التنّوخي» الذي ما أن بلغ أكبرهما فخر الدين، الثامنة عشرة من عمره، في العام ١٥٩٠، حتى ولاّه إمارة أبيه(٢)، فأصبح فخر الدين المعني الثاني الكبير، أميراً للدروز، أو أمير الشوف، أو أمير آل معن.

حياته السياسيّة:

تتضمّن حياة الأمير السياسيّة ثلاث نقاط رئيسة هي: أوّلاً: سيرته في الحكم، ثانياً طموحه السياسي، وثالثاً: تحالفاته العسكريّة المرتبطة بطموحه السياسي ارتباطاً وثيقاً.

أوّلاً: سيرته في الحكم:

تسلّم فخر الدين المعني الثاني، زمام الحكم في إمارة الشوف عام ١٥٩٠م، فوجد نفسه محاطاً بإمارات تضاهي إمارته قوّة وغنى، وبأمراء يضاهونه عزيمة وبأساً، بالإضافة إلى ما ورثه من خصومات محليّة وعداوات تمتدّ حدودها من تخوم بلاده إلى عاصمة السلطنة بالآستانة، مروراً بعاصمة الولاية التي تظلّل، رسمياً، إمارته، وهي دمشق، فكان عليه أن يرسم، في حكمه، خطّ سير بارع وفذ، يوازن فيه بين إمكاناته وطموحه، فيداهن الخصم القوي ويرهب الخصم الضعيف ويمدّ يده للحليف القريب والبعيد، ولا يتوانى عن استعمال أيّة وسيلة ممكنة لتحقيق أهدافه وغاياته، كان عليه أن يفعل كلّ هذا، منطلقاً في سعيه من إمكانات لا تذكر بعد الضربة القاصمة التي تلقّتها إمارته في عهد والده إثر حادث «جون عكار»، ولكن كان لديه من الذكاء والعزيمة، وصواب الرأي ما يسمح له بأن يأمل بتنمية إمكاناته وتحقيق

طموحه، وقد استطاع فعلاً أن ينمّي إمكاناتــه في كلّ مجال، إلاّ أنه لم يستطع، ولأسباب عديدة، أن يحقّق طموحه، السياسي خصوصاً، كما سنرى فيما بعد.

كان فخر الدين يتطلّع إلى طرابلس في الشمال فيجد خصماً عنيداً قويّ الشكيمة والعزيمة هو يوسف باشا سيفا صاحب طرابلس، ويتطلّع إلى البقاع في الشرق فيجد منصور بن الفريخ يمنعه وبقوّة من حكم البقاع، ويتطلّع إلى أبعد من البقاع في الشرق فيجد والياً يكنّ له الحقد والضغينة، ويتطلّع إلى الجنوب فيجد أمراء من العرب على رأسهم إبن الفريخ - صاحب البقاع نفسه - يقفون سدّاً منيعاً في وجه طموحه الجنوبي، أمّا في الاستانة، فكان له محبّون كما كان له مبغضون، ولكن، كان يمكن أن يسوّي كلّ شيء بالمال، في الاستانة، وفي قصر السلطنة بالذات، أو هكذا كان الأمير يعتقد، فكان عليه إذن، أمام كلّ هؤلاء، أن يعمد إلى تجميع قواه وتعزيز قوّاته، ورصّ الصفوف حول حكمه، والإكثار من محازبيه ومؤيّديه، في الداخل، أمّا في الخارج فكان همّه اكتساب الأنصار والحلفاء سواء بالمال أو المصاهرة أو بالعون العسكري أو بهذه الوسائل جميعها، وكان يتعامل مع الأعداء إمّا بمهادنتهم أو بمقاتلتهم، إلاّ أنّ القتال كان أسلوبه المفضّل في التعامل مع هؤلاء، وقد أتقن فخر الدين هذه الأساليب كلّها ومارسها بجرأة وبذكاء فذ، منذ بدء حكمه إلى انتهاء هذا الحكم بنهاية فخر الدين المؤلمة في الآستانة عام ١٦٣٥.

عمد فخر الدين أوّل أمره إلى تقوية حكمه في الداخل فباشر بإنشاء جيش قوي ومنظّم، ثم مدّ يده للتعاون مع خصومه من الحزب اليمني فصاهرهم بزواجه من ابنة الأمير جمال الدين الأرسلاني اليمني شقيقة الأمير محمّد الأرسلاني ووالدة الأمير علي بن فخر الدين[٤]، وتطلّع إلى خارج حدوده بإنجاز محالفات تمكّنه من تحقيق طموحه فحالف الأمراء الشهابيّين في وادي التيم

وصاهرهم وحالف الحرفوشيّين حكّام بعلبك والعسّافيّين حكّام كسروان، والجنبلاطيّين حكّام حلب، كما حالف بعض أمراء العرب، ورأى من الضرورة مهادنة السيفي، باشا طرابلس عدوّه اللدود، وحليف ابن الفريخ، فهادنه.

وبعد أن اطمأنّ إلى كلّ ذلك، وبدأ يطمئنّ إلى قوّته العسكريّة، عزم على منازلة خصومه بكلّ وسائل النزال، وكان أقربهم إليه منالاً وأشدّهم خطراً عليه بحكم الإحاطة بتخومه من الجنوب والشرق، منصور بن الفريخ حاكم نابلس (وصفد وعجلون) والبقاع، وكان على قدر من القوّة والدهاء، مما يجعل رجلاً حديثاً في السن والسلطة والسياسة مثل فخر الدين يفكّر كثيراً قبل أن يقرّر منازلته وجهاً لوجه، خصوصاً أنّ لابن الفريخ حليفاً قويّاً، هو ابن سيفا، يمكنه أن يجمع نحو اثني عشر ألف مقاتل «من حملة البنادق المدرّبين على صنوف القتال» حسب شهادة قنصل البندقيّة في حلب يومذاك[٥]. لذا عمد فخر الدين إلى التآمر على ابن الفريخ بأن أغرى والي الشام مراد باشا بقتله ففعل لقاء عطاء جزيل من قِبل الأمير، عام ١٥٩٣م، ثم حمل على ابنه الأمير قرقماز، وكان يقطن بلدة (بوارش) في البقاع فلم يمكّنه هذا الأخير من نفسه، إلاّ أنّ فخر الدين تمكّن من القضاء عليه بمؤامرة دبّرها مع الأمير موسى بن الحرفوش حاكم بعلبك، فقتل قرقماز على يد هذا الأخير عام ١٥٩٤م[٦]، وهكذا تمكّن فخر الدين من القضاء على واحد من أقدر خصومه وأقواهم واستولى بعد ذلك، وفي العام نفسه، على البقاع فحكمها بدلاً من ابن الفريخ، بينما ظلّ الأمير موسى الحرفوش حاكم بعلبك، موالياً له.

وفي العام نفسه (١٥٩٤) تمكّن فخر الدين من الإستيلاء، بواسطة مراد باشا نفسه، على صيدا فجعلها عاصمة لإمارته، حيث نمت في عهده وازدهرت[٧]. وما أن استقرّ الحكم لفخر الدين في صيدا والبقاع، وتمكّن من القضاء على أوّل خصومه ابن الفريج، حتى اتجه نحو خصمه الأقوى والأشد،

يوسف باشا سيفا والي طرابلس، الذي كان قد تمكّن من الإستيلاء على كسروان وبيروت، وأصبحت حدوده متاخمة لحدود فخر الدين، بعد أن قضى غيلة على الأمير محمّد العساف في عام ١٥٩٠ وتزوّج من إمرأته، فآلت إليه إمارة العسافيّين، حلفاء فخر الدين، وأملاكهم.

وكانت أولى معارك فخر الدين مع ابن سيفا عام ١٥٩٨، عند «نهر الكلب»، حيث وقعت الهزيمة على ابن سيفا، واستولى فخر الدين على كسروان وبيروت وحكمهما طوال عام كامل ثم أعادهما عام ١٥٩٩ إلى ابن سيفا بناء لطلب من شقيق زوجته الأمير محمّد الأرسلاني(٨)، إلاّ أنه عاد فاستردّ كسروان والفتوح من ابن سيفا بعد معركة عنيفة جرت بينهما في «جونيه» عام ١٦٠٥(٩)، وكان قد حصل على سنجقية صفد قاعدة الجليل عام ١٦٠٢(١٠).

وفي عام ١٦٠٧ كان مراد باشا والي الشام سابقاً قد أصبح صدراً أعظم، وتولّى نيابة الشام بدلاً عنه أحمد حافظ باشا الذي كان يضمر الحقد والعداء لفخر الدين، وكان علي باشا جنبلاط والي حلب قد خرج على طاعة السلطان، فأمر حافظ باشا يوسف باشا سيفا بالخروج مع عسكر الشام لمقاتلة الجنبلاطي، واستنجد الجنبلاطي بحليفه المعني، وجرت بين الفريقين، في مكان يُقال له «عراد» قرب حماه، وقعة انتهت بهزيمة والي الشام وحليفه ابن سيفا الذي فرّ من ساحة المعركة، فلحق به فخر الدين كي يمنعه من دخول طرابلس، فهرب بحراً إلى الجنوب حيث استجار بالأمير أحمد بن طربيه الذي أجاره ثم أرسله إلى دمشق، ولحق به علي باشا جنبلاط والأمير فخر الدين وحاصراه في دمشق إلى أن افتدى نفسه لدى الجنبلاطي بماية ألف قرش، وعاد كلّ من علي باشا جنبلاط والأمير فخر الدين إلى بلاده، وكان ذلك آخر لقاء بين الحليفين، إذ هاجم مراد باشا الصدر الأعظم حلب، بعد هذه الحادثة، بمائتي ألف مقاتل، ومعه أحمد حافظ باشا والي دمشق ويوسف باشا سيفا والي

طرابلس، وحاول علي باشا جنبلاط المقاومة إلاّ أنه لم يتمكّن، فأدخل عياله ورجاله وماله إلى القلعة، وولّى على المدينة والياً نيابة عنه، ثم انطلق إلى شاه العجم يطلب النجدة منه، ولكن حلب لم تلبث أن سقطت بأيدي الجيش المهاجم وبيعت عيال علي باشا بسوق الدلالة كما بيعت أمّه بثلاثين غرشاً. أما فخر الدين، فعندما رأى ما حدث لحليفه أرسل إبنه علياً يستعطف مراد باشا صديقه القديم، ومعه ثلاثون ألف قرش خدمة، فرضي الصدر الأعظم عنه، وأنعم عليه بسنجقية بيروت وصيدا وغزير(١١)، ولكنّ فرحة فخر الدين بهذه المصالحة لم تدم طويلاً، إذ توفّي صديقه مراد باشا عام ١٦١١ وتولّى الصدارة بدلاً منه نصوح باشا، فخسر الأمير بذلك سنده الأكبر في بلاط السلطان، وانطلق حافظ باشا، بصحبة أعداء الأمير، إلى الآستانة يشكون للصدر الأعظم سوء سلوك الأمير وتفاقم خطره(١٢) وضرورة الحدّ من طموحه وقوّته.

كان من عادة فخر الدين أن يبعث لكلّ والٍ أو صدرٍ أعظم يتولّى حديثاً شؤون الولاية في الشام أو الصدارة في الآستانة بهديّة تسمّى «خدمة» تليق بالمقام، شأنه في ذلك شأن باقي أصحاب الإمارات والإقطاعات في ذلك الزمن، وما أن تسلّم نصوح باشا الوزارة العظمى (أو الصدارة العظمى)، حتى أرسل فخر الدين إليه كتخداه (مدبّره الخاص) مصطفى ومعه الهديّة (خدمة الإستقبال) وهي كناية عن ٢٥ ألف قرش وعدد من الخيل وكميّة من المنسوجات، وكم كانت دهشة الأمير عندما عاد كتخداه من رحلته ليخبره أنّ الحال تغيّر بالنسبة إليه في بلاط السلطنة، وأنّ الوزير يطلب منه، إضافة إلى ذلك، تسليم قلعة بانياس وقلعة شقيف أرنون إلى والي الشام، ويبلغه أنه قطع عنه رواتب السكمان الذين كانوا بتصرّفه(١٣)، ففهم الأمير الحقيقة عندئذ، وبدأ يعدّ نفسه لصراع طويل مرير مع السلطنة.

وصارت الضغائن تتفاعل بين الأمير من جهة وبين الوالي والوزير من جهة أخرى، يغذّي هذه الضغائن باستمرار والي دمشق ومن حوله من خصوم الأمير، إذ بينما كان الوالي يعمد إلى الحدّ من سطوة الأمير وسلطته بضرب حلفائه (كالأمير علي الشهابي حاكم حاصبيا بوادي التيم والأمير يونس الحرفوشي حاكم بعلبك والأمير حمدان قانصوه حاكم سنجقية عجلون والشيخ عمر شيخ عرب المفارجة وأمير حوران، وكلّهم كانوا حلفاء للأمير)، كان الأمير يتصرّف بعكس تصرّف الوالي، فيدعم، بدون تردّد وإلى أقصى الحدود وبقوّة السلاح غالباً، حلفاءه، وهو يعي جيّداً ولا شك أنّ إضعاف قوّته يبدأ بقصّ أجنحته أي بالقضاء على حلفائه، من أمراء المقاطعات المحيطة به، إلى أن كانت الواقعة بين الأمير والوالي حافظ باشا في المزاريب بحوران عام ١٦١٣، فخاض جيش فخر الدين بقيادة ابنه الأمير علي، وقوامه ٣ آلاف مقاتل، معركة طاحنة ضد عسكر دمشق وحلفائه العربان، إنتهت بهزيمة عسكر دمشق ومن معه بعد ساعة واحدة من بدء المعركة، ثم دخل الأمير علي عين جالوت في بلاد عجلون ظافراً ومنها إلى بلاد البلقاء فإربد، أمّا عسكر الشام فقد ارتدّ إلى (بصرى) وأقام فيها، وأعاد الأمير علي الأمير حمدان إلى سنجقيته في عجلون، كما أعاد الشيخ عمر إلى حوران - وكان الوالي قد عزلهما من منصبيهما - وأرسل إلى والده فخر الدين يبلغه بذلك(١٤). إلاّ أنّ ذلك لم يكن نهاية الصراع الدامي بين الأمير والوالي، وخلفه السلطنة، بل كان بدايته، إذ أنه لما وصلت أنباء انتصار الأمير على عسكر الوالي، في حوران وعجلون، إلى الآستانة، أمر السلطان أحمد الأوّل بتجهيز جيش من خمسين ألف مقاتل بقيادة حافظ باشا والي دمشق للقضاء على الأمير المعني، فلما علم بعض حلفاء الأمير - ومنهم الأمير يونس الحرفوشي حاكم بعلبك والأمير علي الشهابي أمير وادي التيم - بقيام هذا الجيش لمحاربة حليفهم، إنحازوا إلى الوالي، وهكذا لم يبق إلى جانب فخر

الدين من حلفائه سوى القلّة من المخلصين، وبينما كان الوالي يتقدّم بجيشه نحو بيروت وكسروان فيعيدهما إلى سلطة يوسف باشا سيفا الخصم اللدود للأمير، ويستولي على الغرب والمتن والجرد ويولي عليها الشيخ مظفر العينداري أحد خصوم الأمير، ويرسل إلى كلّ من صيدا وصفد والياً من قبله ليتسلّماهما من أصحاب الأمير، ويرسل الأمير أحمد الشهابي إلى جسر المجامع ليقطع الطريق على الأمير ورجاله، بينما كان الوالي يحقّق بجيشه الكبير، كلّ هذه الإنتصارات، كان الأمير في حيرة من أمره أو في قلق كبير على مصيره ومصير إمارته، فعاد إلى مستشاره المفضّل أمه «الست نسب» والى مجلسه الإستشاري المكوّن من رجاله المقرّبين والمخلصين وهم «حضرة أخيه الأمير يونس والأمير منذر والأمير ناصر الدين من الشحار، وجميع مشايخ الأربع بلدان وغيرهم من الأباعد والأجانب»[١٥]، والحاج كيوان مستشاره الخاص، فناداهم لعقد اجتماع «على نهر الدامور» ليتداول معهم في الأمر «فرأى من الجميع قلّة تصلّب وكثرة تراخي، وكبرت عليهم الأمور من تزايد العدد وكثرة المدد من العساكر السايرة إليهم»[١٦]، وقرّ رأي الجميع على أن يغادر الأمير البلاد فترة من الزمن ريثما تهدأ الأحوال وتعود السلطنة فتمنحه الرضى، وكان الأمير قد باشر، منذ أن شعر بالخطر يداهمه، بتحصين قلاعه الثلاث (بانياس وأرنون وتيرون) وترميمها وتجهيزها بمختلف أنواع الأسلحة والمدافع وآلات الدفاع ضد الحصار، وتزويدها بكميّات من المؤن والذخائر تكفي لفترة طويلة (قيل ٥ سنوات).

وما أن اتخذ الأمير القرار برحيله عن البلاد حتى أوكل شؤون إمارته إلى ابنه الأمير علي، وسلّم قيادة الجيش إلى أخيه الأمير يونس، وسلّم أحد قادته حسين اليازجي قلعة بانياس وبإمرته ألف مقاتل، كما سلّم طويل حسين بلكباشي قلعة الشقيف (أرنون)[١٧] وبإمرته أربعماية مقاتل، ورصد لهاتين القلعتين مبلغ ماية ألف قرش كرواتب للجند (السكمان)، ووضع عياله في القلعتين ولم يحتفظ

من نسائه إلاّ بواحدة هي (خاصكيّة) المفضّلة لديه، وأوصى قادته بقوله: «إنني إذا قدّر الله علي ووقعت في أيدي رجال الدولة وقال لكم كبيرهم سلّموا لنا القلاع حتى نطلق لكم أميركم فلا تعتمدوا قوله، واحفظوا قلاعكم وشرفكم وناموسكم ودعوهم يفعلون ما يريدون بعد أن تقيموا ناموسكم ولا تسلموا قلاعكم»(١٨). وفي غرة شعبان سنة ١٠٢٢هـ. (أيلول ١٦١٣م.) سافر فخر الدين من أسكلة (ميناء) صيدا، في ثلاثة غلايين، أبحرت به نحو توسكانة(١٩).

وبالرغم من من رحيل فخر الدين بعيداً عن بلاده، لم تهدأ الأحوال في إمارة الشوف، وتابع الوالي حافظ باشا خطته في القضاء على هذه الإمارة، فجرت معارك في العام نفسه (١٦١٣) بينه وبين القوّات المعنيّة المتمركزة في قلعة شقيف أرنون، إذ حاصر جيش الوالي القلعة طوال شهرين كاملين دون أن يتمكّن من النيل منها، وبالرغم من صمود المحاصرين صموداً رائعاً وتمكّن الأمير يونس من إيصال النجدات إليهم، لم يكن من الممكن البقاء في القلعة أكثر، خصوصاً أنّ جنود الوالي كانوا قد أحاطوا بها من كلّ جانب بشكل مكثّف، وأخذوا يضيّقون على من بداخلها الخناق، عندها فاوض الأمير يونس الوالي على فك الحصار لقاء دفع مبلغ من المال (ماية ألف قرش)، ورضي الوالي بذلك وقفل راجعاً إلى دمشق آخذاً معه الست نسب رهينة عن المال المطلوب(٢٠).

إلاّ أنّ القتال عاد فتجدّد بين الوالي والمعنيّين في الباروك في العام ١٦١٤، وكان الشهابيّون في هذه المعركة يقاتلون في الجانبين، فالأمير أحمد الشهابي يقاتل إلى جانب الوالي، والأمير علي الشهابي إلى جانب المعنيّين، ولم يتمكّن الوالي، في هذه المعركة، من كسر شوكة المعنيّين الذين ألحقوا بجيشه وحلفائه هزيمة نكراء، مما حدا بالوالي لأن يدفع بجيشه من جديد في معارك أخرى ضد المعنيّين، فقاتلهم في مرج بسرى، في العام نفسه (١٦١٤) في معركتين هزم في

أولاهما وانتصر في الثانية، واحتلّ دير القمر وباقي قرى الشوف ثم نهبها وأحرق قسماً منها وقفل راجعاً إلى دمشق(٢١).

وفي هذا العام (١٦١٤) عزل حافظ باشا عن ولاية دمشق وعيّن مكانه والٍ آخر هو جركس باشا، فتغيّر الحال بالنسبة إلى آل معن، وطلب الأمير يونس من أهل الشوف أن يعودوا إلى ديارهم، وعيّنت السلطنة والياً على البلاد التي كانت سابقاً بيد آل معن وهي صيدا وصفد وبيروت وغزير، فاتخذ صفد مركزاً له(٢٢)، واقتصرت إمارة آل معن على الشوف فقط، وهدأت الأحوال نسبياً، لولا تجدّد المعارك بين المعنيّين وأخصامهم القدامى آل سيفا، فجرت معارك بين الفريقين في الناعمة (عام ١٦١٦) إنتصر فيها المعنيّون بقيادة الأمير علي بن فخر الدين، مما شجّع هذا الأخير على متابعة القتال ضد ال سيفا، فدخل بيروت وصيدا وصور وصفد وبلاد بشارة وكسروان والغرب والجرد والمتن، وأعاد هذه البلاد من جديد إلى إمارته، كما كانت في عهد أبيه، ووزّعها مقاطعات على الأمراء والمقدمين حلفائه والمقرّبين منه، وقد آلت إليه هذه البلاد برضى السلطنة على أن يؤدّي للدولة الأموال المتوجّبة عليه من جرّاء تولّيه عليها(٢٣).

وفي عام ١٦١٨(٢٤) عاد فخر الدين إلى البلاد فاستقبل بحفاوة متناهية واستقبله «جميع مشايخ بلاد صفد وبشارة والشقيف وبلاد صيدا وحضروا إلى عكا وقبّلوا أياديه»(٢٥)، ولكن عودة الأمير إلى البلاد لم تكن تعني إطلاقاً عودة الإستقرار والهدوء إلى ربوعها، فالخصوم لا يزالون كثراً وعلى مواقفهم وفي مواقعهم، وقد زادتهم عودة الأمير حقداً وضغينة، وخصوصاً خصمه التقليدي يوسف سيفا باشا طرابلس، الذي كان قد أسهم في المعارك ضد المعنيّين إلى جانب حافظ باشا والي دمشق في أثناء غياب الأمير، حتى أنه لم يتورع عن الإسهام في تهديم دير القمر وحرق دار الأمير فيها عندما احتلّها حافظ باشا

عام ١٦١٣، وقد حفظ الأمير ذلك وتوعّد سيفا بالإنتقام إذ أرسل إليه يقول: «وحق طيبة وزمزم والنبي المختار، ما بعمّر الدير إلاّ من حجر عكار»[٢٦].

وحانت ساعة الإنتقام إثر عودة الأمير مباشرة في العام نفسه (١٦١٨)، إذ اغتنم أوّل فرصة لينقضّ على ابن سيفا في عكار ويحاصره في قلعة الحصن حصاراً شديداً، حتى اضطرّ ابن سيفا لأن يطلب الصلح من المعني على الشروط التي يرتئيها، فطلب منه الأمير ٣٠٠ ألف قرش (٢٥ ألفاً وفاء لدين، و١٥٠ ألفاً عوض ما ضبطه من مواشي الأمير ومن محصول بيروت وغزير مدّة ثمانية أشهر، والباقي لوالي طرابلس عوض ما ضبطه عليه من أموال مقاطعات طرابلس)[٢٧]، وكان فخر الدين، في أثناء الحصار، قد عزم على الوفاء بقَسَمه، فعمد إلى هدم سرايا عكار ونقل حجارتها بحراً إلى بيروت ومنها إلى دير القمر، لبناء داره من تلك الحجارة كما أقسم، ثم عمد إلى هدم بيوت عكار ودور آل سيفا فيها، تماماً كما فعل آل سيفا بدور آل معن في دير القمر سابقاً، وكان الحصار قد امتدّ شهراً كاملاً، ولمّا لم يجد ابن سيفا مفرّاً من دفع المبلغ المطلوب أذعن وأرسله للأمير فأفرج عنه، وعاد الأمير بعسكره إلى طرابلس.

وتجدّد القتال بين الأمير وابن سيفا عام ١٦٢٠، فحاصر الأمير طرابلس وقلعتها ودارت معارك عنيفة بين الطرفين، وقد استعمل الأمير في هذا القتال مراكب لتنفيذ حصار بحري ضد المدينة، كما استعمل يوسف باشا المدفعيّة لضرب قوّات الأمير وإيوانه، ولم يتوقّف القتال والحصار إلاّ بعد تدخّلٍ مباشرٍ من الباب العالي الذي أمر بوقف القتال ورفع الحصار عن المدينة[٢٨].

وما كاد القتال يتوقّف على الجبهة الشماليّة حتى استعر على الجبهة الجنوبيّة، ففي عام ١٦٢٢ وقع قتال عنيف بين الأمير علي الشهابي ومن معه من السكمان والصفدية والمتاولة من جهة، وبين الأمير بشير قانصوه أمير سنجق عجلون وأنصاره من جهة أخرى، وذلك بسبب سنجقية عجلون التي أخذت من

الأمير بشير قانصوه وأعطيت للأمير حسين بن فخر الدين، وقد انتهت هذه المعركة بهزيمة بشير قانصوه وخروجه من عجلون، إلاّ أنه عاد إليها من جديد بأمر من الوالي، وقد أعيد إليها بوساطة من الأمير يونس الحرفوش الذي أعطي سنجقية صفد بالإضافة إلى بلاد بعلبك، وذلك بعد دفع زيادة «ألف ذهب» على الجزية المفروضة لكلّ سنجق(٢٩).

وفي العام نفسه (١٦٢٢) حمل فخر الدين على الأمير أحمد بن طرباي لانحيازه إلى جانب خصمه بشير قانصوه أثناء قتاله معه، وكان ابن طرباي على سنجق جنين، فتحالف مع الأمير بشير قانصوه ضد فخر الدين، ودارت بين الفريقين معركة عند نهر العوجا تظاهر خلالها ابن طرباي بالهزيمة، فتبعه فخر الدين مطارداً، عندها ارتدّ ابن طرباي برجاله على جند فخر الدين وسكمانه فألحق بهم هزيمة نكراء «وليس هذا مما يعيب الأمير فخر الدين، لأنّ الحرب سجال تارة وتارة، والرجال في الحرب لم تزل غدارة»(٣٠). ولم ينس الأمير فخر الدين للأمير يونس الحرفوش فعلته، فارتدّ عليه وهاجمه في قب الياس وفي الكرك، ففرّ الأمير يونس من وجهه، ودخل فخر الدين الكرك ففتّشها وقبض على رجالها ثم أحرقها، ودخل سرعين مقر الحرافشة فنهبها وأحرقها، وكذلك فعل بمعظم قرى البقاع الشرقي التابعة للأمير الحرفوشي(٣١).

ويظهر أنه مغالاة الأمير في حروبه شمالاً وجنوباً، خصوصاً بعد عودته من توسكانة، مما يدلّ على أنّ شيئاً فيه لم يتغيّر، وأنه لا يزال مصرّاً على تحقيق طموحه ورغباته في التوسّع والسيطرة، يظهر أنّ كلّ ذلك دفع بالسلطنة إلى التفكير جدياً في أمره وفي وضع حدّ نهائي له، فكانت معركة عنجر الشهيرة بينه وبين مصطفى باشا والي الشام عام ١٦٢٣ والتي انتهت بهزيمة الوالي هزيمة مخزية، وبأسره ثم إطلاق سراحه من قبل الأمير تلطّفاً(٣٢).

لم يكن الأمير بحاجة إلى إحراز نصر كعنجر يزيد طموحه تأجّجاً ونجمه تألّقاً، فكيف إذا ما اقترن كلّ ذلك بنصر عنجر الباهر، إذ ما انتهى الأمير من عنجر حتى انطلق إلى بعلبك، وكان قد تمركز جند الأمير يونس الحرفوشي بداخل قلعتها، فحاصرها حتى استسلم الجند ونزل قادتهم إلى الأمير طالبين الصفح والرضى، فصفح عنهم وأمر بهدم القلعة.

والجدير بالذكر أن الأمير المعني استخدم أسلوباً فريداً في حصاره لقلعة بعلبك، فقد وزّع جنده في الخيام وفي الأماكن العامرة حول القلعة، وأخذ يقيم حولها المتاريس والأسوار والجسور، ثم أخذ يأتي بصناديق فارغة فيملأها تراباً ويطمر بها الخنادق وينتقل عليها، حتى وصل إلى حائط القلعة، فأمر بنقبه وهو لا يفارق المحاصرين أبداً. وظلّ على هذه الحال مدّة شهر كامل رضخ بعده جند ابن حرفوش لمطالب المعني(٣٣).

وارتدّ الأمير بعد ذلك إلى الجنوب لقتال بشير قانصوه والشيخ رشيد النازلين في صحراء عجلون، وكان لا يزال منتشياً بانتصارات عنجر وبعلبك وطرابلس، ولكن حظّه هذه المرّة في فلسطين كان كحظّه في المرّة السابقة، إذ اجتمعت عليه قبائل العرب جميعاً فهزمته وشرّدت فرسانه، ولكنه تمكّن بعدها من الإنسحاب بجيشه إلى صيدا، ثم حسم الأمر بين الفريقين باتفاق وبلا قتال(٣٤).

وفي العام ١٦٢٤ توفّي يوسف باشا سيفا التركماني، أوّل باشا لطرابلس في العهد العثماني، وفي العام نفسه سلّم بنو سيفا فخر الدين قلعتي الحصن والمرقب(٣٥)، بالإضافة إلى طرابلس، وفي هذا العام أيضاً «تعهّد الأمير للدولة بدفع مايتي ألف ذهب، فأنعم عليه السلطان بولايات عربستان من حدود حلب إلى حدود القدس ولقّبه بسلطان البر»(٣٦).

ولكن ذلك لم يمنع من تجدّد القتال بين الأمير والدولة عام ١٦٣٣. ذلك القتال الذي انتهى بنهاية الأمير نفسه، أسيراً في الآستانة، ثم قتيلاً فيها في ١٣ نيسان ١٦٣٥(٣٧).

ذلك أنّ الأمير كان قد عظم شأنه حتى بلغ مرتبة قيل فيها إنه لم يبق بعدها إلاّ أن يدّعي السلطنة(٣٨)، مما حمل الدولة على أن تفكّر جدياً هذه المرّة بالخلاص منه، فأوكلت أمره إلى واليها في دمشق الكجك أحمد باشا، وجهّزته بجيش لجب مع أسطول بحري كبير، وجهّز الأمير لمقابلته جيشاً قدّر عدده بـ ٢٦ ألف مقاتل بالإضافة إلى بعض الحلفاء والأنصار، وبدأت المعارك في وادي التيم (عرنا وحاصبيا ومرجعيون والخان الجديد، أي سوق الخان حالياً)، وكان من نتيجتها مقتل الأمير علي بن فخر الدين، مما أضعف من عزيمة الأمير وأوهن إرادة الصمود عنده، مضافاً إلى ذلك تخلّي معظم حلفائه عنه، كذلك عدم نجدة حلفائه التوسكانيّين له رغم نداءاته المتكرّرة لهم، فلجأ وأفراد عائلته إلى قلعة شقيف تيرون وتحصّن بها، إلاّ أنّ الكجك أحمد هاجمها واستولى عليها، ففرّ فخر الدين منها إلى مغارة جزين، فحاصرها الكجك أيضاً وتمكّن من أسر الأمير وأولاده الثلاثة حيدر ومنصور وبلك، وساقهم جميعاً إلى دمشق ومنها إلى الآستانة ليلقوا حتفهم فيها(٣٩).

ربما يخيّل للقارىء أنّ الأمير كان مجرّد مغامر عسكري يصحّ فيه قول الشاعر العربي: «نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا»، ولكنه، في الحقيقة، كان بعكس ذلك تماماً، فقد كان رجل دولة من الطراز الرفيع، بالإضافة إلى خياله الواسع في إدارة شؤون الدولة وطموحه الكبير في بنائها على أسس عصريّة وحديثة، ولذا نال كلّ هذه الشهرة الواسعة في أوروبا وآسيا معاً(٤٠).

لقد كان فخر الدين يطمع إلى إنشاء دولة سليمة مكتملة البيان، لذا، كان، إلى جانب سعيه لتحقيق أحلامه التوسّعية، يسعى إلى تحقيق هذه الأسس لإنشاء

الدولة في إمارته الصغيرة، وباقي المقاطعات التي تمكّن من الإستيلاء عليها، فبالإضافة إلى سعيه لإنشاء جيش مقاتل وقوي، وتأمين التحالفات له في الداخل والخارج، كان يحاول أن يطبّق الأسس السليمة الممكن اتباعها، في ذلك الزمن، في حقول الإدارة والقضاء والأمن والديمقراطيّة (في حدود معيّنة وضمن مفهوم ضيّق ومحدود) وديبلوماسيّة التعامل مع الطوائف وديبلوماسيّة التعامل مع الأجانب، كذلك في أعمال العمران والزراعة والصناعة والتجارة وجباية الأموال لتنمية موارد الخزينة(٤١). وفيما يلي شواهد على ذلك:

١ - **الإدارة**: لم يخرج فخر الدين، في إدارته لبلاده، عن مفهوم الإدارة الذي كان سائداً في النظام الإقطاعي في ذلك العهد، والذي سبق أن شرحناه في فصل سابق (الفصل الثاني من الباب الأوّل: الإطار الإجتماعي)، فكما كان الإقطاع هو أساس التركّز السياسي في المقاطعات اللبنانيّة، كذلك كان أساس التركّز الإداري في هذه المقاطعات، وكانت التقاليد المتبعة تحدّد صلاحية كلّ من الإقطاعي والمقاطعجي وواجباتهما، كذلك حقوق الإنسان المقتطع (بالطاء مفتوحة) أي الفلاّح في المقاطعة، وواجباته، وهكذا، فإنّ فخر الدين لم يخرج، في إدارته لإمارته وللمقاطعات التي كان يحتلّها، عن هذه التقاليد، فبالإضافة إلى أنه كان يوزّع أراضي إمارته على الفلاّحين لقاء بدل سنوي يتقاضاه أجراً لها(٤٢)، فإنه كان يُقطع الإقطاعات الأخرى أصحابها أو رجالاً من قبله، يديرونها ويدفعون ما يترتّب له عليهم من مال، ويبعثون إليه، في وقت الحرب، ما يفرضه عليهم من مقاتلين، أمّا ما تبقّى من أعمال الإدارة فهو عائد إليهم ومنوط بهم. وهكذا فإننا نرى الأمير فخر الدين يولّي الشيخ يوسف المسلماني(٤٣) حكم غزير عام ١٦٠٥ بعد وقعة جونيه، ويولّي الشيخ أبا نادر الخازن حكم بلاد جبيل، والمقدّم يوسف الشاعر حكم بلاد البترون عام ١٦١٨، والشيخ أبا صافي الخازن حكم جبة بشري عام ١٦٢١(٤٤)، كما نرى الأمير علي

بن فخر الدين عام ١٦١٦، وفي أثناء غياب والده بتوسكانة، يوزّع المقاطعات على الأمراء التابعين له، فيولّي عمّه الأمير يونس حكم مقاطعة الشوف وبلاد بشارة ومقاطعة كسروان، ويولّي الأمير منذر التنوخي بيروت، والأمير ناصر الدين التنوخي مقاطعتي الغرب والجرد، ومقدمي كفرسلوان اللمعيين المتن، والأمير علي الشهابي ولاية مرجعيون والحولة، وحسين اليازجي بلاد صفد وبلاد الشقيف، ويبقي طويل حسين بلكباشي على ولاية صيدا(٤٥)، كما ولّى الأمير يونس من قبله الشيخ أبا نادر الخازن حكم بلاد كسروان(٤٦).

٢ - **القضاء**: وكما في الإدارة كذلك في القضاء، إذ يخضع القضاء في الإمارة لناموس الإقطاع وشرائعه التي تحدّد صلاحيات الأمير الإقطاعي والمقاطعجي في هذا المجال(٤٧)، فكان يعود للأمير وحده حق الحكم بالكبائر والجرائم التي تستوجب الإعدام أو بتر أحد الأعضاء (قطع اليد مثلاً)، وكذلك في الدعاوى المالية والمدنية الكبرى، ويعود لحكّام المقاطعات حق الحكم بباقي الجرائم أو الدعاوى التي تقلّ أهميّة عن التي ذكرنا، حيث يكون الأمير في هذه الحالة بمثابة الحاكم الأعلى أو (قاضي التمييز أو الإستئناف)، وهو يتولّى حلّ الخلافات التي تحصل بين حكّام الإقطاعات التابعة له، أو بين المقاطعجي وفلاّحي أقطاعته، أو بين فلاّحي إقطاعة من إقطاعاته فيما بينهم إذا صعب على المقاطعجي حلّ الخلاف(٤٨). أمّا الدعاوى الدينيّة ودعاوى الأحوال الشخصيّة فقد ترك الأمير حلّها على عاتق رؤساء الطوائف(٤٩)، وكان للأمير صلاحيات رئيس الدولة فيما يختصّ بعقد المعاهدات وتوقيعها سواء مع الحكّام المجاورين أو مع دول أجنبيّة، كما كان له حق إعلان الحرب والتعبئة، شرط أن لا يمسّ ذلك أمن السلطنة وسلامتها.

وقد طبّق فخر الدين هذه الصلاحيات جميعها، سواء بتولّي الأحكام القضائيّة وبعقد المعاهدات (مع توسكانة مثلاً) أم بإعلان الحرب والتعبئة،

ولكن يؤخذ عليه، في هذا المجال، سوء إستعمال سلطته في كثير من الأحوال، ويكفي أن نذكر طريقة حكمه على مستشاره الخاص ورفيق عمره، الحاج كيوان، بالموت وطريقة تنفيذ الحكم، لنعلم مدى تجاوزه في استعمال هذه السلطة(٥٠)، كما يؤخذ عليه مغالاته أحياناً في لفظ أحكام قاسية لا تتناسب إطلاقاً مع الجريمة المرتكبة، فقد روى الأب أوجين روجيه(٥١) أنّ صوباشياً من صيدا اقتحم خان الفرنج (أو خان الفرنسيّين) وقبض على مسيحي فرنسي مذنب لجأ إليها، فجمع الأمير الصوباشيين وأنّبه أمامهم على فعلته، وقطع رأسه بيده ليعتبروا، ثم قال لابن ذلك الصوباشي الذي كان ماثلاً بين يديه: «ضع أباك في المقبرة وكن أكثر طاعة منه».

٣ - **الأمن**: شهد كثير من الرحّالة الأوروبيّين، الذين أمّوا بلاد الشام في النصف الأوّل من القرن السابع عشر، على أنّ بلاد الأمير فخر الدين كانت أكثرها أمناً واطمئناناً، وذلك لما كان للأمير من سطوة وهيبة، ولما كان قد اتخذه من تدابير أمنية جادة وحازمة. يصف «سانتي» في تقريره نظرة شعب الأمير إليه من هذه الناحية فيقول: «يعتبرونه ويخافونه، لأنه يعاقب، بصرامة وبأحكام عسكرية، الجرائم والمخالفات التي يرتكبونها»(٥٢)، ويذكر «ساندس» في رحلته التي قام بها إلى بلاد الشام عام ١٦١٠، «ان التجار، وأغلبهم من الإنكليز، كانوا يحظون بقدر كبير من الحرية، وكان بإمكانهم أن يحملوا المال معهم دون خطر»(٥٣) ويرجع الفضل في ذلك إلى حزم الأمير وعينه الساهرة، فقد كان يقمع المخالفات بصرامة وشدّة، ويبثّ عيونه وأرصاده في كلّ مكان، بحيث يشعر الشعب كلّه أنه مراقب منه في أيّ وقت. ويحدّثنا «الخالدي»، معاصر الأمير ومؤرّخه، في فاتحة كتابه، عن بلده «صفد» كيف «درست بعواصف المحن معالمها، وعفت برياح الإحَن مراسمها، لما اعتلاها من ظلام الظلم والجور» إلى أن منّ الله عليها بالأمير فخر الدين «فأمنت به الطرقات، ونجت به النفوس من

الهلكات، وانقطعت بها آثار اللصوص الذين كانوا ينصبون لأذى المسلمين الشصوص، وعمرت البلاد، ورجع كلّ من كان نزح منها من العباد، وساد العدل في الرعية، ورضيت بأقواله وأفعاله البرية، وأتى كلّ غريب إلى وطنه، ومسقط رأسه، ومحلّ سكنه، لما نزل منه على تلك الأراضي من العدل والإنصاف، وزال بسببه هشيم الجور والاعتساف»(٥٤)، ويضرب مثلاً على حزم الأمير في مجال الأمن فيروي أنه في العام ١٦١٢ كان الأمير قد نزل برجاله عند قلعة الشقيف للاستراحة «فجاء إليه أناس واشتكوا من أولاد مشايخ القرية الكوثريّة بأنّ جماعتهم شلّحوا أناساً وشرعوا يخربون في البلاد ويشوّشون على الرعية، فركب عليهم بخيله ورَجله فما وجدهم بالقرية... فنهب جميع أرزاقهم التي وجدت لهم في بلدهم قرية الكوثرية المذكورة وأخذ ما لكلّ واحد منهم من الدواب وغيرها ليتأدّب غيرهم وعاد إلى خيامه تحت قلعة الشقيف»(٥٥). بالإضافة إلى ذلك، فقد أكثر الأمير في بناء الأبراج والخانات المحصّنة والمخفورة بالجند، نثرها على الطرق والمسالك الخطرة وغير المنظورة تأميناً للمارة، وزوّدها بالماء والزاد ووسائل الإسعاف والدفاع، مثل خان قاع الهرمل وخان جسر المجامع وقلعة تدمر بسوريا وبرج الهريج في فلسطين، بالإضافة إلى القلاع المنتشرة في أماكن مختلفة من إمارته، والتي رمّمها وحصّنها وزوّدها بالرجال والسلاح (الصبيبة وشقيف تيرون وشقيف أرنون وبانياس، وسواها)، وقد زادت على الأربعين قلعة. وقد عيّن الأمير «بلوكباشية» خاصة لحفظ الطرقات ووزّعها على الخانات والأبراج باعتبارها «مربطاً للصوص والخاينين»(٥٦).

٤ - **الديموقراطية**: في حدود معيّنة وضمن مفهوم ضيّق ومحدود ينحصر باعتماد أسلوب الشورى في بعض الظروف المصيريّة والخطيرة، وكان مجلس شوراه يؤلّف عادة (بالإضافة إلى أمّه «الست نسب» التي كانت معينه الأوّل وصاحبة الفضل الأكبر في نجاحه نظراً لما اشتهرت به من حكمة ورجاحة

عقل) من مجموعة الأعيان في البلاد الذين كان يختارهم لمعاونته، مستنداً في اختياره لهم على الكفاءة والفعالية وصوابية الرأي دون النظر إلى الأصل أو الطائفة أو المذهب، وكان، في الشؤون الخطيرة، وخصوصاً في حالة الحرب، لا يأخذ قراراً دون الرجوع إليهم والإتفاق معهم[٥٧]. - كحالة انعقاد المجلس المذكور عند نهر الدامور عام ١٦١٣ لإقرار رحيل الأمير إلى توسكانة - ويرى توفيق توما في المجلس الإستشاري هذا نوعاً من «المكتب أو المجلس التنفيذي أو الديوان، يؤلفه رهط من المعاونين المجربين، يحقّقون للأمير سياسته، ويؤمّنون له حسن سير العمل في شؤون الإمارة»[٥٨].

ويضيف «لورتي حاجي» (Laorty - Hadji) أنّ الأمير لم يكن حراً في أخذ القرار منفرداً بالشؤون الضريبية، بالإضافة إلى شؤون السلم والحرب، وإنما كان عليه أن يرجع في ذلك إلى أعيان البلاد[٥٩]، وقد عرف من أعضاء هذا المجلس (عام ١٦١٣): أخوه الأمير يونس، وأمراء الغرب والشحار التنوخيّون، والخازنيون أصحاب كسروان، والحاج كيوان مدبّره الخاص، ومشايخ المقاطعات الأربع، وغيرهم[٦٠].

وربّ سائل: كيف كان للأمير أن يقرّر شؤون الحرب والسلم والشؤون الضريبيّة في إمارته دون الرجوع إلى الولاية أو السلطنة صاحبة السلطة، أساساً، في البلاد؟ والجواب على ذلك هو أنه لم يكن يهمّ السلطنة، في المقاطعات الواقعة ضمن سيطرتها، والبعيدة عن عاصمتها، سوى جباية ما تفرضه على هذه المقاطعات من ضرائب، وتترك، بالمقابل، لأمرائها والمسؤولين عنها حرية إدارتها والتصرّف بها. بالإضافة إلى ذلك، كان لفخر الدين إمتياز خاص في إمارته، فهو في الشوف صاحب «حكم تقليدي موروث، مستقل تمام الإستقلال عن الإلتزام الرسمي المرتبط بالدولة» وفي المناطق الدرزية الأخرى،

كان له، بالإضافة إلى الإلتزام، زعامة محلية خاصة، إكتسبها بنفوذه الشخصي، وفي كسروان، كان له تبعية تلقائية بين الموارنة الذين فقدوا زعامة آل عساف عام ١٥٩١، فسدّ فخر الدين هذا الفراغ بانتصاره الكاسح على ابن سيفا، وبخلق زعامة جديدة لهم من آل الخازن، وقد امتدّت هذه التبعية لفخر الدين إلى موارنة جبيل والبترون وجبة بشري، أمّا خارج هذه المناطق، فكان الأمير مجرّد ملتزم لجباية الضرائب فقط، وكانت سيطرته عليها «مجرّد التزام الدولة تدعمه قوة الأمير العسكريّة»(٦١).

٥ - **ديبلوماسية التعامل مع الطوائف**: عرف عهد فخر الدين بعهد «التسامح الديني» في زمن اعتبر التسامح الديني منكراً من المنكرات، وفي دولة نعتت غير المسلم فيها بالذمي فحرمته من حقوق وامتيازات، وحمّلته رزايا وتبعات هي في أساس ما نشهده اليوم، عندنا، من تعصّب ديني وحقد طائفي هما، ولا شك، من رصيد القرون الأربعة المظلمة (١٥١٦ - ١٩١٦) للحكم العثماني في بلاد الشام.

ورغم أنّ إسلام فخر الدين أمر لا جدال فيه ولا لبس(٦٢)، فقد كان في مرتبة من التسامح الديني جعلت الكثير من معاصريه ومؤرّخيه العرب والأجانب يدّعون تنصّره، مستندين في ادعائهم هذا إلى تسامحه الديني، ليس أكثر.

ومهما يكن من أمر، فقد أسهب المؤرّخون والرحّالة الأجانب، الذين عاصروه والذين أتوا بعده، في ذكر تسامحه الديني، وفي امتداح هذا التسامح، وسواء كان ذلك منه، لسياسة (بسبب عدائه المستحكم مع الباب العالي) أو لمزية، فقد اتفق المؤرّخون أنّ ذلك قد أعطى إمارته صبغة لم تكن لباقي الإمارات في عصره، فكانت هي مميّزةً في هذه الصفة بين الإمارات، وكان هو، بفضلها، نسيج وحده بين الأمراء.

وعلى الصعيد العملي، مارس فخر الدين التسامح الديني ممارسة فعالة، فقد رأيناه، في حقل الإدارة، يولّي آل الخازن على كسروان، وفي حقل الجيش، يوليهم قيادات عسكرية مختلفة، وفي حقل القضاء، يعطي رؤساء الطوائف حق البت بالدعاوى الدينيّة ودعاوى الأحوال الشخصية، ويقول الأب أوجين روجيه في هذا المجال: «في مجال الإحترام الذي كان - الأمير - يحمله للمسيحيّين وللكنيسة الرومية، لم يكن يرغب في الإطلاع على شؤون الموارنة، تاركاً لبطريركهم أمر الإهتمام بها». وكذلك حق ممارسة الشعائر الدينيّة بحريّة تامة(٦٣).

وقد أصبح الذمي، في عهد فخر الدين، وخلافاً لما كانت عليه الحال في باقي أرجاء الإمبراطورية العثمانية، مساوياً في الحقوق والواجبات للمسلم أيّاً كان مذهبه، فهو، مثله، يقاتل دفاعاً عن الأرض والوطن، ويدفع الضريبة - بدل الجزية -. يقول المورّخ الدويهي في هذا المجال: «وفي أيام فخر الدين ارتفعت رؤوس النصارى وعمّروا الكنائس وركبوا الخيل بسروج ولفّوا شاشات بيضاء وكروراً ولبسوا طواهين وزنانير مسقطة وحملوا القسي والبنادق المجوهرة، وقدم المرسلون من الإفرنج وسكنوا الجبل، وكان أكثر عسكره من النصارى، و(أكثر) مدبّريه وخدمه موارنة»(٦٤).

وقد ساوى فخر الدين اليهود بالمسلمين والمسيحيّين في المعاملة وفي جميع الحقوق المدنية، فقد كانوا يقبضون في عهده على زمام التجارة في صفد، وكانوا في إمارته «أكثر جاهاً وأكبر ثروة من المسيحيّين»، كما جاء في تقرير بعثة سانتي عام ١٦١٤(٦٥).

٦ - **ديبلوماسيّة التعامل مع الأجانب**: لقد كان فخر الدين يتصرّف مع الأجانب، وخصوصاً، رؤساء الدول منهم، تصرّف رئيس دولة بالمعنى الصحيح، فهو «يقبل أوراق اعتماد» السفراء والقناصل، ويبادلهم الرسائل ويعقد معهم

المعاهدات العسكريّة والتجاريّة، وكان يتصرّف، في تعامله معهم، بمنتهى اللياقة والكياسة اللتين يتطلّبهما التعامل الذبلوماسيَ اليوم، فهو يخاطب الدوق البوكركي نائب الملك الإسباني في صقلّية بقوله: «قدوة الملّة المسيحيّة ونخبة العصابة العيسويّة، نخصّ بذلك الدوكة دبرجرجي الأمير الكبير موكلاً الباشة الحاكم على سيجيليه» ويختم رسالته بتوقيع «أمير فخر الدين»[٦٦]. ويخاطب غراندوق وغراندوقة توسكانة بما يلي: «إلى حضرة السيّد المعظّم سنيور غراندوقا وسنيورا مداما حفظهم الله تعالى»، ويختم رسالته بتوقيع «خادمكم فخر الدين معن»[٦٧]. أمّا توقيعه على رسائله إلى السلطان فكان كما يلي: «الفقير عبد السلطان الخاضع، إبن معن»[٦٨]. ويكتب إليه البابا بيوس الخامس مخاطباً: «إلى فخر الدين أمير الدروز ونيقوميدية وفلسطين وفينيقية. سلام أيها الرجل الشريف، وليحلّ عليك نور النعمة الإلهية»[٦٩]، ويكتب إليه الأباتي مانتشيني (Mancini) مخاطباً: «أيها السيّد المعظّم الأمير المشرف المفخم» والتوقيع (عبدكم الحقير أوراتسيومانتشيني»[٧٠]، ويكتب إليه الوزير علي باشا من بلاط السلطان مخاطباً: «رعايتلو حضرة الأمير إبن معن. بعد توجيه العبارات اللائقة بالمحبّة، فليعلم الأخ المحترم إبن معن ما يلي...»، ويكتب إليه أحمد باشا كتخدا الوزير علي باشا مخاطباً: «صاحب العزّة حضرة الأخ إبن معن» والتوقيع «محب مخلص، أحمد كتخدا الوزير علي باشا»[٧١]، ويكتب إليه فرديناند الأوّل غراندوق توسكانة مخاطباً: «أيّها السيّد الكلّي الشرف» والتوقيع «خادم سعادتك المحب»[٧٢].

ولقد تحدّث الرحّالة الأوروبيّون بإسهاب عن رحابة الصدر التي كانوا يلاقونها في مجلس الأمير، وعمّا كان يبمثه في نفوسهم من الإطمئنان والثقة، كما أنه منع التجّار الأجانب والإرساليّات الدينيّة الأجنبيّة، وبعثات الخبراء التي

كان يستقدمها من الخارج، من الحماية والإمتيازات ما لم يعرفها أمثالهم في بلد غير بلد الأمير.

٧ - **أعمال العمران:** لقد كان أهمّ ما ميّز عهد الأمير فخر الدين، خصوصاً بعد عودته من رحلته إلى توسكانة، هو الأعمال العمرانية التي أنشأها في مختلف أنحاء إمارته، مستعيناً على ذلك بخبراء من البنّائين والمهندسين الفرنسيّين والإيطاليّين[٧٣]، الأمر الذي منح أعماله هذه مسحةً من الفن لا تزال ظاهرة على أثاره العمرانيّة حتى اليوم، وأهمّ إنشاءاته العمرانية هي: بناء القلاع والحصون وترميم ما كان مبنياً منها، وبناء القصور والجسور والجوامع، وإنشاء الجنائن الفخمة، وصيانة شبكات الطرق التي تربط أجزاء الإمارة فيما بينها، وإقامة الخانات المسلّحة عليها حماية للمارة. ففي صيدا التي جعلها عاصمة لإمارته ومقرّاً له عام ١٥٩٤، بنى فخر الدين الفنادق والخانات لنزول التجار الأوروبيّين، بعد أن جعل منها مركزاً تجارياً مهماً، وأهمّها خان الإفرنج أو خان الفرنسيّين، وخان الرز، والحمام البراني، أو حمام المير، وبنى له مقرّاً بإزاء خان الإفرنج، كما بنى قصوراً أخرى عديدة محاطة بالجنائن والبساتين، ورمّم قلعة البحر وبنى بها مسجداً، كما بنى مسجداً آخر هو (جامع البراني)، ووسع مرفأ المدينة، وبنى شمال صيدا وجنوبها جسرين لا يزالان قائمين إلى اليوم، الأوّل على نهر القاسمية والثاني على نهر الأولي، وقد بناه المهندس الإيطالي فرنسيسكو شيولي (Cioli)[٧٤]. يذكر ماريتي[٧٥] أنّ المهندس الإيطالي المذكور قد بنى هذا الجسر بد أن وضع الأمير في أساسه قطعة نقود صكت في توسكانة في عهد حليفه قوزما الثاني، قائلاً أن ليس لديه ما يضعه في هذا الأساس أعزّ من ذلك. ويقول الشيخ أحمد عارف الزين[٧٦] «بقيت صيدا خراباً أو قرية صغيرة ما يقرب من ثلاثة قرون، من سنة ٧٢١هـ. = ١٣٢١م. حتى سنة ١٠٠٤هـ. = ١٥٩٥م، وفي هذه السنة، هبط فيها الأمير فخر الدين المعني فجدّد

بناءها وبنى الشارع الكبير الممتد من بوابة الفوقا إلى البوابة التحتا وخانات كثيرة وقصوراً فخمة»، ويؤكّد قوله هذا ما ذكره الأب أوجين روجيه عن صيدا بأنها «كانت شبه مقفرة فبنى فيها المعنيّون قصراً وسوّروها بأسوار، كما بنى فيها الأمير فخر الدين مكاناً حصيناً سمّاه خاناً فيه أربع وعشرون غرفة ومخازن كبرى، حيث يقطن التجار الأوروبيّون بأمان، وقد زخرت المدينة بالعرب واليونان واليهود الذين أمّوها بسبب الحركة التجارية فيها وبسبب ازدهارها، كذلك بسبب الحرية التي يجدونها في ممارسة شعائرهم الدينيّة»[٧٧]. وقد اهتمّ كثير من الرحّالة الأوروبيّين بأعمال العمران التي أنجزها فخر الدين في صيدا وأعجبوا بها، ومن أشهرهم الرحّالة (دارفيو D'Arvieux)[٧٨] الذي قام برحلته إلى بلاد الشام عام ١٦٥٨، والرحّالة (موندريل Maundrell)[٧٩] الذي قام برحلة مماثلة عام ١٦٩٧.

أمّا بيروت، التي جعلها الأمير فخر الدين عاصمة له بعد عودته من إيطاليا، فاتخذها مقرّاً له عام ١٦١٩، تاركاً صيدا لابنه الأمير علي، وصور لأخيه الأمير يونس، وبيروت هذه لم تكن، قبل فخر الدين، أكثر من مرفأ مهمل وغير صحي، فجعل منها الأمير مقرّاً شتويّاً له[٨٠]، وبنى بها قصراً رائعاً، وحولها إلى جنائن غناء تبرز عظمتها وفخامتها، فأضحت مركز ثروته و«معبداً مفضلاً لرغباته»[٨١]. وأحاطها بغابة من الصنوبر «جعلت هواء هذه المدينة نقياً بعد أن كان فاسداً جداً»[٨٢]. أمّا قصره فقد بني على الطريقة الإيطالية وأثار إعجاب جميع الزائرين، ومنهم الرحّالة الإنكليزي (Maundrell)[٨٣] الذي وصفه بقوله: «يقع هذا القصر في الجهة الشماليّة الشرقيّة من المدينة، ويوجد عند مدخله نافورة من الرخام أجمل من كلّ ما يصنع عادة في تركيا، ويتألّف هذا القصر من الداخل من عدّة ساحات تكاد تكون كلّها متهدّمة في الوقت الحاضر. ويظهر أنّ بناءها لم يكن قد استكمل، كما يوجد عدد من الإسطبلات

والمراحات للخيول ومأوى للأسود والحيوانات البرية الأخرى، والجنائن... ولكن أجمل ما في هذا القصر وما يستحق الإنتباه هو: بستان الليمون»، ويمضي الرحّالة موندريل بوصف هذا البستان وصفاً دقيقاً ومفصّلاً.

وبنى فخر الدين، في هذه المدينة، جامعاً يُعرف باسمه «كما بنى برج الكشاف الذي هدم في أواخر القرن الماضي، وبنى الخان المعروف بخان الوحوش، ثم الحمّامات والأسواق والفنادق»[٨٤]. وينسب ماريتي، وكذلك الأب شيخو، إلى المهندسين الإيطاليّين تشيولي (Cioli) وفانيي (Fagni) هندسة هذه المباني، كما ينسب ماريتي إليهما إعادة بناء القناطر التي تحمل جسر نهر الكلب شمال بيروت، وترميم جسر نهر بيروت[٨٥]. بالإضافة إلى ذلك، أنشأ فخر الدين عدداً من القلاع ورمّم عدداً آخر منها، (سوف نأتي على ذكرها بالتفصيل في فصل لاحق)، وأنشأ جامعاً في دير القمر لا يزال يحمل اسمه، ووسّع، بالإضافة إلى مرفأ صيدا، مرفأي صور وبيروت، وأنشأ جسوراً عديدة في أنحاء مختلفة من بلاده، بالإضافة إلى جسري الأوّلي والقاسمية، مثل جسر إبراهيم الواقع على نهر إبراهيم جنوب بلدة جبيل، الذي وصفه الرحّالة الفرنسي دي لاروك (De la Roque) بقوله: إنه جسر من الحجر المنحوت، وهو من أكثر الأعمال جسارة وجرأة، وأكثرها اتساعاً، إنه من أعمال الأمير فخر الدين الذي ملأ بلاده بمثل هذه الروائع منذ عودته من إيطاليا حاملاً معه من تلك البلاد كثيراً من الذوق الرفيع»[٨٦].

واهتمّ فخر الدين بصيانة شبكات الطرق الساحلية والداخلية لتسهيل الرحلات التجارية في بلاده، وبينها وبين البلدان المجاورة لها، ونشر عليها الخانات والحصون والأبراج المسلّحة، وأمّن للمسافرين على هذه الطرق ينابيع لتزويدهم بالماء، من ذلك:

- على طريق صيدا - عكا - صفد، خان محصن جنوب نهر الليطاني، وآخر جنوبه على الطريق نفسها، وثلاثة ينابيع للمياه جنوب صور قرب رأس العين، وبرج عند ممرّ رأس الناقورة باتجاه فلسطين، وآخر على طريق عكا - صفد، وثالث عند «مغارة الحمام» في منطقة صفد. وفي بيروت، أقام فخر الدين برجاً يقع شمال قصره هو (برج الكشاف) بارتفاع قدره ستون متراً، حيث يمكن، من أعلاه، مراقبة مرفأ المدينة وأحيائها وأطرافها والطرق المؤدّية إليها.

- وعلى طريق بيروت - طرابلس، أقام فخر الدين، أو رمّم، خانات وأبراجاً عديدة منها: خان محصن عند البترون، وقلعة المسيلحة، وبرج البحصاص، وقلعة سمر جبيل، وبرج القليمات، وقلعة طرابلس (بناها الصليبيّون ورمّمها فخر الدين).

- وعلى طريق صيدا - دمشق: قلعة بانياس (رمّمها فخر الدين وسلّحها)، وخان حاصبيا، وخان جسر المجامع، وخان الجلجولية، وخان عيون التجّار.

- وعلى طريق بيروت - دمشق: قلعة قب الياس.

- وعلى الطرق الأخرى الموصلة إلى حلب وحماه وحمص وبعلبك ودمشق مثل: خان رأس بعلبك، شمال البقاع وعلى الطريق الممتد بين دمشق وحلب، (بناه الأمير عام ١٦٣١)، وبرج القيرانية شمال البقاع، وكذلك عدّة قلاع وأبراج بناها فخر الدين في أراضي الدولة السورية الحالية(٨٧).

٨ - **أعمال الزراعة والصناعة:** كانت الزراعة أحد هموم فخر الدين الرئيسية في إمارته، وقد ازداد اهتمامه بها بعد عودته من توسكانة، واطّلاعه على الأساليب الحديثة في الزراعة هناك، حتى أنه طلب من غراندوق توسكانة أن يرسل إليه «ستة أو ثمانية» من العائلات الإيطاليّة ليعلّموا الفلاحين في إمارته

التقنيات الحديثة في أساليب الزراعة، على أن يختار البلاط التوسكاني بنفسه هذه العائلات، وأن تكون تكاليف سفرها وإقامتها على حساب الأمير[٨٨].

وقد اهتمّ الأمير بالزراعات المنتجة مثل التوت والزيتون والقطن والقصب والكتان والقمح وسائر الحبوب، وما ينتج عن هذه الزراعات من صناعات مثل الحرير والصابون والسكّر والمنسوجات القطنيّة والكتانية، بالإضافة إلى زراعة الأحراش والغابات والجنائن والبساتين بكثرة ملحوظة، ولفت نظر الرحّالة الأب دنديني (عام ١٥٩٦) نوعٌ من الرماد يستخرجه فلاحو الأمير من عشبة خاصة يحرقونها في حفر ويجمعون رمادها ليصدّروه إلى البندقية وإلى ممالك أوروبا لتصنع منه مختلف الأواني الزجاجية[٨٩].

٩ - **أعمال التجارة:** لقد كان عهد فخر الدين عهد ازدهار تجاري لم تعرف له المنطقة مثيلاً قبل الأمير بقرون، فقد نشر الأمير في بادىء الأمر جوّاً من الطمأنينة والأمان في بلاده، مما شجع التجّار الأجانب على ارتيادها والتعامل معها، ثم أصلح مرافىء المدن الساحلية كصيدا وصور وبيروت، ووسّعها كي تتمكّن السفن التجارية الكبرى من الرسوّ فيها، وأعطى التجّار الأجانب من التسهيلات والحماية والإمتيازات ما جعلهم يفضّلون التعامل مع بلاد الأمير على التعامل مع سواها من بلدان المنطقة، وقد سبق أن رأينا كم كان اهتمام الأمير كبيراً بأمن التجّار الأجانب من جهة وبإظهار حسن المعاملة لهم من جهة أخرى، ثم نظم عمليات الإستيراد والتصدير من المرافىء، كما نظم عمليّات الحماية للسفن التي ترسو بها، وعقد المعاهدات التجارية مع دول مختلفة، فإذا بتجّار من مختلف الجنسيّات يفدون إلى سواحله، من فرنسيّين وهولنديّين وتوسكانيّين وإنكليز وأتراك ومغاربة ويونانيّين وسواهم، وإذا بصادرات بلاده تكثر وتتفرّع فتشمل أصناف الكتان والقطن والصوف والحرير وما ينتج عنها من منسوجات مختلفة، بالإضافة إلى الرماد الصالح لصنع الزجاج والصابون

والصمغ العربي وغير ذلك، بينما تستورد الأجواخ والمنسوجات المخمليّة والحريريّة والورق والأواني الزجاجيّة وأواني الطعام من أقداح وصحون وسواها، والمصنوعات الفولاذية والحديديّة والسكاكين والأجراس والعطور[٩٠]، بالإضافة إلى مختلف أنواع الأسلحة والذخائر.

وكانت أهمّ تجارات الأمير مع دول توسكانا وفرنسا وإنكلترا، فقد عقد المعاهدات التجارية المختلفة مع دوقية توسكانا، وتبادل معها البعثات التجاريّة واستقدم منها بعثات الخبراء والمهندسين، وخصّ التجّار التوسكانيّين بامتيازات لم تكن لسواهم، وكذلك فقد خصّص للتجّار الفرنسيّين خاناً خاصاً بهم في صيدا، ووضعهم تحت حمايته مباشرة، كما أنه منح التجّار الإنكليز رعاية خاصة، ونذكر ولا شك كلام «ساندس» عمّا يتمتع به هؤلاء التجار في بلاد الأمير من حرية وأمان. ولم يكتف الأمير بذلك، بل نظم تجارته الدولية على أسس عصرية وحديثة، فاستقبل القناصل في عاصمته صيدا أوّلاً ثم بيروت، وحدّد المكوس والجمارك على مختلف البضائع، فكانت تجبى بدقّة وأمانة، وكان يضرب بيد من حديد على أي تلاعب يسيء إلى السمعة التجارية لإمارته. ويروي كثير من الرحّالة الأجانب، بالإضافة إلى الخالدي، روايات كثيرة عن سهر الأمير شخصياً على توفير الحماية والأمان للسفن الأجنبية المحمّلة بالبضائع في موانئه ومياهه الإقليميّة، ومنع التعدّي عليها سواء من القراصنة أو من سواهم من اللصوص، ومنع استغلالها من المستغلّين[٩١].

١٠ - جباية الأموال لتنمية موارد الخزينة: كانت الموارد الرئيسية لبلاد الأمير تنحصر بما يلي:

أ - بدل الخدمة العسكرية: سبق أن ذكرنا أنّ إمارة فخر الدين هي الوحيدة التي كانت، بين مقاطعات الدولة جميعها، تقبل بانخراط الذمي في صفوف جيشها، حتى أنّ بعض المؤرّخين يعتبرون أنّ معظم جيش الأمير كان من

المسيحيّين، لذا انحصرت الجزية - التي تؤخذ عادة من الذمي في دولة إسلامية - عند الأمير، بالمسيحي أو اليهودي الذي يتعذّر عليه أداء الخدمة العسكرية، وكان الأمير، على هذا الأساس، يعفي المسيحي واليهودي المجنّد في جيشه من الجزية. ويذكر الرحّالة «ساندس» أنه فرض «على المسيحي واليهودي قيمة دولارين في العام، بدلاً عن حمايته»(٩٢).

ب - رسوم المواشي: يقول (سانتي) في تقريره الذي وضعه عام ١٦١٤ عن بلاد الأمير «يتقاضى الأمير رسماً عن كلّ رأس من البقر والجواميس والجمال والماعز التي يسلّمها إلى الفلاّحين، على أن تكون جلودها له، وإن نفقت فعليهم لا عليه، ولا يسمح لغيره أن يقتني أكثر من ثلاثة أبقار». ويقدّر سانتي دخل الأمير من هذه الرسوم بخمسين ألف قرش سنوياً(٩٣).

ج - رسوم الأشجار والمزروعات: جاء في التقرير نفسه «توصّلاً إلى معرفة دخل الأمير، علينا أن نلاحظ أوّلاً أنّ كلّ الأراضي الزراعيّة ملكه، يسلّمها إلى الفلاّحين شرط أن يعطوه سنوياً عن كلّ مئة زيتونة ١٥ ريالاً، وعن كلّ مئة توتة ٣ ريالات، والثلث من القطن والقطاني، وهو يجني لحسابه، فضلاً عن ذلك، كمية وافرة من الحرير والقطن»(٩٤).

د - رسوم الجمارك: قال سانتي أيضاً في تقريره «كلّ مركب يرسو في موانىء الأمير يؤدّي رسماً قدره ٢٥ قرشاً، وعن كلّ ١٠ ليبرات (الليبرة تعادل نصف كيلو غرام أو رطلاً مصرياً تقريباً) من الحرير والقطن يدفع ربع سكوت (السكوت يساوي ٧،٢٥ فرنك فرنسي)، هذا عن البضائع التي تباع في البلاد أو تخزن، أمّا البضاعة الترانزيت التي تمرّ في الموانىء بطريقها إلى دمشق أو تصدّر من هذه المدينة إلى موانئه فتتحمّل رسوماً باهظة»(٩٥)، ويقول ساندس إنّ الأمير «كان يتقاضى من التجّار ٢٪ فقط»(٩٦). ويقدّر سانتي في ختام تقريره الدخل السنوي العام للأمير بنحو ثلاثماية ألف قرش(٩٧) تصرف على الجيش

والحاشية والأشغال العامة، وذلك بعد أن يحسم منها حصّة الدولة في هذه الموارد، وهي ما يسمّونه (الخراج)، وأمّا الباقي فيظلّ وفراً في خزينة الإمارة[٩٨].

ثانياً: طموحه السياسي:

فخر الدين، ما هي حقيقة طموحه السياسي؟ وبماذا كان يحلم؟ أمر أثار كثيراً من الإجتهاد، بل والإبتزاز، عند العديد من المورّخين اللبنانيّين والأجانب، فقد قيل في الطموح السياسي لفخر الدين الكثير، وألبس فخر الدين أثواباً من المؤكّد أنه لم يفكّر بلبسها، وقوّل أقوالاً من المؤكّد أنه لم يقلها، فقيل عنه إنه «أمير لبنان»[٩٩]، وإنه كان يرمي من وراء سياسته الداخليّة والخارجيّة التوصّل إلى بناء الوحدة اللبنانيّة وتعزيزها وتأمينها[١٠٠]، وإنه أراد أن يعيد مملكة أورشليم الصليبيّة[١٠١]، إلى غير ذلك من أقاويل لا تحتاج إلى كثير من الدلائل لدحضها وتبيان اسفافها، ولا يعوز المؤرّخ المتجرّد الكثير من الجهد لاكتشاف بطلانها.

والحقيقة أن فخر الدين قد أطلق على نفسه كثيراً من الألقاب مثل «أمير الشوف، وأمير الدروز، وأمير آل معن، وأمير صيدا والجليل[١٠٢] وأمير صيدا وجبل لبنان»[١٠٣]، وأُطلق عليه الكثير من الألقاب مثل «أمير الدروز ونيقوميدية وفلسطين وفينيقية، وسلطان البرّ وسلطان عربستان» إلاّ أنّ أحداً لم يسمّه، كما لم يسمّ هو نفسه «أمير لبنان»[١٠٤]، وذلك أمر طبيعي ومنطقي للغاية، فقد وجد فخر الدين قبل وجود فكرة الكيان اللبناني والدولة اللبنانية بقرنين ونصف القرن، أي قبل مشروع الجنرال دوتبول لإنشاء الدولة اللبنانية، والمؤرّخ في ١٥ شباط سنة ١٨٦١ وقبل تحقيق هذا الكيان وهذه الدولة بثلاثة قرون (إعلان الجنرال غورو لدولة لبنان الكبير في أوّل أيلول سنة ١٩٢٠)، ولم يكن للبنان، قبل فخر الدين، كيان أو دولة - باستثناء تسمية جبل لبنان التي كانت تطلق على

جبة بشري وجوارها والذي كان تابعاً إدارياً لباشوية طرابلس، وقد احتفظت جبة بشري بهذه التسمية كما احتفظ جبل الشوف أو جبل الدروز أو جبل آل معن بتسميته هذه حتى منتصف القرن التاسع عشر - فلا يعقل، والحالة هذه، أن يتنبّأ فخر الدين أو يرد في خاطره شيء من هذا القبيل، في حين أنّ الدول الكبرى نفسها التي كانت مهيمنة في ذلك الحين، لم تكن قد توصّلت بعد لأن تحلم بتقطيع أوصال العالم العربي إلى كيانات صغيرة متعدّدة، كما حصل في مطلع هذا القرن حيث قسمت المشرق العربي، بعد الحرب العالمية الأولى، إلى خمسة كيانات هي سوريا والعراق ولبنان وفلسطين وشرق الأردن، كما قسّمت شبه الجزيرة العربية إلى مملكة وسلطنة وعدّة إمارات ومشيخات. وقد أكّد الدكتور نقولا زيادة هذه الحقيقة بقوله: «كان لفخر الدين مكانة خاصة في المناطق اللبنانية رغم أنه لم يعِ ولم يفكّر يوماً بدمج هذه المناطق في إمارة لبنانية موحّدة، وبعد سقوطه سنة ١٦٣٣ عادت الإمارة المعنية إلى ما كانت عليه في الأساس، إمارة وراثية صغيرة مقتصرة على الشوف»(١٠٥). ولكننا لا ننكر ما كان لفخر الدين من أثر في بناء المجتمع اللبناني، فهو الذي سهّل، بل وشجّع، انتقال الموارنة من جبل لبنان في الشمال إلى جبل الشوف في الوسط والبقاع في الشرق وجبل عامل في الجنوب(١٠٦)، وخلق نوعاً من التمازج والتعايش بين الطائفتين الكبريين في بلاده (الدروز والموارنة) في وقت لم تكن تعرف السلطنة العثمانية، في مختلف أرجائها الواسعة، تمازجاً وتعايشاً من هذا القبيل، وكان لسلوكه السياسي هذا أثر كبير في بناء المجتمع اللبناني الحاضر وإن لم يكن أثراً إيجابياً على الدوام(١٠٧). ويؤكّد الدكتور زيادة هذا الأثر بقوله: «... وما جاء عام ١٦٦٧ حتى أعاد الأمير أحمد المعني وحدة المناطق الدرزية وكسروان برضى الدولة، فأصبحت هذه الوحدة نواة الكيان اللبناني»(١٠٨). إلاّ أنّ الدوافع الأساسيّة لسلوك فخر الدين هذا، هي، في نظرنا، دوافع شخصيّة وسياسيّة

بحتة، فهي شخصيّة من حيث اقتناعه الداخلي بضرورة التسامح والتعامل مع أبناء إمارته والمنضوين داخل حدود بلاده معاملة متساوية دون النظر إلى المذهب أو الطائفة، وهي سياسية من حيث العداوة المتأصّلة والمتوارثة بين إمارته وبين السلطنة، مما جعله يمدّ يد التعاون والتحالف إلى دول أوروبية مسيحيّة في الخارج، وإلى طوائف مسيحيّة في الداخل، تعزيزاً لقدرته على الصمود، وطمعاً بالأعداد الوافرة من المقاتلين الذين يمكن أن توفّرهم له هذه الطوائف.

أمّا القول بأنّ فخر الدين أراد أن يعيد مملكة أورشليم الصليبيّة[١٠٩]، فلذلك افتئات على الأمير وتجريح لطموحه السياسي، ولقد ثبت بالدليل القاطع عدم صحّة هذه الرواية، أثبته الخالدي في روايته عن فشل محاولة ملك إسبانيا في إقناع الأمير بتغيير دينه لقاء أن يعطى حكماً «على قدر ما كان عاطيه سلطان المسلمين في بلاده وأزيد»[١١٠]، وأثبتها تصرّف توسكانة معه في الفترة الأخيرة من إقامته هناك، إذ أهملوا وجوده حتى اضطرّ إلى بيع حلى زوجته لكي يعيش[١١١]، وحاولوا بالتالي منعه من مغادرة البلاد خشية أن ينقل إلى السلطنة أسرار دوقيتهم[١١٢]. والتخلّي عنه من قبل توسكانة وحلفائها الأوروبيّين في المرحلة المصيريّة الحاسمة التي واجهها قبل اعتقاله وقتله[١١٣]. وأمّا ما أورده الأب قرألي من وثائق تدين فخر الدين في هذا المجال ولا تشرّفه، فهي وثائق تظلّ بحاجة إلى تأكيد وإثبات[١١٤].

لقد قيل في طموح فخر الدين الكثير، قيل إنّ نيّته «كانت تتجه إلى تأسيس جمهوريّة في كلّ البلاد التي يحكمها لتكون بمثابة شوكة مزعجة في قدم العثمانيّين بحيث تودّي في النهاية إلى تفكّك الإمبراطوريّة وزوالها»[١١٥]، وقيل إنه: «بلغ مبلغاً لم يبقَ وراءه إلاّ دعوى السلطنة»، إذ أنّ حكمه قد سرى «من بلاد صفد إلى إنطاكية»[١١٦]، أو من حدود حلب إلى حدود القدس[١١٧]، وقيل إنّ السلطنة في نظره هي «نقل تخم، فكلّما تملّكنا بلاداً نتقوّى برجالها

وأموالها وننتقل إلى غيرها»[١١٨]، وقيل عنه إنه «عامل أمن في إمبراطوريّة فقدت الأمن، وعامل تحرّر في عصر الديكتاتوريّة، وعامل تسامح في بلاد يسود فيها، منذ قرون، التعصّب وعدم التسامح»[١١٩]، وقيل «إنّ سلطته لم يكن معترفاً بها إلاّ إذا كان منتصراً، فعند أوّل هزيمة له كانت هذه السلطة تنهار. وبكلمة، لم يتمكّن فخر الدين من خلق دولة»[١٢٠]، وقيل: «كانت حياته تتلخّص بمعركة، دون هدنة، ضد جلادي عائلته، وكانت صراعاً في سبيل الاستقلال لم يخفف من حدّته النفي أو الفشل»، وقيل: «كان لديه مفهوم الدولة المستمرّة، والمثل القومي الأعلى، والحسّ الوطني، وكان يعمل بفكر ثاقب في سبيل رفاه شعبه»[١٢٢]، وقيل «إنّ القدس كانت بالنسبة إليه الهدف الطاغي، فهو لا يمكن أن يتخلّى عنه»[١٢٣]، وقيل: «إنّ أكبر خطر كان يواجه السلطنة هو الآتي من حلب ومن لبنان حيث يمكن لجنبلاط وفخر الدين، بقوّتهما المجتمعة، أن يهدّدا بتحويل سوريا إلى دولة مستقلّة»[١٢٤]، وقيل: «في خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة من حكمه، إكتسب فخر الدين عقليّة الفاتح الحقيقي، فاحتلّ لحسابه الخاص مقاطعات من سوريا وفلسطين»[١٢٥]، وقيل: «كان فخر الدين يطمح لأن يسيطر على القدس، ولكن للوصول إليها كان عليه أن يحارب بعض الحصون المجاورة التي تفصل بلاده عن ولاية القدس، وخصوصاً الأمير طربيه الذي لم يستطع أبداً أن يهزمه»[١٢٦]، وقيل: «كان فخر الدين يكتم أفكاره البعيدة المدى، وهي أن يصبح سيّداً مطلقاً على سائر سوريا وفلسطين... وكان في جميع فتوحاته يدفع دائماً الجزية المتوجّبة للباب العالي، ويرضي الوزراء بالغنائم الكثيرة التي كان يكسبها من أتباع السلطان»[١٢٧]، وقيل أكثر من ذلك بكثير مما لا نرى فائدة في سرده هنا.

لقد ورث فخر الدين إمارة محدودة المساحة في سلطنة لامتناهية الأرجاء، بحيث أصبحت سلطة السلطنة على الإمارة تقتصر على ما تفرضه عليها من ضرائب وجزية وخراج، وورث فخر الدين كذلك طموحاً لا تحدّه حدود، ولا تقف في سبيله تخوم، فانطلق في كلّ اتجاه ينقل تخومه إثر خطواته، مطبّقاً قوله الشهير: «كلّما تملكنا بلاداً نتقوّى برجالها وأموالها وننتقل إلى غيرها»، متوسّلاً كلّ الوسائل في سبيل بلوغ أهدافه في التوسّع والسيطرة، فكان ما لا يملكه بالسيف يملكه بالمال والعكس بالعكس، «وكان يشتري ضمائر موظّفي الدولة، أولئك الذين كانوا جميعهم، من الوزير الأعظم إلى أقل آغا، عرضة للبيع، ولا يهمّهم إلاّ الثمن» وهكذا كان فخر الدين «بمفاهيمه الجريئة والمغامرة أحياناً، متقدّماً حقاً على عصره»(١٢٨).

وكان يطمح، ولا شك، إلى أن يستقل عن السلطنة، بشكل أو بآخر، دون أن ينفصل عنها نهائياً، وذلك لأنه كان يهادنها بشكل مستمر محاولاً إرضاءها، دافعاً الجزية بانتظام حتى آخر يوم من أيّام حكمه، ولكنه لم يكن يتوانى، في الوقت نفسه، عن تحقيق طموحه في التوسّع والسيطرة، فكان يعمل بصبر وجرأة وثبات، عين حذرة على الباب العالي، وعين نهمة لا تنفك ترمق بجشع قطعة الأرض التي تستهوي طموحه، فما أن يغض الباب العالي الطرف أو يرضى بالمكافأة، حتى ينقضّ الأمير لينقل تخومه شرقاً أو شمالاً أو جنوباً. وهكذا كانت بلاد الأمير تكبر وتصغر وفقاً لعوامل عديدة أهمّها: قوّة الأمير العسكرية وإمكاناته المادية، ومشاكل السلطنة، والتحالفات الداخلية والخارجية التي كان يؤمّنها لنفسه، وأهمية القوى التي كانت تقف حائلاً دون توسّعه، وكان يتبع جميع الوسائل للوصول إلى الهدف المنشود، بدءاً بدفع الثمن إلى المصاهرة فالتحالف فاستعمال القوّة، وما كانت تثنيه عن غايته صعوبة، ولا يقف دون طموحه حائل.

كان فخر الدين يطمح، ولا شك، لأن ينشىء إمارة تتمتع بالميزات التالية:

- معنية، تتوارثها أسرته من بعده خلفاً عن سلف، دون صعوبات.

- قوية، تتمتع بجيش قوي قادر على الدفاع، وعلى الهجوم إذا ما بدت ظروف تسمح بالتوسّع، بالإضافة إلى المحافظة على الأمن الداخلي في الإمارة.

- عصرية، تستمدّ تقدّمها من الحضارة الأوروبيّة (العمرانية والزراعية والتجارية والصناعية والإدارية) مستفيدة من صداقات الأمير وعلاقاته بالدول الأوروبية، ومن خبرات هذه الدول في مختلف الحقول، ومتمتعة بالتالي بالإزدهار والرخاء.

- مرنة الحدود، بحيث لا تظلّ مقتصرة على إمارة الشوف وحدها، بل تتخطّى حدود هذه الإمارة في أيّ اتجاه وفي أيّ وقت وفقاً للظروف.

- ديموقراطية، وعلمانية، في حدود معيّنة، بحيث تقترب كثيراً من المفهوم الجمهوري للدولة، وتبتعد كثيراً عن المفهوم الطائفي الذي كان سائداً في ذلك الحين (والذي هو سائد اليوم في لبنان).

ولكن طموح الأمير كان يفوق إلى حدّ كبير إمكاناته العسكريّة والمادية، في وجه إمبراطوريّة كانت لا تزال في أوج قوّتها وقدرتها، وفي وجه خصوم عديدين تألّبوا عليه وتكاثروا، فسقط الأمير، وسقط معه طموحه الكبير.



ثالثاً: تحالفاته العسكرية:

عندما قرّر فخر الدين إشهار عدائه للدولة العثمانية رغبة في تحقيق طموحه السياسي أوّلاً «وربما لعامل الحقد على هذه الدولة بسبب قتلها لوالده الأمير قرقماز أخيراً)، رأى أن ينشىء بينه وبين العديد من أمراء المقاطعات المجاورة له، وبينه وبين بعض الدول الأوروبيه، تحالفات عسكرية يشدّ بها

أزره ويعزّز صموده في وجه الدولـــة القويّة، وقد ساعدته هذه التحالفات ودعمته إلى حدّ كبير، إلاّ أنها لم تتمكّن من إنقاذه يوم قرّر الباب العالي، بصورة جدية وحازمة، أن يتخلّص منه. ورغم كلّ ذلك، فقد كان لهذه التحالفات أكبر الأثر في السلوك العسكري للأمير، كذلك في نتائج المعارك العديدة التي خاضها.

وسوف نقسم تحالفات الأمير العسكرية إلى قسمين:

١ - تحالفاته المحلية والإقليمية.

٢ - تحالفاته الأوروبية.

ثم نتحدّث عن:

٣ - سياسة فخر الدين التحالفية - أهدافها ونتائجها.

١ - تحالفات الأمير المحلية والإقليميّة:

عمد الأمير، في بدء حكمه، إلى تثبيت سلطته داخل إمارته، فقضى على كلّ تحرّك مناهض لهذه السلطة، وتمكّن، بسطوته وحكمته السياسية وقوّته العسكرية، من أن يشلّ كلّ نشاط للحزب اليمني الذي يتزعّمه آل علم الدين، الخصوم التقليديّون لآل معن، وهو المنافس القوي لحزبهم (القيسي) الحاكم، في داخل الإمارة وخارجها، ثم مدّ يد التحالف إلى الأرسلانيّين أمراء الغرب، وهم يمنيّون، ثم إلى اللمعيّين أمراء المتن، ثم إلى العسّافيّين أمراء كسروان، وهكذا لم نسمع، طوال حكم الأمير، بأيّ تحرّك لليمنيّين في إمارة الشوف وجوارها، حتى سقوط الأمير عام ١٦٣٢، حيث نصّبت الدولة العثمانيّة مكانه أميراً من آل علم الدين، خصومه، فجرت بين هذا الأخير وبين الأمير ملحم المعني أوّل معركة في عرنا (١٦٣٥)، وكانت نتيجتها لصالح الأمير المعني الذي ولّي بعدها أميراً على الشوف. وتحالف فخر الدين مع الشهابيّين أمراء وادي

التيم تحالفاً وطيداً ومستمراً، كما تحالف فترة من الزمن مع الحرفوشيّين حكّام البقاع وبعلبك، وبعض أمراء العرب في فلسطين، وعلي باشا جنبلاط والي حلب، وحاول أن يحالف ابن سيفا باشا طرابلس فصاهره، وكان هذا زعيماً من زعماء اليمنية، لذا، لم ينجح الأمير في تحافله معه، وجرت بين الفريقين معارك ضارية كما سبق أن ذكرنا.

وقد تمكّن الأمير، بفضل تحالفاته العسكريّة والسياسيّة هذه، من أن يصون إمارته من أي تدخّل خارجي، مما سمح له بأن ينطلق بقوّاته العسكرية، وبمؤازرة حلفائه، خارج حدود هذه الإمارة ليحقق طموحه التوسّعي شرقاً وجنوباً، وشمالاً، فقد مدّ الأمير يده إلى الشهابيّين أمراء وادي التيم منذ أوّل عهده في الحكم، فصاهرهم وصادقهم، وكان التحالف بين الأسرتين قوياً إلى درجة أنه لم تعرف الإنفصام في أيّة مرحلة من مراحل حكم هاتين الأسرتين في الشوف ووادي التيم، وحتى أنّ أهل الشوف ارتضوا لأنفسهم بعد انقراض السلالة المعنية عام ١٦٩٧، حكم الأسرة الشهابية خلفاً للأسرة المعنية المنقرضة.

وقد رافق الشهابيّون الأمير فخر الدين في جميع معاركه تقريباً، سواء كانت هذه المعارك ضد العثمانيّين أم الحرفوشيّين أم السيفيّين أم القبائل العربيّة في فلسطين، ولقي زعماؤهم، في آخر معركة للأمير عام ١٦٣٣، المصير الأسود نفسه الذي لقيه فخر الدين وأسرته، وكان للشهابيّين دور مهم في المعارك التي خاضها الأمير المعني،، وخصوصاً في «عنجر» أهم هذه المعارك(١٢٩).

وحالف فخر الدين علي باشا جنبلاط والي حلب والثائر على الدولة العثمانيّة، ولكن التحالف بين هذين الحاكمين لم يدم أكثر من سنتين (١٦٠٥ - ١٦٠٧)، وقد خاضا معاً معارك مهمة ومنتصرة، ضد العثمانيّين والسيفيّين، أهمّها معركة عرّاد (١٦٠٦) التي سبق ذكرها، وانتهى هذا التحالف بنهاية علي

باشا وسقوطه عام ١٦٠٧، وتشتّت الأسرة الجنبلاطيّة بين حلب وكلّس وإمارة الشوف. وحالف الأمير المعني آل حرفوش حكّام بعلبك والبقاع، وكانت البقاع ذات أهمية خاصة بالنسبة إليه، لأنها، من جهة، الطريق الجغرافي الأسهل والأقصر بين إمارته وإمارة حلفائه الشهابيّين في وادي التيم، ولأنها، من جهة ثانية، مقرّ لكثير من رعاياه المزارعين والفلاّحين، وقد سعى الأمير، منذ تسلّمه حكم إمارته، إلى إزاحة ابن الفريخ عن البقاع وتسليمها لآل حرفوش على أن يكونوا حلفاء له، وقد صدق الحرفوشيّون في تحالفهم مع الأمير فترة من الزمن، فخاضوا إلى جانبه وقعة نهر الكلب (١٥٩٨) ضد ابن سيفا، إلاّ أنهم انقلبوا عليه فيما بعد، فكانوا خصوماً له وحلفاء لخصمه حافظ باشا والي الشام في حملته على بلاد الأمير عام ١٦١٣، كما كانوا خصوماً له وحلفاء لخصمه مصطفى باشا والي الشام في وقعة عنجر عام ١٦٢٣، وكانوا أخيراً خصوماً له في معركته الأخيرة والحاسمة ضد العثمانيّين عام ١٦٣٣.

وحالف الأمير كذلك بعض أمراء القبائل العربية في فلسطين، أمثال الأمير مدلج الحياري (في عنجر عام ١٦٢٣) والشيخ حسين بن عمرو، والشيخ أحمد الكتاني، والأمير أحمد بن قانصوه (في حملته على القبائل العربيّة عام ١٦٢٣)، وحكّام جبل عامل (في عنجر وفي حملته على القبائل العربيّة عام ١٦٢٣)، وبعض آل سيفا مثل سليمان باشا سيفا قريب يوسف باشا حاكم طرابلس (في حملته على طرابلس عام ١٦٢١)، ولم يكن تحالف الأمير مع هؤلاء مستقرّاً، بل كان يتغيّر تبعاً للمواقف والظروف.

٢ – تحالفات الأمير في أوروبا: المعاهدات العسكريّة:

١ - **مشروع المعاهدة الأولى (١٦٠٨)**: كان أوّل عهد الأمير في تعامله مع الغرب عام ١٦٠٧، وكان ذلك مع توسكانة، إذ كان «ميخائيل قريع» أو «باسيلي

بن يوحنا قريع»[١٣٠] سفير فرديناند الأوّل غراندوق توسكانة، قد نجح في إقناع علي باشا جنبلاط، والي حلب، وحليف فخر الدين، والثائر على الدولة العثمانيّة، بعقد معاهدة «حربية وتجارية» مع توسكانة، وتمّ عقد هذه المعاهدة في ٢ تشرين الأوّل من العام نفسه (١٦٠٧)[١٣١]، وبناء لذلك أرسل الفراندوق إلى علي باشا سفينة محمّلة بالأسلحة والذخائر (ألف بندقية وكمية من الذخائر وعدداً من المدافع)، ولكن ما أن أضحت هذه السفينة في عرض البحر حتى علم الفراندوق بانكسار الجنبلاطي وهزيمته، عندها أمر سفيره ليونشيني (Léoncini) باللحاق بها مع التعليمات التالية: تسلّم الأسلحة والذخائر إلى علي باشا جنبلاط إذا كان وضعه العسكري يسمح له بالصمود، وإلاّ فتتحوّل السفينة إلى صيدا، ويتصل قائدها، والسفير ليونشيني، بالأمير فخر الدين، فيقدّمان إليه البنادق والذخائر هدية، ويحتفظان بالمدافع، ثم يفاوضان الأمير في عقد معاهدة مماثلة لتلك التي عقدت مع علي باشا جنبلاط.

وما أن وصلت السفينة إلى الساحل الشامي حتى كانت الهزيمة قد حلّت فعلاً بالثائر الجنبلاطي، فتوجّهت توّاً إلى صيدا، واتصل قائدها غواداني (Guadagni) والسفير ليونشيني بالأمير وعرضا عليه عقد معاهدة شبيهة بتلك التي عقدت مع الجنبلاطي، تلك المعاهدة الرامية إلى «كسر شوكة الإمبراطوريّة العثمانية وتعزيز بيت جنبلاط وعلى الأخص شخصنا»[١٣٢] أي على باشا جنبلاط بالذات، والتي جاء فيها: «ولبلوغ هذه الغاية، نعدهم - والوعد هنا صادر عن علي جنبلاط - بأن نقوم بكلّ فتح يطلبونه منا، مهما كان صعب المنال، ونعاهدهم أن نزحف على أورشليم المدينة المقدّسة، وأن نقاتل كلّ من يجسر على الوقوف في سبيلنا، ونبذل الجهد كلّه للاستيلاء عليها... ونعاهدهم أيضاً على مباشرة هذه الحملة حالما يتوصّل سمو الفراندوق إلى حمل الكرسي

الرسولي وملك إسبانيا على توقيع عهد الصداقة والمحالفة معنا، وتقديم ما يلزم لها من الذخائر والمؤن، حسب الشروط التي وضعناها لهذه الغاية»(١٣٣).

وقد استقبل الأمير هذا العرض بشيء من الفتور «كأنه لم يرق له» ووضع، للقبول به، شروطاً أهمّها:

«١ - أن يوضع بتصرّفه خبير في صبّ المدافع مع المواد الضروريّة، ليصبّ له عشر قطع من المدفعية، أم اثنتي عشرة، وكمية تناسبها من القنابل.

٢ - أن تبذل الجهود لاستفكاك الفلورنتيين الثلاثة لأنهم عارفون تمام المعرفة بقلعتيه المذكورتين.

٣ - لما كان العمل الذي ينوي الإقدام عليه من الخطورة بمكان، كاحتلال القدس ودمشق وغيرهما من مدن سورية، فهو يطلب إلى البابا أن يبعث ببراءة يأمر فيها جميع المسيحيّين الخاضعين له، تحت قصاص الحرم، بأن يتسلّحوا ويهبّوا لمساعدته عند صدور أوّل إشارة منه...

٤ - أن يصدر الغراندوق أمره إلى كلّ المراكب التوسكانية القاصدة إلى الشرق بأن ترسو في ميناء صيدا، حتى إذا كان بحاجة إلى تحميلها رسائل أو خزنة، أو غير ذلك، استخدمها.

٥ - يزوّده الغراندوق بتذكرة مرور يسافر بها، إذا اضطرّه الأمر، إلى إيطاليا، سواء كان لمشافهة أو لغرض آخر قد يطرأ عليه.

٦ - أن يهدي إليه ثلاثة أم أربعة هواوين، ودرعاً من أجمل الدروع»(١٣٤).

كما أكّد له السفير ليونشيني «أنّ رغبة الأمراء المسيحيّين في استرجاع الأراضي المقدّسة غير ناجمة عن طمع في التوسّع، بل جلّ مرامهم أن يسهّلوا على الحجّاج المسيحيّين زيارة الأماكن المقدّسة»، كما أكد له رغبة الغراندوق أن يراه يوماً «ملكاً على سورية، كاسراً شوكة الإمبراطورية العثمانية»(١٣٥) ملخّصاً بذلك غايات المعاهدة وأهدافها.

ولكن هذه المعاهدة لم ترَ النور، فلا الأمير احتلّ أورشليم ودمشق، ولا توسكانة وحلفاؤها نفّذوا التزاماتهم، بل بعكس ذلك، ذهب الأمير إلى توسكانة عام ١٦١٣ لاجئاً، إذ اكتشفت الدولة العثمانية أمر المعاهدة عن طريق التجّار البريطانيّين المقيمين بصيدا، فجردت على الأمير حملة انتهت به لاجئاً. وفي أثناء إقامة الأمير بتوسكانة عام ١٦١٥، ورده كتاب من ملك إسبانيا، بواسطة دوق توسكانة، ومضمونه: «إن كان الأمير فخر الدين يدخل في ديننا نعطيه حكم علىَ قدر ما كان عاطيه سلطان المسلمين في بلاده وأزيد، وإن كان ما يرضى بذلك إن أراد يقعد وإن أراد يروح إلى بلاده» فكان جواب الأمير: «ما جينا إلى هذه البلاد لا كرامة دين ولا كرامة حكم ولا حكومة بل لما جاء علينا عسكر ثقيل جينا احتمينا عندكم واحميتوا رأسه وراعيتوه ولكم بذلك الفضل والجميل والمنة، إن أردتم هو قاعد عندكم بتوابعه على حاله، وإن أرسلتوه إلى بلاده فهو المراد لأنّ له أهل وتوابع وبلاد»[١٣٦] رافضاً عرض الملك الإسباني رفضاً مطلقاً. ومنذ ذلك الحين، أخذت توسكانة تضيّق على الأمير، فأهملته، ولم تعد تعطيه ما يكفيه ويكفي أسرته وحاشيته، وصار الأمير «يبيع صيغة وحوايج ويخرج على نفسه وعياله»[١٣٧].

٢ - **مشروع المعاهدة الثانية (١٦٣٣)**: روى الأب قرألي أنّ مشروعاً تقدّم به الأمير عام ١٦٢٤، بواسطة المطران جرجس بن مارون رئيس أساقفة قبرص، إلى كلّ من الكردينال بربريني، إبن أخ البابا أوربانس الثامن وماريا المجدلية أرشيدوقة النمسا والوصية على عرش توسكانة بعد وفاة زوجها قوزما الثاني (١٦٢١)[١٣٨]، ويتضمّن بعثاً للمشروع الذي طالما ألحّت توسكانة على الأمير لقبوله وهو احتلال الأراضي المقدّسة[١٣٩]، وذكر أنّ سبب فشل هذا المشروع الذي تقدّم الأمير بعرضه هو «تحاسد أسرتي مديتشي سيّدة توسكانة، وبربريني سيدة رومه». ثم ذكر أنه، في العام ١٦٣٣، وعندما أحدق الخطر

بالأمير، عاد ليعرض من جديد مشروعه على الأسرتين الحاكمتين في كلّ من توسكانة وروما، متداركاً هذه المرّة الفشل «بإشراك الأسرتين معاً في الفوائد السياسيّة والدينيّة»، بحيث أنه، إذا نجحت الحملة، «يصبح تادي بربريني، شقيق أوربانس الثامن، ووالد الكردينال فرنسيس بربريني أميراً على جزيرة قبرص، وأن يتوّج فرناندو الثاني، غراندوق توسكانة، ملكاً على أورشليم، ووعد الأمير أن يجاهر بنصرانيته، ويعمّد أسرته وذويه، ويحمل جميع رعاياه وحلفائه على الإقتداء به»(١٤٠).

ونشر الأب قرألي تعريباً لنصّ هذا المشروع المقدّم بشكل تقرير من المطران جرجس بن مارون رئيس أساقفة قبرص إلى قداسة البابا «في سبيل الإستيلاء على مملكة قبرص ومدينة أورشليم» ويتضمّن المشروع بنوداً أهمّها:

١ - يقدّم - الأمير - رجالاً ومؤونة للجيش المسيحي كلّما أراد قداسة وسموّ الغراندوق إرسال حملة لاحتلال قبرص وأورشليم.

٢ - يسلّم العمارة المسيحيّة ثغراً أو أكثر من ثغور مملكته لتلجأ إليه في فصل العواصف.

٣ - يعد بتسليم الحملة المسيحيّة مدينة أورشليم يداً بيد وتقديم كلّ ما يسعه تقديمه من المساعدات في مدّة هذه المحالفة.

٤ - يعد بأن يسمح لجميع رعاياه باعتناق المذهب الكاثوليكي، وأن يكون هو أوّل من يجاهر بنصرانيّته ويعمّد أسرته.

٥ - ولهذا الغرض قد أحدث للمسيحيّين، وعلى نفقته، كنائس كبيرة، أو رمّمها، وأوصى بطريرك الطائفة المارونية، وبقية الأساقفة، أن يقتدوا به.

٦ - يعد أيضاً بتأييد السلطة الكنسية في كلّ مملكته وتنفيذ أوامرها بكلّ دقة، وإعفاء الإكليروس والكنائس وأوقافها من كافة الرسوم والضرائب التي جرت العادة بتحميلها للعلمانيّين.

٧ - يعد بأن لا يعقد اتفاقاً أو عهداً مع السلطان أو مع أحد وزرائه قبل أن يطلع قداسته وسموّ الفراندوق عليه، وأن يسير طبقاً لقرارهما في هذا الشأن.

٨ - يعد بأن يقدّم لقداسته ولسموّه الرهائن التي يطلبانها تأميناً لإنجاز العهود السابق ذكرها.

٩ - يعد بأن يحمل غيره من أمراء العرب ومشايخهم على محالفة الجيش المسيحي، الأمر الذي يسهل عليه لعلاقات القرابة والزواج بينه وبينهم، وللفوائد التي يجنونها من هذه المحالفة.

ولقاء هذه العهود التي قطعها الأمير على نفسه، يأمل تلبية مطالبه الآتية:

١ - أن يجهّز قداسته وسموّ الفراندوق عمارة لا تقل عن خمسين مركباً لتحتلّ جزيرة قبرص...

٢ - أن يمدّاه ببعض المعدّات الحربية والبارود والرصاص اللازمة له لمقاومة العدو، لأن ليس لها وجود في الشرق.

٣ - أن يثابر قداسته وسموّه على صداقة الأمير ومحالفته، ويبادلاه الرهائن ضماناً للعهود والشروط الآنفة الذكر، وأن يماهداه على نجدته في أثناء الحرب، على الأقل بحراً. وهو يماهدهما على إنجاد الجيش المسيحي في زمن الحرب برّاً وبحراً وتقديم كلّ معونة مفيدة وضروريّة له(١٤١).

وفي رسالة صادرة عن روما بتاريخ ١١ تشرين الثاني ١٦٢٤ وموقّعة بإمضاء «جرجس مارون، رئيس أساقفة نيقوسيا بقبرص» وموجّهة إلى الأمير فخر الدين - الذي كان قد أضحى أسيراً لدى العثمانيّين منذ مطلع العام نفسه - يعرض المطران مارون على الأمير نتيجة مساعيه لدى الكردينال بربريني بصدد هذه المعاهدة، ويطمئنه إلى نجاح هذه المساعي(١٤٢).

ولكن لا بدّ أن نتلقّى بكثير من الشك القول بأنّ الأمير هو صاحب هذا المشروع الخطير، خصوصاً أنه لم يكن أكثر من تقرير وضعه المطران بنفسه

دون الرجوع إلى الأمير، هذا بالإضافة إلى ما سبق أن رأيناه من عناد الأمير في رفضه لمثل هذا المشروع من قبل، رغم أنه كان يمرّ في ظروف صعبة وخطيرة دفعته لأن يرحل عن بلاده ويلجأ إلى توسكانة (١٦١٣)، هرباً من الجيش العثماني، ولم ينثن عن عناده ورفضه للمشروع رغم عرضه عليه، تكراراً، من قِبل أمراء إسبانيا وتوسكانة أثناء إقامته ببلادهم (١٦١٣ – ١٦١٨)، كما مرّ معنا، خصوصاً أنّ الأمير سبق أن أرسل في العام نفسه (١٦٣٣) إلى أمراء الغرب، وخصوصاً غراندوق توسكانة، رسائل إستغاثة ونجدة[١٤٣]، وفي الوقت الذي كان العثمانيّون يشنون على بلاده أعنف حملة وأقواها، دون أن يلقى منهم أيّة مساعدة أو نجدة، بل إنهم، بعكس ذلك، تركوه لمصيره المحتوم الذي لاقاه بعد أسره، هو وأفراد أسرته جميعاً، وهم الذين ما فتئوا، منذ سنوات، يستحثّونه، عبثاً، للقبول بمشروعهم ومساعدتهم في احتلال قبرص وأورشليم.

ولن يغيّر في الأمر شيئاً كون مشروع المعاهدة هذا قد أتى، كما ورد عند الأب قرألي، بعد رسائل الإستغاثة، إذ «رأى الأمير أن يعيد الكرة على الكرسي الرسولي وبلاط توسكانة، لعلّ حرج موقفه، وموقف الكثلكة في الشرق من ورائه، يحملانهما على مساعدته، ولمّا لم يكن لديه شخص يقوم بهذه المهمّة أكثر كفاءة من المطران جرجس بن مارون الإهدني، كلّفه للمرّة الرابعة السفر إلى هذين البلاطين والسعي لعقد معاهدة بينه وبينهما»[١٤٤]، لأنه لو أراد الأمير، فعلاً، عقد مثل هذه المعاهدة مع الكرسي الرسولي وبلاط توسكانة، لكتبها بنفسه، ولما ترك لسفيره المطران جرجس أن يكتبها، بشكل تقرير، على هواه.

ثم إنّ ما يلفت النظر هو أن يكتب المطران رسالة للأمير بصدد هذا المشروع، بعد أسره (الرسالة المؤرّخة في ١١ تشرين الثاني ١٦٣٤) جاهلاً أنّ الأمير وقع في الأسر منذ أكثر من ثمانية أشهر (مطلع العام ١٦٣٤)، وهو الذي

يفترض فيه، كسفير مكلّف من الأمير بمهمّة خطيرة ومصيريّة، أن يظلّ على اتصال مستمر بمكلّفة، لا يظل جاهلاً بمصيره طوال هذه المدّة.

ولئن رأينا أن نثبت مشروع المعاهدة، مع نسبته إلى الأمير فخر الدين، كما ورد عند الأب قرألي، فرغبة منا في توفير قدر من الأمانة التاريخيّة سعينا إلى تحقيقه، مع محافظتنا على حقّنا في إبداء وجهة نظرنا وفقاً لقناعاتنا.

وللمؤرّخ الإيطالي جيوفاني ماريتي (Giovani Mariti)، رأي بهذا الموضوع لا يمكن إهماله، فقد نقّب هذا المؤرّخ بالمحفوظات التوسكانيّة المتعلّقة بفخر الدين ودقّق في وثائقها، قبل الأب قرألي «بقرن ونصف قرن» وإن كان قد عبّأ بعض الثغرات «بتخيّلات خارجة من دماغه» حسب قول الأب قرألي نفسه[١٤٥]، يقول ماريتي: «كان قوزما الثاني ميّالاً إلى العظمة، فاغتنم فرصة وجود فخر الدين في توسكانة وأخذ يناقشه في الطريقة لإنجاح مشروع مساندة الأمير في سوريا لتوسيع فتوحاته وتأمين إستقلاله عن الباب العالي، وبما أنّ قوّات الفراندوق لم تكن كافية لمثل هذا المشروع، فإنّ البابا وملك إسبانيا قد يكونان العون للأمير، وباستطاعة الفراندوق الإستفادة منهما لتحقيق أهدافه... وبوشر الإتصال بالبابا لحمله على مساندة فخر الدين، وهو أميرٌ من ديانة غير مسيحية... وكان قوزما الثاني يسعى وراء مصالحه الخاصة... فلم يخش إستعمال الديانة وسيلة لذلك، فوصف فخر الدين بأنه مضطهد من الأتراك، وأنه حامي المسيحيّة في سوريا، وأنه إذا سانده الأمراء المسيحيّون بالسفن والسلاح فسوف يجعلهم أسياداً لمرافئه البحرية ويعطي المسيحيّين حراسة قلاعه مبيّناً هكذا عزمه على عدم الثقة بالأتراك... وكان فخر الدين يؤكّد أنه، بمعاونة مسيحيّي المنطقة وتجنيد رجال يقودهم زعماء أكفّاء، يمكنه استرجاع القدس، وأنه قد حان استرجاعها، وعلى البابا وملك إسبانيا عدم تفويت هذه الفرصة، هذا ما قاله «بيكنا» إلى «غويتشارديني»

سفير قوزما الثاني، غراندوق توسكانة، في روما، وأعلم «بيكنا» «غويتشارديني» أنّ الغراندوق أرسل سفينة حربيّة مسلّحة إلى سوريا لاستطلاع أحوال البلاد، والأمل كبير بأن يعتنق فخر الدين وشعبه الديانة المسيحيّة ويقدّمون الطاعة للكرسي الرسولي، مظهراً أنّ اللّه سيستخدم هذا الرجل لعظمة الكنيسة واسترجاع القبر المقدّس»(١٤٦).

ويتابع ماريتي: «وكان «بيكنا» رجلاً فطناً، إذ كان متأكّداً من البداية أنّ الدين لن يربح أيّ شيء، وأنّ فخر الدين سيبقى على دينه، وأنّ القدس سوف تبقى تحت حكم الأتراك... وكانت كلّ أفكار هذا الوزير، بالرغم من أنها مكتسية بالغيرة الدينيّة، تهدف إلى استخدام البابا وملك إسبانيا لمصالح عائلة مديتشي، لأنه ليس من صالح البابا ولا من صالح ملك إسبانيا أن يكون لهما منشآت في تلك المناطق»(١٤٧).

ويتابع ماريتي في مكان آخر: «في المعاهدات التي وُقّعت عام ١٦٠٧ مع جنبلاط رئيس الثوّار في سوريا، والمعاهدات التالية مع فخر الدين عام ١٦٠٨، كان يؤتى دائماً على ذكر فتح القدس... وعام ١٦١٣، عندما قدم فخر الدين إلى توسكانة، شاعت من جديد آمال احتلال القدس، ولم تكن هذه الفكرة سوى إشاعة شعبيّة تتوغّل في ذهن الأمير جيوفاني مديتشي وبعض المهووسين، ولم يشأ البلاط إظهار إستنكاره لأمل لا أساس له»(١٤٨).

ويرى ماريتي أنّ سياسة قوزما الثاني ووزرائه في إرضاء فخر الدين لم تكن سوى «وسيلة للوصول إلى مصالحهم للتجارة مع سوريا» وأنّ فكرة احتلال بيت المقدس لم تكن سوى «وسيلة لإقناع بلاط روما لتأييد غايات توسكانة السياسيّة والإقتصاديّة، وتهدئة شعور الجهّال الذين ربّما يرون أنّ المبالغ التي تُصرف لإرضاء أميرٍ تختلف ديانته عن ديانتهم ليست إلاّ تبذيراً»، ويختم ماريتي رأيه هذا بقوله: «بعد هذا التوضيح، سنكفّ عن الكلام عن هذا الموضوع

الذي خلقه خيال العامة وتداوله من يجهل أمور مجلس الوزراء، والذي لم يكذّبه هذا المجلس لغايات سياسيّة»[١٤٩].

٣ - سياسة فخر الدين التحالفيّة: أهدافها ونتائجها:

أثارت أهداف فخر الدين التوسّعية للأمير عداوات كثيرة، داخليّة وخارجيّة، لاحقته طوال مدّة حكمه حتى تمكّنت في النهاية من القضاء عليه، فطموحه إلى التوسّع شرقاً أثار عليه الحرفوشيّين، حكّام البقاع وبعلبك، وطموحه إلى التوسّع شمالاً أثار عليه السيفيّين حكّام طرابلس، وطموحه إلى التوسّع جنوباً أثار عليه عرب فلسطين، وطموحه إلى التوسّع، بصورة عامة، وخروجه على إرادة السلطنة وأحكامها، أثار عليه الدولة في الآستانة وولاتها في الشام، ومقابل كلّ هذا، كان على الأمير أن يجد، في جواره، وفي الخارج، تحالفات تعينه على الصمود في وجه هذه العداوات.

وكانت سياسة فخر الدين التحالفية تهدف، أساساً، إلى ما يلي:

أ - تثبيت حكمه في إمارته، وذلك بالقضاء على خصومه السياسيّين في هذه الإمارة.

ب - تحقيق رغباته التوسّعية شمالاً وجنوباً وشرقاً، وذلك بالسيطرة على المقاطعات المجاورة له إمّا رضاء أو عنوة.

ج - الصمود في وجه الدولة العثمانية التي لم ترقها أهداف الأمير وطموحاته، وذلك بالتعاون مع قوّة خارجية بإمكانها أن تقف في وجه هذه الدولة.

وحقّق الأمير أوّل أهدافه بالقضاء على الحزب اليمني في إمارته، فأسكت كلّ صوت معارض وقضى على كلّ منافسة له فيها، ثم حقّق الهدف الثاني يوم منحته الدولة العثمانية لقب «سلطان البر» و«أمير عربستان» من

«حدود حلب حتى حدود القدس»، إلاّ أنه لم يتمكّن من تحقيق الهدف الثالث، ولم تنفعه تحالفاته المشرقية والأوروبية، فسقط دون أن يتقدّم أحد من حلفائه لإنهاضه.

وتوسّل الأمير، لتحقيق سياسته التحالفيّة هذه، كلّ الوسائل، السلمية منها، ككسب الصداقات إمّا بالمال أو بالمصاهرة، والقتالية، كإرغام حكّام المقاطعات المجاورة على محالفته خوفاً من بطشه، ودرءاً لخطره، وقد نجح إلى حدّ ما في هذا المجال، إلاّ أنه لم يتمكّن من التوفيق بين طموحه السياسي وكسب ثقة الباب العالي، مما دفعه إلى البحث عن تحالفات قوية خارج حدود بلاد الشام، فمدّ يده إلى دول أوروبا التي دفعته بعيداً في هذه الطريق، وورّطته، دون أن تسعفه عند الضرورة، وفي اللحظات المصيريّة، وربّما كان مردّ ذلك أيضاً إلى عدم الثقة بين الحليفين، فلم يكن الأمير مطمئناً كلّ الإطمئنان إلى نوايا هذه الدول (توسكانة، واسبانيا، والكرسي الرسولي)، كما لن تكن هذه الدول مطمئنة إلى أنّ بوسع الأمير، أو بودّه، أن يخدم مصالحها في بلاد الشرق، فوقع بينهما الإنفصال الكبير عندما وضع تحالفهما، جدّياً، على المحك.

ربّما يكون الأمير قد أغدق الوعود المغرية للدول الأوروبية «الصديقة» فوعَد بلاط توسكانة «بالمقاطعات والمدن والمرافىء البحرية والتجارة»[١٥٠]، ووعَد الكرسي الرسولي بتسهيلات تفوق الحد للمسيحيّين في بلاده، ولكن جميع هذه الوعود المغرية لم تجدِ نفعاً ساعة الحسم بينه وبين الدولة العثمانية، فحاول أن يستحث غراندوق توسكانة وسواه من حلفائه الأوروبيّين، ويستنهض همّتهم لنجدته، فلم يلقَ من أحد منهم أذناً صاغية، حتى أنّ حلفاءه في الداخل تخلّوا عنه، ولم يبقَ منهم إلى جانبه سوى أقاربه الشهابيّين، حكّام وادي التيم، الذين

لاقوا معه المصير نفسه، ولكن الأسرة الشهابية جنت ثمار هذا التحالف، فيما بعد، بأن ورثت الأسرة المعنيّة في حكم إمارة الشوف.

والتفسير الوحيد الذي تقودنا إليه قناعاتنا، بصرف النظر عن التفسيرات الهامشيّة الأخرى كانشغال توسكانة بالطاعون أو بحرب البيمونت، أو عدم رغبتها في التصدّي للدولة العثمانيّة دفاعاً عن الأمير، أو كقرار البابا أوربانوس الثامن بأن الظروف «تحول دون جمع جيوش قوية للتدخّل وراء البحار»[١٥١]، هو أنّ كلاً من الحليفين، الأوروبي والمعني، لم يكن مؤمناً بهذا التحالف ومطمئناً له، فلا الأمير كان مستعدّاً للتخلّي عن سيادته على بلاده، أو تحرير الأرض المقدّسة بقصد تسليمها للدول الأوروبية، كما لم يكن مستعدّاً للتخلّي عن دينه، كما ظهر لنا من تصرّفه في أثناء إقامته بتوسكانة[١٥٢]، ولا الدول الأوروبيّة كانت مستعدّة لأن تتورّط في حرب صعبة، وربما غير متكافئة ضد الدولة العثمانيّة وفي عقر دارها، إكراماً للأمير.

وهكذا، وفي العام ١٦٣٣، وأمام الحملة العثمانيّة على بلاد الأمير، إنهارت كلّ تحالفاته، المشرقيّة منها والأوروبيّة، فانفضّ الحلفاء الأقربون عنه، وأدار له الحلفاء الأوروبيّون ظهرهم، فانتهت بانتهاء المعني الكبير، كلّ آمال الدولة المعنيّة وطموحاتها[١٥٣].

صفات الأمير المعني وأخلاقه

صفاته:

كثيرون هم المؤرّخون الذين قدّموا وصفاً لشخصيّة الأمير، فجاءت أوصافهم له متشابهة إلى حدّ كبير، فقد وصفه مؤرّخه والمعاصر له، الخالدي، بأنه كان «ربع القامة، حنطي اللون، لطيف الهامة، مهاباً جليلاً»[١٥٤]، ووصفه

المؤرّخ الإيطالي «ماريتي» بأنه كان «قصير القامة جميل الشكل قاتم اللون يشبه الإفريقيّين، أسود العينين حاد النظر، شعره أسود أيضاً ولحيته كثيفة لم يحلقها بعد زواجه الأوّل، وكان ذا بنية قوية وسليمة، وقد ساعده حبّه للقتال على تحمّل انحراف المزاج والمتاعب، إلاّ أنه كان فريسة سهلة لأمراض النفس»[١٥٥]، ووصفه الرحّالة الفرنسي «دارفيو» بأنه كان «قصير القامة، أسمر الوجه، ملوّن البشرة، ذا عينين واسعتين ومليئتين بالشرر، أفطس الأنف دقيقه، صغير الفم، أبيض الأسنان، مستدير الوجه استدارة جميلة، ذا لحية كستنائيّة اللون، وهيئة مملوءة بالهيبة والفخامة، وفكر دقيق، وصوت رجولي متناسق»[١٥٦]، ووصفه «سانتي» بقوله: «قامته متوسّطة نازعة إلى القِصَر، أسمر البشرة، أسود الشعر، قوي العضل، صبور على التعب والشدائد»[١٥٧]. إلاّ أنّ الوصف الذي يمكن اعتماده، في خلاصة الأمر، هو الذي قدّمه عيسى إسكندر المعلوف، إذ قال: «من تفرّس في رسم الأمير فخر الدين رأى رجلاً دميم الوجه قصير القامة نحيف الجسم قضيفه أفطس الأنف مفلطحه، خفيف الشعر أنجل العينين اللتين تقدحان شرراً لذكائه ونشاطه، فهو يشخّص لك الشكل العربي بملامحه وطباعه وعاداته»[١٥٨].

أخلاقه:

إذا كانت أقوال المؤرّخين قد تشابهت في أوصاف فخر الدين إلاّ أنها اختلفت في تقييم أخلاقه. كتب الخالدي يقول عنه إنه «سليم الصدر صافي السريرة، قد ركب من متن الوفاء سريره... متواضع، بشوش، وهو في حلبة الطعّان عبوس هيوش، حليم عند الغضب، ما سمعت عنه الكلمة الفاحشة قط... يصغي إلى المظلوم فينصفه من ظالمه، ويرثي لحاله، فيكون له خير راحمه». وفي مكان آخر: «ذو عطاء جزيل، يباشر تدبير مملكته بنفسه

ويضبط أموالها، ويتقن أمورها بقوّة حدسه، قوي العزم، شديد الحزم، حسن التدبير، وكما يعطف على الغني يحنو على الفقير، يطيع الله والسلطان، ويؤدّي ما عليه من الأموال في كلّ آن»[١٥٩]، وكتب المؤرّخ ماريتي عنه «كان عظيماً وكريماً يميل إلى العمران والزراعة... وكان في صباه متكبّراً حتى الشراسة، وخصوصاً لتلبية أهوائه الغرامية، وقد أصبح أكثر إنسانية بعد عودته من توسكانة، وكان يحترم والدته احتراماً فائقاً، إلاّ أنه أخذ يتحرّر تدريجياً من وصايتها بقضايا الحكم عندما أخذت آراؤهما تتضارب، فانسحبت أمّه من الحكم عندئذ، وكان يحب خاصكية زوجته محبّة خاصة، وكان يحتفظ لحكّام توسكانة بصداقة حقّة، وفي انتقائه للأشخاص الذين يخدمونه لم يكن ينظر إلى ديانتهم، وهو لم يفرض ضريبة استثنائيّة على شعبه لحاجة في الحكم إلاّ وشرح له أسبابها، وإذا اضطرّ إلى فرضها فإنه كان معتدلاً وفي حدود الحاجة، وعمل على إيجاد نسبة صحيحة بين الغني والفقير بحيث أنه تأكّد من ثروة الغني ولم يطغ على الفقير متفهّماً وضعه... وكان طموحه الفائق أكبر من إمكاناته ممّا أدّى به إلى الهلاك، وكان أحياناً يظهر متعجرفاً إلاّ أنّ تعجرفه هذا لا يثر الإشمئزاز أبداً، ولم يغفل قراءة كتب التاريخ المدوّنة بلغته وخصوصاً تاريخ الإسكندر الكبير الذي كان يعتبره الدروز من أكبر الملوك»[١٦٠]، وكتب الأب أوجين روجيه عنه «كانت نفسه طامحة إلى المجد، وكانت شجاعته المتحفّزة تأبى عليه الإكتفاء بما كسبه أسلافه، وتحمله على توسيع سلطانه إلى أقصى ما يسمح به الحظ في مغامراته» و«بالرغم من شدّته ومن تمثيله بأعدائه، فقد كان عادلاً في أحكامه، ومحيطاً بكلّ الأمور التي تدور في بلاده... وكان يعرف كلّ الأشخاص بأسمائهم وألقابهم ومزايا كلّ منهم»[١٦١]. وكتب عنه كارلو ماشنجي (Carlo Macinghi) من بعثة «سانتي» التوسكانيّة فقال إنه «محبوب جداً من

رعاياه لعطفه عليهم وملاطفته لهم، ومهاب من أعدائه لأنهم خبروا بأسه وحنكته في مواقع كثيرة»[١٦٢]، وأما «سانتي» نفسه، فقد اعتبره «ذا بأس وإقدام... ومع أنه ظالمٌ يسلب رعاياه ما جمعوه بعناء، تراه محبوباً منهم، لأنه يوفّر لجنوده الفرص للكسب والسلب، وهو مهاب لشدّة وطأته على المجرمين، ميّال إلى الحرب والطعان، لكنه بخيل، قاس، دنيء»[١٦٣]. وذكر الأب قرألي أنّ الوثائق المديتشية تنشطر في آرائها بتقييم أخلاق الأمير إلى شطرين متناقضين، فالوثائق التي تعود إلى السنوات (١٦٢٩ - ١٦٣٥) تمثّله «صديقاً مخلصاً شهماً مقداماً كريماً، وسياسيّاً محنّكاً وحاكماً عادلاً غيوراً على أمّته فريداً بمزاياه في الشرق»، وأمّا الوثائق التي تعود إلى السنوات (١٦١٣ - ١٦١٥) أي السنوات التي قضاها الأمير في ضيافة الدوق بتوسكانة، فتصوّره لنا «قليل الفطنة والذوق، ضعيف الإرادة، جباناً، دنيء النفس، متوحّشاً»[١٦٤]، وكتب عنه الرحّالة الإنكليزي (ساندس) قوله: «إنه قصير القامة، لكنه عملاق في شجاعته ومأتيه...، ذو دهاء كالثعلب، وفيه ميل أن يكون طاغية»[١٦٥]. ومهما اختلفت الآراء في تقييم أخلاق الأمير، فتظلّ سيرته وسلوكه في الحكم هما المرجع الأوّل والأساس لمعرفة ما كان يتحلّى به من قيم ومفاهيم أخلاقية هي أقرب إلى أخلاق الملوك منها إلى أخلاق العامة، ونحن إذ لا نقر «سانتي» في وصفه له بأنّ الأمير كان بخيلاً وقاسياً ودنيئاً، نراه، من خلال سيرته وسلوكه، أميراً طموحاً، مهاباً منفتحاً على جميع الأديان والمجتمعات، شجاعاً إلى حدّ المغامرة، مقداماً إلى درجة التهوّر أحياناً، إدارياً فذّاً وسياسيّاً قديراً، ذكياً نشيطاً حاد البصر والبصيرة، ولقد أنصفه الأب لامنس إذ قال عنه إنه «بمفاهيمه الجريئة والمغامرة أحياناً، متقدّم حقاً على عصره».

❖ ❖ ❖

الأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير



Ismaïl, Adel, Histoire du Liban, T 1, p. 5

(صورة وجدها المؤرّخ الدكتور عادل إسماعيل في إحدى المخطوطات عن الدروز في المكتبة الوطنيّة بباريس)

(Fond arabe, N° 1429, F 80)

حواشي الفصل الأول

(١) الخالدي، تاريخ فخر الدين، ص. ٢٥١، والشدّياق، أخبار الأعيان، ج ١: ١٨٦، والمعلوف، تاريخ الأمير فخر الدين، ص. ٣٢ - ٣٨.

وقد رأى عدد من المؤرّخين، قصداً، أو عن جهل، أن ينسب فخر الدين إلى أصل غير عربي، فزعم بعضهم أنه من سلالة غودفروا دي بويون ملك القدس وأحد قادة الحملة الأولى للجيوش الصليبيّة التي غزت المشرق العربي منذ أواخر القرن ١١م. فتحدّرت عنها الطائفة الدرزية التي أخذت إسمها عن (الكونت دي دريز (Conte de Dreux) أحد قادة هذه الجيوش، أنظر:

Savary de Brêves, Voyages, p. 37.

- Maundrell, Voyage, p. 64 - Eugène Roger, La terre Sainte p. 293 - Sandys, Rel. p. 210.

وسانتي (Santy) في تقريره الذي كتبهُ عام ١٦١٠ وقدّمه إلى دُوق توسكانة (قرألي، فخر الدين ودولة توسكانة، ص. ٢٠٦)، وآخرين.

إلاّ أنّ معظم المؤرّخين رأى في هذا الرأي أسطورة لا تقبَل التصديق فنفاها نفياً قاطعاً، مثل:

- Puget de St. Pierre, Histoire des Druzes, pp. 2 - 5 - Volney, Voyage en Egypte et en Syrie, p. 231 - Ristelhueber, les traditions française au Liban, p. 18 - Ismaïl, A. Histoire du Liban, p. 28, N° 46.

وقرألي الذي اعتبر هذا الرأي خرافة وذلك في تعليقه على ما ورد في تقرير سانتي الآنف الذكر، (قرألي، م. ن. ص. ن. حاشية ١) وآخرين.

وقال آخرون أنه من أصل مغولي (Mariti, Istoria di Faccardino, p. 45).

وأورد المحبي في كتابه (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج ١: ٢٦٦) أن «بعض حفدة فخر الدين حكى لي عنه أنه كان يقول: أصل اباثنا من الأكراد سكنوا هذه البلاد فأطلق عليهم الدروز باعتبار المجاورة لا انهم منهم» ويضيف المحبي على هذا القول قوله: «وهذا غير ثابت» كما أنه، أي المحبي، لا يثبت «زعمهم» أنهم ينتسبون إلى «معن بن زائدة» (م. ن. ص. ن.) وكذلك يعتبره المؤرّخ الفرنسي (H. Guys) كردياً متحدّراً من صلب صلاح الدين الأيّوبي H. Guys, Beyrouth et le Liban T. I, p. 275). إلاّ أنّ جميع هذه المزاعم والإدعاءات تسقط أمام ما ثبت من تحقيقات

المؤرخين في أصل الأسرة المعنية وتاريخها (أنظر: إمارة الشوف في الفصل الأوّل من الباب الأوّل من هذا الكتاب).

(٢) يمكن العودة إلى تفاصيل حادثة جون عكار وهجوم إبراهيم باشا على بلاد المعنيّين في الفصل الرابع من الباب الأوّل من هذا الكتاب.

(٣) يروي بعض المؤرّخين المحدثين أنّ الأميرين فخر الدين ويونس إبني قرقماز قد اختفيا، بعد موت أبيهما، عند آل الخازن، في بلّونة بكسروان، مستندين في روايتهم هذه إلى «تاريخ شيبان الخازن» وهو مخطوط محفوظ في المكتبة البطريركية المارونيّة تحت رقم ٢٦ وباسم «تاريخ شيبان» وقد نشر في «الأصول التاريخيّة» للشيخ نسيب وهيبة الخازن والأب يونس مسعد الحلبي (ويقع ذكر ذلك في المجلّد الأوّل ص. ١١٩ - ١٢٨، وفي المجلّد الثالث ص. ٣٤٣ - ٣٥١)، إلاّ أنّ المؤرّخين القدامى المعاصرين لفخر الدين والمتأخّرين عنهم، لم يذكروا ذلك، كما أنّ معظم المؤرّخين المعاصرين لم يأخذوا بهذه الرواية، ويستحسن ذكر ما أورده البطريرك الدويهي في هذا المجال، إذ قال: «أرسل إليّ أحد وجهاء بيت الخازن بعض وريقات تشتمل على نبذ من أخبار أسرته ومن جملة ما قال فيها إنّ الأمير سيف الدين التنّوخي خبأ الأمير فخر الدين والأمير يونس ولدي أخته عند الشيخ أبي نادر خازن وإنّ الشيخ أبا نادر المذكور كان مقيماً إذ ذاك بحارة البلانة بقرب زوق الخراب، وبعد مصير الأميرين المذكورين إليه إنتقل إلى بلونة في أسفل قرية عجلتون. غير أنّ ذلك مخالف لما نقلناه من وجهين: الأوّل أنّ سيف الدين التنّوخي خال الأميرين لم يذكر عنه مطلقاً أنه سعى في إيصالهما إلى الشيخ أبي نادر خازن، ثانياً أنّ الذين اختبأ عنده هو الشيخ أبو صقر إبراهيم والد الشيخ أبي نادر لا الشيخ أبو نادر نفسه، لأنه كان في ذلك الوقت طفلاً، وأبو نادر لم يجعله الأمير فخر الدين مدبّراً إلاّ في سنة ١٦٠٠ بعد وفاة أبيه إبراهيم (الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، ص. ١٧٩ حاشية ١) وانظر نصاً آخر لهذه الرواية كتبه منير إسماعيل ونشر في ملحق النهار بتاريخ ١٩٧٢/١٠/٢٩، أمّا نحن فلا نؤيّد هذه الرواية لمجافاتها للمنطق من جهة، ولعدم ثبوت الدليل من جهة ثانية، ثم لإغفال ذكرها من المؤرّخين القدامى المعاصرين للأمير من جهة ثالثة، وكان أولى بهؤلاء أن يذكروها، وخصوصاً «الخالدي الصفدي» مؤرّخ الأمير.

(٤) المعلوف، المرجع السابق، ص. ٥٨.

(٥) قرألي، المرجع السابق، ج ٢: ٩٧.

(٦) المحبي، خلاصة الأثر، ج ٤: ٤٢٦ - ٤٢٨.

(٧) سالم، عبد العزيز، دراسة في تاريخ مدينة صيدا، ص. ١٨٦، وقرألي، المرجع السابق، ج ١: ٩٩.

(٨) الشهابي، تاريخه (الغرر الحسان) ج ١: ٦٢٢، والمعلوف، المرجع السابق، ص. ٦٧ - ٧٠ والدبس، تاريخ سوريا ج ٧: ١٦٦، والدويهي، تاريخ الأزمنة، ص. ٢٩١، وسنتولّى تفصيل المعارك المهمة التي خاضها الأمير فخر الدين المعني في فصل لاحق.

(٩) الشهابي، المصدر السابق، ج ١: ٦٢٤ وقرألي، المرجع السابق، ج ٢: ١٤٠، والدويهي، المصدر السابق، ص. ٢٩٧.

(١٠) الشهابي، م. ن. ج ١: ٦٢٢، والدبس، المصدر السابق، ج ٧: ١٦٦.

(١١) الشدياق، أخبار الأعيان، ج ١: ٢٣٩ - ٢٤٠ والمحبي، خلاصة الأثر، ج ١: ١٢٦، والدويهي، المصدر السابق، ص. ٢٩٩، والشهابي، م. ن. ج ١: ٦٢٤ - ٦٢٥.

(١٢) الشدياق، م. ن. ج ١: ٢٤٠، والشهابي م. ن. ج ١: ٦٢٦.

(١٣) الشهابي، م. ن. ج ١: ٦٢٦.

(١٤) الشهابي، م. ن. ج ١: ٦٢٨ - ٦٢٩ والشدياق، م. ن. ج ١: ٢٤١.

(١٥) الخالدي، المصدر السابق، ص. ١٧، وفي طبعة أخرى «الأربع بلدان، والخوازنة من بلاد كسروان وغيرهم» (ص. ١٧ حاشية ٤).

(١٦) الخالدي، م. ن. ص. ن.

(١٧) للتمييز بين قلعة الشقيف أو شقيف أرنون وبين قلعة شقيف نيحا أو شقيف تيرون نوضح أنّ شقيف تيرون هو المعروف اليوم بقلعة نيحا في آخر قضاء الشوف على حدود جزين. ويروي الخالدي أنّ فخر الدين قد أودع فيه إحدى زوجاته (بنت الأمير علي بن سيفا) قبل رحيله إلى توسكانة (الخالدي، م. ن. صفحة ١٨) وكان قد تزوّج منها عام ١٦٠٢، رغبة في مهادنة والدها (Mariti, op. cit., p. 59). أمّا قلعة شقيف أرنون أو قلعة الشقيف المعروفة اليوم فهي قاعدة من قواعد جبل عامل المشهورة في التاريخ وقد اصطلح على تسميتها عموماً بـ(قلعة الشقيف).

(١٨) المعلوف، المرجع السابق، ص. ١٠٢، والخالدي، المصدر السابق، ص. ١٣.

(١٩) الخالدي، م. ن. ص. ١٩، والدويهي، المصدر السابق، ص. ٣٠٥.

(٢٠) الشدياق، المصدر السابق، ج ١: ٢٤٥ - ٢٤٧.

(٢١) م. ن. ص. ٢٤٨ - ٢٤٩.

(٢٢) م. ن. ص. ٢٤٩ - ٢٥٠.

(٢٣) م. ن. ص. ٢٥٢ - ٢٥٣.

(٢٤) جاء في تاريخ الخالدي، ص. ٦٩ أنّ فخر الدين عاد إلى البلاد سنة ١٠٢٧هـ. (بدؤها الجمعة ٢٩ كانون الأوّل ١٦١٧) فتكون عودته إذن عام ١٦١٨م. وليس ١٦١٧ كما ورد عند الشدياق (ج ١: ٢٥٦).

(٢٥) الخالدي، م. ن. ص. ٦٩، مما يؤكّد وجود هذه البلاد تحت سلطة ابنه علي عند عودته.

(٢٦) المعلوف، المرجع السابق، ص. ١٧١.

(٢٧) الشدياق، المصدر السابق، ج ١: ٢٥٩.

(٢٨) الشدياق، م. ن. ج ١: ٢٦٤ - ٢٦٥.

(٢٩) الخالدي، المصدر السابق، ص. ١٣٨ - ١٢٩.

(٣٠) بهذا القول يبرّر الخالدي هزيمة الأمير (الخالدي، م. ن. ص. ١٤٠ - ١٤١).

(٣١) الخالدي، م. ن. ص. ١٤٦ - ١٤٧.

(٣٢) نجد شرحاً وافياً ومفصّلاً لهذه المعركة عند الخالدي، م. ن. ص. ١٤٨ - ١٥١، وسوف ندرسها فيما بعد دراسة مفصّلة.

(٣٣) الخالدي، م. ن.، ص. ١٧٢ - ١٧٣ و١٦٠ - ١٦١.

(٣٤) أنظر تفصيلاً لهذه المعركة عند الخالدي، م. ن. ص. ١٨٣ - ١٩٨ والشدياق، المصدر السابق، ج ١: ٢٨٢ - ٢٨٧.

(٣٥) الشهابي، المصدر السابق، ج ١: ٧١٤ - ٧١٥.

(٣٦) الشدياق، المصدر السابق، ج ١: ٢٨٧.

(٣٧) يتحدّث الكونت هارلي دي سيزي (Harley de Césy) سفير فرنسا في الآستانة ذلك الحين، في رسائل وجهها إلى أحد أمناء سرّ الدولة بفرنسا وإلى أمّه (Anne de Harley) وإلى أخته (Lucrèce de Courtenay) وإلى صهره Louis de Courtenay وابنه Roger de Courtenay خلال الأعوام ١٦١٩ - ١٦٤٩ وهي محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس، جناح الربائد Pavillon Archives، يتحدّث في بعض هذه الرسائل عن فخر الدين ومما جاء فيها: «إنّ الأمير فخر الدين، الذي طلب من جلالته (أي السلطان) المنحة بأن يخدم في جيشه، لم يحصل على ذلك حتى هذه الساعة، وهو مقيم هنا مع اثنين من أولاده وسيظلّ إذا لم تتغيّر الأمور» (من رسالة مورّخة في ٢ نيسان ١٦٣٥، fol. 89 - 91). (أنظر ملحق الوثائق).

وفي رسالة أخرى وصف لمقتل فخر الدين كما يلي:

«... بعد ساعتين أُخبر - أي الأمير - بأنّ القائمقام يطلبه، وبينما هو خارج من الحديقة ليجتاز ساحة السراي، أُمر بالركوع، ففعل بعد أن أن استفسر عن إتجاه الشرق ليستدير بوجهه صوبه، ثم رفع كلتا يديه إلى السماء ليتلقّى الضربة ولم يتلفّظ إلاّ بعبارة: يا إلهي، إرحمني. وذلك لأنّ المحمّديّين يصلون ووجوههم نحو الشرق عملاً بدعوة نبيّهم» (من رسالة مؤرّخة في ٢٥ نيسان ١٦٢٥ fol. 97 - 99). وهذا ولا شك يضع حدّاً لكلّ جدل حول ديانة الأمير فخر الدين. (أنظر ملحق الوثائق).

وفي رسالة لفانتوريني (Venturini) مكاتب الفرانبوق السرّي في الآستانة، وصف لمقتل الأمير وأولاده وزوجاته، إذ يصف كيف قطعت رؤوس زوجات الأمير وأولاده في دمشق وعلقت على سور المدينة، كما قطع رأس الأمير في الآستانة في ١٣ نيسان ١٦٣٥ وعرضت جثّته ثلاثة أيام في ساحة الجامع الجديد، يحرسها الإنكشارية (قرألي، المصدر السابق، ج ٢: ٢٥٥ - ٢٥٦).

(٣٨) المحبي، المصدر السابق، ج ١: ٣٨٦ وج ٣: ٣٦٧.

(٣٩) أنظر تفصيلاً لهذه المعارك عند الخالدي. المصدر السابق، ص. ٢٤٤ - ٢٤٩ والشدياق، المصدر السابق، ج ١: ٢٩٠ - ٢٩٢ وغيرهما، وسوف نعمد إلى دراستها فيما بعد دراسة مفصّلة.

(٤٠) "Le nom de Fakherddin remplissait, à cette époque, l'Europe et l'Asie" (Hammer, Histoire de l'Emp. Ottoman, T. IX, p. 225)

(٤١) يجب النظر إلى هذه الأمور من الزاوية التي كانت عليه مفاهيمها في القرن السابع عشر، وليس من زاوية متطوّرة كما هي عليه اليوم.

(٤٢) قرألي، فخر الدين ودولة توسكانة ج ٢: ٦٤ و٢١٢.

(٤٣) وردت هكذا عند الخالدي (المصدر السابق، ص. ١٩ و٤٣ و٥٢) بينما وردت (الاسلاماني) عند الدويهي (تاريخ الأزمنة، ص. ٢٩٧) والمسلماني هي الأصح.

(٤٤) الدويهي، المصدر السابق، ص. ٢٩٧ و٣١١ و٣١٤.

(٤٥) الشهابي، المصدر السابق، ج ١: ٦٥٠ والخالدي، المصدر السابق، ص. ٥٣ - ٥٤.

(٤٦) الدويهي، المصدر السابق، ص. ٣٠٨.

(٤٧) أنظر الفصل الثاني من الباب الأوّل من هذا الكتاب (صلاحيات الأمير الإقطاعي والمقاطعجي).

(٤٨) كان لأمير الجبل (الشوف) إمتياز خاص إذ أنه كان مرجعاً لحكّام العشائر والقبائل النازلة بجواره (جودت باشا، تاريخه، ص. ٣٥٤).

(٤٩) - E. Roger, La Terre Sainte, p. 300.

وقرألي، المصدر السابق، ج ٢: ٣٠.

(٥٠) يروي الخالدي كيفيّة مقتل الحاج كيوان مستشار الأمير الخاص على يد الأمير نفسه في بعلبك عام ١٦٢٣ وبعد وقعة عنجر مباشرة فيقول: «وفي صباح نهار الجمعة رابع وعشرين شهر الله المحرّم من السنة المذكورة (١٠٣٣هـ.) إغتاظ الحاج كيوان وحمل ثقله ورام الطلوع من مدينة بعلبك وهو غضبان فمنعته السكمانية الذين بباب الأمير لأنّ الأمير فخر الدين لما دخل بعلبك سد جميع أبوابها ولم يبق إلاّ باباً واحداً وحطّ عليه بلوكباشياً يمنع كلّ من أراد الخروج منه، فلمّا علم الأمير فخر الدين بنيظ الحاج كيوان وانه واقف على الباب ومنعه السكمانية من الخروج ركب الأمير بنفسه إليه حتى يسترضيه فعجز الأمير وهو يدخل عليه بالكلام فما قبل من الأمير فخر الدين الرجوع بل أسمعه كلاماً كالكلام (بكسر الكاف أي الجراح) ولا يمكن أن يقال لأيّ من كان فضلاً عن قدره العظيم الشأن، ومسك عناده لأجل فراغ العمر وحضور الأجل المحتوم، ورأى الأمير أنّ الكلام معه ما فيه فايده، حوّل الأمير عن فرسه وتقدّم إليه وجذبه عن جواده ورماه إلى الأرض وضربه سكينين وكمّلت السكمانية على أخذ روحه وأرسل دفنه في المقابر» (الخالدي، تاريخ فخر الدين، ص. ١٥٤ - ١٥٥).

(٥١) - E. Roger, La Terre Sainte, pp. 316 - 317.

ومن مغالاته أنّ أحد أمراء بعلبك قال ذات يوم وفي أثناء حديث بينهما عن قلعة الفرنجي (غودفروا دي بويون) بطرابلس: «أراهن برأسي أنّ السلطان لن يهبك هذه القلعة، وكان الأمير يكنّ له حقداً، فسعى جاهداً للحصول على القلعة، ولمّا تمّ ذلك دعا أمير بعلبك إلى العشاء إحتفاء بذلك. وما كادا ينتهيان من الطعام حتى ذكّر فخر الدين الأمير المذكور بكلامه قائلاً له: «أتذكر كلمتك إذ قلت أنك ستقدم رأسك لي إذا حصلت على القلعة؟».

ثم أخذ رأسه بين يديه وقطعه (E. Roger, Ibid. pp. 303 - 304).

(٥٢) قرألي، المرجع السابق، ج ٢: ٢١٥.

(٥٣) - Sandys, Relation, p. 212.

(٥٤) الخالدي، المصدر السابق، ص. ٢ - ٤ والشصوص: جمع شص وهي حديدة عقفاء يصاد بها السمك.

(٥٥) الخالدي، م. ن. ص. ١٦.

(٥٦) الخالدي، م. ن. ص. ١٦ وص. ٨٦، وسوف نأتي على ذكر القلاع في فصل لاحق.

(٥٧) - .95 - 85 .pp ,I .T ,nabiL ud eriotsiH .A lîamsI

(٥٨) - Touma, Paysans et institutions féodales chez les Druzes et les Maronites du Liban du XVIIe s. à 1914. T. 1, p. 55.

(٥٩) Ibid p. 56. -

(٦٠) الخالدي، المصدر السابق، ص. ١٧.

(٦١) زيادة، أبعاد التاريخ اللبناني الحديث، ص. ٣٢.

(٦٢) يقول محمد كرد علي في كتابه «خطط الشام»: «كان فخر الدين نزوعاً إلى العلى محافظاً على صلواته مع الجماعة وعلى عاداته الإسلامية حتى في إيطاليا، وبنى جامعة ومئذنة في البلدة التي نزلها، ولمّا كان في الغرب عرض عليه ملك إسبانيا أن يدين بالنصرانية ويتولّى مملكة عظيمة أعظم من مملكته فاعتذر بلطف» (محمّد كرد علي، خطط الشام، ج ٢: ٢٦٥)، وانظر كذلك: الخالدي، المصدر السابق، ص. ٢٣٥ - ٢٣٦، وفي هذا المجال، يؤكّد الخالدي إسلام فخر الدين، إلاّ أنه ينفي إقدامه على بناء جامع ومئذنة في إيطاليا.

(٦٣) E. Roger, op. cit. pp. 299 - 300. -

(٦٤) الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، ص. ٢٠٥.

(٦٥) قرألي، المرجع السابق، ج ٢: ٣٠.

(٦٦) رسالة مورّخة في عام ١٠٣٧هـ = ١٦٢٨م. وجدت في مجموعة الوثائق الشرقية المحفوظة في مكتبة بالرمو التي نشرها كوزا (Cusa)، والبوكركي تعني أبو جرجي (Albu querque) وسيجيليه تعني صقلية. (قرألي، م. ن. ج ٢: ٢٨٢ - ٢٨٦).

(٦٧) رسالة مؤرّخة في ربيع الأول ١٠٤٢هـ = أيلول ١٦٣٢م. (قرألي، م. ن. ج ٢: ٣٢٢).

(٦٨) المعلوف، تاريخ فخر الدين، ص. ٢٩٠.

(٦٩) رسالة مؤرّخة في ١٦ كانون الثاني ١٦٠٩ (قرألي، المرجع السابق، ج ٢: ١٧٤ - ١٧٥).

(٧٠) رسالة مورّخة في ٨ آذار ١٦١٤ (قرألي م. ن. ج ٢: ٢٢٧ - ٢٢٨).

(٧١) قرألي م. ن. ج ٢: ٢٤٧ - ٢٥١.

(٧٢) رسالة مؤرّخة في ٢٢ كانون الثاني ٦٠٧١ (قرألي، م. ن. ج ٢: ١٦٦).

(٧٣) ومن بين التقنيّين الذين استقدمهم فخر الدين نذكر:

- طبيب فلورنسي هو ماتيونالدي دي سيينا (Matteo Naldi de Sienne).
- طبيب فرنسي جعله الأمير في بيروت.
- مهندس نحّات إيطالي هو تشيولي (Cioli).
- معلّم بناء إيطالي هو فانيي (Fagni).

- خباز إيطالي هو تشيليني (Celini).

- مصوّر فرنسي.

(قرألي، م. ن. ج ٢: ٢١٢ و Ismaïl, op. cit., T. I., p. 100).

(٧٤) سالم، دراسة في تاريخ مدينة صيدا، ص. ١٩٠.

(٧٥) Mariti, op. cit. p. 199 -

(٧٦) الزين، تاريخ صيدا، ص. ٦١.

(٧٧) E. Roger, op. cit. p. 294 -

(٧٨) يصف دارفيو (d'Arvieux) قصر فخر الدين بصيدا قائلاً: «يحتوي على عدد كبير من الغرف الموزّعة توزيعاً جيّداً وبطريقة تحمل على الإعتقاد أنّ باني هذا القصر هو فنّان فرنسي أو إيطالي» ثم يصف مختلف أرجاء القصر بعد ذلك وصفاً مفصّلاً ودقيقاً.

D'Arvieux, mémoires, T 1, pp. 303 - 308.

(٧٩) Maundrell, Voyage d'Alep à Jerusalem, p. 75 -

(٨٠) Fermanel, Voyage d'Italie et du Levant, p. 322 -

(٨١) Puget de St. Pierre, Histoire des Druzes, pp. 24 - 25 -

(٨٢) D'Arvieux, Mémoires, p. 333 et Maundrell, Voyage p. 71 -

ويذكر ماريتي أنّ النحّات والفنّان الإيطالي تشيولي (Cioli) هو الذي نظّم هذه الغابة ورتّبها وأحاطها بمساحات من الحقول الخضراء (قرألي، المصدر السابق، ج ٢: ١٥٤) وأغلب الظن أنّ فخر الدين لم يزرع بنفسه هذه الغابة، بل تعهّدها فقط.

(Ismaïl, A., Histoire du Liban, T. I., p. 101 Note 177).

(٨٣) Maundrell, Voyage, pp 65 - 67 -

(٨٤) شيخو، بيروت، تاريخها وآثارها، ص. ٧٨ - ٧٩، ويقول الدويهي إنه، في العام ١٦٢٢ «عمّر الأمير فخر الدين في بيروت برج الكشاف والحوش للوحوش، والجنينات» (الدويهي، تاريخ الأزمنة، ص. ٣٢٦).

(٨٥) شيخو، م. ن. ص. ٧٨ - ٧٩، وقرألي، المرجع السابق، ج ٢: ١٥٤.

(٨٦) De la Roque, Voyage de Syrie et du Mont-Liban, T. I. pp. 209 - 210 -

(٨٧) - Ismaïl, Histoire du Liban, T. I., pp. 112 - 117.

وقد تحدّث عن هذه القلاع والخانات والأبراج رحّالة أجانب عديدون مثل:

Maundrell, Voyage pp. 60 - 62, Fermanel, voyage pp. 322 - 334 et d'Arvieux, Mémoires T. II, pp. 378 - 381.

(٨٨) - Ismaïl, op. cit. pp. 100 - 101.

(٨٩) قرألي، المرجع السابق، ج ٢: ٤٨.

(٩٠) م. ن. ص. ٦١.

(٩١) الخالدي، المصدر السابق، ص. ١٢٦ - ١٢٧ و١٣١ - ١٣٢ و١٩٠ و١٩٤ - ١٩٥ على سبيل المثال لا الحصر.

(٩٢) - Sandys, relation, p. 212.

(٩٣) قرألي، المرجع السابق، ج ٢: ٦٣.

(٩٤) قرألي، م. ن. ج ٢: ٢١٣، وجدير بالذكر أنّ فخر الدين كان قد أمسك سجلاً خاصاً لإحصاء الأشخاص في إمارته يذكر فيه أسماءهم وأعمارهم ومهنهم وعلاماتهم الفارقة، وسجلاً آخر لمختلف أنواع الأشجار المثمرة كالكرمة والتوت وغيرها، وسجلاً ثالثاً لإحصاء المواشي كالأبقار والماعز والأغنام وغيرها، فهو يستعين بالسجل الأول لأمر الخراج والتعبئة العسكرية وبالسجلّين الثاني والثالث لتحصيل الضرائب المفروضة على المواشي والأشجار المثمرة.

(Puget de St. Pierre, op. cit. p. 29, et E. Roger, op. cit. p. 300).

(٩٥) قرألي، م. ن. ج ٢: ٦٤.

(٩٦) - Sandys, op. cit. p. 212.

(٩٧) قرألي، م. ن. ج ٢: ٦٥.

(٩٨) م. ن. ص. ٦٥ - ٦٨.

(٩٩) م. ن. ص.٦٥ - ٦٨.

(١٠٠) م. ن. ص. ٨٨ وما بعدها.

(١٠١) م. ن. ص. ١٥٤.

(١٠٢) وقّع الأمير علي بن فخر الدين إحدى رسائله إلى غراندوق توسكانة بتاريخ ٢٧ آذار ١٦٣١ بالشكل التالي: (الخادم المخلص المدين لسموك: الأمير علي إبن الأمير فخر الدين أمير صيدا والجليل) (قرألي، م. ن. ج ٣: ٣٠٥).

(١٠٣) هذه هي الوثيقة الوحيدة التي عثرنا عليها، بهذا التوقيع، عند الأب قرألي (م. ن. ج ٢: ٢٩٢) كما أنّ المؤلّف نفسه علّق على توقيع الأمير بهذه الصفة (أمير صيدا وكامل جبل لبنان) بالحاشية التالية: (بعد أن استولى الأمير على «جبة بشري» التي كانت تعرف «بجبل لبنان» أراد أن يطلق هذا الإسم على كامل المقاطعات اللبنانية التي وحّدها، وأصبح فخوراً بأن يدعى «أمير لبنان» صفحة ٢٩٢، حاشية ٢). ونحن نقول بإمكان صحّة نسبة التوقيع (أمير صيدا وجبل لبنان) إلى فخر الدين ولكننا نستبعد صحّة النيّة المنسوبة إلى الأمير.

(١٠٤) «لا يجوز للمؤرّخ، مهما كان موضوعه، أن يلجأ في كلامه عن الماضي، إلى استعمال المصطلحات السياسيّة والإجتماعيّة بمفهومها الحاضر» هذا ما يقرّره المؤرّخ الدكتور الصليبي، ويضيف على ذلك قوله إنّ المؤرّخين المعاصرين للأمير فخر الدين في القرن السادس عشر، «لم يصفوه بأنه أمير لبنان أو أمير جبل لبنان أو أمير لبناني» (مجلّة الحوادث اللبنانية، عدد ١٩٧٨/٢/١٠).

(١٠٥) زيادة، المصدر السابق، ص. ٣٢.

(١٠٦) «صدف أن قبل ذلك الزمان وقعت الفتنة بين المسلمين وسكّان قرية مجدل معوش وكثرت القتلى بين الجانبين حتى أنهم اتفقوا على بيع القرية والخروج منها، فاشتراها منهم الأمير علي بن الأمير فخر الدين بإثني عشر ألف ودفعها للنصارى، فنزل البطرك من مجدل معوش وعمّر له فيها كنيسة وداراً واستمرّ فيها حتى قصد زيارة القدس الشريف» (من أحداث عام ١٦٠٩، الدويهي، تاريخ الأزمنة، ص. ٣٠١).

- «وساعدهم - أي الموارنة - فخر الدين على الإنتشار في بقية مقاطعات لبنان كالمتن والغرب والشوف، وفي مدنه الساحلية وثغوره كصيدا وصور وعكا، وفي سهوله كعكار والبقاع وبلاد بشارة ومرجعيون، حيث أقام الأمير على المرتفعات المشرفة على السهل الشرقي عدّة قرى مسيحية لردّ غارات البدو عن جبل لبنان، مثل: كوكبا، وقد جلب أهلها من إهدن، وجديدة مرجعيون والقليعة، وأهلها من القاقورة، والخريبة وسردة وغيرها (قرألي، المرجع السابق. ج ٢: ٤٠).

(١٠٧) برهنت على ذلك أحداث لبنان الطائفية في الأعوام ١٨٤٣ و١٨٦٠ و١٩٥٨ و١٩٧٥ - ١٩٧٦.

(١٠٨) زيادة، المرجع السابق، ص. ٢٣.

(١٠٩) قرألي، المرجع السابق، ج ٢: ١٤ - ١٥، ١٣٩ و١٤٣ - ١٤٤ و١٨٩ و٢٧٠ - ٢٧٨ و٢٤٩ - ٢٥٣.

(١١٠) الخالدي، المصدر السابق، ص. ٢٣٦.

(١١١) الخالدي، م. ن. ص. ٦٣٥، وذكر الأب قرألي، نقلاً عن بعض الوثائق المديتشية، أقوالاً في الأمير، في أثناء إقامته بتوسكانة، تثبت صحّة قولنا هذا، فقد ذكر أنّ الأميرال انجرامي قال عنه «لما

كان الأمير متوحّشاً فهو لا يقصد من طلباته المختلفة سوى تكبيد الغراندوق النفقات الطائلة بلا طائل» وقال عنه الوزير زمباردي «جميع المبالغ التي تنفق في سبيل الأمير مطروحة في البحر». وقال جويدي أمين سر الفراندوق «الوقت والمال ضائعان في سبيل الأمير» (قرألي، المرجع السابق. ج ٢: ٢٤).

(١١٢) الخالدي، م. ن. ص ٢٣٧.

(١١٣) قرألي، المرجع السابق. ج ٢: ٢٤ وانظر نداءات النجدة التي أرسلها الأمير إلى توسكانة في م. ن. ص. ٣٤٢ و٢٤٢ و٢٤٦.

(١١٤) خصوصاً أنّ قلّة من المؤرّخين ذكروا هذه الإدعاءات، منهم الأب قرألي، كما أنها تناقض تماماً ما أورده الخالدي، مورّخ الأمير ومعاصره.

(١١٥) E. Roger, op. cit. p. 298. -

(١١٦) المحبي، المصدر السابق، ج ١: ٢٨٦ و ج ٣: ٢٦٧.

(١١٧) الشهابي، المصدر السابق، ج ١: ٧١٥ والخالدي، المصدر السابق، ص. ٢٤٢.

(١١٨) Touma, op. cit., T. I., p. 54. -

وقد قارن المؤلّف بين هذا القول وقول الجغرافي الألماني الشهير راتسل: «الحرب هي أن تنزه حدودك على أراضي الآخرين».

(١١٩) Ismaïl, op. cit. T. I. p. XVII. -

(١٢٠) Jouplain, La question du Liban, p. 117. -

(١٢١) Lammens, La Syrie, T. II, p. 72. -

(١٢٢) Dib, l'Eglise maronite, V. 2, p. 142. -

(١٢٣) Puget de St. Pierre, op. cit. pp. 40 - 41. -

(١٢٤) Hammer, Hist. de l'Empire Ottoman, T. 2, p. 328. -

(١٢٥) Touma, op. cit. T. I. p. 54. -

(١٢٦) Mariti, op. cit. p. 221. -

(١٢٧) Ibid, p. 177. -

(١٢٨) Lammens, op. cit., T. 2, p. 86. -

(١٢٩) شذّ عن القاعدة الأمير أحمد الشهابي، لأنه كان خصماً لقريبه الأمير علي الشهابي أمير وادي التيم وحليف الأمير المعني، وقد أسهم الأمير أحمد في عدّة معارك ضد الأمير المعني، أهمها حملة حافظ باشا على الأمير عام ١٦١٣، إلاّ أنه عاد فاتحد مع الأمير المعني في معركة عنجر الشهيرة عام ١٦٢٣.

(١٣٠) لعلّه من الأسرة القريعية التي حكمت جبة بشري فترة من الزمن، ثم عزلها الأمير منصور العساف عام ١٥٧٤ فنزحت إلى حلب (قرألي، المرجع السابق، ج ٢: ١٦٥).

(١٣١) قرألي، م. ن. ج ٢: ١٦٨.

(١٣٢) قرألي، علي باشا جنبلاط والي حلب، ص. ٤٨.

(١٣٣) أنظر تعريباً للنص الكامل للمعاهدة (قرألي، م. ن. ص. ٤٧ - ٥٤).

(١٣٤) قرألي، فخر الدين ودولة توسكانة، ج ٢: ١٧١ - ١٧٢، أمّا المقصود بالفلورنتيين الثلاثة (في البند الثاني من المعاهدة) فهم المحتجزون لدى الوزير العثماني بحلب، وأمّا القلمتان (البند الثاني أيضاً) فهما قلعتا بانياس والشقيف (أنظر الخالدي، تاريخ فخر الدين، ص. ١٢).

(١٣٥) قرألي، م. ن. ج ٢: ١٧٢، وذكر قرألي أن لا تاريخ لهذه المعاهدة مرجّحاً أنها جرت بعد المعاهدة مع الجنبلاطي ببضعة أشهر، أي في ربيع عام ١٦٠٨ (قرألي، م. ن. ج ٢: ١٧١ حاشية ١).

(١٣٦) الخالدي، المصدر السابق، ص. ٢٣٦.

(١٣٧) الخالدي، م. ن. ص. ٢٣٥ وإنه لمن المستغرب حقاً، بعد هذا الحديث، أن يصح ما أورده الأب قرألي من أنّ الأمير فخر الدين أوفد عام ١٦١١ المطران جرجس بن مارون أسقف قبرص بمهمّة إلى الحبر الأعظم في روما، ليعرض عليه «إذا كان له رغبة في الإستيلاء على هذه البلاد، أو إيفاد من يستولي عليها» وهو يعده، وقد أقسم «ليس بالسماح إلى غلايينه ورجاله بالنزول في موانئه فحسب، بل بمناصرته بكلّ قواي على هذا الكلب التركي» (قرألي، المصدر السابق، ج ٢: ١٨٤) وأنه، أي الأمير، أبدى إستعداده، عند لجوئه، إلى توسكانة عام ١٦١٢ «أن يقود بنفسه الحملة التي يجهّزها الأمراء المسيحيّون، فيحتل أورشليم وطرابلس ويسلّمهما إليهم، وكذلك دمشق» (قرألي، م. ن. ج ٢: ١٨٩)، خصوصاً أنّ المؤلّف نفسه يذكر أن الفراندوق قوزما الثاني إبن فرديناند الأوّل الذي كان قد توفّي عام ١٦٠٩، بعد أن أرسل بعثة تحرّت أحوال الأمير في بلاده - بعثة سانتي وماشنجي - عرض، في ١٤ نيسان ١٦١٤، على الأمير، من جديد المشروع الذي سبق أن عرضه والده عليه، وهو الإستيلاء على الأراضي المقدّسة، فاعتذر الأمير بلباقة «لأنّ الوقت اللازم للحملة أصبح ضيّقاً، وجلّ ما يفكّر فيه الآن هو الركوب وحده إلى لبنان لتخليص بعض ذويه ومقتنياته وتشجيع رعاياه». وعاد مندوبو الفراندوق في اليوم التالي ليكرّروا

العرض على الأمير فكرّر الأمير الجّواب نفسه مُعتذراً عن القبول بالمشروع (قرألي، م. ن. ج ٢: ٢١٧) ويظهر فيما بعد أنّ الأمير ظلّ يتهرّب من القبول بالمشروع طوال مدّة إقامته بتوسكانة.

(١٣٨) توفّي قوزما الثاني عام ١٦٢١ وقد خلفه على العرش فرناندو الثاني الذي كان قاصراً فوضع تحت وصاية والدته ماريا المجدلية أرشيدوقة النمسا وجدّته ماريا كريستينا أرملة فرناندو الأوّل (قرألي، م. ن. ج ٢: ٢٦٨).

(١٣٩) أنظر تفصيلاً لهذه الرواية عند قرألي، م. ن. ج ٢: ٢٦٦ - ٢٩٠.

(١٤٠) م. ن. ص. ٣٤٩.

(١٤١) م. ن. ص. ٣٥٠ - ٣٥١.

(١٤٢) م. ن. ص. ٣٥٣.

(١٤٣) ذكر الأب قرألي أنه عثر، بين الوثائق المديتشية، على تقريرين قدّما إلى الغراندوق فرناندو الثاني عن الحملة العثمانية على بلاد الأمير عام ١٦٣٣، وقد كتبا بإيماز من الأمير «لعلّ صديقه يتحرّك لنجدته» كتب الأوّل أدريان، وكتب الثاني بطرس لوجيده (Logidet) من مرسيليا، دون أن يجد أي من التقريرين صدى لدى صديق الأمير. (أنظر: قرألي، م. ن. ج ٢: ٣٤٢ - ٣٤٦) وذكر بعض المؤرّخين، ومنهم (أوجين روجيه E. Roger) أنّ حرب البيمونت Piedmont بين فرنسا وإسبانيا، هي التي منعت غراندوق توسكانة من نجدة الأمير إذ أرسل الغراندوق جيشه لنجدة حليفه ملك إسبانيا في هذه الحرب E. Roger, La Terre Sainte, p. 300 كما ذكر ماريتي أنّ غراندوق توسكانة امتنع عن تقديم العون للأمير بسبب إنتشار الطاعون في بلاده من جهة (عام ١٦٣٣) وبسبب عدم رغبته في الإصطدام بالأسطول العثماني المرابط على سواحل الأمير من جهة أخرى.

(Mariti, Istorio Di Faccardino, pp. 256 - 257).

(١٤٤) قرألي، المرجع السابق، ج ٢: ٣٤٧.

(١٤٥) م. ن. ص. ٢٦٨.

(١٤٦) Miriti, G. op. cit. pp. 98 - 101 -

(١٤٧) Ibid. pp. 102 - 103 -

(١٤٨) Ibid, pp. 126 et 128 -

ويقصد «ماريتي» بذلك إشاعة فتح القدس ونقل القبر المقدّس منها إلى توسكانة، وكان جيوفاني دي مديتشي يحلم بذلك، بغية وضع هذا القبر في معبد مديتشي بكنيسة كورنز

الفخمة، في فلورنسا (Ibid. p. 125.) ويضيف المؤلّف: «وعلينا توضيح الأمر ووضعه في إطاره الصحيح، وقد رواه خطأ العديد من المؤرّخين في فلورنسا...» ثم يشرح رأيه في أنّ آل مديتشي لم يفكّروا بنقل القبر المقدّس وان كان أحد قادتهم جيوفاني قد حلم بذلك - Ibid., p. 125) (127 إلى أن يقول: «ولم يشأ البلاط إظهار استنكاره للإشاعة، خصوصاً عام ١٦١٣ عند وصول فخر الدين إلى توسكانة، وذلك لأنّ المشروع سيفشل نهائياً، فلم يكن هناك من ضرورة لمحاربة الإشاعات» (Ibid, p. 128).

(١٤٩) - Ibid., pp. 128 - 129.

(١٥٠) - Ibid., p. 178.

(١٥١) - Ibid. p. 178.

(١٥٢) يقول ماريتي إنّ فخر الدين لم يكفّ أبداً «عن العمل لإيجاد معاهدة تجلب له قوات من أوروبا، ولهذا فهو لم يحصر مفاوضاته مع توسكانة بل راسل البابا وحثّ هذين البلاطين لإمداده بالمساعدات اللازمة لمتابعة إنتصاراته وتوطيد حكمه في فتوحاته... ولكي يحث روما على ذلك، أبدى إستعداده لاعتناق الديانة المسيحيّة، ولكن لم يفكّر أبداً أن يقوم بذلك فعلياً» (Ibid, pp. 177 - 178). كما يذكر ماريتي أنّ الأمير بدا عليه التردّد، مرّات عديدة، بشأن تنفيذ مشاريع الدول الأوروبية الحليفة، وأنه، ما أن وصلته رسائل من أمه «تبشّره بإتمام الإتفاق مع الأتراك على عودته إلى الحكم... وتطلب منه الرجوع فوراً إلى البلاد لتطمين الأتراك الذين أمروا باشا دمشق بإتمام التسوية معه، وذلك كي لا يظنّوا أنّ بقاءه خارج البلاد هو بهدف التآمر عليهم... عندها قرّر العودة إلى بلاده وألحّ في طلب ذلك».

- (Ibid, pp. 154 - 156).

(١٥٣) ذكر ماريتي أنّ الأمير أرسل عام ١٦٣٢ المدعو «بطرس لوجيده» من مرسيليا إلى توسكانة، لإعلام البلاط بحاله وليطلب من الغراندوق فرديناندو الثاني مساعدته أو أن يرسل إليه «ولو سفينة واحدة، ليبحر عليها مع عائلته وأولاده»، ولكن «إما لظروف توسكانة، واما لأنّ حالة الأمير كان ميؤوساً منها، لم يفكّر أحد في إرسال السفينة أو المساعدات».

- (Ibid, p. 249).

ويذكر الدكتور عادل إسماعيل أنّ الكاردينال ريشيليو، وزير لويس الثالث عشر ملك فرنسا، علم من قنصله في صيدا، جان باتيست تاركيه، أنّ الأمير فخر الدين قد مال بسياسته إلى توسكانة وإسبانيا منذ عودته من المنفى عام ١٦١٨، فأرسل إليه ينصحه بضرورة الإبتعاد عن هاتين الدولتين، ويمده بمساعدة فرنسية، إلاّ أنه الأمير رفض ذلك، وكتب القنصل تاركيه إلى

الكاردينال ريشيليو رسالة بتاريخ ٢٧ كانون الأوّل ١٦٣١ يقول فيها: «إنّ فخر الدين ما يزال جاداً في تحالفه مع إسبانيا وتوسكانة مصراً على الإسهام في حرب ضد الباب العالي، وانّ البابا يبارك هذه السياسة ويشجّعها» ويضيف الدكتور إسماعيل إلى ذلك قوله: «وقد دفع فخر الدين غالياً ثمن استمساكه بتوسكانة واسبانيا، إذ جردت عليه الدولة العثمانية سنة ١٦٢٢ - ١٦٢٣ حملة قوية بقيادة كوجك باشا مزقت صفوفه، ومال عنه حلفاؤه الأوروبيون فاستسلم وأُرسِل مع أولاده إلى القسطنطينية حيث شنقوا جميعاً» (عادل اسماعيل، السياسة الدولية في الشرق العربي، ج ١ : ٢٤).

(١٥٤) الخالدي، المصدر السابق، ص. ٤.

(١٥٥) - Mariti, Istoria di Faccardino, p. 266 -

(١٥٦) - D'Arvieux, Mémoires, T. 1, p. 364-

(١٥٧) قرألي، المصدر السابق، ج ٢ : ٢٢.

(١٥٨) المعلوف، تاريخ فخر الدين، ص. ٢١٨ وقضيف الجسم: نحيفه. ومن النوادر الطريفة عن دمامة فخر الدين وقصر قامته ما روي ان آل سيفا كانوا يعيّرون النساء المعنيات من زوجاتهم بدمامة الأمير وقصر قامته فيقولون حيناً إنه «لو وقعت البيضة من جيبه لما انكسرت»، ويقولون حيناً آخر إنهم «يستطيعون ان يضعوه في جيوبهم بين مفاتيحهم». ومن أقوالهم الزجلية بهذا الصدد:

جونا الطوال يا نصلة السكين
يا سلسلة مذهبة يا سيف علي الدين
جونا القصار لا شور ولا تدبير
مثل الضفادع يقعوا في قراني البير

فما كان من ابنة الأمير المعني، زوجة أحد آل سيفا، إلا أن اجابتهم:

عيّروني بقصرك قلت عود التبر
والخصر خصر الغزال والعنق شامخ شبر
قولوا لأهل الذكا قولوا لأهل الخبر
القلم يجمع الدنيا ولو كان طوله قدر

ولما عرف المعني بذلك كتب إلى آل سيفا يقول:

نحنا صغار وفي عين العدو كبار

انتو خشب حور نحنا للخشب منشار

وحق طيبة وزمزم والنبي المختار

ما بعمر الدير إلا من حجر عكار

(المعلوف، م. ن. ص. ١٧١).

(١٥٩) الخالدي، المصدر السابق، ص. ٢ و٤، ولا ريب في أن كلام الخالدي هذا هو مديح للأمير أكثر مما هو تقييمٌ متجرد لأخلاقه.

(١٦٠) - Mariti, op. cit: pp. 267 - 271

(١٦١) - Roger, La Terre Sainte, pp. 295 - 296 et pp. 299 - 300

(١٦٢) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٢٣.

(١٦٣) قرألي، م. ن، ص. ن.

(١٦٤) قرألي، م. ن. ص. ٢٤.

(١٦٥) حتي، لبنان في التاريخ، ص. ٤٥٥.

الفصل الثاني

القوى المسلحة عند فخر الدين المعني الثاني

١ - التنظيمات العسكرية:

كان من الطبيعي، إزاء طموحه السياسي الكبير، أن يهتم فخر الدين بتنمية قواته المسلحة وتطويرها وتعزيزها، حتى اعتبرها بعض المؤرخين[١] أقوى الجيوش في بلاد الشام وأكثرها تنظيماً. ورغم اننا نرى في هذا الأمر بعض المبالغة استنادا إلى الحقائق التاريخية التي ستواجهنا أثناء درسنا لمعارك فخر الدين المختلفة في فصول لاحقة، إلا أننا لا ننكر الدور الكبير الذي استطاع الأمير أن يلعبه، في هذه المنطقة، بفضل قوته العسكرية المتطورة.

لقد كان لدى الأمير، طوال فترة حكمه (١٥٩٠ - ١٦٣٣) ثلاثة تنظيمات عسكرية هي:

(أ) **جيش الاقطاع**، أو الجيش الوطني، وهو الجيش المكوّن من الرجال القادرين على حمل السلاح في إمارة الشوف وفي باقي المقاطعات التي كانت تحت سيطرة الأمير، بصرف النطر عن المذهب أو العنصر أو الطائفة، فكان يلتقي في هذا الجيش الدرزي والماروني والسني والشيعي والملكي[٢]، وربما كانت إمارة فخر الدين هي الوحيدة، في أرجاء السلطنة العثمانية الواسعة، التي تقبل هذا النوع من العلمانية في تكوين الجيوش في ذلك الحين - باستثناء

جيش الانكشارية الذي كان في الأصل من الذميين الأرقاء -، وكان هذا الجيش يتبع، في مجالات التنظيم والتجنيد والتعبئة والتجهيز والتموين والتسليح، الطرق نفسها التي كانت تتبعها الجيوش الاقطاعية في ذلك الزمن، فإذا ما قرر مجلس أعيان الأمير اعلان الحرب ضد مقاطعة ما، وانطلق المنادون في أرجاء الامارة ينادون للتعبئة العامة، بادر أصحاب الإقطاعات الموالية للأمير من أمراء ومقدمين ومشايخ، بجمع الرجال القادرين على حمل السلاح من فلاحي مقاطعاتهم، خيالة ومشاة، وهم مجهزون بخيلهم وسلاحهم وزادهم، وقادوهم إلى النقاط المحددة، حيث يلتئم الجيش بكامله، ويسير بقيادة الأمراء والمقدمين والمشايخ إلى المعركة(٣)، أما القيادة العامة لهذا الجيش فكانت للأمير نفسه أو لأخيه يونس أو لابنه الأمير علي(٤)، ويتفرق هذا الجيش بعد انتهاء المعركة إذ يعود المقاتلون إلى قراهم لمتابعة أعمالهم الزراعية. وجدير بالذكر ان الأمير كان يقوم بإحصاء الرجال القادرين على حمل السلاح في إمارته ويمسك سجلات خاصة بذلك(٥)، وذلك لمراقبة عملية التعبئة عند الضرورة.

(ب) **جيش المرتزقة**، أو السكمان(٦)، وهو الجيش النظامي الدائم الذي كان يشكل نواة القوة العسكرية للأمير(٧)، وكان تنظيمه مماثلاً لتنظيم الجيش الإنكشاري في الدولة العثمانية، حيث ينتظم الجند في وحدات تسمى «أورطة» (Orta) ويراوح عديد كل منها بين سرية وكتيبة، وكانت مهمة هذا الجيش في الأساس هي حفظ الحدود والأمن وحراسة القلاع والحصون، وقد استخدم الأمير هؤلاء المرتزقة قبل سفره إلى توسكانة، وكلفهم حراسة القلاع المهمة في إمارته، ولما عاد من رحلته زاد عدد السكمان في إمارته حتى بات عنده نوعان منهم: السكمان القدامى وهم الذين كانوا في خدمته قبل سفره (عام ١٦١٣)، والسكمان الجدد، وهم الذين استخدمهم بعد عودته (عام ١٦١٨)، وهؤلاء ينتظمون في وحدات مستقلة عن السكمان القدامى(٨).

كان السكمان مقاتلين مأجورين يهمهم جمع المال والحصول على المغانم والأعطيات[٩]، إلا انهم كانوا مع ذلك قساة شديدي المراس، يقاتلون بشراسة وبأس وعناد، وكان لهم الفضل الأول في صمود قلعة شقيف أرنون طوال شهرين كاملين في وجه والي الشام عام ١٦١٢ وفي أثناء غياب الأمير بتوسكانة، وكان الأمير يستخدم، إلى جانب هذا الجيش من السكمان، مرتزقة آخرين من أسرى الفرنجة ومن الخبراء الأوروبيين، يعتمدهم في تدريب الجند على استعمال الأسلحة، وخصوصاً المدافع[١٠]، وفي أعمال الدفاع عن القلاع.

(ج) **الجيوش الحليفة**، وهي جيوش المقاطعات المجاورة للأمير، وتقسم إلى قسمين:

الأول: الحلفاء الدائمون للأمير: وهم الشهابيون أصحاب وادي التيم، والأرسلانيون في الغرب، واللمعيون في المتن، والخازنيون في كسروان، وقد خاضوا إلى جانب الأمير معظم معاركه وكانوا حلفاء دائمين له.

- علي باشا جنبلاط والي حلب، وقد ظل حليفاً للأمير حتى سقوط ولايته عام ١٦٠٧.

الثاني: الحلفاء الظرفيون: وهم الذين كانوا يحالفون الأمير أحياناً ويخاصمونه أحياناً أخرى وفقاً لمصالحهم، ومنهم:

- الحرفوشيون أصحاب البقاع، وقد حالفوا الأمير ضد ابن الفرنج عام ١٥٩٣ - ١٥٩٤، وقاتلوه في عنجر عام ١٦٢٣.

- حكام جبل عامل في سنجقية صفد، وقد حالفوه في عنجر عام ١٦٢٣ ضد والي الشام وآل حرفوش.

- مشايخ حوران من عرب المفارجة وأمراء عجلون من آل قانصوه[١١].

(د) **القيادات العسكرية**: القائد العام لجيوش الإمارة كافة هو الأمير فخر الدين، يعاونه غالباً مجلس من أعيان البلاد في أخذ القرار بإعلان الحرب، إلا

ان الأمير كان يولي على هذه الجيوش إما ابنه الأمير علي، أو أخاه الأمير يونس(١٢).

الأمير علي: تسلم إدارة البلاد من والده عام ١٦١٢ ولمّا يبلغ الخامسة عشرة من عمره، وخاض معارك عدة أبلى فيها البلاء الحسن، سواء ضد قبائل العرب في عجلون وصفد وحوران، أم في الناعمة ضد الحزب اليمني، أم في معارك أخرى ضد آل سيفا ووالي الشام، وقد تعلم فن القتال بالممارسة وأتقنه بنباهته وجرأته، وزاد في اتقانه له على أيدي القادة الخبراء التوسكانيين الذين كان والده يستقدمهم بعد عودته من توسكانة، كما أسهم اسهاماً كبيراً في تحصين القلاع والدفاع عنها ضد العثمانيين في أثناء غياب والده، (١٦١٣ - ١٦١٨)(١٣). وقد تسلم قيادة قسم من الجيش في جهات عجلون وفلسطين بعد عودة والده من توسكانة، وظل هناك حتى عودته إلى وادي التيم، ليخوض آخر معاركه في ١٥ تشرين الأول عام ١٦٢٤ في سوق الخان قرب حاصبيا ضد أحمد الكجك والي الشام، وقد قتل في هذه المعركة عن عمر يناهز السادسة والثلاثين عاماً(١٤). ويروى أن الأمير علياً سقط جريحاً في هذه المعركة فتقدم منه شخص يدعى «دالي حسن» من انكشارية الشام، فطلب منه الأمير العون والمساعدة، وكان علي على معرفة به، وقد سبق أن أحسن إليه كثيراً، إلا ان الإنكشاري أجاب الأمير «يا أمير العرب، إن رأسك مصدر الخير والبركة، ولسببه يحصل المرء على النعمة، وأنا الذي قد نلت منك نوالاً عظيماً أرى أن أتمم سعادتي به وأحصل على رضى الدولة»، ثم تقدم منه وحزّ رأسه وحمله إلى أحمد الكجك الذي «أجازه بمئة ذهب ومئة شاة وعيّنه سرداراً على طرابلس الشام طوال حياته»(١٥).

عرف الأمير علي بحنكته في القيادة وبسالته وشجاعته في الحروب، بالإضافة إلى دهاء في السياسة والإدارة وأمور الحكم(١٦).

الأمير يونس: ولى الأمير فخر الدين أخاه الأمير يونس قيادة جيش عام ١٦٠٠ «لأنه كان قد أظهر في عدة وقائع بسالة وشدة بأس ومدارك عالية في فن القتال»[١٧]، وبالفعل، فقد خاض الأمير يونس معارك عديدة أبدى فيها بطولات رائعة حتى أصبح المعتمد الأول لدى أخيه في الحروب ونائبه في القيادة العامة للجيوش، فقد ولاه فخر الدين قيادة هذه الجيوش عام ١٦١٣ عندما غادر البلاد إلى توسكانة، كما ولّى ابنه علياً إدارة البلاد، فصمد الأمير يونس في وجه العثمانيين ودافع عن القلاع والبلاد بجدارة ومقدرة، ولما عاد الأمير إلى البلاد عام ١٦١٨ ولّى أخاه الأمير يونس على قسم من الجيش في شمال البلاد، كما ولّى ابنه الأمير علياً على القسم الآخر في جنوبها[١٨]، وظل الأمير يونس في قيادته هذه حتى عام ١٦٣٤ حيث خاض آخر معاركه ضد أحمد الكجك والي الشام، وهي المعركة التي أسر في نهايتها مع ابنه الأمير حمدان، وتوفيا في الأسر[١٩].

لا ريب في أن الأمير يونس كان على جانب كبير من الشجاعة والحنكة والمقدرة في الحروب، فهو الذي انتصر في كثير من المعارك منذ أن تسلم قيادة الجيش في إمارة أخيه، وهو الذي حقق، بالتعاون مع الأمير علي، الكثير من الانتصارات للأمير فخر الدين، إلا انه، مهما علا شأنه في مضمار القتال، كان غير قادر على الصمود طويلاً في وجه الجحافل العثمانية التي غزت الإمارة المعنية فأنهت أمجاد آل معن بقضائها على الفرسان الثلاثة: فخر الدين ويونس وعلي[٢٠].

قيادات جيش الإقطاع أو الجيش الوطني: بالإضافة إلى القيادة العليا التي يتولاها الأمير بنفسه أو يوليها لأخيه يونس أو ابنه علي، كان جيش الإقطاع أو الجيش الوطني يسير إلى القتال في تنظيمات عائلية مستقلة كل منها عن الأخرى، فتحارب كل فرقة «تحت ألوية أمرائها ومقدميها ومشايخها، ويخضع

قوادها لأوامر القيادة العامة، التي كان يتولاها الأمير أو إبنه علي وأحياناً أخوه يونس»[٢١]، إلا أن الجميع كانوا يسيرون تحت راية الأمير، وهي راية الحزب القيسي الذي يتزعمه الأمير نفسه.

قيادات جيش المرتزقة أو السكمان: يختلف التنظيم القيادي لهذا الجيش عن التنظيم القيادي لجيش الإقطاع اختلافاً تاماً، وقد سبق أن ذكرنا ان هذا الجيش ينتظم في وحدات تسمى «أورطة» يراوح عديد كل منها بين سرية وكتيبة، ويتولى إمرة هذه الوحدات ضباط من مختلف الرتب حسب عديد كل وحدة، فهناك السردار قائد الألف[٢٢]، وهناك البلوكباشي قائد المئة. قال الخالدي: وجعل فخر الدين «على عسكر قلعة بانياس حسين اليازجي سرداراً وبها عشرة بلوكباشية على ألف نفر ماش، وعلى عسكر قلعة الشقيف طويل حسين بلوكباشي وبها خمسة بلوكباشية على أربعماية نفر ماش أيضاً»[٢٣].

وأشهر قادة هذا الجيش هو الحاج كيوان الذي كان له الفضل الأول في تنظيم جند السكمان عند الأمير نكاية بانكشارية الشام، وقد ظل في خدمة الأمير حتى قتل على يده بعد وقعة عنجر عام ١٦٢٣، وكان قد تدرج في الرتب حتى بلغ رتبة آغا الإنكشارية في الشام[٢٤].

إلا ان الأمير فخر الدين، بعد عودته من توسكانة، وإنشائه لفرقة السكمان الجدد، التي عني بتحديثها وتطويرها بواسطة الخبراء العسكريين الإيطاليين والأسرى الفرنسيين الذين كلفهم تدريب الجند على استعمال المدافع وغيرها من الأسلحة النارية، رأى من الأفضل أن يقود هذا الجيش بنفسه أو أن يولّي ابنه علياً أو أخاه الأمير يونس هذه القيادة[٢٥].

وكان لجيش السكمان علمه الخاص به، كما كان لكل أورطة بيرقها وشعارها، إلا أن علم الإمارة كان في مقدمة هذه الأعلام والبيارق كلها.

قيادات الجيوش الحليفة: كانت الجيوش الحليفة للأمير تقاتل تحت ألويتها وبقيادة أمرائها ومقدميها ومشايخها، تماماً كجيش الأمير الوطني، إلا أن القيادة العامة لهذه الجيوش كانت للأمير نفسه، بحيث تقاتل مع جيوش الأمير، جنبا إلى جنب، بتنسيق وتناغم كاملين.

٢ - الأسلحة:

لم تعرف التنظيمات العسكرية في إمارة المعني سوى ثلاثة أسلحة رئيسة هي: المشاة والخيالة والمدفعية، أما باقي الأسلحة فلم يكن لها وجود تقريباً، رغم انه كان لبعضها مثل الهندسة والإشارة، بعض المعالم كما سنرى.

(أ) المشاة: هم غالبية المقاتلين في الجيوش المعنية، يصفهم «سانتي» في تقريره سنة ١٦١٤ بقوله: «يلبسون خفيفاً ويحملون البنادق والسيوف العريضة النصال، يمشون وراء الراية بلا ترتيب، ويحاربون بلا نظام»[٢٦]، وكان هؤلاء المقاتلون «فلاحين محاربين» يتصفون «بالشجاعة وشدة البأس... وببسالتهم الحربية»[٢٧]، وكانوا ينتظمون في جماعات عائلية وطائفية متحدة تقاتل جميعها جنبا إلى جنب تحت راية الأمير المعني، ويصف المؤرخ الفرنسي «بيجيه دي سان بيير» (P.de St. Pierre) جيوش الأمير بقوله: «تحت إمرته - أي الأمير - جيوش نظامية، منضبطة ومقاتلة وكثيرة العدد بحيث يمكنها أن تصمد في وجه مايتي ألف تركي... ومن جهة ثانية، فالضباط وحاميات القلاع، المرتبطون بحكم وظائفهم، هم قابلون للطاعة بحكم الواجب والشرف وواقع الحال، لذا، كان الأمير مهاباً دون الاستعانة بقوات السلاطين»[٢٨]، كما يصف أبناء الأمير بأنهم «مدربون، كغيرهم، على تمارين السلاح الشاقة والصيد، مما أعطاهم، منذ نشأتهم، المهارة والشجاعة والقوة، وهذا الذكاء الخارق بالنسبة إلى الحال الذي هم معدّون له»[٢٩].

ويرى بعض المؤرخين ان الأمير فخر الدين قد عين الشيخ رباح الخازن عام ١٥٩٨ قائداً للمشاة، يذكر ذلك المؤرخ فيليب قعدان الخازن في نبذة تاريخية كتبها ونشرها له المؤرخان نسيب وهبة الخازن وبولس الحلبي، يقول في هذه النبذة: «واستدعى الأمير فخر الدين في سنة ١٥٩٨ الشيخ ابراهيم أبا صقر وأخاه الشيخ رباحاً الملقب بأبي صافي الخازن وجعل الأول معاوناً له في الأحكام، والآخر دهقاناً ورئيساً لجيش المشاة»[٣٠]. ويؤيده في ذلك الدكتور فيليب حتي[٣١] والأستاذ عيسى اسكندر المعلوف[٣٢]. إلا أن أحداً من المؤرخين المعروفين أمثال المحبي والبوريني والشهابي والدويهي والشدياق لم يأت على ذكر ذلك في أحداث عام ١٥٩٨، حتى ولا الأب أوجين روجيه، طبيب الأمير الخاص، في كتابه «الأرض المقدسة»[٣٣] الذي تحدث فيه عن الأمير وحروبه بإسهاب وتفصيل.

(ب) الخيالة: يصف «سانتي»، في تقريره، خيالة الأمير بقوله: «أما الفارس فيلبس ثقيلاً، يلتحف بجبة واسعة ويحمل البندقية ذات القداحة لأن ليس لديهم سواها، أم بارودة هندية تبلغ قصبتها ستة أقدام طولاً، خفيفة وصلبة، وفي رأسها سنٌ من حديد. يعلق الفارس السيف في جنبه، والدبوس في السّرج، ويحمل ترساً محاكاً من خيوط حريرية دقيقة، يتلقى به السهم، وفي وسط هذا الترس قرص من نحاس يرد به ضربات السيف، يمتطون الخيول العربية الغالية الثمن، الصبورة على التعب، وذات السرعة المدهشة، ومع ان طعامها العشب وحفنة من الشعير، فهي تعمل النهار كله بلا كلل ولا ملل. يسيرون جماعات بلا بوق ويحاربون منفردين بين كرٍّ وفر، وكل الأمر في سرعة الحصان وخفة حركاته»[٣٤]. وكانت خيالة الأمير خليطاً من السكمان والأعراب واللاوند - وهو عسكر كانت مملكة البندقية تستعمله قديماً - وأهل البلاد.

ويرى بعض المؤرخين ان الأمير فخر الدين قد عيّن الشيخ أبا نادر الخازن قائداً للخيالة، يذكر ذلك المؤرخ فيليب قعدان الخازن في نبذته التاريخية إذ يقول: «وظل الشيخ أبو نادر... إلى أن حضرته الوفاة في سنة ١٦٤٧ في غرة تموز. وقد كان رئيساً للطائفة ومدبراً أول للأمير[٣٥] وقائداً للفرسان»[٣٦]، يؤيده في ذلك المؤرخ الفرنسي «نانتي» (Nantet)[٣٧]، والأب بولس قرألي، مستنداً في ذلك إلى تقرير من القنصل فرنسيس دي فراتسانو إلى البلاط التوسكاني يذكر فيه ان الشيخ أبا نادر الخازن هو قائد الخيالة في جيش الأمير[٣٨]، وإلى رسالة من القنصل نفسه إلى أمين سر الغراندوق بتوسكانة يذكر فيها كذلك ان الشيخ أبا نادر الخازن هو قائد خيالة الأمير وحاكم بيروت[٣٩]، وكذلك المؤرخ الإيطالي ماريتي الذي يذكر ان أبا نادر كان عام ١٦٣٠ قائداً لخيالة الأمير كما كان أمين سره الأول وحاكماً لبيروت[٤٠]. ويظهر ان ذلك كان في السنوات الأخيرة من حكم الأمير، يؤكده «نانتي» (Nantet) بقوله: إنه كان على رأس جيش الأمير استراتيجي جيد هو أخوه الأمير يونس بينما سلم الأمير، في أواخر حكمه، قيادة الخيالة، إلى أبي نادر الخازن[٤١]، والدكتور عادل اسماعيل بقوله: إن الأمير، تقديراً منه لآل الخازن واظهاراً لثقته بهم، عيّن في أواخر حكمه، أبا نادر الخازن، قائداً للخيالة[٤٢]، بينما ينبئنا الخالدي ان الأمير كان قد قرر عام ١٦٢٤ التوجه إلى سنجق عجلون ونابلس لخلع متسلمه فاختار «جميع الخيالة وجعلهم قسمين: خيالة السكمانية معه وخيالة أولاد العرب مع الأمير أحمد بن الشهابي وابن أخيه الأمير محمد»[٤٣] بينما ترك «جميع مشاة السكمانية وأولاد العرب» مع ابنه الأمير علي[٤٤].

(ج) المدفعية: لم يكن عند الأمير وحدات مدفعية وطنية، إنما كان يستورد من أوروبا المدافع والمدفعيين، بالإضافة إلى استخدامه الأسرى

الأوروبيين في تدريب جنده على استعمال المدافع[٤٥]، بل ويستعملونها هم أنفسهم، في خدمة الأمير، يذكر «سانتي» في تقريره انه، في أثناء هجوم أحمد باشا الحافظ، والي دمشق، على قلعة الشقيف، كان في داخل القلعة ثلاثة مدافع «لم يجرؤ أحد على استعمالها، بيد ان بعض الفرنسيين من أسرى الأمير عمدوا إلى استخدامها وأداروها بمهارة أدهشت الجميع وأنزلت بالعدو خسائر فادحة، لا سيما انهم كانوا يرمونه بالنيران الاصطناعية فيلقون الرعب بين جنوده لغرابتها»[٤٦]، ولم يكن الأمير ليغفل هذه الناحية في جهازه العسكري، لذا، كان يلحّ على أصدقائه من أمراء أوروبا أن يزودوه بالخبراء في تركيب المدافع واستخدامها[٤٧]، كما كان يبتاع منهم الأسلحة، وخصوصاً المدافع، بسخاء[٤٨]، وكانوا يقدمون له بدورهم قطعاً من المدافع كهدية، فقد أهدى إليه نائب الملك الاسباني في نابولي مدفعين عام ١٦٠٧[٤٩]، وطلب الأمير، في العام نفسه، من فرديناند الأول دوق توسكانة، تزويده بخبراء لصب اثني عشر مدفعاً[٥٠]، وزوده الغراندوق قبل عودته من توسكانة عام ١٦١٨ «بخبراء ومهندسين ونجارين لعمل عجلات المدافع... فضلاً عن خمس قطع من المدافع لتسليح القلاع ورجال ماهرين بإدارتها»[٥١]، وكان الأمير يدفع لهؤلاء الخبراء كما يدفع للأسرى الذين يستعملون المدافع في قلاعه، أو يدربون جنده على استعمالها، أجوراً باهظة[٥٢]. ولا عجب فقد كان الأمير يعتقد انه إذا سلّح بعض قلاعه بالمدافع فلن تقوى كل جيوش بني عثمان على احتلالها[٥٣]. لذا نراه يهتم بتجهيز قلعة الشقيف بالمدافع الصغيرة والكبيرة، بحيث نجد فيها عام ١٦١٨ عشرة مدافع[٥٤].

(د) الهندسة: كما في المدفعية، كذلك في الهندسة العسكرية، اعتمد فخر الدين على المهندسين الأوروبيين الذين استقدمهم للإشراف على

تحصين قلاعه وشق الطرق وبناء الجسور لتأمين الاتصال فيما بينها، كما كان يستورد من أوروبا البارود والنيران الإصطناعية[٥٥]. ويذكر «بيجيه دي سان بيير» أن دوق توسكانة أرسل للأمير «عدداً كبيراً من الألغام واللغامين والمهندسين والفنيين... وكل هؤلاء كان همهم تجهيز القلاع بكل ما يجعلها قادرة على الصمود طويلاً»[٥٦]. وفي العام ١٦٢١ تسلم فخر الدين من الفراندوق هدية مؤلفة من ألفي قنبلة وما يلزمها من البارود ومفرقعات، ونيران إصطناعية[٥٧]. كما استقدم الأمير من توسكانة صانعاً للمتفجرات يدعى غبريال بيتارديرو (Gabriel Pétardiéro)[٥٨]. هذا بالإضافة إلى ما أنشأ ورمّم من قلاع وحصون وأبراج للدفاع عن إمارته.

(هـ) الإشارة: يذكر الدكتور حتي أن فخر الدين قد أنشأ الدوريات «واستعمل الحمام الزاجل لنقل الرسائل، واستعمل الجواسيس ليتجسسوا له في الخارج»[٥٩]. إلا أن أفضل وسيلة من وسائل الاتصال عند الأمير كانت تلك التي وصفها الدكتور عادل اسماعيل كما يلي: «إذا تقرر اعلان الحرب اجتمع الأمير والأعيان وأرسلوا الرسل إلى جميع القرى ليدعو رجالها للتجمع مسلحين في مكان يعين للالتئام، فيصعد المنادون مساء إلى قمم الجبال أو إلى المآذن والأجراس ويكررون نداء الأمير وأسيادهم إلى الحرب، وكان هذا النداء ينتقل من قرية إلى أخرى في ساعات قلائل حتى يصل إلى الحدود البعيدة، وكانت طبيعة البلاد الجغرافية مع وجود القرى على رؤوس الجبال التي تفصل ما بينها أودية عميقة، تسمح بهذا النوع من الاتصال الأكيد والسريع»[٦٠].

هذا إذا استثنينا الوسيلة الأساسية للاتصال في ذلك الزمن، والتي من أجلها أنشئت الأبراج أساساً في العهد المملوكي، ألا وهي: المَناور[٦١]، وهي كناية عن نار توقد في الأبراج المتسلسلة على قمم الجبال في طول البلاد وعرضها، للتحذير من هجوم عدو أو لإيصال إشارة ما، وهكذا، كانت الإشارة

تنطلق من أبراج بيروت لتصل إلى دمشق مروراً بالمديرج، بواسطة النار الموقدة في الأبراج، ليلاً، أو الدخان المتصاعد منها، نهاراً. قال صالح بن يحيى: «فشالوا - أي المسلمون - النار ليلاً إشارة لوصول الفرنج إلى بيروت، فوصلت النار بالتدريج في تلك الليلة إلى دمشق، فحضر بيدمر نايب الشام إلى بيروت عشية تلك اليوم وتتابعه عساكر الشام»[٦٢]. وقال أيضاً: «وقرروا - أي المسلمون - أيضاً ناراً تصال إلى دمشق في ليلة جعلوا من ظاهر بيروت يشعلوها فتجاوبها نار في رأس بيروت العتيقة[٦٣] ومنه إلى جبل بوارش[٦٤] ومنه إلى جبل يبوس[٦٥] ومنه إلى جبل الصالحية[٦٦] ومنه إلى قلعة دمشق، فالنار للحوادث في الليل وحمام البطاقة للحوادث في النهار والبريد للأخبار»[٦٧]، بالإضافة إلى سعاة البريد (خيل البريد) ودوريات الاتصال. قال صالح بن يحيى كذلك: «وجعلوا درب دمشق أربع برد: الحصين[٦٨] بريد ومنه إلى قرية زبدل بريد ومنها إلى خان ميسلون[٦٩] بريد ومنه إلى دمشق بريد»[٧٠].

٣ - العديد:

اختلف المؤرخون في تقديراتها لعديد القوات المسلحة في الإمارة المعنية في عهد فخر الدين، وقد راوحت هذه التقديرات بين اثني عشر ألف مقاتل ومئة ألف، الأمر الذي يجعل الشك يخيم فوق هذه الأرقام كلها، خصوصاً ان هذه التقديرات خضعت لعوامل عديدة متفاوتة أهمها:

(أ) افتقارها إلى الوثائق المؤكدة لإثبات صحتها.

(ب) حصولها في أزمنة متفاوتة كانت في خلالها رقعة الأرض التي يحكمها الأمير تراوح بين الزيادة والنقصان.

(ج) غموض معظمها وعدم افصاحها عما إذا كانت تتعلق بقوات الأمير في حالة السلم أم في حالة التعبئة، وعما إذا كانت تعود إلى قواته وحده أم إلى

قواته وقوات حلفائه مجتمعة، ثم إذا كانت تنحصر بقواته الوطنية أم بها وبقوات السكمان معاً.

إلا ان ما يمكن تأكيده هو أن هذه القوات لم تكن ثابتة العدد بصورة دائمة، بل كانت تزيد أو تنقص تبعاً لزيادة المقاطعات التي يسيطر عليها الأمير أو نقصانها، وتبعاً لحالتي الحرب والسلم في البلاد.

وفي تقريره إلى دوق توسكانة فرديناند الأول عام ١٦٠٥، كتب روفائيل كاتشياماري (Cacciamari) عن قوات الأمير ما يلي: «في وسع هذا الأمير تجنيد اثني عشر ألف مقاتل من حملة البنادق المدربين على الحرب، وإذا أجهد نفسه، تمكن من حشد عشرين ألف مقاتل»[٧١].

وجاراه نانتي (Nantet) في هذا الرأي، فقال إنه - أي الأمير - «يحتفظ لنفسه بالقيادة العليا لجيش دائم يراوح عديده بين ١٢ ألف و٢٠ ألف مقاتل» إلا أنه زاد على ذلك بقوله إنه يمكن أن «يبلغ هذا الجيش في زمن الحرب ستين ألف مقاتل بعد أن ينضم إليه مقاتلو الشوف والمرتزقة، حسب التقاليد المتبعة عند كبار الإقطاعيين، فيصبح جيشاً وطنياً وإقطاعياً في آن معاً»[٧٢]. وذكر الرحالة ديهي دي كورمينان (Des Hayes de Courmenin) في رحلته التي قام بها عام ١٦٢١ انه كان بوسع الأمير «أن يجند عشرة آلاف مقاتل في يومين، عدا عن ثمانماية خيال من السكمان كانوا يحرسون حدود إمارته»[٧٣].

وفي رسالة مؤرخة في ٢٩ أيلول ١٦٠٦ تلقاها فردیناند الأول دوق توسكانة من أحد عملائه بالآستانة، أنبأه هذا العميل بالحملة التي يعدها السلطان لتأديب العصاة في آسيا، ومنهم فخر الدين الذي حشد لأجل ذلك «من خمسة عشر إلى عشرين ألف محارب»[٧٤].

وجاء في تقرير سانتي عام ١٦١٤ أن بوسع الأمير، إذا بذل الجهد «أن يجند من رعاياه عشرة آلاف راجل وخمسماية فارس» مستثنياً، كما يبدو جيش السكمان، والجيوش الحليفة، إذ يقول في مكان آخر من تقريره: «أما العرب أصدقاء الأمير، ففي وسعهم أن يسعفوه بعشرة آلاف مقاتل أغلبهم خيالة مسلحون بالحراب والقسي والسيوف العريضة النصال»(٧٥).

إلا أن رفيقه ماشنجي ذكر في تقريره أن الأمير، قبل نكبته عام ١٦١٣، «كان له من الجنود عشرون ألفاً، بينهم ٣ آلاف رتّب لكل منهم ٤ ريالات في الشهر خلاف النفقة»(٧٦).

أما أوجين روجيه (E. Roger) طبيب الأمير الخاص، فذكر أن الأمير يحتفظ عادة بأكثر من خمسة عشر ألف رجل «وهذا كان كافياً، لو أراد الأمراء المسيحيون مساعدته، لسيطرته على الأراضي المقدسة»(٧٧). وذكر بيجيه دي سان بيير (P. de St. Pierre) ان الأمير يحصّل من الضرائب ما مقداره مليوناً أقجة (écus) يدفع منها للسلطان ستين ألفاً. ولكن المدهش هو أنه بهذا المدخول يحتفظ باستمرار بجيش من ٢٥ ألف مقاتل قسمه إلى قسمين: الأول بقيادة ابنه الأمير علي والثاني بقيادة أخيه الأمير يونس(٧٨).

وفي رسالة تلقاها دوق توسكانة من أحد عملائه السريين في الشرق عام ١٦٠٨، ذكر أن الأمير فخر الدين ينشط لجمع «ثلاثين ألف مقاتل»، «مستخدماً الأسطول التوسكاني في نقلهم وتموينهم، مما أثار شبهات الباب العالي في سلوكه، وجعله يتحفز لمعاقبته»(٧٩).

وذكر هذا الرقم أيضاً القنصل دوفراتسانو قنصل توسكانة، ولكن عام ١٦٣٢، إذ قال في أحد تقاريره: «جهز الأمير فخر الدين على الأمير طربيه

سنجق حيفا ثلاثين ألف من حملة البنادق»[٨٠]. كما ذكر ذلك الكونت دي سيزي (Comte de Césy) سفير فرنسا في الآستانة في إحدى رسائله الدبلوماسية عام ١٦٢٤ والمحفوظة في ربائد المكتبة الوطنية بباريس، إذ ذكر «أن الأمير فخر الدين يمكنه أن يسلح ٣٠ ألف مقاتل إذا شاء»[٨١].

إلا أن الرحالة الفرنسي دارفيو (D'Arvieux) الذي قام برحلته عام ١٦٥٩ - ١٦٦٠، زاد على هذا الرقم عشرة آلاف إذ قال: «كانت فرقة السكمان نواة لجيش قوي تعود الأمير أن يجمعه من الوطنيين، يبلغ ٤٠ ألفاً»[٨٢].

وجاراه في ذلك الرحالة الانكليزي ساندس (Sandys) (عام ١٦١٠) إذ ذكر أن لدى الأمير «أربعين ألف جندي مدرب يدفع لهم الرواتب بصورة دائمة»[٨٣].

كما جاراه المؤرخ بورون (Bouron) إذ قال: «في بضعة أشهر، جال - فخر الدين - جولة واحدة وجمع حوله جيشاً زاد على ٤٠ ألف محارب»[٨٤]. وتحاشى دي لاكروا (De la Croix) تحديد عديد القوات المسلحة عند الأمير فخر الدين، إلا أنه تحدث عنها بإعجاب فقال: «احتفظ فخر الدين بجيش مهم ظل متأهباً حتى موته، مما جعله مهاباً، واستخدمه في الحصول على ضرائب كبرى من الأمراء الصغار المجاورين ومن شعوب سوريا وفلسطين، وذلك كي يجنبهم غاراته وغارات الأعراب»، وقال في مكان آخر: «أصبحت قوة فخر الدين مهابة عند جيرانه بشكل لا يمكنهم مقاومتها مما جعلهم يلجأون، بدافع الغيرة، إلى السلطان أحمد ويلفتونه إلى أهمية وقف تصاعد عظمة الأمير التي تهددهم جميعاً بغزو قريب»[٨٥].

ويحدد الدكتور عادل اسماعيل عديد قوات الأمير في حال التعبئة بعدد يراوح بين ٤٠ ألف و٦٠ ألف مقاتل، معتمداً في ذلك على «وثائق العصر

وشهادات الرحالة»، ومبيناً أن هذه القوات، وبدقة أكثر «تجمّع الفلاحين» هذا، يعتبر «عديداً عسكرياً مهماً، ليس فقط بعدده... وإنما أيضاً بالمزايا الشخصية، وبشجاعة المقاتل وصبره ومهارته في الرمي»، إلا أنه يعود فيذكر أن الجيش النظامي المكون من الجيش الوطني ومن مرتزقة السكمان يراوح عديده بين ١٢ ألف و٢٠ ألف مقاتل، معتمداً في تقديره هذا على تقارير بعثة توسكانة عام ١٦١٤، وخصوصاً تقرير (سانتي) الشهير[٨٦].

ويعتمد جوبلان (Jouplain) رقماً وسطاً عمّا اعتمده الدكتور اسماعيل لقوات الأمير في حال التعبئة، فيقول إن بإمكان الأمير أن يعبئ أكثر من ٥٠ ألف مقاتل ثم يستطرد: «ولا يبدو لنا هذا الرقم مبالغاً فيه أبداً، نظراً للجماهير الدرزية والمارونية التي كانت، في أغلبيتها، متفانية بقوة تجاه الأمير»[٨٧].

ويرتفع الرقم إلى ٧٠ ألف مقاتل عند المطران جرجس بن مارون سفير الأمير لدى البابا ودوق توسكانة عام ١٦١١، الذي تعهد، أثناء عرضه على كل من الكرسي الرسولي ودولة توسكانة معاهدة تحالف بينهما وبين الأمير[٨٨]، بتجهيز «سبعين ألف محارب»، وقبل أن نتساءل عن مدى جدية هذا التعهد، وعما إذا كان الأمير بحاجة إلى معاهدة تحالف و«حماية» إذا كان بإمكانه تجنيد هذا الجيش اللجب، نرى المطران جرجس نفسه يتعهد لقوزما الثاني دوق توسكانة، وفي الوقت نفسه، بتجهيز «عشرين ألفاً» من رعايا الأمير المخلصين البواسل المسلحين بالبنادق والسيوف «فضلاً عن أن حلفاءه العرب يقدمون له من المقاتلين العدد الذي يطلبه»[٨٩].

ويزداد الرقم ارتفاعاً حتى يصل إلى مئة ألف مقاتل عند المحبي والمرادي، ويجاريهما في ذلك الأب لامنس والأب لويس شيخو اليسوعي والأب

قرألي، قال المحبي: «وبلغت اتباعه - أي الأمير - إلى نحو ماية ألف من الدروز والسكبان»[٩٠]، وقال المرادي قول المحبي نفسه[٩١]، ووافقهما الأب لامنس على ذلك[٩٢]، وكذلك الأب شيخو عندما قال: «كان في خدمة الأمير فخر الدين جيش من السكمان وغيرهم المتجندين بالأجرة بلغ عددهم على ما قيل نحو ماية ألف»[٩٣]، والأب قرألي، الذي قال: «وفي أواخر السنة ١٦٢٩... تجاوز جيشه مئة ألف»، وأوضح في مكان آخر «كان عدد جيش الأمير يزداد بسبب ازدياد ولاياته، حين أقلع إلى إيطاليا كان يعدّ عشرين ألفاً، فبلغ في آخر حياته مئة ألف»[٩٤].

أما نحن، فنميل إلى الأخذ بقول فخر الدين نفسه، قال الخالدي: «وفي بعض أيام جاؤوا أكابر لعند الأمير فخر الدين أرسلهم الدوكا الصونا في التنها وكلموه... فقالوا له: كم كنت تجمع عسكري في بلادك؟ فقال لهم: يوم كان المنصب علينا والحكم والحكومة في أيدينا جمعنا أزيد من عشرة آلاف رجل من غير الذي يتأخروا في البلاد»[٩٥]، ونعتقد أن هذا الرقم الذي أعطاه الأمير لأكابر توسكانة هو عدد المقاتلين الذين كان يستطيع أن يجمعهم من مواطنيه في حالة غير حالة التعبئة العامة، وباستثناء السكمان والحلفاء. وربما أن ما ذكره محمد كرد علي هو أقرب إلى المنطق والواقع، قال: «كان عند فخر الدين على الدوام عشرة آلاف جندي، ويستطيع أن يجنّد مثلها، وقيل إنه كان يستطيع أن يجنّد أربعين ألفاً»[٩٦]. وفي رأينا أن هذا الرقم الأخير، هو رقم قوات الأمير في حال التعبئة العامة، وربما كان هو أعلى رقم بلغته قوات الأمير بعد عام ١٦٢٤، أي بعد وفاة يوسف باشا سيفا حاكم طرابلس، حيث امتد حكمه من حدود حلب إلى حدود القدس، ولقب بسلطان البر وأمير عربستان[٩٧].

٤ - التجهيز والتموين:

(أ) اللباس: لم يكن لجيش الإقطاع زي موحد بل كان كل فرد حراً في أن يلبس الزي الذي يريد، إنهم «الفلاحون المحاربون». وكل ما وصلنا عن زي الجند في هذا الجيش هو ما ذكره «سانتي» في تقريره، وهو أن المشاة كانوا يرتدون ألبسة خفيفة تسمح لهم بالتحرك والقتال، أما الخيالة فكانوا يرتدون «برانس» أو «جبات» واسعة[٩٨] تغطي سرج الحصان ومعظم أجزاء السيف. وأمّا السكمان فكانوا يرتدون قمصاناً فوقها غلالات (Tuniques) أو دلامات (Dolmans)، ويلفون عمامات من القماش الأبيض المشوب بالصفرة[٩٩]. وكانت هذه الألبسة توزع لهم مجاناً.

(ب) السلاح: كان سلاح المشاة في الجيش الوطني البنادق والسيوف العريضة النصال والمسدسات والفؤوس، أما سلاح الخيالة فكان البندقية القداحة والبندقية الهندية المزودة في رأسها بسن حديدية، والسيف والترس والدبوس[١٠٠]، وكان على كل مقاتل من هذا الجيش أن يقتني سلاحه الذي يختاره من ماله الخاص، أما الذخيرة من رصاص وبارود فكانت على حساب الأمير[١٠١]. أما السكمان فكانوا يتسلحون بالبنادق الخفيفة (Carabines) والبنادق القداحة (Arquebuses) والبنادق القصيرة (Mousquets)، ويتمنطقون بكميات من الفتيل وعلب البارود وبالخرطوش وباقي التجهيزات اللازمة لحشو البندقية وإطلاق النار[١٠٢]، وعلى وجه التخصيص، كان سلاح المشاة منهم البندقية والسيف والمسدس والدبوس الحديدة والفأس والمغفر والدرع والترس والخنجر والغدارة والحربة والرمح، وسلاح الخيالة السيف والسهم والرمح بمختلف أطواله (Pique ou Javelot) وبندقية الفتيل والصوان

والغدارة[١٠٣]. وسوف نتحدث بعد قليل عن أهم أنواع هذه الأسلحة وعن مصادرها.

(ج) التغذية: بما أن جيش الإقطاع أو الجيش الوطني كان جيشاً ظرفياً وليس دائماً، يجتمع للقتال فقط، ثم يتفرق بعده، فإن كل مقاتل كان يحمل معه زاد ثلاثة أيام أو أربعة[١٠٤]، باعتبار أن المعركة لم تكن لتستمر أكثر من هذه الفترة، وكانت تغذية جند هذا الجيش في القتال تتم على حساب الأمير، وكانت هذه التغذية تتألف عادة من الجبنة والزيتون والبصل يحملها الجندي في كيس خاص يشده على وسطه أو يعلقه بجنبه[١٠٥]، وكان الأمير مستعداً دوماً لمثل هذا، فكما كان لدى الأمير مخازن خاصة في صيدا وبيروت لخزن مختلف أنواع الأسلحة والذخائر التي يستوردها من فرنسا وإيطاليا[١٠٦]، كذلك كان قد شيّد في دير القمر عام ١٦١٨، بناءً ضخماً لخزن خرج الجند[١٠٧]، كما انه استقدم من توسكانة خبازاً ماهراً هو «بطرس بونشي كيليني» براتب شهري قدرة ١٠ سكوت ليعلّم رجال الأمير عمل البقسماط (البسكويت) اللازم لعسكره[١٠٨]، أما السكمان فكانوا، ككل الوحدات في الجيوش النظامية، يزودون بالمواد الغذائية الأساسية كاللحم والأرز والخبز والزبدة والخضار لتطبخ في مطابخ الوحدات، وكان لكل وحدة (أورطة) مطبخ خاص بها يشرف عليه قائد الوحدة شخصياً، وكانت تضاعف حصة المقاتل من هذه المواد في أثناء القتال[١٠٩]، كما كانت تقدم لهم القهوة صباحاً، وتقدم وجبات من الشعير لخيولهم[١١٠]. أما حاميات القلاع فقد كان الأمير يؤمن لها كل ما تحتاجه من سلاح وذخيرة وغذاء وماء لفترة طويلة، ويروي الخالدي انه لما عزم الأمير على مغادرة البلاد عام ١٦١٣، «وضع في كل واحدة من قلعة بانياس والشقيف من الرصاص والبارود والعازق ما يكفي العسكريين بها خمس سنين ووضع فيها برسم علوفات السكمانية ماية ألف غرش»[١١١].

(د) الرواتب: لم يكن للجند في الجيش الوطني رواتب باعتبار انهم مواطنون يقع على عاتقهم عبء الدفاع عن الوطن والقيام بالمهام العسكرية التي يطلبها منهم أمراؤهم وأصحاب الإقطاعات التي ينتمون إليها، بل ان واجب كل مقاطعجي أن يقدم إلى الأمير، في حالة الحرب، عدداً محدداً من المقاتلين، وفي حالة التعبئة العامة، عليه أن يقدم كل قادر على حمل السلاح في اقطاعته. ويراقب الأمير تنفيذ أوامره بصرامة وحزم، وفقاً للسجلات التي بين يديه عن عدد الرجال في إمارته وعن قوة كل عائلة.

أما السكمان فكانوا يتقاضون رواتبهم من الأمير، وكذلك الخبراء العسكريون الأجانب والأسرى الذين كان الأمير يستخدمهم في استعمال بعض الأسلحة التي يجهل رعاياه استعمالها، وفي تدريب جنده عليها، وكانت موارد الأمير كافية لدفع مثل هذه الرواتب وتزيد، كما سبق أن قدمنا(١١٢).

ويذكر الأمير حيدر أحمد الشهابي، في تاريخه، أن «علوفة الجندي في جيش السكمان» عام ١٦١٣ كان «٥ قروش» في الشهر، وأن البلوكباشي حسين اليازجي، قائد قلعة بانياس في غياب الأمير، أرسل إليه يشكو «السكمان الذين في القلاع إذ أنهم أخذوا العلوفة ثلاث مرات، وكل مرة لكل رجل خمسة قروش في الشهر» ويضيف الأمير الشهابي: «تأمل ندور الدراهم وقيمتها فإن أجرة العسكري خمسة قروش ويحسب أن ذلك كثير عليه في الشهر»(١١٣). ويعتقد المؤرخ بورون (Bouron) ان الأمير كان يدفع «جيداً» لهؤلاء المرتزقة ليحموا له قلاعه ومواقعه الحصينة المليئة بالمؤن والذخيرة(١١٤).

ويقول «سانتي» (Santi) في تقريره عام ١٦١٤ «أكبر نفقة يتكبدها الأمير ناتجة عن إبقاء ألف وخمسماية راجل تحت السلاح ومئة وخمسين فارساً براتب ثلاثة سكوت في الشهر، خلاف النفقة، وهو يعطي لكل فارس حصاناً وخادماً

يسوسه، ويقدم الطعام لأغلبهم، لهم ولأسرهم، لا سيما حراس القلاع. أما رواتب القواد فباهظة، وتبلغ هذه النفقة ثمانين ألف غرش سنوياً»[١١٥].

أما الخبراء والمدربون، من الأجانب، فكانت رواتبهم باهظة، وقد مرّ معنا أن الخباز التوسكاني «بوتشي كيليني» الذي استقدمه الأمير «لعمل البقسماط اللازم للعسكر» كان يتقاضى ١٠ سكوت شهرياً[١١٦]. أما الأسرى الأوروبيون، فكان يبتاعهم بأعلى الأسعار «ويغدق عليهم الرواتب الكبيرة، ويعاملهم أحسن معاملة»، وقد «وضع في قلعة الشقيف قبل سفره إلى إيطاليا ١٨ أسيراً فرنسياً ماهرين باستخدام المدافع» أسهموا اسهاماً فعالاً في رد الهجوم العثماني على القلعة[١١٧].

بالإضافة إلى الرواتب كان الأمير يخصص المقاتلين من السكمان بسهم من الغنائم أو بعلاوة على الراتب بعد كل معركة، ويذكر الخالدي أن الأمير علياً أعطى، بعد وقعة عنجر وفتح قلعة بعلبك، كل نفر من السكمان «ثلاثة غروش علوفة وخمسة غروش بخشيش وعشرة غروش لكل بلوكباشي ثمن خلعة، كل ذلك حلوان فتح القلعة، وكانت عدة البلوكباشية ثمانين والنفر أربعة آلاف وخمسماية»[١١٨].

(هـ) **معدات الميدان**: قال «سانتي» عن قوات الأمير، في تقريره «إذا عسكروا لا ينصبون المتاريس، ولا ينشرون الخيم أو ما شاكلها وقاية من لفحات الشمس أم لذعات البرد وهطول الأمطار، حتى أنهم لا يستخدمون القش اتقاء للرطوبة»[١١٩]. هذا ما ذكره سانتي في تقريره عام ١٦١٤، ولكن «بيجيه دي سان بيير» يقدم لنا صورة تمثل معسكر الأمير فخر الدين قرب بيروت[١٢٠]، مما يناقض ما ورد عند سانتي من أن عسكر الأمير لم يكن ينصب الخيم أو ما شابهها.

رسم لأحد معسكرات

الأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير



- *Puget de St. Pierre, Histoire des Druzes, p. 62*

وإذا اعتبرنا أن الخيل في ذلك العصر كانت تقوم مقام الآليات الناقلة للجند، بالإضافة إلى كونها أداة صدام في القتال، والحيوانات مقام الآليات التي تجر المدافع وتحمل متاع المقاتلين، نفهم أهمية هذه «المعدات» في قوات الأمير مما جاء في تقرير سانتي «يمتطون الخيول العربية الغالية الثمن، الصبورة على التعب، وذات السرعة المدهشة. ومع أن طعامها العشب وحفنة من الشعير، فهي تعمل النهار كلّه بلا كلل ولا ملل» وفي مكان آخر من التقرير نفسه: «عندهم من الحيوانات لحمل الأثقال وجر المدافع العدد الوافر»[١٢١].

٥ - التسلح والتذخير:

تحدثنا فيما سبق عن أنواع الأسلحة التي كانت تستعملها قوات الأمير في القتال، سواء أكانت قوات الجيش الوطني أم جيش السكمان، وقوات المشاة أم الخيالة، ويحسن التحدث بإيجاز عن أنواع هذه الأسلحة لنتمكن بالتالي من تحديد مصادرها، فقد عرفت قوات الأمير المعني من الأسلحة ما يلي:

(أ) **الأسلحة الجارحة:** الحراب والسهام والقسي والفؤوس والخناجر والدبابيس والرماح على اختلاف أطوالها والسيوف العادية والسيوف العريضة النصال أو الصفائح (Cimeterres).

(ب) **الأسلحة النارية الإفرادية:** البنادق على اختلاف أنواعها مثل البنادق القصيرة (Mousquets) والبنادق الخفيفة (Carabines) والبنادق القداحة (الفتيل والصوان) (Arquebuses) والبنادق الهندية والغدارات والمسدسات.

(ج) **الأسلحة النارية الإجمالية:** المدافع من عيارات مختلفة.

(د) **الذخائر والمتفجرات:** البارود وقذائف المدافع (Boulets) والرصاص والألغام (Pétards) والنيران الاصطناعية.

وفي ما يلي تعريف لأهم هذه الأسلحة:

- الأرقبوز، أو البندقية القداحة (Arquebuse):

سلاح ناري افرادي، عرف لأول مرة في معركة المورة (Moret) عام ١٤٧٦، كان في أول أمره ثقيل الوزن جداً يحمل على الكتف ويتطلب استخدامه اثنين من السدنة، الأول لتثبيته في الأرض بواسطة قاعدة خاصة، والثاني لإجراء عملية الإطلاق، وكان الاشتعال لإطلاق النار منه يتم بواسطة فتيل (البندقية القداحة ذات الفتيل Arquebuse a Mèche) إلا انه تطور فيما بعد فأصبح الاشتعال يتم بواسطة قطعة من الصوان أو الفولاذ (بندقية الصوان القداحة Arquebuse a rouet) تقدح الشرارة فيشتعل البارود. وكانت سرعة الرمي في هذا السلاح بطيئة جداً، بمعدل طلقة واحدة كل خمس دقائق، وقد استبدلت هذه البندقية فيما بعد بالبندقية القصيرة أو الموسكيه (Mousquet) وذلك نحو عام ١٥٧٠[١٢٢].

- البندقية الخفيفة أو الكارابين (Carabine):

وهي بندقية قصيرة وخفيفة، ذات استون مخدد (مخروط)، وقد ظلت سلاح المشاة لأمد طويل، وأطلق عليها، في القرن السابع عشر، اسم (الأرقبوز الكارابين)، وكانت تخاديد استونها تستدعي عملية ادخال صعبة للخرطوشة في جوف الأستون، فكان ذلك يتم بواسطة الضرب عليها بمطرقة خاصة مما كان يستوجب تقصير الأستون لاختصار عملية الإدخال هذه. وقد مهدت هذه البندقية (الكاربين) لظهور البندقية ذات الأستون المخدد (Fusil a canon rayé) عام ١٨٥٧[١٢٣].

- البندقية القصيرة أو الموسكيه (Mousquet):

سلاح ناري افرادي، عرف لأول مرة في معركة بافيا (Pavie) عام ١٥٢٥ حيث كان المشاة الاسبان مجهزين به، وكان هذا السلاح أثقل وزناً من

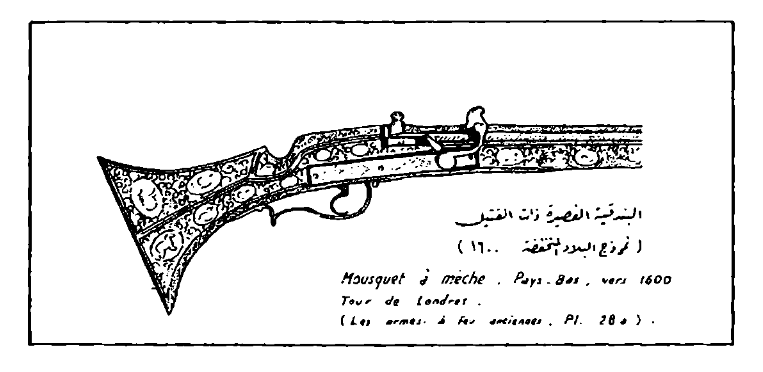
الأرقبوز، كما كان يرمي إلى مسافة أطول (حتى ٣٠٠ متر)، لذا كان يسند، عند الرمي به، إلى مسند خاص، وكان الاشتعال لإطلاق النار منه يتم بواسطة فتيل، لذا فقد كان سلاحاً ذا فتيل، يراوح وزن رصاصته بين ٤٠ و٦٠ غراماً، وتحشى الرصاصة في جوف الأستون بواسطة عصا خشبية. وقد خفض عيار هذا السلاح في منتصف القرن السابع عشر إلى ١٨ ملم، وحذف المسند الخاص، أما سرعة الرمي فكانت بمعدل طلقة واحدة كل خمس دقائق، وقد طورت هذه البندقية فيما بعد فأصبحت تعمل بواسطة قطعة من الصوان والفولاذ تقدح الشرارة فيشتعل البارود[١٢٤].

وقد ذكر «لامنس» ان الدروز «كانوا رماة ممتازين، مسلحين بالصفائح والقسي والسهام والبنادق، يصنعونها بأنفسهم، إذ ان بلادهم كانت تنتج الحديد بكثرة»[١٢٥]، وذكر في مكان آخر انه كان بإمكانهم تقديم عدة آلاف من رماة البنادق القداحة (الأرقبوز) (Arquebuses) الممتازين، وذلك استناداً إلى تقارير القناصل في ذلك الزمن[١٢٦].

وذكر دارفيو (D'Arvieux) (١٦٥٩) انهم - أي الدروز - كانوا مجهزين بالبنادق القصيرة (Mousquets) وبالسيوف، وهم قساة وشجعان، ويستعملون أسلحتهم بمهارة فائقة[١٢٧].

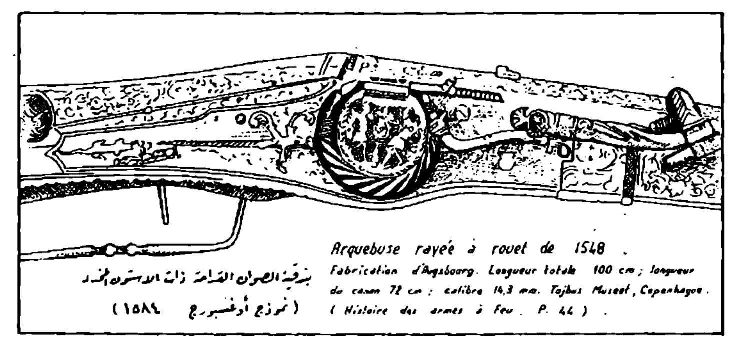
أما المدفعية فذكر «سانتي» في تقريره أنها كانت عند الأمير نادرة ويجهل جنده استعمالها، وقد وجد منها في قلعة بانياس بعض المدافع من النوع الصغير[١٢٨]، كذلك في قلعة الشقيف حيث استخدمها بعض الأسرى الفرنسيين عام ١٦١٢ لردّ هجوم عثماني على القلعة[١٢٩].

كما وصف «دارفيو» نوع الرصاص في ذلك العهد، فالخرطوشة كناية عن «اسطوانة من الورق تحتوي على رصاصة وحشوة من البارود»[١٣٠].



البندقية القصيرة ذات الفتيل
(نموذج البلاد المنخفضة ١٦٠٠)

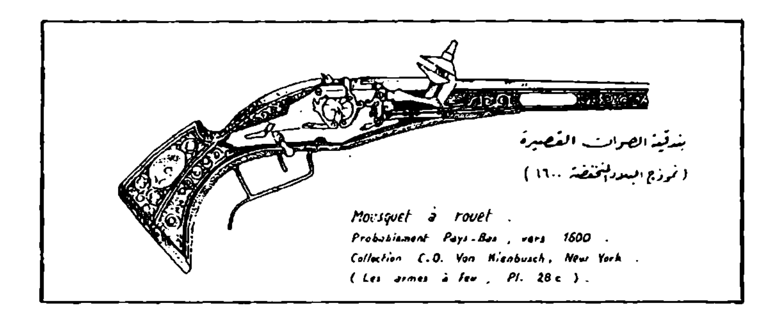
Mousquet à meche . Pays-Bas , vers 1600
Tour de Londres .
(Les armes à Feu anciennes . Pl. 28 a) .



بندقية الصوان القداحة ذات الاسطوانة المحززة
(نموذج أوغسبورغ ١٥٨٤)

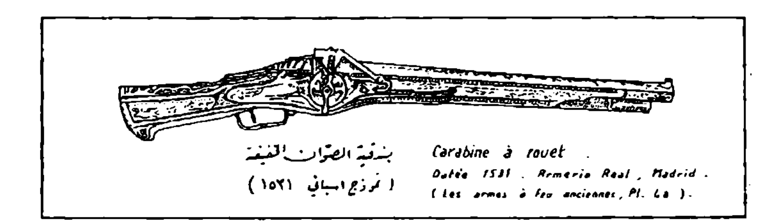
Arquebuse rayée à rouet de 1548 .
Fabrication d'Augsbourg. Longueur totale 100 cm ; longueur du canon 72 cm ; calibre 14,3 mm. Tøjhus Museet, Copenhague.
(Histoire des armes à Feu . P. 44) .

البنادق: القداحة Arquebuse والخفيفة Carabine والقصيرة Mousquet



بندقية الصوان القصيرة
(نموذج البلدان المنخفضة ١٦٠٠)

Mousquet à rouet.
Probablement Pays-Bas, vers 1600.
Collection C.O. Von Kienbusch, New York.
(Les armes à feu, Pl. 28c).

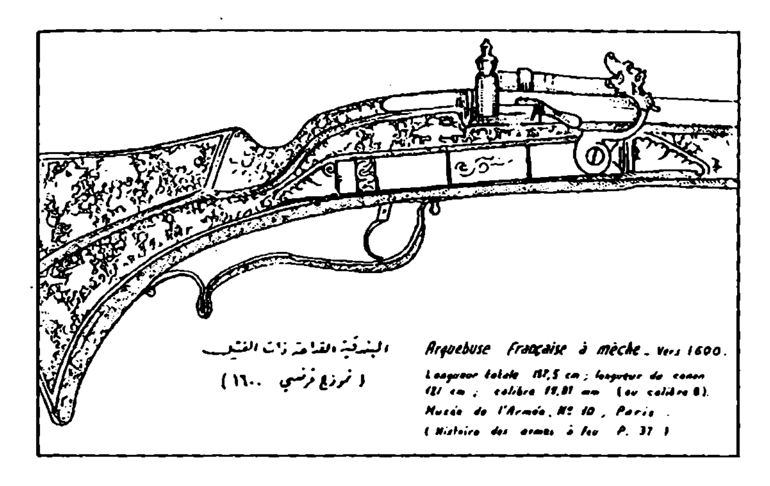


بندقية الصوان الخفيفة
(نموذج اسباني ١٥٢١)

Carabine à rouet.
Datée 1531. Armeria Real, Madrid.
(Les armes à feu anciennes, Pl. 4a).

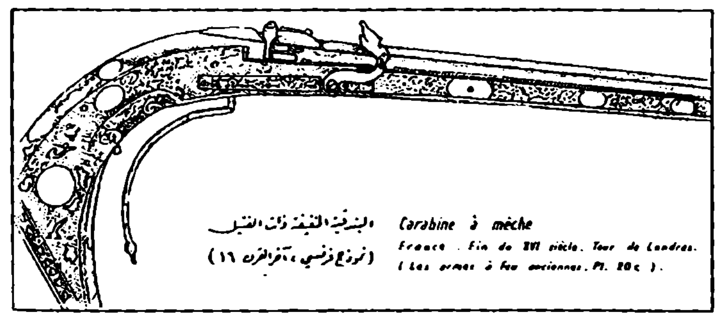
المرجع:

- Lindsay Merril, Histoire des armes à feu, P.P 37 et 44.
- J.F. Hayward, Les armes à feu anciennes, PL. 4a, 20v, 28a, et 28c.



البندقية القاصرة ذات الفتيل
(صنع فرنسي ١٦٠٠)

Arquebuse française à mèche. Vers 1600.
Longueur totale 157,5 cm ; longueur du canon 121 cm ; calibre 19,81 mm (ou calibre 8).
Musée de l'Armée, N° 10, Paris.
(Histoire des armes à feu P. 37)



البندقية القصيرة ذات الفتيل
(صنع فرنسي، آخر القرن ١٦)

Carabine à mèche
France. Fin du XVI siècle. Tour de Londres.
(Les armes à feu anciennes. Pl. 20c).

وكان الغرب، وتوسكانة على الأخص، هو المصدر الرئيسي لسلاح الأمير، فمنذ أن تحالف مع فرديناند الأول غراندوق توسكانة، أخذ هذا الأخير يزود الأمير بالأعتدة والذخائر الحربية، ويقال إنه وضع بتصرفه قطعاً من اسطوله[١٣١]. وكانت بداية التعاون بين الحليفين عام ١٦٠٨، وكان أسطول توسكانة قد تحرك لمساعدة علي باشا جنبلاط والي حلب ضد العثمانيين ومعه أسلحة وذخائر ومدافع، إلا انه علم، في الطريق، بانكسار علي باشا وهربه، فأرسل الغراندوق إلى قائد اسطوله الأمر التالي: «إذا رأيتم ان جانبولاد باشا لا يرجى له قيام، سلموا البنادق إلى الأمير فخر الدين، أما المدافع فلا داع لتسليمها إليه»[١٣٢]، واتصل قائد الأسطول والسفير ليونشيني بالأمير في صيدا وأبلغوه رسالة الغراندوق وسلموه «ألف قصبة للبنادق... وأسطولاً بحرياً لتستخدمه عند الحاجة ضد الدولة العثمانية»، وقبل فخر الدين الهدية قائلاً للسفير ومرافقه: «إن جيشي أقوى من جيشه - أي علي باشا جنبلاط - وإن قلَّ عنه عدداً، وبلادي امنع كثيراً من بلاده، لأنها ذات مركز حربي ممتاز، ولدي قلعتان لو سلحتا كل منهما بعشر قطع من المدفعية أم اثنتي عشرة، لا تقوى كل جيوش آل عثمان عليهما»[١٣٣]. ويظهر أن السفير ليونشيني كان يحمل في حقيبته، بالإضافة إلى الهدية، مشروع معاهدة للتحالف عرضها فوراً على الأمير، ولكن الأمير وضع شروطاً للقبول بها، معلناً أمام السفير انه سبق لنائب ملك اسبانيا في نابولي ان أهداه قطعتين من المدافع وكمية من البنادق، وان الملك المذكور عرض عليه تقديم العون العسكري بالرجال إذا أراد، شرط أن يسمح له ببناء حصن في ميناء صور، وأنه - أي الأمير - لم يجبه إلى طلبه حتى الآن[١٣٤]. ويذكر الأب قرألي أن الأمير استقبل مشروع المعاهدة «بشيء من الفتور، كأنه لم يرق له»[١٣٥]. ولما سأله السفير عن رغباته طلب أن يوضع بتصرفه «خبير في صب المدافع مع المواد الضرورية، ليصب له عشر قطع من

المدفعية أم اثنتي عشرة، وكمية تناسبها من القنابل»[١٣٦]، ويظهر ان مشروع المعاهدة كان يتضمن اقتراحاً من توسكانة بأن يقدم لها الأمير العون اللازم لاحتلال قبرص بعد أن فشلت الحملة التوسكانية عليها، واقتراحاً آخر بأن يقوم الأمير باحتلال الأراضي المقدسة وبسط سلطانه عليها بعون عسكري من توسكانة، ولكن شروط الأمير كانت أصعب من أن تنفذ[١٣٧]، مما أدى إلى فشل المشروع مع محافظة الطرفين على نوع من التحالف باعتبار أن العدو المشترك بينهما هو الدولة العثمانية، وهكذا صارت توسكانة تمد الأمير بما يحتاجه من «الأعتدة الحربية كالبنادق والمدافع فضلاً عن البارود والنيران الاصطناعية»[١٣٨]، وكان هو بدوره «يبتاع من الغرب بسخاء الأسلحة والمدافع والبارود وما شاكل ذلك من معدات القتال»[١٣٩]، كما كان يستعين بأصدقائه من أمراء الغرب ليبعثوا إليه «بالمهندسين والقواد والخبراء الماهرين بصنع البارود وصب النحاس وتركيب المدافع واستخدامها»[١٤٠]، وكان هؤلاء الأمراء «يخطبون وده بهدايا من الأسلحة والذخائر والمدافع»[١٤١]، كما كانوا «يعززونه بأحدث طراز من الأسلحة ويعرضون عليه أساطيلهم وخبراءهم، لنيل أربه وأربهم من تلك الدولة»[١٤٢]، أي الدولة العثمانية. وفي عام ١٦٠٧ تلقى الأمير، من نائب الملك الاسباني في نابولي، هدية هي عبارة عن «قطعتين من المدفعية وكمية من البنادق وغير ذلك من المهمات الحربية»[١٤٣]، وبلغ التعاون بين الأمير وحلفائه من أمراء توسكانة والغرب حداً جعل المسيو تاركت (Tarquet) قنصل فرنسا في صيدا، يكتب إلى الكردينال ريشيليو، رسالة بتاريخ ١٦٣١/١٢/٢٧، ينبئه فيها بالمساعدات العسكرية التي تقدمها توسكانة للأمير، حيث كان يتقبل من الدوق الأعظم «من الهدايا والمعدات الحربية فوق ما عنده منها في بلاده وهو غير قليل»، ويؤكد له في الرسالة نفسها ان

الغراندوق لا ينفرد في تقديم هذه المساعدات للأمير المعني، بل يشاركه فيها «الاسبانيون والامبراطور وصاحب القداسة أيضاً»، ويفسر القنصل في هذه الرسالة عزوف الأمير عن طلب المساعدة من فرنسا باضطراب الحال في البلاد الفرنسية، واتحاد اصدقائه التوسكانيين والاسبانيين ورغبتهم في تقديم المساعدة له، فيقول: «ويظهر لي ان هذا الأمير لما رأى اتحاد هؤلاء وما في فرنسا من الاضطراب فضل الالتجاء إلى أولئك لأنه رآهم اضمن لمساعدته وأكثر استعداداً»، إلا انه يتابع فيقول: «وقد غالى - أي الأمير - في الاستسلام لهم حتى أنه سمح لهم أن يبنوا قلعة في صور التي تبعد نحو نصف نهار عن صيدا»[١٤٤]. ولا نشك في أن تخوف الأمير وقلقه من هجمات العثمانيين هما اللذان دفعاه إلى أحضان ملوك الغرب وأمرائه، كما لا نشك في أن مصلحة أولئك الأمراء والملوك كانت في تعميق خلاف الأمير مع السلطنة ما أمكن، ودفعه أكثر بالتالي إلى الارتماء في أحضانهم والاقتناع بمشاريعهم في السيطرة على الأراضي المقدسة، وسنرى فيما بعد كيف تخلوا عنه عندما اقتنعوا بعقم محاولاتهم، فأودوا به إلى التهلكة.

ويؤكد دارفيو في مذكراته (١٦٥٩) أن «الدروز» حصلوا على البنادق القصيرة لأول مرة من الأوروبيين «إلا انهم يصنعونها اليوم بأنفسهم، وكذلك البارود»[١٤٥].

ويرى المؤرخ نانتي (Nantet) ان الأمير قد نشط في تعامله مع توسكانة بعد عودته منها، وخصوصاً بعد وقعة عنجر عام ١٦٢٣، حيث «عزز آلته العسكرية، ورمم قلاعه وأقام قلاعاً جديدة في البقاع وقب الياس وفي الصبيبة عند سفح حرمون، وتسلم من فلورنسة عدة سفن محملة بكميات من الأسلحة، جدد بواسطتها جيشه ونظمه، وأجرى نوعاً من التعبئة الاحتياطية»[١٤٦]، ويذكر بيجيه دي سان بيير (P. de St. Pierre) ان الأمير استحصل من غراندوق

توسكانة على «الألغام واللغامين والمهندسين والمهندسين المعماريين والخبازين» كي يعزز قلاعه ويؤمن لها كل ما تحتاجه «لصمود شرس وطويل»(١٤٧).

كذلك كانت البندقية (Venise) واحداً من أهم مصادر السلاح للأمير، فقد اشتهرت هذه المدينة، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، بصناعة الأسلحة المختلفة وتصديرها إلى ما وراء البحار، وخصوصاً إلى بلاد المشرق، وقد حفلت سجلات هذه المدينة بأسماء تجار الأسلحة الشرقيين وبالرخص المعطاة من حكومتها لتصدير السلاح بكميات كبيرة، وكانت البندقية تصنع أنواعاً مختلفة من الأسلحة مثل: الرماح ودروع الزرد والسيوف والقسي والخوذ والتروس، وكذلك الأسلحة النارية المختلفة التي اشتهرت بصنعها فيما بعد(١٤٨).

وكان الأمير قد طلب من صديقه غراندوق توسكانة، أثناء اقامته بها عام ١٦١٤، ان يزوده بكميات من البارود والرصاص وبعض الرماة الماهرين على المدافع والخبراء في صنع العجلات لها، فوضع الغراندوق بتصرفه «خبراء ومهندسين ونجارين لعمل عجلات المدافع، وزهاء ستين قنطاراً من البارود وما يلزمها من الرصاص، فضلاً عن خمس قطع من المدافع لتسليح القلاع ورجال ماهرين بإدارتها، كما نزل عند رغبته في تسليح مركب فضلاً عن غليونين»(١٤٩)، وفي عام ١٦٢١ تسلم الأمير من الغراندوق نفسه «هدية مؤلفة من ألفي قنبلة وما يلزمها من البارود، ومفرقعات ونيران اصطناعية»(١٥٠).

وذكر دي لاكروا (De la Croix) ان الأمير بنى، بعد عودته من توسكانة، «عدداً من المخازن في صيدا وبيروت، ملأها بكل أنواع الأسلحة والذخائر الحربية التي استقدمها سراً من فرنسا وايطاليا بواسطة سفن كانت تقصد

صيدا بحجة التجارة، ولكنها كانت تحمل إليها المدافع والبنادق القصيرة والقذائف التي خزن منها كميات هائلة تكفيه لمدة ١٢ أو ١٥ سنة»[١٥١].

كما ذكر ماريتي أن توسكانة زودت الأمير عام ١٦٢١ بكمية كبيرة من الذخائر الحربية، كما كانت تزوده بالمؤن الحربية بلا انقطاع، وقد استلم كمية كبيرة منها في كانون الثاني عام ١٦٢٢ «فكانت هي التي مهدت لهلاكه»[١٥٢].

وقد حاول فخر الدين أن يصنع بعض الأسلحة والذخائر في إمارته، فاستقدم «خبيراً بصب المدافع» وآخر «بصنع المجلات لها» كما سبق أن رأينا، ويظهر انه استخدم صانعاً للمتفجرات يدعى جبرائيل بيتارديرو (G. Pétardiero) أتى به من توسكانة[١٥٣]. والمؤكد هو أن إمارة فخر الدين قد عرفت في عهده صناعة البارود وبعض الأسلحة الخفيفة، وقد ذكر المعلوف أن الأمير اقتبس عن أوروبا صناعات كثيرة نقلها إلى بلاده منها صناعة البارود، حيث كان أهل بلادنا «يدقون البارود بمهراس، أي مهباج خشبي ثقيل يدوسون على طرفه برجليهم فيرتفع وينخفض فيدق البارود الممزوج من الفحم والكبريت وملح البارود. وكانت له معامل في كثير من القرى في زمن المعني»[١٥٤]، يؤكد ذلك «اسماعيل حقي بك» إذ يقول: «... واشتهرت في كفرعقاب من المتن معامل البارود، وكان ملحها يجمع من مزارب المعزى، وكانت ثلاثة معامل، كل معمل ثلاثة أجران، فأحرقها عمر باشا النمساوي سنة ١٨٤٢»[١٥٥].

ويصف دارفيو طريقة صنع البارود في بلاد الأمير على الشكل التالي:

«كانوا - أي الدروز - يستخدمون الفحم وملح البارود (Salpetre) والكبريت الذي يدقونه بطرف عصا في أول حفرة صخرية يلاقونها، وهو - أي هذا البارود - ليس قوياً تماماً كبارودنا، ومع ذلك فهم يستعملونه»[١٥٦]. ويضيف، في مكان آخر، على هذا الوصف تفاصيل أخرى فيقول: «عندما كانوا

- أي الدروز - يحتاجون إلى البارود، كانوا يصنعونه بأنفسهم، فيأتي أحدهم بكيس صغير من الكبريت وملح البارود، ويصنع الفحم من خشب الصفصاف، ثم يدقه بعصا في حفرة صخرية ويضع فوقه الكمية المناسبة من الكبريت وملح البارود، فيتم هكذا صنع البارود الذي يعتبر من الصنف الجيد جداً»(١٥٧).

وبوضح نانتي (Nantet) انه في العام ١٥٦٩ وصلت إلى بلاد الأمير جماعة من اليهود مع بعض الاسبان، حيث «أحيوا الصناعات الحرفية - الأرتيزانا - وخصوصاً صناعة البارود والأسلحة النارية»(١٥٨)، وقد سبق أن ذكرنا ما قاله دارفيو من أن رعايا المعنيين كانوا، في منتصف القرن السابع عشر، يصنعون البنادق الصغيرة، وكذلك البارود، عند الضرورة، وما قاله كوتوفيكس (Cotovicus) المؤرخ المعاصر لفخر الدين (عام ١٥٩٨) ونقله عنه الأب لامنس، من انهم كانوا يصنعون الصفائح والقسي والسهام والبنادق نظراً لوفرة الحديد في بلادهم.

٦ - التجنيد والتعبئة:

لا شك في أن الأمير قد استفاد كثيراً، من خلال اقامته بتوسكانة، في مجال تنظيم التجنيد بإمارته، فعمد إلى احصاء الرجال القادرين على حمل السلاح في سجلات خاصة(١٥٩)، ثم انه طبق نوعاً من التجنيد الإجباري خاصاً ببلاده، فأخضع، في كل قرية، جميع الرجال القادرين على حمل السلاح لتدريبات عسكرية تجعلهم مؤهلين للرمي والقتال، وهكذا كان بإمكانه أن يعبئ، في يومين اثنين فقط، عشرة آلاف مقاتل(١٦٠). وجنّد في جيشه الذميين متجاوزاً بذلك القاعدة الدينية التي تقول بعدم جواز اشراك الذميين في القتال مع المسلمين. ولكنه كان يترك لهم الخيار في أن ينخرطوا في صفوف قواته أو أن يدفعوا، سنوياً، ضريبة قدّرها (سانديز Sandys) بدولارين (عملة ألمانية)

عن الشخص الواحد، مسيحياً كان أم يهودياً[١٦١]. ويوضح (دي لاكروا) مقدار هذه الضريبة على المسيحيين فيقول انها كانت تبدأ بـ ٤ اقجات (أي ليرتين بالعملة الفرنسية في ذلك الحين)، على الشخص الواحد البالغ من العمر ١٤ عاماً، ثم تزداد تدريجياً حتى تبلغ ١٢ أو ١٤ اقجة كحد أقصى[١٦٢]. ولقد كان إقبال المسيحيين على القتال في صفوف الأمير كبيراً إلى حدٍّ جعل بعض المؤرخين يعزون أسباب انتصاره في المعارك وتوسعه في الأقاليم المجاورة إليهم. قال «ماجري»: «لقد وسع فخر الدين مملكته كثيراً بمؤازرة الموارنة، لأن عشرين ألفاً من رجالهم يحاربون في صفوفه، وأغلب قواده منهم»[١٦٣]. وأكد فرمانيل، وكذلك لامارتين، انه كان بإمكان الموارنة أن يضعوا في خدمة الأمير، عام ١٦٣٠، نحو عشرين ألف مقاتل وحتى أربعين ألفاً[١٦٤].

لقد كان جميع رعايا الأمير يخضعون للخدمة العسكرية حسب عوائد الإقطاع - باستثناء الذميين الذين كان لهم حق الخيار، كما قدمنا - وكان عليهم أن يكونوا جاهزين عند الطلب، وكان الأمير يسأل مرؤوسيه أصحاب الإقطاعات من أمراء ومقدمين ومشايخ عن كل نقص في العديد، حسب السجلات الممسوكة لديه، وكان هذا التجنيد قائماً، ليس على موجبات الإقطاع فحسب، بل كذلك على روابط أخرى أكثر عمقاً بين الأمير ورعاياه، وهي روابط تجعل هؤلاء الرعايا المنخرطين في صفوف أميرهم أكثر تنظيماً وأكثر طاعة وانضباطاً[١٦٥]، إلا أن الأمير كان يعتمد، كقوة دائمة، جيشاً محترفاً أعدّه من المرتزقة السكمان، وسخّره لحماية قلاعه وحدوده وحفظ الأمن في بلاده، وجعله نواةً يلتف حولها رجاله من أبناء البلاد الذين يشكلون «الجيش الوطني» الذي كان بمثابة «احتياط للأمير»[١٦٦]، والذي كان يعتمده عادة في حروبه.

وكان الأمير يعمد إلى تعبئة «جيشه الوطني» قبل القتال، وكانت التعبئة إما «جزئية» وذلك عندما تكون المعركة محدودة، فيطلب من كل أمير أو مقدم أو شيخ عدداً محدداً من المقاتلين، وإما «عامة» وذلك عندما تكون المعركة مصيرية وحاسمة وشاملة، فيدق النفير العام ويدعو كل أمير ومقدم وشيخ من البلاد الخاضعة له والمقاطعات المتحالفة معه للقتال، وكان يجتمع لديه، في هذه الحالة، جيش كبير كما سبق أن رأينا. وفي سيرة فخر الدين العسكرية أمثلة عديدة عن الطرق التي كان يتبعها في مجال التعبئة بنوعيها، الجزئية والعامة، ففي عام ١٦١٧ قرّر الأمير علي بن فخر الدين تجهيز حملة لنجدة الأمير سلمان سيفا المحاصر في برج قبولا من قبل قريبه يوسف باشا سيفا وفك الحصار عنه، فجمع «رجال صيدا وأمرهم بالمسير... صحبة مدبره، وأمر الأمير ناصر الدين التنوخي أن يتوجه برجال الجرد والغرب، والمقدمين اللمعيين أن يتوجهوا برجال المتن، وطويل حسين أن يتوجه برجال كسروان، وكتب إلى حسين اليازجي أن يجمع رجال بلاد صفد وبلاد بشارة والشقيف ويحضر بهم إلى صيدا منتظراً الطلب، ثم نهض الأمير بالعسكر إلى نهر ابراهيم...»[١٦٧]، وفي العام نفسه، بلغ الأمير علياً خيانة حسين اليازجي في سنجقية صفد، فقرر أن يجهّز حملة لقتاله، وأرسل «مدبره وطويل حسين والسكمان ورجالاً من بلاد صيدا وبعض مشايخ الشوف بخمسماية مقاتل إلى صفد، وعزم على النهوض بنفسه برجال الشوف والغرب والجرد والمتن، وأحضر عمه الأمير يونس من دير القمر بخمسماية رجل وأرسله إلى صور...»[١٦٨]، وفي عام ١٦١٨، وبعد عودته من توسكانة، قرّر فخر الدين تجهيز حملة لقتال ابن سيفا بطرابلس فكتب «إلى مدبره الشيخ أبي نادر الخازن أن يرسل رجالاً يمسكون جسر نهر ابراهيم على الذاهبين إلى الجهة الشمالية لئلا يدري به يوسف باشا، واستدعى إليه رجال الشوف والغرب والجرد والمتن

وكسروان... وكتب إلى ولده الأمير علي أن يجمع رجال بلاد صفد وبلاد بشارة والشقيف وصيدا ويذهب بهم إلى غزير، وكتب إلى الأمير علي الشهابي أن يوافي ولده الأمير علياً إلى غزير، وكتب إلى الأمير يونس الحرفوشي أن يضبط ما لآل سيفا من المواشي والفلال في القيرانية والهرمل، ثم نهض من بيروت بمن اجتمع عنده إلى نهر ابراهيم ثم إلى جبيل...»[١٦٩]، وفي عام ١٦٢٢ تبلغ الأمير قراراً من الباب العالي بتسليم سنجقية عجلون لولده الأمير حسين وسنجقية نابلس لمدبره، فكتب إلى الأمير علي الشهابي أن يجمع رجاله ويسير بهم إلى جسر المجامع، وكتب إلى السكمان والصفدية والمتاولة أن يسيروا إلى جسر المجامع ويطردوا الأمير بشيراً من سنجقية عجلون[١٧٠]، وفي عام ١٦٢٣ قرّر فخر الدين محاصرة الأمير علي الحرفوش في قلعة اللبوة، فاستدعى «رجال بلاد بشارة والشقيف وصيدا أن يوافوه إلى مرج عدوس، وكتب إلى الأمير علي الشهابي أن يرسل ولديه الأمير محمداً والأمير قاسماً برجاله إلى هناك، وكتب إلى أخيه الأمير يونس أن يجمع رجال الشوف والغرب والجرد والمتن وكسروان ويتوجه بهم إلى البترون... ونهض، بعسكره من بعلبك، إلى مرج عدوس ومعه ولده الأمير علي، فاجتمع عنده نحو ثمانية آلاف رجل، وحينئذ ورد إليه كتاب من أخيه الأمير يونس انه اجتمع عنده في البترون نحو ألف رجل»[١٧١]، وفي العام ١٦٢٤، أعطيت ولاية طرابلس إلى عمر باشا بدلاً من يوسف باشا سيفا، ولكن هذا الأخير تمنع عن تسليمها إلى الوالي الجديد الذي استنجد بالأمير فخر الدين «فأرسل الأمير جميع السكمان وأرسل إلى أخيه الأمير يونس أن يجمع رجال الشوف وإلى الشيخ مظفر أن يجمع رجال الجرد، وبيت تنوخ أن يجمعوا رجال الغرب، ومقدمي كفرسلوان بيت أبي اللمع أن يجمعوا أهالي المتن، واجتمع الجميع في بيروت، ولما تكاملت الرجال رحل الأمير وصحبته عمر باشا إلى نهر ابراهيم ومنه إلى البترون»[١٧٢]، وهذا قليل

من كثير من الأمثلة على طرق التعبئة عند الأمير قبل القتال، وكانت هذه التعبئة تنتهي بانتهاء المعركة، حيث ينصرف كل فريق من المقاتلين إلى البلد الذي أتى منه ليتابع عمله كما في أيام السلم. وذكر الخالدي أن الأمير، بعد حملته على طرابلس عام ١٦١٨ ضد يوسف باشا سيفا، والتي سبق ذكرها، أقام عدة أيام في المدينة، ثم توجه وعسكره إلى البترون «وفي هذه القرية فلّ الأمير جميع العشير وراح كل منهم إلى بلده وإلى أهله وولده»(١٧٣).

ووصف فولني (Volney) التعبئة في «دولة الدروز» كما يلي: «عندما تقرر الحرب، كل رجل، وشيخ أو فلاح، قادر على حمل السلاح، مدعو للمسير، فيحمل كل منهم كيساً صغيراً من الطحين وبندقية، وبعض الرصاصات، وقليلاً من البارود المصنوع في القرية، وينطلق إلى المكان المعين من قبل الحاكم للالتئام. وكل سيد مجبر على تأمين المؤونة والذخيرة لجماعته»(١٧٤).

وذكر نانتي (Nantet) أن الأمير حقق نوعاً من «التعبئة الدائمة» في إمارته، إذ أنشأ نوعاً من التعبئة المحلية للفلاحين الاحتياطيين الذين كان عليهم أن يتدربوا كل يوم جمعة، «وقد أتاحت له هذه الطريقة أن يضاعف، عند الحاجة، وخلال ثمانية أيام، عدد مجنديه»(١٧٥).

٧ - التدريب:

لقد أكد عدد من المؤرخين ما ذهب إليه نانتي (Nantet) في قوله الآنف الذكر من أن الأمير فخر الدين كان يدرب الفلاحين في قراهم على الرمي واستعمال السلاح يوم الجمعة من كل أسبوع، أكّد ذلك الرحالة «ديهي دي كورمينان» (Des Hayes de Courmenin) وأكده أيضاً الرحالة «فيلامون» (Villamont) وجاراهما فيه الأب بطرس ديب(١٧٦) الذي أخذ أقوال «دي كورمينان» بحرفيتها، خصوصاً ان رحلة هذا الأخير إلى بلاد الأمير كانت في وقت حكمه، أي عام ١٦٢١، قال دي كورمينان: «كان الأمير يجند في كل قرية

جميع القادرين على حمل السلاح، وبفضل بعض الامتيازات التي يخصهم بها، كان يجبرهم على خدمته في أي وقت يحتاجهم فيه، وكانوا يتدربون كل يوم جمعة، مما يجعلهم ماهرين جداً»[١٧٧].

أما التدريب فكان بدائياً يقتصر على الرمي بالبندقية ورمي السهام وضرب السيوف ورمي الجريد، باستثناء الرمي بالمدافع الذي كان يتم التدرب عليه بواسطة خبراء أوروبيين كما سبق أن قدمنا. وذكر البوريني أن أحمد باشا الحافظ «أمر جميع عسكر دمشق بالخروج إلى الميدان الأخضر... وأن يحمل كل واحد منهم البندقية المسماة بالمكحلة... وأن يحضروا بها إلى الميدان المذكور، وأمر بوضع غرض يكون هدفاً للبندق، ونادى بأن المصيب للغرض منكم له بخشيش عشرة دنانير»[١٧٨]، مما يدل على أنه سبق هذه المباراة التي أجراها باشا دمشق لجنده، تدرب على الرمي، أكد ذلك الرحالة «ڤيلامون» (Villamont) الذي ذكر انه في عام ١٥٨٨ كان الأتراك في دمشق، وفي غيرها من المدن الشامية، يتدربون على الرمي بالسلاح وعلى ضرب السيوف ورد ضرباتها، «وكان عندهم معلمون يدربونهم على ذلك»، كما كان تدريب الخيالة يتم «كل يوم جمعة لأنه يوم عطلتهم، وكل يوم يروق لهم فيه أن يتدربوا»[١٧٩]. ولا شك في أن الأمير المعني كان يحرص على تدريب رجاله تدريباً مماثلاً.

وفي العام ١٦٦٤ شهد الرحالة دارفيو (D'Arvieux) في زيارة قام بها للأمير طربيه في فلسطين، تمارين على رمي الجريد قامت بها كتيبتان من جيش الأمير المذكور[١٨٠]، كما تحدث بإسهاب عن جيش هذا الأمير وطريقة تعبئته واستنفاره وسيره للقتال، وما يسبق ذلك من مشاهد استعراضية كنشر الراية وقرع الطبول ونفخ الأبواق ورص الصفوف[١٨١]، وذلك يعطينا فكرة عن مستوى التدريب العسكري عند رجال الإقطاع في بلادنا في ذلك العصر.

وفي حديثه عن «الدروز» - ويقصد طبعاً رعايا الأمير المعني - اعتبر «بيجيه دي سان بيير» أن مهنة استعمال السلاح هي مهنة أصيلة عندهم ومتأصلة فيهم، يدربون أولادهم عليها منذ نعومة أظفارهم، فيشبون «شجعاناً، جلودين، محاربين وماهرين في استعماله»، وأضاف إلى أنواع التدريب على السلاح نوعاً آخر هو «تمارين الصيد» التي يتقنونها بشكل كامل ويتدربون عليها بشكل مستمر ومنذ الصغر، الأمر الذي يجعلهم «حاذقين في الرمي، وأشداء، ورشيقين في التخلص من المخاطر، وقادرين على تحمل متاعب الحروب»، إلى أن قال: «وهذا ما يجعلنا نعتبر الدرزي اليوم جديراً بمواجهة أربعة أتراك»(١٨٢). وفي مجال المقارنة بين التدرب على السلاح وبين الصيد قال: «إن التدرب على السلاح عندهم واجب تفرضه الدولة ولا يتطلب إلا بعض الوقت، أما الصيد فهو متعة حرة... يهتم بها النبيل والعامي، والفقير والغني»(١٨٣).

وقد سبق أن نوهنا بدور الخبراء الأوروبيين في تدريب جيش الأمير المعني، وخصوصاً على استعمال المدافع، ذكر الأب قرألي أن الأمير «لم يأل جهداً عن تجهيز جيشه وقلاعه بأحدث الأسلحة واستجلاب الخبراء الأوروبيين لتنظيمه وتدريبه، وكان يبتاع بأعلى الأسعار الأسرى الأوروبيين الخبيرين ويغدق عليهم الرواتب الكبيرة ويعاملهم أحسن معاملة. ووضع في قلعة الشقيف، قبل سفره إلى إيطاليا، ثمانية عشر فرنسياً ماهرين باستخدام المدافع»(١٨٤)، ووافقه الدكتور عادل اسماعيل على ذلك عندما قال ان الأمير «كان يدخل الأسرى الأوروبيين في جيشه كي يعلّموا جنده على استعمال المدفعية والمدافع وإتقان وظيفة الجحامين»(١٨٥).

إلا أن ماريتي لم يتردد في وضع النقاط على الحروف من حيث مقدرة الأمير في فن الحرب واستيعابه لهذا الفن عندما قال: «كان ينقص فخر الدين في أول عهده (١٥٩٩) فن الحرب أي فن القتال والحماية والاحتفاظ بالفوز،

لذلك اكتفى بالفتوحات الصغيرة للاحتفاظ بها، وكان التوسع بطيئاً ويُدرس بالتروي اللازم»[١٨٦].

٨ - التكتيك وتشكيلات القتال:

كتب سانتي، في تقريره عام ١٦١٤، عن مشاة الأمير انهم «يمشون وراء الراية بلا ترتيب، ويحاربون بلا نظام»، وعن خيالته انهم «يسيرون جماعات بلا بوق، ويحاربون منفردين بين كر وفر، وكل الأمر في سرعة الحصان وخفة حركاته»[١٨٧]، وانه لمستغرب حقاً، بعد مضي عشرة قرون على الفتح العربي الذي عرف نوعاً متقدماً من الفن العسكري خاض العرب، باعتمادهم إياه، حروبهم وكسبوا انتصاراتهم وحققوا فتوحهم، أن يكون فخر الدين، الذي اعتمد القوة العسكرية لتحقيق طموحه السياسي، جاهلاً لأساليب القتال، عاجزاً عن تطبيق مبادئ التكتيك العسكري في معاركه، وانه لمما يثير الاستغراب أكثر، أن يظل فخر الدين على هذه الحال بعد عودته من توسكانة، حيث اختبر بنفسه الأساليب الحديثة في فن الحرب لدى الدول الأوروبية. ولسنا ندري مدى صحة ما أورده المعلوف في حديثه عن فن الحرب عند الأمير المعني إذ قال: «عند الحرب، كان يصطف العسكر في جيش فخر الدين مخمساً (خميساً) من كتائب تسمى المقدمة والساقة وجناحاها الميمنة والميسرة ووسطها القلب، وعند اصطلاء نار الحرب ترفع الأعلام وتعزف المزامير وتقرع الطبول وتصطدم الصفوف فتطلق البنادق وترشق السهام وتدوي المدافع بنوع غير تام من الترتيب»[١٨٨].

يضاف إلى هذا الرأي رأي آخر لماريتي الذي قال إن فخر الدين لم يكن يعرف فن الحرب، وإن التكتيك في عهده كان نوعاً من الكر والفر «إذا غزا العدو بقوة والجيوش المجابهة أضعف، لا تصمد هذه الجيوش، وكل دفاعها

الفرار، ولكن عند استرجاع رباطة الجأش وزيادة عدد المحاربين، فإنها تجابه بقوة مماثلة المعتدين الذين، للأسباب نفسها، يولون الإدبار، وهكذا تباعاً، يرى المقاتلون أنفسهم يحتلون بلاداً شاسعة يخسرونها في اليوم التالي»(١٨٩). وفي كل حال، علينا أن نقر أننا، في خلال دراستنا لمعارك الأمير المعني، لم نستطع أن نتبين عنده خطاً واضحاً ومحدداً لفن عسكري قديم أو حديث.

يمكن القول اذن، ان فخر الدين لم يكن يتبع، في قتاله، تكتيكاً عسكرياً معيناً، ولم تكن تشكيلات القتال العصرية معروفة عنده، وإنما كان يتمتع بنظرة عسكرية لامعة تتيح له تحديد وضعه في المعركة واتخاذ المبادرة اللازمة لاعتماد الموقف الذي يمكّنه من النصر(١٩٠).

حواشي الفصل الثاني

(١) - Ismaïl, A., Histoire du Liban, T. I, p. 67, et Touma, T, Paysans et institutions féodales au Liban, T. I, p. 49

(٢) قرألي، فخر الدين ودولة توسكانة، ج ٢ : ٦٩، والشدياق، أخبار الأعيان، ج ١ : ٢٧٥ والخالدي، تاريخ فخر الدين، ص. ١٥٠. والمَلَكية هي الطوائف المسيحية في الشرق ذات الطقس البيزنطي مثل طوائف الأرثوذكس والكاثوليك، وأما تسميتها بالملكية، فهي نسبة إلى ملك الروم حامي الكنيسة البيزنطية.

(٣) Ismaïl, A. op. cit., T. I, pp. 67 - 68

(٤) قرألي، المرجع السابق. ج ٢ : ٦٩.

(٥) - E. Roger, La Terre Sainte, p. 300
et: - Puget de St. Pierre, Hist. des Druzes, p. 29

(٦) أنظر الفصل الثالث من الباب الأول (التنظيم العسكري العثماني).

(٧) - Lammens, La Syrie, T. II, p. 75

(٨) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٧١، والخالدي، المصدر السابق ص. ١٤٩. و:
- Ismaïl, A. op.cit, T. I, p. 69

(٩) يصفهم الأب لامنس بقوله: انهم جنود محترفون، يتيهون عصابات في أرجاء الامبراطورية، ويؤجرون خدماتهم لمن يدفع أكثر، مرتزقة، يعيشون من الحرب ويعرفون كل أسرار الشرق وكل ميادين القتال فيه.
(Lammens, op. cit., T. II, p. 75)

(١٠) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٧٦ و - Ismaïl, op. cit. T. 1, p. 69

(١١) قرألي، المرجع نفسه، ج ٢ : ٧٢ - ٧٣ و - Rabbath, Formation hist. du Liban, p. 173

(١٢) يذكر الأب قرألي، نقلاً عن رسالة المطران جرجس بن مارون أسقف قبرص إلى الكاردينال بربريني، ان القائد العام لجيوش الأمير عام ١٦٢٩ هو أبو نادر الخازن (قرألي، م ن. ج ٢ : ٢٧٩)

ويكرر الأب ديب ذلك (Dib, l'Eglise maronite, T. 2, p. 162)، إلا أن الوقائع لا تؤكد ما ذهب إليه المؤرخان، فقد بقي الأمير يونس قائداً لجيش أخيه حتى نهايتهما معاً عام ١٦٣٣، كما يذكر الدكتور عادل اسماعيل ان أبا نادر كان قائداً للخيالة فقط (Ismaïl, Histoire du Liban, T. I, p. 69).

(١٣) المعلوف، تاريخ فخر الدين، ص. ٢٤٥.

(١٤) م. ن. ص ٢٤٦ والشدياق، المصدر السابق، ج ١ : ٢٩١.

(١٥) المعلوف، م. ن. ص. ٢٤٦، عن المؤرخ التركي مصطفى نعيما الحلبي، ويذكر الشدياق أن الأمير قاسم الشهابي وصل في أثناء المعركة إلى موقع جند الأمير علي فوجده «قتيلاً وحوله عصبة من غلمانه وأصحابه يبكون عليه، فترجل الأمير قاسم وضمه وبكاه شديداً لأنه كان ركناً له وبطلاً صنديداً، فسأل عن خبره فقالوا له ما رأيناه منذ قدمنا إلا على هذه الحالة، فأمرهم بدفنه فدفنوه» (الشدياق، م. ن. ص. ٢٩١) ولم يأت على ذكر رواية مصطفى الحلبي الواردة آنفاً.

(١٦) لماريتي رأي آخر فيه إذ يقول: «كان متقلباً قليل الفطنة لم يكتسب شيئاً من التربية المعطاة له، والتي لم تغير من عيوب نزواته وقلة طاعته لنصائح الأكبر منه سناً، وكان شجاعاً للغاية يهوى السلاح والخيل ولكن دون بصيرة وحذر في المعارك» Mariti, Ist. di Fac. p. 175. ويقول عنه في مكان آخر «مقدام دون تروي، يعتمد على تقلبات الحظ» Ibid. p. 225 إلا أن سيرة الأمير علي في المعارك لا تثبت صحة هذا الرأي.

(١٧) اسماعيل حقي، لبنان، مباحث علمية واجتماعية، ج ١ : ٢٣٦.

(١٨) Puget de St. Pierre, Histoire des Druzes, p. 62 -

(١٩) الشدياق، المصدر السابق، ص ٢٩٢، والمعلوف، المرجع السابق، ص. ٢٠٩.

(٢٠) يقول ماريتي: «كان الأمير يونس يميل إلى السلاح والحرب... إلا أن الحرب كانت معبودة فخر الدين» (Mariti, op. cit., p. 25).

ويقول في مكان آخر: «كان الأمير يونس، كالأمير علي، مقداماً دون تروي، يعتمد على تقلبات الحظ» (Ibid. p. 225) إلا أن سيرة الأمير يونس في المعارك لا تثبت صحة هذا الرأي.

(٢١) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٦٩.

(٢٢) السردار: كلمة فارسية بمعنى (كبير القادة) وهي رتبة عسكرية تأتي بعد رتبة ناظر الحربية (المعلوف، المصدر السابق، ص. ٧٧ حاشية ٢).

(٢٣) الخالدي، المصدر السابق، ص. ١٢ وكان ذلك عام ١٦١٣ قبل سفر الأمير إلى توسكانة.

(٢٤) يرى المعلوف أن الحاج كيوان هو من آل نعمة ضو من قرية لحفد في بلاد جبيل، رحل جده نعمة من هذه القرية إلى بحرصاف ومنها إلى دير القمر حيث دخل في خدمة المعنيين، وخلفه حفيده كيوان في هذه الوظيفة (المعلوف، دراسة عن الحاج كيوان نعمة اللبناني، ص. ١ - ١٦)، إلا أن المحبي لا يذكر ذلك اطلاقاً، بل يكتفي بذكر أن كيوان بن عبدالله هو «أحد كبراء أجناد الشام، كان في الأصل مملوكاً لرضوان باشا نائب غزة ثم صار من الجند الشامي وسرداراً عند صوباشي الصالحية الخ»... (المحبي، خلاصة الأثر، ج ١ : ٢٩٩ - ٣٠٢) ونحن نميل إلى الأخذ برأي المحبي، لأن أحداً من المؤرخين القدامى لم يذكر ما ذكره معلوف بهذا الصدد.

(٢٥) Ismail, op. cit., T. I, p. 69. -

(٢٦) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٢١١.

(٢٧) الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص. ٢١.

(٢٨) P de St. Pierre, Histoire des Druzes, p. 145. -

(٢٩) Ibid, p. 143. -

(٣٠) الخازن والحلبي، الأصول التاريخية مجلد ٣ : ٣١٠.

(٣١) حتي، لبنان في التاريخ، ص. ٤٥٨.

(٣٢) المعلوف، المرجع السابق، ص. ٦٦.

(٣٣) E. Roger, La Terre Sainte, Paris 1646. -

(٣٤) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٢١١.

(٣٥) يقصد الأمير ملحم المعني الذي كان قد عينه مدبراً أول له.

(٣٦) الحلبي والخازن، المصدر السابق، مجلد ٢ : ٣١٥.

(٣٧) Nantet, Histoire du Liban, T. 2, p. 101. -

إلا أن هذا المؤرخ يقع في الخطأ الذي وقع فيه سواه عندما يعتبر أبا نادر قائداً عاماً لجيوش الأمير فيقول: «عين أبو نادر الخازن، بالتتابع، نقيباً للخيالة، ثم حاكماً لبيروت وعكا ثم قائداً عاماً للقوات المسلحة، وأميناً أعلى ومستشاراً كبيراً للدولة (Ibid., p. 62) ولكنه يعود فيذكر في مكان آخر (p. 101) ان الأمير كان «يحتفظ لنفسه بالقيادة العليا للجيش». وقد سبق أن ناقشنا هذا الرأي.

(٣٨) تقرير مؤرخ في ٢٦ شباط ١٦٣١ (قرألي، المصدر السابق، ج ٢ : ٣٠٢).

(٣٩) رسالة مؤرخة في ٢٦ آذار ١٦٣١ (قرألي، م. ن. ج ٢ : ٣٠٦).

(٤٠) Mariti, op. cit., p. 187. -

(٤١) الخالدي، المصدر السابق، ص. ١٨٣.

(٤٢) م. ن. ص. ١٨٤.

(٤٣) Nantet, op. cit., p. 101 -.

(٤٤) Ismaïl, A., op. cit., pp. 79 - 80 -.

(٤٥) Ibid -.

(٤٦) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٢٠٩ وكان الأمير قد وضع في هذه القلعة قبل سفره إلى إيطاليا ١٨ أسيراً فرنسياً ماهرين باستعمال المدافع (قرألي، م. ن. ج ٢ : ٧٦).

(٤٧) قرألي، م. ن. ج ٢ : ٧٦ - ٧٧، وانظر نص المعاهدة التي عرضها ليونشيني، مندوب توسكانة على الأمير عام ١٦٠٧، وطلب الأمير، من ضمن شروطه للقبول بها «ان يوضع بتصرفه خبير في صب المدافع مع المواد الضرورية، ليصب له عشر قطع من المدفعية، أم اثنتي عشرة، وكمية تناسبها من القنابل» (قرألي، م. ن. ج ٢ : ١٧١) إلا أن هذه المعاهدة لم تنفذ. كما أن الأمير طلب من الحاقلاني، سفيره إلى توسكانة، «أن يشتري له نحاساً ويصطحب معه في عودته خبيراً في صب المدافع» (قرألي، م. ن. ج ٢ : ٣١٧) مما يؤكد مدى إلحاح الأمير للحصول على كمية وافرة من المدافع لتعزيز هذا السلاح في إمارته.

(٤٨) قرألي، م. ن. ج ٢ : ٧٧.

(٤٩) م. ن. ص. ن.

(٥٠) م. ن. ص. ١٤٧.

(٥١) م. ن. ص. ٢٢٦.

(٥٢) م. ن. ص. ٧٦.

(٥٣) م. ن. ص. ١٧٠.

(٥٤) م. ن. ص. ٢٢٦.

(٥٥) م. ن. ص. ٦١.

(٥٦) P. de St. Pierre, op. cit., p. 57 -.

(٥٧) قرألي المرجع السابق. ج ٢ : ٣١٧.

(٥٨) م. ن. ص. ٣٦٠.

(٥٩) حتي، لبنان في التاريخ، ص. ٤٥٦.

(٦٠) Ismaïl, A., op. cit., T. I, p. 67 -.

(٦١) المَناور: مواضع رفع النار في الليل والدخان في النهار للإعلام بحركات العدو (كرد علي، خطط الشام، ج ٢ : ١٩).

(٦٢) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص. ٢٢.

(٦٣) موقع دير القلمة خارج قرية بيت مري من المتن الشمالي (صالح بن يحيى، م. ن.، ص. ٢٥ حاشية ٢).

(٦٤) جبل الكنيسة، وتقع على سفحه الشرقي قرية بوارج (أبو بوارش سابقاً) (م. ن. ص. ن حاشية ٤).

(٦٥) من قمم سلسلة جبال لبنان الشرقية (م. ن. ص. ن. حاشية ٥).

(٦٦) جبل قاسيون المطل على دمشق (م. ن. ص. ن. حاشية ٦).

(٦٧) صالح بن يحيى، م. ن. ص. ٢٥.

(٦٨) كان موقع خان الحصين على طريق دمشق بين عاليه وبحمدون (صالح بن يحيى، م، ن. ص. ٢٥ حاشية ١).

(٦٩) زبدل من قرى البقاع وخان ميسلون في وادي الحرير على طريق دمشق (م. ن. ص. ن حاشية ٢).

(٧٠) صالح بن يحيى، م. ن. ص. ٢٥.

(٧١) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ١٦٠.

(٧٢) - Nantet, op. cit., p. 101.

(٧٣) - Des Hayes de Courmenin, Voyages, p. 384.

(٧٤) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ١٦٤.

(٧٥) م. ن. ص. ٢١١ و٢١٣.

(٧٦) م. ن. ص. ٢٠٥.

(٧٧) - E. Roger, op. cit., p. 300.

(٧٨) - P. de St. Pierre, op. cit., pp. 29 et 62.

(٧٩) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ١٧٤.

(٨٠) م. ن. ص. ٧٤.

(٨١) - Comte de Césy, Correspondances (Bibliothèque Nationale - Departement des manuscrits 20983 - Paris).

(٨٢) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٧٤.

(٨٣) - Sandys, G., Relation, p. 212.

(٨٤) - Bouron, les Druzes dans l'histoire, p. 113.

(٨٥) - De La Croix, La Turquie chrétienne, L. III, pp. 266 et 271.

(٨٦) - Ismaïl, op. cit., T. I, p. 68.

(٨٧) - Jouplain, la question du Liban, p. 109.

(٨٨) بغية احتلال الأراضي المقدسة «فيجعل في جنبه دولة صديقة قوية تساعده على الوقوف في وجه تركيا» (قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ١٥).

(٨٩) م. ن. ج ٢ : ٧٤.

(٩٠) المحبي، المصدر السابق، ج ١ : ٢٦٧.

(٩١) المرادي، سلك الدرر، ج ٢ : ٥٩.

(٩٢) - Lammens, op. cit., T. II, pp. 78 - 79.

(٩٣) شيخو، بيروت، تاريخها وآثارها، صفحة ٨٠.

(٩٤) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ١٧ و٧٣.

(٩٥) الخالدي، المصدر السابق، ص. ٢٢٤ - ٢٢٥، وقيل انه أجاب: «كنت أجمع نيفاً وعشرين ألفاً ما عدا الذين يتأخرون في البلاد لأجل المحافظة» (الشهابي، الغرر الحسان، ج ١ : ٦٥٦).

(٩٦) محمد كرد علي، خطط الشام، ج ٢ : ٢٦٥، وإذ يعطي بورون (Bouron) الرقم ٤٠ ألفاً لجيش الأمير، يقول في تعليق له إن بعض المؤرخين يقدرون هذا الجيش بمئة ألف، ويستطرد قائلاً «ولا شك في ان هذا الرقم شرقي نوعاً»، بمعنى انه مبالغ فيه، كعادة الشرقيين في ذلك (Bouron, op. cit. p. 113).

(٩٧) فيما يلي حساب لقوة الأمير بالأرقام في آخر معاركه ضد العثمانيين، قال الشدياق: «سنة ١٦٣٤ نهض - الكجك أحمد والي دمشق - بالعساكر إلى خان سمسع وأرسل يدعو المناصب إليه... فلما بلغ الأمير فخر الدين ذلك جمع ٦ آلاف رجل من بلاده وأرسلهم صحبة ولده الأمير علي إلى بلاد عجلون خشية من خيانتهم إذا كانوا في البلاد، وأبقى عنده ألفين من رجال الشوف والإثني عشر ألفاً السكمان، وأرسل ولده الأمير حسيناً بـ٣ الاف مقاتل إلى قلعة المرقب ليتحصن فيها، وأرسل ٣ آلاف أخرى إلى قلعة بانياس. ولما رأى الأمير أحمد الشهابي اهتمام الأمير جمع رجال وادي التيم إلى ريشيا وتهيأ لصد الكجك أحمد. وأما الأمير فلم يبق معه سوى رجال الشوف وفرقة من السكمان، وكان تفريقه العساكر خطأ» (الشدياق، أخبار الأعيان، ج ١ : ٢٩٠).

يمكننا إذن أن نعرف قوة الأمير القصوى من الحشد الذي حشده لهذه المعركة، وهي معركة حاسمة ومصيرية بالنسبة إليه، فلا بد إذن أن يواجه عدوه فيها بأقصى طاقته، وإذ نعلم من جمع أرقام الآلاف المحشودة في هذه المعركة (٦+٢+١٢+٣+٣ = ٢٦ ألفاً) ان طاقته القصوى فيها كانت ٢٦ ألف مقاتل، يضاف إلى ذلك قوات الشهابيين في وادي التيم والقوات المتخلفة في بلاد لأجل المحافظة على الأمن والقلاع والحدود، نرى انه لا يمكن أن يتعدى مجموع قواته، في جميع الأحوال الأربعين ألف مقاتل.

(٩٨) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٢١١.

(٩٩) - Ohsson, Tableau général de l'Empire Ottoman, T. VII, pp. 341 - 343.

(١٠٠) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٧٥ (عن تقرير سانتي) و

- Ismaïl, op. cit., T. I, p. 67.

(١٠١) - Ismaïl, A., Ibid.

(١٠٢) - D'Arvieux, Memoires, T. I, p. 409.

(١٠٣) محمد كرد علي، المرجع السابق ج ٢ : ٢٦ و٢٧ و

- Ohsson, op. cit., T. VII, p. 345 et Villamont, Voyage, L. III, p. 299.

(١٠٤) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٧٥.

(١٠٥) - Ismaïl, op. cit., T. I, p. 68.

(١٠٦) - De La Croix, La Turquie Chrétienne, L. III, p. 278.

(١٠٧)مزهر، تاريخ لبنان العام، ج ١ : ٢٥١.

(١٠٨) م. ن. ص. ن.

(١٠٩) - Ohsson, op. cit., T. VII, p. 341.

(١١٠) - D'Arvieux, op. cit., T. I, p. 439.

(١١١) الخالدي، المصدر السابق، ص. ١٢.

(١١٢) أنظر الفصل السابق (سيرته في الحكم: جباية الأموال لتنمية موارد الخزينة) وبناء لما ذكره «بيجيه دي سان بيير» فان «مدخول الأمير من الضرائب سنوياً كان مليوني أقجة منها ٦٠ ألفاً للسلطنة، والباقي لإدارة البلاد والاحتفاظ بجيش عديده ٢٥ ألف مقاتل» (P. de St. Pierre,op. cit. p. 29). وذكر اسماعيل حقي أن مؤرخي عصر الأمير قد أجمعوا على «أن الأمير فخر الدين كان أعظم أمراء السلطنة العثمانية أوانئذ، بلغ دخل خزينته السنوي ٩٠٠ ألف ليرة كان يؤدي منها إلى خزينة السلطنة ٢٤٠ ألف ليرة» (اسماعيل حقي، لبنان، مباحث علمية واجتماعية، ج ١ : ٣٣٧).

(١١٣) الشهابي، تاريخه (الغرر الحسان)، ج ١ : ٦٣٧، إلا أن الخالدي يقول عن الموضوع نفسه: «أرسل حسين يازجي يشكو من السكمانية التي في القلاع بأنهم صاروا آخذين بخشيش الطايفة ثلاث مرات لكل رجل في كل مرة ٥ غروش والعلوفة كانت لكل رجل ٣ غروش فما رضوا إلا بأربعة» (الخالدي، المصدر السابق، ص. ٣٢ - ٣٣) وفي نسخة أخرى «في كل مرة ٥ غروش من غير العلوفة والعلوفة كانت...» (الخالدي، م. ن. ص. ٣٢ حاشية ١) وقارن مع رواتب الجند الإنكشاريين في الفصل الثالث من الباب الأول (التنظيم العسكري العثماني في العهد المعني).

(١١٤) - Bouron, op. cit. p. 114.

(١١٥) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٦٦ ولكن «ماشنجي» يقول في تقريره عن الموضوع نفسه عام ١٦١٤: «يبلغ عدد جيش الأمير عشرين ألفاً، ثلاثة آلاف ينال الواحد منهم شهرياً ٤ ريالات خلاف النفقة» (قرألي، م. ن. ص. ن.).

(١١٦) يذكر الأب قرألي أن رواتب الخبراء التوسكانيين الذين استقدمهم الأمير عام ١٦٣١ كانت كما يلي:

- الطبيب متى نالدي مع خادمه: ١٢٠٠ سكوت سنوياً.
- المهندس والنحات فرنسيس تشيولي (خبير في بناء القصور والجسور والتحصينات): ٤٠ سكوت شهرياً.
- البناء فرنسيس فانيي: ١٦ سكوت شهرياً.

هذا عدا نفقات السفر وتأمين السكن والطعام (قرألي، م. ن. ج ٢ : ٣١٢).

(١١٧) قرألي، م. ن. ج ٢ : ٧٦.

(١١٨) الخالدي، المصدر السابق: ص. ١٨٠.

(١١٩) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٢١٢.

(١٢٠) - P. de St. Pierre, H. des Druzes, p. 62.

(١٢١) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٢١١ و٢١٢.

(١٢٢) - Lindsay, Merril, Histoire des armes à feu, pp. 37 et 44.

et: - Grand Larousse Encyclopédique, T. I, p. 593 (Arquebuse).

(١٢٣) - Hayward, J. F., Les armes à feu anciennes, pl. 4a et 20c.

et: - Grand Larousse encycl. T. 2, p. 612 (Carabine).

(١٢٤) - Hayward, op. cit., pl. 28a et 28c.

et: - Grand. Larousse encyclop. T. 7, p. 564 (Mousquet)

وانظر أيضاً: - Focus Encyclopédique international, V.1, pp. 212 - 213

(Armes à feu I et II).

(١٢٥) - Lammens, La Syrie, T. II, pp. 69 - 70.

نقلاً عن كوتوفيكس (Cotovicus) معاصر الأمير والذي زار سوريا عام ١٥٩٨.

ويقصد بالدروز هنا رعايا الأمير المعني دون سواهم.

(١٢٦) - Ibid., p. 72.

(١٢٧) - D'Arvieux, Mémoires, T. I, p. 359.

(١٢٨) قرألي، المرجع السابق. ج ٢ : ٢١٢.

(١٢٩) م. ن. ص. ١٧٦ ويذكر الأمير حيدر الشهابي في تاريخه (ج ١ : ٦٢٥) ان الأمير فخر الدين قد شاهد في توسكانة «صور المنجنيق الذي كان يستعمل قديماً في الحصار».

(١٣٠) - D'Arvieux, op. cit., T. I, p. 409.

(١٣١) قرألي، المرجع السابق. ج ٢ : ١٤.

(١٣٢) م. ن. ص. ١٦٩.

(١٣٣) م. ن. ص. ١٧٠.

(١٣٤) م. ن. ص. ١٧٢ - ١٧٣.

(١٣٥) م. ن. ص. ١٧١.

(١٣٦) م. ن .ص. ن.

(١٣٧) م. ن. ص. ١٦٧ - ١٧٢ وقد سبق أن تحدثنا عن مشروع هذه المعاهدة في فصل سابق.

(١٣٨) م. ن. ص. ٦١.

(١٣٩) م. ن. ص. ٧٧.

(١٤٠) م. ن. ص. ٦٧ - ٧٧.

(١٤١) م. ن. ص. ٧٧.

(١٤٢) م. ن. ص. ١٣٧.

(١٤٣) م. ن. ص. ن.

(١٤٤) المعلوف، المرجع السابق، ص. ٢٢٩ - ٢٣٠، نقلاً عن مذكرات الأب رباط.
(Rabbath, Père, Documents inédits pp. 382 - 383).

(١٤٥) D'Arvieux, op. cit., T. I, p. 359 -

(١٤٦) Nantet, op. cit., p. 104 -

(١٤٧) P. de St. Pierre, op. cit., p. 57 -

(١٤٨) Depping, Histoire du commerce entre le Levant et l'Europe, T. I, pp. 190 - 191 -

(١٤٩) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٢١٩ و ٢٢٦.

(١٥٠) م. ن. ص. ٢٩٨ - ٢٩٩ ويذكر أوجين روجيه ان الفراندوق قد أرسل إلى الأمير «ألغاماً ولغامين ومهندسين وبنائين وخبازين لعمل البقسماط، وقد عمل هؤلاء جميعاً طوال سنتين في الحصون لتجهيزها بكل ما تحتاج إليه تجهيزاً كاملاً (Roger E., La Terre Sainte, p. 300) -

(١٥١) De La Croix, op. cit., L III, pp. 278 - 279 -

(١٥٢) Mariti, op. cit., p. 216 -

(١٥٣) قرألي، المرجع السابق. ج ٢ : ٣٦٠.

(١٥٤) المعلوف، المرجع السابق، ص. ٢٣٨ حاشية ٢.

(١٥٥) حقي، المصدر السابق، ج ١ : ٢٠٠.

(١٥٦) D'Arvieux, op. cit., T. I, p. 359 -

(١٥٧) Ibid., T. 2, p. 434 -

(١٥٨) Nantet, op. cit., pp. 89 - 90 -

(١٥٩) P. de St. Pierre, op. cit., p. 29. et E. Roger, op. cit., p. 300 -

(١٦٠) Des Hayes de Courmenin, Voyage, p. 384 -

ويتحدث الخالدي عن التجنيد الإجباري الذي شهده في توسكانة أثناء إقامته مع الأمير هناك، فيذكر أن الحاكم يستدعي الناس «ليعلموهم رمي البندق ونقل السلاح ويبقوا على هذه الحال سنتين ثلاثة حتى يكملوا تعلم ذلك ويعودوا يروحوا إلى أشغالهم ويجيبوا ناس عوضهم من بلادهم ويعلموهم نقل السلاح مثل الأول ويبقوا على هذه الحال حتى يعلموا جميع أهالي بلادهم نقل العدة والسلاح» (الخالدي، المصدر السابق، ص. ٢٢٦ و٢٤١) ولا شك في أن الأمير قد استفاد من هذه التجربة وحاول تطبيقها في بلاده بشكل أو بآخر.

(١٦١) Sandys, Relation, p. 212. -

(١٦٢) De La Croix, op. cit., L III, p. 269. -

(١٦٣) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٧٠.

(١٦٤) Fermanel, Voyage, p. 306, et Lamartine, Voyage, p. 376. -

(١٦٥) Jouplain, la question du Liban, p. 98. -

(١٦٦) Bouron, op. cit., pp. 113 - 114. -

(١٦٧) الشدياق، المصدر السابق، ج ١ : ٢٥٣.

(١٦٨) م. ن. ص. ٢٥٤.

(١٦٩) م. ن. ص. ٢٥٧ - ٢٥٨، والشهابي، المصدر السابق، ج ١ : ٦٦١، ويروي الخالدي حملة التعبئة هذه كما يلي:

«توجه - أي الأمير - إلى بيروت في شهر صفر... وكانت أيام الكوانين، وأرسل أناساً يربطون نهر الكلب حتى لا يروح أحد إلى طرابلس، وجمع أهل الشوف جميعاً وأهل الغرب والجرد والمتن وكسروان إلى عنده بمدينة بيروت، وأرسل إلى ولده الأمير علي أن يجمع رجال بلاد صفد وبشارة والشقيف وصيدا ويرسل إلى الأمير علي ابن الشهاب ليأتي برجاله إليه، ثم يمشي بهم على أثر والده، وتوجه الأمير فخر الدين بالرجال التي اجتمعت عنده بمدينة بيروت ونزل على نهر ابراهيم ومن نهر ابراهيم إلى جبيل...» (الخالدي، تاريخ فخر الدين، ص. ٧٣ - ٧٤) وفي نسخة أخرى: «وكانت أيام كوانين فأرسل الشيخ أبا نادر الخازن وقرايبه وجماعته يربطون نهر ابراهيم حتى لا يروح أحد إلى طرابلس وكل من مرّ على الطريق يمسكوه ويبقوه عندهم في برج نهر ابراهيم...» (الخالدي، م. ن، ص. ٧٤ حاشية ١).

(١٧٠) الشدياق، المصدر السابق، ج ١ : ٢٧٢.

(١٧١) م. ن. ص. ٢٨٠ - ٢٨١، والخالدي، المصدر السابق، ص. ١٨٠ - ١٨٢، ويذكر الخالدي في سياق حديثه عن هذه الحملة انه «في أقل من يومين اجتمع عنده - أي الأمير - مقدار ثمانية آلاف عسكري وأولاد عرب» بالإضافة إلى ألف رجل مع الأمير يونس، مما يبرر قول بعض المؤرخين ومنهم ديهي دي كورمينان (Des Hayes de Courmenin) انه «كان بإمكان الأمير أن يجمع عشرة آلاف مقاتل في خلال يومين اثنين».

(١٧٢) الشهابي، المصدر السابق، ج ١ : ٧١٢، والشدياق، م. ن. ج ١ : ٢٨٦.

(١٧٣) الخالدي، المصدر السابق، ص. ٨٠.

(١٧٤) Volney, Voyage, p. 239. -

وكانت رحلة فولني إلى «سوريا ومصر» في العام ١٧٨٢ أي في عهد الإمارة الشهابية.

(١٧٥) - Nantet, op. cit. p. 104.

(١٧٦) - Dib, L'Eglise maronite, V 2, p 91.

(١٧٧) - Des Hayes de Courmenin, Voyage, p. 384.

(١٧٨) البوريني، تراجم الأعيان من أبناء الزمان، ج ١ : ٢٠٢.

(١٧٩) - Villamont, op. cit, L III, p. 392.

(١٨٠) D'Arvieux, Laurent, Voyage dans la Palestine pp. 51 - 52.

(١٨١) - Ibid., pp. 76 - 80.

(١٨٢) - Puget de St. Pierre, Histoire Druzes, pp. 132 - 133.

(١٨٣) - Ibid. p. 137.

(١٨٤) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٧٦.

(١٨٥) - Ismaïl, A., op. cit., T. I, p. 80.

(١٨٦) - Mariti, op. cit., p. 58.

(١٨٧) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٢١١.

(١٨٨) المعلوف، دواني القطوف، ص. ١٩١.

(١٨٩) - Mariti, G., op. cit., pp. 57 - 58.

(١٩٠) سوف نعود إلى بحث هذا الموضوع بالتفصيل في فصل لاحق، ومن خلال دراستنا لمعارك الأمير.

الفصل الثالث

القلاع والمرافئ البحرية في عهد فخر الدين

أولاً - القلاع:

منذ أن تسلّم فخر الدين الإمارة المعنية عام ١٥٩٠، كان مقدراً له أن يجابه ثلاث قوى لا يستهان بها من الشرق والغرب والشمال: قوة الأسطول العثماني من البحر غرباً، وقوة والي الشام من دمشق شرقاً، وقوة ابن سيفا من طرابلس شمالاً، وكان عليه، بالإضافة إلى ذلك، أن يحذر أمراء العرب في فلسطين جنوباً، إذ لم يكن له بينهم صديق دائم ولا عدو دائم. فكان عليه إذن أن ينظم دفاعه بشكل يضمن سلامة إمارته ويتيح له الاحتفاظ بالمقاطعات التي يتمكن من الاستيلاء عليها، ولم يخرج فخر الدين في استراتيجيته الدفاعية عن النظرية التقليدية التي كانت سائدة في عصره وهي نظرية «دفاع القلاع والحصون». وانطلاقاً من قناعته التامة بأن قلاعه ستصبح صعبة المنال، إن لم يكن مستحيلة، إذا ما حصّنت وجهزت بالأسلحة والرجال اللازمين، وبأن بعضاً منها سيكون قادراً على رد كل «جيوش بني عثمان» إذا ما زود بالعدد اللازم من المدافع[١]، فإنه اعتبر القلاع عنصراً رئيسياً ومهماً في استراتيجيّته الدفاعية، واعتمد «القلعة والمدفع» أساساً في جهازه الدفاعي. ونظرة إلى القلاع في البلاد التي كان الأمير يسيطر عليها، نرى أن فيها ما كان معداً للدفاع عن السواحل كقلاع صيدا وصور ونيحا[٢] وقلعة المسيلحة بالبترون، ومنها ما كان معداً للدفاع عن الداخل كالشقيف وبانياس[٣] وقب

الياس، ومنها ما بناه الأمير، ومنها ما رممه، مجهّزاً كلاً منها بما أمكن من الأسلحة والرجال ومعدات التحصين والدفاع، وفقاً لحاجاته وإمكاناته. ولم يكن الأمير ليتوانى، كلما كسب أرضاً أو استولى على مقاطعة، عن أن يضع يده مباشرة على ما في تلك الأرض أو هذه المقاطعة من قلاع، فيعدها لتكون نقطة ارتكاز دفاعية كاملة التجهيز والتسليح، وكان يبني هذه القلاع عند الحاجة لاستكمال خطته الدفاعية، بحيث تكون حدوده محمية بالقلاع من كل جانب[٤].

لم يكن فخر الدين يملك من القلاع، يوم تسلم الحكم في إمارة الشوف عام ١٥٩٠ سوى قلعة «نيحا» أو «شقيف تيرون» الواقعة في إمارته. إلا أنه بعد أربع سنوات فقط، أي عام ١٥٩٤، تسلم، من مراد باشا، حكم صيدا، فجعلها عاصمة لإمارته، ثم اتجه إلى تحصين المدينة فرمم قلعتها البرية وأعاد بناء قلعتها البحرية التي سميت باسمه[٥]، ووضع فيها مدافع وجنداً لرد الغارات البحرية عن ساحل المدينة ومرفئها، مما جعلها في وضع دفاعي ممتاز.

وفي عام ١٦١٢ استولى الأمير على قلعتي بانياس وشقيف أرنون، فأحكم بذلك جهازه الدفاعي من جهات ثلاث: من الجهة الغربية بواسطة قلعتي صيدا، ومن الجهة الجنوبية والجنوبية الغربية بواسطة قلعة الشقيف أو شقيف أرنون (Chateau Beaufort)، ثم من الجهة الشرقية بواسطة قلعة بانياس أو الصبيبة، ولهذا فقد وضع، في العام ١٦١٣، وقبل سفره إلى توسكانة، «في كل واحدة من قلعة بانياس والشقيف من الرصاص والبارود والمازق ما يكفي العسكريين بهما خمس سنين، ووضع فيهما برسم علوفات السكمانية ماية ألف قرش، وجعل على عسكر قلعة بانياس حسين اليازجي سردارا وبها عشرة بلوكباشية على ألف نفر ماش، وعلى عسكر قلعة الشقيف طويل حسين بلوكباشي، وبها خمسة من البلوكباشية على أربعمائة نفر ماش أيضاً، وكل من كان منهم متأهلاً أدخل أهله معه إلى القلعة، ووضع الأمير حريمه في القلعتين... وأوصى العسكريين بأمور

منها ما نقله عنه الجمهور أنه إذا قدر الله عليه ووقع في أيدي الدولة وقال لكم كبيرهم سلموا لنا القلاع حتى نطلق لكم أميركم لا تعتمدوا قوله واحفظوا قلاعكم وناموسكم ودعوهم يفعلون ما يريدون بعد أن تقيموا ناموسكم ولا تسلموا قلاعكم»[٦].

وقد اعتمد فخر الدين بصورة خاصة، للدفاع عن بلاده، وطوال مدة حكمه، هذه القلاع الثلاث الشهيرة في تاريخه: نيحا وبانياس وشقيف أرنون، فخصّها بعنايته، وظلّ يحصّنها باستمرار، ويزودها بالرجال والمعدات والسلاح، وخصوصاً بالمدافع، كما حدثنا «سانتي» في تقريره، حيث وضع في قلعة الشقيف، قبل سفره إلى توسكانة عام ١٦١٣، ثمانية عشر أسيراً فرنسياً ماهرين باستعمال المدافع، وقد تمكن هؤلاء من صد هجوم كبير شنه أحمد باشا الحافظ والي دمشق على القلعة في العام نفسه، فاستعملوا ثلاثة مدافع كانت في القلعة ليرموا بواسطتها جيش الباشا بالنيران الاصطناعية وينزلوا به خسائر فادحة اضطرته إلى التقهقر بعيداً عن القلعة[٧]. ويظهر أن الأمير قد جهز هذه القلعة فيما بعد بعدد أكبر من المدافع بلغ العشرة بين صغير وكبير، وذلك في أثناء وجوده بتوسكانة[٨]. حتى أن البوريني عزا أحد أسباب قيام أحمد باشا الحافظ لمحاربة الأمير في قلعة الشقيف إلى أنه، أي الأمير، «جاء إلى قلعة الشقيف وحصنها وجددها وأكدها وأطّدها، وشحنها بالأرزاق التي لا انتهاء لها، وجعل بها من آلات الحصار ما لا يعد ولا يحد، واستمر في ذلك التحصيل والتحصين نحو عشرة أعوام»[٩]، وقد عصيت قلاع الأمير فعلا على الدولة، وخصوصاً قلعتا الشقيف وبانياس، اللتان كانتا أمنع من أن تصل جيوش الوالي أو السلطان إليهما[١٠].

ويظهر أن شهوة التوسع عند الأمير ازدادت بعد عودته من توسكانة عام ١٦١٨، فصار يضرب شمالاً وجنوباً. يلتهم ما أمكن التهامه من البلدان

المجاورة، وكان يعمد إلى الاستيلاء على المراكز المنيعة والقلاع في البلدان التي يحتلها - سلماً برضى السلطنة، أم حرباً - فيحصنها ويزودها بما تحتاجه من المؤن والسلاح والعتاد والجند، ويعدها لتكون قادرة على الدفاع عن «حدوده الموقتة» ولتكون في الوقت نفسه، نقطة انطلاق نحو «الأبعد» كمن يثبت في الأرض قدماً ليقفز بالأخرى قفزة إلى الأمام، ولا غرو فهو الذي قال في معرض شرحه لاستراتيجيته في التوسع: «كلما تملكنا بلاداً نتقوى برجالها وأموالها، وننتقل إلى غيرها».

ففي العام ١٦١٨ انتزع فخر الدين من يوسف باشا سيفا قلعتي جبيل وسمر جبيل، «بلا قتال» فهدم الأولى وجهز الثانية بالرجال والسلاح، وجعلها مخفراً متقدماً على حدوده الشمالية باتجاه ابن سيفا[١١]، وتمكن عام ١٦٢٢ من الاستيلاء على حصون عجلون وكرك الشوبك وصفد وجنين والسلط وحيفا، وذلك بعد أن حصل على سنجقيات عجلون ونابلس وصفد، اثر صراع مرير ودام أحياناً مع منافسيه على هذه السنجقيات، أمثال الأمير بشير قانصوه والأمير يونس الحرفوش والأمير أحمد بن طربيه، وكان كلما استولى على واحد من هذه الحصون ركز فيه عدداً من جنده[١٢]. ثم نهض إلى قب الياس فاسترد قلعتها من الأمير حسين الحرفوش بعد أن أظهر له «تمسكات وحجج وحكم سلطاني بمشترى الأمير فخر الدين حارة قب الياس من تركة الأمير منصور ابن الفريخ»[١٣]، وفي العام ١٦٢٣، وبعد انتصاره في وقعة عنجر الشهيرة على مصطفى باشا والي الشام، أكد له هذا الأخير ولايته على سنجقيات صفد وعجلون ونابلس، ثم منحه إضافة عليها، مقاطعة غزة وولاية البقاع وسنجقية الجون[١٤]، فقام الأمير بمحاصرة جند الأمير يونس الحرفوش في قلعة بعلبك وانتزعها منه، وفي العام ١٦٢٤ رممها وجهزها بكميات من المؤن والسلاح وأعداد من الجند يكفي لرد أي هجوم محتمل من قبل والي الشام، فكانت هذه

القلعة مخفراً من مخافر الأمير على حدوده الشرقية. وقد زار القنصل دي فرانسانو قنصل توسكانة هذه القلعة عام ١٦٣٠ ووصفها كما يلي: «مبنية بلا كلس، فيها من الحجارة ما يبلغ طوله من أربعين إلى خمسين ذراعاً، بعرض أربعة عشر أو خمسة عشر، وهو ما يصعب تصديقه على من لا يراه بعينه، وباني هذه القلعة سليمان الحكيم... وفي القلعة المذكورة ستة وخمسون عموداً من الرخام الأبيض حجم كل منها زهاء اثني عشر ذراعاً، لكنه مركب من قطعتين وأحياناً من ثلاث، وهي تؤلف دائرة داخل القصر - ويقصد القلعة - وتحمل عقداً كله بالرخام، نقشت فيه بالإزميل رسوم نافرة في غاية الدقة والإتقان. ومعظم هذا القصر في حالة خراب لمرور الزمن عليه، ولأن الأمير فخر الدين هدم جانباً منه»[١٥].

وقد استولى الأمير فخر الدين، في العام نفسه، على حصن اللبوة، وهو حصن «يحمي مدخل البقاع من الجهة الشمالية كما تحميه بعلبك من الجهة القبلية»[١٦].

وفي العام ١٦٢٥ تسلم الأمير فرماناً سلطانياً بتوليته على ديار «عربستان» من «حد حلب إلى حد القدس» قال الخالدي: «وفي أول شهر ربيع الأول من السنة المذكور - ١٠٣٤هـ - بدؤها الاثنين في ١٤ تشرين الأول ١٦٢٤، أجاه - أي الأمير - أحكام سلطانية فرمان عالي شان خط هميون بأنه يكون متولياً على ديرة عربستان من حد حلب إلى حد القدس ومعطى اسم جده المرحوم المغفور له الأمير فخر الدين سلطان البر على المقاطعات المذكورة»[١٧]، فأصبح أميراً على البلاد الممتدة من غزة وعجلون جنوباً إلى انطاكية وحلب شمالاً. وما أن تلقى «الأوامر الشريفة» حتى «جمع جميع السكمانية الذين عنده وعند ولده وكان جمعهم تسعة آلاف نفس، وجمع من أولاد العرب خمسة آلاف نفر» وتوجه بهم «من بيروت إلى نهر ابراهيم... إلى البترون... إلى جبل عكار»[١٨] حيث دخلت

في طاعته تلك البلاد كلها، ودخلت في ملكيته قلاع المسيلحة وحصن الأكراد والسلمية (شمال شرقي حمص) والمرقب وصافيتا ومسقية، ثم باشر ببناء قلعتين واحدة في حلب شمال قلعة الشماميس والثانية فوق أنطاكية، وما ان أتم بناءهما، حتى جهزهما بالسلاح والجند وانتقل إلى بعلبك حيث رمم قلعتها - كما سبق أن ذكرنا - و«حط فيها عازق وبلوكباشية» ثم انتقل إلى قب الياس حيث أعاد بناء قلعتها، ووضع عليها وكيلاً من قبله ورحل إلى وادي التيم(١٩).

ومن وادي التيم انتقل الأمير إلى بانياس حيث أعاد بناء قلعتها ثم إلى صلخد بحوران حيث باشر بإعادة بناء قلعتها بعد أن بعث بجماعته إلى كل من نابلس وجنين واربد والجولان ليلموا الأموال المترتبة على هذه البلدان، ومكث في صلخد مدة شهرين حتى أنجز ترميم القلعة(٢٠).

وفي العام ١٦٢٧ تسلم الأمير ولاية طرابلس، فاستولى على قلعتها، وعمّر قلعة «القليعات» في أرض الجون كما استولى على قلعة «العريمية»(٢١).

وفي العام ١٦٣١ استولى الأمير على قلعة تدمر، كما استولى في العام ١٦٣٢ على قلعتي مصياف وصهيون(٢٢).

وفي الجنوب، وبالإضافة إلى قلاع عجلون وصفد وحيفا والسلط وجنين وكرك الشوبك التي مرّ ذكرها، استولى الأمير على قلاع أبي الحسن وتبنين وصور ومارون وحصن دوبية. وقد لخص المعلوف أعمال الأمير في القلاع والحصون التي استولى عليها طوال مدة حكمه بما يلي:

«رمم قلاع بعلبك وقب الياس وشقيف تيرون وشقيف أرنون وصلخد والكرك في حوران والمرقب في اللاذقية والمسيلحة قرب البترون وسمار جبيل في بلاد جبيل وقلعة أبي الحسن في جزين وسراي دير القمر والصبيبة (بانياس)، وبنى قلعة قرب تدمر القديمة ورمم حصن الشماميس تجاه حلب في مقاطعة الروج وآخر فوق أنطاكية، وبنى قرب المسيلحة حصناً، ونسبت إليه

قلعة قرب إربد على بعد نحو ثلاثة أميال عن طبرية وقلعة خان قرب القاسمية وترميم قلعة اللبوة قرب بعلبك»[٢٣].

وذكر الأب قرألي أن القلاع والحصون التي أضحت في حوزة الأمير عام ١٦٢٩، تجاوزت الأربعين[٢٤] وعدّدها، إلا أنه في تعداده لها ضمّنها كثيراً من القصور والأبراج التي لا تعتبر قلاعاً ولا حصوناً (كبرج الكشاف في بيروت، وقصر غزير، وعمارة تل الهربج، ومغارة جزين، ومغارة الحمام قرب صفد، الخ...)[٢٥]، وذكر «بورون (Bouron)» أن جهاز الأمير الدفاعي كان يتضمن خمس عشرة قلعة مليئة بالجند[٢٦]، وذكر الأستاذ محمد كرد علي أن فخر الدين ملك «نحو ثلاثين حصناً»[٢٧]، والحقيقة أن ما ذكرناه فيما سبق من هذا الفصل من قلاع الأمير وحصونه هو معظم ما دخل منها في ملكية الأمير حتى آخر حكمه، إن لم يكن كله، وفيما يلي لمحة موجزة عن أهم هذه القلاع.

قلعة نيحا أو شيف تيرون:

تقع إلى الجنوب الغربي من قرية نيحا بالشوف، وربما تكون قد اكتسبت اسمها من اليونانية (بمعنى المجبنة) أي مكان عمل الجبنة، مما يشير إلى أنها كانت في الأصل زريبة للماعز. وقد وصفها الأمير شكيب ارسلان في دائرة المعارف للبستاني فقال: «قلعة نيحا، المنسوبة إلى تيرون، فيقال لها شقيف تيرون، وهي منحوتة في الصخر الأصم على مساحة طويلة ولكن العرض لا يزيد على ١٥ متراً، ولا يمكن الدخول إليها أصلاً إلا إذا تدلى أحد من الجبل أعلاها بحبل أو صعد من أسفلها بسلم، ولكن العلو شاهق، فإنه إذا رمى أحد حصاة منها إلى الأرض عد بلفظه إلى ٢٥ قبل وصول الحصاة إلى الأرض، ولها مدخل من أحد جانبيها فقط عرضه متران وطوله بضعة أمتار وتحته إلى الغرب الهاوية، وهي أشبه بوكر نسور منها بقلعة، وفيها آبار وغرف لها منافذ وطاقات»[٢٨].

ووصفها «سانتي» رئيس البعثة التي أوفدها قوزما الثاني غراندوق توسكانة، للتعرف إلى بلاد الأمير عام ١٦١٤، في تقرير له، في العام نفسه، بقوله: «قلعة نيحا منقورة في شكل مغارة في بطن جبل كثير الانزلاق، يستحيل دخولها على غير الطيور، فللوصول إليها عليك ان تمر فوق ألواح من الخشب موضوعة بين صخر وآخر وتحت قدميك هوة عظيمة هائلة، وما جدرانها سوى حواجز تقي المارة من السقوط، فيستحيل أخذها بأية طريقة كانت. تقيم فيها إحدى نساء الأمير ويحميها مئة جندي، فيها المياه الجارية والمؤن الكافية... فضلاً عن أثاث الأمير»[٢٩]، ووصفها «ماشنجي» من البعثة نفسها، في تقرير مماثل وفي العام نفسه بقوله: «تبعد عن صيدا ١٥ ميلاً، وهي في قلب البلاد واقفة على صخر علوه ٣٠٠ ذراع، حفرت في بطنه مأوى العساكر والمخازن وغيرها من المنافع، شاهدت فيها زهاء مئة جندي، لديهم من المؤن ما يكفيهم أكثر من ثلاث سنين، وفيها الكثير من أثاث الأمير، وهي منيعة، وافرة الماء، ليس فيها من البناء سوى السور الذي يحيط بها المخرورق بالمزاغل، أما المدخل فثابت خال من جسر متحرك يرفع ليقفل عليه. إذا تمكن العدو من نصب مدفعية إزاءها أخذها بسهوله لأنها ضيقة جداً، ليس لها ميدان للمدفعية، ولا حصن احتياطي يلجأ إليه عند الحاجة»[٣٠].

قلعة الشقيف أو شقيف أرنون:

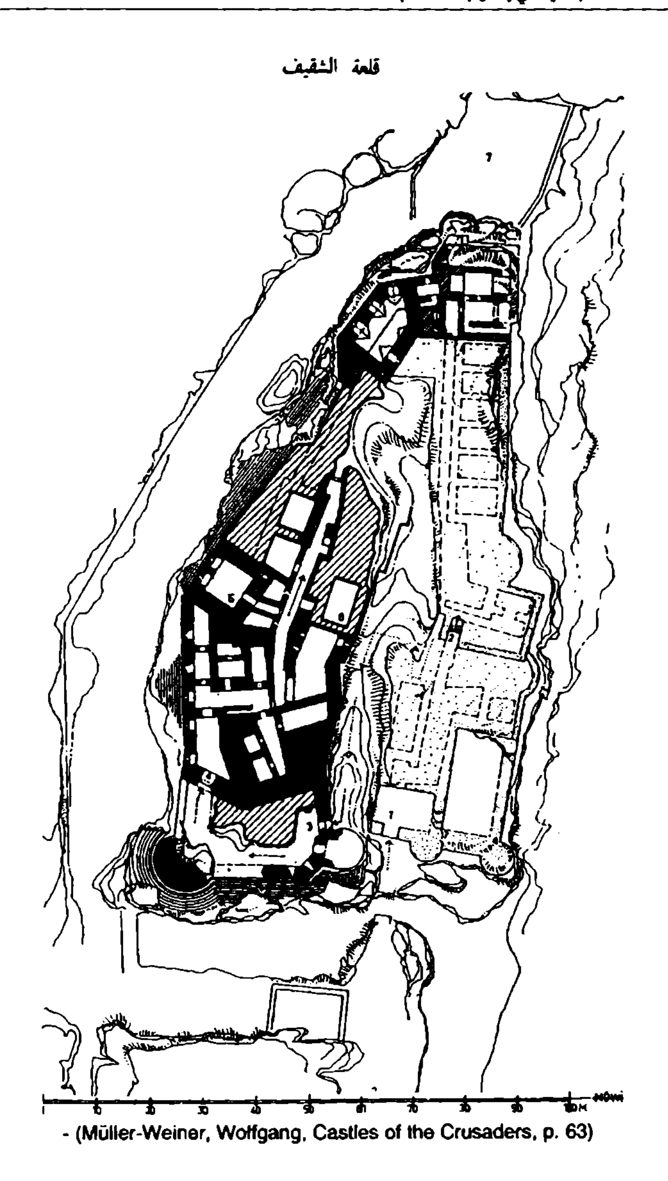
تقع جنوب شرقي بلدة النبطية في جبل عامل، على قمة عالية تقع فوق الليطاني وتكشف ما حولها لمسافات طويلة، وقد وصفها عيسى اسكندر المعلوف بقوله: «هذه القلعة منحوتة في صخر شاهق يشرف على نهر الليطاني وسهل مرجعيون وقلعة هونين وغيرها، وهي قديمة، أبنيتها من أواخر العهد

الروماني وبعضها من عهد العرب... وعلوها عن البحر ٢٣٤٥ قدماً وعن نهر الليطاني نحو ١٥٠٠ قدم... تحدق بها من الغرب والجنوب هوة محفورة في الصخر عمقها بين ١٥ و٣٦ كلم ولكنها من الجنوب تتصل بذروة الجبل ومدخلها من الجنوب الشرقي، وطولها ١٢٠ متراً وعمقها ٣٠ متراً، وفي طرفها الشمالي بناء ناتئ متجه إلى الشرق بطول ٢١ متراً، وصحنها الشرقي بعمق ١٥ متراً، وعلى حائطها الجنوبي برجان يمثلان نصف دائرة»[٣١].

كما وصفها كل من ماشنجي وسانتي في تقريريهما عام ١٦١٤ وصفاً دقيقاً ومفصلاً، قال ماشنجي: «قلعة الشقيف منتصبة على صخر شاهق، ومبنية بالحجر الأصم على شكل زاوية، ارتفاعها ٤٠٠ ذراع ودائرتها ٥٤، لها أبراج مربعة تسع ٥٠٠ جندي، وفيها من الزاد ما يفيض عن ثلاث سنين، ناهيك عن صهاريج المياه وآبار الزيت، وجدنا فيها من أثاث الأمير الشيء الكثير، والشائع انه أخفى فيها كمية كبيرة من المال، وهي من الخارج في غاية المناعة، وقد حفرت لها خنادق عميقة أمام المواقع السهلة المنال، وفي عرفي انه لا ينقصها سوى المدفعية»[٣٢].

وقال سانتي: «قلعة الشقيف تبعد عن الساحل ١٨ ميلاً، منتصبة على جبل صخري مزحلق من كل جهاته، إلا من جهة واحدة ضيقة جداً يسهل صد العدو عنها. تشبه ببنائها قلعة بانياس، لكنها أصغر منها. لا يتطلب تحصينها سوى نفقة زهيدة، حاميتها ثلاثماية جندي، عندهم من المؤونة الكفاية كما في قلعة بانياس، لها قائد خاص وفيها إحدى نساء الأمير، يقال إن قسماً كبيراً من خزنته مدفون فيها في بطن الأرض، حسب عوائدهم»[٣٣].

قلعة الشقيف



- (Müller-Weiner, Wolfgang, Castles of the Crusaders, p. 63)



ة الشقيف: مخطط عام للقلعة، مقياس: ١/ ١٠٠٠

لأقسام التي يعود عهدها إلى الفترتين الصليبيتين الأولى والثانية.

لإضافات العربية في الفترة (١١٩٠ - ١٢٤٠).

ضافات عربية أخرى بعد العام ١٢٤٠.

لمباني المطمورة تحت التراب والصخور.

المدخل الخارجي للحصن الأسفل.

مخرج لممر تحت الأرض يؤدي إلى ساحة في الحصن الأسفل.

قلعة بانياس أو الصبيبة :

تقع بالقرب من بلدة بانياس السورية، وقد سميت باسمها، كما سميت أيضاً باسم «الصبيبة» الذي قد يكون تحريفاً لـ«الصليبة» نسبة إلى الصليبيين حسب تقدير بعض المؤرخين[٣٤]، وذلك لكثرة المعارك التي خاضها هؤلاء فيها أو بالقرب منها، وهي قلعة قائمة على مكان مرتفع يشرف على بانياس والحولة وبلاد جبل عامل وضواحي صفد وجبل الجرمق، وصفها ماشنجي بقوله: «ومركز قلعة بانياس بديع جداً، شيدت على صخر زلق كثير الانحدار، تحميها أبراج كثيرة من ثلاث جهات، ومن الجهة الرابعة حصن داخلي في غاية المناعة والقوة، لولا اشراف الجبل عليه، تشغل مساحة ٢٢٠٠ قدم، وتكثر فيها المزحلقات والأبراج الصغيرة والنصف أبراج المبنية بشكل الآذان، وهي تبلغ الثلاثين، ليس لها مدخل سوى باب واحد علوه ثلاثون ذراعاً، بيد انه خال من جسر متحرك يحميه، ومجمل القول إن القلعة مبنية بسخاء وفخامة. تتوافر فيها المساكن والمخازن الملأى بشتى المأكولات، التي تكفيها ثلاث سنوات وأكثر، فيها ٢٦ صهريجاً للماء، وبعض الأسلحة مع قليل من أثاث الأمير، ووجدت فيها زهاء سبعماية جندي».

وقال سانتي: «قلعة بانياس على حدود ولاية دمشق، مبنية بسخاء على الطراز القديم، منيمة لأنها قائمة على قمة جبل زلق من ثلاث جهات، وعلى بعد ميل من جهة الجنوب جبل عال آخر يتسلط عليها، ناهيك ان طرفه الشرقي، بالرغم من انحداره، يؤلف لساناً من الأرض يسهل على العدو الدنو من القلعة ونصب المتاريس أمامها. دائرتها ألف خطوة، لا ساحة لها، مدفعيتها قليلة ومن النوع الصغير، آبارها واسعة، ملأى بالقمح والزيت

والأرز والملح وغير ذلك من مأكولاتهم، يقيم فيها قائد الأمير العام ووالدته السلطانة، يقال إنها تحوي قسماً من خزنته، فضلاً عن الأثاث، حاميتها ألف جندي»[٢٥](*).

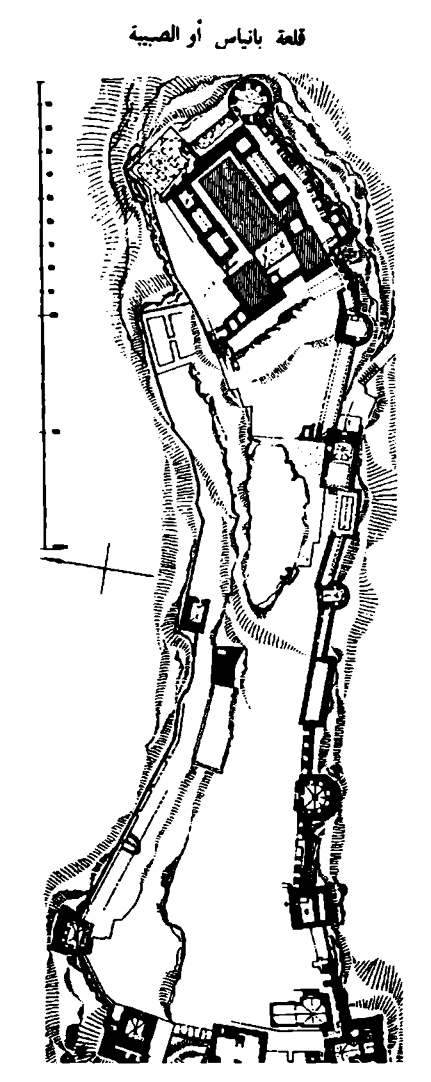
قلعة سمر جبيل:

تقع على الساحل شمال بلدة جبيل، وجنوب قلعة المسيلحة، ذكر الحتوني انها من بناء بختنصر ملك بابل، وأن صورته كانت ظاهرة على حائطها الشمالي من الخارج[٢٦]، إلا أن الأب لامنس لم يذكر ذلك بل كاد يعزو بناءها إلى الفينيقيين حين قال: «ولا يبعد أن الفينيقيين قاموا بهذه الأعمال - ويقصد أعمال بناء القلعة - فإنهم كانوا مولعين بنحت الصخور». كما استبعد أن تكون من بناء الرومان حين قال: «وفي داخل هذا القصر وعلى مقربة منه آبار وصهاريج عجيبة الصنع محكمة التجهيز بعيدة الغور كلها في الصخر الأصم، لا نظن أن الرومان مع جلدهم وأعمالهم الجبرية تولوا نقرها بأنفسهم»[٢٧].

استولى فخر الدين على هذه القلعة عام ١٦١٨ وبقيت في عهدته حتى نهاية حكمه عام ١٦٣٣، وقد وضع فيها حامية من جنده، وولى عليها رجالاً من قبله كان آخرهم الشيخ أبو نوفل الخازن الذي تعرضت القلعة في عهده لزلزال هدم قسماً منها (عام ١٦٣٠)، وخسر أبو نوفل من جراء هذا الزلزال ابنه نوفل ووالدته بنت الشيخ معتوق حبيش، وقد قضيا تحت أنقاض القلعة المهدمة، إلا أن أبا نوفل أعاد بناء ما تهدم منها في السنة التالية (عام ١٦٣١)[٢٨].

(*) يلاحظ القارئ أننا قد تعمدنا أن ننقل حرفياً ما ورد في تقرير كل من سانتي وماشنجي بشأن قلاع نيحا وأرنون وبانياس، وذلك لأن همنا في هذا البحث هو تبيان حالة هذه القلاع في عهد الأمير، وليس أفضل للدلالة على هذه الحالة من تقرير مبعوث رسمي مكلف، في تلك الحقبة نفسها، وصف هذه القلاع وأظهر حقيقة أوضاعها، وقد أجاد كل من سانتي وماشنجي في تصويرهما لحالة هذه القلاع إلى حد أننا لم نتردّد في اعتماد تقريريهما اعتماداً كلياً.

قلعة بانياس أو الصبيبة



(- Mülter-Weiner, Wolfgang. Castles of the Crusaders, p. 46)

قلعة بانياس أو صبيبة



قلعة صبيبة (بانياس):

مخطط عام للقلعة، مقياس: ١/٢٠٠٠

- ■ أبنية وآثار يعود عهدها إلى الفترة الصليبية (١١٢٩ - ١١٣٢).
- ▦ أبنية وآثار يعتقد أنها تعود إلى الفترة السابقة نفسها.
- ▤ أبنية وآثار عربية أضيفت بعد العام ١١٦٤.
- ⊟ قسم ممهد على مستوى أفقي عبر التراب والصخور.

١ - الباب الخارجي الرئيسي.

٢ - الباب الداخلي المؤدي إلى القلعة.

٣ - باب القلعة نفسها.

٤ - الحصن الأسفل.

٥ - باب جانبي للحصن الأسفل.

٦ - الطريق الحالي المؤدي إلى القلعة.

قلعة المسيلحة (أو حصن المسيلحة):

المسيلحة تصغير «المسلحة» وجمعها «مسالح» وهي «المركز للجماعة المسلحة» أما قلعة المسيلحة فهي قلعة صغيرة ومنيعة قائمة على رأس صخرة ضيقة ومستطيلة ومنتصبة عمودياً فوق وادي نهر الجوز على الطريق الجبلية بين البترون وطرابلس، وهي أقرب إلى الحصن منها إلى القلعة، طولها نحو مائة متر، وعرضها أربعون متراً، أما ارتفاعها فيبلغ نحو ماية متر تقريباً، وقد أخذت شكل الصخرة القائمة عليها بحيث أصبح من العسير الالتفاف حولها.

يصعب على الباحثين تحديد تاريخ بناء هذه القلعة، ومن المرجح أن الأقدمين بنوها كمرقب لتحركات العدو، إذ انها تشرف، من نقطة مرتفعة يصعب الارتقاء إليها، على الاراضي المحيطة بها، وعند مضيق يتحتم اجتيازه على أي عابر من البترون إلى طرابلس وبالعكس، وقد تحدث الأثري فان بركهيم (Van Berchem) عنها فأشار إلى انها تعود، بشكل بنائها، إلى القرون الوسطى، وأنها تشبه في هندستها القلاع العربية كقلعتي مصياف وشيزر، وأن اسمها «المسيلحة» اسم عربي[٣٩]، أما الأب لامنس فإنه، إذ يؤكد انتماء هذه القلعة في طرازها الهندسي إلى القرون الوسطى، يذكر انه بحث في أوصاف البلدان لقدماء العرب وفي آثار الصليبيين فلم يجد ذكراً لها، إلا أنه لم يستبعد ترميم هذه القلعة من قبل الصليبيين وإن لم يؤكد بناءهم لها.

ويرى الرحالة الفرنسي دي لاروك (De la Roque) ان قلعة المسيلحة هذه من بناء الأمير فخر الدين المعني الثاني، أما الحقيقة فهي انها أقدم من فخر الدين بكثير، ولكن المرجح أن فخر الدين قد رممها بعد أن استولى عليها من آل سيفا أصحاب طرابلس عام ١٦١٨[٤٠].

حصن الأكراد:

يقع على رابية بين طرابلس وحمص وطرطوس على مقربة من تلكلخ، ويشرف على وادي النهر الكبير[٤١]، عرف عند الصليبيين باسم حصن الفرسان (Krak des Chevaliers) كما يعرف بقلعة الحصن، وقد نال شهرة عظيمة في ذلك العهد، وتحدث عنه ڤان بركهيم فقال: «إن لم يكن هذا الحصن، بين الحصون اللاتينية في سوريا، أكثرها سعة، فإنه، على الأقل، أكثرها اعتباراً من حيث تطور دفاعاته واختيار مواد بنائه وفنه المعماري والتزييني، كما انه أفضلها صيانة»[٤٢].

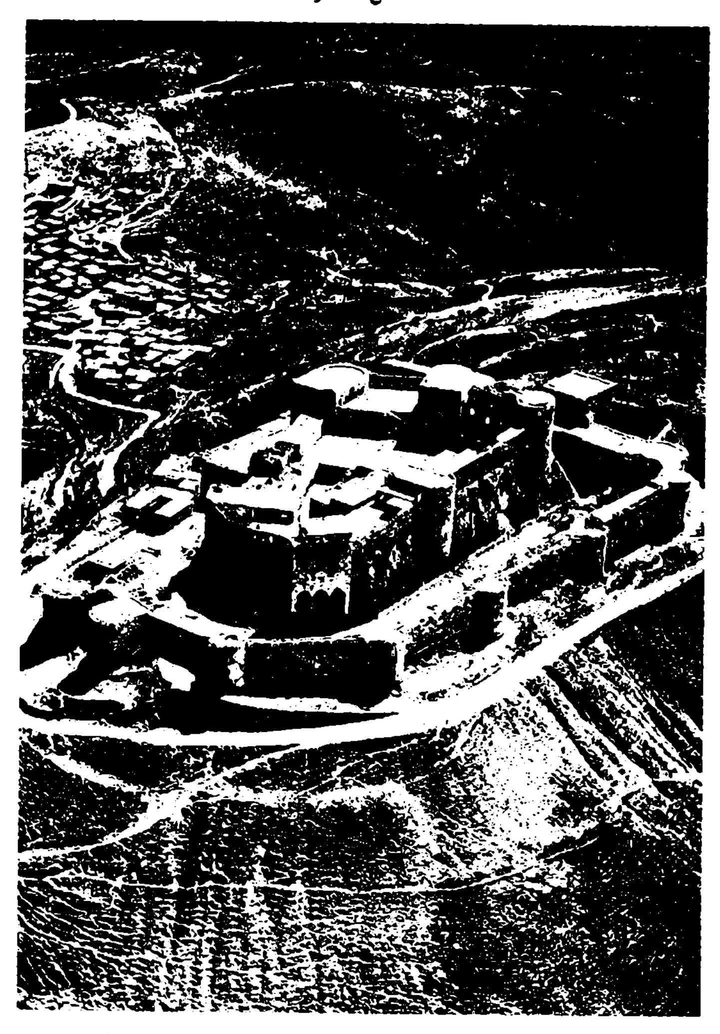
وقد حاصره الأمير فخر الدين عام ١٦١٨ إلا أنه رجع عنه صلحاً وعاد فتسلمه بعد وفاة يوسف سيفا باشا طرابلس عام ١٦٢٤[٤٣].

قلعة المرقب:

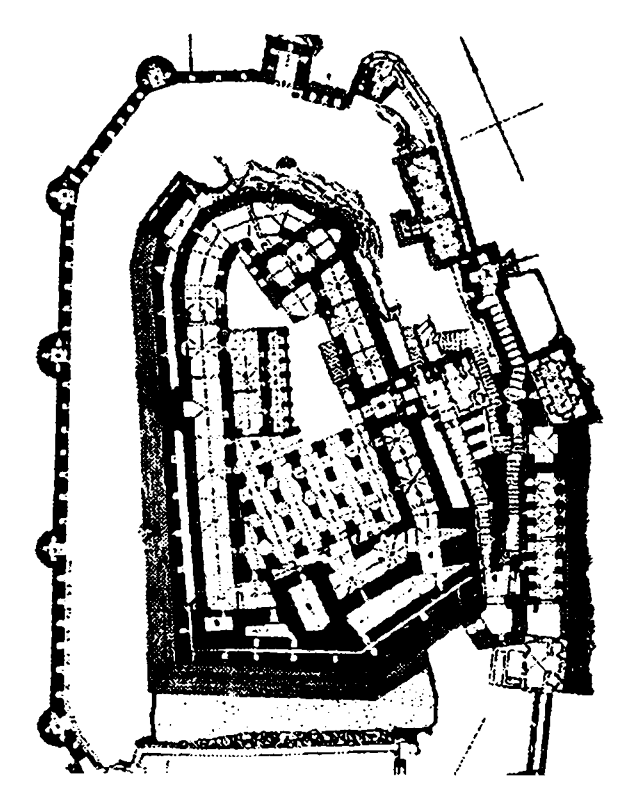
تقع بين طرابلس وجبلة، اسمها عربي ويعني «مركز المراقبة». وقال «شيخ الربوة» ان هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩م) هو الذي بناها، وقال ڤان بركهيم (Van Berchem) استناداً إلى بعض المصادر العربية، ان المسلمين بنوها عام ١٠٦٢م، إلا أنه يعود فيستدرك أن هذه المصادر لم توضح فيما إذا كان قد تمّ بناء هذه القلعة، أو ترميمها من قبل المسلمين في هذا التاريخ، ويميل إلى الاعتقاد أن هذه القلعة بنيت، في التاريخ المذكور، مع عدد من القلاع في تلك المنطقة، على يد بعض حكامها، إلا أنه يؤكد أن قلعة المرقب، كقلعتي الكرك وصهيون، وجدت قبل الاحتلال الصليبي لسوريا بزمن.

تعلو قلعة المرقب عن سطح البحر نحو ١٢٠٠ قدم، ويبلغ محيطها نحو ميل ونصف، وهي عالية جداً وحصينة جداً وذات أبراج عالية، احتلها

قلعة حصن الأكراد



- *Müller-Weiner, Wolfgang. Castles of the Crusaders, p. 61)*



قلعة الحصن (حصن الأكراد): مخطط عام للقلعة على جميع المستويات، مقياس: ١/١٠٠٠

■ الأقسام التي يعود عهدها إلى القرن الثاني عشر.

▦ إضافات يعود عهدها إلى القرن الثالث عشر.

▤ إضافات أخرى تعود إلى ما بعد منتصف القرن الثالث عشر.

▤ تعديلات أدخلت على القلعة بعد العام ١٢٧١.

١ - البوابة الشمالية.

٢ - البرج الشمالي.

٣ - كنيسة القلعة.

٤ - القاعة الكبرى والرواق المسقوف المحيط بها.

٥ - مستودع.

٦ - أساسات الأبراج الجنوبية الثلاثة.

٧ -الباب الرئيسي السفلي.

٨ - حاجز في ممر المدخل.

٩ - الباب الرئيسي العلوي.

١٠ - بوابة داخلية.

١١ - مستودع واسطبلات.

١٢ - برج السلطان قلاوون.

الصليبيون أول فتحهم لسورية عام ١١٠٤م، ورمموها بعد أن دمرها زلزال خربها عام ١١٧٠م، انتزعها الأمير فخر الدين عام ١٦٢٥ من أولاد يوسف باشا سيفا حكام طرابلس ثم رممها. وقال الشيخ عبد الغني النابلسي الذي زارها عام ١٦٩٣ انها مؤلفة من خمس طبقات، وكل طبقة منها مشتملة على طبقات أخرى متعددة، وقد اتخذ الأمير حسين بن فخر الدين هذه القلعة مخبأ له ولمدبره الشيخ أبو نوفل الخازن عام ١٦٣٣، إلا أن جعفر باشا قائد الأسطول العثماني اعتقلهما فيها وأرسلهما إلى الصدر الأعظم في حلب[٤٤].

قلعة صافيتا:

تقع في مقاطعة جبل الأكراد من بلاد العلويين بسورية، شرق طرطوس بجنوب، وشمال تلكلخ، على تل مرتفع بالقرب من بلدة «صافيتا» التي تحمل هذه القلعة اسمها، كما سماها الصليبيون «القصر الأبيض» (Chateau Blanc)[٤٥]، وهي رومانية أشبه ببرج منها بقلعة، كانت في عهدة السيفيين حكام طرابلس حين انتزعها منهم الأمير فخر الدين المعني الثاني أمير الشوف عام ١٦٢٥ حيث ظلت بيده حتى نهاية حكمه عام ١٦٣٣.

قلعة صلخد أو صرخد:

قال ياقوت إن صرخد بلد ملاصق لحوران من أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة[٤٦]، فصلخد إذن من أرض حوران بسوريا (عند الطرف الجنوبي لجبل العرب) وهي قلعة بنيت على قمة تعلو نحو أربعماية قدم، هي قمة جبل هلال، قال ابن خلدون: «وجبل هلال مشهور بالشام... وفيه قلعة صرخد مشهورة»، وقد ذكرها أبو الفدا وغيره وقالوا إن ماء هذه القلعة من ماء المطر الذي يجمع في صهاريج أنشئت فيها خصيصاً لذلك[٤٧].

ويرى بعض المؤرخين أن التل الذي تقع عليه هذه القلعة كان فوهة لبركان، وتحيط بالقلعة آبار وخنادق، وتظهر على جدرانها نقوش ثابتة وكتابات عربية وأخرى يونانية يرجع بعض المؤرخين انها تعود إلى النصف الأول من القرن الثالث الميلادي، مما يدل على اغراقها في القدم، كما تظهر على أبوابها نقوش تمثل النسور الرومانية، ويوجد حول هذه القلعة آثار لخرائب ومدن قديمة.

وقد استولى الأمير فخر الدين على هذه القلعة عام ١٦٢٥ فرممها، ولا يزال قسم كبير منها قائماً حتى اليوم.

قلعة القليعات:

تقع في أرض الجون شمال طرابلس، بالقرب من الحدود اللبنانية السورية الحالية، ذكر الدويهي أن الأمير فخر الدين قد بناها عام ١٦٢٧[٤٨].

قلعة العريمية:

قلعة صليبية تقع فوق وادي الأبرش شمال طرابلس، استولى عليها الأمير فخر الدين عام ١٦٢٧ وكانت تعتبر أحد مراكز الدفاع عن هذه المدينة[٤٩].

قلعة طرابلس (أو قلعة سان جيل):

قائمة على رابية تشرف على البلدة وتلاصقها من جهة، بينما تشرف على نهر قاديشا من جهة أخرى، مبنية من حجارة رملية ناعمة، مستطيلة الشكل متعددة الأضلاع، يبلغ طولها من مدخلها الشمالي إلى طرفها الجنوبي ١٣٦ متراً، وعرضها نحو سبعين متراً، ويحيط بها سور يراوح ارتفاعه بين ٥ و١٩ متراً، وفيها من الاستحكامات ما هو داخلي ومنها ما هو خارجي، أما

الاستحكامات الخارجية فمؤلفة من خندق طوله نحو سبعين متراً ومن سلسلة أبراج وحجب يبلغ عددها ٢٥ برجاً وحجاباً، وأما الاستحكامات الداخلية فمؤلفة من أبراج أهمها البرج الشمالي الكبير، وهو مربع الشكل ومعد لتركيز ثلاثة مدافع.

يبلغ عدد طاقات المدافع في هذه القلعة أكثر من عشرين طاقة، ويظن كثير من المؤرخين أن هذه القلعة صليبية بل ويعتقدون أنها حصن سان جيل المشهور، إلا أن الحقيقة هي أن القلعة صليبية في موقعها وهندسة بعض أسوارها والطابق الأول من برجها الكبير، ولكنها في ما تبقى منها مسلمة صرفة، يدل على ذلك العديد من النصوص التاريخية وطريقة النحت وحجم الحجارة، وقد بنى قسماً منها الأمير سيف الدين أسند مركرجي المنصوري (من سنة ٧٠٠هـ = ١٣٠٠م إلى سنة ٧٠٩هـ = ١٣٠٩م)، كما رممها وجدّد بعض بنائها السلطان سليمان القانوني وغيره من حكام المسلمين، ذكر ذلك كثير من المؤرخين مثل أبي الفدا، والمقريزي، والنويري، وغيرهم[٥٠]، وكانت في عهدة يوسف باشا سيفا حين حاصرها الأمير فخر الدين عام ١٦٢٠ ثم فك الحصار عنها بطلب من الباب العالي، إلا انه عاد فاستولى عليها عام ١٦٢٧.

قلعة مصياف:

قلعة قديمة بين المرقب وحماه، بناها العرب على غرار قلعتي المسيلحة وشيزر[٥١]، استولى عليها الأمير فخر الدين عام ١٦٣٢.

قلعة صهيون:

تقع في نواحي اللاذقية على الساحل السوري، ولكنها ليست مشرفة على البحر، وهي قلعة حصينة قائمة في طرف جبل بالقرب من مدينة صهيون التي

تنتسب القلعة إليها، ذكرها أبو الفدا في تاريخه فقال انها «حصينة لا ترام»، واعتبرها من «مشاهير معاقل الشام»، كما ذكرها ياقوت في معجمه فقال انها «حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام»، تحيط بها أودية «واسعة هائلة عميقة»، ولها ثلاثة أسوار «سوران دون مربضها وسور دون قلعتها»[٥٢]، وقال عنها ابن خلدون انها قائمة على جبل وهي «صعبة المرتقى بعيدة المهوى يحيط بجبلها واد عميق ضيق ويتصل بالجبل من جهة الشمال وعليها خمسة أسوار وخندق عميق».

ويرجح بعض المؤرخين أن هذه القلعة هي من أعمال الصليبيين[٥٣]، إلا أن ڤان بركهيم (Van Berchem) يؤكد أن هذه القلعة، مثلها مثل قلعتي المرقب والكرك، وجدت في وقت سابق على وصول الصليبيين إلى هذه البلاد[٥٤]، وربما كان سبب ذلك هو أنها اشتهرت إبان المعركة التي جرت بين صلاح الدين والصليبيين حولها (عام ١١٨٨م) وانتهت بسقوط القلعة بيد صلاح الدين، وفي العهد المعني انتزع الأمير فخر الدين هذه القلعة عام ١٦٢٥ من أولاد يوسف سيفا باشا طرابلس المتوفى قبل عام من ذلك.

قلعة أبي الحسن:

من قلاع الصليبيين، تقع على رابية فوق نهر الأولي، وتحيط بها مياهه من ثلاثة جوانب، رممها الأمير فخر الدين وأعاد ترميمها الأمير يوسف الشهابي عام ١٧٧٧، وجاء في مجلة العرفان أن هذه القلعة هي نفسها (قلعة ميس) الواقعة على مقربة من الزرارية جنوب صيدا، وقد رممها المنكريون حكام جبل عامل[٥٥].

قلعة تبنين:

قلعة صليبية تقع في بلدة تبنين من لبنان الجنوبي شرق مدينة صور بجنوب، يسمونها أيضاً قلعة طورون (Toron) وقد بناها الصليبيون على أسس حصن قديم لا تزال بعض أسواره ظاهرة، ويبدو أن هذه القلعة قد جردت من وسائل الدفاع فيها في القرن الثالث عشر الميلادي، ومنذ ذلك الحين لم تسترجع قوتها وأهميتها فدخلت في طور الانحلال[٥٦].

وذكر السيد محسن الأمين في كتابه (خطط جبل عامل) قولاً مفاده أن بانيها هو (هيوسنت) أو (هيغو دي سانت أومير) (Hugo de St. Omer) سنة ٥٠١هـ - ١١٠٧م وسميت بعد ذلك باسم طورون نسبة إلى الحاكم الصليبي «هونفروا دي طورون» الذي حكمها بعد ذلك عام ١١٥١ كعامل للملك بلدوين الثالث[٥٧]. وقد دخلت هذه القلعة في الإمارة المعنية طوال حكم الأمير فخر الدين.

قلعة صور:

في العام ١٦٠٧م كانت صور بيد الأمير فخر الدين وكان أخوه الأمير يونس عاملاً عليها، فجاءه عرض من ملك اسبانيا ببناء حصن في ميناء صور بشروط لم يقبل بها الأمير، وقد ذكر تاركيت (Tarquet) قنصل فرنسا بصيدا، في رسالة منه إلى الكردينال ريشيليو عام ١٦٣١، أن الأمير غالى في الاستسلام للتوسكانيين حتى انه «سمح لهم أن يبنوا قلعة في صور»، إلا أننا لم نجد ما يؤكد هذا القول الذي أورده المعلوف دون أن يوضح ما إذا كان الأمير قد رضخ فعلاً لمطالب توسكانة أم لا، إلا أن المعلوف نفسه يعود فيذكر، في مكان آخر، انه لما تولى الأمير يونس حكم صور عام ١٦١٦، «بنى فيها قصراً ظنته الدولة حصناً فأرسلت رباناً (قبطاناً) للبحث عنه»[٥٨].

بينما يذكر الدويهي، في أحداث عام ١٦٤٥، ان «أولاد الحسامي مشايخ جبيل انتخبوا انكشارية من قبل السلطان ابراهيم فدقت لهم نوبة سلطانية وبادروا في ترميم صور المدينة وقلعتها»[٥٩]. ويصف الأب قرألي حالة هذه القلعة عام ١٦١٤ وحاجتها إلى الترميم «وأن ترميمها سهل لوفرة الماء والأحجار والأخشاب حولها»، كما يذكر أن في صور برجين «برج في الميناء خربته الأمواج، والثاني قائم على تل بمدخلها»[٦٠].

قلعة دوبيه أو حصن دوبيه:

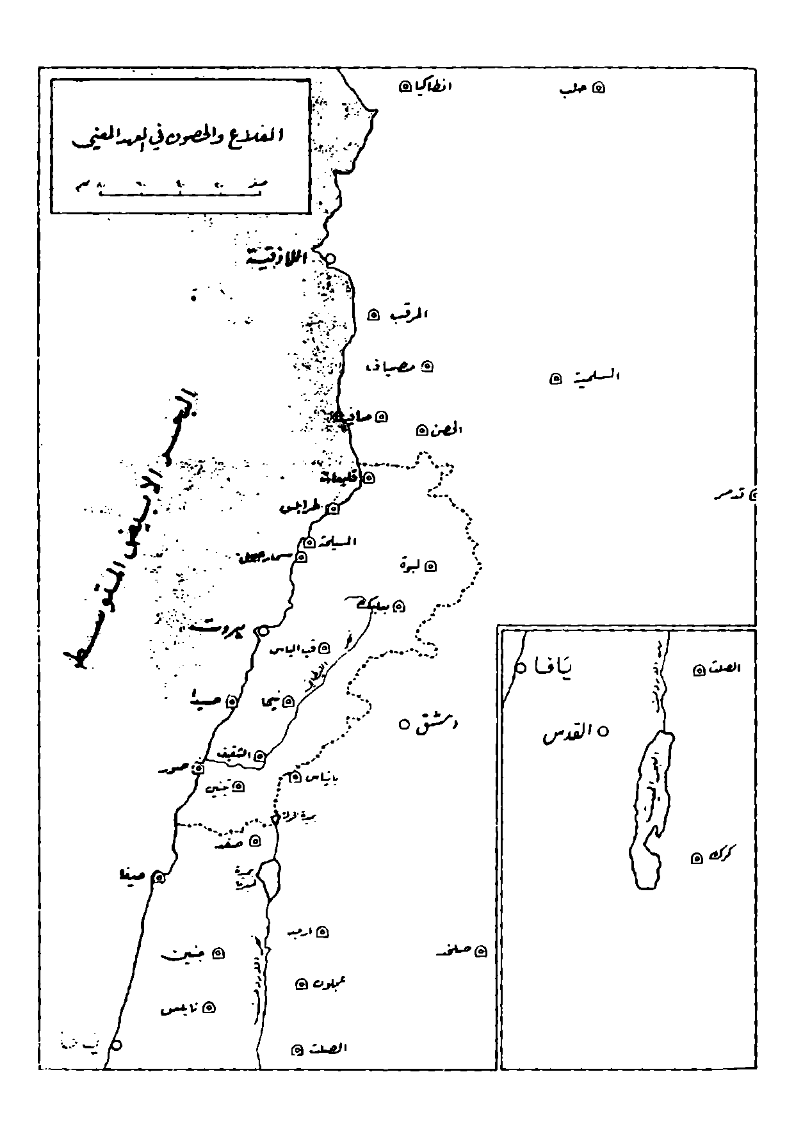
قلعة تقع بين تبنين وهونين بالقرب من وادي الإصطبل في جبل عامل جنوب لبنان، قديمة ومحصنة، يحيط بها واد من ثلاث وجهات، طولها ١٢٥ متراً وعرضها ٨٠ متراً، فيها ٢ طبقات، وفي داخلها وخارجها آبار وصهاريج كثيرة، ويظهر أنها من بناء الصليبيين على أنقاض بناء روماني قديم، كما يظهر أنها بنيت بعد عام ١١٨٥م أي بعد رحلة ابن جبير إلى هذه الناحية (١١٨٢ - ١١٨٥) إذ انه ذكر تبنين وهونين ولم يذكرها، وهي بينهما، وربما كان اسمها محرفاً عن الفرنسية، وقد وجد حولها عدد من المدافن الشبيهة بالمدافن الرومانية، اختبأ فيها الأمير يونس المعني أخو الأمير فخر الدين المعني الثاني أمير الشوف مع ولديه ملحم وحمدان عام ١٦٣٤ فارين من وجه الحملة العثمانية التي وجهت إلى بلاد الأمير المعني عام ١٦٣٣ إلا أنه قبض عليهم فيها[٦١]. وقد جددها آل علي الصغير في عهد ناصيف النصار (النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي) وسكنوها، وظل بناؤهم فيها متميزاً بشكله عن بنائها الأصلي، أما ما تبقى منها فهو بعض حجراتها في الطبقتين الأولى والثانية وبعض جوانب العقود، وكذلك بعض الآبار والصهاريج.

قلعة كرك الشوبك:

قلعة صليبية تقع على قمة جبل عال بالقرب من البحر الميت في شرق الأردن، بناها الملك بودوان ملك بيت المقدس في العهد الصليبي، وكانت تعد من أقوى القلاع في الشرق[٦٢]، وكلمة (كرك) سريانية بمعنى (الحصن)، وحصنها هو (الشوبك)، لذلك تدعى القرية باسم (كرك الشوبك). أما القلعة فهي مستطيلة الشكل ذات أبراج هدم قسم منها، وقد رممها حسام الدين لاجين، وفي داخلها مياه ونفق وبئر وبرك[٦٣].

قلعة تدمر:

عرفت بقلعة «ابن معن» وقد ذكر الدويهي، في أحداث عام ١٦٣٠، أن الأمير فخر الدين زحف في الرجال «إلى مدينة بعلبك بسبب قلعة تدمر، فأخذها من الأشوام[٦٤]». وذكر القنصل التوسكاني دي فراتسانو في رسالة كتبها في أواخر عام ١٦٢٩، ان مملكة الأمير تصل «إلى مسافة نصف يوم من حلب ويومين من بغداد، فعل ذلك للاستيلاء على قلعة تدمر»[٦٥]. إلا أن الأب لامنس يرتاب في صحة ذلك عندما يتساءل: «هل صحيح أن الأمير أخضع كل البلاد الممتدة شرقاً حتى السلمية وتدمر قرب «بالمير» القديمة؟ يقولون قلعة ابن معن، والتقليد الشعبي ينسبها إلى أشهر المعنيين ليستنتج أن نشاطه التوسعي امتد في صحراء سوريا»، وينهي تساؤله بقوله: «مهما كان توسعه الحقيقي، فأملاكه كانت محمية بمجموعة من القلاع هي: شقيفا لبنان ارنون وتيرون، وقب الياس في البقاع، وقلاع صفد وعجلون وبعلبك والمرقب، وهذه الأخيرة في بلاد النصيرية»[٦٦].


القلاع والحصون في العهد المعني
البحر الأبيض المتوسط
حلب
انطاكيا
اللاذقية
المرقب
مصياف
السلمية
الحصن
طرابلس
لبوة
بعلبك
بيروت
قب الياس
صيدا
نيحا
الشقيف
صور
تبنين
بانياس
دمشق
صفد
حيفا
جنين
عجلون
نابلس
الصلت
يافا
القدس
كرك

إلاّ أن المحبي ذكر هذه القلعة في عداد القلاع التي استولى عليها الأمير إذ قال: «واستولى على عجلون والجولان وحوران وتدمر والحصن والمرقب وسليمة - سلمية - وبالجملة، فإنه سرى حكمه من بلاد صفد إلى انطاكية»(٦٧).

ولكن الخالدي، وهو مؤرخ الأمير، لم يذكر هذه القلعة في عداد القلاع التي استولى الأمير عليها.

قلنا في مطلع هذا البحث أن الأمير اعتبر القلاع والحصون عنصراً رئيسياً مهماً في استراتيجيته الدفاعية، بل اعتمدها كجهاز دفاعي متكامل لبلاده، وهو في هذه الاستراتيجية لم يخرج عن المبادئ الأساسية في الدفاع التي كانت معروفة في عصره، وإذا ما أمعنا النظر في توزيع القلاع والحصون في مختلف نواحي البلاد التي كان يحكمها، لرأيناها أشبه بسلسلة تحيط بهذه البلاد إحاطة كاملة، وكان الأمير يتعمد السيطرة على القلاع ذات المواقع الاستراتيجية فيرممها ويجهزها، بالسلاح والرجال، وكان كلما وجد في جهازه الدفاعي ثغرة يصعب الدفاع عنها بنى قلعة أو حصناً ليسد هذه الثغرة، فدفاعه الساحلي مؤمن بواسطة قلاع حيفا وصور وصيدا وسمر جبيل والمسيلحة وطرابلس والقليعات وصافيتا ومصياف والمرقب حتى انطاكية، ودفاعه الداخلي مؤمن، من جهة الشمال بواسطة قلاع حصن الأكراد وحلب وصهيون وسليمة (أو سلمية) وتدمر، ومن جهة الشرق بواسطة قلاع اللبوة وبعلبك وقب الياس وبانياس ونيحا والشقيف وتبنين، ومن جهة الجنوب بواسطة قلاع صلخد وصفد وإربد وجنين وعجلون ونابلس والسلط وكرك الشوبك. وهكذا اتخذ الأمير لعسكره «مرابطات حصينة» منشئاً على طول الحدود «سلاسل من الاستحكامات والقلاع المنيعة لا تخلو مطلقاً من قوة كافية من الجند»، ومحصناً «جميع المدن الدانية من الحدود» فباتت بلاده

«منيعة الجوانب تحميها حصون صفد ومعاقلها وقلاع نيحا وشقيف طيرون وعجلون وقب الياس وبعلبك والمرقب والبترون وغيرها من المعاقل والصياحي والمرابطات»[٦٨]، وكانت هذه القلاع مجهزة بأبراج للرصد - وهي أمور لم تكن معروفة في هذه المنطقة في ذلك الحين - وبالمستودعات والجسور[٦٩]، وكانت خطة الأمير تقضي بالاستيلاء على كل قلعة أو حصن يرى فيه ضرورة لحاجاته الدفاعية، فيعززه بعناية، ويجهزه بحامية قوية، «وقد بلغت خمسة عشر قلعة ثلاث منها تعتبر أقوى القلاع في آسيا الصغرى، وهي: نيحا والشقيف وعجلون»[٧٠]، وخير ما نختم به بحثنا هذا هو ما كتبه المؤرخ «جوبلان» (Jouplain) عن الأمير في هذا المجال، إذ قال: «تجلت عبقريته السياسية والعسكرية في تنظيم الدفاع عن الحدود، فلم يكن يترك شيئاً للصدفة، ولكي يكون لجيوشه نقاط ارتكاز ضد أي هجوم عدو، أقام، على طول حدوده وعلى الطرق الرئيسية، سلسلة من القلاع والحصون جهزها بحاميات دائمة، وفعل الشيء نفسه بالنسبة إلى المدن المجاورة للحدود إذ حصنها وجهزها بالحاميات، وكانت الحصون التي بناها فخر الدين وصانها أخوه - يونس - تولف نقاط ارتكاز ممتازة وصالحة للهجوم وللدفاع على حد سواء... وبعد عودته من توسكانة... ظلت شبكة التحصينات هذه مكتملة دائماً ومتطورة وفقاً لأحدث مبادئ الهندسة العسكرية المعروفة في توسكانة، ومطابقة لإمكان استخدام المدافع، وكانت صفد ونيحا وشقيف تيرون، وعجلون، وقب الياس، والبترون، وبعلبك، والمرقب، وغيرها من القلاع تشكل حزاماً من المواقع والحصون القادرة على الصمود في وجه عدو قوي... وفي داخل البلاد، وعلى القمم وصخور الجبال، كان الأمير يشيد القلاع والحصون»[٧١].

ثانياً - المرافئ البحرية:

إعتنى الأمير بمرافئه البحرية من الوجهة الدفاعية فجهزها بالمدافع والحاميات وحصنها بالأبراج، إلا أنه غالباً ما كان يعمد إلى ردمها لمنع سفن العدو من الرسو فيها، وذلك عندما كان يشعر أن ليس باستطاعته حمايتها، وأهم هذه المرافئ هي:

مرفأ صيدا:

أهم مرافئ الأمير تجارياً وعسكرياً، باعتبار صيدا عاصمة الإمارة ومقر الأمير منذ العام ١٥٩٤، وقد وصف كثير من الرحالة والمؤرخين هذا المرفأ في عهود مختلفة يهمنا منها ما كان في عهد فخر الدين أو في عهود قريبة منه، لأنها تعتبر المصادر الوحيدة التي يمكن أن تنبئنا عن حالة هذا المرفأ في عهد الأمير، وكان من الممكن أن نجد ما يفيدنا في هذا المجال في تقريري «ماشنجي» و«سانتي» أعضاء البعثة التوسكانية لبلاد الأمير عام ١٦١٤، إلا أن كلاً منهما لم يذكر هذا المرفأ إلا بكلمات قلائل، قال ماشنجي: «لم أذهب إلى صيدا، لأن السواحل بيد الأتراك، غير أن الذين زاروها أكدوا لي أن ميناءها قليل الماء، يسع زهاء خمسة عشر مركباً ضخماً، وأن قلعتها قابلة للتحصين»[٧٢]، وقال سانتي: «بيروت وصيدا هما ثغرا دمشق، يسع كل منهما من السفن عدداً لا يستهان به»[٧٣]. ومن خلال مراجعتنا لما كتبه بعض الرحالة في وصف هذا المرفأ تمكنا من رسم صورة له على الشكل التالي:

مرفأ كبير، مفتوح من طرفيه، محمي من الرياح الغربية والجنوبية الغربية برصيف صخري إلا أنه لم يكن كذلك من الجهة الشمالية، قعره صخري مما يجعل الرسو فيه صعباً ويتطلب الحذر، وتنتصب عند مدخله الشرقي لجهة المدينة قلعة قديمة قائمة على صخرة يحيط بها البحر وتتصل بالأرض

بواسطة جسر طويل قائم على عشر قناطر أو أكثر، ولكنه جسر ضيق لا يتسع لمرور أكثر من ثلاثة أشخاص مواجهة[٧٤].

وكان بإمكان هذا المرفأ أن يستقبل أي نوع من المراكب والسفن، وقد ركز على قلعته البحرية عشر قطع أو أكثر من المدافع[٧٥]، ويمكن القول انه كان مرفأ طبيعياً لم تدخل فيه يد الانسان تغييرات مهمة، فهو مكون من سلسلة من الصخور الكبيرة التي اتخذت شكلاً يجعل من السهل جداً سد مدخليه بأكوام من الحجارة الكبيرة[٧٦]، إلا أن جهاز الدفاع عن هذا المرفأ والقائم على القلعة وأبراجها لم يكن قوياً، ثبت ذلك من الخراب الذي سببته مدافع القرصان في جدران القلعة عام ١٦٣٨، والذي كان لا يزال ماثلاً للعيان في العام ١٦٦٨[٧٧].

لذا، لم يجد الأمير فخر الدين من وسيلة للدفاع عن هذا المرفأ، في أثناء الهجوم البحري العثماني الأخير عليه عام ١٦٣٣، ولكي يمنع الأسطول العثماني من الرسو فيه، سوى ردمه بالحجارة لجعله غير صالح للملاحة، وقد قيل ان الأمير عمد، لأجل ذلك، إلى إغراق مركب ضخم مليء بالحجارة عند الرصيف الكبير للمرفأ[٧٨]، أو في وسط المرفأ تماماً، كي يمنع رسو السفن الحربية فيه، وقد أكدت ذلك تقارير القطاسين[٧٩]، كما أكده كثير من الرحالة والمؤرخين أمثال: «دارفيو» (D'Arvieux)[٨٠] وساندس (Sandys)[٨١] وريستلهوبر (Ristelhueber)[٨٢] وموندريل (Maundrell)[٨٣] وهاسلكيت (Hasselquiest)[٨٤] ونو (Naud)[٨٥] وميشو وبوجولا (Michaud et Poujolat)[٨٦] وغيرهم. (أنظر ملحق الوثائق: وثيقة تبين الضرائب المترتبة على البواخر الفرنسية التي ارتادت هذا المرفأ بين عامي ١٦٦٦ و١٦٦٨).

مرفأ صور:

في تقرير له عن مدينة صور وموقعها الحربي، كتبه بتاريخ ١٠ آذار ١٦٢٤، تحدث «سانتي» عن ميناء هذه المدينة فقال: «وفي جهتها الشمالية ميناء تسع عدداً كبيراً من المراكب من شتى الأصناف، تحميها المدينة وبعض الصخور المصطفة من الشمال إلى الجنوب، أما مدخلها فمن الجهة القبلية، وفيها مرفأ أمين للسفن، بيد أنه قليل العمق، لا يحمل سوى المراكب الصغيرة»[٨٧]، وكان «ماشنجي» قد سبق أن تحدث عن هذا المرفأ في تقريره عام ١٦١٤ فقال: «وفي صور ميناء تحميه الصخور من الرياح الخارجية، وهو أيضاً قليل العمق لكنه فسيح، وقد نظف قسم منه من الرمال فحوى ثلاثين غراباً، تحصينه سهل زهيد النفقة، لأن هناك أحجاراً جاهزة، ولا يصعب استخراج غيرها بقليل من العناء، وفي نظري أن المركز في غاية الأهمية»[٨٨]، وقد أظهر «سانتي» كذلك في تقريره المذكور آنفاً، أهمية هذا المرفأ من الناحية العسكرية، وملاءمته لإنزال أية قوات بقصد احتلال البلاد[٨٩]، لذلك رأينا فخر الدين عام ١٦٣٣ يعمد إلى ردمه أسوة بغيره من المرافئ التي كان يملكها خشية استخدامها من قبل الأسطول العثماني لاحتلال بلاده[٩٠].

مرفأ بيروت:

لم يكن لهذا المرفأ، في عهد الأمير، من الأهمية والمكانة ما كان لمرفأي صيدا وصور، وقد ردمه الأمير، مع ما ردم من المرافئ، عام ١٦٣٣، وذلك بأن دك برجين ضخمين كانا قائمين على جانبي مدخله، فسدت حجارتهما عرض المرفأ، كما أن الرياح الشمالية حمّلت أمواج البحر كميات كبيرة من الرمال كي

تلقيها عند مرسى السفن وتكمل السد المنيع الذي يحتاج إلى جهود كثيفة ومصاريف باهظة لإزالته وتنظيف المرفأ، وهكذا لم يعد يمكن للسفن، على اختلاف أحجامها، أن تدخل المرفأ، حتى أن القوارب الصغيرة لم يعد بإمكانها أن ترسو فيه إلا بصعوبة وعند هدوء البحر[٩١].

مرفأ عكا:

أضحى هذا المرفأ الذي كان أكبر مرافئ سوريا في القرون الوسطى، في القرن السابع عشر، خراباً تغطيه الرمال، ولم يبق منه سوى بعض الجدران القوية والسميكة، وبرج مربع على الشاطئ كان يُعتمد للدفاع عنه، وقد ردم الأمير فخر الدين هذا المرفأ، كما ردم سواه عام ١٦٣٢، فأصبح مليئاً بالركام، ويصعب على السفن الرسو فيه دون خطر، لذا كانت تكثر فيه حوادث الغرق، وكانت معظم السفن تلجأ إلى الرسو في ميناء حيفا القريب منه، ولم يكن يدخله إلا القوارب وبعض السفن الصغيرة جداً[٩٢].

مرفأ طرابلس:

لم يؤل إلى فخر الدين إلا بعد وفاة ابن سيفا عام ١٦٢٤، وصفه ڤيلامون (Villamont) عام ١٥٨٨ بأنه «رأس بري طويل داخل في البحر، يستقر على طرفه برج مربع قوي وجد للدفاع عن مدخله، وعلى ١/٨ فرسخ منه برج آخر مماثل يتصل بجمرك المرفأ المبني على شكل مربع... وعدا عن هذين البرجين، يوجد خمسة آخرون على طول المرفأ وعلى الشكل نفسه، وبعيد كفاية الواحد عن الآخر، وقد بنت الملكة (سانت هيلين) معظم هذه الأبراج قبل رحيلها إلى بيت المقدس»[٩٣]، ولم يكن في الميناء سوى رصيف واحد مفتوح «بينما تحمي الأبراج السبعة الضخمة شاطئ المدينة من هجمات

القرصان»[٩٤]، وقد زار فرمانيل (Fermanel) طرابلس عام ١٦٣٠ وتحدث عن «خرائب ميناء جميل محاط بالجدران المتبقية من العصور الوسطى، وهي مبعثرة هنا وهناك كالصخور»[٩٥]، إلا أن دارفيو (D'Arvieux) الذي زارها عام ١٦٦٠ قال: «يعتني الأتراك بصورة جيدة بالأبراج السبعة التي بنى الصليبيون ثلاثة منها»[٩٦].

ثالثاً - الأسطول البحري:

لم تكن رغبة الأمير في اقتناء أسطول بحري عسكري بأقل من رغبته في اقتناء الجيوش البرية وتجهيز القلاع بالمدافع والسلاح بمساعدة من أوروبة عموماً وتوسكانة خصوصاً، ولقد وضحت رغبته هذه في مناسبات عديدة، ففي العام ١٦٠٨، وبعد سقوط حليفه علي باشا جنبلاط والي حلب، نشط الأمير في إنشاء جيش كبير مستخدماً الأسطول التوسكاني[٩٧] في تجهيزه وتسليحه، وفي العام ١٦١١ طلب الأمير من حلفائه التوسكانيين تزويده بأسطول «مؤلف من خمسة عشر غليوناً وعشرين غراباً، على أقل تقدير، ليرسو في صيدا»[٩٨]، وفي العام ١٦٢١ وفي قتاله ضد ابن سيفا حول طرابلس، جهز الأمير غليونين فرنسيين «وحط فيهم خمسين نفراً من سكمانيته» وأمرهما بالوقوف قبالة ميناء طرابلس ومنع أي إمداد بالزاد أو الغذاء عن المدينة من جهة البحر، إلا أن هذين الغليونين لم يتمكنا من الصمود في وجه خمسة أغربة عثمانية توجهت إلى طرابلس لمساندة ابن سيفا وفك الحصار عنه[٩٩]، وفي العام ١٦٢٤ جهز الأمير لقتال عرب فلسطين اسطولاً بحرياً مكوناً من غلياطتين اثنتين (galliottes) كان قد غنمهما من قرصان مالطة سابقاً، ووضع فيهما نحو خمسين بندقية من «أهل مدينة بيروت» وخمس عشرة شختورة ملأها بالمازق

«من طحين وأرز وغيرهما»، وسار بالأسطول على محاذاة الشاطئ نحو الجنوب في حملة «بحرية وبرية» مشتركة لقتال ابن طربيه وحلفائه[١٠٠]، وفي العام ١٦٣١ طلب الأمير من «دي فراتسانو» قنصل توسكانة بصيدا أن يرسل إليه الغراندوق «قارباً لاتينياً مسلحاً جيداً... وأن يرسل معه ثمانية أم عشرة بحارة، يتعهد الأمير برواتبهم وبتسديد ثمن المركب حال تسلمه»[١٠١].

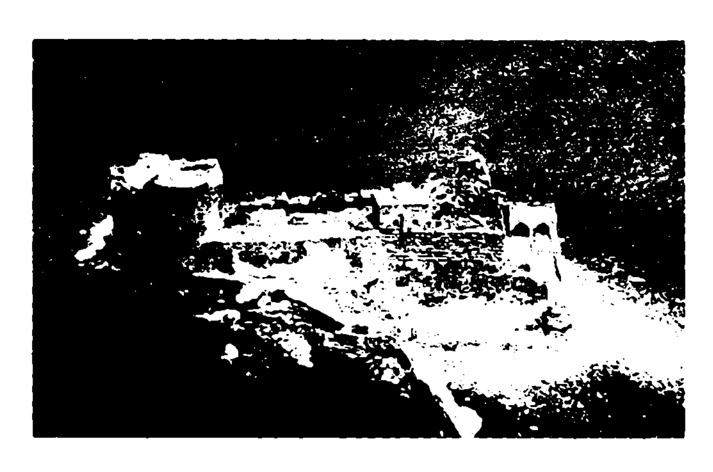
إلاّ أن أسباباً عديدة منعت الأمير من تحقيق رغبته بإنشاء أسطول بحري عسكري، وأهم هذه الأسباب:

١ - جهل جنده ومواطنيه فن الملاحة وعدم رغبتهم بهذا الفن وإقبالهم عليه، قال «سانتي» بهذا الصدد: «لم يكن الأمير يملك قوة بحرية بتاتاً لأن شعبه منصرف عن الملاحة»[١٠٢].

٢ - عدم قدرته على صيانة هذا الأسطول وحمايته إذا تمكن من إنشائه، وذلك بسبب القوة البحرية العثمانية التي كانت تسيطر على البحر المتوسط والتي كان بإمكانها أن تضرب هذا الأسطول في أي وقت فتقضي عليه.

وبالفعل، لعبت البحرية العثمانية دوراً مهماً في الصراع المسلح الذي دار بين السلطنة والأمير طوال مدة حكمه، وخصوصاً في هجوم الجيوش العثمانية على بلاده عامي ١٦١٣ و١٦٣٣. ففي العام ١٦١٣، أرسل السلطان أسطولاً مؤلفاً من ٦٠ سفينة (Galère) وعدداً مماثلاً من الزوارق الحربية، لمحاصرة سواحل الأمير، بينما كانت جيوش حافظ باشا والي الشام، وعددها ٣٠ ألفاً، تهاجمه من البر[١٠٣]، مما اضطر الأمير إلى مغادرة البلاد والرحيل إلى توسكانة كما هو معروف، وفي العام ١٦٣٣، أعادت هذه الأساطيل الكرة وحاصرت سواحل الأمير عند بيروت وصيدا وصور فعزلته عن أوروبا، حليفته، وقطعت عنه أية

معونة من البحر[١٠٤]، إذ هاجم الأميرَ من البحر أسطول مؤلف من ٤٠ سفينة (Galère)[١٠٥] وسد عليه المنافذ البحرية كلها، بينما هاجمه من البر جيش كبير جمعه كجك أحمد باشا والي الشام «من حدود بلاد الروم إلى حدود بلاد مصر»[١٠٦]، مما اضطر الأمير إلى التخفي في قلعة تيرون ثم في مغارة جزين، ثم إلى الاستسلام أخيراً.



القلعة البحرية في صيدا

حواشي الفصل الثالث

(١) قرألي، فخر الدين ودولة توسكانة، ج ٢ : ١٧٠.

(٢) هكذا اعتبرها الدكتور ايليسييف إذ قال عنها انها «من الأعمال التحصينية التي كانت تؤمن، من داخل البلاد، الدفاع عن مرفأ صيدا (Elisséef, N. Nûr ed-din, T. II, p. 600).

(٣) اعتبر ايليسييف كذلك أن قلعة بانياس كانت تشكل «مخفراً أمامياً للفرنجة في سفح حرمون وفي وجه نور الدين زنكي الذي انتزعها منهم عام ١١٦٤» (Ibid. p. 595).

(٤) لم نذكر الأبراج باعتبار انها لم تكن تشكل مراكز دفاعية، وقد بنى الأمير منها الكثير وأهمها (برج الكشاف) ببيروت، الذي بناه عام ١٦٢٢ (الدبس تاريخ سوريا، ج ٧ : ١٨٥، والدويهي، تاريخ الأزمنة ص. ٣٢٦) وقال الشهابي انه بناه عام ١٦٣٠ (الشهابي، تاريخه (الغرر الحسان، ج ١ : ٦٦٥) ووصفه الرحالة الانكليزي «موندريل» عام ١٦٩٧ بقوله: «يوجد في إحدى زوايا هذا البستان - بستان الأمير - برج ارتفاعه ستون قدماً... بني كمركز للحراس، سماكة جدرانه ١٢ قدماً، وباستطاعتنا أن نرى من أعلاه كل المدينة» (Maundrell, Voyage, p. 68) ووصفه «لامارتين» في مذكراته عن رحلته إلى الشرق، بتاريخ ٨ أيلول عام ١٨٣٢، بقوله: «برج كبير شيده أمير الدروز فخر الدين المعني واتخذه اليوم حرس ابراهيم باشا مرقباً» (Lamartine, Voyage en Orient, V. I, p. 139).

(٥) ذكر دي لاكروا، وكذلك موندريل، ان فخر الدين بنى القلعة البحرية في صيدا.

- De la Croix, La Turquie chrétienne, L III, p. 267 et

- Maundrell, op. cit. p 75.

وأن القلعة البرية صليبية بناها لويس التاسع ملك فرنسا (Ibid.) إلا أن بوادبار (Poidebard) ذكر أن القلعة البحرية في صيدا بناها الصليبيون بين عامي ١٢٢٧ - ١٢٢٨ (Poidebard, Sidon, p. 5) ونعتقد أن الأمير فخر الدين قد أعاد بناء هذه القلعة وسماها باسمه.

(٦) الخالدي، تاريخ فخر الدين، ص. ١٢ - ١٣.

(٧) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٧٦ و٢٠٩.

(٨) م. ن. ص. ٢٢٦.

(٩) البوريني، تراجم الأعيان، ج ١ : ٢٠٧، إلا أن البوريني بالغ مبالغة كبيرة في حساب المدة التي قضاها الأمير في تحصين القلعة إذ حسبها عشرة أعوام، وكان ذلك عام ١٠٢٢هـ ١٦١٢م، مع العلم أن الأمير استولى على القلعة عام ١٦١١م، فتكون المدة التي قضاها في تحصين القلعة عامين فقط لا عشرة أعوام كما ذكر البوريني.

(١٠) قال نعيما: إن قلاع الشقيف وبانياس ودير القمر كانت محصنة في عهد ابن معن فصعب استيلاء الجند العثماني عليها لما عصى - أي الأمير - على الدولة. (كرد علي، خطط الشام، ج ٢ : ٢٦٤).

(١١) ذكر الخالدي أن الأمير «أرسل للسكمانية الذي بين قلعة جبيل وقلعة سمر جبيل، وهو على الحصن بالرجال والخيل، ليسلموا إليه القلعتين المذكورتين فأذعنوا وسلموهما بلا قتال... وأرسل إلى ولده الأمير علي معلمين وقلاعين لهدم قلعة جبيل فهدموها وكانت قلعة عظيمة الشأن رفيعة البنيان... وأما قلعة سمر جبيل فإنه وضع فيها جماعة ولم يهدم منها حجراً» (الخالدي، المصدر السابق، ص. ٧٨ - ٧٩).

(١٢) الشهابي، المصدر السابق، ج ١ : ٦٧٨ - ٦٧٩ و٦٨٠ و٦٨٧ و٦٨٩، والخالدي، م. ن. ص. ١٢٥، وقد اعتبر «أوجين روجيه» قلعة عجلون، بالإضافة إلى قلعتي نيحا والشوف، من أهم القلاع التي امتلكها فخر الدين (وعددها حسب قوله ١٥ قلعة) ووصفها بأنها «مماثلة لأقوى قلاع آسيا الصغرى» (E. Roger, la Terre Sainte, p. 298).

وذكر كذلك أن الأمير علي بن فخر الدين حاصر هذه القلعة عام ١٦٢٢ واستولى عليها ووضع فيها حامية قوية (Ibid, p. 190).

(١٣) الخالدي، المصدر السابق، ص. ١٢٥، والشهابي، المصدر السابق، ج ١ : ٦٨٦، ولكن الشهابي وقع في الخطأ عندما ذكر انه «لما استقر الأمير فخر الدين بالقلعة، أظهر صكوكاً وأوامر سلطانية بمشتراة قلعة قب الياس من تركة الأمير منصور ابن عساف، وأعطاها للأمير حسين الحرفوش» (م. ن. ص. ن) دون أن يأتي على ذكر ابن الفريخ، ونحن نرى رأي الخالدي، إذ إنه لم يكن لآل عساف أية علاقة بقب الياس وهي من بلاد البقاع.

(١٤) كانت ولاية البقاع لولده الأمير علي وسنجقية عجلون لأخيه الأمير حسين، وسنجقية نابلس لمدبره مصطفى، وسنجقية اللجون لأخيه الأمير منصور (الشدياق، أخبار الأعيان، ج ١ : ٢٧٧).

(١٥) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٣٠٤.

وتجدر الإشارة إلى ما ذكرناه سابقاً وهو أن الأمير فخر الدين قد رمّم عام ١٦٢٤ الأجزاء التي تهدمت من القلعة أثناء حصاره لها عام ١٦٢٢، وذلك بتأكيد معظم المؤرخين (الشدياق، م. ن. ج ٢: ٢٧٧ والخالدي، المصدر السابق، ص. ٢٤٣، والشهابي، المصدر السابق، ج ١ : ٧١٦.

وChurchill, Mount Lebanon, T. I, pp. 383 - 384، كما تجدر الإشارة إلى الوصف الدقيق والمفصل الذي كتبه الرحالة الفرنسي فولني (Volney) عن هذه القلعة يوم زارها عام ١٧٨٤: Volney, voyage en Egypt et en Syrie, pp. 308 - 313.

(١٦) قرألي، م. ن. ج ٢ : ٨٦.

(١٧) الخالدي، م. ن. ص. ٢٤٢ والشهابي، م. ن. ج ١ : ٧١٥.

(١٨) الخالدي، م. ن. ص ٢٤٢ والشهابي، م. ن. ج ١ : ٧١٦.

(١٩) الخالدي، م. ن. ص. ٢٤٣، والشهابي م. ن. ص. ن. والشدياق، المصدر السابق، ج ١ : ٢٨٨، والمحبي، خلاصة الأثر، ج ٣ : ٢٦٧، المصدر السابق، ج ٢ : ٨٣ - ٨٦.

(٢٠) الخالدي، م. ن. ص. ٢٤٣ والشدياق، م. ن. ج ١ : ٢٨٨.

(٢١) الدويهي، تاريخ الأزمنة، ص. ٣٢٢.

(٢٢) المحبي، المصدر السابق، ج ٢ : ٢٦٧ إلا أن بعض المؤرخين يشكّون في صحة استيلاء فخر الدين على تدمر، وسوف نتعرض لهذا الموضوع في آخر البحث.

(٢٣) المعلوف، تاريخ فخر الدين، ص. ٢٦٧ - ٢٦٩.

(٢٤) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ١٧.

(٢٥) م. ن. ص. ٨٠ - ٨٧.

(٢٦) - Bouron, Les Druzes, p. 120.

(٢٧) كرد علي، خطط الشام، ج ٢ : ٢٥٦.

(٢٨) البستاني، دائرة المعارف، المجلد العاشر، ص. ٦٢٩ (الشوف).

(٢٩) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٢١٢ - ٢١٣.

(٣٠) م. ن. ص. ٢٠٤، والمزاغل: جمع زغل، وهي الحجارة العظيمة المستديرة التي تدور على حرفها كحجارة طحن الزيتون والزبيب في المعاصر (محيط المحيط للبستاني).

(٣١) المعلوف، المرجع السابق، ص. ٩٢ حاشية ٣، وذكر الأب قرألي ان فخر الدين تحدث إلى غراندوق توسكانة عن قلعتي بانياس والشقيف في أثناء وجوده بضيافته، ومما قاله ان «الأولى تسع ألف محارب، ولكنها خالية من المدفعية لبعدها عن السواحل، غير انه يسهل جرّ المدافع الخفيفة إليها، والثانية تحتوي على عشر قطع من المدافع، بين صغير وكبير وتسع ثلاثمائة مقاتل» (قرألي، م. ن. ج ٢ : ٢٢٦).

(٣٢) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٢٠٤.

(٣٣) م. ن. ص. ٢١٢. وانظر بحثاً مفصلاً عن تاريخ قلعة الشقيف لسليمان ضاهر (ضاهر، تاريخ قلعة الشقيف، ص. ٦ - ٢٥). وكتاب «خطط جبل عامل» لمحسن الأمين، ج ١ : ٢٤٦ - ٢٤٧.

(٣٤) المعلوف، المرجع السابق، ص. ٩٣ حاشية ٢.

(٣٥) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٢٠٤ و٢١٢ وانظر بحثاً مفصلاً عن قلعة بانياس للباحث الأثري فان بركهيم.

(Van Berchem, Le château de Banias et ses inscriptions, extrait du journal Asiatique, Paris, 1889).

(٣٦) الحتوني، نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية، ص. ٦٧.

(٣٧) لامنس، تسريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من آثار: ص ١٢٤.

(٣٨) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٨٣ والدبس، الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل، ص. ٢٣١، والدويهي، تاريخ الأزمنة، ص. ٢٢٤.

(٣٩) - Van Berchem, Voyage en Syrie, T. I, pp. 113 - 114.

(٤٠) المعلوف، المرجع السابق، ص. ١٨٩ حاشية ٢.

(٤١) م. ن. ص. ١٧٤ حاشية ٢.

(٤٢) - Van Berchem, op. cit., T. I, p. 135.

(٤٣) الخالدي، المصدر السابق، ص. ٧٧ - ٨٠، والمحبي، المصدر السابق، ج ٢ : ٢٦٧.

(٤٤) المعلوف، المرجع السابق، ص. ١٨٨ حاشية ١ وص. ٢٠٥.

(٤٥) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٨٤.

(٤٦) ياقوت، معجم البلدان، ج ٥ : ٣٤٩ (صرخد).

(٤٧) المعلوف، المرجع السابق، ص. ١٨٩.

(٤٨) الدويهي، المصدر السابق، ص. ٢٢٢.

(٤٩) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٨٥.

(٥٠) رستم، أسد، قلعة طرابلس الشام، صفحة ٤ - ١٥.

(٥١) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٨٦ و - Van Berchem, op. cit., T. I, p. 115.

(٥٢) ياقوت، المصدر السابق، ج ٥ : ٤٠٢ (صهيون)

(٥٣) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٨٤.

(٥٤) Van Berchem, op. cit., T. I, p. 296 -.

(٥٥) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٨٠، والمعلوف، المرجع السابق، ص. ٢٦٨، والعرفان، سنة ١٩٢١: ١٧٠.

(٥٦) روبنسون، يوميات في لبنان، تعريب أسد شيخاني، ج ١ : ١٦٥.

(٥٧) الأمين، خطط جبل عامل، ج ١ : ٢٠٨.

(٥٨) المعلوف، المرجع السابق، ص. ٢٣٠ وص. ٢٧٠ حاشية ٢.

(٥٩) الدويهي، تاريخ الأزمنة، صفحة ٢٤٤.

(٦٠) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٢٢٦ و ٨٥.

(٦١) الأمين، المرجع السابق، ج ١ : ٢٢٢ - ٢٢٣.

(٦٢) Roger, E., La Terre Sainte, p. 189 -.

(٦٣) المعلوف، المرجع السابق، ص. ٩٥ حاشية ٤.

(٦٤) الدويهي، المصدر السابق، صفحة ٣٢٤.

(٦٥) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٧٩.

(٦٦) Lammens, la Syrie, T. 2 p. 79 -.

(٦٧) المحبي، خلاصة الأثر، ج ٢ : ٢٦٧.

(٦٨) اسماعيل حقي بك، لبنان، مباحث علمية واجتماعية، ج ١ : ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٦٩) Nantet, Histoire du Liban, p. 111 -.

(٧٠) P. de St. Pierre, Histoire des Druzes, p. 36 et -
E. Roger, la Terre Sainte, p. 298 -.

(٧١) Jouplain, la question du Liban, pp. 100, 106 et 109 -.

(٧٢) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٢٠٣.

(٧٣) م. ن. ص. ٢١٠.

(٧٤) Masson, P. Histoire du commerce Français dans le Levant au 17e siècle, p. -
383 - Naud, voyage (en 1668) p. 534, et Poidebard, Sidon, p.44.

(٧٥) Villamont, Voyages (en 1588), p. 375 - 376 -.

(٧٦) D'Arvieux, Memoires (1658 - 1660) T. I, p. 298 -.

(٧٧) Naud, op. cit., p 534 -.

(٧٨) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٧٨ و .Poidebard, Sidon, p. 5 -

(٧٩) .Ibid., p. 64 -

(٨٠) .D'Arvieux, Mémoires, T. I, p. 298 -

(٨١) .Sandys, relation, p. 210 -

(٨٢) .Ristelhueber, la France en Syrie au XVIIes.p. 3 -

(٨٣) .Maundrell, op. cit. p. 74 -

(٨٤) .Hasselquiest, voyages, p. 241 -

(٨٥) .Naud, op.cit., p. 534 -

(٨٦) .Michaud et Poujolat, Corresp. d'orient T. V. p. 518 -

(٨٧) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٢٦٩.

(٨٨) م. ن. ص. ٢٠٢ والفراب مركب صغير يكلف عادة خفر السواحل.

(٨٩) م. ن. ص. ٢٦٩.

(٩٠) م. ن. ص. ٧٨.

وانظر كذلك: .D'Arvieux, Mémoires, T. 2, pp. 338 - 339 -

(٩١) .D'Arvieux, Ibid -

- Masson, Histoire du commerce, p. 387. et

- Reistelhueber, les traditions fr. au Liban, pp. 3 et 144.

(٩٢) .Masson, op. cit. p. 389. et Mariti, G. voyages, T. 2 p. 78 -

(٩٣) .Villamont, voyages, L. III, pp. 431 - 432 -

(٩٤) .Masson, op. cit. p. 381 -

(٩٥) .Fermanel, voyage, p. 301 -

(٩٦) .D'Arvieux, op. cit., T. II, p. 383 -

(٩٧) يذكر الأب قرألي أن غراندوق توسكانة أرسل إلى الأمير عام ١٦٠٨ «ألف قصبة للبنادق، وأسطولاً من المراكب الحربية ليستخدمه عند الحاجة ضد الدولة العثمانية» (قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ١٧٠) إلا أن هذا الأسطول لم يظهر في أية معركة من معارك الأمير مما يدل على أنه لم يوضع بتصرفه فعلاً، خصوصاً أنه رفض حينذاك المعاهدة المقترحة من الفراندوق.

(٩٨) م. ن. ص. ١٨٤، ومن أنواع القطع البحرية التي عرفت في ذلك العهد:

- الممارة، أكبر القطع البحرية ويليها:

- الغليون (Gallion ou Galliotte) أكبر من الغراب ويتسع لـ ٢٥٠ جندياً على الأقل.

- الغراب (Corvette) سيره أقل سرعة من سير الغليون، يكلف عادة خفر السواحل، وهو يضطر إلى محاذاة الشاطئ والتمون بالماء كل عشرة أيام.

- الترتانا، شكل من المراكب كان شائعاً في ذلك العهد، ويتطلب تجهيزه أربعين بحاراً وستين جندياً.

- القارب، وهو أصغر المراكب البحرية وأقلها أهمية (م. ن. ص. ٢١٨ - ٢١٩).

(٩٩) الخالدي، المصدر السابق، ص. ١٠٣ - ١٠٤.

(١٠٠) م. ن. ص. ١٩٠، وقرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٧٨، والشهابي تاريخه ج ١ : ٧٠٨، وذكر الشهابي انه «لما رأى الذين في المراكب ان العرب يهجمون على عسكر الأمير، تقدمت المراكب قريبا إلى البر وأطلقت عليهم المدافع، فأوقعوا بطلق واحد من مدفع خيالين» (الشهابي، م. ن. ج ١ : ٧٠٨) كما ذكر الخالدي الشيء نفسه وهو أنه عندما رأت المراكب خيالة العرب، «رموا عليهم مدفعاً فصوبوا منهم فرساً ودحروهم عن الثقل» (الخالدي، م. ن. ص. ١٩٠).

(١٠١) في رسالة من القنصل دي فراتسانو إلى أحد أمناء سر الفراندوق مؤرخة في ١٥ شباط ١٦٣١ (قرألي، م. ن. ج ٢ : ٢٩٧ - ٢٩٩)، إلا أن الأمير أوضح فيما بعد، إلى ميتشيري أحد سفراء توسكانة، أسباب طلبه لهذا القارب وهو أنه يريد ابقاءه بتصرفه «ليرسل عليه وقت الحاجة خزنته وما خف حمله وغلا ثمنه» (م. ن. ص. ٣٠٦).

(١٠٢) م. ن. ص. ٧٨.

(١٠٣) - D'Arvieux, op. cit., T. I, pp. 365 - 366.

- Lammens, La Syrie, T. II, p. 76.

- Roger, E., La Terre Sainte, pp. 295 - 296, et

- Puget de St. Pierre, Histoire des Druzes, p. 42.

(١٠٤) - Jouplain, La question du Liban, p. 118, et

- Lammens, op. cit., T. 2, p. 88.

(١٠٥) - Roger, E., op. cit., p. 307.

وذكر ماريتي انه في شهر تموز ١٦٢٣ وصل إلى سوريا الأسطول العثماني الموفد لمحاربة فخر الدين وهو مؤلف من أربعين سفينة حربية مختلفة الأنواع وأربع سفن حربية يقودها قبطان باشا شخصياً، وكان وصول هذا الأسطول إلى تلك البحار يعني رضوخ مرافئ بيروت وصيدا وعكا وسائر الأماكن البحرية في سوريا التابعة لفخر الدين، وقد سلمت هذه المدن دون مقاومة ودون أن يدعي أحد ملكيتها، وعيّن في تلك المدن حكام أتراك أعداء حتى لفخر الدين نفسه، فوجد هذا الأخير نفسه محاصراً من جهة البحر بالسفن الحربية وبالمالكين الجدد للساحل، ومن البر حاصره أحمد باشا والي دمشق وباشا القدس وغزة والأمير طربيه والشيوخ العرب الآخرون الذين أعلنوا عداوتهم لفخر الدين متحالفين مع الباشاوات المذكورين.

(Mariti, Istoria di Faccardino, pp. 238 - 240).

(١٠٦) الخالدي، المصدر السابق، ص. ٢٤٤.

الفصل الرابع

معارك الأمير فخر الدين

- ١ -
المعارك الهجومية التوسعية

ظل فخر الدين، منذ تسلمه إمارة الشوف عام ١٥٩٠، وحتى سقوطه عام ١٦٣٣، في صراع مسلح مع خصومه وأعدائه من كل جانب، فقد كان يسعى جاهداً لأن يحقق طموحه في التوسع والسيطرة بكل الوسائل، إما حرباً أو سلماً، وإما بقوته العسكرية أو بإغراء المال، وغالباً ما كان يشفع الإغراءات المالية التي يقدمها للولاة والسلاطين بالقوة العسكرية ينفذ بواسطتها ما يحصل عليه من فرمانات بحكم ولاية أو سنجق ما.

وقد رأينا أن نخصص لهذه المعارك فصلين ندرس في الأول منهما معاركه الهجومية التوسعية شمالاً (ضد آل سيفا في طرابلس وعكار) وجنوباً (ضد القبائل العربية في فلسطين) وشرقاً (ضد آل حرفوش في البقاع)، وندرس في الآخر معاركه الدفاعية (ضد العثمانيين وخصوصاً ولاتهم في الشام).

هذا بالإضافة إلى معارك أخرى خاضها إما انتصاراً لحليف أو حملة لتأديب عاص أو متمرد، محاولين أخيراً أن نتعرف على التكتيك العسكري الذي طبقه الأمير في حروبه، نتيجة درسنا لهذه المعارك.

١ - معارك الأمير ضد آل سيفا:

كان الأمير في صراع مستمر مع خصمه التقليدي يوسف باشا سيفا حاكم طرابلس، وظل كذلك حتى وفاة هذا الأخير عام ١٦٢٤ رغم ما يربط بين

الحاكمين من وشائج المصاهرة، وأهم المعارك التي جرت بين فخر الدين والسيفيين هي:

- **معركة نهر الكلب (١٥٩٨)**: كانت كسروان وبيروت قد آلتا إلى ابن سيفا بعد مكيدة دبرها هذا الأخير لاغتيال الأمير محمد عساف أمير كسروان وحليف فخر الدين عام ١٥٩٠، إذ قضى عليه في كمين نصبه له بين البترون والمسيلحة، فقتله واستولى على زوجته وإمارته. وفي العام ١٥٩٨ قرّر الأمير انتزاع كسروان وبيروت من ابن سيفا، فجهز لذلك جيشاً قوامه خمسة عشر ألف مقاتل اشترك فيه الأمراء الشهابيون من وادي التيم والحرفوشيون من البقاع ومقدمو جبيل، وسار لفتح كسروان، وما أن علم ابن سيفا بمسيرة الأمير حتى لاقاه بجيش مماثل «وكان بوسع ابن سيفا أن يجند ١٢ ألف مقاتل من حملة البنادق المدربين على صنوف القتال»[١]، إلا أن فخر الدين انتظره عند وادي نهر الكلب، في ممر ضيق لا يتسع لحركة جيش كبير كجيش ابن سيفا، وما ان وصل ابن سيفا بجيشه إلى ذلك المكان حتى فاجأه الأمير بأن أطبق عليه بجيشه من كل جانب فكسره وشتت جيشه وقتل ابن أخيه الأمير علي بن سيفا، واستولى فخر الدين بعد هذه المعركة على كسروان وبيروت لمدة سنة ثم أعادهما إلى ابن سيفا بعد وساطة من الأمراء الارسلانيين[٢].

- **معركة جونية (١٦٠٥)**: نقض ابن سيفا عهده مع الأمير، عندما أقدم على قتل مقدمي جاج الأربعة عام ١٦٠١ وانتزاع أموالهم وأرزاقهم، وكانوا حلفاء الأمير، ثم أقدم على مهاجمة مدينة بعلبك، عاصمة حلفاء الأمير من آل حرفوش، فنهبها ثم أحرقها، كما احتل قلعة حدث بعلبك بعد أن حاصرها خمسين يوماً، عندها قرّر الأمير استعادة مقاطعتي كسروان والفتوح، ومدينة بيروت من يد ابن سيفا، فأعدّ عام ١٦٠٥ جيشاً لقتاله وسار به إلى جونية حيث جرى بين الفريقين معركة اعتبرت مصيرية بالنسبة إلى نفوذ الأمير في بلاد

كسروان، إذ انتهت بانتصاره على ابن سيفا انتصاراً ساحقاً، فضم الأمير إليه كسروان والفتوح وبيروت، وولى على كسروان الشيخ أبا نادر الخازن، وعلى غزير الشيخ يوسف المسلماني، وعلى بيروت الأمير منذر التنوخي[٣]، ويظهر أن الأمير فخر الدين قد حشد لهذه المعركة ما يقارب الإثني عشر ألف مقاتل، وأن بيروت، بالإضافة إلى كسروان، كانت الهدف الرئيسي لهذا النزاع المسلح بين الخصمين المتحاربين، وذكر كاتشياماري (Cacciamari) أحد رسل توسكانة إلى الأمير، في العام نفسه، وفي أثناء معركة جونية، ان في وسع الأمير تجنيد اثني عشر ألف مقاتل من حملة البنادق المدربين على الحرب، وإذا جهد نفسه، تمكن من حشد عشرين ألفاً[٤]، كما ذكر، في الرسالة نفسها التي كان قد بعث بها إلى غراندوق توسكانة، أن الأمير «هو أيضاً صاحب بيروت، وبسببها تدور الآن معركة بينه وبين الأمير يوسف سيفا، المنحاز إلى جانب الأتراك، لا نعرف بعد نتيجتهـا» إلا أن كاتشياماري قدّر الوضع العسكـري في المعركة بقوله: «إن الأمر ليس بذي بال، لأن ميدان العراك، خارج عن مملكته - أي الأمير المعني - وأكبر الظن أن العدو لا يطيق الثبات طويلاً أمام صدمات الدروز»[٥].

- معركة عرّاد (١٦٠٦):

- **التحالفات:** تقوّى يوسف باشا سيفا بمحالفته لحافظ باشا والي دمشق وبتعهده للسلطنة بالقضاء على علي باشا جنبلاط والي حلب وخصم الدولة العنيد، إذا ما عين سرداراً (جنرالاً) للجيش الشامي، فأعطي ما أراد، وتقوى فخر الدين مقابل ذلك بتحالفه مع علي باشا المذكور، وهكذا، فقد رتبت التحالفات بين الفريقين على الوجه التالي:

- معسكر العثمانيين، وفيه جند الوالي وجند باشا طرابلس.
- معسكر علي باشا جنبلاط والأمير فخر الدين وفيه جندهما بالإضافة إلى حلفائهما من الشهابيين حكام وادي التيم وآل حرفوش حكام بعلبك.

- **المناوشات والمعركة:** بدأت المناوشات بين الفريقين بأن هاجم الجنبلاطي يوسف باشا سيفا الذي كان قد حشد لقتاله، في أرض حماة، جيشاً من السكمان والشاميين، إلا أن جيش السيفي لم يتمكن من الصمود طويلاً في وجه جند باشا حلب، فتفرق شمله، وفرّ السيفي إلى طرابلس حيث كان الأمير المعني بانتظاره محاولاً سد سبل النجاة في وجهه، إلا أن يوسف باشا تمكن من الهرب بواسطة قارب باتجاه قبرص ومنها إلى فلسطين، حيث التجأ إلى آمر اللجون الأمير أحمد بن طرباي أو (طربيه) ومنها توجه إلى دمشق ليجمع من جديد، بوادي بردى، جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل، يلاقي بواسطته خصميه الجنبلاطي والمعني.

واجتمع الحليفان الجنبلاطي والمعني عند منبع نهر العاصي في الهرمل، ليعدا العدة لقتال جديد، وكان مع الجنبلاطي نحو عشرة آلاف مقاتل من السكمان و«التفنكجية»، ومع فخر الدين عدد مماثل من جنده وجند حلفائه الشهابيين والحرفوشيين، واتفقا على أن يلاقيا جند السيفي وحلفائه، فكان اللقاء في أرض «عرّاد» قرب حماه، وجرت المعركة يوم السبت الواقع في ١٨ تشرين الأول ١٦٠٦ (أواسط جماد ثاني ١٠١٥هـ)، إلا أن القتال في هذا اليوم لم يكن حاسماً، فتجدد في صبيحة اليوم التالي، الأحد في ١٩ منه، وتصادم الفريقان صداماً عنيفاً «فما مر مقدار جلسة خطيب إلا وقد انفلّ العسكر الشامي حتى قال ابن جنبلاط: العسكر الشامي ما قاتلنا، وإنما قابلنا للسلام علينا»(٦)، ويرى بعض المؤرخين أن هزيمة الجيش الشامي في هذه المعركة كان نتيجة تآمر ضمني تمّ بين علي باشا جنبلاط وبعض قادة هذا الجيش اتفق بنتيجته على أن ينهزم هؤلاء القادة أمام الجيش الجنبلاطي - المعني عند أول مصادمة، لقاء رشوات أعطيت لهم وملابس وخلع خلعت عليهم(٧)، ومهما يكن من أمر، فقد أدت هزيمة الجيش الشامي إلى انتصار ساحق للتحالف

الجنبلاطي - المعني، قرّر الحليفان على أثره استثمار انتصارهما باتجاه العاصمة دمشق.

- **استثمار النصر**: لم يترك الجيش المتحالف المنتصر مجالاً للجيش الشامي المنهزم كي يلتقط أنفاسه، فطارد فلوله حتى «المزة» في ضاحية دمشق، وتمكن السيفي من الإفلات من قبضة المطاردين والتجأ إلى حصن الأكراد، مما أثار حفيظة الجنبلاطي وحليفه، فقررا مهاجمة دمشق بحجة أن جندها هم الذين سهلوا فراره، ودخل جندهما المدينة فأعملا فيها نهباً وتخريباً، بدءاً بمحلة القبيبات مروراً بمحلتي الميدان وساحة المحروقة فسوق ساروجا، ومحلة السودان حتى الصالحية(٨)، وبقي الجيش في مدينة دمشق ثلاثة أيام على هذه الحال، يحاصر ويهدم وينهب ما أمكنه ذلك، حتى خرج أعيان المدينة إلى القائدين المنتصرين يعرضون الصلح لقاء مال يُدفع لهما، وقبل الجنبلاطي بالمال لقاء ذلك، أما المعني فطلب ولاية البقاع وبعلبك لحليفه الأمير يونس الحرفوش، فأعطيت له، ورحل المعني وحلفاؤه عن دمشق في اليوم الرابع عائدين إلى بلادهم عن طريق البقاع(٩)، بينما لحق الجنبلاطي بابن سيفا إلى حصن الأكراد حيث صالحه وصاهره(١٠).

- معركة الناعمة (١٦١٦):

- **أسبابها**: اضطر الأمير فخر الدين إلى مغادرة البلاد عام ١٦١٣ خشية بطش العثمانيين به، وسلم مقاليد الإمارة إلى ابنه علي، وقيادة الجيش إلى أخيه يونس، اللذين تابعا النضال المسلح ضد الخصوم مجتمعين من عثمانيين وسيفيين وسواهم، وكان يوسف باشا سيفا قد استرد حكم غزير وبيروت ونصّب عليهما حكاماً من قبله(١١)، وامتد حكمه حتى شمل بلدة الناعمة جنوب بيروت،

وكان حسين اليازجي ومصطفى كتخدا، من أعوان الأمير، قد تمكنا من استصدار أحكام سلطانية (مقررنامات)، برفع يد ابن سيفا عن غزير وبيروت، إلا أن ابن سيفا لم يمتثل لهذه الأوامر، بل أخذ يستعد للقتال.

- **السيفيون: التعبئة والاستعداد للقتال:** أصدر ابن سيفا أوامره بالتعبئة استعداداً للقتال وعيّن الشيخ مظفر اليمني حاكم بيروت قائداً لقواته التي بلغت نحو ألفي مقاتل بقيادة كل من الأمير شلهوب بن الحرفوش والأمير أرسلان والأمير موسى الكردي من رأس نحاش وحسن آغا وعشرين بلوكباشيا من السكمان، وتمركزت هذه القوات ما بين عين الناعمة وحارة الناعمة، وأخذت تقيم المتاريس باتجاه الجنوب.

- **المعنيون: التعبئة والاستعداد للقتال:** أصدر الأمير علي أوامره بالتعبئة استعداداً للقتال، وطلب إلى عمه الأمير يونس أن يجمع رجال الشوف، كما طلب إلى الأمير علي الشهابي من وادي التيم أن يجمع رجاله أيضاً، على أن يلتقي الجيش كله عند نهر الأولي شمال صيدا، فاجتمع لدى الأمير المعني نحو ثلاثة آلاف مقاتل سار على رأسهم لمقاتلة الجيش السيفي المتمركز في الناعمة.

- **الاستطلاع:** توقف الجيش المعني في الدامور، وأرسل الأمير علي شرذمة من جنده لاستطلاع مواقع العدو فاصطدمت هذه الشرذمة بمراكز العدو الأمامية في حارة الناعمة، حيث جرى قتال انتهى بانسحاب المراكز الأمامية العدوة نحو الناعمة، وعادت قوات الأمير إلى مراكزها بالدامور.

- **السير للقتال:** بعد هذا الصدام، عزّز الشيخ مظفر قائد القوات السيفية مواقعه في الناعمة، ولبث ينتظر وصول الجيش المعني، أما الأمير علي فسار للقتال بالترتيب التالي:

- في الميمنة، جند الشوف (بقيادة الأمير يونس).

- في الميسرة، جند بلاد بشارة والشقيف وصيدا، وفرسان السكمان، (بقيادة الأمير علي الشهابي).

- في القلب، مشاة السكمان (بقيادة الأمير علي المعني نفسه). وقد سارت الميمنة إلى جانب الجبل، كما سارت الميسرة إلى جانب البحر، وكان السير للقتال صبيحة يوم الاثنين في الثاني من شعبان عام ١٠٢٥هـ (بدؤها في ٢٠ كانون الثاني ١٦١٦م)[١٢].

- **المعركة:** ما ان وصل الجيش المعني إلى مسافة الرمي من مراكز الجيش السيفي حتى بدأ القتال بإطلاق النار، ثم بهجوم قام به خيالة الجيش المعني من الميسرة ومشاته من القلب والميمنة، ولم يتمكن السيفيون من الصمود في مواقعهم فتقهقروا مخلفين وراءهم نحو مايتي قتيل، وقتلت فرس قائدهم الشيخ مظفر الذي ولّى هارباً، كما أسر من الجيش السيفي نحو مايتي أسير من مشاة السكمان الذين كانوا لا يزالون في متاريسهم فقبض عليهم[١٣]، وغنم المعنيون من السيفيين نحو ثلاثة عشر بيرقاً، وطاردوا فلول الجيش المنهزم حتى بلدة «قرتبه» في الشويفات، وقد بلغت خسائر المعنيين في هذه المعركة نحو ثلاثين قتيلاً[١٤] وقيل ثلاثة فقط[١٥].

- حملة عكار (كانون الأول ١٦١٨ - كانون الثاني ١٦١٩):

- **أسبابها:** حدّد الأمير فخر الدين أسباب هذه الحملة في أثناء استقباله للأمير حسن بن يوسف باشا سيفا عندما جاء يهنئه بسلامة الوصول من توسكانة، إذ قال الأمير المعني لضيفه الذي اصطحب معه هدية من الخيل، بعد أن رفض الهدية: «ما نحن محتاجون إلى هذه الخيل وإنما مرادنا أخشاباً لنعمّر بها حارتنا التي أحرقها حسين باشا - سيفا - في الدير - دير القمر - ولو كان

أرسل إلينا الاثنين وعشرين ألف غرش التي استدانتها جماعته من جماعتنا في اسطنبول لكان أحسن، وأيضاً جميع طرشنا وطرش توابعنا في زمن حافظ أحمد باشا أرسلناه إلى عنده ليكون عنده وديعة فضبطه لنفسه ونسي حلول رمسه، وكل من راح إلى عنده من جماعتنا أخذ منه جريمة، ومراده ينسينا جميع ما فعله من الأشياء الذميمة بإرسال رأسين ثلاثة من الخيل، فهذا كله ليس لنا إليه ميل»[١٦].

هذه هي الأسباب الحقيقية لحملة عكار، وقول الأمير هذا يدل على ما في قلبه من غضب وحقد على ابن سيفا الذي استغل غياب الأمير وضعف بلاده بسبب الهجوم العثماني وعداوة والي الشام له، فأحرق الكثير من القرى وهدم الكثير من الضياع حتى أنه لم يتورع عن هدم دار الأمير في دير القمر، وحاول أن يسترجع لنفسه حكم مقاطعتي كسروان وغزير ومدينة بيروت لولا أن الأمير علي بن فخر الدين قضى على صموحه هذا بهزيمته له في وقعة الناعمة كما رأينا.

أما الأسباب الأخرى المباشرة لهذه الحملة فهي أن يوسف باشا سيفا رفض تسليم مدينة طرابلس للوالي الجديد المعين من قبل الدولة وهو عمر باشا الكتانجي كما رفض تسليمه المال المترتب عليه للدولة، مما اضطر الوالي الجديد للاستنجاد بالأمير المعني كي يساعده على تنفيذ أوامر الدولة، وكانت تلك مناسبة طيبة وجدها الأمير للانتقام من خصمه اللدود[١٧].

- **التعبئة للقتال:** وأعلن الأمير التعبئة للقتال، ثم انتقل من صيدا إلى بيروت حيث وزع المهمات على الشكل التالي:

١ - استنفر رجال الشوف والغرب والجرد والمتن وكسروان ووضعهم بإمرته.

٢ - أمر ابنه الأمير علياً أن يستنفر رجال بلاد صفد وبلاد بشارة والشقيف وصيدا ويضعهم بإمرته.

٣ - استنفر الأمير عليا الشهابي حاكم وادي التيم وأمره بالالتحاق بالأمير علي المعني.

٤ - أمر الأمير يونس الحرفوش حاكم البقاع أن يضبط ما لآل سيفا من المواشي والغلال في مقاطعته.

٥ - أمر مدبره الشيخ أبا نادر الخازن أن يرسل مفرزة من الجند لتقطع طريق بيروت - طرابلس عند جسر نهر ابراهيم كي تمنع المرور نحو الشمال بغية منع وصول أي أنباء لابن سيفا عن قدوم حملة الأمير نحوه[١٨].

- **السير للقتال:** ولما أتم الأمير تدابير التعبئة هذه انطلق بحملته من بيروت في كانون الأول ١٦١٨ فسار هو في المقدمة وسار ابنه الأمير علي في أثره مع جميع من بإمرته من الجند، وكان على علي أن يتوقف بجنده في غزير، أما فخر الدين فكان خط سيره كما يلي:

بيروت - نهر ابراهيم - جبيل (وجد في قلعتها وقلعة سمر جبيل حامية لابن سيفا ففاوض بلوكباشيتها لتسليم القلعتين ولكنهم رفضوا فتركهم وتابع سيره) - أميون - قلعة بخعون (في الضنية) - قبولا (وردت قبولا عند الخالدي وتولا عند الشدياق، والأصح قبولا) بحيث توقف لاستطلاع بلدة عكار (العتيقة)[١٩].

- **الاستطلاع:** اصطحب الأمير معه ثلاثماية مقاتل وأبقى بقية الجيش في قبولا، ثم توجه لاستطلاع مكان ابن سيفا في عكار، وكان هذا الأخير قد علم بقدوم المعني إليه بجيش لجب لن يقوى على مواجهته، فعزم على الالتجاء إلى

قلعة الحصن أو (حصن الأكراد)، وكان للقلعة طريقان، فقسم جماعته إلى قسمين: قسم يضم حريمه ومتاعه، أرسله إلى القلعة بطريق، والقسم الآخر، هو وجنده سار نحوها بطريق آخر، وما ان أطل الأمير على بلدة الحصن، وكان الليل في أوله، حتى شاهد عشرة مشاعل تسير باتجاه القلعة، فجد السير في أثرها، ولما وصل إليها وجدها قافلة نساء ابن سيفا وأحماله، فاستولى على الأحمال وترك النساء، وتابع البحث عن ابن سيفا نفسه، وما ان شعر ابن سيفا بدنو الأمير منه حتى أطفأ مشاعله وأسرع نحو البلدة فدخلها وتحصن ببيوتها، وفرق عسكره صفوفاً أمام القلعة مستعدين للقتال، وجعل القلعة خلفه، ولما علم الأمير بوجود ابن سيفا وجنده داخل البلدة أخذ يستعد لشن هجوم عليه، ثم طلب من ابنه علي أن يوافيه، على وجه السرعة، بجند بلاد صفد وبلاد الشقيف بإمرة الأمير علي الشهابي ليعزز بهم حملته(٢٠).

- **المعركة:** جمع الأمير نحو ألف من جنده وشن أول هجوم على مراكز ابن سيفا في بلدة الحصن، ولكن ابن سيفا كان قد اتخذ بين البيوت وأمام القلعة مواقع دفاعية منيعة، مستعداً للقتال ولرد أي هجوم، وكان معه مقدمو المتن من بني الصواف، ورجالهم، ورد ابن سيفا الهجوم الأول بنجاح، ولكن فخر الدين لم ييأس فأعاد الكرة، وكان هو على رأس رجاله وفرسانه، ورغم الدفاع المستميت الذي أظهره المقاتلون من آل سيفا، فإن الأمير لم يتراجع ولم ينثن عن عزمه فدخل بجنده بيوت البلدة وقاتل جند ابن سيفا من بيت إلى بيت، فقتل منهم الكثير، ولجأ الباقون، مع ابن سيفا، إلى داخل القلعة ليحتموا بها بينما فرّ الأميران محمد وسليمان (سيفا) إلى بلاد جبيل.

وأحكم الأمير الحصار حول القلعة، ثم أمر الشيخ أبا نادر الخازن أن يذهب ليلاً، مع عشرة أنفار، فيدك الجسر الذي يصل البلدة بالقلعة عند بابها،

كي يقطع على المتحصنين داخل القلعة سبل النجاة، ولكن ذلك لم يكن ممكناً بسبب متانة ذلك الجسر، عندها شدّد الأمير الحصار الذي استمر ثلاثين يوماً، وكان زاد المحاصرين في داخل القلعة قد بدأ ينفد، كذلك فإنهم لم يكونوا مستعدين لتحمل حصار من هذا النوع وفي مثل هذه الظروف، ظروف الشتاء القاسية، ولما لم يتمكن ابن سيفا من الحصول على أية نجدة من الخارج، بعد أن تقاعس مصطفى باشا والي الشام ومحمد باشا والي حلب عن نجدته، اضطر مرغماً إلى الاستسلام وفقاً للشروط التي فرضها الأمير عليه(٢١). وفي طريق عودته من عكار إلى بيروت، دمّر الأمير العديد من بيوت عكار ومن بينها دار يوسف سيفا ودور أصحابه من قبيل المعاملة بالمثل عندما أحرق حسين باشا سيفا دار الأمير في دير القمر في عهد حافظ باشا، ثم استولى على قلعتي جبيل وسمر جبيل فهدم الأولى ووضع في الثانية حامية من جنده، وقد أنعم عليه عمر باشا (الكتانجي) والي طرابلس، بعد هذه المعركة، بمقاطعتي جبيل والبترون، فولّى بدوره على الأولى الشيخ أبا نادر الخازن وعلى الثانية المقدم يوسف الشاعر(٢٢)، ثم صرف من كان عنده من الجند كل إلى بلده.

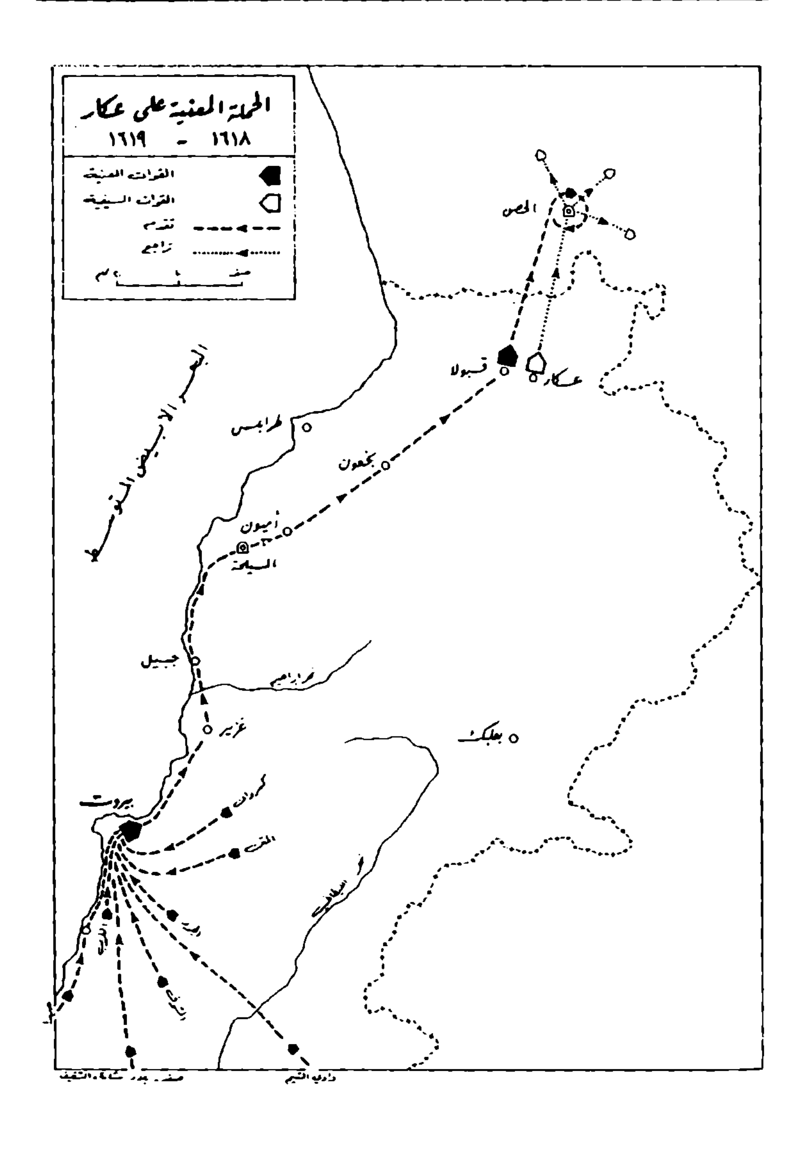
والجدير بالذكر، في هذا الحصار، أن الأمير اهتم بنفسه بأمر إعداده وأحكامه، فقد «أحاط بجميع جوانب القلعة وجعل يواظب بنفسه على المتاريس والمحاصرة ويحث الناس عليها»(٢٣)، وقد حاول ابن سيفا الهرب مراراً من القلعة إلا أنه لم يتمكن من ذلك نظراً لإحكام الحصار عليه من جهة، ولكبر سنه وعجزه عن التحرك بسرعة من جهة ثانية(٢٤)، ولكن الأمير، في الوقت نفسه، لم يكن قاسياً تجاه خصمه العجوز، فقد أرسل إليه بعد أن قبض المال منه، كل ما كان عنده من «العازق والمأكولات»(٢٥)، يسد بها حاجته بعد أن أفقده الحصار كل مؤونته.

- حملة طرابلس (١٦٢٠):

- **أسبابها:** تأخر يوسف سيفا عن دفع الأموال المترتبة عليه للدولة رغم المطالبة المتكررة بها، فأرسل الصدر الأعظم إلى الأمير فخر الدين يطلب منه تنفيذ «حوالة» على ابن سيفا لإرغامه على الدفع.

- **الحصار البري والبحري:** وتنفيذاً لأوامر الصدر الأعظم، جمع الأمير «سكمانيته ورجال بلاده» وقصد طرابلس في شهر شعبان سنة ١٠٣٠/هـ (بدؤها الخميس ٢٦ كانون الثاني ١٦٢٠)[٢٦]، فاستقر بجيشه على أبوابها وضرب حصاراً حول المدينة، ثم أرسل إلى ابن سيفا يطلب منه تسديد الأموال المترتبة عليه للدولة إلا أن ابن سيفا رفض ذلك وغادر طرابلس إلى جبلة تاركاً ابنه الأمير حسناً في القلعة وسكمانيته في أبراج الأسكلة (الميناء)، وأرسل إلى الباب العالي يشكو حصار الأمير فخر الدين لمدينته متهماً إياه أنه يريد الاستيلاء على المدينة وقلعتها ويطلب رفع الحصار، ويظهر استعداده لدفع الأموال المترتبة عليه، وأقام الأمير على مدخل المدينة الجنوبي عند «برج البحصاص» مدة عشرة أيام ظل خلالها يفاوض الأمير حسناً لدفع المال بالحسنى، دون الوصول إلى أية نتيجة، عندها أخذ يشدد الحصار على المدينة من مداخلها الثلاثة: المدخل الجنوبي (البحصاص) والشرقي (نهر أبو علي) والشمالي (البداوي) ثم استدعى مركبين بحريين (غليونين) فرنسيين كان قد استأجرهما، فوضع فيهما خمسين رجلاً من سكمانه وأمرهم بفرض حصار بحري على المدينة ومنع ادخال أية إمدادات أو مؤونة إليها من جهة البحر، فوقعت المدينة في حصار بحري وبري متكامل.

- **المناوشات:** وذات يوم، وبينما كان بعض جند الأمير يغسلون ثيابهم عند النهر، خرج إليهم بعض فرسان آل سيفا من الأبراج، فخطفوا خيولهم


الحملة المعنية على عكار
١٦١٨ - ١٦١٩
القوات المعنية
القوات السيفية
تقدم
تراجع
الحصن
قبولا
عكار
طرابلس
بخعون
أيمون
جبيل
نهر ابراهيم
غزير
بعلبك
بيروت
المتن
البحر الأبيض المتوسط
وادي التيم

ودارت معركة بين الفريقين أدت إلى مقتل أربعة رجالٍ من كل فريق، عندها قرّر الأمير مهاجمة المدينة.

- **الهجوم**: حشد الأمير، للهجوم، ثمانماية مقاتل من سكمانه ووضعهم بإمرة كل من مدبره (كتخداه) مصطفى وأحد قادته طويل حسين (بلوكباشي) وأصدر أوامره إليهم بالهجوم صفاً واحداً باتجاه المدينة على أن يدخلوها بأي ثمن، وما ان وصلت قوات الأمير إلى سور المدينة حتى جوبهت بمقاومة عنيفة، إذ أمطر المحاصرون المهاجمين بوابل من نار بنادقهم فسقط من جند الأمير أربعة قتلى، ومع ذلك فقد تمكن عدد من المهاجمين (يقدر بعشرة) من تسلق السور وفتح ثغرة في الجهاز الدفاعي، وأخذت هذه الثغرة تتسع بتكاثر المهاجمين داخل السور وتقهقر المدافعين الذين لجأوا إلى القلعة فتحصنوا بها، بينما أصبح جميع سكمان الأمير في الداخل، حيث تقدموا باتجاه القلعة فاحتلوا داراً لحسين باشا سيفا مقابلة لها، وخسرت القوات المعنية في هذا الهجوم، بالإضافة إلى القتلى الأربعة عند السور، قائداً (بلوكباشياً) وثلاثة رجال.

- **حصار القلعة**: ورغم المقاومة العنيفة التي أبداها حسن باشا سيفا وجنده من داخل القلعة، تمكن المعنيون من التوصل إلى إحكام الحصار حولها، ودخل فخر الدين وقادته إلى المدينة وطلب من حليفه الأمير سليمان بن سيفا الذي كان في عكار أن يرسل تعزيزات إليه، كما طلب تعزيزات أخرى من سكمانه الذين كانوا لا يزالون في عكار منذ حملته عليها، وأخذ يشدد الحصار على القلعة، إلا أن المحاصرين أبدوا مقاومة عنيفة وصمدوا صموداً رائعاً، وكانوا جميعهم من سكمان ابن سيفا ومن رجال بلاده، كما كان مع حسن باشا

سيفا جميع اخوته وحريمهم، الأمر الذي جعلهم يقاتلون ببسالة وضراوة، مما أطال أمد الحصار دون جدوى.

- **الهجوم والهجوم الردي:** وفتح السيفيون جبهة الأبراج في الأسكلة (الميناء) تخفيفاً عن المحاصرين في القلعة ومؤازرة لهم، إذ شن سكمان الأبراج هجوماً على القوات المعنية التي تحاصر القلعة، وارتكب المعنيون خطأ فادحاً إذ تخلى قسم منهم عن مراكزه في الطوق المضروب حول القلعة، وقام بهجوم ردي على سكمان الأبراج، ولكن المعنيين المهاجمين فوجئوا بكمائن من جند السيفيين وراء متاريسهم عند طرابلس القديمة جانب البحر (الميناء)، وقد تمكنت هذه الكمائن من صد المهاجمين وتشتيتهم كما أوقعت في صفوفهم عشرة قتلى مع خيولهم وعدداً من الجرحى، وكان من الممكن أن تقضي عليهم لولا أن تدارك فخر الدين الأمر بنفسه فانطلق لنجدتهم مع خمسين فارساً من فرسانه، وكان انطلاقه من طرابلس الجديدة (قرب القلعة) إلى حيث تجري المعركة عند طرابلس القديمة (الميناء)، فاقتحم بفرسانه متاريس السيفيين مفاجئاً إياهم، ودار قتال بالسلاح الأبيض بين الفريقين أدى إلى اقتلاع السيفيين من مراكزهم، وضرب الأمير حصاراً حول مشاتهم ليحول بينهم وبين الأبراج، ثم أعمل وجنده السيف فيهم، فقتل منهم نحو خمسين رجلاً وتمكن الباقون من الفرار، وغنم الأمير كثيراً من الأعتدة والغنائم.

وإذا كان قسم من قوات الأمير قد ارتكب خطأ فادحاً بتركه مواقع الحصار حول القلعة لقتال سكمان الأبراج، فإن حسن باشا سيفا قد ارتكب خطأ أكثر فداحة عندما لم يبادر إلى اغتنام الفرصة وشن هجوم من داخل القلعة باتجاه الثغرة التي تركها خروج المعنيين من مواقع الحصار، ليقيم جسراً بينه وبين قواته المتمركزة في الأبراج وفي طرابلس القديمة.

- المفاوضات: بعد هذه المعركة، مرّ الوضع القتالي على جبهتي القلعة والأبراج في فترة ركود سمحت بإجراء مفاوضات بين الجانبين لم تسفر عن أية نتيجة، خصوصاً ان مدفعية ابن سيفا المتمركزة في القلعة أطلقت قذائفها على مقر قيادة فخر الدين فأصابته بثلاث قذائف دون أية خسارة في الأرواح، مما أعاد الوضع إلى التأزم والمجابهة الحامية.

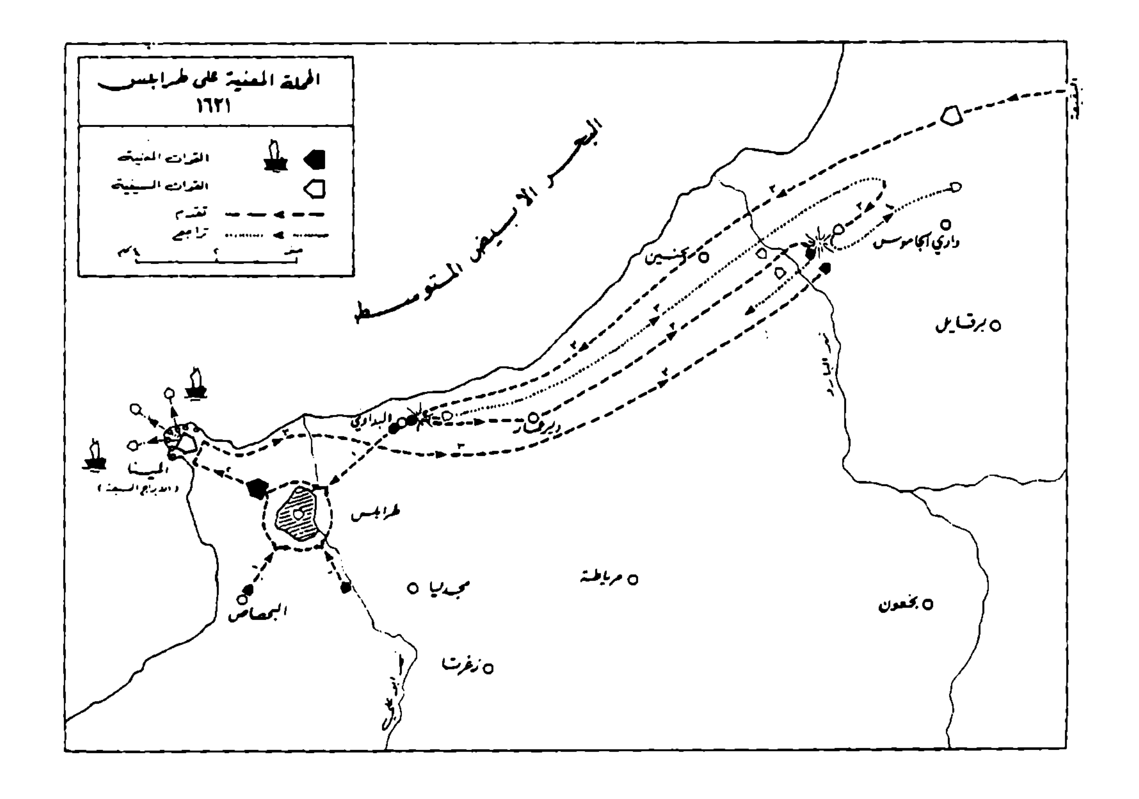
في هذه الأثناء كان ابن سيفا بدوره يتوسط لدى الباب العالي كي يفرض على فخر الدين رفع الحصار عن القلعة لقاء دفعه الأموال المترتبة عليه.

- القتال في البداوي ونهر البارد: وفي أثناء الحصار والمفاوضات، كان ابن سيفا يعدّ للقتال عدته، فجمع جنداً من السكمان والتركمان والعربان ومن رجال البلاد في قرية البقيعة، ولما لم تسفر المفاوضات عن نتيجة بادر إلى شن هجوم على قوات فخر الدين عند بركة (البداوي) شمال طرابلس. وانطلق جنود الأمير لنجدة رفاقهم في البداوي دون أي تنظيم أو خطة (فكل من طلع بحاله من غير تأهب ولا معقودية، فمن أجل ذلك حصلت لهم البلية)(٢٧)، وناور ارسلان بك قائد قوات ابن سيفا ببراعة وذكاء، إذ تظاهر أمام العسكر المعني بالهزيمة فتراجع نحو نهر البارد حتى اجتازه شمالاً، والعسكر المعني يجري في أثره، وما ان اجتاز المعنيون نهر البارد حتى أطبقت عليهم كمائن السيفيين من كل صوب، وانقض عليهم ارسلان بك بقواته فهزمهم وشتتهم وقتل منهم نحو أربعين رجلاً، كما خسر هو خمسة عشر رجلاً. وكالمرة السابقة، انطلق فخر الدين بمن معه من الجند ليدرأ الخطر المحيق برجاله عند نهر البارد، فالتقى بعسكره المنهزم في الطريق، ولكنه تابع تقدمه لملاقاة السيفيين وقتالهم، إلا أن هؤلاء كانوا قد تخلوا عن اللحاق بفلول جيشه، فعاد أدراجه إلى طرابلس(٢٨).

- **تدخل الباب العالي للصلح وفك الحصار عن المدينة والقلعة:** ولما رأى الباب العالي أن حصار الأمير للقلعة قد طال دون جدوى، وأن المعركة بين المعني والسيفي ربما تستمر طويلاً دون نتيجة، ولما كان الهدف الذي ابتغاه الباب العالي من حملة ابن معن على ابن سيفا هو تحصيل أموال الدولة، وبما أن ابن سيفا قد تعهد، عند استغاثته بالباب العالي، بدفع ما يترتب عليه، فقد أوفدت السلطنة قوة بحرية لفك الحصار عن المدينة والقلعة، قوامها خمسة أغربة بقيادة مصطفى آغا، وقد حمل القائد البحري معه أوامر إلى فخر الدين بفك الحصار عن المدينة والقلعة وخلعة سنية إليه تقديراً لجهوده في سبيل تنفيذ أوامر الدولة العلية، وما ان استقرت الأغربة الخمسة في أسكلة طرابلس حتى فر الغليونان اللذان كانا يؤمّنان الحصار البحري، بمن فيهما، إلى الشاطئ، خوفاً من الأغربة العثمانية، وما ان تلقى الأمير «الخلعة الشريفة» و«الأحكام المنيفة» التي «تمنعه من المطالبة بالمال وتأمره بالرجوع إلى بلاده» حتى امتثل لذلك، وجمع جيشه وعدة حربه، وترك طرابلس متوجهاً إلى بيروت «نهار الخميس سابع عشر ذي القعدة الحرام من السنة المذكورة»[٢٩] وقد دامت هذه الحملة نحو ثلاثة أشهر[٣٠].

- **حملة البلاد الشمالية (١٦٢٤ - ١٦٢٥):**

تلقى الأمير فخر الدين في العام ١٦٢٤ «أحكام سلطانية فرمان عالي شان خط هميون» بأن يكون والياً على «ديرة عربستان من حد حلب إلى حد القدس» وان يرث لقب جده فخر الدين المعني الأول «سلطان البر»، وقد طلب منه في هذا الفرمان إدارة هذه المقاطعات كلها بحيث «تؤدي ميرتهم إلى الخزينة العامرة وسلوك طرقاتهم وانتظام عمارهم»[٣١]، فجهز الأمير، لتنفيذ أوامر السلطنة، جيشاً مؤلفاً من أربعة عشر ألف رجل: تسعة آلاف من السكمان،


الحملة المعنية على طرابلس
١٦٢١
القوات المعنية
القوات السيفية
تقدم
تراجع
البحر الأبيض المتوسط
طرابلس
الميناء
البداوي
دير عمار
وادي الجاموس
برقايل
مرياطة
مجدليا
زغرتا
بخعون

وخمسة آلاف من أبناء البلاد، وتوجه بهذا الجيش نحو البلاد الشمالية، من بيروت إلى نهر ابراهيم فالبترون فعكار، وما ان وصل إليها حتى أرسل إلى ابن سيفا يطالبه بالميرة المتوجبة عليه (٥٠ ألف غرش) فأداها ابن سيفا فوراً، وتابع الأمير حملته ينشر أوامر الدولة في كل بلد يصل إليه، ويتلقى من أهلها والمسؤولين عنها «خدمة الدولة والأمير»، وهكذا كان في جبلة وأرض الشغر والعمق وبيلان وحلب وحماه وانطاكية (حيث عمّر قلعة في كل من حلب وانطاكية كما مرّ معنا)، ثم أرسل مأمورين من قبله يجمعون الميرة من بلاد الجبة والضنية والزاوية ووادي خالد وحسية وعبارة وعكار والحصن والمرقب وصافيتا(٣٢) وجبل الأكراد والأتقية (اللاذقية)(٣٣).

وفي هذا العام، توفي يوسف باشا سيفا، حاكم طرابلس، والخصم اللدود للأمير المعني، فاستلم حكم طرابلس خلفاً له ابنه الأمير قاسم الذي أقام في طرابلس نفسها، وسلم حصن الأكراد لأخيه الأمير محمود وعكار لأخيه الأمير بلك. ولكن موت ابن سيفا الأب كان الإشارة الأولى لسقوط حكم هذه العائلة في طرابلس، إذ ان أحداً من أبنائه لم يكن بمنزلة أبيه قوة شكيمة وقدرة على إدارة البلاد، فما ان حانت أول فرصة للانقضاض على طرابلس حتى اغتنمها الأمير، وقد حانت تلك الفرصة بسرعة، إذ انه في العام ١٦٢٥ احتل الأمير قاسم بن سيفا قلعة المرقب، واستنجد مصطفى باشا اسكندر والي طرابلس من قبل الدولة بالأمير فخر الدين لردع ابن سيفا، فانطلق الأمير بجيشه إلى طرابلس فدخلها واستباحها لمدة أربعين يوماً، ثم تحول لقتال أولاد سيفا في قلعتي الحصن والمرقب وفي عكار فاسترضوه بأن سلموه القلعتين المذكورتين، ومنع عنهم مصطفى باشا والي طرابلس(٣٤)، ولكن الهدنة بين الأمير وأولاد سيفا لم تدم طويلاً، إذ انضم هؤلاء، في العام ١٦٣٤، إلى والي دمشق الكجك أحمد لمحاربة الأمير المعني حرباً انتهت بسقوطه(٣٥).

٢ - معارك الأمير ضد القبائل العربية في فلسطين:

ظلت الحرب سجالاً بين فخر الدين وأمراء العرب في فلسطين طوال مدة حكمه تقريباً، فقد كان الأمير يطمح لضم فلسطين إلى إمارته، وكان يتنازع سنجقياتها أمراء منها. فسنجقية عجلون يتنازعها أخَوان من آل قانصوه: الأمير حمدان حليف الأمير فخر الدين، والأمير بشير حليف خصمه الأمير أحمد بن طربيه صاحب غزة واللجون، كما كان يتنازع سنجقيات حوران والجولان أمراء عرب المفارجة وعلى رأسهم الشيخ عمرو وابنه الشيخ حسين، حليفا الأمير، وعرب السردية وعلى رأسهم الشيخ رشيد حليف الأميرين طربيه وبشير قانصوه خصمي الأمير [٣٦].

وكان أهم خصومه، من بين هؤلاء جميعاً: منصور بن الفريخ حاكم نابلس وصفد وعجلون، وقد قضى الأمير عليه بمؤامرة عام ١٥٩٣، والأمير أحمد بن طربيه أمير اللجون، ومحمد بن فروخ أمير نابلس، والأمير بشير قانصوه وأولاده أمراء عجلون، وكانت أهم معاركه معهم ما بين عامي ١٦٢٣ و١٦٢٤ وكان الأمير في معظم هذه المعارك منهزماً.

حملة عام ١٦٢٣ : - معركة «فارا»: (شوال ١٠٣٢هـ - آب ١٦٢٣):

- **أسبابها**: تسلم الأمير في هذا العام فرماناً سلطانياً بإسناد سنجقية عجلون لابنه الأمير حسين وسنجقية نابلس لمدبره مصطفى، فقرّر ارسال حملة إلى فلسطين لانتزاع هاتين السنجقيتين من الأمير بشير قانصوه أمير عجلون ومحمد بن فروخ أمير نابلس.

التعبئة:

قوات الأمير: - رجال وادي التيم بقيادة الأمير علي الشهابي.

- سكمان صفد ورجال جبل عامل بقيادة طويل حسين بلوكباشي.

المهمة: حشد القوى والتحرك نحو فلسطين واحتلال عجلون.

مكان الالتئام: جسر المجامع.

القوات المناوئة: قوات الأمير بشير قانصوه وقوات (شيطان ابراهيم بلوكباشي) متسلم محمد بن فروخ في نابلس.

- **الاستعداد للقتال:** توجهت قوات الأمير، بعد أن تم احتشادها عند جسر المجامع، إلى عجلون، فدخلتها بلا قتال، وانتقل الأمير بشير قانصوه إلى «جرش» ومنها إلى «نابلس» حيث تحالف مع متسلم ابن فروخ فيها فحشدا قواتهما بقرية «فارا» بجبل عجلون استعداداً لقتال قوات الأمير.

في هذه الأثناء علم الأمير علي الشهابي وطويل حسين بلوكباشي بحشود حاكمي عجلون ونابلس للقتال، فقررا منازلتهما في «فارا» نفسها، وتوجها بقواتهما إليها، فوصلا إلى ضواحي القرية عند المغيب.

- **القتال:** نشب القتال بين الفريقين عند المساء واستمر حتى هبوط الظلام، وفصل الليل بين المتقاتلين بعد أن انهزمت قوات أميري نابلس وعجلون، فانسحبت من قرية فارا متخلية عنها للمهاجمين الذين أحرقوها في الصباح كما أحرقوا قريتي «خربة» و«حلاوة»، وهذه القرى هي أهم قرى «عجلون» وأقواها. وأفيد الأمير بانتصار قواته في معركة «فارا» فأمر قائدي قواته بتركيز حامية في مدينة «عجلون» والعودة بالجيش إلى جسر المجامع[٢٧].

- معركة «نهر العوجا»: (ذو القعدة ١٠٣٢هـ - أيلول ١٦٢٣م):

باع مصطفى باشا والي الشام سنجقية صفد للأمير يونس الحرفوش أمير البقاع، كما أعاد سنجقية عجلون للأمير بشير قانصوه، مما أثار الأمير، فقرر القيام بحملة على هاتين السنجقيتين لاحتلالهما.

- التعبئة:

قوات الأمير: - فرقة السكمان، بقيادته.

- رجال الشيخ حسين بن عمرو والأمير أحمد بن قانصوه والشيخ أحمد الكناني، التقوا به عند جسر المجامع.

- قوات الأمير على الشهابي وطويل حسين بلوكباشي المحتشدة عند جسد المجامع.

المهمة: احتلال سنجقي صفد وعجلون.

مكان الالتئام: جسر المجامع.

القوات المناوئة: قوات الأمير أحمد بن طربيه أمير اللجون وقوات الأمير بشير قانصوه أمير عجلون.

- **الاستعداد للقتال:** عين الأمير مدبره الحاج كيوان، حاكماً على البقاع وجهزه برجال من الجرد والمتن، وتوجه هو بقواته المحتشدة بقيادته من «قب الياس» إلى جسر القرعون، فمرجعيون، فالملاحة، فالمنية، فجسر المجامع، حيث التقى بقوات الأمير علي الشهابي وطويل حسين بلوكباشي، ثم برجال الأمراء والمشايخ العرب من حلفائه.

وفي مكان الالتئام، وزّع الأمير قواته على الشكل التالي وحسب المهمات الآتية:

- نصوح بلوكباشي، مع فرقة، لاحتلال برج حيفا.

- كيوان آغا، سوباشي عكا، مع فرقة، لاحتلال قرى الكرمل.

- مدبره مصطفى مع عشرة بلوكباشية، لاحتلال مدينة نابلس.

- الأمير نفسه، مع فرقته من السكمان، للتمركز بجنين (وكانت نحو ٢٨٠٠ جندي). ولما علم الأميران أحمد بن طربيه وبشير قانصوه بحملة الأمير

هذه على بلادهما، رحلا إلى منطقة «نهر العوجا» على حدود غزة، كما رحل معظم أهالي قرى بلاد صفد التابعة لابن طربيه عن قراهم، عندها أجاز الأمير فخر الدين الأمير علياً الشهابي بالعودة إلى بلاده مع رجاله، كما أرسل مشاة السكمان الذين كانوا معه بجنين إلى صفد ليتمركزوا بها اتقاء لأي هجوم يمكن أن يشنه «مصطفى باشا» والي الشام و«كورد حمزة» بلوكباشي اللذان حشداً جندهما خارج دمشق، أما الأمير علي بن فخر الدين فقد بقي، بناء لأوامر والده، ببيروت، مع جنده من رجال الشوف والغرب.

وظل الأمير فخر الدين في جنين عدة أيام تزودت خلالها قواته وقوات الشيخ حسين بن عمرو من بلاد جنين، بالزاد والمؤونة، وبعدها قرّر اللحاق بالأميرين طربيه وقانصوه إلى نهر العوجا لمنازلتهما، فأبقى طويل حسين بلوكباشي مع مشاته بجنين، وانطلق هو بألف وخمسماية خيّال، ومعه الشيخ حسين بن عمرو إلى حيث يعسكر الأميران العربيان.

- القتال:

المرحلة الأولى - الهجوم المعني:

- شن الأمير هجوماً مفاجئاً بخيالته على معسكري الأميرين ابن طربيه وابن قانصوه، فداهم قواتهما على حين غرة وهي غير مستعدة للقتال، فهزم الأميران، وغنم الأمير فخر الدين كل ما في المعسكرين من متاع ومال ومواش.

المرحلة الثانية - الهجوم الردي:

- قامت قوات الأميرين بهجوم ردي على قوات الأمير التي كانت قد انشغلت بالاستيلاء على متاع المعسكرين ومواشيهما، وكادت ان توقع بها الهزيمة لولا يقظة الشيخ حسين بن عمرو الذي صد هذا الهجوم بعشرين من خيالته.

المرحلة الثالثة - التراجع التكتيكي لقوات الأميرين:

- تراجعت قوات الأميرين ابن طربيه وابن قانصوه أمام خيالة الشيخ حسين، تراجعاً تكتيكياً، فأظهرت أمامها الهزيمة «مضمار فرس» موهمة إياها بأن انسحابها هو انسحاب المنهزمين.

المرحلة الرابعة - الهجوم العام وهزيمة الأمير المعني:

- ما كادت قوات الشيخ حسين حليف الأمير المعني تطمئن إلى اندحار قوات العدو أمامها، حتى فوجئت بهذه القوات تعود فترتد عليها بهجوم عام وعنيف، فتندحر هي بدورها وترتد حتى تتداخل في صفوف خيالة السكمان، وقد تبعتها خيالة العدو مطاردة إياها، حتى وصلت إلى بيارق السكمان الذين ما أن رأوا هزيمة خيالة الشيخ حسين حتى ألووا أعنة خيولهم «وميّلوا بيارقهم» وولوا هاربين، تاركين خلفهم نحو أربعين قتيلاً.

المرحلة الخامسة - المطاردة:

- هُزمت قوات الأمير المعني ولم يبق معه سوى نحو ثلاثين خيالاً وبيرقاً واحداً لم ينكسر فاحتفظ به، وظلت قوات الأميرين ابن طربيه وابن قانصوه تطارد قوات الأمير المنكفئة حتى «خان جلجوليه»، حتى أن خيالة العدو كانت تسبق خيالة الأمير المنهزمة «مضمار فرس»، وقد تمكنت قوات الأميرين من استعادة جميع متاعها ومالها ومواشيها.

- عند «خان جلجوليه» حاولت بعض قوات الأمير المنكفئة ان توقف مطاردة العدو لها، فأطلقت عليه بعض الطلقات النارية، فكف «عرب السوالمة وعرب حارثة» عن المطاردة، بينما استمر الخيالة الآخرون في مطاردتهم لقوات الأمير، ولم تتوقف المطاردة نهائياً إلا عند غروب الشمس وعند قرية «شويكة»، حيث عاد خيالة الأميرين أدراجهما.

- في هذه الأثناء كان الأمير فخر الدين يجري بفرسه خلف خيالته يحاول ضبط صفوفهم ويحثهم على المقاومة ويشجع المتخلفين والمتباطئين منهم.

- تابعت قوات الأمير انسحابها نحو جنين مشتتة ومرهقة، وظلت تسير طوال الليل حتى وصلت في الصباح إلى «وادي عارة»، واستغل المسلحون من قرى نابلس تقهقر القوات المعنية المنهزمة فأخذوا يهاجمونها ويفتكون بالمتعبين منها والمتخلفين حتى أتوا على عدد لا يستهان به من رجالها، فتضعضع القوم ولم يعد بإمكان القادة ان يسيطروا على من تبقى من رجالهم، بعد أن دب الوهم واليأس بأفرادهم، واستمر الحال على هذا المنوال حتى وصلت القوات المنهزمة إلى جنين، ولولا ثبات الأمير ورباطة جأشه لما تمكنت البقية الباقية من هذه القوات أن تصل إلى جنين بسلام.

- وفي هذه الأثناء، هاجم الأمير علي بن طربيه برج حيفا بفرقة من الخيالة، فقضى على حاميته وقتل نصوح بلوكباشي، واحتل البرج والبلدة، وأخذ الأمير أحمد بن طربيه يغير بعد ذلك على القرى التابعة للأمير المعني فيحرقها ويأخذ طرشها وغلالها.

- الرحيل عن فلسطين:

- أما الأمير فخر الدين، فقد أرسل إلى مدبره مصطفى المتمركز بنابلس، وإلى سكمانه المتمركزين بعجلون، يأمرهم بأن يتخلوا جميعهم عن نابلس وعجلون، بحيث لا يبقى في تلك الديار أحد من رجاله، وعيّن «جسر المجامع» مكان التئام لهم جميعاً، ثم سار هو بقواته من جنين إلى «خان عيون التجار» حيث أجاز الشيخ حسين بن عمرو أن يذهب برجاله إلى بلاده بحوران، ثم تابع سيره بعد أن أنضم إليه من كان بجسر المجامع من السكمان، ولما وصل إلى المنية أرسل إلى حامية صفد من السكمان يأمرها بملاقاته إلى «بركة الملاحة»[٣٨]. وهكذا التأم شمل الجيش المعني الذي كان متمركزاً في أنحاء

متفرقة من فلسطين، في عكا وحيفا ونابلس وصفد وجنين، ليعود إلى بلاده مشتتاً منهزماً، حيث يعيد الأمير تنظيم صفوفه، ويحاول بعد فترة وجيزة، احتلال فلسطين من جديد.

- حملة عام ١٦٢٤: من أول شعبان ١٠٣٣هـ (أول حزيران ١٦٢٤) إلى أول رمضان ١٠٣٣هـ (أول تموز ١٦٢٤م):

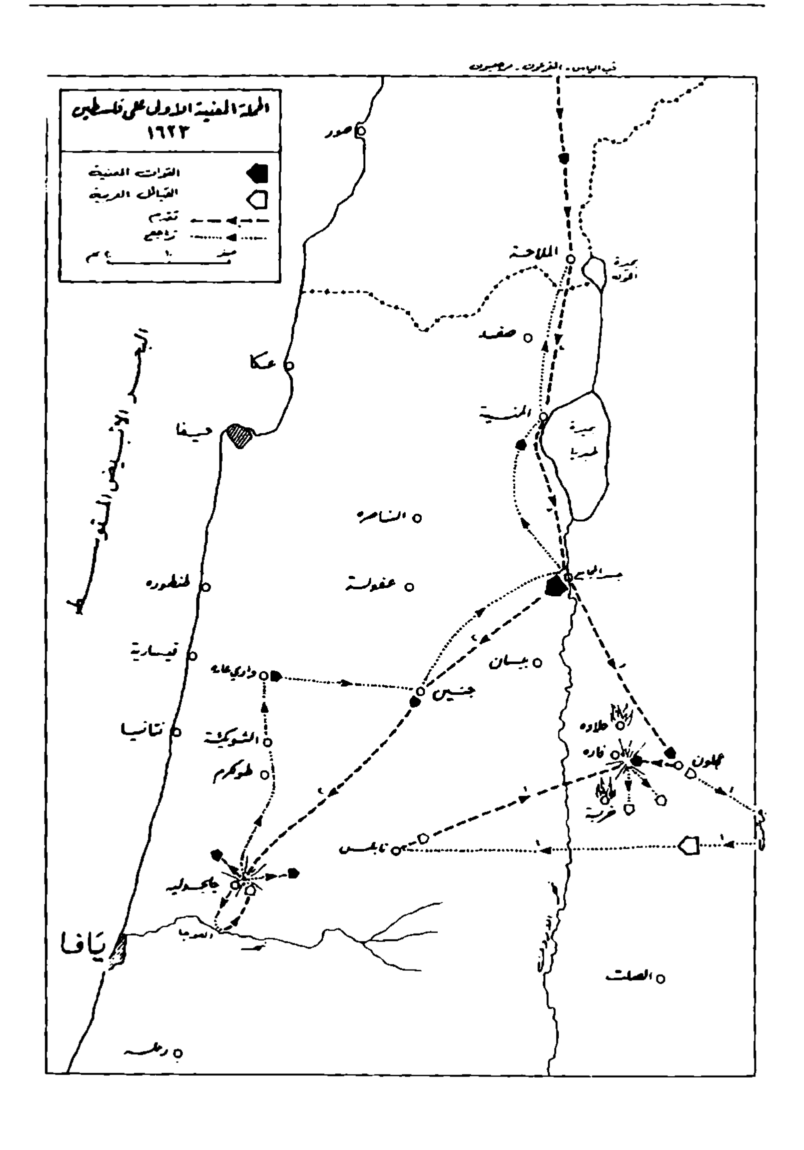
- **أسبابها:** قرّر الأمير فخر الدين أن يعيد الكرة فيحمل على عجلون ونابلس من فلسطين لاحتلالهما وإعادة هيبة جيشه الذي هزم فيهما في العام المنصرم، خصوصاً أن انتصاره في عنجر ونيله لقب «سلطان البر» و«أمير عربستان» قد أعطياه زخماً جديداً، وأعاد إلى قواته معنوياتها التي كانت قد انهارت بعد هزيمتها في معركة «نهر العوجا»، وكان قد اجتمع لديه في «مرج عدوس» عدد من بلوكباشيته، فأخذ يعد العدة للانتقال بجيشه إلى فلسطين.

- **الانتقال إلى فلسطين:** وفي الرابع من شعبان (١٠٢٣هـ - أول حزيران ١٦٢٤م) رحل الأمير بجيشه من «مرج عدوس» إلى «الكرك» بالبقاع، ومنها إلى «جسر قبر العباس»، فمرج الشميسة، بطرف وادي التيم، فمرجعيون، حيث انضم إليه الأمير علي الشهابي برجاله، وانتقلا معاً إلى «بركة الملاحة» بسنجق صفد.

- **الاستعداد للقتال وتوزيع المهمات:** وفي «بركة الملاحة» وزع الأمير على جيشه مؤونة وذخيرة تكفي لأربعة أيام، ثم قسمه إلى قسمين:

(أ) اللواء الأول: ويتألف من خيالة السكمان وخيالة العرب بقيادة الأمير أحمد الشهابي يعاونه ابن أخيه الأمير محمد بن علي الشهابي، على أن ينضم إليهما الشيخ حسين بن عمرو من الجولان.

المهمة: احتلال سنجق عجلون.


الحملة المعنية الاولى على فلسطين
١٦٢٣
القوات المعنية
القبائل العربية
تقدم
تراجع
صور
الملاحة
بحيرة الحولة
صفد
عكا
حيفا
المنية
بحيرة طبريا
الناصرة
البحر الأبيض المتوسط
الطنطورة
عفولة
جسر المجامع
قيسارية
بيسان
وادي عارة
جنين
نتانيا
الشويكة
طولكرم
عجلون
نابلس
جلجولية
العوجا
يافا
الأردن
الصلت
رملة

(ب) **اللواء الثاني:** ويتألف من مشاة السكمان ومشاة العرب بقيادة الأمير علي بن فخر الدين، على أن ينضم إليه الشيخ أحمد الكناني برجاله.

المهمة: احتلال سنجق نابلس.

مركز الأمير القائد العام: مع اللواء الأول.

- **السير للقتال:**

(أ) **اللواء الأول:** انتقل اللواء الأول من «بركة الملاحة» إلى «جسر بنات يعقوب» حيث انضم إليه الشيخ حسين بن عمرو برجاله كما هو متفق، وكان في مقدمة اللواء خيالة الشيخ حسين التي ما إن وصلت إلى بلدة «سحرية» من بلاد عجلون حتى اصطدمت بطلائع قوات الشيخ رشيد الحياري والأمير بشير قانصوه حكام عجلون، وكانت هذه الطلائع مؤلفة من عشرين خيالاً بإمرة الشيخ رشيد نفسه، فدارت بين الفريقين معركة قصيرة انتهت بهزيمة الشيخ رشيد وخيالته، وما أن علم الأمير بشير وبقية الجيش بتقدم قوات الأمير المعني نحوهم حتى انهزموا من بلاد عجلون تاركين البلاد كلها له.

أما الأمير فأبقى في مدينة عجلون حامية بقيادة طويل حسين بلوكباشي مع خمسة بلوكباشية، ثم انتقل إلى قلعة «الصلت» في أطراف عجلون وأبقى فيها حامية بقيادة والي حسين بلوكباشي، وأرسل إلى نابلس حامية من عنده بقيادة عبدالله بلوكباشي، ووضع عليها متسلماً من قبل مدبره مصطفى، وكتب إلى ابنه الأمير علي يأمره بأن يرحل بجميع المشاة ويلاقيه إلى «الفاطور» بغور بيسان.

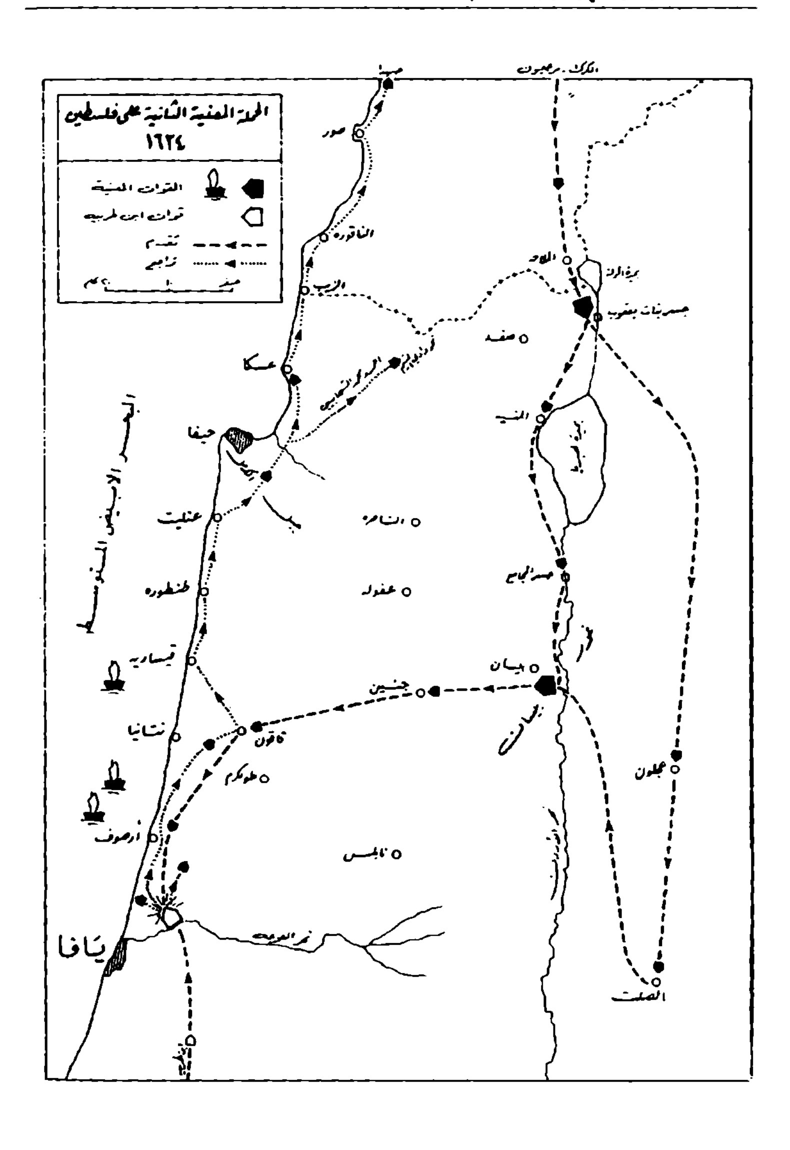
(ب) **اللواء الثاني:** انتقل اللواء الثاني من «بركة الملاحة» إلى «المنية» ومنها إلى «جسر المجامع»، حيث انضم إليه الشيخ أحمد الكناني برجاله كما هو متفق، وانتظر الأمير علي هناك لتلقي أوامر جديدة من والده، فوصلته الأوامر

بأن ينتقل بقواته إلى «الفاطور»، وهناك التقى بوالده حيث كان وصل إليها «بجميع عسكره» فالتأم اللواءان استعداداً للمرحلة القادمة من القتال.

- **التئام الجيش، واحتلال بلاد عجلون ونابلس:** ومن «الفاطور» انتقل الجيش بكامله إلى جنين، حيث جاء جميع مشايخ نابلس وبلاد حارثة وزعمائها يقدمون الخضوع والطاعة للأمير، وفي هذه الأثناء رحل محمد بن فروخ وتوابعه وانكشارية نابلس وشيطان ابراهيم بلوكباشي متسلمها من قبل ابن فروخ، رحلوا جميعهم عن المدينة إلى جهة القدس والرملة، كما رحل الأمير أحمد بن طربيه أمير بلاد حارثة عن بلاده إلى جهة الرملة ونزل عند عرب السوالمة حلفائه، وهكذا احتل الأمير بلاد عجلون ونابلس بلا قتال تقريباً.

متابعة التقدّم في فلسطين: وانتقل الأمير بجيشه من «جنين» بعد أن أبقى فيها حامية مؤلفة من بلوكباشي وثلاثين نفراً، واتجه صوب «اللجون» ومنها إلى «قاقون»، ومنها إلى عين «أم الملق» بغابة قاقون، حيث عسكر الأمير لكي يزود جيشه بالماء والمؤن.

وفي هذه الأثناء، حاول الأمير أحمد بن طربيه أن يفاوض الأمير طلباً للصلح، فكتب إلى ابنه الأمير علي وإلى الأمير أحمد الشهابي والأمير محمد بن علي الشهابي ومصطفى مدبر الأمير، يطلب منهم التوسط لدى الأمير للصلح «ورفع الحرب والعداوة»، إلا أن الأمير أصر على أن يأتي إليه ابن طربيه صاغراً بلا شروط، الأمر الذي رفضه هذا الأخير، فتابع الأمير تقدمه في بلاد ابن طربيه، ورحل من «أم الملق» إلى «مزار سيدي علي بن عليل» ثم إلى مدينة «أرسوف الخراب»، حيث أبقى في برجها حامية مؤلفة من بلوكباشي وعدة أنفار، وتابع سيره حتى وصل إلى ضفاف «نهر العوجا» فنزل بعسكره على فم النهر.


الحملة المعنية الثانية على فلسطين
١٦٢٤
القوات المعنية
قوات ابن طربيه
تقدم
تراجع
صيدا
صور
الناقورة
الزيب
عكا
حيفا
عتليت
طنطوره
قيسارية
نتانيا
قاقون
طولكرم
أرصوف
يافا
نابلس
جنين
بيسان
الناصرة
عفولة
صفد
جسر بنات يعقوب
جسر المجامع
عجلون
السلط
البحر الابيض المتوسط

- معركة نهر العوجا (أو معركة يافا)[٣٩]

المرحلة الأولى - المناوشات:

عسكر الأمير فخر الدين على الضفة الشمالية للنهر، بينما كان الأمير أحمد بن طربيه معسكراً على ضفته الجنوبية باتجاه يافا، وكانت طلائع قوات ابن طربيه تتجول بشكل مستمر باتجاه الشمال لتستطلع قوات الأمير المعني، وذات يوم طلعت قوة من خيالة ابن طربيه بقيادة أخيه الأمير محمد لتستكشف الضفة الشمالية للنهر ولتستعلم عن معسكر الأمير، فاصطدمت بطلائع من جيش الأمير كانت قد اجتازت النهر نحو الجنوب بحثاً عن مراعي لخيلها، فجرت بين الفريقين مناوشات انتهت بأن جرّت الجيشين إلى خوض المعركة الحاسمة.

المرحلة الثانية - هجوم ميسرة القوات المعنية على ميمنة قوات ابن طربيه - التراجع التكتيكي لقوات ابن طربيه:

أمر فخر الدين قادته (الأمير علي ابنه والأميرين أحمد ومحمد الشهابيين) باجتياز النهر مع خيالتهم للاستطلاع وفصم القتال (Rupture du combat) والعودة بالمقاتلين إلى معسكرهم، لأنه لم يكن قد قرّر بعد خوض المعركة، فانصرف القادة الثلاثة مع رجالهم «إلاية واحدة» أي «لواء واحداً» لتنفيذ الأوامر، وتبعهم من المشاة نحو مايتين، إلا انهم، بدلاً من أن يفصموا القتال ويسحبوا مقاتليهم إلى ما وراء النهر، وجدوا رغبة في الاستمرار بالقتال، خصوصاً أن قوات ابن طربيه أخذت تتراجع أمام قوات الأمير تراجعاً تكتيكياً لم يكتشفه قادة الأمير الذين تقدموا إلى ميدان القتال بالترتيب التالي:

- الأمير علي، مع خيالته، في الميمنة.
- الأميران أحمد ومحمد، مع خيالتهما، في الميسرة.

وشنّ الأميران أحمد ومحمد الشهابيان هجوماً بخيالتهما من الميسرة على ميمنة قوات ابن طربيه، فتراجعت هذه الأخيرة تراجعاً تكتيكياً موهمة المهاجمين انها تندحر أمامهم، وتوغل المهاجمون في صفوف الأعداء حتى كادوا يصلون إلى «معقودية» جيشهم، (أي احتياطيه).

المرحلة الثالثة - الهجوم الردي لقوات ابن طربيه - هزيمة القوات المعنية:

انطلقت قوات الاحتياط في جيش ابن طربيه «خيل المعقودية» بهجوم ردي كاسح على طليعة اللواء المعني، ثم التفت على خيالة الأميرين أحمد ومحمد الشهابيين التي كانت قد توغلت في صفوف العدو، فصعقت هؤلاء المفاجأة وألووا أعنة خيلهم هاربين، وكان بالميسرة «بيرقان للسكمان وبيرق الأمير أحمد الشهابي» فتراجعت البيارق متقهقرة وتضعضع اللواء المعني بكامله، فانهزم، وظل الأمير علي ثابتاً مع عشرة من خيالته، وسار في مؤخرة الصفوف محاولاً ضبط هذه الصفوف ما أمكن.

المرحلة الرابعة - المطاردة، ووقف المطاردة:

عندما رأى الأمير علي أن لا مناص من الهزيمة وأن القوات العدوة تطارد فلول قواته لتوقع بها أكبر عدد ممكن من الخسائر، قرّر التصدي للمطاردين لإيقافهم ولحماية مؤخرته، فارتقى تلاً من الرمل مع من بقي معه من المشاة والخيالة، وتبعه الأميران أحمد ومحمد الشهابيان بمايتي خيال، وتمركز رماة البنادق على التل وأخذوا يصدون بنارهم القوات المطاردة، حتى تمكنوا من إيقافها وصد القوات المهاجمة التي انكفأت بعد أن غنمت خيل القتلى من المعنيين الذين بلغوا عشرين قتيلاً من المشاة والخيالة معاً.

المرحلة الخامسة - عودة قوات ابن طربيه للهجوم - وهزيمة جديدة للقوات المعنية:

في هذه الأثناء، وصل الأمير فخر الدين إلى التل حيث يوجد القادة الثلاثة، وأمر ابنه علياً أن يجمع الجند للقتال من جديد، إلا أن علياً لم يتمكن من ذلك نظراً للفوضى التي دبت في الصفوف، مما حمل كثيراً من الجند على عدم الإذعان لأوامر الأمير علي ورفض العودة للقتال، واغتنم الأمير أحمد بن طربيه فرصة الانكسار هذه فشن على التل، حيث يوجد الأمير وقادته، هجوماً صاعقاً جعل المعني ورجاله ينهزمون من على التل «وركضت عليهم الفرسان ولحقوا العسكر وصاروا يطرحون الخيال من جانب رفيقه فلا يلتفت إليه»[٤٠]، وظل الأمير فخر الدين ثابتاً مع قلة من رجاله (نحو خمسين خيالاً) تجمعوا حوله يصدون القوات المهاجمة عنه، بينما كان يضبط مؤخرة جيشه ما أمكن، حتى وصل الجميع إلى معسكرهم في الضفة الشمالية للنهر، وقد وصلوا إليه أفواجاً منهزمة تلو أفواج لا تلوي على شيء، وكانت خسارة المعنيين في هذه المعركة نحو «ماية وخمسين» ما بين خيال وراجل، وغالب الرجالة «ما قتلهم إلا الخيالة لأنهم دهكوهم تحت سنابك الخيل»[٤١]، أما خسارة ابن طربيه فكانت نحو عشرة من الخيالة فقط بينهم أحد أقاربه المعتبرين الأمير عرار.

المرحلة السادسة - انسحاب الجيش المعني - ترتيب الانسحاب:

اجتازت قوات ابن طربيه وحليفه محمد بن فروخ نهر العوجا وتمركزت على الضفة الشمالية للنهر مقابل معسكر الجيش المعني، وذلك مساء يوم القتال نفسه، أما الجيش المعني فقد بات ليلته في المعسكر، ولم يجر بين الفريقين أي قتال، وعند الفجر بدأ الجيش المعني انسحابه نحو الشمال بالترتيب التالي:

- **في الطليعة:** فرقة رجال البلاد المؤلفة من الأمير علي بن فخر الدين ورجاله والأميرين أحمد ومحمد الشهابيين ورجالهما، بقيادة الأمير علي.

- **في القلب:** فرقة السكمان، خيالة ومشاة، بقيادة الأمير فخر الدين.

- **في الساقة:** أو المؤخرة، الأمير فخر الدين وقيادته، وكان خط السير كما يلي:

- **للمقاتلين:** تلال الرمل المطلة على البحر والمسماة «بحيطان الشباك» نظراً لارتفاعها عن شاطئ البحر ولاتصال بعضها بالبعض الآخر، كالحائط، ولكثرة ما فيها من نبات «السريس» الذي يغطي المقاتلين.

- **للأثقال:** شاطئ البحر غرب تلال الرمل بحيث تصبح الأثقال تحت حماية الجيش مباشرة.

المرحلة السابعة - الهجوم على الجيش المعني - القتال التراجعي:

ما أن بدأ الجيش المعني بالانسحاب وفقاً للترتيب المذكور، حتى تعرض لهجوم شنته عليه قوات ابن طربيه وابن فروخ وعرب العايد وعرب غزة وسواهم، خيالة ومشاة، وعديدهم نحو إلفي رجل، وقد انقسم المهاجمون إلى فرقتين: انقضت الأولى على فرقة الطليعة التي كانت بقيادة الأمير علي، وانقضت الثانية على فرقة القلب ومؤخرة الجيش التي كانت بقيادة الأمير فخر الدين، إلا أن الجيش المعني ردّ الهجمات المعادية التي تحولت إلى نوع من مناوشات الإزعاج للجناح الأيمن للجيش.

- **تكتيك الأمير فخر الدين في القتال التراجعي:** عندها رأى الأمير أن يعتمد، في قتاله التراجعي، التكتيك التالي:

(أ) مناورة النار والحركة أو ما يسمونها «خطوات الأوزة».

(Manœuvre par le feu et le mouvement ou «Pattes d'oie»)

وهي أن تتمركز «فرقة الطليعة» على التلال المتقدمة بحيث تحمي باقي الجيش بنارها، بينما تتقدم الفرقة الأخرى «فرقة القلب والساقة» وتتجاوز فرقة الطليعة إلى تلال أخرى، فتتمركز بدورها عليها لتحمي فرقة الطليعة التي تعود بدورها فتتقدم، وهكذا دواليك.

(ب) استعمال الأسطول البحري لحماية الأثقال: كان الأمير قد استخدم غلياطتين فوضع عليهما نحو خمسين مقاتلاً مسلحين بالبنادق، وخمس عشرة شختورة معبأة بالمؤن من طحين وأرز وغير ذلك لإطعام المقاتلين، وكان قد لاحظ، في أثناء انسحابه، ان فرقة من خيالة العدو قد انحرفت لجهة البحر كي تلحق بالأثقال على الشاطئ وتسلبها ما تحمله من أرزاق ومتاع، فأمر أسطوله أن يظل مبحراً على موازاة هذه الأثقال كي يردّ عنها هجمات خيّالة العدو، وما أن أطلقت إحدى الغلياطتين نارها على المهاجمين ورمت واحداً منهم حتى ارتدوا عن الأثقال وانكفأوا إلى الخلف.

وتابع الأمير سيره على هذه الشكل، يقاتل قتالاً تراجعياً، وأحياناً كانت بعض وحداته تنزل عن التلال لتقوم بهجوم على القوات العدوة المطاردة ثم تعود إلى مراكزها، وحاولت فرقة من قوات العدو أن تتجاوز قوات الأمير إلى «برج ارسوف» لتحتله وتقطع عليها الطريق إلا أنها فوجئت بالحامية التي كان الأمير قد أبقاها بالبرج، فعادت أدراجها، وظل الأمير على هذه الحال، قواته تنسحب مدافعة وقوات ابن طربيه وابن فروخ وحلفائهما من العرب تطاردها دون أن تتمكن من النيل منها، حتى وصلت قوات الأمير إلى «برج أرسوف» فتمركزت حوله بينما تمركزت قوات العدو عند مزار «سيدي علي بن عليل» قبالة عسكر الأمير.

وبعد فترة قصيرة استراح خلالها جيش الأمير المعني من عناء المسير، رفع أثقاله وتابع سيره نحو الشمال، فنهد إليه العدو من جديد يحاول إعاقة مسيره بالقتال، فعيّن الأمير عشرة بيارق مع خمسماية مقاتل من المشاة

ليقوموا بهجوم على المطاردين، وجرى قتال قصير بين الفريقين انتهى بهزيمة العدو وردّه على أعقابه «مقدار رمية سهم» وتوقف القتال وتوقفت المطاردة، وتابع جيش الأمير انسحابه على مهل دون أية عوائق.

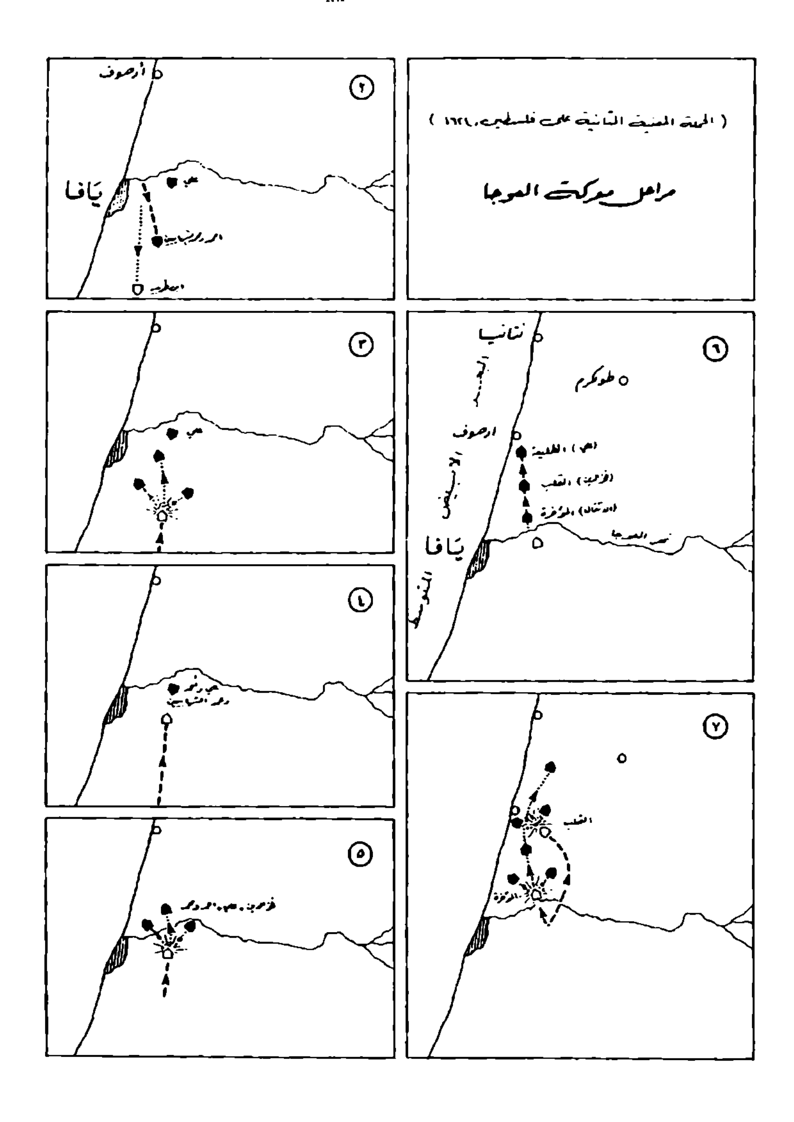
المرحلة الثامنة - متابعة الانسحاب الهادئ من فلسطين:

وبعد أن توقف القتال نهائياً، تابع الأمير المعني انسحابه الهادئ حتى وصل، عند الغروب، إلى عين «أم العلق»، فاستراح ساعة من الزمن وتابع انسحابه حتى وصل في الهزيع الأول من الليل إلى نهر «قاقون» حيث قضى الليل هناك، وفي الصباح تابع سيره إلى مدينة «قيسارية» فوصلها عند الظهر حيث بات ليلته فيها، ثم انتقل منها في صباح اليوم التالي إلى مدينة «عتليت الخراب»، واجتاز بعدها سفح جبل الكرمل حتى وصل إلى «نهر السعادة»، حيث نزل لمدة ثلاثة أيام أجاز خلالها للأميرين الشهابيين بالانصراف إلى بلادهما مع رجالهما، وبقي هو مع ابنه الأمير علي، وكان ذلك في أواخر شهر شعبان (أواخر حزيران ١٦٢٤). وفي مستهل رمضان (مستهل تموز ١٦٢٤) ارتحل عن نهر السعادة ووصل إلى طواحين كردانة على ساحل عكا حيث أقام يومين (وفي هذه الأثناء وصله نبأ استسلام حامية جنين لقوات ابن طربيه)، ثم انتقل إلى عكا ومنها إلى الناقورة فصور فصيدا حيث وصلها فجر الأحد في السابع من رمضان (تموز)[٤٢].

نتائج الحملة:

كانت نتائج هزيمة الأمير في هذه الحملة ان عقد بينه وبين الأمير أحمد بن طربيه اتفاقاً تمّ بموجبه ما يلي:

(أ) يسحب الأمير فخر الدين حاميته من برج حيفا ويسلمه للأمير ابن طربيه (وكان ابن طربيه قد احتل جنين كما تخلت حامية الأمير المعني عن عجلون).


مراحل معركة العوجا
يافا
أرصوف
طولكرم
يافا

(ب) يتوقف الأمير ابن طربيه عن مهاجمة بلاد صفد التابعة للأمير المعني ويمنع رجاله من التخريب في هذه البلاد (وكان الأمير المذكور قد أطلق عربانه على بلاد صفد المتاخمة لحدوده يعيثون فيها فساداً وتخريباً).

(ج) تحل جميع الخلافات بينهما فيما بعد بالتفاهم والتصافي.

وقد هدم ابن طربيه برج حيفا بعد خروج حامية الأمير منه، وأصبحت الطرق بين بلاد حارثة وصفد، بعد هذا الاتفاق، آمنة دون أي خوف(٤٣).

لمحة عن الأوضاع العسكرية عند القبائل العربية في العهد المعني:

(أ) **أسلحة القتال عند العرب:** لم يكن لدى العرب من الأسلحة سوى الرماح والسيوف ومطارق الحديد والفؤوس، ولم يكن لديهم مسدسات ولا بنادق أو مدافع، بل كانوا ينفرون من الأسلحة النارية «ولا يستطيعون أن يفهموا أن بإمكانها أن تقتل الرجال دون لمسهم»(٤٤).

(ب) **المقاتلون عند العرب:** كان المقاتلون في كل قبيلة من القبائل العربية هم أبناؤها والتابعون لها والداخلون في حماها، ويعتبر مقاتلاً كل من بلغ سن حمل السلاح وركوب الخيل وضرب الجريد، وهؤلاء المقاتلون هم «خيالون ممتازون عادة، ولا يهاجمون أبداً إلا إذا تأكدوا من النصر، لذا فهم دائماً أسياد المعركة... يمكن هزيمتهم أحياناً ولكن لا يمكن أبداً افناؤهم»(٤٥).

وكان عددهم وافراً لدى كل أمير، فقد كان لدى الأمير طربيه مثلاً (عام ١٦٦٤) عدد من المقاتلين يراوح بين ٤ و٥ آلاف، وهم من أبناء القبائل العربية التابعة له، ويضاف إلى هؤلاء «جنود آخرون مرتزقة من المسيحيين والمغاربة الذين يسكنون قرى الكرمل ويعملون بزراعة الأرض وقطف الثمار، ويسمون رعايا الأمير أو أتباعه»(٤٦)، وهذا العدد من المقاتلين ليس بقليل لدى أمير تمتد سلطته على أربعين فرسخاً من الأرض (في أرض السامرية، وفي الجليل

المنخفض، على الساحل، ما بين حيفا ويافا) ومقابل دخل سنوي يراوح بين الـ١٠٠ ألف والـ١٥٠ ألف أقجة، يدفع منها نحو السدس ضريبة للسلطنة(٤٧).

(ج) **طريقة الحرب عند العرب:** لم يكن هؤلاء العرب يعرفون أشكال القتال المتبعة في الدفاع والهجوم، كإقامة المتاريس والتقدم والمهاجمة وفقاً لخطة تكتيكية معينة أو بترتيب عسكري محدد، وإنما كانت طريقتهم في القتال هي طريقة «الكر والفر» مع ما يمكن أن يدخل عليها من تعديل وفقاً لمبادهة الأمير وقادته، كما رأينا في حملتي ١٦٢٣ و١٦٢٤، وكانوا يجيدون القتال من على ظهور الخيل، فكان أحدهم يقاتل باليد اليمنى ويقبض على أعنة جواده باليد اليسرى، وكانوا يستخدمون الرمح بمهارة فائقة، فإذا سقط الرمح أرضاً يلتقطه الخيال دون أن يخلع الركابة من قدمه، كما أن أحدهم كان يقتني عصا تنتهي بملاقة يتناول بواسطتها الرمح إذا سقط من يده، وكانوا ماهرين باتقاء نبال العدو ورماحه والزوغان منها، حتى انهم كانوا يستعملون الخيل دريئة يتقون بواسطتها سهام الأعداء(٤٨)، وكانوا ماهرين بنصب خيامهم في المعسكرات ثم اقتلاعها بصورة سريعة تدعو إلى الذهول والإعجاب، وكانوا يعسكرون على قمم التلال بحيث يمكنهم التنبه، ومن بعيد، لأية غارة يمكن أن تشن عليهم من أي اتجاه، فلا يفاجأون(٤٩).

وكانوا في قتالهم يحملون البيارق والأعلام، ويقرعون الطبول وينفخون في الأبواق طلباً لتجمع الرجال أو رغبة بتفريقهم، أو إيذاناً ببدء هجوم أو تحذيراً من هجوم عدو، وكان لكل قبيلة علمها وبيارقها، وكان للأمير علم خاص به(٥٠).

٣ - معارك الأمير ضد الحرفوشيين:

منذ أن تسلم فخر الدين حكم إمارة الشوف عام ١٥٩٠ وعلاقاته مع الحرفوشيين حكام البقاع وبعلبك تراوح بين التحالف والتخاصم، فقد قضى

عام ١٥٩١ على الأمير علي بن موسى الحرفوش حاكم بعلبك الذي كان خصماً له، ونصّب مكانه ابنه الأمير موسى الذي شايعه خوفاً منه، كما قضى على الأمير منصور بن الفريخ أمير البقاع عام ١٥٩٢، ثم صاهر الحرفوشيين وسلمهم حكم البقاع[٥١].

وظل التحالف وطيداً بين الأمير يونس الحرفوش أمير البقاع وبين الأمير فخر الدين أمير الشوف حتى عام ١٦١٣، حيث تخلى الأمير الحرفوشي عن الأمير المعني عندما تبين له أن العثمانيين جادون في حربهم للأمير المعني، وذلك إبان حملتهم عليه عام ١٦١٣، إذ ساهم الأمير الحرفوشي في قتال ابن معن إلى جانب والي الشام حافظ باشا حول قلعة الشقيف، ثم عاد فحالف والي الشام مصطفى باشا ضد الأمير فخر الدين في معركة عنجر عام ١٦٢٣، وقد دفع ابن حرفوش غالياً ثمن خصومته للأمير، وذلك في الكرك وسرعين عام ١٦٢٢، قبل معركة عنجر، وفي بعلبك واللبوة عام ١٦٢٣ بعد معركة عنجر مباشرة.

- وقعة الكرك وسرعين (١٦٢٢):

كان مصطفى باشا والي الشام قد بدأ استعداداته لمهاجمة الأمير المعني، فعبأ جيشه وطلب من حلفائه السيفيين والحرفوشيين مناصرته، فساروا إليه برجالهم. وقرّر الأمير المعني مواجهة الوالي، واختار «عنجر» مكاناً لهذه المواجهة، ثم انتقل من «بركة الملاحة» بفلسطين، إلى ساحة القتال، مروراً بالبقاع، وكان قد علم بانحياز الأمير يونس الحرفوش إلى جانب الوالي، خصوصاً أن خلافاً كان قد وقع بين الأميرين بسبب منع ابن حرفوش رعايا الأمير من الزراعة في البقاع، ومصادرته لأراضيهم وإقطاعاتهم فيها[٥٢]، وكان ابن حرفوش قد وضع في قرية «كرك نوح» بالبقاع حامية مؤلفة من ماية

مقاتل مزودين بالبنادق، فجرّد فخر الدين، في أثناء مروره بالبقاع، حملة على الكرك مؤلفة من ألفي خيّال اقتحموا القرية وحصروا حاميتها في مزار النبي نوح، وقتلوا منها عدداً يراوح بين ثلاثين وأربعين رجلاً، ولجأ الباقون إلى مئذنة المزار، فأمنهم الأمير على حياتهم وأخذهم أسرى، وعددهم ٥٧ رجلاً، ولم يقتل من جند الأمير سوى خمسة رجال، ثم أمر بإحراق القرية كلها، «حتى لم يبقوا بيتاً واحداً بلا حريق»، وانتقل بعدها إلى سرعين «التي كانت قديماً مسكناً لبيت حرفوش» فأحرقها كذلك، كما أحرق القرى المجاورة للقريتين المذكورتين، ولجأ من بقي من رجال آل حرفوش بالبقاع إلى مدينة بعلبك وقلعتها(٥٣).

حصار قلعة بعلبك (كانون الأول ١٦٢٣ - نيسان ١٦٢٤):

توجّه الأمير بعد انتصاره في عنجر (أول تشرين الثاني ١٦٢٣) إلى بعلبك لقتال ابن حرفوش الذي فرّ إليها بعد هزيمته مع حليفه الوالي، ففرّ ابن حرفوش إلى حلب تاركاً في كل من قلعتي بعلبك واللبوة حامية قوية من سكمانه، وأمر فخر الدين جيشه من السكمان بضرب حصار منيع حول القلعة، وبدأ الحصار في الرابع والعشرين من شهر صفر ١٠٣٣هـ (كانون أول ١٦٢٣م) ولما رأى الأمير من جنده تكاسلاً وإهمالاً في تنفيذ الحصار «نصب خيمته في الخندق الذي بجانب السور من الجانب القبلي ليقطع دابر العدو ويقمعه»، وعندها دبّ الحماس في نفوس الجند والقادة «فطلع كل منهم بخيمة ونصبها... وشرع في عمل المتاريس والمحاصرة»(٥٤). وقد اتبع الأمير في حصاره للقلعة الأسلوب التالي:

(أ) ركّز قوات حول القلعة بشكل لا يسمح لأي رجل بالخروج منها في الليل أو النهار.

(ب) أقام جداراً يحجب بواسطته جنده عن أنظار العدو، كي يتمكنوا من الحفر والنقب وإنشاء الخنادق والدروب الموصلة إلى داخل القلعة، وهذا الجدار مؤلف من صناديق كان الجند يصنعونها من الألواح ثم يملأونها تراباً ويرصفونها فوق بعضها كالحجارة.

(ج) اتخذ هذا الجدار الترابي دريئة لجنده الذين بدأوا يحفرون الخنادق والدروب، وكلما حفروا شبراً من الأرض غطوه بخشب الحور كي يردوا عنهم حجارة المحاصرين و«بندقهم» الذي ينصب عليهم من أعلى الجدران في القلعة.

(د) كلما انتهى الجند من عمل متراس على هذا الشكل انتقلوا إلى عمل متراس آخر باتجاه القلعة، واستمروا على هذا المنوال حتى وصلوا إلى حائط القلعة من الجانب الغربي.

(هـ) عندما وصل الجند بخنادقهم إلى حائط القلعة، عيّن الأمير معلمين أخذوا ينقبون الجدران بأزاميلهم ليل نهار دون أن يثنيهم عن ذلك تساقط الحجارة والبندق عليهم باستمرار، إلا أن الدريئة التي كانوا يضعونها فوق الدروب والخنادق كانت ترد عنهم ضربات المحاصرين، «وجميع هذه الأفعال من عمل المتاريس والدروب وصفّ الخشب باشره الأمير فخر الدين بنفسه، وكان مقيماً عندهم بالليل والنهار، بحيث أن غداه وعشاه يروح إليه إلى المتاريس، ولا يفارقهم مقدار شبر من الأشبار، وكان يقتل بجانبه بالرصاص من القلعة الرجل والرجلان ولا يرجع عن المتاريس»[٥٥].

(و) منع الأمير بحصاره هذا عن المحاصرين أية امدادات سواء بالرجال أو المؤن أو العتاد، ولم يبق عندهم شيء يؤكل «سوى حبة القمح والملح»، فصاروا «يجرشون الحنطة بالجواريش ويخبزونها على زبل الخيل ويقتاتون بها بالليل والنهار»[٥٦]. كذلك منع عنهم الحطب، وقطع كل الأشجار

المحيطة بالقلعة كي لا يتمكن المحاصرون من التسلل إليها وقطعها والتدفؤ بنارها، وكان الطقس بارداً إلى درجة الصقيع.

(ز) كان الأمير، في الوقت نفسه، يفاوض المحاصرين طالباً إليهم الاستسلام مقنعاً إياهم بعدم جدوى الصمود في وجه حصار لن يفك، ومؤمّناً إياهم على حياتهم.

وفي السادس من جمادى الثاني ١٠٣٣هـ (أول نيسان ١٦٢٤) نزل بعض السكمان من المحاصرين ليفاوضوا الأمير فأحسن معاملتهم وطمأنهم على حياتهم إن هم استسلموا، فعادوا إلى داخل القلعة مطمئنين، وفي الثامن من الشهر نفسه فتح المحاصرون باب القلعة وخرجوا منها مستسلمين فتلقاهم الأمير وحماهم من أي أذى وأدخلهم في خدمته، وقد دام حصار فخر الدين لقلعة بعلبك نحو أربعة أشهر فقد خلالها من رجاله نحو أربعين جميعهم من السكمان والمعلمين، ثم أمر بهدم القلعة فشرع بذلك جميع من كان عنده من المعلمين والقلاعين، وعددهم نحو ماية وخمسين[٥٧].

حصار اللبوة:

كان الأمير، في أثناء حصاره لقلعة بعلبك، قد أرسل إلى حامية اللبوة يطلب منها الاستسلام فأبت قائلة «نحن توابع الذين في بعلبك فإذا سلموا سلمنا»[٥٨]، عندها أخذ يشدّد الحصار على قلعة بعلبك حتى سقطت، فانتقل بعدها الى اللبوة لمحاصرتها، وكان عنده من السكمان نحو أربعة آلاف وخمسماية مقاتل بالإضافة إلى ثمانين قائداً (بلوكباشياً)[٥٩]، وما أن بدأ حصار اللبوة وتأكّد الأميران علي وحسين إبنا الأمير يونس الحرفوش من إصرار الأمير على احتلالها، ومن عدم جدوى المقاومة والصمود في وجهه، حتى جاءا يفاوضانه على الصلح ورفع الحصار لقاء مبلغ من المال، فرضي الأمير بذلك ورفع الحصار عن اللبوة[٦٠].

حواشي الفصل الرابع

(١) استناداً إلى شهادة قنصل البندقية في حلب ذلك الحين (قرألي، فخر الدين ودولة توسكانة، ج ٢: ٩٧).

(٢) م. ن. ص. ١٠٢، والشدياق، أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ : ٢٢٩، والمعلوف، تاريخ فخر الدين، ص. ٦٧ - ٦٩، والدبس، تاريخ سوريا، ج ٧ : ١٦٦، والدويهي، تاريخ الأزمنة، ص. ٢٩١، والشهابي، تاريخه (الغرر الحسان) ج ١ : ٧١٤ - ٧١٥. وتاريخ شيبان الغازن، الحلبي والخازن، الأصول التاريخية ج ٢ : ٢٥٤ - ٢٥٥. والممر الذي جرت فيه المعركة هو ممر نهر الكلب المعروف حيث نقشت الصخرة الأثرية، وهذا الممر كان منذ القدم ولا يزال مفتاح بيروت للقادم من الشمال، ومفتاح كسروان للقادم من الجنوب ويتعذر علينا إعطاء تفاصيل أكثر عن هذه المعركة وسواها من بعض المعارك كما سنرى، نظراً لافتقار المراجع جميعها إلى ذلك.

(٣) قرألي، م. ن. ج ٢ : ١٠٢، والشدياق، م. ن. ج ١ : ٢٣٩، والمعلوف، م. ن. ص ٧٦، والدبس، م. ن. ج ٧ : ١٦٦، والدويهي، م. ن. ص ٢٩٧، والشهابي، م. ن. ج ١ : ٦٢٤ (طبعة مصر) وتاريخ شيبان الخازن، الحلبي، والخازن، م. ن. ج ٢ : ٢٥٥.

(٤) قرألي، م. ن. ج ٢ : ١٦٠.

(٥) م. ن. ص. ١٦١ والمقصود بالدروز رجال الأمير المعني.

(٦) المحبي، خلاصة الأثر، ج ١ : ١٣٧، وانظر أيضاً: قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ١٠٣، والمعلوف، المرجع السابق، ص. ٨٠ - ٨٣، و Sandys, Relation, p. 211.

(٧) المحبي، المصدر السابق، ج ١ : ١٣٧، والمعلوف، م. ن. ص. ٨٢.

(٨) المعلوف، م. ن. ص. ن.

(٩) م. ن. ص. ٨٤ - ٨٥، والمحبي، المصدر السابق، ج ١ : ١٣٨، وقرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ١٠٢ - ١٠٤، والبوريني، تراجم الأعيان، ج ١ : ٢٢٨ - ٢٣١، و Sandys, op. cit. p. 211.

(١٠) البوريني، م. ن. ج ١ : ٢٣١، والمحبي، م. ن. ج ١ : ١٣٨، والمعلوف م. ن. صفحة ٨٥.

(١١) وفي نسخة أخرى «بلاد كسروان وبيروت» (الخالدي، تاريخ فخر الدين ص. ٥١ حاشية ٥).

(١٢) م. ن. ص. ٥٢.

(١٢) وفي نسخـــة أخرى «مسكوا مسكاً باليـــد لم ينجُ منهم واحد» (م. ن. ص. ٥٢ حاشية ٤).

(١٤) الشدياق، المرجع السابق، ج ١ : ٢٥٢.

(١٥) الخالدي، المصدر السابق، ص. ٥٢.

(١٦) م. ن. ص. ٧٠.

(١٧) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ١٠٧.

(١٨) الخالدي، المصدر السابق، ص. ٧٣ - ٧٤، والشدياق، المصدر السابق، ج ١ : ٢٥٧ - ٢٥٨.

(١٩) الخالدي، م. ن. ص. ٧٤، والشدياق، م. ن. ج ١ : ٢٥٨.

(٢٠) الخالدي، م. ن. صفحة ٧٤ - ٧٦، والشدياق، م. ن. ص. ن.

(٢١) هذه الشروط هي أن يدفع مبلغ ٣٠٠ ألف غرش (٢٥ ألف غرش وفاء لدين و١٢٥ ألف غرش ثمن المواشي التي ضبطها للأمير أثناء غيابه، وثم محصول بلاد غزير وبيروت لمدة ٨ شهور، والباقي لوالي طرابلس عوض ما ضبطه من أموال مقاطعات طرابلس) وقد دفعها ابن سيفا كلها (الشدياق، م. ن. ج ١ : ٢٥٩).

(٢٢) الخالدي، المصدر السابق ص. ٧٦ - ٧٧ والشدياق، المصدر السابق، ج ١ : ٢٥٨ - ٢٦٠، والمعلوف، المرجع السابق، ص. ١٧٢ - ١٧٨. وقد وفى فخر الدين بالوعد الذي قطعه على نفسه يوم عودته من توسكانة، إذ هدم قصور السيفيين في عكار ونقلها بحراً إلى بيروت ومنها إلى دير القمر، حيث أعاد بحجارتها بناء قصور المعنيين التي سبق أن هدمها السيفيون. (المعلوف، دواني القطوف، ص. ١٨٨).

(٢٣) الخالدي، المصدر السابق، ص. ٧٧.

(٢٤) م. ن. ص. ٧٩.

(٢٥) م. ن. ص. ٨٠.

(٢٦) م. ن. ص. ٩٨.

(٢٧) م. ن. ص. ١٠٣ والمعقودية من الجند هو احتياط الجيش. (الشهابي، المصدر السابق ج ١ : ٧٠٧ طبعة مصر)، أو هي الجماعة من العسكر المعدة خلف الجيش لتجدته عند الحاجة (محيط المحيط ج ٢ : ١٤٣٨).

(٢٨) بخلاف المرة السابقة، يلفت الخالدي إلى أنه «لم يتحرك من المتاريس أحد من السكمانية المحاصرين للقلعة» أي أن جند الأمير المحاصرين للقلعة لم يتركوا مواقعهم كما حصل في المرة الأولى (الخالدي، م. ن. ص. ١٠٣).

(٢٩) م. ن. ص. ١٠٤.

(٣٠) م. ن. ص. ٩٨ - ١٠٤. والشدياق، المصدر السابق ج ١ : ٢٦٣ - ٢٦٥، والدبس، تاريخ سوريا ج ٧ : ١٧٦. والشهابي، تاريخه، ج ١ : ٦٧٠ - ٦٧٢. والجدير بالذكر أن فخر الدين طلب من ابن سيفا، بالإضافة إلى تسديد أموال الدولة، بيعه أملاك الأمير محمد بن عساف في كسروان وغزير وبيروت، والتي كان ابن سيفا قد استولى عليها بعد قتله لابن عساف وزواجه من أرملته، وقد وافق ابن سيفا على هذا الطلب، (الشهابي، م. ن.ص.ن. طبعة مصر).

(٣١) الخالدي، م. ن. ص. ٢٤٢.

(٣٢) كان الأمير سليمان بن سيفا متحصناً في حصن صافيتا ومعه نحو أربعماية رجل، فلما علم بقدوم الأمير سرح رجاله وفرّ إلى سلمية ملتجئاً إلى الأمير مدلج البدوي (الدويهي، تاريخ الأزمنة، ص. ٢٢١).

(٣٣) ثم بعلبك وقب الياس وبانياس إلخ... الخالدي، المصدر السابق، ص. ٢٤٣.

(٣٤) الشدياق، المصدر السابق، ج ١ : ٢٠٧ - ٣٠٨، وقرألي، المرجع السابق، ج٢ : ١٣٠ و١٦٢، والشهابي، المصدر السابق، ج ١ : ٧١٤ - ٧١٥ (طبعة مصر) ويذكر الدويهي أن الهجوم على طرابلس حصل بعد وفاة ابن سيفا بسبعة أشهر، (الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، ص. ٢٠٠).

(٣٥) الخالدي، المصدر السابق، ص. ٢٤٢ - ٢٤٣، والشدياق، م. ن. ج ١ : ٢٨٧ - ٢٨٨ و٣٠٧ - ٣٠٨ والدويهي، تاريخ الأزمنة، ص. ٣٢١.

(٣٦) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ١٢٦، وقد جرت بين الأمير فخر الدين وبين فروخ بك صاحب عجلون وعرب السردية عام ١٦١٣، معركة انتهت بانتصار الأمير وتوغل ابنه الأمير علي في فلسطين حتى عين جالوت وبلاد البلقاء ونهر حسيا، إلا أنه عاد عنها بعد أن بلغه نبأ الحملة التي كان يعدها والي الشام على بلاده (الشهابي، المصدر السابق، ص. ٦٢٨ طبعة مصر).

(٣٧) الخالدي، المصدر السابق، ص. ١٢٧ - ١٣٨، والشدياق، المصدر السابق، ج ١ : ٢٧٢.

(٣٨) الخالدي، م. ن. ص. ١٣٩ - ١٤٢ والشدياق، م. ن. ج ١ : ٢٧٣ - ٢٧٤، وكان وصول الأمير إلى بلدة المنية في ١٩ ذي الحجة ١٠٣٢هـ (تشرين أول ١٦٢٣م).

(٣٩) ذكر المحبي أن فخر الدين توجّه إلى فلسطين ثلاث مرات لقتال ابن طربيه «وكان في كل مرة يكسر - أي ابن طربيه - عسكر ابن معن ويدحضه، وأشهر وقماته معه وقعة يافا» (المحبي، خلاصة الأثر، ج ٣ : ٣٢١) وقد ذكرنا حملتي الأمير عام ١٦٢٣ و١٦٢٤م أما حملته الثالثة فكانت عام ١٦٣٢ بقيادة ابنه الأمير علي، وقد نقل الأب قرألي بصددها، عن رسالة موجهة من القنصل دي فراتسانو قنصل توسكانة بصيدا، إلى غراندوق توسكانة ومؤرخة في ٢٣ نيسان ١٦٣٢، ما يلي: «يحارب الآن فخر الدين الأمير قانصوه وأولاد بشير، وهم عربان نازلون جهات عجلون، ويقيم الأمير علي قريباً من صفد لتموين الجيش، وقلّد الأمير يونس، أخو الأمير فخر الدين، قيادة الجيش، وفي أول مصادمة جندل ألفين وخمسماية من العربان فانهزم قوادهم» (قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٣٢٦) ولكن المؤرخين لم يذكروا هذه الحملة إلا في سياق حديثهم عن الحملة العثمانية على الأمير عام ١٦٣٣، وفي إطار محاولة الأمير وقف العون من أمراء عرب فلسطين إلى والي الشام، قبل بدء الحملة العثمانية عليه في ذلك العام.

(٤٠) الخالدي، المصدر السابق، ص. ١٨٨.

(٤١) م. ن. ص. ١٨٩.

(٤٢) م. ن. ص. ١٨٣ - ١٩٥ والشدياق، المصدر السابق، ج ١ : ٢٨٢ - ٢٨٥.

(٤٣) الخالدي، م. ن. ص. ١٩٦ - ١٩٨.

(٤٤) - D'Arvieux, Laurent, Voyage dans la Palestine, p. 96.

(٤٥) - Ibid, p. 96.

(٤٦) - Ibid, p. 108.

(٤٧) - Ibid., pp. 108 - 109 et

- Des Hayes de Courmenin, Voyage, p. 385.

(٤٨) - D'Arvieux, op. cit., p. 188.

(٤٩) - Ibid., p. 174.

(٥٠) أما إذا كان الأمير «أمير سنجق» (Sangiakbieghi) كالأمير طربيه فكان له الحق بأن يحمل علم السلطان وأن يتقدم جنده شمار «التوغ» (toug). (D'Arvieux, Ibid., p. 189)

(٥١) حالف الأمير فخر الدين الأمير يونس الحرفوش ضد ابن عمه الأمير موسى حاكم بعلبك، وصاهره بأن زوج ابنته للأمير أحمد ابن الأمير يونس المذكور (ألوف، تاريخ بعلبك، ص. ٨٧ - ٨٨).

(٥٢) المعلوف، تاريخ فخر الدين، ص. ١٨٣.

(٥٣) الخالدي، المصدر السابق. ص. ١٤٦ - ١٤٧، والشدياق، المصدر السابق، ج ١ : ٢٧٤.

(٥٤) الخالدي م. ن. ص. ١٦٠ - ١٦١، وربما كان سبب تقاعس سكمان الأمير هو أن جند ابن حرفوش الذين كانوا في مواجهتهم كانوا من السكمان أيضاً.

(٥٥) م. ن. ص. ١٦١.

(٥٦) م. ن. ص. ١٧٢.

(٥٧) م. ن. ص. ١٧٢ - ١٧٣.

(٥٨) الشدياق، المصدر السابق: ج ١ : ٢٧٧.

(٥٩) م. ن. ص. ٢٨٠.

(٦٠) م. ن. ص. ٢٨١.

الفصل الخامس

معارك الأمير فخر الدين
- ٢ -
المعارك الدفاعية

معارك الأمير ضد العثمانيين:

قضى الأمير فخر الدين في الحكم ثلاثة وأربعين عاماً، كانت كلها، أو في معظمها، صراعاً مستمراً بينه وبين خصومه، عثمانيين وغير عثمانيين، وكان سبب كل ذلك طموحه في التوسع وحبّه للسيطرة، ورغبته في بناء إمارة قوية مرهوبة الجانب ضمن الدولة العثمانية ذات النفوذ والسطوة في ذلك الحين، وكان صراعه مع الدولة العثمانية أهم هذه الصراعات جميعاً، فقد كان صراعاً قاسياً وشاقاً، لم ينته إلا بانتهاء الأمير نفسه.

ويكفي أن نقف عند ثلاث محطات رئيسية من هذا الصراع هي:

١ - الحملة العثمانية الأولى على الأمير ١٦١٣ - ١٦١٤.

٢ - معركة عنجر عام ١٦٢٣.

٣ - الحملة العثمانية الثانية والأخيرة على الأمير عام ١٦٣٣.

١ - الحملة العثمانية الأولى (١٦١٣ - ١٦١٤):

- **أسبابها**: لهذه الحملة أسباب بعيدة أو غير مباشرة، وأخرى قريبة أو مباشرة، أما الأسباب البعيدة فهي تعاظم طموح فخر الدين إلى درجة أصبح

معها يشكل، بتحالفاته الإقليمية والأوروبية، خطراً على نفوذ الباب العالي في بلاد الشام، فمنذ أن تسلم الإمارة، مدّ فخر الدين جسوراً حميمة بينه وبين علي باشا جنبلاط والي حلب، الخصم اللدود للسلطنة، وخاض إلى جانبه غمار معركة منتصرة ضد يوسف باشا سيفا صاحب طرابلس وسردار الجيش الشامي في عرّاد عام ١٦٠٦، ولحقا بالجيش المنهزم إلى دمشق عاصمة الولاية فدخلاها وأعملا فيها نهباً وتقتيلاً، وما أن سقط والي حلب عام ١٦٠٧ حتى مدّ فخر الدين يده لمحالفة دولة توسكانة، وهي أيضاً من أشد خصوم السلطنة أنذاك، فمدته بالسلاح والعتاد والذخائر والخبراء العسكريين، وأسهمت في تعزيز قواته المسلحة بقصد تشجيعه على الوقوف في وجه الدولة العثمانية، محاولة أن تجد، بواسطته، موطئ قدم لها في بلاد الشام، ومنسقة، في هذا المجال، مع بعض الدول الأوروبية، كإسبانيا، وأحياناً، فرنسا والفاتيكان[١].

وأما الأسباب القريبة فهي انتصاره للشيخ عمرو بن جبر الحياري شيخ عرب المفارجة، وحمدان قانصوه، من أمراء عرب فلسطين، ضد أحكام السلطنة، ففي العام ١٦١٢، طرد حافظ باشا والي الشام الشيخ عمرو من بلاد حوران وسلمها إلى الشيخ رشيد شيخ عرب السردية، كما طرد الأمير حمدان بن قانصوه من عجلون وسلمها إلى فروخ بك (أو الأمير فروخ بن عبدالله)، فلجأ الإثنان إلى الأمير فخر الدين مستنجدين به، ليرد كلاً منهما إلى إمارته، فأنجدهما بابنه الأمير علي على رأس جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل بين خيّال وراجل، وسار الأمير علي بجيشه من بانياس إلى مرج برغوث مجتازاً نهر المدان، فالتقاه عسكر الشام في «المزاريب» أو «المزيريب» عند البجة بأرض حوران، ودارت بين الجيشين معركة انتهت بهزيمة الجيش الشامي، وأخذ الأمير علي «جميع طبول وزمور وبيارق فروخ بك سنجق عجلون ونابلس»[٢]، وكانت وقعة «المزاريب» هذه يوم الجمعة في أول ربيع الثاني عام ١٠٢٢هـ (بدؤه

الخميس ٢١ شباط عام ١٦١٢)، وحاول عسكر الشام أن يلتئم من جديد في بصرى فلحق به الأمير علي بعد أن أنجده والده بعشرة آلاف مقاتل، فانسحب عسكر الشام من بصرى متجنباً القتال، بينما رجع الأمير علي بجيشه ليجتاح بلاد حوران والجولان ويخضعهما لسلطته وسلطة حلفائه من أمراء عرب فلسطين. وبلغت الآستانة أنباء انتصارات الأمير المعني، ومضمونها أن الأمير «تغلب على بلاد حوران والجولان، وإنه محاصرٌ لمدينة دمشق»[٣]، عندها قرّرت الآستانة التخلص منه فجهزت حملة عسكرية للقضاء عليه.

- **تجهيز الحملة:** كلّف الباب العالي الوزير نصوح باشا مهمة تجهيز الحملة العسكرية هذه، فأعد الوزير لذلك جيشاً برياً قوامه ثلاثون ألف رجل بقيادة حافظ باشا الذي عُيّن سرداراً على الجيش، ومعه ١٤ بكلربكياً (أمير لواء) وخمسون سنجقاً، أما أمراء الألوية فأشهرهم: مصطفى باشا دياربكر، وعمر باشا كتانجي بكلربكي أناطولي (الأناضول) وباكير باشا قرمان، ومومن باشا الرها، وطويل أحمد باشا درابزون، وخرّم باشا ملاطيه، وموسى باشا شقيق بكلربكي حلب، وأمير شرف خان وأمير سيد خان، مع جميع سناجق كردستان، وكان مع كل من هؤلاء القادة الباشوات سناجقه وجميع عسكره[٤]. كما أعدّ أسطولاً بحرياً مؤلفاً من ٦٠ سفينة وعددٍ من المراكب المستديرة، وألفي نفر من انكشارية اسطنبول نفسها[٥]، وكانت مهمة هذا الأسطول فرض حصار بحري صارم على بلاد الأمير لمنع وصول أية نجدة إليه عن طريق البحر، وخصوصاً من حلفائه الإيطاليين، وانحاز إلى العثمانيين في هذه الحملة العديد من أمراء المقاطعات الشامية (ومنهم من كان قبل ذلك حليفاً للأمير) مثل: الأمير يونس بن حرفوش حاكم بعلبك والبقاع، والأميرين أحمد وعلي الشهابيين حاكمي وادي التيم، فاجتمع لدى الحافظ في هذا الجيش نحو خمسين ألف مقاتل[٦].

- **مواقع الأمير الدفاعية:** جهّز الأمير لمصادمة الجيش العثماني مواقع دفاعية منيعة كان أهمها قلعتا الشقيف وبانياس، فوضع في الأولى حامية مؤلفة من أربعماية مقاتل من المشاة بقيادة البلوكباشي طويل حسين، يعاونه خمسة بلوكباشين آخرون، ووضع في الثانية ألف مقاتل من المشاة، بقيادة السردار حسين اليازجي يعاونه عشرة بلوكباشيين، وجهّز هذين الموقعين بالرصاص والبارود العازق - المؤونة - ما يكفي العسكرَيْن بهما خمس سنين «كما وضع فيهما أجور المقاتلين من السكمان وقدرها ماية ألف قرش، وسمح لكل مقاتل متأهل أن تعيش عائلته في القلعة معه»[٧].

وكانت أوامره إلى هاتين الحاميتين كما يلي: «إذا قدّر الله ووقعت في أيدي الدولة وقال لكم كبيرهم سلموا لنا القلاع حتى نطلق لكم أميركم، فلا تعتمدوا قوله، واحفظوا قلاعكم وناموسكم... ولا تسلموا قلاعكم»[٨].

- **محاولات الصلح:** وحاول الأمير تفادي القتال ما أمكن، فأرسل إلى حافظ باشا والي دمشق وإلى قاضي دمشق وعلمائها وإلى باشوات الجيش، رسائل يلتمس فيها التفاوض للصلح وتجنب المعركة، وقد حمل هذه الرسائل إلى دمشق وجهاء من صيدا وصفد وبيروت، إلا أن الوالي وهو سردار الجيش المعد للحملة، رفض أي تفاوض أو مصالحة مع الأمير، وكان جوابه على طلب الأمير هو الرفض القاطع ما لم يأت الأمير إلى ديوان الوالي صاغراً، وذلك ما أبى الأمير أن يفعله[٩]، فقرّر مغادرة البلاد تاركاً حكم الإمارة إلى ولده الأمير علي، وقيادة الجيش إلى أخيه الأمير يونس.

- **السير للقتال:** في أول شعبان عام ١٠٢٢هـ[١٠] (١٦١٣م) غادر حافظ باشا دمشق باتجاه المفقر، وكانت المفقر، قرب بلاد بعلبك، نقطة التئام الجيش، ومن المفقر تحرك الجيش بقيادة حافظ باشا نحو بلاد الأمير، على المحور التالي: سعسع - القنيطرة - الحولة - الطيبة - مرجعيون - قلعة

الشقيف، وكان جيشه يزداد في أثناء المسير حتى بلغ، عند وصوله إلى القلعة، نحو خمسين ألف مقاتل، غير أولاد العرب[١١]. وكان أول إجراء اتخذه الوالي عند دخوله بلاد الأمير هو أنه عزل حكام المقاطعات الموالين للأمير المعني عن مقاطعاتهم، وعيّن حكاماً آخرين من جماعته بدلاً عنهم، فعين محمد آغا حاكماً لصيدا، وأعاد مقاطعتي كسروان وبيروت إلى يوسف باشا سيفا، وعيّن الشيخ مظفر العنداري حاكماً لبلاد الغرب والجرد والمتن[١٢]. وعند وصوله إلى جسر الخردلي، جمع كبار قادته لاستعراض الوضع معهم واستشارتهم في أحد أمرين: إما التوجه إلى الشوف، قلب الإمارة المعنية، لاحتلاله وانهاكه، أو التوجه إلى قلعة الشقيف، أحد أهم مواقع المعنيين مناعة وحصانة، لحصارها واسقاطها، فقر رأي المجتمعين على الأمر الثاني، وهو التوجّه إلى قلعة الشقيف لمحاصرتها.

- حصار قلعة الشقيف: سبق أن تحدثنا عن موقع قلعة الشقيف الطبيعي، الحصين والمنيع، والذي يصعب على أي مهاجم أن ينال منه، خصوصاً إذا كانت القلعة مجهزة بالرجال والسلاح والذخيرة والمؤن كما هي الحال في وقت هذا الحصار، إذ كان بإمكان جند فخر الدين أن يعتصموا بالقلعة ويردّوا عنها أي هجوم، وأن يظلوا على هذه الحال شهوراً طويلة دون أن ينالهم أي ضير. وبالإضافة إلى القلعة يوجد مقابلها، وإلى الجنوب، برج يدعى «برج الظاهرية» يقع على مستوى القلعة نفسها، ويتصل بها بمسلك واحد لا يمكن سلوك سواه، وقد تحصّن في هذا البرج «قورط بلوكباشي» مع خمسين من رجاله السكمان، فكانوا ظهيراً لمن تحصن في القلعة من جند الأمير.

بدأ حافظ باشا بمحاصرة برج «الظاهرية» محاولاً الاستيلاء عليه، لكي يتمكن بعد ذلك من محاصرة القلعة والتقدم نحوها بالطريق الوحيد الذي أشرنا إليه، واستمر القتال بينه وبين حامية هذا البرج من الفجر حتى العصر،

دون أن يتمكن منه، وكانت خسائره في هذا القتال كبيرة، إذ بلغ عدد قتلاه نحو ثلاثين جندياً، إلا أن خطأ ارتكبه أحد المدافعين عن البرج أدّى إلى تهدم البرج وسقوطه بيد العثمانيين، ذلك أن أحد السكمان أشعل فتيلاً واقترب خطأ من أحد براميل البارود الموجودة في البرج، فانفجر البرميل وانفجرت معه باقي براميل البارود فيه، مما أدّى إلى تهدم جدرانه ومقتل عدد من حماته، كما قتل نحو سبعين رجلاً من رجال حسين باشا سيفا أحد حلفاء حافظ باشا، وكان هذا قد وصل برجاله إلى حائط البرج محاولاً تسلقه. ورغم الخسارة التي مني بها حافظ باشا في هذه الحادثة، فقد تمكّن من احتلال البرج بعد أن أسر عدداً من المدافعين عنه، وفرّ الباقون نحو القلعة.

وظنّ حافظ باشا أن بامتلاكه برج الظاهرية أصبح احتلال القلعة بمتناول يده، فشرع يقيم المتاريس حولها، ويقطع أشجار الزيتون المحيطة بالقلعة، ويصنع من جذوعها ستارة يجتاز بواسطتها الخندق المحيط بها، ولم تكن حامية القلعة، في هذه الأثناء، تكتفي بالدفاع الثابت بواسطة الرمي بالبنادق والمدافع التي تطلق القذائف والنيران الإصطناعية، ويقوم على استعمالها خَدَمةٌ فرنسيون استأجرهم الأمير قبل سفره، وإنما اعتمدت أسلوب الدفاع المتحرك، فكانت مفارز منها تقوم بالإغارة على مواقع العدو المحاصِر خارج أسوار القلعة، فتفاجئه وتقاتله وتعود إلى القلعة بعد ذلك، كما كانت تقوم بإحراق متاريس الحطب التي يعدّها جيش الحافظ للوصول إلى القلعة، مما اضطره إلى استبدال هذه المتاريس بمتاريس من التراب يملأ به مخالي الدواب. وبعد حصار دام ستين يوماً استعمل المحاصرون خلاله كل أنواع المجانيق والمرادات والطوب (المدافع) دون أن يؤثر ذلك في القلعة وحاميتها(١٣)، تمكنوا من اجتياز الخندق المحيط بالقلعة واستعدوا لتسلق أسوارها(١٤).

وأدرك قائد الحامية البلوكباشي طويل حسين خطورة الموقف، فأرسل يستنجد بالأمير يونس القائد الأعلى للجيش، وكان مقر قيادته بدير القمر، فأنجده الأمير بالبلوكباشي «جلب حسين» مع خمسين مقاتلاً من المتطوعين، ولكن بعض السكمان، جواسيس الحافظ في قيادة الأمير، أرسلوا يبلغون الوالي بتوجّه النجدة إلى القلعة، فأرسل الوالي مفرزة من حلفائه، من رجال ابن سيفا صاحب طرابلس ورجال الأمير يونس الحرفوش أمير البقاع، كي تنصب كميناً لها في الطريق، وفاجأ الكمين جلب حسين وجنده ليلاً عند «العقبة» قرب جسر الخردلي، ودارت بين الفريقين معركة عنيفة انتهت بأن تمكن جلب حسين وجنده من التغلب على الكمين، وانقض بمن معه على متاريس السيفيين حلفاء العثمانيين حول القلعة، وقاتلهم بالسلاح الأبيض حتى تمكن من اجتياز خطوطهم ودخول القلعة، بعد أن غنم ثلاثة من بيارقهم نشرها على سور القلعة صباح اليوم التالي، إنباءً للعثمانيين بانتصاره ودخوله القلعة، وكان قد دخلها بأربعة وثلاثين من مقاتليه الخمسين، بينما أسر اثنان وقتل واحد وعاد الباقون أدراجهم(١٥).

- **الهجوم على الشوف**: ورأى حافظ باشا أن الاستيلاء على القلعة أمرٌ يستحيل بلوغه، فقرّر أن يتحول عنها إلى هدفه الثاني: الشوف، لعله يضغط بهذه الطريقة على خصمه الأمير يونس فيجبره على الاستسلام، عندها أصدر أوامره إلى حلفائه بالتعبئة الكاملة وعيّن لهم نقاط الالتئام كما يلي:

- الأمير حسين باشا سيفا: تعبئة الجند في طرابلس وكسروان وبلاد جبيل.

- مكان الالتئام: الدامور.

- الشيخ مظفر العينداري: تعبئة الجند في بلاد الغرب والجرد والمتن.

- مكان الالتئام: رأس الشوف.

- الأمير أحمد الشهابي، والأمير أحمد بن طرباي، ومحمد آغا حاكم صفد: تعبئة الجند كل في إمارته أو سنجقيته (وادي التيم وعجلون وصفد).

- مكان الالتئام: مع بعض الباشوات والسناجق: نهر الأولي قرب صيدا.

وكانت مهمة هذا الجيش: الوجّه إلى بلاد الشوف لتخريبها وإحراقها، علماً بأن حافظ باشا لم يتخل في هذه الأثناء عن حصاره للقلعة بل احتفظ بالقسم الكبير من جيشه حولها.

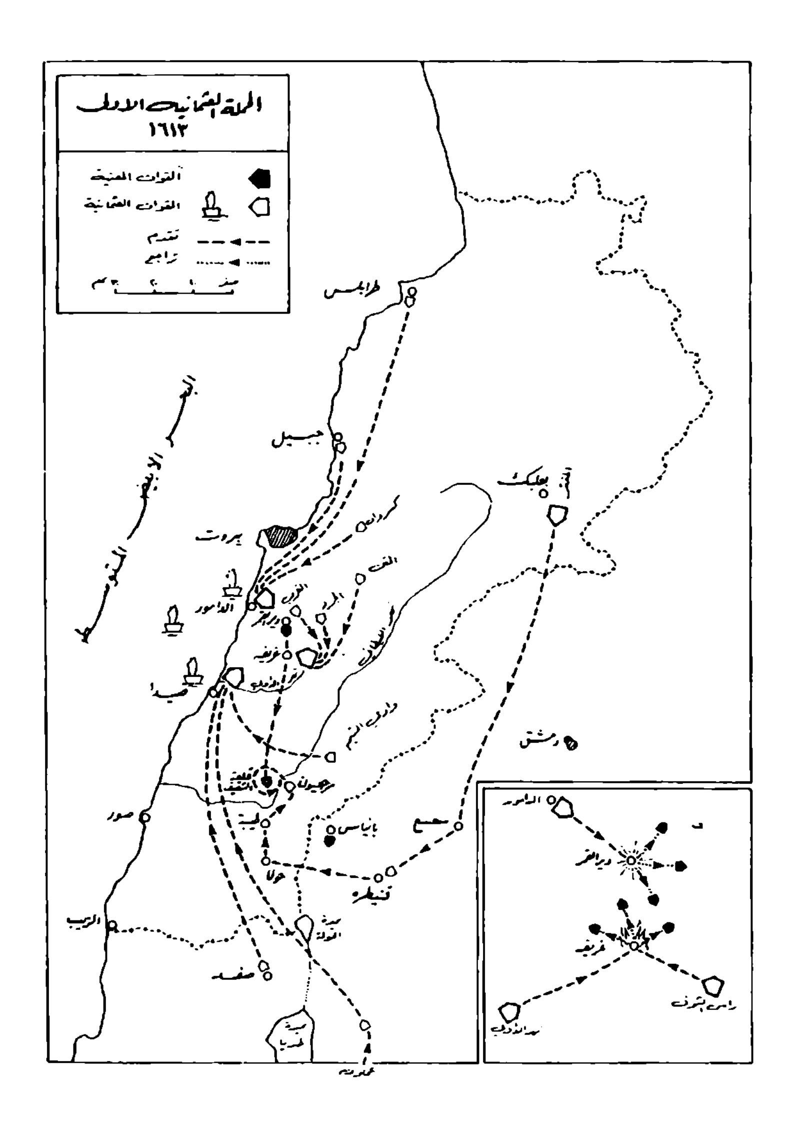
وتوجّه الجيش المعبّأ لتنفيذ المهمة في بلاد الشوف، وكانت «غريفة» أول بلدة وصلتها طلائع هذا الجيش، فأحرقتها، ولكنها لم تتمكن من الانتقال إلى القرى المجاورة نظراً للمقاومة العنيفة التي لاقتها، وكان الذعر قد دبّ في بلاد الشوف بسبب أنباء هذا الهجوم، فتخلى السكمان عن الأمير يونس والتحقوا بحافظ باشا عند قلعة الشقيف، وترك الأمير يونس مقره بدير القمر، وانتقل إلى بعقلين ثم إلى نيحا مع من بقي مخلصاً له من جنده وأتباعه، وتمكن حسين باشا سيفا من الدخول إلى دير القمر فهاجمها وأحرق قصور المعنيين فيها، وكان الشوف على وشك أن يسقط برمته بأيدي المهاجمين عندما اجتمع أعيانه وقرروا درء الخطر عن بلادهم وذلك بإلزام الأمير يونس بالتفاوض مع الوالي ومصالحته[١٦].

- **التفاوض وفك الحصار عن القلعة:** تولت «الست نسب» والدة فخر الدين أمر التفاوض مع حافظ باشا، فقصدته مع بعض أعيان البلاد إلى مقره عند قلعة الشقيف، وتمّ الاتفاق بينهما على رفع الحصار عن القلعة وانسحاب الوالي مع جيوشه من بلاد الأمير، على أن تكتب الأميرة على نفسها صكاً بمبلغ ٣٠٠ ألف قرش (١٥٠ ألف للكفّ عن حريق الشوف، و١٥٠ ألف لإبقاء القلاع ووقف القتال)، وعلى أن تكون هي نفسها رهينة لدى الحافظ مقابل هذا الدين

حتى تسديده، وكان هذا الاتفاق لصالح الوالي إلى حد كبير، إذ كان الشتاء قد أقبل ولم يعد بإمكان جنده أن يتحمل البرد القارس في أثناء الحصار، وهكذا وجد الحافظ في هذا الاتفاق مبرراً للتخلي عن احتلال القلعة، فأمر حلفاءه بأن يعود كل منهم برجاله إلى بلاده، ثم جمع جيشه ورحل عائداً إلى دمشق مصطحباً معه رهينته «الست نسب»(١٧).

استئناف القتال (١٦١٤):

- **تعبئة القوات الشامية:** تأخر الأمير يونس في دفع الأموال التي رتبتها عليه اتفاقية الصلح مع حافظ باشا، فأعلن هذا الأخير التعبئة من جديد استعداداً للعودة إلى القتال، وكان ذلك في شهر شعبان عام ١٠٢٣هـ (بدؤه الثلاثاء ١١ شباط عام ١٦١٤م) وكانت «المفقر» أيضاً هي مكان تجمّع جيش الوالي فحضر إليها مع جند الشام كله، ومع عدد من قادة هذا الجيش (عمر باشا وطويل أحمد باشا ومومن باشا)، ومكث الحافظ في المفقر خمسة عشر يوماً انتقل بعدها إلى المزة فخان الديماس فجسر دير زنون بالبقاع، ثم إلى قب الياس حيث مكث عشرين يوماً دعا إليه خلالها جميع حلفائه، فحضروا إليه بكامل تعبئتهم (حسن باشا حاكم صفد وصيدا وبيروت، ومحمد باشا حاكم غزة، وفروخ بك أمير الحج، والأمير أحمد بن طرباي أمير اللجون، وحسين الأعوج حاكم حماه، والأمير يونس الحرفوش حاكم بعلبك والأمير أحمد الشهابي حاكم وادي التيم(١٨) والشيخ مظفر العينداري أمير بلاد الجرد والغرب والمتن، وحسين باشا سيفا ابن حاكم طرابلس)، فاجتمع إليه جيش كثير العدد والعدة لا يقوى الأمير يونس بمن معه على صده، فأرسل إليه المال المطلوب لعله يرضى به ويمتنع عن مهاجمته إلا أن ذلك لم يقنع الوالي الذي أعد للقتال عدته.



- **وقعة الباروك:** أرسل حافظ باشا الشيخ مظفر بجميع رجال الغرب والجرد والمتن إلى الشوف لاستكشاف قوة الأمير يونس، وكان الأمير قد جمع عند نبع الباروك، على مدخل الشوف من جهة عين داره، نحو أربعماية مقاتل من أهالي البلاد (الباروك وعين زحلتا وغيرهما من قرى رأس الشوف)، وكانت مهمتهم التصدي لأي هجوم تقوم به قوات الحافظ من تلك الجهة، وما أن أطل الشيخ مظفر بقواته على الباروك حتى بادرته قوات الأمير بالقتال، واستمرت المعركة بين الفريقين طوال النهار حيث تمكنت قوات الأمير من إيقاع الهزيمة بقوات الشيخ مظفر، إلا أن هذا الأخير استنجد بالوالي، فأنجده، في اليوم التالي، بثلاثة من قادته مع جندهم، وبالأمير أحمد الشهابي والأمير يونس الحرفوش ورجالهما، ولكن الأمير يونس أمدّ قواته المقاتلة في جبهة الباروك بعدد غفير من مقاتلي الشوف، واستمر القتال عنيفاً بين كر وفر، وقاتلت قوات المعني قتالاً تراجعياً حتى «نبع الباروك» حيث ثبتت في مراكزها طوال النهار، ثم ارتدت على قوات الوالي بهجوم ردي عنيف ومفاجئ أوقع الهزيمة في صفوفها، فتراجعت ثم انهزمت، ولم تتمكن قوات المعني من مطاردتها نظراً لحلول الظلام[١٩].

- **وقعة مرج بسري الأولى:** علم حافظ باشا بحشود من مقاتلي الشوف في مرج بسري، بين المختارة وصيدا، فأراد مفاجأتهم ومقاتلتهم، وأصدر أوامره إلى حسين آغا، حاكم صيدا، أن يقود فرقة من السكمان لمهاجمتهم، ووضع بإمرته البلوكباشي محمد آغا وعدداً آخر من البلوكباشية، كما أمر بعض مشايخ بلاد صيدا بمرافقته لأنهم أعلم بالأرض، وسار الجيش إلى مرج بسري للقتال، ولكن قوات الشوف فاجأته قبل أن يستعد له فأنزلت به هزيمة ساحقة، وأوقعت في صفوفه نحو خمسماية قتيل عدا الجرحى، وكان معظم القتلى من جند السكمان الذين سبق أن تخلوا عن الأمير يونس بدير القمر، كما قتل عدد كبير من قادتهم.

- **وقعة مرج بسري الثانية:** أثارت هذه الهزيمة غضب حافظ باشا فقرّر أن ينتقم، واستعد للقتال من جديد، فأرسل إلى حسين باشا سيفا، الذي كان معسكراً في الدامور، أن يتوجه بجنده لقتال الشوفيين في مرج بسري، وعلم الشوفيون بتحرك الوالي وعزمه على القتال، فأرسلوا إلى الأمير يونس وكان في بانياس، يطلبون منه النجدة، وكانوا نحو أربعماية مقاتل، وقبل أن تصلهم نجدة الأمير يونس، فاجأهم جيش ابن سيفا عند قرية بسري، وكان نحو اثني عشر ألف مقاتل(٢٠). إلا أن عدم التكافؤ بين الفريقين المتواجهين جعل القتال، الذي استمر من الضحى حتى الغروب، أشبه بمناوشات هزم بعدها الشوفيون وتقهقروا حتى قرية الجرمق من بلاد الشقيف، حيث التقوا بالأمير يونس والأمير علي الشهابي ومعهما نحو أربعماية مقاتل من قلعتي بانياس والشقيف، ولما رأى الأمير المعني هزيمة الشوفيين وانكسارهم عاد بجنده إلى قلعتي بانياس والشقيف، وعاد الأمير الشهابي إلى وادي التيم، وتفرق الشوفيون في وادي التيم كذلك، أما حافظ باشا وحليفاه حسين باشا سيفا والشيخ مظفر، فقد تابعوا تقدمهم من مرج بسري إلى نيحا، ومن نيحا، عاد حافظ باشا بجيشه إلى قب الياس، أما حسين سيفا والشيخ مظفر، فقد توغلا في قرى الشوف وأمعنا فيها حرقاً ونهباً وتدميراً(٢١).

وفي هذه الأثناء قتل الوزير نصوح باشا وتولى مكانه الوزير محمد باشا، وكان هذا الأخير صديقاً للأمير المعني، فأسقط في يد حافظ باشا وكف عن ملاحقة الأمير يونس، وفرّق عسكره آمراً كلاً منهم بالتوجه إلى بلاده، وعاد هو إلى دمشق حيث عزل عن ولاية الشام في شهر ربيع الثاني عام ١٠٢٤هـ (بدؤه السبت ٣١ كانون الثاني ١٦١٥م)(٢٢).

ومن المفيد أن نذكر آراء بعض المؤرخين المعاصرين للأمير في هذه الحملة ونتائجها على الصعيد العسكري، فقد تلقى غراندوق توسكانة رسالة

مؤرخة في ١٤ كانون الثاني ١٦١٣ مصدرها أحد عملائه بطرابلس وجاء فيها: «وقد ترك - أي الأمير - أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل في قلاعه، وهي منيعة لا تُنال، هاجم باشا دمشق أصغرها وأضعفها[٢٣] بزهاء ستين ألف محارب فلم يفز منها بطائل، بل فقد من رجاله عدداً وافراً. فقد كان رجال الأمير يرمونهم بالبراميل والصفائح المحشوة بالمواد الاصطناعية فتنفجر بينهم وتلحق بهم أضراراً جسيمة... والحصار ما زال قائماً على قدم وساق، بيد أن المطر والبرد القارس يخففان من شدته كثيراً. وفي الجبال من أحد عشر إلى اثني عشر ألف درزي رفضوا الطاعة للباشا وللمتسلمين الذين عينهم في صيدا وفي غيرها من المدن وهم يستميتون في القتال... هذا ما توصلت إلى معرفته من أشخاص جديرين بالثقة»[٢٤]. وفي رسالة أخرى تلقاها الفراندوق من حلب ومؤرخة في ١١ كانون الأول ١٦١٣ ورد ما يلي: «أدلي بالمعلومات التي بلغتني عن معارك صيدا، فقائد الجيش العثماني العام، وهو حاكم دمشق، لما رأى رداءة الطقس وهجوم البرد القارس أصدر أمره إلى الجيش برفع الحصار عن القلعة، وقد عجز عنها مع أنها أصغر القلاع الثلاث التي حصنها الأمير. ولما شاهد المدافعون عنها العدو هاماً بالرحيل أخذوا يمطرونه بشتى الشتائم مصحوبة بإمارات الهزء والخسرية، فحنق الباشا وأمر أن ينشطر الجيش شطرين يزحفان على البلاد لنهبها وتخريبها، ... فأخذ الدروز يتراجعون أمام القوات العثمانية ويستدرجونها إلى حيث يطبقون عليها فجأة، حتى وهنت عزائمهم، فنازلوها ساعة ثم تظاهروا بالهرب، وما زالوا على ذلك حتى أوقعوها في كمين هائل... فقتلوا منها مقتلة عظيمة، حتى أن بعض الكتب الواردة إلى هنا بالعبرية تقدر خسارة العثمانيين بعشرة آلاف رجل فضلاً عن كمية كبيرة من الأسرى بينهم أربعة باشوات»[٢٥]. وذكر البوريني أن المدافعين

عن قلعة الشقيف، في أثناء الحصار، كانوا قسمين: «قسم من الأروام البغاة السكمان، وقسم من العرب الدروز»(٢٦).

وفي التقرير الذي قدمته بعثة سانتي عام ١٦١٤ إلى غراندوق توسكانة، جاء عن هذه الحملة ما يلي: «كانت - أي الحملة - مؤلفة من خمسين ألف مقاتل واثنين وثلاثين من الباشاوات وتسع قطع من المدفعية، فقصد أحمد باشا محاصرة قلعة بانياس فلم يقو عليها(٢٧)، فتحول إلى قلعة الشقيف، ظناً منه أنها أقل مناعة، وأن خزنة الأمير مخبأة فيها، فهجمت حامية قلعة بانياس على مؤخرة جيشه وضعضعته، ولما بلغ الشقيف أحاط بها من كل جانب، وهدم بعض البيوت حولها وردم الخندق بأنقاضها، ونصب على القلعة ثلاث مدفعيات، وبنى مصطبة عالية تشرف على داخلها، وتمكن من الاستيلاء على برج كان يحميه خمسون جندياً انهار لاشتعال البارود فيه، فنجا منهم سبعة وعادوا إلى القلعة. ولم يكن لدى الباشا من يحسن تصويب المدافع فلم تصب أسوار القلعة بسوء، وكانت في داخل القلعة ثلاث قطع من المدافع لم يجرؤ أحد على استعمالها، بيد أن بعض الفرنسيين من أسرى الأمير عمدوا إلى استخدامها وأداروها بمهارة أدهشت الجميع وأنزلت بالعدو خسائر فادحة، لا سيما أنهم كانوا يرمونه بالنيران الإصطناعية فيلقون الرعب بين جنوده لغرابتها»(٢٨).

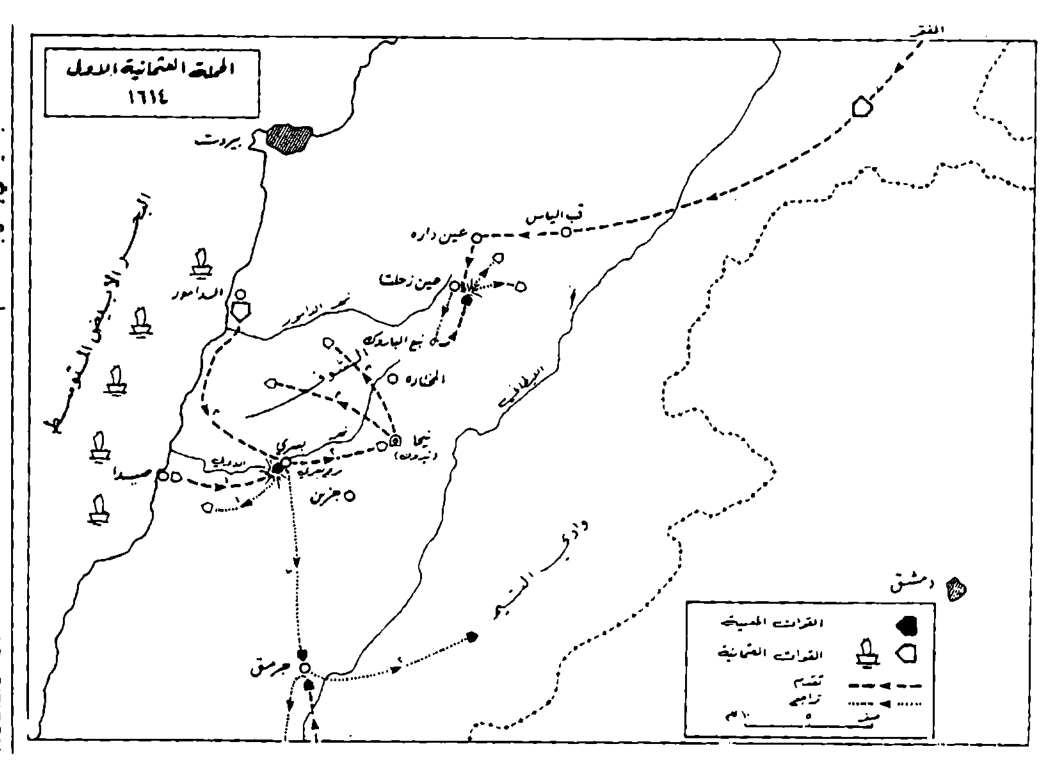
وفي تقرير رفعه الشيخ يزبك بن عبد العفيف، أحد أعيان الشوف، عند وصوله إلى ليفورنو (Livorno) بتاريخ ١٠ نيسان ١٦١٤، إلى الأمير فخر الدين بتوسكانة، جاء ما يلي: بعد أن سافر الأمير بشهرين(٢٩)، وصل باشا دمشق وصحبته ١٤ من الباشوات بينهم حسين باشا طرابلس ابن الأمير يوسف وصهر الأمير فخر الدين، فضلاً عن ٧٥ سنجقاً و٨٥ ألف مقاتل توجهوا لمحاصرة قلعة الشقيف ولبثوا أمامها ٨٤ يوماً دون أن ينالوا منها منالاً،

لبسالة قائدها حسين طويل ومهارة ١٨ جندياً فرنسياً من خَدَمة الأمير، في إدارة المدفعية، فقد حطموا مدافع العدو واضطروه إلى رفع الحصار بعد أن خسر ٢٥٠٠ من رجاله، وكان الأمير علي والدروز قد كبدوه في مواقع شتى ومعارك مجيدة خسارة نحو ٢ آلاف غيرهم، ولم يفقد اللبنانيون سوى خمسين من رجالهم»[٣٠].

٢ - معركة عنجر (أول تشرين الثاني ١٦٢٣):

أشهر معارك الأمير، جرت بينه وبين مصطفى باشا والي الشام وأنصاره الحرفوشيين والسيفيين وسواهم، وانتهت بهزيمة الوالي وأسره على يد المعني، وقد جرت يوم الأربعاء ٨ محرم ١٠٣٣هـ (الموافق للأول من تشرين الثاني ١٦٢٣م)[٣١].

- أسبابها: في العام ١٦٢٢ خلع السلطان مصطفى الأول عن عرش السلطنة وتولى مكانه ابن أخيه السلطان مراد الرابع الذي منح الأمير علي بن فخر الدين سنجقية صفد وأرسل إليه الأحكام بهذا الصدد، وكان الأمير فخر الدين في ذلك الحين معسكراً عند بركة الملاّحة قرب بحيرة الحولة بفلسطين[٣٢]، فلما أنبأه ابنه علي بالنبأ، قصد صفد وجمع أعيانها وأهاليها وقرأ عليهم الفرمان السلطاني بتقرير سنجقية بلدهم لابنه الأمير علي، ثم كتب إلى مصطفى باشا والي الشام ينبئه بذلك، وأرفق كتابه بصورة عن الفرمان السلطاني، ولكن مصطفى باشا اعتبر أن الفرمان مزور من الأمير، خصوصاً أنه - حسب ادعائه - لم يكن قد تبلغ بعد نبأ عزل السلطان مصطفى وتولية السلطان مراد، ولم يعبأ فخر الدين برفض الوالي، وبدأ ابنه علي بممارسة حكمه على بلاد صفد، مما أثار حنق الوالي وحلفائه فأخذوا يستعدون لقتال الأمير.


الحملة العثمانية الاولى
١٦١٤
بيروت
البحر الابيض المتوسط
الدامور
نهر الدامور
عين داره
عين زحلتا
قب الياس
نبع الباروك
الشوف
المختاره
نيحا
بسري
صيدا
جزين
جرمق
الليطاني
وادي التيم
دمشق
القوات المعنية
القوات العثمانية
تقدم
تراجع

- التعبئة: (أ) الوالي: أعلن الوالي النفير، فحشد عسكر الشام وأرسل إلى حلفائه يطلب إليهم موافاته، فلباه الحرفوشيون حكام البقاع والسيفيون حكام طرابلس وتركمان بلاد بعلبك وحمص وعربهما وعرب آل موسى، إذ احتشد «الأمير يونس بن الحرفوش وابنه الأمير حسين وجميع أقاربه ورجال بلاده وسكمانيته والأمير عمر بن سيفا بجميع رجاله وسكمانيته والأمير عباس وعربه وتركمان بلاد بعلبك وحمص وعرب آل موسى جاؤوا من مدينة بعلبك»[٣٣]، ونزل الجميع عند جسر «دير زنون» بالبقاع، متأهبين للاتجاه إلى دمشق والالتحاق بالوالي وعسكره.

(ب) فخر الدين: وأعلن فخر الدين من جهته النفير، وعيّن «قب الياس» بالبقاع مكان التئام لجيشه، ثم أرسل إلى حلفائه يطلب منهم موافاته إليها، فجاء ابنه الأمير علي من بيروت ومعه ألف رجل، وجاء أخوه الأمير يونس ومعه ألف رجل كذلك، والتقى الأميران يونس وعلي بقب الياس مع رجالهما. أمّا الأمير فخر الدين، فانتقل بمن معه، من الملاّحة، وبصحبته الأمير علي الشهابي مع ألف رجل، ونزلا معاً عند «جسر القرعون» بالبقاع، وعلم الأمير بأن الحرفوشيين والسيفيين قد عسكروا عند جسر زنون في طريقهم إلى الشام فرغب بأن يكمن لهم عند وادي مجدل عنجر، إلا أن الحرفوشيين والسيفيين قاموا من دير زنون ليلاً وساروا على أضواء المشاعل حتى أصبحوا في الديماس بعيداً عن متناول يد الأمير.

وقام الأمير فخر الدين بمن معه من جسر القرعون باتجاه قب الياس، وفي طريقه إليها، عبر البقاع، أمر جماعة من جنده بالإغارة على «كرك نوح» و«سرعين» من بلاد آل حرفوش، وكان مع الأمير نحو ألفي فارس «غير السيّاس والبغّالة» فأغارت على القريتين وأحرقتهما وقتلت ما بين ثلاثين وأربعين من المدافعين عنهما، وغنمت ما فيهما من أرزاق وأموال، وكلنت سرعين والكرك

«من أحسن البلاد، بهما مياه جارية وفواكه، وبساتين وأعناب وتين، وجميع بساتين سرعين للأمير يونس بن الحرفوش وأولاده وقرايبه»[٣٤]، ثم أحرق الأمير ما مرّ به من قرى لآل حرفوش في بلاد بعلبك، حتى وصل إلى «نبع عنجر» ومنه إلى قب الياس، مكان التئام الجيش.

- **الاستعداد للقتال: (أ) الوالي:** اجتمع لدى الوالي في الشام نحو اثني عشر ألف مقاتل من انكشارية الشام، مشاة وفرساناً (بقيادته ومعاونة كورد حمزة قائد الإنكشارية)، ومن رجال الأمراء الحرفوشيين والسيفيين وغيرهم ممن سبق ذكرهم، فانتقل الوالي بجيشه المحتشد هذا إلى «خان ميسلون» حيث عسكر هناك فترة من الزمن لاستكمال الحشد، ثم انتقل إلى «سهل الجديدة» حيث أصبحت طلائع جيشه مقابل المخافر الأمامية لجيش المعني، والمتمركزة عند بلدة «حلوه» على بعد عشرين كيلومتراً جنوب شرقي عنجر.

(ب) فخر الدين: كان الأمير المعني قد أمر الأمير محمد ابن الأمير علي الشهابي وعمه الأمير أحمد الشهابي[٣٥] بالتمركز مع رجالهما، وكانوا ألف رجل، عند بلدة «حلوه» بحيث يشكلون مخافر أمامية مهمتها مراقبة تحركات العدو والإفادة، وما أن وصلت طلائع جيش الوالي إلى «سهل الجديدة» حتى أفادت الأميرَ مخافرُه الأمامية بتحركات هذا الجيش، فأمرها بالانسحاب إلى «نبع عنجر» والتمركز هناك، أما هو فقد رتّب قواته المحتشدة، والمقدرة بخمسة آلاف مقاتل، أربعة الايات، أو ألوية، على الشكل التالي:

- ❖ الآلاي (اللواء) الأول: فرقة السكمانية الجديدة[٣٦]، وفرقة سيف بلوكباشي التي أرسلها الأمير مدلج الحياري، ورجال بلاد الغرب والمتن، بقيادة فخر الدين شخصياً، وعديده ألف رجل من الخيالة.
- ❖ الآلاي الثاني: فرقة السكمانية القديمة، ورجال الجرد، بقيادة ابنه الأمير علي وعديده ألف رجل معظمهم من الخيالة.

❖ الألاي الثالث: رجال الشوف، بقيادة أخيه الأمير يونس، وعديده ألف رجل معظمهم من المشاة.

❖ الألاي الرابع: رجال جبل عامل، بقيادة مصطفى مدبر الأمير فخر الدين، وعديده ألف رجل معظمهم من المشاة.

هذا بالإضافة إلى رجال الشهابيين الذين كانوا مع الأميرين محمد بن علي الشهابي وأحمد الشهابي، وكانوا ألفاً كما ذكرنا. ووزع الأمير على جنده الذخيرة، لكل مقاتل «أوقيتان» من البارود.

القوات المتجابهة، وفكرة المناورة:

- **الوالي**: إثنا عشر ألف مقاتل من جند الشام والحرفوشيين والسيفيين وجند حمص وبعلبك من عرب وتركمان وسكمان، أما فكرة المناورة عند الوالي فتتلخص بما يلي:

- احتلال نبع مياه عنجر لقطع الماء عن قوات الأمير.
- احتلال عنجر (البلدة والتل والبرج).
- مهاجمة قوات الأمير قبل أن تتمكن من اتخاذ مراكز دفاعية لها.

- **فخر الدين**: خمسة آلاف مقاتل من جند الأمير (السكمان) ومن رجال الشوف والجرد والمتن وجبل عامل والشهابيين ووادي التيم وعرب مدلج الحياري، أما فكرة المناورة عند الأمير فتتلخص بما يلي:

(أ) اختيار الأرض الملائمة للمعركة، إذ اختار سهل عنجر للأسباب التالية:

- سهولة المناورة لجيش الأمير وصعوبتها لجيش الوالي، وذلك في حال سيطرة الأمير على تل عنجر ونبعها وبرجها.

- يتمتع الأمير، خلف ساحة القتال، بعمق واسع يسمح لجيشه القليل العدد بالتحرك، بينما ينحصر الوالي بجيشه الكبير العدد، بين تلال عنجر من جهة،

ومضيق وادي الحرير من جهة أخرى، مما لا يسمح له بالتحرك الحر والسريع، إذ يصبح محصوراً بين مضيق وادي الحرير من جهة، وبين قوات الأمير المتمركزة على تل عنجر، وفي جواره، من جهة أخرى.

(ب) اعتماد عنصر المباغتة، إذ اختار لذلك، الأسلوب التالي:

- لم يظهر في ساحة القتال منذ بدئه، بل ترك للشهابيين وحدهم التعامل مع العدو في بدء القتال، كما تركهم يشنون عليه، لوحدهم، هجوماً ردياً ناجحاً.

- حاول أن يظهر عند دخوله ساحة القتال بمظهر الذي اختار الدفاع دون الهجوم، وذلك عندما دفع مئة من رجاله ليشنوا هجوماً على مراكز العدو كي يوهمه أنه سيظل في وضع الدفاع، بينما كان يعد لهجوم عام صاعق وناجح.

- أرض المعركة: أما أرض المعركة فكانت «عنجر» المكونة من:

- تل يقوم عليه برج قديم يسمى «برج الخراب» ويقع جنوب غربي البلدة.

- نبع ماء اكتسب أهمية كبرى بسبب وجوده في ساحة المعركة ويقع شمال شرقي البلدة مقابل البرج.

- القرية نفسها.

- سهل عنجر المنبسط خلف القرية إلى الشمال والذي هو سهل المناورة لجيش الأمير.

- وادي المجدل المتجه من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي.

- مضيق وادي الحرير إلى الجنوب الشرقي من عنجر والذي يقيّد حركة المناورة لجيش الوالي إذا ما اجتازه نحو سهل البقاع.

القتال:

المرحلة الأولى - الهجوم العثماني (الأربعاء ٨ المحرم - أول تشرين الثاني):

- تقدمت قوات الوالي من «سهل الجديدة» من المدخل الجنوبي الشرقي لوادي عنجر، فاحتلت «نبع عنجر» قبل أن تصل إليه مخافر الأمير الأمامية المنسحبة من «حلوه»، فاضطرت هذه المخافر إلى التمركز في «عنجر» القرية والتل، و«برج الخراب»، الموجود على هذا التل المواجه لنبع عنجر، وأفادت الأمير عن تقدم العدو، فتحرك الأمير بجيشه، مع الفجر، من قب الياس إلى ساحة القتال، حسب الترتيب الذي ذكرناه آنفاً، وسالكاً محور: قب الياس - بر الياس - عنجر.

- بعد أن استولت قوات الوالي على نبع عنجر شنت هجوماً على «عنجر» القرية والتل، وقد قام بهذا الهجوم رجال ابن الحرفوش وابن سيفا وسكمانهما، مشاة وخيالة «بطبولهم وزمورهم وبيارقهم»(٢٧)، فتمكنوا من دحر الشهابيين المتمركزين في القرية وعلى التل، واحتلت القوات المهاجمة القرية وقسماً كبيراً من التل، وحشر الشهابيون في البرج وحوله فاعتصموا به يدافعون بضراوة.

المرحلة الثانية - الهجوم الردي المعني:

وصلت طلائع قوات الأمير إلى عنجر، فاشتدت عزائم الشهابيين وشنوا هجوماً ردياً، بالسلاح الأبيض، تمكنوا بواسطته من دحر قوات ابن سيفا وابن حرفوش عن التل والقرية فاستعادوهما، واستقر الوضع العسكري في نهاية هذه المرحلة كالآتي:

- **قوات الوالي:** عند نبع عنجر، وقد اتخذت مراكزها جنوب النبع، أمامها بيارقها وأعلامها، وخلفها خيامها، وقد قرّرت الدفاع عنها وعن النبع.

- **قوات الشهابيين:** في القرية وعلى التل، قبالة عسكر الوالي.

المرحلة الثالثة - دخول قوات الأمير ساحة القتال:

دخلت قوات الأمير ساحة القتال وفقاً للترتيب التالي:

- **في الميسرة:** الألاي الأول (فخر الدين) وقد دخل ساحة القتال من الثغرة التي تنفذ على نبع عنجر، من جهة الشمال (من جهة المرج شمال وادي الحرير).

- **في القلب:** الألاي الثاني (علي) وقد نزل جنوب برج المجدل الواقع على التل، مجتازاً (جبل العريض) باتجاه نبع عنجر من جهة الغرب.

- **في الميمنة:** الألاي الثالث (يونس) وقد التف حول ساحة القتال سالكاً وادي الفوح باتجاه «حلوة»، وظهر بقواته تحت بلدة المجدل من جهة الجنوب خلف مشاة الوالي، محاولاً قطع الطريق على تراجع قوات الوالي نحو مدخل وادي الحرير[٣٨].

المرحلة الرابعة - الهجوم المعني العام:

بدأ الأمير هجومه بأن أرسل نحواً منماية خيّال (وقيل مايتين)[٣٩] انقضوا على مراكز قوات الوالي، وعلى لواء الوالي بالذات فضعضعوه وأوقعوا في صفوفه الارتباك، نظراً لعامل المفاجأة الذي أحسن الأمير استخدامه.

وقبل أن يفيق العدو من المفاجأة، أطلق الأمير هجومه من المحاور الثلاثة التي سلكها إلى ساحة القتال: الشمال والغرب والجنوب، وكان هجوماً عاماً ومفاجئاً أزاح جيش الوالي عن مواقعه، فهزم، وتبعه جيش الأمير إلى

طاحون عنجر، فقتل من جيش الوالي عدداً اختلف في تقديره، فقيل مايتان (الشهابي) وقيل أربعماية (الشدياق)، وأسر نحو ماية رجل وأكثر، وغنم الأمير نحو ألفي خيمة مع عدد كبير من الجمال والبغال والأثقال. ومن عداد قتلى جيش الوالي: آغا انكشارية الشام وأربعة بلوكباشية من الجيش، ومن عداد الأسرى: أربعة بلوكباشيين وثلاثون انكشارياً، وأسر الوالي مصطفى نفسه، إذ انه لم يستطع أن ينهزم مع المنهزمين، فألقي القبض عليه وسيق إلى الأمير فخر الدين الذي ما أن رآه وابنه الأمير علي حتى ترجلا عن فرسيهما «وقبلا ذيله»، وأرسلاه بصحبة أحد القادة ليوصله إلى قب الياس، ولم يكن مع الوالي من جماعته سوى عشرة رجال، وأما باقي أمراء الجيش كالأمير يونس الحرفوش والأمير عمر سيفا وكورد حمزة بلوكباشي والأمير عباس فقد انهزموا جميعاً إلى بعلبك، حيث باتوا ليلتهم ثم تفرقوا بعدها، وقتل من جند الأمير اثنان وثلاثون رجلاً(٤٠).

المرحلة الخامسة - المطاردة:

أما فلول الجيش المنهزم من عسكر الوالي فقد انسحبت معظمها نحو دمشق مروراً بوادي عنجر، وطلع السكمان إلى الجبل المطل على نبع عنجر، فلحقهم عسكر الأمير وقاتلهم حتى قتل منهم عدداً كبيراً، وغنم بيارقهم وأمتعتهم، وفرّ الباقون باتجاه دمشق.

نتائج المعركة:

- على الصعيد العسكري، هزيمة ساحقة للوالي وحلفائه جميعاً.
- على الصعيد السياسي، اعتذر الباشا للأمير مؤكداً أن سبب الحرب التي شنّها عليه هو كورد حمزة بلوكباشي، ثم أرسل إلى دمشق يأمر متسلمه فيها أن يقبض على كل أعوان كورد حمزة ويقتلهم جميعاً، وأعطى الأمير علي

إبن فخر الدين البقاع، وأعطى الأمير حسين بن فخر الدين سنجق عجلون، والأمير منصور بن فخر الدين سنجق اللجون، ومصطفى مدبر الأمير فخر الدين سنجق نابلس[٤١].

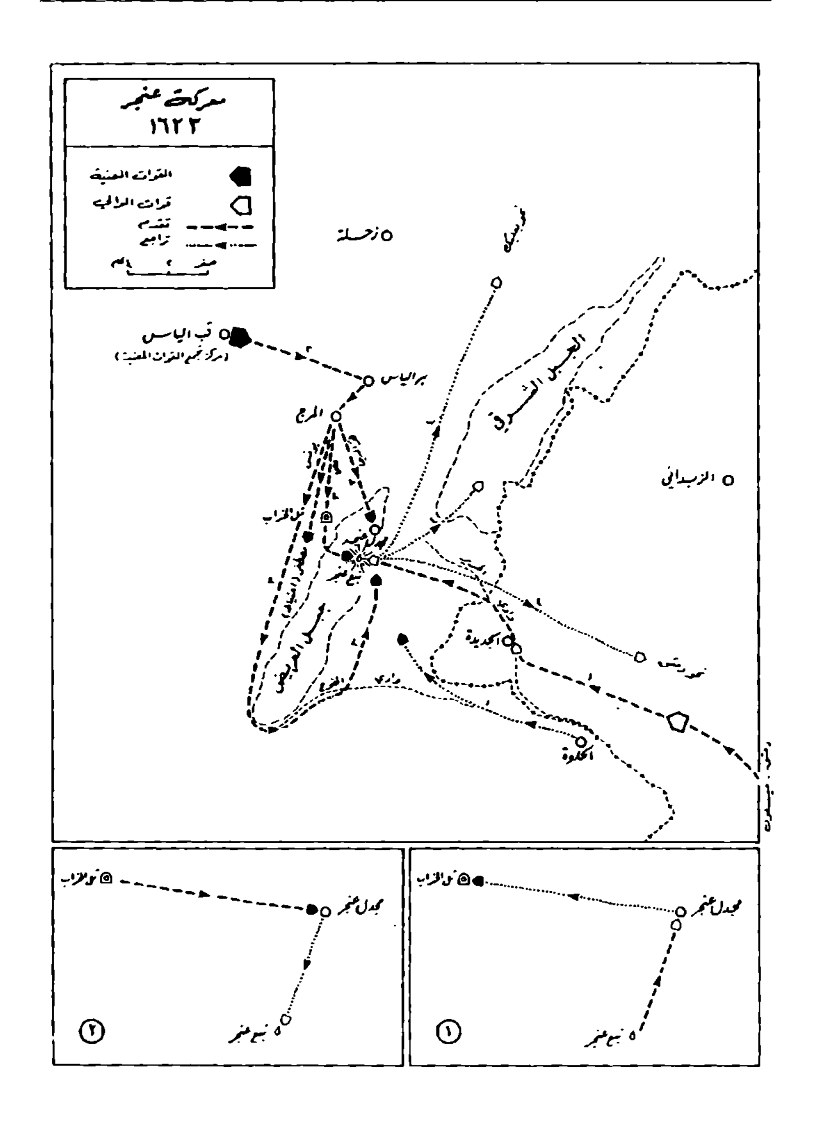
وفي العام ١٦٢٤، وبعد انتصاراته على آل سيفا ثم على باشا دمشق، كرست السلطنة الأمير فخر الدين أميراً على «عربستان» وسلطاناً على «بر الشام» من «حد حلب إلى حد القدس»[٤٢].



٣ - الحملة العثمانية الثانية (١٦٣٣):

أسبابها: تراكمت الأسباب التي دعت السلطنة العثمانية إلى اتخاذ قرارها الحاسم بإنهاء إمارة الأمير فخر الدين والتخلص من «طموحه المزعج» الذي ظهر منذ أن تسلم إمارته، ولم ينته رغم حملتها عليه عام ١٦١٣، ورغم منحه لقب «سلطان البر» و«أمير عربستان» عام ١٦٢٤. أما الأسباب المباشرة لهذه الحملة فهي متعددة أتى على ذكرها الكثير من المؤرخين، ومنها:

(أ) منذ أن نال الأمير لقب سلطان البر عظم شأنه وقويت شوكته و«راودته نفسه على السلطنة» التي كان يصفها بأنها «نقل تخم، فكلما حكمنا بلاداً نتقوى برجالها وأموالها وننقل إلى غيرها»[٤٣]. وفي العام ١٦٢٣ شكت «دولة حلب» الأمير إلى الباب العالي لبنائه قلعتين في حلب وانطاكية[٤٤]، معتبرة أن بناءه لهاتين القلعتين دلالة على تثبيت حكمه في المنطقة ونزوعه إلى الاستيلاء عليها نهائياً. بالإضافة إلى الشكاوى التي وردت إلى السلطنة من قبائل العرب في فلسطين، ومن آل سيفا وآل حرفوش ووالي الشام، وكلها تشكو


معركة عنجر
١٦٢٣
القوات المعنية
قوات الوالي
تقدم
تراجع
زحلة
قب الياس
(مركز تجمع القوات المعنية)
برالياس
المرج
الجبل الشرقي
الزبداني
تل الزراب
مجدل عنجر
نبع عنجر
الحديدة
الحلوة
تل الزراب
مجدل عنجر
نبع عنجر
٢
تل الزراب
مجدل عنجر
نبع عنجر
١

من طموح الأمير ورغبته في التوسع والسيطرة، حتى تكونت لدى الباب العالي قناعة تامة بوجوب التخلص منه بصورة نهائية.

(ب) في العام ١٦٣٢، وبينما كانت فرقة من الجيش العثماني عائدة من حرب العجم، عسكرت بالقرب من طرابلس، ولما حاولت متابعة السير نحو الآستانة تصدى لها الأمير بجيشه وقاتلها «وقتل منها خلقاً كثيراً»[٤٥]، مغتنماً فرصة انشغال الباب العالي بحربه مع الفرس ليبدأ بدوره «حرب استقلال» مكشوفة مع السلطنة[٤٦].

(ج) يذكر بعض المؤرخين الأوروبيين أن الشكاوى التي رفعت إلى السلطنة ضد الأمير كان معظمها اتهاماً له بأنه «يحتقر الشريعة الإسلامية، ويهدم المساجد، ولا يؤمها إلا مرة في العام، ولا يحرص على صوم رمضان، وكان على علاقة بدوق توسكانة الذي أقام له قنصلية بصيدا عاصمة الأمير، كما كان يسمح لفرسان مالطة - أعداء السلطنة - بالرسو بسفنهم على سواحله للتزود بالماء... وكان يراعي المسيحيين على حساب المسلمين كما كان يسمح لهم ببناء الكنائس والأديرة في بلاده الخ...»[٤٧].

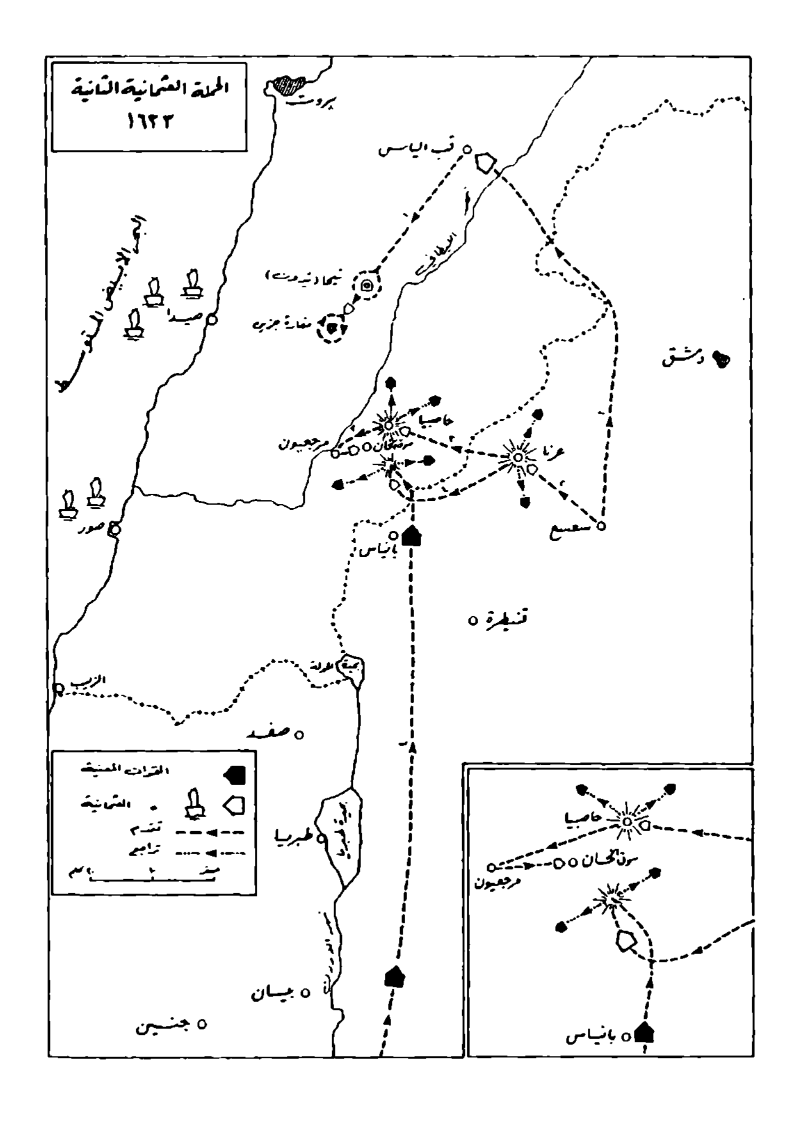
(د) إلا أن أفضل ما كتب عن الأسباب التي دعت السلطنة إلى تنظيم هذه الحملة على الأمير، هو ما أورده المحبي إذ قال عنه إنه «خرج عن طاعة السلطنة، وجاوز الحد في الطغيان، وأخذ كثيراً من القلاع من ضواحي دمشق، وتصرف في ثلاثين حصناً، وجمع من طائفة السكبان جمعاً عظيماً، وبالجملة، فقد بلغ مبلغاً لم يبق وراءه إلا دعوى السلطنة»[٤٨].

- التعبئة والاستعداد للقتال:

- العثمانيون: تلقى أحمد كجك باشا والي الشام أوامر السلطنة بتنظيم حملة على الأمير، فأعلن التعبئة العامة في بلاده في العام ١٦٣٣، وابتدأ يجمع

الجند «من حدود بلاد الروم إلى حدود بلاد مصر»(٤٩)، وجعل «سعسع» مكان التئام الجيش، فجاءه السيفيّون من طرابلس والحرفوشيون من البقاع وأمراء القبائل العربية من فلسطين(٥٠)، حتى اجتمع لديه نحو ستين ألف مقاتل «بالإضافة إلى جيوش باشوات حلب والقاهرة الكبرى - أي مصر - والأمراء من آل فريخ وطربيه»، كما جهزت السلطنة لمحاربة الأمير أسطولاً بحرياً مكوناً من أربعين سفينة، بقيادة «جعفر باشا»(٥١)، مهمته محاصرة موانئ الأمير ومنع أية نجدة خارجية له، بالإضافة إلى احتلال موانئ طرابلس وبيروت وصيدا عند الضرورة(٥٢).

- فخر الدين: ما أن شعر الأمير بالخطر حتى أعلن، من جهته، التعبئة العامة كذلك، فاجتمع لديه نحو ثلاثين ألف مقاتل منهم ١٢ ألفاً من السكمان، وألفان من رجال الشوف و٦ آلاف من العرب و٣ آلاف مع ابنه الأمير حسين و٣ آلاف مع مملوكه قايد، بالإضافة إلى رجال الأمير أحمد الشهابي أمير وادي التيم، إلا أن الأمير ارتكب خطأ فادحاً كان سبب انهيار جيشه وبالتالي القضاء عليه، وهو انه وزّع قواته هذه بدلاً من أن يجمعها لمواجهة جيش الوالي، فأرسل ابنه الأمير علياً مع ستة الاف رجل من بلاده إلى عجلون، كي يمنع أمراء فلسطين من الالتحاق بجيش الوالي، وأرسل ابنه الأمير حسيناً مع ثلاثة آلاف إلى قلعة المرقب ليتحصن بها، وثلاثة آلاف مع مملوكه قايد إلى قلعة بانياس، وأبقى معه ألفين من رجال الشوف مع فرقة السكمان، وبقي رجال وادي التيم في حاصبيا للتصدي للوالي إذا ما اتجه نحو بلاد الأمير من ناحيتهم(٥٣)، وظن الأمير انه، بتوزيع جيشه على هذا الشكل، يسد جميع المنافذ في وجه جيش الوالي وحلفائه، من الشرق والشمال والجنوب، إلا انه، في الواقع، فقد بذلك قوته الضاربة والكثيفة، وأعطى الوالي فرصة ثمينة لضرب التشكيلات المتفرقة لجيشه، كل واحدة على حدة، دون أن تتمكن احداها من مساندة الأخرى ودعمها.


الحملة العثمانية الثانية
١٦٢٣
بيروت
قب الياس
الليطاني
مغارة جزين
صيدا
البحر الأبيض المتوسط
دمشق
حاصبيا
مرجعيون
سعسع
صور
بانياس
قنيطرة
الزيب
صفد
طبريا
بيسان
جنين
القوات المعنية
العثمانية
تقدم
تراجع
حاصبيا
سوق الخان
مرجعيون
بانياس

- القتال:

(أ) وقعة حاصبيا - سوق الخان، ومقتل الأمير علي بن فخر الدين:

لم يتمكن الأمير علي من الصمود طويلاً في جهات عجلون، تحت ضغط القبائل العربية الموالية للعثمانيين، فأمره والده بأن يتوجه منها إلى بانياس، ويقيم هناك بانتظار أوامر جديدة، طالباً إليه أن يتحاشى معركة منتظمة مع العدو، وان يكتفي بإزعاجه بمناوشات متفرقة، وأن يعتمد الحيلة في قتاله له، بقصد جذبه إلى المسالك الصعبة حيث يمكنه أن ينازله[٥٤]. وفي ذلك الحين، كان الوالي قد أتم استعدادات القتال في سعسع، وقرّر التوجه بجيشه نحو بلاد الأمير (في شهر ربيع الأول عام ١٠٤٢هـ الموافق لشهر أيلول عام ١٦٣٢م)[٥٥]، إلا انه علم أن حشوداً من الشهابيين تجتمع في وادي التيم للتصدي له، فأرسل فرقة من عشرة آلاف مقاتل لمواجهتها، وما أن وصلت هذه الفرقة إلى بلدة «عرنا» حتى اشتبكت بطلائع الشهابيين في تلك البلدة، فانهزم الشهابيون إلى داخل وادي التيم (حاصبيا ومرجعيون) وإلى بلاد الشوف، فلحق بهم العثمانيون وقتلوا عدداً كبيراً منهم، ثم أحرقوا حاصبيا ومرجعيون والقرى المجاورة لهما، وعادوا ليعسكروا في «خان حاصبيا» المعروف حالياً «بسوق الخان».

وعلم الأمير علي، فور وصوله إلى بانياس، بالقتال الدائر بين الشهابيين والعثمانيين في وادي التيم، ووصلته رسالة استغاثة من الأمير علي الشهابي، فقرّر التوجه إلى ساحة القتال لمساندة حلفائه الشهابيين، وكان قد بقي معه نحو ألف مقاتل، فوصل إلى «سوق الخان» في الليل، وأخذ يستعد لاقتحام مراكز العثمانيين المعسكرين في ذلك الموقع.

وفي هذه الأثناء، كان صادق باشا حاكم حماه، مع ألف وخمسماية من رجاله، يتابع تحرك الأمير علي، فلما تأكد من قلة جيشه، قام بحركة التفاف

من الخلف واحتل قمة الجبل المواجه للسوق، ثم انطلق بهجوم عام على جيش الأمير الذي لم يكن بعد قد أكمل استعداداته للقتال، فأصبح الأمير علي بين نارين: نار حاكم حماه الذي يهاجمه من الخلف بجيش أكبر من جيشه عدداً، وأكثر حرية في الحركة والمناورة، ونار الجيش العثماني المتمركز في سوق الخان، ودامت المعركة من أول الليل حتى مطلع الفجر، خسر فيها الأمير علي أكثر رجاله، حيث لم يبق من عسكره «إلا القليل»، ولم ينج هو من ضربة رمح من يد انكشاري يدعى «حسين باشا» أصابته في كتفه فارتمى أرضاً، وتقدم منه ذلك الإنكشاري فاحتزّ رأسه وحمله هدية إلى سيده الوالي في «سعسع»(٥٦).

وذكر الشدياق انه، قبل أن ينجلي غبار المعركة، وصلت إلى ساحتها نجدة للأمير المقتول بقيادة الأميرين الشهابيين قاسم وحسين اللذين «أدركا القوم في القتال وتشدّد الحرب، فانهزم عسكر دمشق وولى الإدبار، وتبعهم الأميران والرجال نحو ساعتين ثم رجعوا»، وما أن بان النهار وانجلى غبار المعركة، وتجول الأميران بساحتها، حتى لقي الأمير قاسم «الأمير علياً قتيلاً وحوله عصبة من غلمانه وأصحابه يبكون عليه، فترجل الأمير قاسم وضمه وبكاه شديداً... وأمرهم بدفنته فدفنوه، وكان عمره ستاً وثلاثين سنة»(٥٧)، وكانت هذه الوقعة في ١٥ تشرين الأول عام ١٦٣٣.

(ب) حصار قلعة نيحا (أو شقيف تيرون):

علم الأمير فخر الدين بمقتل ولده الأمير علي في وقعة سوق الخان، فانهارت معنوياته وفقد الأمل في الانتصار، وتفرق السكمان جميعهم من حوله، ولم يبق له من مؤيديه سوى الأهل والأقربين، فقرّر اللجوء إلى قلعة نيحا مع «أولاده ونسائه وجواريه»، كما لجأ أخوه الأمير يونس مع ولديه «ملحم وحمدان» إلى «برج دوبيه» في بلاد بشارة(٥٨).

أما والي الشام أحمد كجك باشا، فقد تابع تقدمه بجيشه من سعسع إلى قب الياس ثم إلى بلاد الشوف، حيث استسلم له الأمير حسن بن فخر الدين، فقتله وقتل كثيراً من أهل الشوف، ونهبت بلاد الشوف كلها وأحرقت. وتوقف الوالي أمام قلعة نيحا «لأن خزاين بيت معن وبيت شهاب جميعها في القلعة ونسوانهم وأولادهم»[٥٩]، فأحكم الحصار حولها، وأتى بمعلمين نقابين وقطاعين وأمرهم بأن يحفروا في القلعة من أعلى إلى أسفل، وكان ارتفاعها ثلاثين ذراعاً، ثم أمر بأن تفسد ماء «عين الحلقوم» التي كان الأمير قد أجراها إلى القلعة تحت الأرض، بالدماء وكروش البهائم، «وصارت المعلمين تقطع، والعسكر يعزل، حتى الباشا ينخي ويعزل بيده، والنوبة تدق طول النهار والليل، ودام هذا الترتيب حتى صاروا الذين في القلعة يسمعوا حسّ الدبابير والبياك فوق رؤوسهم»[٦٠]، ولما أدرك المحاصَرون انهم لا محالة واقعون في الأسر، تدلى الأمير وعياله من القلعة ليلاً وتسللوا منها إلى مغارة جزين حيث اعتصم فيها، أما الباقون فقد استسلموا إلى القوات المحاصرة طالبين الأمان، وكان ذلك في آخر جمادي الثاني عام ١٠٤٢هـ الموافق لشهر كانون الأول ١٦٣٢م[٦١].

(ج) دور البحرية العثمانية:

في هذه الأثناء، كان الأسطول العثماني قد عاد، بعد ترميمه الذي استغرق طوال شهر كامل، إلى المياه الشامية، بقيادة جعفر باشا أمير الأسطول ووزير البحر، فأرست سفنه في مرفأ طرابلس حيث أنزل جنداً احتل المدينة وقلعة المرقب، وأسر الأمير حسين بن فخر الدين، ثم تابع إبحاره إلى مرفأ بيروت حيث أنزل جيشه ليخيم في ضواحي المدينة[٦٢].

(د) حصار مغارة جزين وأسر الأمير فخر الدين وأولاده:

ما أن انتهى الوالي من حصار قلعة نيحا، حتى انتقل إلى محاصرة مغارة جزين دون أن يكون على علم بوجود الأمير في داخلها، فأقام عليها الحصار كما

أقامه على القلعة، إلا أن الشتاء كان قد دهمه فعزم على التخلي عنها والعودة إلى دمشق[٦٣]، على أن يحتفظ ببعض الجند حراساً عليها، ولكن سوء طالع الأمير أوقع، في إحدى الليالي، أحد مماليكه في يدي الوالي، وكان هذا المملوك قد خرج يستطلع أخبار الأعداء، فاعترف للوالي بوجود الأمير داخل المغارة، عندها، شرع الوالي بنقب جدران المغارة حتى وصل إلى أسفل أرضها ووضع له لغماً، وأنذر من يداخلها ان اللغم إذا انفجر سوف يأتي عليهم جميعاً، فخرج الأمير وصحبه من المغارة واستسلموا للوالي الذي ساق الأمير وأولاده الثلاثة حيدر ومنصور وبلك، إلى دمشق، ومنها إلى الآستانة، حيث لاقوا حتفهم جميعاً عام ١٦٣٥[٦٤].

بالإضافة إلى ما ذكرنا من معارك، خاض الأمير فخر الدين معارك أخرى عديدة، سواء بشكل حملات تأديبية كمعركته في صفد ضد حسين اليازجي والقضاء عليه عام ١٦١٨[٦٥]، والإجراءات التأديبية التي اتخذها عام ١٦١٧ بحق مشايخ بلاد بشارة من آل شكر وأولاد علي الصغير في عيناتا وبنت جبيل وأنصار والزرارية وحومين الفوقا بجبل عامل، وبحق الشيخ أحمد الجلاط وأقربائه من بلاد صفد في قرية افيق بالجولان وفي قرية حطين بفلسطين، وبحق الشيخ أحمد قريطم في قرية كفرياسيف بساحل عكا[٦٦]، أو بشكل مناصرة لحلفائه كقتاله إلى جانب حليفه سليمان باشا سيفا والي مقاطعة صافيتا ضد عمه يوسف باشا سيفا صاحب طرابلس، عام ١٦٢١[٦٧]، وغيرها من معارك مماثلة[٦٨].

٤ - التكتيك العسكري عند فخر الدين:

السؤال الذي يتبادر إلى الذهن فور الانتهاء من درس معارك الأمير المعني هو: هل كان فخر الدين شخصية عسكرية:؟ وبتعبير آخر: هل كان يتمتع

بصفات القائد العسكري؟ وهل كان يطبق في معاركه أساليب التكتيك العسكري المعروفة في عصره؟

وقد سبق أن أجبنا على هذا السؤال عندما قلنا إن فخر الدين كان جاهلاً بأساليب القتال عاجزاً عن تطبيق مبادئ الفن العسكري في معاركه، واستغربنا أن يظل فخر الدين على هذه الحال بعد عودته من توسكانة، حيث اختبر بنفسه الأساليب الحديثة في فن الحرب لدى الدول الأوروبية، ولكن لا بد من الاعتراف أن الأمير كان يتمتع بنظرة عسكرية لامعة تتيح له تحديد وضعه في المعركة، واتخاذ المبادرة اللازمة لاعتماد الموقف الذي يمكّنه من النصر[٦٩].

لقد قيل الكثير في صفات الشجاعة والنباهة والإقدام في الحرب عند الأمير، فقال عنه الأب أوجين روجيه: «كانت شجاعته المتحفزة تأبى عليه الاكتفاء بما كسبه أسلافه وتحمله على توسيع سلطانه إلى أقصى حد تسمح له به مغامراته»[٧٠]، وقال سانتي في تقريره عام ١٦١٤ عن الأمير: «يعتبره الجميع أميراً ذا بأس وإقدام، للحروب المتواصلة التي أشهرها على السلطان... ميال إلى الحرب والطعان... صبور على التعب والشدائد»[٧١]، وقال ماشنجي في تقرير مماثل: «إنه مهاب من أعدائه لأنهم خبروا، في عدة مواقع وحوادث، بسالته وأصالة رأيه»[٧٢]، إلا أن أحداً من المؤرخين الذين اهتموا اهتماماً بالغاً بحروب الأمير ومعاركه لم يحدثنا عن أن الأمير اعتمد، في أي من المعارك التي خضاها، أسلوباً قتالياً، أو تكتيكاً محدداً، سوى أسلوب «الكر والفر» الذي كان سائداً في بلادنا في عصره، باستثناء ما كان يأتي منها «بداهة» و«دون أدنى حساب» باعتبار أن التكتيك العسكري هو «فن القتال، أو فن إدارة المعركة بشكل يضمن للقائد إحراز النصر».

غير أن ما لا يمكن تجاهله في هذا المجال، هو أن فخر الدين، وإن كان جاهلاً لمبادئ القتال وقواعد الحرب التقليدية التي كانت سائدة في ذلك

الحين، قد اكتشف الكثير منها بالحس والفطرة، واستعلمها بالبداهة، فنجح في بعضها وأخفق في البعض الآخر، وسنذكر فيما يلي ما تمكنا من استخلاصه من قواعد ومبادئ في سياق درسنا لمعاركه، محاولين استجلاء نظرته إليها وكيفية تطبيقه لها في أثناء القتال.

(أ) **التعبئة وحشد القوى**: لقد مارس فخر الدين التعبئة بنوعيها: العام والخاص، في معظم معاركه وحروبه، ففي التعبئة العامة (وتعني حشد كل القوى والإمكانات للإسهام في المعركة أو الحرب)، كان الأمير يحشد كل قادر على حمل السلاح في إمارته وفي المقاطعات التي تقع تحت حكمه، كما كان يطلب إلى حلفائه أن يحشدوا، بدورهم، رجالهم.

وقد أعلن الأمير التعبئة العامة في حالات عديدة كحملته على عكار عام ١٦١٨ - ١٦١٩، (استنفر رجال الشوف والغرب والجرد والمتن وكسروان وصفد وبلاد بشارة والشقيف وصيدا ووادي التيم والبقاع، بالإضافة إلى جنده السكمان)، كما أعلنها دفاعاً عن بلاده لصد حملة العثمانيين عليها عام ١٦٢٢ (حيث بلغ جيشه آنذاك نحو ثلاثين ألف مقاتل)[٧٣].

أما في التعبئة الخاصة أو الجزئية (وتعني حشد جزء من القوى والإمكانات أو نوع منها لخوض المعركة)، فكان يحدد، للحشد، إقطاعات معينة، يأمر زعماءها بحشد رجالهم، أو عدد محدد منهم، للقتال، ففي معركة نهر الكلب (١٥٩٨)، حشد الأمير ضد ابن سيفا جيشاً من خمسة عشر ألف مقاتل من الشهابيين والحرفوشيين ومقدمي جبيل، وفي معركة الناعمة (١٦١٦) حشد ضد ابن سيفا، كذلك، ثلاثة الاف مقاتل من رجال الشوف ورجال وادي التيم، وفي معركة عنجر (١٦٢٣)، حشد ضد مصطفى باشا والي الشام، خمسة آلاف مقاتل من رجال الشوف والجرد ووادي التيم وجبل عامل ومن جنده السكمان ومن رجال العرب (الأمير مدلج الحياري).

(ب) **الاستطلاع**: وهو استكشاف أوضاع العدو وتحركاته بواسطة مفارز تسير في طليعة الجيش لهذه المهمة، وتنفذ هذه المفارز مهمتها إما بواسطة المراقبة أو بواسطة القتال (التماس مع العدو)، وقد استخدم الأمير هذا النوع من المفارز في بعض معاركه، ففي معركة «الناعمة» توقف الجيش المعني في الدامور، وأرسل قائده، الأمير علي، مفرزة من جنده لاستطلاع أوضاع العدو في الناعمة، فقامت هذه المفرزة بالتماسّ مع المراكز الأمامية للعدو في حارة الناعمة، ثم عادت إلى مركز القيادة في الدامور لتطلع القائد على أوضاع العدو، وفي حملته على عكار أوقف الأمير جيشه في «قبولا» وتوجه بنفسه على رأس ثلاثماية من جنده، إلى بلدة «عكار» ليستطلع أوضاع عدوه ابن سيفا الذي انسحب من البلدة ملتجئاً إلى «حصن الأكراد»، فتبعه الأمير إلى الحصن، وأرسل يطلب من ابنه علي أن يوافيه بالجيش على وجه السرعة.

(ج) **المناورة**: وهي التكتيك المتبع في إدارة أية معركة، وتكون عادة بالنار والحركة، وتعتبر القاعدة الأساسية للقتال في كل معركة، إلا أننا نفتقدها في معظم معارك الأمير، ولكننا نتلمسها في بعض معاركه مثل «عنجر» حيث تجلى عنصر «المناورة» في قتال الأمير من خلال «فكرته» في اختيار أرض المعركة واعتماد عنصر «المباغتة»، وفي تطبيق هذه «الفكرة» في ساحة القتال، مما أدّى إلى انتصار الأمير في المعركة رغم عدم توازن القوى (خمسة الاف مع الأمير مقابل ١٢ ألف مع الوالي)، ومثل مناورته التراجعية في حملته على القبائل العربية بفلسطين عام ١٦٢٤، حيث طبق بنجاح رائع خطة «النار والحركة» في تراجعه، واستغل «قواته البحرية» لحماية مؤخرة جيشه المنهزم استغلالاً ناجحاً.

(د) **المباغتة**: استخدمها الأمير في «عنجر» كما أسلفنا، عندما أدخل في ذهن والي الشام انه اختار الدفاع دون الهجوم، وترك الشهابيين

يتعاملون معه لوحدهم، ثم انقض عليه بهجوم من الشمال والغرب والجنوب فهزمه، كما استخدمها في معركة «نهر الكلب» ضد ابن سيفا (١٥٩٨) عندما كمن له بجيشه عند مضيق النهر في الوادي، ثم أطبق عليه من كل جانب فكسره وشتّت جيشه.

(هـ) **المطاردة واستثمار النصر:** استثمر الأمير وحليفه علي باشا جنبلاط انتصارهما على ابن سيفا والجيش الشامي في وقعة «عراد» (١٦٠٦)، حيث طاردت قواتهما فلول الجيش المنهزم حتى «المزة» في ضاحية دمشق، كما استثمر الأمير انتصاره على والي الشام في «عنجر» عندما طاردت قواته فلول الجيش المنهزم باتجاه دمشق، وطاردت سكمان هذا الجيش الذين التجأوا إلى الجبل المطل على «نبع عنجر» فقاتلتهم وغنمت بيارقهم وأمتعتهم.

(و) **إخفاء النوايا عن العدو:** ويقصد به العمل الذي يقوم به القائد لإخفاء «فكرة المناورة» لجيشه بغية استثمار عنصر «المباغتة» إلى أقصى حد، وقد استخدم الأمير هذه القاعدة في حملته على عكار عام ١٦١٨ عندما أمر مدبره الشيخ أبا نادر الخازن أن يرسل مفرزة من الجند ليقطع طريق بيروت - طرابلس عند نهر ابراهيم كي يمنع المرور نحو الشمال، بغية منع وصول أي أنباء لابن سيفا عن قدوم حملة الأمير نحوه، كما استخدمها في معركة «عنجر» عندما أخفى فكرته في «المناورة» عن خصمه بالشكل الذي سمح له بالمباغتة التامة والناجحة.

(ز) **استخدام الاحتياط:** أو «المعقودية» في لغة ذلك العصر، وقد استخدمه الأمير في الهجوم في أثناء محاصرته لقلعة طرابلس عام ١٦٢١، عندما انطلق بخمسين فارساً من احتياطيه لإنجاد فرقة من جنده وقعت في كمائن السيفيين عند طرابلس القديمة قرب الميناء، واستخدمه جيش الأمير في الدفاع عندما أخذت مفارز من جنده المحاصر (بفتح الصاد) في قلعة

الشقيف عام ١٦١٢ تقوم بهجمات رديّة ناجحة على الجيش العثماني المحاصر (بكسر الصاد) خارج أسوار القلعة، فتفاجئه وتقاتله وتعود إلى القلعة بعد ذلك.

(ح) القتال التراجعي وحماية المؤخرة: أبرز مثل يمكن إيراده لاستخدام الأمير مناورة القتال التراجعي وحماية المؤخرة، هو المثل الذي سبق أن أشرنا إليه في أثناء مناورته التراجعية عند حملته الفاشلة على عرب فلسطين عام ١٦٢٤، فقد استخدم الأمير، في قتاله، لحماية مؤخرة جيشه، تكتيكاً ناجحاً، إذ اعتمد مناورة «النار والحركة» أو ما يسمى بخطوات «الأوزة» (pattes d'oie)، حيث يتمركز قسم من الجيش ليغطي تراجع القسم الآخر الذي ما أن يتم تراجعه، حتى يغطي تراجع القسم الأول، وتتكرر العملية إلى أن يتم الانسحاب التام «وفصم التّماسّ» بين المتقاتلين، ولم يكتف الأمير بمناورته هذه لحماية مؤخرة جيشه، بل استخدم أسطوله البحري لهذه الغاية عندما غطت زوارقه المسلحة والمبحرة على محاذاة الشاطئ، انسحاب الأثقال السائرة على موازاتها براً.

(ط) قتال الحصار (في الهجوم والدفاع): أحد أهم أنواع القتال ضد القلاع والحصون والمدن المسورة في ذلك العصر، إن لم يكن النوع الوحيد المتبع ضدها، وقد اتقن الأمير هذا النوع من القتال دفاعاً وهجوماً[٧٤]. وأبرز الأمثلة على قتال الحصار عند الأمير، في الهجوم: حصار طرابلس وقلعتها عام ١٦٢١، وحصار قلعة بعلبك عام ١٦٢٣، وفي الدفاع: حصار والي الشام لقلعة الشقيف عام ١٦١٢:

(١) في الهجوم:

حصار طرابلس وقلعتها عام ١٦٢١: أقام الأمير على طرابلس عام ١٦٢١ حصاراً مزدوجاً، برياً وبحرياً. فقد أحكم الحصار البري على المدينة من مداخلها الثلاثة: الجنوبي والشرقي والشمالي. ثم أمر بعض مراكبه المسلحة

بإحكام الحصار البحري غرباً، فقطع بذلك أي اتصال بالمدينة من جميع الجهات، كذلك منع عنها أية امدادات أو مؤونة، ثم تقدم إلى القلعة فضرب الحصار حولها، وهكذا وقعت المدينة والقلعة تحت حصار بري وبحري متكامل لمدة ثلاثة أشهر تقريباً.

حصار قلعة بعلبك عام ١٦٢٣: أقام الأمير على قلعة بعلبك عام ١٦٢٣ حصاراً شديداً، ولم يكتف بأن قطع عن المحاصرين في القلعة المؤونة والإمدادات والذخائر، وإنما سعى إلى خرق أسوار القلعة للدخول إليها، قال الخالدي في ذلك: «وشرع - أي الأمير - في عمل المتاريس والمحاصرة وجعل صناديق من الألواح وملأها تراباً... ووضعها فوق بعضها بعضاً وجعلها كالحيطان لأجل سترة من يجلس وراءها، وأيضاً حفر في الأرض خنادق ودروباً وغطاها بخشب من الحور حتى إذا مشى فيها أحد لا يراه أحد من القلعة فيضربه بالبندق أو الحجارة، وكلما تخلص من عمل المتاريس في مكان يبدأ في عمل متاريس أخرى إلى جهة الداخل من صوب القلعة، واستمر على هذا الديدان حتى وصل إلى حائط القلعة بمقدار عشرين ذراعاً من الجانب الغربي، وعيّن تحت الخشب معلمين ينقبون حايطها نقراً بالأزاليم (الأزاميل) بالليل والنهار، لكونها مبنية من الحجر الصلد»(٧٥).

(٢) في الدفاع:

حصار قلعة الشقيف عام ١٦١٣: استخدمت قوات الأمير ضد هذا الحصار وسائل الدفاع الثابت والمتحرك، بما فيها الهجوم الردي، فمن وسائل الدفاع الثابت التي استعملها، حفر خندق حول القلعة يحول دون وصول القوات المحاصرة (بكسر الصاد) إلى أسوارها، ثم الرمي على هذه القوات بجميع الأسلحة المتوافرة في القلعة كالبنادق والمدافع والنيران الإصطناعية، ومن

وسائل الدفاع المتحرك إحراق المتاريس التي كان يعدها الجنود المحاصرون (بكسر الصاد) حول القلعة بقصد تسلق أسوارها، وشن الهجمات الردية الممتتالية على مراكز العدو حول القلعة، إذ كانت مفارز من الجنود المحاصَرين داخل القلعة تتسلق أسوارها وتغير على العدو المحاصر، فتفاجئه وتقاتله خارج الأسوار ثم تعود إلى القلعة، وقد دام حصار والي الشام لقلعة الشقيف نحو ستين يوماً دون أن يتمكن منها بفضل دفاع حاميتها.

(ي) **القتال البحري:** لم يكن لدى الأمير اسطول بحري بالمعنى الحقيقي للكلمة، ولم يكن بوسعه أن يقتني مثل هذا الأسطول طالما أن بحاره وشواطئه وموانئه لم تكن ملكاً خالصاً له، فأسطول الدولة العثمانية هو صاحب الحق الأول في هذه البحار والشواطئ والموانئ، ولكن ذلك لم يمنعه من اقتناء بعض الزوارق المسلحة، مما أسميناه اسطولاً، تجاوزاً، وقد استخدم الأمير زوارقه المسلحة هذه في حصاره البحري لطرابلس عام ١٦٢١، كما أسلفنا، كما استخدمها في حملته على فلسطين عام ١٦٢٤، وذلك لحماية أثقاله ومؤخرة جيشه في أثناء قتاله التراجعي، كما سبق أن ذكرنا.

أما في الدفاع عن الموانئ، فقد استخدم الأمير نوعي الدفاع السلبي والإيجابي، فالدفاع السلبي كان بردم الموانئ بشكلٍ يحول دون رسو المراكب الحربية المعدوة فيها، كما فعل في موانئ صيدا وعكا وبيروت وصور عام ١٦٣٣، إبان الحملة العثمانية الثانية على بلاده، والدفاع الإيجابي كان بإقامة الأبراج وتجهيزها بالجند والمدافع لصد أي هجوم بحري، وقد أقام الأبراج المسلحة في موانئ صيدا وصور وبيروت.

وربما كان فخر الدين أول أمير اقطاعي، في الدولة العثمانية، وفي المشرق العربي، عرف القتال البحري، هجوماً ودفاعاً، على هذا الشكل المتقدم.

(ك) الأخطاء المرتكبة في حروب الأمير، ونتائجها: يمكننا أن نلخص المبادئ الدائمة والمستمرة للفن العسكري، في كل عصر، بما يلي:

أولاً: التوازن النسبي بين الهدف والوسائل.

ثانياً: حرية العمل.

ثالثاً: النتاج الأقصى للوسائل[٧٦]. فإذا تأملنا هذه المبادئ الثلاثة وحاولنا أن ندرس فيما إذا كان فخر الدين قد طبقها في حروبه، فإننا سوف ننتهي، حتماً، إلى نتيجة سلبية، خصوصاً فيما يتعلق بالبندين الأولين منها، فالأمير، في حروبه كلها، لم يكن يوازن بين أهدافه والوسائل التي يمتلكها للوصول إلى تلك الأهداف، سواء أكان ذلك على الصعيد الاستراتيجي، أم التكتيكي، كما انه لم يكن يمتلك دائماً حرية العمل، من هنا كان نجاحه في المعارك الصغرى ضد خصومه الضعفاء والصغار، وكان فشله في معاركه الكبرى ضد الدولة العثمانية، وأمراء فلسطين. أما المبدأ الثالث «النتاج الأقصى للوسائل» فهو نتيجة حتمية ومنطقية لمفهوم المبدأين الأولين، بحيث أن القائد الذي يدركهما ويسعى إلى تطبيقهما لا بد أن يسعى للإستفادة مما لديه من وسائل، إلى أقصى الحدود، وكمثلٍ على عدم تقدير الأمير لهذه المبادئ في حروبه، الخطأ القاتل الذي ارتكبه في آخر حروبه مع العثمانيين عام ١٦٣٣، والذي أدّى في النهاية، إلى أسره ومقتله، وذلك عندما وزّع قواته، بدلاً من أن يحشدها (عملاً بالمبدأ الأول) في وجه جيش يفوق جيشه ضعفين، (٣٠ ألف مع الأمير مقابل ٦٠ ألف مع والي الشام، بالإضافة إلى الأسطول البحري العثماني)[٧٧]، فخسر بذلك حرية العمل والمناورة، وهي المبدأ الثاني، كما خسر امكان الاستفادة من الوسائل المتوافرة له، إلى أقصى الحدود، وهي المبدأ الثالث.

استنتاج:

كان فخر الدين قائداً سياسياً أكثر منه قائداً عسكرياً، وكان طموحه السياسي يتجاوز، إلى حد كبير، إمكاناته المادية، وخصوصاً العسكرية منها، فحاول أن يضيف إلى امكاناته هذه، لتحقيق طموحه، امكانات وضعها بتصرفه محالفوه في الشرق والغرب، ولكن ذلك كله لم يصل به إلى نتيجة مفرحة، إذ لم يتمكن، على الصعيد الاستراتيجي، من تحقيق توازن «بين أهدافه السياسية والوسائل التي يملكها لتحقيق هذه الأهداف»، رغم كل محاولاته الجريئة إلى حد المغامرة، في سبيل الوصول، ولم تسعفه تحالفاته في أحلك الظروف وأحرج الأوقات، فخسر كل شيء بعد أن كان قد راهن على ربح كل شيء.

لقد كان طموح فخر الدين أكبر بكثير من امكاناته، الفكرية والمادية، والسياسية والعسكرية، لذا، انتهى هذا الطموح بصاحبه إلى مصير مفجع، نتيجة السقوط والفشل الناتجين عن خطأ في التقدير والتبصر.

حواشي الفصل الخامس

(١) لاحظ الرحالة ساندس Sandys في رحلته عام ١٦١٠ انزعاج الباب العالي من الأمير بسبب علاقته الخاصة بتوسكانة (Sandys, Relation, p. 211).

(٢) الخالدي، تاريخ فخر الدين، ص. ٩.

(٣) م. ن. ص. ١١.

(٤) م. ن. ص. ١٢، والمحبي، خلاصة الأثر، ج ٣ : ٣٨١ و:

- D'Arvieux, Mémoires, T. I, p. 365.

- Roger, la Terre Sainte, p. 296 et P. de St. Pierre, Histoire des Druzes, p. 43.

(٥) الخالدي، م. ن. ص. ١٢ و : .D'Arvieux, Ibid; T. I, p. 365 -

- Puget de St. Pierre, Ibid. p. 42 et Roger, Ibid., p. 296.

(٦) الخالدي، م. ن. ص. ١٢، وفي نسخة ثانية: ويوسف باشا سيفا والشيخ مظفر الميداري وإمارة عبيه والشيخ أبو هرموش (م. ن. ص. ن. حاشية ٧) وانظر، المحبي، المصدر السابق، ج ٣ : ٣٨١، والشدياق، أخبار الأعيان، ج ١ : ٢٤٢، الشهابي، تاريخه (الغرر الحسان) ج ١ : ٦٢٣. ويقدر الدبس جيش الحافظ بمئة ألف رجل «من سكمان ودروز وعرب» (الدبس، تاريخ سوريا، ج ٧ : ١٨٦) ولكننا نعتقد أن هذا الرقم مبالغ فيه جداً.

(٧) الخالدي، م. ن. ص. ١٢: وهذه وسيلة مهمة من وسائل حض المقاتل على الصمود والقتال دفاعاً عن أرضه وعرضه وأهله.

(٨) م. ن. ص. ١٣.

(٩) كان جواب الوالي ما يلي: «مراده الصلح ولكن لو ملأ هذه الخيمة ذهباً لا يمكن ما لم يدس على هذا البساط. وحق نعمة السلطان لين جا إلى هون لأقررن عليه بلاده وأنعم عليه بما لم يحصل لأحد من قبله، فأرسلوا إليه واعرضوا هذا الكلام عليه» (الخالدي، م. ن. ص. ١٥).

(١٠) البوريني، تراجم الأعيان، ج ١ : ٢٠٧.

(١١) الخالدي، المصدر السابق، ص. ٢١.

(١٢) م. ن. ص. ٢٠.

(١٣) البوريني، المصدر السابق، ج ١ : ٢٠٨.

(١٤) استخدم حافظ باشا، في حصاره للقلعة، مدفعاً كان قد وجده في قلعة صيدا، وكان هذا المدفع من الضخامة بحيث ان «كبره خارج عن الفهم» كما وصفه الخالدي، ولكن لحسن حظ حامية القلعة، لم يتحمل هذا المدفع أكثر من طلقتين انفزر بعدهما وتمطل عن الرمي، (الخالدي، المصدر السابق، ص. ٢١). وقد سبق أن ذكرنا أن الأمير وضع في قلعة الشقيف، قبل سفره إلى إيطاليا، «١٨٠ أسيراً فرنسياً ماهرين باستخدام المدافع، فما اقترب منها الجيش العثماني ونصب مدافعه عليها حتى حطموها وفتكوا برجاله فتكاً ذريعاً»، (فرألي، فخر الدين ودولة توسكانة، ج ٢ : ٧٦).

(١٥) الخالدي، المصدر السابق، ص. ٢٠ - ٢٢.

(١٦) م. ن. ص. ٢٢ - ٢٤.

(١٧) م. ن. ص. ٢٣ - ٢٥، وكان رحيله من قلعة الشقيف في أول شهر ذي القعدة عام ١٠٢٢هـ (١٦١٣م)، وذكر المحبي ان هذا الحصار دام تسعة أشهر (المحبي، المصدر السابق، ج ٢ : ٢٨١)، ولكننا نستبعد ذلك باعتبار أن مدة الحملة كلها لم تتجاوز الثلاثة أشهر، (منذ أول شعبان حتى أول ذي القعدة).

(١٨) تخلف الأمير علي الشهابي عن هذه التعبئة لأنه صالح آل معن وصاهرهم (الخالدي، م. ن. ص. ٣٥).

(١٩) م. ن. ص. ٣٥ وذكر البوريني أن عسكر الحافظ تمكن من إحراق الباروك وغيرها من قرى الشوف (البوريني، المصدر السابق، ج ١ : ٢١٢).

(٢٠) الخالدي، م. ن. ص. ٣٧، وفي نسخة أخرى (عشرين ألفاً)، (م. ن. ص. ٣٧ حاشية ٩) إلا انه يجب القول ان الأرقام التي وردت في هذه المعركة وغيرها من المعارك والتي تشير إلى عدد المقاتلين هي أرقام لا يمكن الركون إليها بصورة نهائية، كما انه لا يمكن نقضها أو اثبات صحتها نظراً لعدم توافر الأدلة التي تؤيد النقض أو الإثبات، لذا، فإننا نترك للقارئ أمر تقدير نصيبها من الخطأ والصواب وفقاً لكل حالة.

(٢١) الخالدي، م. ن. ص. ٣٨.

(٢٢) بقيت الست نسب والدة الأمير رهينة في دمشق حتى أول جمادى الثاني عام ١٠٢٤هـ، ففي مطلع هذا الشهر وصل إلى دمشق جركس محمد باشا بكلربكيها الجديد، فكان أول عمل قام به هو اطلاق سراح والدة الأمير وإرسالها إلى ولدها الأمير يونس، ثم كتب إلى الأمير فخر الدين يطلب إليه العودة إلى بلاده (وأهله وأولاده) (الخالدي، م. ن. ص. ٤٢ - ٤٣) فتكون الأميرة قد قضت في الارتهان نحو سنة ونصف السنة، (من أول ذي القعدة ١٠٢٢هـ - ١٦١٣م - إلى أول جمادى الثاني ١٠٢٤هـ - ١٦١٥م).

(٢٣) يقصد قلعة الشقيف.

(٢٤) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ١٩٥ - ١٩٦.

(٢٥) م. ن. ص. ١٩٦ - ١٩٧.

(٢٦) البوريني، المصدر السابق، ج ١ : ٢٠٨.

(٢٧) ذكر الخالدي أن حافظ باشا، في أثناء سيره من الحولة إلى الشقيف، أرسل ثلاثة انفار إلى قلعة بانياس «ليعطوا عن لسانه القول والأمان لمن بها ويسلموه القلعة من غير قتال» فقتلتهم حامية القلعة ورمت بهم إلى خارج السور، ولما علم حافظ باشا بذلك، وبما انه كان يدرك أن القلعة لا يمكن أن تؤخذ بالمحاصرة، (رحل عنها إلى الطيبة ومنها إلى مرجعيون) (الخالدي، المصدر السابق، ص. ١٩).

(٢٨) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٢٠٩.

(٢٩) غادر الأمير البلاد إلى توسكانة في أول شعبان عام ١٠٢٢هـ الموافق لـ ١٦ أيلول ١٦١٣م (الخالدي، المصدر السابق، ص. ١٩).

(٣٠) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٢٠٠ - ٢٠١، ونعتقد أن استعمال كلمة «اللبنانيون» هنا هو تصرف في التعريب من قبل الأب قرألي.

(٣١) اختلف المؤرخون في تحديد يوم معركة عنجر، ولكن الخالدي ذكر ان الوقعة جرت «نهار الأربعاء ثامن شهر محرم الحرام من السنة المذكورة» أي عام ١٠٣٣هـ (الخالدي، المصدر السابق، ص. ١٥٠) وبما أن بدء عام ١٠٣٣هـ أي أول شهر محرم المذكور هو يوم الأربعاء ٢٥ تشرين أول ١٦٢٣، فيكون الأربعاء الثامن من محرم، يوم الوقعة، هو الأول من تشرين الثاني عام ١٦٢٣م.

(٣٢) تقع الملاحة شرق المالكية وشمال غربي بحيرة الحولة، بالقرب من الحدود اللبنانية - الفلسطينية.

(٣٣) الخالدي، المصدر السابق، ص. ١٤٦.

(٣٤) م. ن. ص. ١٤٧.

(٣٥) كان الأمير أحمد الشهابي فيما سبق خصماً للأمير فخر الدين، إلا انه، قبل معركة عنجر، تمت المصالحة بين الأميرين لقاء وعد من الأمير فخر الدين بأن يعطي البقاع للأمير أحمد (الخالدي، م. ن. ص. ١٤٩).

(٣٦) فرقة السكمانية الجديدة هي فرقة أنشأها الأمير بعد عودته من توسكانة، وتختلف اختلافاً كلياً عن فرقة السكمانية القديمة.

(٣٧) الخالدي، م. ن. ص. ١٥٠.

(٢٨) لم يأت الخالدي على ذكر دور الآلاي الرابع (ألاي جبل عامل وقائده مصطفى مدبر الأمير) في المعركة، إلا أن الشهابي ذكر أن هذا الآلاي حاول نجدة الأمير علي عندما هاجمه فرسان الوالي (الشهابي، تاريخه (الغرر الحسان) ج ١ : ٦٩٣) وذكر الشدياق ان هذا الآلاي كان في الميمنة مع الأمير يونس (الشدياق، أخبار الأعيان، ج ١ : ٢٧٥) ونرجح أن مكان هذا الآلاي في المعركة كان إلى يسار الأمير يونس وإلى يمين الأمير علي.

(٣٩) الشدياق، م. ن. ص. ٢٧٥.

(٤٠) م. ن. ص. ن. إلا أن الخالدي حصر عدد قتلى جيش الأمير بثلاثة فقط (المصدر السابق، صفحة ١٥١) وقال المحبي بصدد أسر الوالي: «فانكسر مصطفى باشا كسرة منكرة، وقبض عليه ابن معن وأخذه إلى بعلبك مقيداً في الباطن مطلوقاً في الظاهر، وبقي عنده إلى أن وصل الخبر إلى دمشق، فاجتمع علماؤها وكبراؤها وذهبوا إلى ابن معن ورجوا منه فكاكه، فأطلق سبيله» (المحبي، المصدر السابق، ج ٢ : ٢٦٧).

(٤١) الخالدي، المصدر السابق، ص. ١٥٥.

(٤٢) م. ن. ص. ٢٤٢. وانظر لتفاصيل معركة عنجر: الخالدي، م. ن. ص. ١٤٦ - ١٥٥، والشدياق، المصدر السابق: ج ١ : ٢٧٤ - ٢٧٥، والشهابي، تاريخه، ج ١ : ٦٩٢ - ٦٩٣ (طبعة مصر). وذكر الشهابي تفاصيل مختلفة نوعاً عما ذكره الخالدي والشدياق، منها انه لما ظهر عسكر الأمير من المحاور الثلاثة (الشمال والغرب والجنوب) شن خيالة الوالي هجوماً بألف خيال على المحور الغربي (الأمير علي) فلم يتمكنوا من زحزحته، عندها أنجده والده الأمير فخر الدين بأن أغار بخيالته السكمان على مقدمة عسكر الوالي، وحاول مصطفى مدبر الأمير أن يخفف الضغط عنه بمن معه، إلا أنه لما ضرب الأمير فخر الدين مقدمة جيش الوالي بخيالته استطاع أن يربك صفوفها فتراجعت، ولما رأى الخيالة الذين يهاجمون الأمير علياً مقدمة جيشهم وعسكر ابن سيفا وابن حرفوش يتقهقرون أداروا رؤوس خيولهم إلى الوراء ورجعوا عن الأمير علي، وكسروا كسرة عظيمة لم يحدث نظيرها (الشهابي، م. ن. ج ١ : ٦٩٣)، وقد اعتمد رواية الشهابي هذه، بعض الشيء، الكولونيل «دومون» استاذ التاريخ العسكري في المدرسة الحربية اللبنانية (عام ١٩٦٩ - ١٩٧٠).

(Lt. Col. D'Aumont, Histoire militaire générale, Armée Libanaise, Ecole Militaire, 2e année, 1969-1970, Leçon 17).

ملاحظة: يتساءل المؤرخ الشيخ علي الزين عما إذا كان انتصار فخر الدين في عنجر انتصاراً جدياً لم يبن على المكر والخيانة. ويورد، في معرض حديثه عن هذه المعركة، مبررات لشكه وبعض المظاهر التي تدله على التآمر والخيانة في صفوف جيش والي الشام. منها غضب الوالي على كورد حمزة بعد اكتشافه لدوره في المعركة كعميل للأمير، وقيام فخر الدين بقتل الحاج كيوان بعد المعركة بأيام بعد أن افتضح دوره أيضاً ولم يعد بإمكانه التستر عليه. ومنها أن هجوم الأمير تركز على اللواء الذي يقوده الوالي نفسه والذي انهار بسرعة مما يدل على أن هناك اتفاقاً مستتراً بين قادة هذا اللواء وجماعة الأمير الخ... (الزين، للبحث عن تاريخنا، ص. ٢٤٦ - ٢٥٢). إن مظاهر الشك هذه وإن تركت الكثير من التساؤل الرصين حول جدية هذه المعركة، خصوصاً إذا تبينا الفارق الكبير في العدد بين الجيشين (٥ آلاف مقابل ١٢ ألفاً)، وإذا تذكرنا الدور الذي قام به فخر الدين المعني الأول في مرج دابق عام ١٥١٦ (تآمره على السلطان قانصوه الغوري وانحيازه للسلطان سليم العثماني)، وإذا تذكرنا عملية الرشوة التي أجراها الأمير وحليفه علي باشا جنبلاط لباشوات الجيش الشامي في معركة عراد عام ١٦٠٦، نقول: إن مظاهر الشك هذه وإن أثرت إلى حد كبير في قناعتنا، تظل غير ملزمة لنا للأخذ بها، بل تظل في معرض الظن، طالما أن أحداً من المؤرخين لم يكتشف من قبل، ما يؤكدها، كما اكتشف المؤرخون الأولون سابقاتها وتحدثوا عن المؤامرات التي جرت في معركتي مرج دابق وعراد - «المؤلف».

(٤٣) الخالدي، المصدر السابق، ص. ٢٤٤.

(٤٤) م. ن. ص. ن.

(٤٥) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٣٢.

(٤٦) - Jouplain, la Question du Liban, p. 116.

(٤٧) - Puget de St. Pierre, Histoire des Druzes, pp. 59 - 60 et

- Roger, E., La Terre Sainte, p. 305.

إلا أن هذه الاتهامات لم يكن لها أساس من الصحة. فالمعروف أن الأمير بنى مسجداً باسمه في دير القمر وآخر في صيدا، وانه كان يقيم الصلاة ويصوم رمضان في أثناء وجوده بتوسكانة، حتى انه اتهم من قبل سلطات ذلك البلد بأنه بنى مسجداً في المنزل الذي كان يقطنه. (الخالدي، المصدر السابق، ص. ٢٣٥) ولكن ذلك لم يكن ليمنع أعداءه من إلصاق التهم به للتخلص منه، خصوصاً أن تعامله مع التوسكانيين وتسامحه مع المسيحيين كانا أمرين مشهورين عنه.

(٤٨) المحبي، المصدر السابق، ج ٣ : ٣٨٦.

(٤٩) الخالدي، المصدر السابق، ص. ٢٤٤.

(٥٠) قال المحبي: «وأمر - أي الكجك - كافل حلب نوالي باشا وجميع أطراف الشام، كطرابلس وغزة والقدس ونابلس واللجون وعجلون وحمص وحماه، أن يكونوا تبعاً له وهو رئيسهم» (المحبي، المصدر السابق، ج ٣ : ٣٨٦)، وذكر الشدياق ان الكجك استدعى إليه «الأمير علياً اليمني والأمير حسين سيفا والأمير محمد الحرفوش وأخاه الأمير حسيناً» (الشدياق، المصدر السابق، ج ١ : ٢٩٠) وانظر أيضاً (الخالدي، المصدر السابق، ص. ٢٤٤).

(٥١) - Puget de St. Pierre, op. cit., p. 61 et

- Roger, E., op. cit., p. 306.

إلا أننا نستبعد اشتراك قوات من مصر بهذه الحملة، خصوصاً أن المراجع العربية الأساسية كالخالدي والمحبي، لم تأتِ على ذكرها.

(٥٢) إلا أن هذا الأسطول لم يصل إلى شواطئ الأمير في الوقت المناسب، إذ انه تعرض، عند جزيرة «كيو» (Chio)، لمركبين انكليزيين بقصد مصادرة ما فيهما من بضائع، فجرت بين الأسطول والمركبين معركة أدّت إلى إيقاع خسائر كبيرة بسفن الأسطول، مما اضطر قائده إلى أن يعود بأسطوله إلى الآستانة، حيث قضى مدة شهر بإصلاح الأضرار الناجمة عن المعركة.

- (Puget de St. Pierre, op. cit., pp. 63 - 64 et Roger, E., op. cit., pp. 306-307).

(٥٣) الخالدي، المصدر السابق، ص. ٢٤٥، والشدياق، المصدر السابق، ج ١ : ٢٩٠، إلا أن بيجيه دي سان بيير (Puget de St. Pierre) يرى أن الأمير قد جمع جيشاً من ٢٥ ألف مقاتل وزّعه إلى ثلاث فرق: الأولى بقيادة ابنه الأمير علي ومهمتها التصدي لباشا دمشق الذي لم يكن لديه أكثر من ١٢ ألف مقاتل. والثانية بقيادة ابنه الأمير حسين وأخيه الأمير يونس، ومهمتها التصدي لأمراء العرب وباشا القاهرة الآتين من الجنوب، والثالثة بقيادته هو وقد احتفظ بها لحماية الشواطئ.

(Puget de St. Pierre, op. cit., p. 62).

ولكن أحداً من المؤرخين لم يأخذ بهذا الرأي.

(٥٤) - P. de St. Pierre, Ibid., p. 65.

(٥٥) الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، ص. ٢٠٤.

(٥٦) الخالدي، المصدر السابق، ص. ٢٤٦ - ٢٤٧، والمحبي، المصدر السابق، ج ٣ : ٣٨٦، والشدياق، المصدر السابق، ج ١ : ٢٩١. وقد روى المحبي صيغة مختلفة للحوار الذي جرى بين الأمير علي

وقاتله وهي على الشكل التالي: «وكان من الاتفاق العجيب أن بعض الشجعان صادفه - أي الأمير علياً - فطعنه برمح رماه عن جواده وما عرفه. فأتاه رجل من الجند وكان خدم الأمير علياً في مبدئه فنزل إليه ليحز رأسه فعرفه الأمير علي فقال له: خلصني ولك عليّ من المال ما تريد فقال له: إن بقاءك بعد هذه الجراح محال، ثم قطع رأسه» (المحبي، م. ن. ص. ن).

(٥٧) الشدياق، المصدر السابق، ج ١ : ٢٩١. وهذه الرواية ذكرها الشدياق دون الخالدي والمحبي اللذين اكتفيا بذكر هزيمة الشهابيين ومقتل الأمير علي، وربما كان ذلك صحيحاً إذا كانت النجدة المومى إليها قد وصلت في آخر القتال، وبدء انسحاب العثمانيين من ساحة المعركة. إلا أن رواية خاصة بالمؤرخين الأوروبيين «بيجيه دي سان بيير وأوجين روجيه»، وأخرى مشابهة «لدارفيو»، تختلف عن رواية الخالدي والشدياق وغيرهما من المؤرخين العرب، فتقول ان الأمير علياً فاجأ الوالي الذي لم يكن معه أكثر من اثني عشر ألفاً فقاتله في معركة عنيفة انتهت بهزيمة جند الوالي وقتل نحو ثمانية آلاف من جنده «وعدد أقل من هذا العدد قليلاً من جيش الأمير»، ولكن، في اليوم التالي، وصلت إلى الوالي نجدة من حلب، فشن على الأمير هجوماً عنيفاً، ودارت بين الفريقين معركة ضارية حيث «لم يبق مع الأمير من الأربعة آلاف مقاتل الذين بقوا له بعد معركة اليوم الأول سوى ١٤٦ مقاتلاً، ولم يبق مع الوالي من الإثني عشر ألفاً سوى ألف وستماية وواحد وأكثرهم مصاب إصابة مميتة». وفي هذه الأثناء، كان الأمير علي قد أنهك من جراء القتال وجرح حصانه، فاستسلم إلى أحد جنود الباشا بعد أن وعده بمكافأة، إلا أن هذا الأخير عرفه فخنقه بفتيل بندقيته واحتز رأسه وأخذه إلى سيده الوالي.

(P. de St. Pierre, op. cit., p. 67 - 69, E. Roger, op. cit., pp. 306 - 307 et d'Arvieux, Mémoires, pp. 370 - 371).

إلا أننا لن نأخذ بهذه الرواية التي لم يؤيدها أحد من المؤرخين الآخرين.

(٥٨) الشدياق، المصدر السابق. ج ١ : ٢٩١، وقد أسر الأمير يونس وابنه حمدان حيث سجنا وعذبا حتى الموت، أما الأمير ملحم ففرّ لاجئاً إلى الأمير طربيه بعجلون.

(٥٩) الخالدي، المصدر السابق، ص. ٢٤٧.

(٦٠) م. ن. ص. ٢٤٨، والشدياق، المصدر السابق، ج ١ : ٢٩٢، والشهابي، المصدر السابق، ج ١ : ٧١٨.

(٦١) الشدياق، م. ن. ص.ن، والشهابي، م. ن. ج ١ : ٧١٩.

(٦٢) الشدياق، م. ن. ج ١ : ٢٩١. وذكر المؤرخان (روجيه وسان بيير) ان الأسطول انتقل من بيروت إلى صيدا حيث كان الأمير مع نحو عشرة آلاف مقاتل من رجاله، وحاول الأمير التفاوض مع قائد الأسطول إلا أنه لم يفلح، واستولى الأسطول العثماني على صيدا وقلعتها، بينما غادرها الأمير

برجاله إلى بيروت، فلحق به الأسطول واحتل بيروت من جديد، وفي هذه الأثناء وصله نبأ مصرع ابنه علي فلجأ برجاله إلى الجبال، بينما غادر الأسطول بيروت وصيدا بعد ذلك بقليل، وقبل أن يبدأ والي الشام حملته على قب الياس وبلاد الشوف. إلا أن أحداً من المؤرخين العرب والأجانب، وخصوصاً المعاصرين منهم للأمير، لم يذكر هذه الرواية.

(٦٣) من المرجح أن يكون ذلك في مطلع فصل الشتاء أي في أواخر العام ١٦٣٣، وليس في عام ١٦٣٤ كما ورد عند الشدياق (ج ١ : ٢٩٢).

(٦٤) الشدياق، م. ن. ج ١ : ٢٩٢، والخالدي، المصدر السابق. ص. ٢٤٨. وذكر الخالدي، وكذلك الشدياق، وسواهما، أن الوالي عاد فقبض على الأمير يونس وابنه حمدان وعذبهما في الأسر حتى توفيا، ثم أعدم آل شهاب من وادي التيم بالجملة، إذ أرسل إلى قائد جنده في حاصبيا يأمره بقتل الأمير علي وولديه الأميرين محمد وحسين، وقتل هو الأمير قاسم الذي كان بين يديه، ثم قصد راشيا فقتل الأمير أحمد (الشدياق، م. ن. ج ١ : ٢٩٣)، والخالدي، م. ن. ص. ٢٤٩). أما من بقي على قيد الحياة من أبناء الأمير فخر الدين فهو الأمير حسين الذي أسر في قلعة المرقب وعمره ١٣ عاماً، ثم أخذه قائد الأسطول جعفر باشا إلى الآستانة ووضعه في خدمته حيث تلقى العلوم وترقى في الرتب السلطانية وتولى عدة مناصب في الدولة. (المرادي. سلك الدرر، ج ٢: ٥٩ - ٦٠).

والجدير بالذكر أن الأمير فخر الدين حاول، في أثناء هذه الحملة، أن يستحث أصدقاءه التوسكانيين والأوروبيين لنجدته، إلا أنه عبثاً حاول ذلك، وحدثنا الأب قرألي انه وجد بين الوثائق المديتشية تقريرين «قدما إلى الفراندوق فرناندو الثاني عن حملة السنة ١٦٣٣، وكتبا بإيعاز من الأمير، لعل صديقه يتحرك لنجدته». التقرير الأول وجهه الأب ادريان إلى الفراندوق، وصدر عن صيدا في ٢٢ آب ١٦٣٣، بتوقيع «الأخ ادريان دولا بروس الكبوشي رئيس الرسالة في الشرق الأدنى». والثاني قدمه بطرس لوجيده (Logidet) الفرنسي إلى الفراندوق بناء لطلب من الأمير الذي أوعز إليه أن يزور بلاط توسكانة ويقدم إلى الفراندوق تقريراً عن «حالة الأمير فخر الدين أمير صيدا» لعله يحمله على إغاثته، وقد ختم لوجيده تقريره هذا بقوله «والكثيرون يعتقدون أن سموك لا بدّ أن ترسل المدد إلى الأمير وهم ينتظرونه بفارغ الصبر». إلا أن كل ذلك لم يدفع أصدقاء الأمير كي يهبوا لنجدته ومدّ يد العون إليه (أنظر: قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٢٤٠ - ٢٤٦).

(٦٥) الخالدي، المصدر السابق، ص. ٦٠ - ٦٣.

(٦٦) م. ن. ص. ٧١ - ٧٢، والشدياق، المصدر السابق، ج ١ : ٢٥٧.

(٦٧) الخالدي، م. ن. ص. ٩٦، والشدياق، م. ن. ج ١ : ٢٦٣.

(٦٨) لا نرى موجباً لشرح هذه المعارك نظراً لأنها لا تكتسب من الأهمية ما يوجب شرحها.

(٦٩) أنظر الفصل الثاني من هذا الباب (٨ - التكتيك وتشكيلات القتال).

(٧٠) - Roger, E., op. cit., p. 295.

(٧١) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٢١٥.

(٧٢) م. ن. ص. ٢٠٣.

(٧٣) سنكتفي بسرد بعض الأمثلة فيما يختص بالتعبئة وغيرها من قواعد القتال التي سيمر ذكرها.

(٧٤) هناك الحصار الراكد أو السلبي وهو الذي يكتفي فيه المحاصر بضرب الطوق حول المكان المحاصَر دون أي عمل آخر سوى قطع الإمدادات والمؤونة والذخائر عن المحاصرين، وهناك الحصار الفاعل أو الإيجابي، وهو الذي يرافقه ضرب المحاصَرين بنار المدافع والبنادق وسواها، أو القيام بهجمات على مراكزهم، أو السعي لاختراق مراكزهم وأسوار حصونهم بقصد تمزيق جهازهم الدفاعي.

(٧٥) الخالدي، المصدر السابق، ص.١٦١.

(٧٦) أنظر شرحاً وافياً لهذه المبادئ عند:

(Bernard, Leçons d'histoire mre, T. I, pp. 5 - 12).

(٧٧) سبق أن ذكرنا أن الأمير وزّع جيشه كما يلي:

أرسل ٦ آلاف مع ابنه الأمير علي إلى عجلون و٣ آلاف مع ابنه الأمير حسين إلى قلعة المرقب و٣ آلاف مع مملوكه قايد إلى قلعة بانياس، وأبقى معه ١٢ ألفاً من السكمان وألفين من رجال الشوف، كما أبقى رجال وادي التيم في بلادهم.

الفصل السادس

الإمارة المعنية بعد فخر الدين
العودة إلى الصراع المسلح بين الحزبين القيسي واليمني

كان انهيار حكم فخر الدين عام ١٦٣٣ نذيراً ببدء تقلص الدولة المعنية وعودتها إلى حدودها الأصلية، إمارة الشوف، إن لم يكن نذيراً ببدء انهيار حكم الأسرة المعنية برمتها. فما أن قضى العثمانيون على حكم الأمير فخر الدين، حتى بعث الخصومة التقليدية بين الحزبين، القيسي بزعامة آل معن، واليمني بزعامة آل علم الدين، بعد أن هدأت ردحاً من الزمن طويلاً بفضل شخصية الأمير وقوته واتساع نفوذه. وقد جرّت هذه الخصومة الفريقين إلى معارك طاحنة انتهت بانتصار المعنيين، فبعد أن أسر الأمير، واقتيد إلى الآستانة، ولّى العثمانيون على إمارة الشوف واحداً من خصوم الأسرة المعنية، هو الأمير علي علم الدين زعيم الحزب اليمني في البلاد، وكان الأمير ملحم بن الأمير يونس المعني قد تمكن من الفرار واللجوء إلى الأمير طربيه بعجلون، ولما ألقى العثمانيون القبض عليه تمكن من الفرار من بين أيديهم ولجأ إلى أحد أنصار أسرته بقرية «عرنا» في سفح جبل الشيخ، ومن هناك أخذ يراسل أنصاره ليجمعهم حوله ويهيئ نفسه لمعركة فاصلة مع العثمانيين وحلفائهم اليمنيين.

لا شك في أن قوة المعنيين العسكرية قد اندثرت بعد هزيمة الأمير فخر الدين وأسره، إذ تشتت جيشه من السكمان، وانفض حلفاؤه جميعاً من حوله، ولم

يبق منهم إلا بقايا الشهابيين الذين تركهم العثمانيون في حالة بائسة بعد أن قتلوا جيمع زعمائهم، وهكذا لم يجتمع لدى الأمير ملحم إلا أنصاره من الحزب القيسي من أهل البلاد، الذين انضموا إليه بدافع من العاطفة الحزبية الحميمة، ولم يتجاوز عددهم الإثني عشر ألف مقاتل، حسب تقدير الأب «ڤيتالي»[١].

- وقعة القيراط (١٦٣٥):

زحف الأمير ملحم، بما اجتمع لديه من جند، من «عرنا» إلى الشوف، حيث انضم إليه عدد كبير من أنصاره القيسيين، بينما حشد الأمير «علي علم الدين» لقتاله، انصاره من الحزب اليمني، مع فرقة من جند الكجك باشا والي الشام، بقيادة مدبره «كاخيته». وفي أرض «القيراط» قرب قرية «مجدل معوش»[٢] بالشوف، التقى الجيشان، ودارت بينهما رحى معركة ضارية انتهت بهزيمة الأمير اليمني وفراره وتشتت جيشه، ومقتل مدبر الكجك باشا وهزيمة جنده بعد قتل عدد كبير منهم[٣]، وكانت نتيجة هذه المعركة وبالاً على فخر الدين وأولاده الأسرى بالآستانة، إذ جدد والي الشام الكجك باشا شكواه للآستانة على آل معن، محرضاً إياها على الأمير فخر الدين، مدعياً أن ما فعله الأمير ملحم في وقعة «القيراط» كان بتحريض من فخر الدين نفسه، مما جعل السلطان ينفذ حكم الموت بالأسرة المعنية الأسيرة لديه، بعد أن كان قد وعد الأمير بالعفو عنه وعن أسرته[٤].

- اضطراب الحكم في إمارة الشوف: ظلت الأمور مضطربة في إمارة الشوف، حيث يتنازع الحكم فيها أميران قويان: ملحم المعني، زعيم القيسية، وعلي علم الدين، زعيم اليمنية، بينما كانت الدولة العثمانية تغذي نار الخلاف بين الحزبين دون أن تحسم النزاع لصالح أي منهما، رغبة منها في إضعاف

الفريقين. وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ تولي الأمير ملحم إمارة الشوف بدلاً من الأمير علي علم الدين، فبينما نرى الشدياق يذكر، في أحداث العام ١٦٣٥، وما بعده حتى العام ١٦٥٠، ان الأمير ملحماً «بقي والياً في الشوف وأزوج ابنته للأمير حسين الشهابي»[٥]، ونرى الأمير حيدر الشهابي يذكر، في أحداث العام ١٦٣٦، أن الأمير ملحماً ظهر «وحكم بلاد الشوف»[٦]، نرى الدويهي يذكر، خلاف ذلك، وفي أحداث العام ١٦٢٦م فيقول: «وفيها أخذ حكم بلاد الشوف الأمير علي بن علم الدين اليمني من قبل نائب الشام، وطفر المشايخ الخوازنة والحبيشية إلى بلاد جبيل»[٧]، ونرى الأب قرألي يذكر أن ملحماً تمكن، في العام ١٦٣٧، من الحصول على إمارة الشوف، مستنداً في ذلك إلى وثائق عثر عليها في محفوظات المجمع المقدس برومية منها:

- رسالة وجهها المطران اسحق الشدراوي، مطران طرابلس، من بيز (Pise) بإيطاليا إلى المجمع المقدس برومية بتاريخ ٢١ شباط ١٦٢٧ جاء فيها «إنني راغب من صميم الفؤاد في الرجوع إلى الوطن، لولا أن رجوعي الآن يعرض كرامتي وحياتي للخطر، بيد أني فاتحت بالأمر السيد أبا نادر - الخازن - القائد العام، فأخبرني انه تلقى من البلاد نبأ مؤداه أن هناك أملاً كبيراً بأن يخلف الأمير فخر الدين في الولاية على البلاد أحد أولاد ابن أخيه»[٨].

- رسالة وجهها الأب يعقوب من الاسكندرية إلى الكردينال بربريني برومية بتاريخ ٢٠ أيار ١٦٣٧ جاء فيها: «... فالأمير ملحم، ابن أخي فخر الدين، يتولى الآن شطراً كبيراً من البلاد برضى السلطان... والأمل كبير أن يستعيد الأمير جميع المقاطعات التي كان يتولاها عمه»[٩].

- رسالة وجهها المطران اسحق الشدراوي، من بيروت، إلى غراندوق توسكانة، بتاريخ ٢٨ أيلول ١٦٣٧، يخبره فيها أن «ابن أخ الأمير فخر الدين يتولى حكم البلاد»[١٠].

يبق منهم إلا بقايا الشهابيين الذين تركهم العثمانيون في حالة بائسة بعد أن قتلوا جيمع زعمائهم، وهكذا لم يجتمع لدى الأمير ملحم إلا أنصاره من الحزب القيسي من أهل البلاد، الذين انضموا إليه بدافع من العاطفة الحزبية الحميمة، ولم يتجاوز عددهم الإثني عشر ألف مقاتل، حسب تقدير الأب «ڤيتالي»[١].

- **وقعة القيراط (١٦٣٥):**

زحف الأمير ملحم، بما اجتمع لديه من جند، من «عرنا» إلى الشوف، حيث انضم إليه عدد كبير من أنصاره القيسيين، بينما حشد الأمير «علي علم الدين» لقتاله، انصاره من الحزب اليمني، مع فرقة من جند الكجك باشا والي الشام، بقيادة مدبره «كاخيته». وفي أرض «القيراط» قرب قرية «مجدل معوش»[٢] بالشوف، التقى الجيشان، ودارت بينهما رحى معركة ضارية انتهت بهزيمة الأمير اليمني وفراره وتشتت جيشه، ومقتل مدبر الكجك باشا وهزيمة جنده بعد قتل عدد كبير منهم[٣]، وكانت نتيجة هذه المعركة وبالاً على فخر الدين وأولاده الأسرى بالآستانة، إذ جدد والي الشام الكجك باشا شكواه للآستانة على آل معن، محرضاً إياها على الأمير فخر الدين، مدعياً أن ما فعله الأمير ملحم في وقعة «القيراط» كان بتحريض من فخر الدين نفسه، مما جعل السلطان ينفذ حكم الموت بالأسرة المعنية الأسيرة لديه، بعد أن كان قد وعد الأمير بالعفو عنه وعن أسرته[٤].

- **اضطراب الحكم في إمارة الشوف:** ظلت الأمور مضطربة في إمارة الشوف، حيث يتنازع الحكم فيها أميران قويان: ملحم المعني، زعيم القيسية، وعلي علم الدين، زعيم اليمنية، بينما كانت الدولة العثمانية تغذي نار الخلاف بين الحزبين دون أن تحسم النزاع لصالح أي منهما، رغبة منها في إضعاف

الفريقين. وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ تولي الأمير ملحم إمارة الشوف بدلاً من الأمير علي علم الدين، فبينما نرى الشدياق يذكر، في أحداث العام ١٦٢٥، وما بعده حتى العام ١٦٥٠، ان الأمير ملحماً «بقي والياً في الشوف وأزوج ابنته للأمير حسين الشهابي»(٥)، ونرى الأمير حيدر الشهابي يذكر، في أحداث العام ١٦٣٦، أن الأمير ملحماً ظهر «وحكم بلاد الشوف»(٦)، نرى الدويهي يذكر، خلاف ذلك، وفي أحداث العام ١٦٣٦م فيقول: «وفيها أخذ حكم بلاد الشوف الأمير علي بن علم الدين اليمني من قبل نائب الشام، وطفر المشايخ الخوازنة والحبيشية إلى بلاد جبيل»(٧)، ونرى الأب قرألي يذكر أن ملحماً تمكن، في العام ١٦٣٧، من الحصول على إمارة الشوف، مستنداً في ذلك إلى وثائق عثر عليها في محفوظات المجمع المقدس برومية منها:

- رسالة وجهها المطران اسحق الشدراوي، مطران طرابلس، من بيز (Pise) بإيطاليا إلى المجمع المقدس برومية بتاريخ ٢١ شباط ١٦٣٧ جاء فيها «إنني راغب من صميم الفؤاد في الرجوع إلى الوطن، لولا أن رجوعي الآن يعرض كرامتي وحياتي للخطر، بيد أني فاتحت بالأمر السيد أبا نادر - الخازن - القائد العام، فأخبرني انه تلقى من البلاد نبأ مؤداه أن هناك أملاً كبيراً بأن يخلف الأمير فخر الدين في الولاية على البلاد أحد أولاد ابن أخيه»(٨).

- رسالة وجهها الأب يعقوب من الاسكندرية إلى الكردينال بربريني برومية بتاريخ ٢٠ أيار ١٦٣٧ جاء فيها: «... فالأمير ملحم، ابن أخي فخر الدين، يتولى الآن شطراً كبيراً من البلاد برضى السلطان... والأمل كبير أن يستعيد الأمير جميع المقاطعات التي كان يتولاها عمه»(٩).

- رسالة وجهها المطران اسحق الشدراوي، من بيروت، إلى غراندوق توسكانة، بتاريخ ٢٨ أيلول ١٦٣٧، يخبره فيها أن «ابن أخ الأمير فخر الدين يتولى حكم البلاد»(١٠).

ومهما يكن من أمر، ومع ميلنا إلى الاعتقاد، مع الأب قرألي، بأن الأمير ملحماً لم يتمكن من الحصول على إمارة الشوف إلا في منتصف عام ١٦٣٧، فإن اضطراب الحكم ظل مستمراً في هذه الإمارة، وظل القتال سجالاً بين الأميرين القويين فيها، الأمير ملحم المعني، زعيم القيسية، والأمير علي علم الدين، زعيم اليمنية، الأول يسعى جاهداً لتثبيت حكمه، حرباً أم سلماً، والثاني يسعى جاهداً للحصول على الإمارة حرباً أم سلماً كذلك(١١).

- وقعة أنصار (١٦٣٨):

كان الأمير علي علم الدين قد لجأ إلى «أنصار» بجبل عامل، مستنجداً بمشايخها من آل منكر ضد الأمير ملحم المعني، فلما علم الأمير ملحم بذلك، جهّز جيشاً من أهل البلاد وقصد «أنصار» لمداهمة الأمير علي فيها، ولكن هذا الأخير تمكن من الفرار وأرسل يطلب النجدة من والي الشام، فأرسل إليه الوالي فرقة من السكمان توجهت لقتال الأمير ملحم، الذي ما أن علم بتوجهها إليه حتى ترك «أنصار» بعد أن هدمها وقتل نحو ألف وخمسماية من أهلها(١٢)، ودخل السكمان مناطق الشوف والمتن والغرب والجرد، من إمارة ابن معن، فخرّبوها وطردوا أهلها(١٣).

- وقعة وادي القرن (١٦٥٠):

لم ييأس الأمير علي علم الدين من السعي للحصول على إمارة الشوف لدى والي الشام «بشير باشا» الذي كان قد ولّي عليها حديثاً، فأغراه الأمير علي بالمال وألحّ عليه بمقاتلة الأمير المعني ليتسلم هو إمارة الشوف، وجهّز «بشير باشا» لذلك جيشاً سار هو على رأسه، متوجهاً إلى الشوف عن طريق «وادي القرن»، ولما علم الأمير ملحم المعني بذلك لاقاه في منتصف الطريق،

في الوادي نفسه، حيث دارت بين الفريقين معركة اشترك فيها، من الجانب القيسي، الأمير ملحم المعني وحليفاه الأميران حسين وقاسم الشهابيان، ومن الجانب الشامي - اليمني: بشير باشا والي الشام والأمير علي علم الدين، وكان عسكر المعني في أعلى الوادي بينما كان عسكر الوالي في أسفلها، مما أعطى الأمير المعني مجالاً أكبر في المناورة والصمود، وقد استمرت المعركة ثلاث ساعات وانتهت بهزيمة الوالي وجرح الأمير علي وتشتت جيشهما[١٤].

وفي العام ١٦٥٨ توفي الأمير ملحم المعني بصيدا بعد أن حكم إمارة الشوف نحو عشرين عاماً تولّى في أواخرها (عام ١٦٥٤) ولاية صفد[١٥].

- حادثة «مزبود» (١٦٦٢) وتولي الأمير أحمد المعني إمارة الشوف (١٦٦٤):

بعد وفاة الأمير ملحم المعني، خلفه ولداه الأميران أحمد وقرقماز على إمارة الشوف، وكان قد عيّن محمد باشا الأرناؤوط والياً على صيدا التي أصبحت ولاية منذ عام ١٦٦٠[١٦]. فسعى للقضاء على حكم الأسرة المعنية في الشوف عن طريق قضائه على الأميرين أحمد وقرقماز.

وكان الأميران قد أحسا بنوايا الدولة ضدهما، خصوصاً بعد وقعة وادي القرن، فلجآ إلى الجبال وامتنعا عن ارتياد صيدا، مكتفين بالتفاوض مع الوالي بواسطة الرسل، وكان الوالي ماهراً في الممالأة والمراوغة طوال ستة أشهر من الحوار بينه وبين الأميرين، حتى تمكن من كسب ثقتهما وجرهما إلى لقاء مع بعض مفاوضيه في جوار «مزبود»، وعيّن الوالي لذلك اللقاء كاخيته «مدبره» حسن آغا الباني ورسم له خطة العمل لتنفيذ المؤامرة ضد الأميرين، وعيّن لمرافقته ومساعدته في التنفيذ عشرين ضابطاً من «ضباطه الشجعان»، وكانت

إشارة بدء تنفيذ خطة اغتيال الأميرين هي أن ينقض الضباط وجندهم عليهما وعلى رجالهما فور أن يستل حسن آغا سيفه.

وفي الوقت المحدّد، وصل الأميران أحمد وقرقماز إلى مكان اللقاء، ومعهما نحو خمسماية رجل من أنصارهما، فتلقاهما الآغا وضباطه بالترحاب، وبدأوا جيمعاً جلسة عمل لوضع صيغة اتفاق بين الفريقين، فيما ظل جنود الأميرين بعيدين عن مكان الاجتماع وقد أخلدوا إلى الأكل والراحة، وقبل أن ينفض الاجتماع، ويستأذن الأميران للإنصراف، استل الآغا سيفه إشارة البدء بتنفيذ المؤامرة، وضرب به الأمير قرقماز فقتله، وانقض الضباط على الأمير أحمد وباقي المرافقين، ولكن الأمير أحمد تمكن من النجاة بعد أن جرح في عنقه، ولم ينج من مرافقيه سوى اثنين فقط، ثم جمع رجاله وعاد بهم إلى الجبل[١٧]، حيث ظل متخفياً حتى عام ١٦٦٤، ففي هذا العام عزل محمد باشا الأرناؤوط عن ولاية صيدا، وظهر الأمير أحمد المعني ليجمع أنصاره القيسيين من حوله، ويسير بهم إلى الشوف حيث أعلن نفسه أميراً عليه، وكان محمد باشا الأرناؤوط قد ولّى عليه الأمير محمد اليمنى بدلاً من الأمير أحمد المعني[١٨]، فشنّ عليه الأمير أحمد حرباً مريرة استمرت طوال سنتين، وكانت أهم معاركها (وقعة الفلفول) التي انتهت بهزيمة اليمنيين واستقلال الأمير المعني بحكم البلاد[١٩].

- **وقعة الفلفول (١٦٦٦)**[٢٠]:

جرت هذه الوقعة في «الغلغول» عند برج بيروت، بين الأمير أحمد المعني وأنصاره من الحزب القيسي، والأمير محمد علم الدين وأنصاره من الحزب اليمني، وكانت هذه المعركة حاسمةً إذ انتهت بهزيمة اليمنيين ومقتل أحد كبار قادتهم (المقدم عبدالله قايدبيه بن الصواف) وفرار الأمير محمد علم الدين إلى دمشق بعد أن تشتت جيشه وقتل منه الكثير، وقد استوطن الأمراء اليمنيون

دمشق بعد هذه الوقعة، واستقل الأمير أحمد المعني في حكم بلاد الشوف والغرب والجرد والمتن وكسروان[٢١]، وقد دام حكمه لهذه البلاد حتى وفاته في الخامس عشر من أيلول عام ١٦٩٧ [٢٢]، لم ينغصه فيه أي منغص، باستثناء ما حدث عام ١٦٩٣ عندما تلقى ارسلان باشا المطرجي، والي طرابلس، أمراً من السلطان أحمد بمحاربة الأمير المعني، بالتعاون مع اسماعيل باشا والي دمشق، ومصطفى باشا والي صيدا، وأحمد باشا والي غزة، ودرسن باشا والي حلب، والأمير موسى بن علم الدين زعيم الحزب اليمني، (بعد أن تلقى هذا الأخير أمراً سلطانياً بتوليه على مقاطعات ابن معن، وهي الشوف والجرد والمتن والغرب وكسروان وإقليما جزين والخروب)[٢٣]، فشن ارسلان باشا وحلفاؤه على الأمير حملة مؤلفة من ١٣ ألف مقاتل من «جماعة اليمنية» وأحزابهم، وبعض القيسية، ومنهم: النكدية والعيدية والشيخ سيد أحمد أبو عذرا اليزبكي والشيخ حصن الخازن[٢٤]. والتأم الجيش في مرج عرجموس بالبقاع[٢٥]، فلما رأى الأمير هول الحملة عليه وضخامتها، وانفضاض معظم أنصاره من حوله، فرّ من الشوف إلى وادي التيم، والتجأ إلى أحد أنصاره هناك الأمير نجم الشهابي، حيث مكث نحو سنة تقريباً، تولّى خلالها الأمير موسى علم الدين حكم البلاد مكانه، ثم ظهر الأمير المعني عام ١٦٩٤ في وادي التيم، وزحف بجيش من أنصاره القيسيين إلى الشوف لطرد الأمير موسى علم الدين، فلما علم الأمير موسى بذلك فرّ هارباً والتجأ إلى مصطفى باشا والي صيدا، وما لبث الأمير ابن معن ان نال عفواً من السلطنة[٢٦]، فاستقر في حكم إمارة الشوف حتى آخر ولايته التي كانت آخر ولاية لآل معن في البلاد.

حواشي الفصل السادس

(١) قرألي، فخر الدين ودولة توسكانة، ج ٢ : ٢٧٠.

(٢) كان سكان هذه القرية من المسلمين فاختلفوا فيما بينهم وتقاتلوا، فاشترى الأمير علي بن فخر الدين القرية منهم عام ١٦٠٩ بإثني عشر ألف قرش وأسكن فيها النصارى. (المعلوف، تاريخ فخر الدين، ص ٩٠ - ٩١).

(٣) الشدياق، أخبار الأعيان، ج ١ : ٢٩٤، وتاريخ الأمراء الشهابيين بقلم أحد أمرائهم من وادي التيم، ص. ٧٠ - ٧١.

(٤) الشدياق، م. ن. ج ١ : ٢٩٤.

(٥) م. ن. ص. ن.

(٦) الشهابي، تاريخه (الغرر الحسان) ج ١ : ٧٢٢ (طبعة مصر).

(٧) الدويهي، تاريخ الأزمنة، ص. ٢٢٧.

(٨) قرألي، المرجع السابق، ج ٢ : ٢٦٧ - ٢٦٨.

(٩) م. ن. ص. ٢٦٨.

(١٠) م. ن. ص. ٢٦٩.

(١١) ذكر المحبي، في حديثه عن سيرة الأمير ملحم المعني، أن هذا الأمير «سعى إلى الإمارة فولي الشوف والغرب والجرد والمتن وكسروان، وكان حازم الرأي عاقلاً له حسن تصرف وانقياد تام إلى جانب السلطنة، فلهذا أبقي مدة تزيد على عشرين سنة» (المحبي، خلاصة الأثر، ج ٤ : ٤٠٩).

(١٢) العرفان سنة ١٩١٠ : ٢٨٦.

(١٣) الشهابي، المصدر السابق، ج ١ : ٧٢٤، وآل صفا، تاريخ جبل عامل ص. ٨٣، والدويهي، المصدر السابق ص. ٢٢٧. وهناك رواية تقول إن الأمير علي علم الدين لجأ إلى أنصار هرباً من السلطان مراد الرابع الذي كان في طريقه من حلب إلى بغداد لمحاربة الفرس، وقد ذكر هذه الرواية العديد من المؤرخين أمثال: الشهابي (م. ن. ج ١ : ٧٢٤). والدويهي (م. ن. ص. ٢٢٧)، والدبس، (تاريخ سوريا، ج ٧ : ١٩٢). إلا أنه يصعب الأخذ بهذه الرواية نظراً للحلف الذي كان قائماً بين الحزب اليمني بزعامة علي علم الدين نفسه وبين السلطنة، والذي أكده تجاوب والي الشام مع نداء الإغاثة الذي أطلقه الأمير اليمني إثر هذه الحادثة بالذات. وللمؤرخ الشيخ علي الزين رأي مماثل لرأينا هذا (الزين، للبحث عن تاريخنا، ص. ٣١٢ - ٣١٤).

(١٤) الشهابي، م. ن. ص. ٧٢٨، والدويهي، م. ن. ص. ٣٤٧، والمحبي، المصدر السابق، ج ٤ : ٤٠٩.

(١٥) المحبي، م. ن. ج ٤ : ٤٠٩، والشدياق، المصدر السابق، ج ١ : ٢٩٥ - ٢٩٦.

(١٦) عيّن علي باشا الدفتردار والياً على صيدا عام ١٦٦٠، وفي العام ١٦٦٢ عزل علي باشا وعيّن محمد باشا الأرناؤوط مكانه (الشهابي، المصدر السابق، ج ١ : ٧٣٢ - ٧٣٣).

(١٧) - D'Arvieux, Mémoires. pp. 420 - 422.

والشهابي، المصدر السابق، ج ١ : ٧٣٤، والدويهي، المصدر السابق، ص. ٣٦٠، والدبس، المصدر السابق، ج ٧ : ٢٠٨.

(١٨) توفي الأمير علي علم الدين في دمشق عام ١٦٦٠ (الدويهي، المصدر السابق، ص. ٣٥٧).

(١٩) الشدياق، المصدر السابق، ج ١ : ٢٩٧، والشهابي، المصدر السابق، ج ١ : ٧٣٤، والدبس، المصدر السابق، ج ٧ : ٢٠٩.

(٢٠) أرّخها الشدياق عام ١٦٦٦ (الشدياق، م. ن. ج ١ : ٢٩٧) وكذلك أحد أمراءوادي التيم في مخطوطة له بالمتحف الوطني ببيروت (تاريخ الأمراء الشهابيين بقلم أحد أمرائهم من وادي التيم، ص. ٧٦) وأرّخها الدويهي عام ١٦٦٧ (الدويهي، م. ن. ص. ٣٦٣) وكذلك الدبس (م. ن. ج ٧ : ٢٠٩) بينما أرخها الشهابي عام ١٦٦٤ (الشهابي، م. ن. ج ١ : ٧٣٤) وقد ملنا إلى رواية الشدياق لأنها الأقرب إلى إجماع المؤرخين.

(٢١) الشدياق، م. ن. ج ١ : ٢٩٧ - ٢٩٨، وتاريخ الأمراء الشهابيين بقلم أحد أمرائهم من وادي التيم ص. ٧٦، والدويهي، م. ن. ص. ٣٦٣، والشهابي، م. ن. ج ١ : ٧٣٤، ومزهر، تاريخ لبنان العام، ج ١ : ٢٩٧، ومن حوادث هذا العام «وقعة النبطية» التي ذكرها بعض المؤرخين العامليين وسنتحدث عنها فيما بعد.

(٢٢) الدويهي، م. ن. ص. ٣٨٢.

(٢٣) الشدياق، م. ن. ج ١ : ٢٩٩.

(٢٤) م. ن. ص. ن. أما الدويهي فذكر أن عديد هذه الحملة كان ثمانية عشر ألف مقاتل وخمسماية (الدويهي، م. ن. ص. ٣٨١).

(٢٥) قال المعلوف إنه اجتمع في مرج عرجموس نحو ١٣ ألف مقاتل وأعيان البلاد لمساعدة ارسلان باشا على خصمه الأمير أحمد المعني (المعلوف، تاريخ مدينة زحلة، ص. ٤٢ حاشية ١).

(٢٦) الشدياق، المصدر السابق، ج ١ : ٣٠٠، والدويهي، المصدر السابق، ص. ٣٨١ والشهابي، المصدر السابق، ج ١ : ٧٤٤ - ٧٤٥.

الفصل السابع

المقاطعات اللبنانية الأخرى

إنه لمن المؤسف حقاً أن تفتقر مكتبتنا التاريخيّة إلى المعلومات الواضحة والمفصّلة عن أحوال المقاطعات التي تكونت منها الدولة اللبنانيّة في القرن العشرين، وهي، بالإضافة إلى الإمارة المعنية، سنجق طرابلس وإمارتا البقاع ووادي التيم ومقاطعة جبل عامل، إذ إن كل ما لدينا من المعلومات المتوافرة عن هذه المقاطعات لا يعدو بعض النتف المنتشرة هنا وهناك في سياق الحديث عن أمور أخرى ذات علاقة بها، باستثناء بعض الكتب التي ظهرت في عهود متأخرة ولا تنطوي إلا على النزر اليسير، وسنحاول في هذا الفصل تنضيد ما استطعنا الحصول عليه من المعلومات عن هذه المقاطعات، في الفترة التي نحن بصدد دراستها.

١ - باشوية صيدا:

في الربع قرن من الزمن الذي فصل بين سقوط فخر الدين وإعلان صيدا عام ١٦٦٠ باشوية ضمّت مقاطعات الشوف والجرد والمتن والغرب وكسروان وإقليمي جزين والخروب، بالإضافة إلى بيروت وجبل عامل، وحتى صفد[١]، كانت صيدا، وما يتبعها من قرى ودساكر، منسية مهملة، فقد هجرها المعنيون هرباً من بطش العثمانيين، وكان حكمهم قد تقلص فاستقر في إمارة الشوف وحدها، ففي الوقت الذي كانت تتنازع إمارةَ الشوف حزبيتان شديدتا العداء حتى الموت، كان العثمانيون يعيّنون على صيدا حاكماً اثر آخر، إلى أن

تمّت تسميتها باشويةً وعيّن علي باشا الدفتردار والياً عليها[٢]، إلا أن علي باشا لم يستقر في الولاية الجديدة أكثر من سنتين خلفه عليها بعدهما، عام ١٦٦٢، محمد باشا الأرناؤوط الذي سبق أن كان حاكماً لصيدا قبل اعلانها ولاية، والذي كان خصماً لدوداً لآل معن[٣].

- **جيش الباشوية:** حدثنا الرحالة دارفيو (D'Arvieux) في مذكراته[٤] بالتفصيل عن هذا الجيش، وكان قد عاصر انشاء هذه الباشوية وزارها بين عامي ١٦٥٩ و١٦٦٠ ويستنتج من حديثه، ما يلي:

- **تأليف الجيش:** يتألف الجيش من:

(أ) سلاح الخيّالة، وهم السكمان.

(ب) سلاح المشاة.

(أ) **سلاح الخيّالة:** ويتألف من ٣ فرق:

- فرقة بقيادة مصطفى بك شقيق الباشا ومركزها بيروت.

- فرقة بقيادة محمد آغا متسلم الباشا ومركزها صفد.

- فرقة مؤلفة من عشر سرايا، بتصرف الباشا، ومركزها صيدا.

يضاف إلى هذه الفرق الثلاث:

- كتيبة الحرس، مؤلفة من ألف خيّال، وتظل برفقة الباشا.

- سرية الحاشية، مؤلفة من مئة خيّال من الشباب الذين يُنتقون من أعمار مختلفة ويُسمون «أولاد الداخل أو إيتش اوغلان (Ych-Oglans)» وسموا كذلك لأنهم لا يخرجون من السراي إلا برفقة الباشا فقط.

- سريتان، كل منهما مؤلفة من مئة خيّال من الخيّالة الألبان، تسمى الأولى «سرية المتطوعين أو غانغولي (Gungulli)» وتسمى الثانية «سرية

المغامرين أو الدالي (Fol ou Deli)» ولا ينخرط في هاتين السريتين سوى الشجعان الذين برهنوا، بالتجربة، عن قدرة معنوية وبدنية خارقة.

- سرية الهجانة، مؤلفة من مئة جمّال وتستخدم لحمل المتاع والأثقال.

- سرية البغّالة، مؤلفة من مئة بغّال وتستخدم لحمل الذخيرة والسلاح والمتاع.

(ب) سلاح المشاة: ويتألف من:

- كتيبة الحرس، مولفة من خمسماية جندي، وتظل برفقة الباشا.

- الكتائب حاميات المواقع، وتشكّل من أبناء البلاد، حسب الحاجة، ومهمتها حماية المواقع العسكرية.

- كتائب المشاة السرج (Serges ou Serigés)، وهذه الكتائب، مع كتائب السكمان، لا تقيم في مواقع ثابتة، وإنما تظل غالباً في أماكن تسمح لها بالتدرب لتكون، عند الحاجة، في خدمة الباشا وبإمرته، وكانت هذه الوحدات جيدة التدريب والتسلح، تتمتع بالشجاعة في القتال والجلَد في العمل.

- فصيلة الموسيقى، مؤلفة من طبّالين وبوّاقين وصنّاجين وزمّارين، مع طبولهم وأبواقهم وصنوجهم وزمورهم.

- السلاح والذخائر: كان سلاح الجند، من خيّالة ومشاة، البنادق القصيرة (Mousquets et Mousquetons) والسيوف والخناجر، باستثناء سرية الحاشية (Ych-Oglans) التي يحمل جنودها، بالإضافة إلى البنادق القصيرة، القوس والنشاب. وكانت ذخائرهم كناية عن ربطات من الفتيل وعلب من البارود وكنانات معبأة بالخرطوش، وجميع هذه الذخائر تستقر في زنانير جلدية لماعة وجميلة.

- **التغذية:** كانت المواد الأساسية من خبز ولحم وزبدة وأرز وقهوة توزّع يومياً على مطابخ الوحدات بمستوى السرية، حيث تطبخ وتوزّع على الجند بإشراف رؤسائهم.

- **اللباس:** كان لباس الجند نظيفاً ومرتباً ولكنه لم يكن موحداً، وهو يتألف عادة من سترة ذات أزرار فوقها زنار من الجلد، وسروال من قماش مختلف الألوان، وحذاء جلدي ذي ساقة تصل إلى ما دون ربلة الساق (برودكان، Brodequin) وهو حذاء الجندي العادي اليومي.

- **الأعلام والرايات:** كان لكل سرية من سرايا الخيالة والمشاة رايتها، وكانت ألوان هذه الرايات تختلف باختلاف الوحدات، هذا بالإضافة إلى أعلام الفرق الكبرى، و«علم الفقر والشهادة» ذي اللون الأحمر، و«علم النبي» ذي اللون الأخضر، وقد كتبت عليه آيات قرآنية تدعو إلى الجهاد في سبيل الله، وعلمين آخرين كتبت عليهما كذلك آيات من القرآن بخطوط ذهبية، وعلم الباشا «التوغ»، وللباشا «توغان»: واحد مركزه في رأس الجيش، وآخر مركزه بين «علم الفقر والشهادة وعلم النبي»[٥] وأعلام أخرى عديدة ومختلفة.

- **المسكن والمأكل:** كان الضباط ينامون ويأكلون مع جنودهم في غرفة واحدة، حيث يسندون أسلحتهم على جدرانها، وينامون جميعاً على حصيرة واحدة بدون وسائد وبدون أغطية سوى معاطفهم، وكان العسكريون يأكلون من إناء واحد، أما قائد الوحدة فكان يأكل من إناء خاص به.

- **الخيل:** تربط خيل الجند في خانات أو اسطبلات خاصة بها، ويعطى كل خيّال كمية محدّدة من الشعير لحصانه يومياً، ويفرض على الجند العناية التامة بصحة خيولهم ونظافتها.

- **الثواب والعقاب، والانضباط:** كان الثواب ترقية أو مكافأة مالية، وكان العقاب ضرباً (الفَلَقة) ينفذه الرئيس نفسه على باطن قدمي الجندي المعاقب

وأمام رفاقه، وعلى الجندي المعاقب، بعد تنفيذ العقوبة، أن يقبل يد رئيسه شاكراً إياه للقصاص الذي ناله، وواعداً بأن يكون أكثر انضباطاً.

أما من حيث الانضباط، «فلا يمكن أن نأمل، في الوحدات العسكرية، انضباطاً وطاعة ودقّة في احترام الرؤساء، أكثر»(٦).

- **روح القطعة (esprit de corps) أو روح الزمالة:**

كان جنود الوحدة يتحلون بروح الزمالة القوية والمتينة، فكانوا يعيشون جميعهم، معاً، بكل هدوء وسلام، في وحدة تامة، دون خصومة أو شجار، يتعاونون في كل وقت، ويتعاملون كإخوة ورفاق سلاح(٧).

٢ - سنجق طرابلس:

أنشئت باشوية طرابلس عام ١٥٧٩ وعيّن يوسف باشا سيفا الكردي والياً عليها، وكانت تشتمل على سناجق حمص وحماه وجبلة والسلمية وطرابلس، وكان سنجق طرابلس يشمل مقاطعات جبيل والبترون وجبة بشري (جبل لبنان) والكورة والزاوية والضنية وعكار والحصن وصافيتا، إلا أن هذا السنجق كان يتسع ويتقلص وفقاً للظروف، ولقوة الباشا السيفي الذي اتخذ مدينة طرابلس عاصمة له، فحصّنها ونظّم الدفاع عنها، ولكن الخطر الأكبر الذي ظلّ يتهدّد هذا السنجق هو الخطر الجاثم في الجنوب، والمتمثل بالأمير فخر الدين المعني الثاني، أمير الشوف، وذلك بعد أن تمكن ابن سيفا من القضاء على العسافيين حكام غزير وكسروان، وقضت الدولة العثمانية على ابن جنبلاط والي حلب الثائر، وقد خسر هذا السنجق معظم أجزائه الجنوبية طوال حكم فخر الدين تقريباً، كما سبق أن بيّنا في فصول سابقة.

وكان ابن سيفا، «رجلاً أميراً ثابت الأساس، طاهر الذيل... أصيلاً نبيلاً» كما وصفه البوريني(٨)، وهو الذي أسّس الدولة السيفيّة «واشتهر عنه عزة

عظيمة ونعمة جزيلة، وقصده الشعراء بالمدائح» فكانت دولته «كما سمعت عن الدولة البرمكية المعتمدية» أهلاً للمعالي والمكارم(٩)، وكان في وسع ابن سيفا أن يجنّد «ثلاثين ألفاً من الرجّالة المسلحين بالبنادق والسيوف العريضة النصال»(١٠)، منهم اثنا عشر ألفاً «من حملة البنادق المدربين على صنوف القتال»(١١)، كما كان يحتفظ في مدينة طرابلس «بسبعماية جندي، منهم مايتان يتناولون رواتب معينة» وكان قد عيّن لحمايته «أربعماية جندي من الدروز والموارنة»(١٢).

ولا شك في أن قوة ابن سيفا، كما مرّ معنا في معاركه ضد الأمير المعني وضد علي باشا جنبلاط، لم تكن قوة يستهان بها، إلا أنها لم تكن لتضاهي، بأي حال، قوّة الأمير المعني(١٣).

وقد كان لدى ابن سيفا، كما لدى الأمير المعني، نوعان من الجند والجيوش:

(أ) **الجيش الوطني**: وهو المكوّن من أبناء البلاد الذين يعبأون في ظروف القتال فقط، وفقاً لنظام التعبئة الإقطاعي المتبع في ذلك العصر، والذي سبق أن تحدثنا عنه بالتفصيل، أي أنهم جند لا رواتب لهم ولا زياً موحداً، ولا تشكيلات منتظمة ودائمة، وإنما يجمعهم الزعيم الإقطاعي، عند الطلب وبناء لدعوة من الباشا، أو لدعوته هو.

(ب) **جيش المرتزقة**: هو المكون من السكمان، وهم عسكريون محترفون ينضوون في وحدات منتظمة ويتقاضون رواتب دائمة.

وكان لدى ابن سيفا، في سنجق طرابلس، عدد كبير من القلاع والحصون والأبراج، في طرابلس وجبل لبنان(١٤)، وفي عكار والحصن وصافيتا، وكانت طرابلس أهم مدنه تحصيناً، إذ كانت محصنة براً وبحراً، فمن تحصيناتها البرية:

- قلعة «سان جيل» (Raymond de St. Gilles): وقد سبق الحديث عنها[١٥]، بالإضافة إلى الأبراج المتنوعة والمنشأة على مدار سور المدينة، وإلى برج «البحصاص» الذي كان يقع على المدخل الجنوبي للبلدة. ومن تحصيناتها البحرية:

- أبراج الميناء: وهي سلسلة من الأبراج الحصينة التي بناها المماليك لحماية المرفأ من هجمات الصليبيين، وزودوها بالجند والسلاح، وعددها في الأصل سبعة أبراج، تمتد من مصب نهر أبي علي شرقاً إلى رأس جزيرة الميناء غرباً[١٦].

وقد وصل ابن سيفا، في أثناء توليه لطرابلس، إلى درجة من السلطان والنفوذ حجب معها «نفوذ الباشا العثماني نفسه في طرابلس»[١٧]، وبلغ نفوذه ولاية الشام عندما تولّى إمرة جيشها، فعيّن سرداراً لهذا الجيش وحارب به الجيشين الجنبلاطي والمعني في «عرّاده» (١٦٠٦) قرب حماه[١٨]، ولم يخسر نفوذه إلا في عهد الأمير فخر الدين حيث انحصر، في وقت من الأوقات، بعكار دون سواها[١٩]، وقد توفي يوسف باشا سيفا عام ١٦٢٤ عن عمر يناهز الثمانين[٢٠].

ولما انتهى حكم آل سيفا في طرابلس عام ١٦٣٥[٢١]، توالى الولاة بعدها على المدينة، فعرفت نحو عشرين والياً في مدى اثنين وستين عاماً (١٦٣٥ - ١٦٩٧) وكان آخرهم رسلان باشا المطرجي (١٦٩٣ - ١٦٩٧)، الذي نهض لمحاربة الأمير أحمد المعني عام ١٦٩٣ كما مرّ معنا.

ليس لدينا معلومات وافية عن الجيش في سنجق طرابلس في هذه الفترة (١٦٣٥ - ١٦٩٧)، ولكن يتبين من المعلومات التي أوردها بعض الرحالة في مذكراتهم، ومنهم الرحالة الانكليزي موندريل (Maundrell)[٢٢]، ان جيش هذا السنجق كان يتألف من:

- السكمان: وقد شاهد منهم بتاريخ ٢٩ نيسان (١٦٩٧) ثلاث سرايا خلف المحمل الشريف بمناسبة انتقاله إلى الحج.

- خيّالة السباهي (Spahis): وقد شاهد منهم بعض السرايا في اليوم ذاته وفي المناسبة نفسها.

- المشاة المغاربة: وقد شاهد منهم ٨ سرايا مجهزة بست قطع من المدفعية، ومهمة هؤلاء المشاة حماية المواقع، ويستبدلون عادة مرة كل عام.

- الإنكشارية: وقد شاهد منهم سريتي خيّالة وعلى رأسهم قائدهم الآغا.

أما عن مواقع المدينة المحصنة، فقد حدثنا الرحالة الفرنسي فيليب دي لاترينيتيه (Philippe de la Trinité) انه لاحظ، خلال رحلته إلى بلاد المشرق عام ١٦٤٦، أن أبراج طرابلس «سبعة، مجهزة بمدافع تصد عنها غارات القراصنة»[٢٣]. كما حدثنا الرحّالة لوبران (Le Brun) عام ١٧٠٠ عن أبراج هذه المدينة المشادة على مدار سورها «بحيث نحسبها حصوناً»، وقد جهزت هذه الأبراج بالمدافع «المعدة دوماً لصد غارات القراصنة المسيحيين»[٢٤]. وأما عن القلعة، فقد حدثنا الرحّالة الفرنسي بوشيه دي لاريكارديير (Boucher de la Ricardière) عام ١٧٠٠ أيضاً أن قلعة طرابلس «مجهزة بمدفعية جيدة ولكن بجند قليل العدد جداً، إذا لم نحسب الأربعماية الذين يتعهدهم الباشا»[٢٥]، بخلاف «موندريل» الذي سبق دي «لاريكارديير» في رحلته إلى طرابلس بثلاث سنوات، فقد ذكر أن هذه القلعة «خالية من أي سلاح أو ذخيرة، بحيث لا تصلح لأن تكون في الواقع إلا سجناً»[٢٦].

وأما عن تنظيم الجيش في هذا السنجق، فهو لا يختلف كثيراً عن تنظيم الجيش في باقي البشالق والسناجق، ويقترب إلى حد كبير مما رأيناه في باشوية صيدا، خصوصاً إن محمد باشا الأرناؤوط، باشا صيدا الذي سبق أن حدثنا

دارفيو (D'Arvieux) عن جيشه في هذه الباشوية، تولّى هو نفسه باشوية طرابلس عدة مرات في هذه الفترة (١٦٣٩ - ١٦٤٤ و ١٦٤٦ - ١٦٤٩ و ١٦٥٢ - ١٦٥٣)[٢٧].

٣ - مقاطعة البقاع:

كانت مقاطعة البقاع، في عهد الأمير فخر الدين، جزءاً من ولاية الشام، ويحكمها أمراء من آل حرفوش، ورغم أن الأمير المعني قد تولاها فترة من الزمن بعد انتصاره في عنجر، إلا أنها ظلت في عهدة الأمراء الحرفوشيين حتى العام ١٨٦٤ عام انقراض هذه الأسرة على يد العثمانيين. ومن الأمراء الحرفوشيين الذين عاصروا فخر الدين:

الأمير موسى الحرفوش، الذي حالف الأمير المعني في معارك عدّة أهمها معركة «نهر الكلب» ضد ابن سيفا، قال المحبي: «كان موسى بطلاً شجاعاً... ركب على الأمير علي بن سيفا صاحب طرابلس الشام بأمر من الوزير محمد باشا... وقتل ابن سيفا في ناحية غزير»[٢٨]، ثم الأمير يونس الحرفوش الذي والى الأمير المعني فترة ثم عاد فانقلب عليه وحاربه في وقعة عنجر الشهيرة.

وكان لدى الحرفوشيين، كما لدى المعنيين والسيفيين، نوعان من الجند والجيوش:

(أ) **الجيش الوطني:** الذي يتألف من أبناء البلاد ويعبأ عند حاجة الأمير للقتال، وهو يتبع النظم الإقطاعية المعمول بها في ذلك العصر لتعبئة الجند كما مرّ معنا.

(ب) **جيش السكمان:** هو جيش من المرتزقة، كالذي عهدناه عند الأمير المعني والباشا السيفي، وقد لعب هذا الجيش دوراً كبيراً في الدفاع عن قلعة

- **السكمان:** وقد شاهد منهم بتاريخ ٢٩ نيسان (١٦٩٧) ثلاث سرايا خلف المحمل الشريف بمناسبة انتقاله إلى الحج.

- **خيّالة السباهي (Spahis):** وقد شاهد منهم بعض السرايا في اليوم ذاته وفي المناسبة نفسها.

- **المشاة المغاربة:** وقد شاهد منهم ٨ سرايا مجهزة بست قطع من المدفعية، ومهمة هؤلاء المشاة حماية المواقع، ويستبدلون عادة مرة كل عام.

- **الإنكشارية:** وقد شاهد منهم سريتي خيّالة وعلى رأسهم قائدهم الآغا.

أما عن مواقع المدينة المحصنة، فقد حدثنا الرحالة الفرنسي فيليب دي لاترينيتيه (Philippe de la Trinité) انه لاحظ، خلال رحلته إلى بلاد المشرق عام ١٦٤٦، أن أبراج طرابلس «سبعة، مجهزة بمدافع تصد عنها غارات القراصنة»[٢٣]. كما حدثنا الرحّالة لوبران (Le Brun) عام ١٧٠٠ عن أبراج هذه المدينة المشادة على مدار سورها «بحيث نحسبها حصوناً»، وقد جهزت هذه الأبراج بالمدافع «المعدة دوماً لصد غارات القراصنة المسيحيين»[٢٤]. وأما عن القلعة، فقد حدثنا الرحّالة الفرنسي بوشيه دي لاريكارديير (Boucher de la Ricardière) عام ١٧٠٠ أيضاً أن قلعة طرابلس «مجهزة بمدفعية جيدة ولكن بجند قليل العدد جداً، إذا لم نحسب الأربعماية الذين يتعهدهم الباشا»[٢٥]، بخلاف «موندريل» الذي سبق دي «لاريكارديير» في رحلته إلى طرابلس بثلاث سنوات، فقد ذكر أن هذه القلعة «خالية من أي سلاح أو ذخيرة، بحيث لا تصلح لأن تكون في الواقع إلا سجناً»[٢٦].

وأما عن تنظيم الجيش في هذا السنجق، فهو لا يختلف كثيراً عن تنظيم الجيش في باقي البشالق والسناجق، ويقترب إلى حد كبير مما رأيناه في باشوية صيدا، خصوصاً إن محمد باشا الأرناؤوط، باشا صيدا الذي سبق أن حدثنا

دارفيو (D'Arvieux) عن جيشه في هذه الباشوية، تولّى هو نفسه باشوية طرابلس عدة مرات في هذه الفترة (١٦٢٩ - ١٦٤٤ و ١٦٤٦ - ١٦٤٩ و ١٦٥٢ - ١٦٥٣)[٢٧].

٣ - مقاطعة البقاع:

كانت مقاطعة البقاع، في عهد الأمير فخر الدين، جزءاً من ولاية الشام، ويحكمها أمراء من آل حرفوش، ورغم أن الأمير المعني قد تولاها فترة من الزمن بعد انتصاره في عنجر، إلا أنها ظلت في عهدة الأمراء الحرفوشيين حتى العام ١٨٦٤ عام انقراض هذه الأسرة على يد العثمانيين. ومن الأمراء الحرفوشيين الذين عاصروا فخر الدين:

الأمير موسى الحرفوش، الذي حالف الأمير المعني في معارك عدّة أهمها معركة «نهر الكلب» ضد ابن سيفا، قال المحبي: «كان موسى بطلاً شجاعاً... ركب على الأمير علي بن سيفا صاحب طرابلس الشام بأمر من الوزير محمد باشا... وقتل ابن سيفا في ناحية غزير»[٢٨]، ثم الأمير يونس الحرفوش الذي والى الأمير المعني فترة ثم عاد فانقلب عليه وحاربه في وقعة عنجر الشهيرة.

وكان لدى الحرفوشيين، كما لدى المعنيين والسيفيين، نوعان من الجند والجيوش:

(أ) **الجيش الوطني:** الذي يتألف من أبناء البلاد ويعبأ عند حاجة الأمير للقتال، وهو يتبع النظم الإقطاعية المعمول بها في ذلك العصر لتعبئة الجند كما مرّ معنا.

(ب) **جيش السكمان:** هو جيش من المرتزقة، كالذي عهدناه عند الأمير المعني والباشا السيفي، وقد لعب هذا الجيش دوراً كبيراً في الدفاع عن قلعة

بعلبك ضد الأمير المعني عند حصاره لها عام ١٦٢٣ - ١٦٢٤، وقدّر عديد هذا الجيش في عهد الأمير يونس بأربعة آلاف جندي.

ولم يكن للجيش الوطني رواتب دائمة أو تشكيلات منتظمة أو زي موحد، لأن تعبئة هذا الجيش كانت تتم بناءً لطلب الأمير وحلفائه أو لطلب الوالي، وهو يتألف من فلاحي الأرض القادرين على حمل السلاح، والذين يعودون إلى أعمالهم المعتادة فور أن ينتهي القتال، بعكس السكمان الذين هم جنود محترفون يتقاضون رواتب محدّدة ودائمة، وينتظمون في تشكلات نظامية ثابتة.

وكان لدى الحرفوشيين في البقاع عدد من القلاع والحصون أهمها:

- **قلعة بعلبك:** وقد حاصرها المعني واحتلها بعد وقعة عنجر مباشرة.
- **حصن اللبوة:** وقد تحصن الحرفوشيون فيه بعد سقوط بعلبك بيد الأمير المعني، فحاصره المعني ثم عاد ففك الحصار عنه بعد اتفاق بينه وبين الحرفوشيين.
- **حصن الكرك:** أو كرك نوح، وقد احتله الأمير المعني عام ١٦٢٣ وهو في طريقه إلى عنجر، وكانت حاميته مؤلفة من مائة خيّال من سكمان الأمير يونس الحرفوش.
- **قلعة قب الياس:** وكانت بيد الأمير المعني طوال أيام حكمه تقريباً.
- **قلعة حدث بعلبك، وحصن القردوح، وسواهما.**

وكان المشاة من جند الحرفوشيين يتسلحون بالبنادق والسيوف المريضة النصال، أما خيّالتهم فكان سلاحهم البنادق والسيوف والدبابيس والتروس، تماماً كسلاح المشاة والخيّالة في جيوش المعني والسيفي. أما عديد الجيش فلم يعرف رقم محدّد له، وإن قدّره بعضهم بخمسة عشر ألف مقاتل من السكمان وأبناء البلاد(٢٩).

وقد ازداد نفوذ الحرفوشيين وقوي حكمهم في بعلبك والبقاع بعد موت فخر الدين وضعف الدولة المعنية، فأخذوا «يتلاعبون بمقاطعتي طرابلس وصيدا المجاورتين تلاعباً كبيراً»[٢٠]، وكانت لهم حروب عديدة مع جيرانهم الشهابيين أمراء وادي التيم، منها القتال الذي جرى بين الأمير عمر الحرفوش والأمير فارس الشهابي، عام ١٦٨٠، إثر احتلال الأمير فارس لبلاد بعلبك بألفي خيّال وراجل من جنده، وفرار الأمير عمر من وجهه إلى أن تمكن من إعادة تنظيم صفوفه، وانطلق لقتال الأمير فارس عند قرية «يونين» في العام نفسه، ودار بين الفريقين قتال شديد انتهى بهزيمة الأمير فارس الشهابي ومقتله وتشتت جيشه وخروج الشهابيين من البقاع[٢١]، كما كانت لهم حروب مع والي طرابلس علي باشا النكدلي، الذي دخل البقاع عام ١٦٨٦ فأحرق «العاقورة وأربعين قرية من قرى بني حماده» وعسكر بعدها عند «عين الباطيه» طلباً للراحة، إلا أن آل حماده والحرافشة باغتوا جيش الوالي ليلاً فهاجموه وقتلوا منه نحو خمسة وأربعين رجلاً، «وانهزم العسكر، وعاد علي باشا إلى طرابلس»[٢٢].

ورغم ما وصلنا عن الأمراء الحرافشة في هذه الفترة من أخبار، لم نتمكن من الحصول على معلومات واضحة ترشدنا إلى تقدير صحيح لقوتهم العسكرية، ولكن ذلك لا يمنعنا من القول إنهم كانوا كباقي الإقطاعيين، يطبقون النظم الإقطاعية المعروفة في التجنيد والتعبئة، بالإضافة إلى استخدامهم لجيش من المرتزقة السكمان وسواهم.

٤ - إمارة وادي التيم:

توالى الأمراء الشهابيون على حكم هذه الإمارة دون انقطاع، حتى نهاية حكم الأسرة المعنية في إمارة الشوف عام ١٦٩٧، واندماج الإمارتين معاً في

ظل الأسرة الشهابية، كما ان تحالفهم مع المعنيين ظل مستمراً طوال حكم الأسرة المعنية.

إلاّ أنه، في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني، تنازعت إمارة وادي التيم زعامتان قويتان تنافستا على السلطة فيها، مما أدّى إلى وقوع صراع عنيف بينهما وصل إلى حدّ القتال الدموي، هاتان الزعامتان هما الأميران علي وأحمد ابنا الأمير قاسم الشهابي، وقد أثّر خلافهما هذا على علاقات التحالف بين الأسرتين الشهابية والمعنية، فكان الأمير علي حليفاً للأمير فخر الدين، بينما كان الأمير أحمد خصماً له وحليفاً لخصمه والي الشام، وبعد معركة عنيفة جرت بين الأخوين في شويا قرب حاصبيا عام ١٦١٩، تدخل الأمير فخر الدين لإصلاح ذات البين وإنهاء النزاع المزمن بينهما، بأن قسّم وادي التيم بينهما، ورضي الأميران الشهابيان بهذه القسمة، فحكم الأمير علي وادي التيم الأسفل وقاعدته حاصبيا، وحكم الأمير أحمد وادي التيم الأعلى وقاعدته راشيا(٢٢)، واعترف كل منهما للآخر باستقلاله وسيادته على المنطقة التي يحكمها، فصار لوادي التيم قاعدتان أو عاصمتان: حاصبيا وراشيا، واتحد الأميران الشهابيان معاً، بعد ذلك، واتفقا على أن يقفا إلى جانب الأمير المعني ضدّ كل الخصوم، وبالفعل، فقد وقفا إلى جانب فخر الدين في وقعة عنجر الشهيرة عام ١٦٢٣، فكان معهما من رجالهما، في الصفوف المتقدمة من ساحة القتال، نحو ألف مقاتل، ووقفا إلى جانبه في حملته الثانية على فلسطين عام ١٦٢٤، كما انتصر له أولادهما في معركته الأخيرة ضد العثمانيين عام ١٦٣٣.

وظلّ تحالف الشهابين مع المعنيين مستمراً بعد سقوط فخر الدين، فقد قاتل الأميران الشهابيان، قاسم وحسين، إلى جانب الأمير ملحم المعني عام ١٦٥٠، في وقعة وادي القرن، ضد بشير باشا والي الشام وحليفه الأمير علي علم

الدين، وفي عام ١٦٦٠ فرّ الأميران الشهابيان منصور وعلي، حاكما وادي التيم، من وجه مرتضى باشا والي الشام وحلفائه اليمنيين، ولجآ إلى الجبل الأعلى بالقرب من حلب، فاستدعاهما الأمير أحمد المعني، بعد انتصاره على اليمنيين في وقعة الفلفول عام ١٦٦٦، وسلّم كلاً منهما إمارته «فأقام الأمير منصور في حاصبيا، والأمير علي في راشيا»[٣٤]، وفي عام ١٦٩٣، عندما فرّ الأمير أحمد المعني من وجه أرسلان باشا والي طرابلس، إثر الحملة العسكرية الضخمة التي وجّهها ضدّه، لجأ إلى حليفه وقريبه الأمير نجم الشهابي حاكم حاصبيا، ومن هناك انطلق من جديد عام ١٦٩٤، بعد أن جمع صفوفه ونظّم جيشه، ليستعيد حكم إمارته من الأمير موسى علم الدين اليمني، وقد شارك الأميران الشهابيان، نجم أمير حاصبيا، وبشير أمير راشيا، في هذه الحملة، إلى جانب الأمير المعني[٣٥]. وكان للشهابيين في وادي التيم عدد من القلاع المحصّنة مثل:

- **قلعة بانياس:** وكانت بيد الأمير فخر الدين المعني الثاني طوال مدة حكمه، نظراً للتحالف الوطيد الذي كان قائماً بين الإمارتين المعنة والشهابية.
- **قلعة راشيا:** وكانت بيد الأمير أحمد الشهابي[٣٦].

ولم نتمكن من الحصول على معلومات وافية تساعدنا على تحديد عديد الجيش الشهابي في هذه الفترة، باستثناء ما ذكره المحبي من أن الأمير منصور أمير حاصبيا وابن عمه الأمير علي أمير راشيا، قد خرجا عام ١٦٦٠م (١٠٧١هـ) لقتال مرتضى باشا المعين حديثاً لولاية الشام، بأربعة عشر ألف مقاتل، قال المحبي: «فجمعوا - أي منصور وعلي - من بلادهم جمعاً عظيماً وجاؤوا بهم إلى دمشق، ثم تجمّع العسكر وخرج الفنيان، ومعهما من الرعاع والأوباش ما ضبط فكان أربعة عشر ألفاً»[٣٧].

كذلك لم نعرف عن الشهابيين أنهم جنّدوا مرتزقة من السكمان أو سواهم، ولكن المؤكد أنهم اتبعوا المبادئ التي كانت سائدة في المقاطعات الأخرى لجهة تجنيد أبناء البلاد وتعبئتهم وفقاً لحاجات الأمير الإقطاعي ومتطلبات المعركة.

٥ - مقاطعة جبل عامل:

كان جبل عامل مقاطعة تابعة لسنجق صفد، وقد التزم الأمير فخر الدين المعني الثاني هذا السنجق، وجبل عامل ضمنه، من مراد باشا والي الشام عام ١٦٠٣، ونازعه عليها بعد ذلك الأمير يونس الحرفوش أمير البقاع، وكان ذلك سبباً لخصومات ومعارك شديدة بين الطرفين انتهت باستقرار حكم الأمير المعني في جبل عامل طوال مدة حكمه في إمارة الشوف، حتى أن العامليين حاربوا إلى جانب المعنيين ضد آل سيفا، في وقعة الناعمة عام ١٦٠٦، وبقيادة ابنه الأمير علي، وكانت ميسرة الجيش المعني في هذه الوقعة مؤلفة من العامليين ومن رجال الأمير علي الشهابي حاكم وادي التيم(٣٨)، كما حارب العامليون إلى جانب المعنيين في معارك أخرى عديدة أهمها: حملة الأمير على عكار عام ١٦١٨ - ١٦١٩، وكانوا بقيادة ابنه الأمير علي، ومعركة عنجر الشهيرة عام ١٦٢٣، وكان للعامليين في هذه المعركة فرقة قوامها ألف رجل بقيادة مصطفى مدبر الأمير فخر الدين، ومعركة (فارا) في فلسطين عام ١٦٢٣، وكانوا بقيادة طويل حسن بلوكباشي.

وكان جبل عامل، في هذا العهد، خاضعاً لأسر إقطاعية تستقل كل منها بحكم إقطاعة من هذه المقاطعة، على أن تلتزم بدفع ما يتوجب عليها من ضرائب للأمير، وبتأمين الطرق وحفظ الأمن داخل حدودها، وأن تلبي،

بالرجال والفرسان، دعوة الأمير للقتال[٣٩]، وقد ظل على هذه الحال رغم دخوله في باشوية صيدا عام ١٦٦٠ كما سبق أن قدمنا.

ورغم أن العامليين خاضوا، إلى جانب الأمير فخر الدين، إبان حكمه، معارك عديدة، ضدّ خصومه العثمانيين والسيفيين وقبائل العرب في فلسطين، فإنهم خاضوا كذلك، وفي فترة الحكم المعني بالذات، معارك ضدّ المعنيين أنفسهم وضدّ الولاة العثمانيين، نذكر أهمها:

- **وقعة أنصار** (١٦٣٨): في الأصل، بين الأمير ملحم المعني والأمير علي علم الدين اليمني، ولكن يظهر أن العامليين انحازوا إلى الأمير اليمني وحاربوا إلى جانبه، فقتل منهم نحو ألف وخمسماية قتيل حسبما ورد عند معظم مؤرخيهم[٤٠]، بينما فرّ الأمير علي علم الدين إلى دمشق مستنجداً بواليها ضدّ ابن معن، وقد سبق أن تحدثنا عن هذه الوقعة.

- **وقعة عيناتا** (١٦٦٠)(*): جرت بين العامليين وعلي باشا الكبرلي أول والٍ على باشوية صيدا، ولم يصلنا أي تفصيل لها، فقد ذكرها الشيخ علي السبيتي في المجموعة التي نشرها في مجلة العرفان إذ قال: «إن الشيعيين، في أوائل حكم الأتراك العثمانيين، وقعت بينهم وبين الطوائف المجاورة عدّة معارك كانت الحرب فيها سجالاً، فمنها معركة أنصار سنة ١٠٤٨هـ - ١٦٣٨م، مع الأمير ملحم بن معن، ومعركة عيناتا سنة ١٠٧٠هـ - ١٦٥٩م، ومعركة النبطية سنة ١٠٧٧هـ - ١٦٦٦م ومعركة وادي الكفور سنة ١٠٧٨هـ - ١٦٦٧م، الخ...»[٤١] دون أن يذكر أي تفصيل عن هذه الوقعة، كذلك ذكرها المؤرخ

(*) ذكرها السبيتي ضمن أحداث العام ١٠٧٠هـ. (١٨ أيلول ١٦٥٩ - ٨ آب ١٦٦٠) وذكرها الشهابي ضمن أحداث العام ١٠٧١ هـ. (٦ أيلول ١٦٦٠م. - ٢٨ تموز ١٦٦١م.)، وبناء عليه، قدرنا أنها جرت خلال عام ١٦٦٠ م. خصوصاً انها جرت فور وصول علي باشا إلى هذه البلاد وتسلّمه باشوية صيدا التي أنشئت في هذا العام (المؤلف).

الأمير حيدر أحمد الشهابي، في أحداث العام ١٠٧١هـ - ١٦٦١م، إذ قال: «وفي هذه السنة قدم علي باشا والي صيدا وهو أول من تولاها من الباشوات، وكانت فتنة عظيمة بينه وبين مشايخ المتاولة»(٤٢)، دون أن يذكر أسباب هذه الفتنة وموقعها، وذكرها المؤرخ محمد تقي آل فقيه مستنداً في تحديد موقع المعركة إلى كتاب «جبل عامل في قرنين» وهو المجموعة التي نشرها الشيخ علي السبيتي في العرفان والتي أشرنا إليها سابقاً(٤٣)، ويكتفي آل فقيه من ذكر هذه الوقعة بقوله: «إن الأمير ملحم مات سنة ١٠٧٠هـ وفرّ ولداه قرقماز وأحمد، وأصبحت صيدا باشوية، ودخلها الباشا على أثر هذا الانقلاب، فحاول العامليون استغلال الموقف، فقامت الحرب على ساق بينهم وبين الباشا الجديد، وكانت الخسائر فادحة والضحايا كثيرة والواقعة عظيمة»، ويضيف قائلاً «ولا نعرف ماذا عقبته، ولا أي شيء انتجته على التفصيل، غير أننا نظن أنهم - أي العامليون - تولوا إدارة البلاد بأنفسهم»(٤٤).

- **وقعة النبطية (١٦٦٦)**: جرت بين العامليين والأمير أحمد المعني آخر حكام المعنيين، وقد ذكرها السبيتي في مجموعته مشيراً إلى انتصار المشايخ العامليين فيها(٤٥)، وأوضح الشيخ أحمد رضا بعض أسبابها فقال: «واغتنم المتاولة فرصة الوهن الذي طرأ على الحكومة المعنية في زمن الأمير أحمد، فأعلنوا استقلالهم عن لبنان وخرجوا عن طاعة أمرائه، فغزاهم الأمير أحمد سنة ١٠٧٧هـ في النبطية مقر الصعبية حكامها، فارتد عنها عسكره منهزماً بعد ملحمة كبرى، فاستجاش عليها والي صيدا، فأتاها هذا في العام القابل غازياً، وكان نصيبه كنصيب صاحبه المعني، حيث لحق المتاولة المنهزم إلى عين المزراب قرب صيدا»(٤٦)، وذكرها الشيخ سليمان ظاهر بقوله: «من الحوادث التي وقعت في النبطية، ولم يذكرها المؤرخان الدبس والشدياق، وجاء ذكرها في المخطوطات العاملية، ان الأمير أحمد المعني جاءها سنة

١٠٧٧هـ في أربعة الاف رجل لمقاتلة بيت أبي صعب، فقاتلوه وكسروه كسرة عظيمة وقتلوا من عسكره زهاء مايتي رجل وقتل منهم خمسة رحال»[٤٧]، إلا أن محمد جابر آل صفا روى هذه الوقعة بشكل آخر ربما كان أقرب إلى المنطق والواقع إذ قال: «حتى إذا... ظهر الوهن في حكومة المعنيين، نهض زعماء العشائر من بني عاملة واجتمعت كلمتهم... فنظموا صفوفهم وثاروا في سنة ١٠٧٧هـ = ١٦٦٦م ثورة رجل واحد، وطردوا عمال أرسلان باشا وفتكوا فيهم، فأرسل الوالي حملة عليهم مستعيناً بجنود آل معن، فنازلوهم في النبطية ووادي الكفور وكان الفوز للشيعيين»[٤٨].

- **وقعة وادي الكفور (١٦٦٧):** ذكرها بعض المؤرخين العامليين مثل السبيتي وآل صفا وآل فقيه (نقلاً عن السبيتي) دون أن يذكروا أي تفصيل لها، كما لم يذكرها باقي المؤرخين أمثال الشهابي والدويهي والدبس والشدياق، وربما كانت امتداداً لوقعة النبطية كما صنّفها آل صفا أعلاه، مبيناً أن الحملة التي أرسلها الوالي، بالتعاون مع المعنيين، قاتلت العامليين «في النبطية ووادي الكفور».

- **معارك أخرى:** وقد أشار بعض المؤرخين العامليين إلى معارك أخرى جرت في هذه الفترة دون أن يسموها، فقال الشيخ أحمد رضا، بعد ذكره لوقعتي أنصار والنبطية «ثم استعرت نار الوقائع بين أمراء لبنان ومشايخ المتاولة فكانت بينهما سجالاً»[٤٩]، وقال الأستاذ آل صفا بعد ذكره لوقعة النبطية، «ودامت المناوشات والمعارك نحو ثلاثين سنة، حتى سنة ١١٠٩هـ = ١٦٩٧م»[٥٠]، وقد تبعهم في ذلك بعض المؤرخين العامليين الآخرين مثل آل فقيه[٥١] وسواه، إلا أننا لا نجد لذلك أثراً عند مؤرخين آخرين أمثال الشهابي والدويهي والدبس والشدياق، وربما كان مرد ذلك هو أن جبل عامل لم يكن في هذه الفترة تحت سلطة المعنيين مباشرة.

وكان العامليون يخضعون، في مجال التجنيد والتعبئة، إلى النظم الإقطاعية السائدة في ذلك الحين، إلا أن أحداً من المؤرخين، العامليين أو سواهم، لم يحدّد عدد الجند الذي كان يمكن لإقطاعيي هذا الجبل أن يجندوه أو يعبئوه في ظروف القتال في هذه الفترة(٥٢)، كذلك لم يعرف عن العامليين أنهم استخدموا جنوداً مرتزقة كالسكمان وسواهم.

ويحاول المؤرخ آل صفا أن يحلّل، في كتابه (تاريخ جبل عامل)، الشخصية العسكرية العاملية، ورغم أنه يقع، كثيراً من الأحيان، في المبالغة، إلا أنه يظل يقدّم، فيما كتب، للقارئ وللمؤرخ، فائدة تذكر. فالعاملي، حسب رأيه «من أسرع الشعوب لحمل السلاح»(٥٣). يمتني إلى حدٍّ كبير بأساليب القتال فيتقنها(٥٤)، ويولي قلاعه عناية فائقة بقصد إعدادها للدفاع فيرممها ويحصّنها ويشحنها بالأسلحة والمقاتلين(٥٥)، ويظل على مستوى مرموق من التنظيم، وفي حال دائمة من اليقظة والحذر، فهو مستعد دوماً «لخوض غمار المنايا والمبادرة للنجدة وحمل السلاح» لدى سماعه أول طلق ناري أو لدى أية إشارة من زعمائه وقادته(٥٦). وإذا كان آل صفا قد تفرّد بهذا التحليل للشخصية العسكرية العاملية، فقد وافقه عليه، إلى حدٍّ كبير، الشيخ أحمد رضا(٥٧) الذي ذكر، في مجال الحديث عن تضامن العامليين في الحروب، أن راعياً أطلق عياراً نارياً لصدّ وحش ليلاً فتجاوبت جميع القرى المتصلة بإطلاق النار، اعتقاداً منها أن عدواً يهاجم القرية «وما انجلى عمود الصبح حتى كانت الألوف ترد وتحتشد، والفرسان مهيأة للطعان»(٥٨).

ويحدثنا بعض المؤرخين العامليين أن الأسر الإقطاعيّة التي كانت تحكم جبل عامل، في ذلك الحين، كانت تلتزم، مبدئياً، بما يلتزمه رجال الإقطاع تجاه السلطة المركزية من «تأمين الطرق وحفظ الأمن داخل المقاطعة» وأن يلبي الإقطاعي، «برجاله وفرسان مقاطعته، دعوة والي الايالة عند وقوع حرب أهلية

أو دولية، ويشترك في أية معركة يوجّه إليها»، ولا غرو فقد كان الشعب العاملي، كما يصفه أحد مؤرخيه «شعباً حربياً باسلاً يهزأ بالمنايا، ويرى الموت حياة خالدة تحت شفار السيوف».

وقد اتقن العامليون بعض فنون الحرب ومارسوها ممارسة عملية، يصف لنا المؤرخ آل صفا هذا الشعب بقوله «وانصرف الشعب العاملي كله في ذاك العهد - والحديث عن العهد العثماني - لممارسة فنون الحرب واحكام خطتي الدفاع والهجوم، وكانوا لا همّ لهم في فترات السلم إلا شحذ السيوف وتسديد المرمى والكر على ظهور الخيل يعلّمونها أولادهم منذ الصغر» وأما نظام الدفاع عن البلاد «فقد كان على درجة من الرقي تدهش الباحثين» ومن فنون القتال التي أتقنها العامليون: الرمي بالبنادق، وضرب الرماح، وسرعة الالتئام والتعبئة عند اعلان النفير، والكر في الهجوم، واليقظة والحذر في الدفاع، وتحصين القلاع والحصون وشحنها بالسلاح والمقاتلين وإجادة القتال فيها.

وكان لكل مقاطعة من مقاطعات جبل عامل راية خاصة يلتئم المقاتلون حولها، إلا أن الاتحاد بين هذه المقاطعات كان تاماً ومتيناً، وخصوصاً في زمن الحرب وأوقات الخطر، فإذا هوجمت إحداها «هبّت المقاطعات كلها هبّة واحدة، واتحدت كلمتهم على صد المعتدي بقوة السلاح»، وكانت راياتهم من نسيج حريري أخضر وأحمر، وقد طرز عليها، بالنسيج الأبيض، آيات قرآنية وعبارات دينية مثل: «نصر من الله وفتح قريب» أو «لا إله إلا الله محمد رسول الله» أو «لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار»، وكانت راياتهم تتقدم جيوشهم في أثناء القتال[٥٩].

وكان إطلاق النار هو الإشارة الرسمية للتعبئة عندهم «فإذا سمعوا طلقاً نارياً في إحدى قراهم أجابوا بإطلاق الرصاص طلباً للنجدة، وتتبعهم في ذلك

القرى المتصلة حتى يمتد الصوت على ما قيل من جباع في سفح لبنان إلى البصة على حدود عكا».

أما أسلحة المقاتلين فكانت في معظمها البنادق والسيوف والخناجر والرماح، وكانوا يقاتلون مشاة وفرساناً، وكانوا يتحصنون في القلاع مستخدمين النار المحرقة وبعض أنواع المدافع والبنادق. وأما عدد المقاتلين في جبل عامل، في ذلك الحين، فلم نعرف له رقماً محدداً، وإن كنا نعلم أن هذا العدد قد بلغ، في عهد التحالف العاملي مع الشيخ ظاهر العمر، أي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ميلادية، نحو عشرة آلاف مقاتل.

وقد عرف العامليون صنع الذخائر، كالبارود الذي اشتهرت بصنعه قرية «بيت ليف» العاملية.

وكان جبل عامل، منذ القدم، منطقة حصينة ومنيعة. أنشئت فيها قلاع وحصون عديدة تعهدها العامليون باستمرار، وإن لم يكونوا قد بنوها بأنفسهم، ولا بدّ من سرد أسماء أهم هذه القلاع لإظهار مدى أهمية هذا الجبل من الوجهة العسكرية لدى جميع الفاتحين، نذكر: قلعة الشقيف الشهيرة أو شقيف أرنون، وقلعة أبي الحسن، وقلعة هونين، وقلعة شمع (بناها آل الصغير عام ١١٦٣هـ) وقلعة دوبيه، وقلعة تبنين.

يذكر، في هذا المجال، البارون دي توت Baron de Tott في مذكراته التي نشرها عام ١٧٨٤ بعنوان: «مذكرات عن الأتراك والترتار Mémoires sur les Turcs et les Tartares» عن جبل عامل ما يلي: «إن القلاع التي يسكنونها - أي العامليون - تجعلهم أكثر تحفزاً للثورة، وتجعل اخضاعهم أكثر صعوبة. كل جبل عندهم حصن، وكل مالك اقطاعي كبير... وقد اتفقوا على أن يدفعوا الضريبة السنوية للدولة، وقدرها مايتا كيس، ليتصرفوا بجبالهم وفي ظل زعمائهم»(٦٠).

وكان العامليون يخضعون، في مجال التجنيد والتعبئة، إلى النظم الإقطاعية السائدة في ذلك الحين، ولكن لم يعرف عنهم انهم استخدموا جنوداً من المرتزقة كالسكمان وسواهم.

ومن العودة إلى تقارير القناصل الفرنسيين في صيدا، في هذه الحقبة من الزمن، يمكننا أن نستنتج بعض المعلومات المهمة والمفيدة عن الوضع العسكري للعامليين في عهد الإقطاع، فقد وصف قنصل فرنسا في صيدا عام ١٧٧٢ «شيفالييه دي توليس Chevalier de Taulés» في رسالة منه إلى «الدوق ديغويون Duc D'Aiguillon» وزير الدولة الفرنسية، بتاريخ ٣٠ نيسان ١٧٧٢، المقاتل العاملي بأنه «لم يكن معتاداً أبداً على البقاء طويلاً في ساحة القتال أو على خوض الحرب بعيداً عن موطنه» وذلك في مجال الحديث عن حصار علي بك المصري والشيخ ظاهر العمر ليافا في العام نفسه، إذ ترك معظم العامليين - كما يقول القنصل في الرسالة نفسها - ساحة القتال وعادوا إلى قراهم، ليشيعوا ان «يافا حصن لا يؤخذ»[٦١].

ولكن ذلك لا ينفي ما قدمه العامليون من معونة عسكرية للشيخ ظاهر وحلفائه المصريين في أثناء تحالفهم معهم، إذ يذكر هذا القنصل، في مذكرة بعث بها إلى حكومته بتاريخ أول أيار عام ١٧٧٢، انه، في أثناء مهاجمة الأمير يوسف الشهابي وحلفائه العثمانيين لصيدا، في العام نفسه، بقصد تخليصها من يدي ظاهر العمر وحليفه علي بك المصري، كان العامليون على أهبة الاستعداد لأن يقدّموا، لمساعدة حلفائهم الصفديين والمصريين، جيشاً يراوح عدده بين ٣ و٤ آلاف مقاتل[٦٢] وقد بقي هذا الجيش في بقعة التجمع وعلى مقربة من ساحة القتال بناءً لأوامر الشيخ ظاهر.

كما أن الشيخ ناصيف النصار قد اشترك، مع قواته، إلى جانب الشيخ ظاهر في حصار نابلس في العام نفسه (مذكرة من القنصل نفسه بتاريخ ٢ أيار ١٧٧٢)[٦٣].

ويقدم القنصل نفسه، في رسالة أخرى منه إلى الدوق ديغويون بتاريخ ٢ حزيران ١٧٧٢، شهادة جيّدة بحق العامليين منوها بشجاعتهم فيقول: «يستطيع المتاولة أن يقدموا ما بين ٥ أو ٦ آلاف مقاتل، وقد تلقوا الأوامر في جميع قراهم بأن يكونوا على أهبة الاستعداد للسير نحو العدو. إنهم شجعان، وانتصاراتهم الأولى، بالإضافة إلى القيادة التي تعودوها منذ عام - وفي هذا إشارة واضحة لقيادة الشيخ ناصيف - أعطتهم ثقة بالنفس هي بالتالي قيمة الشجاعة» إلا أنه يعود فيقول: «إنهم ليسوا سوى فلاحين مسلحين لا يستطيعون ترك أرضهم طويلاً»[٦٤].

ويتحدث، في مذكرة بعث بها إلى حكومته بتاريخ ١٩ حزيران ١٧٧٢، عن العامليين وجيشهم فيقول: «يستطيع كل شيخ من مشايخ بني عاملة أن يُعِدّ تحت السلاح من ٢٥٠ إلى ٨٠٠ مقاتل، وهؤلاء المشايخ، مجتمعين، يمكنهم أن يُعِدّوا جيشاً من ٢٥٠٠ خيّال و٣٥٠٠ راجل»[٦٥]. كما أن تايتبوت (Taitbout) قنصل فرنسا بصيدا، في معرض إجابته على بعض الأسئلة المتعلقة بأوضاع الطوائف في هذه البلاد، عام ١٨٠٦، وصف العامليين بأنهم «جنود جيدون»[٦٦].

حواشي الفصل السابع

(١) امتدت هذه الباشوية، في مطلع العهد الشهابي (١٧٠٠) من جسر المعاملتين شمال بيروت حتى صفد (معلوف، تاريخ مدينة زحلة، ص. ٩٦).

(٢) الشهابي، تاريخه، ج ١ : ٧٢٢ (طبعة مصر)، والدويهي، تاريخ الأزمنة، ص. ٢٥٩.

(٣) الشهابي، م. ن. ج ١ : ٧٢٢ والدويهي، م. ن. ص. ٢٦٠.

(٤) D'Arvieux, Mémoires, pp. 406 - 418 et 438 - 444. -

(٥) كان للسلطان ٧ توغات، وللوزير ثلاثة، وللباشا اثنان، وللبك واحد .Ibid, p. 415 -

(٦) Ibid, p. 444. -

(٧) Ibid, p. 442. -

(٨) البوريني، تراجم الأعيان، ج ١ : ٢١٢.

(٩) المحبي، خلاصة الأثر، ج ٤ : ٥٠٢.

(١٠) من تقرير لروفائيل كاتشياماري (Cacciamari) البندقي، رفعه إلى غراندوق توسكانة فرديناند الأول، في الربع الأول من العام ١٦٠٥، وقد أورد الأب قرألي بعض فقراته في كتابه «فخر الدين ودولة توسكانة، ج ٢ : ١٥٩ - ١٦٢».

(١١) من تقرير لقنصل البندقية في حلب عام ١٥٩٠ أورده الأب قرألي في كتابه الآنف الذكر، ج ٢ : ٩٧.

(١٢) من تقرير كاتشياماري أيضاً (قرألي، م. ن. ج ٢ : ١٦٢).

(١٣) Des Hayes de Courmenin, Voyage, p. 386. -

(١٤) Ibid. -

(١٥) أنظر الفصل الثالث من هذا الباب «القلاع والمرافئ البحرية، قلعة طرابلس».

(١٦) أنظر تفصيلاً لهذه الأبراج عند: سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ص. ٤٤٠ - ٤٥٠.

(١٧) م. ن. ص ٢٦٢.

(١٨) أنظر الفصل الرابع من هذا الباب (معارك فخر الدين الهجومية، ممركة عراد).

(١٩) سالم، المرجع السابق، ص. ٢٦٢.

(٢٠) يذكر كاتشياماري في تقريره المشار إليه آنفاً، أن عمر ابن سيفا، في ذلك الحين (١٦٠٥)، كان يناهز الستين (م. ن. ج ٢ : ١٦٣)، وبما انه توفي عام ١٦٢٤ فيكون قد توفي عن عمر يناهز الثمانين.

(٢١) بادت أسرة آل سيفا في طرابلس عام ١٦٣٧، على يد واليها شاهين باشا الذي قضى على هذه الأسرة بعد أن قتل الأميرين عساف وقاسم أولاد سيفا، بينما هرب أحدهم الأمير علي والتجأ إلى آل علم الدين في الشوف، فتشتت شمل الأسرة السيفية (الدويهي، المصدر السابق، ص. ٣٢٦ - ٣٢٧).

(٢٢) قام برحلته من حلب إلى القدس مروراً بطرابلس عام ١٦٩٧.

- (Maundrell, voyage d'Alep à Jérusalem, pp. 214 - 215).

(٢٣) Philippe de la Trinité, voyage d'Orient, p. 96 -

(٢٣) Le Brun, voyage au levant, p. 304. -

(٢٥) Boucher de la Richardière, Nouveau Voyage, p. 159. -

(٢٦) Maundrell, op. cit. p. 238. -

(٢٧) الدويهي، تاريخ الأزمنة، ص. ٢٣٨، ٢٤٢، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٨، ٢٨٩.

(٢٨) المحبي، المصدر السابق، ج ٤ : ٤٣٢، وألوف، تاريخ بعلبك، ص. ٨٧.

(٢٩) ألوف، م. ن. ص. ٨٧، والمعلوف، تاريخ فخر الدين، ص. ٦٧.

(٣٠) مجلة العرفان، سنة ١٩٢٤ : ٢٩١ - ٢٩٧.

(٣١) الشدياق، المصدر السابق، ج ١ : ٤٦ والدويهي، المصدر السابق، ص. ٣٧٣. وألوف، المرجع السابق، ص. ٩٥ - ٩٦. وتاريخ الأمراء الشهابيين بقلم أحد أمرائهم من وادي التيم، ص ٨١، إلا أن الشهابيين أعادوا الكرة فاستنجد الأمير عمر الحرفوش بالأمير أحمد بن ملحم المعني أمير الشوف وحليف الشهابيين، الذي سعى للصلح بين الشهابيين والحرفوشيين على أن يدفع هؤلاء لأولئك خمسة آلاف قرش وجوادين من جياد الخيل كل عام، وذلك دية الأمير فارس المقتول (الشدياق، م. ن. ص. ن، وألوف، م. ن. ص. ن).

(٣٢) ألوف، م. ن. ص. ٩٦.

(٣٣) الخالدي، تاريخ فخر الدين، ص. ٨٣ - ٨٤، والشدياق، المصدر السابق، ج ١ : ٢٦٠.

(٣٤) الشدياق، م. ن.، ج ١ : ٤٥.

(٣٥) م. ن. ص. ٣٠٠.

(٣٦) قلعة راشيا هي قلعة صليبية رمّمها الفرنسيون في عهد الانتداب واستخدموها للدفاع ضد هجمات الدروز إبان ثورة ١٩٢٥، واحتجزوا فيها أبطال الاستقلال اللبناني (بشارة الخوري، ورياض الصلح ورفاقهما)، عند أسرهم في أواخر عهد الانتداب (تشرين الثاني ١٩٤٣).

(٣٧) المحبي، المصدر السابق، ج ٤ : ٤٢٩، وقد عاد مرتضى باشا فجهّز جيشاً لقتالهما ففرا إلى الجبل الأعلى قرب حلب كما سبق أن ذكرنا.

(٣٨) الخالدي، المصدر السابق، ص. ٥٢، والشهابي، المصدر السابق، ج ١ : ٦٤٩.

(٣٩) الزين، للبحث عن تاريخنا، ص. ٣٦٣، وأشهر هذه الأسر: آل منكر، وآل شكر، وآل علي الصغير، وآل صعب.

(٤٠) قال الشيخ أحمد رضا عن هذه الوقعة «فاستلحم أهل أنصار واستمر القتل فيهم ولم يشف حقد الأمير ملحم مقتل ألف وخمسماية من المتاولة حتى استباح القرية نهباً وسلباً» (العرفان، سنة ١٩١٠ : ٢٨٦) فقوله «استلحم أهل أنصار» يعني ولا شك أن أهل هذه البلدة قاتلوا المهاجمين، وقد روى هذه الوقعة أيضاً: الشيخ علي سبيتي (العرفان سنة ١٩١٣ : ٢١) والشيخ سليمان ظاهر عن بعض المخطوطات العاملية (العرفان، سنة ١٩٢٢ : ٣٤٣) كما رواها الأمير حيدر الشهابي والشدياق والدويهي في أحداث عام ١٦٣٨. ويرى الشيخ علي الزين أن الأمير علي علم الدين لجأ إلى «أنصار» مستنجداً بأهلها فأنجدوه وقاتلوا المعني، (الزين، للبحث عن تاريخنا، ص. ٣١٤) كما يرى الشيخ محمد تقي آل فقيه أن العامليين كانوا مستعدين لهذه الوقعة «بآلاف الرجال» أو انهم كانوا مع الحرب «على ميعاد» مما جعلهم يخسرون هذا العدد الكبير من الرجال (آل فقيه، جبل عامل، في التاريخ، ج ٢ : ٤٥ - ٤٦).

(٤١) العرفان، سنة ١٩١٣ : ٢١.

(٤٢) الشهابي، المصدر السابق، ج ١ : ٧٣٣ (طبعة مصر).

(٤٣) وينسب آل فقيه هذا الكتاب أو المجموعة إلى الشيخ علي مروه، (آل فقيه، جبل عامل في التاريخ، ج ٢ : ٤٣ - ٤٤ حاشية ٣).

(٤٤) م. ن. ص. ٤٩ - ٥٠.

(٤٥) قال السبيتي: «وسنة ١٠٧٧هـ كانت وقعة النبطية وانتصر المشايخ» (العرفان، سنة ١٩١٣ : ٢١).

(٤٦) العرفان، سنة ١٩١٠ : ٢٨٧، إلا أننا لا نرى هذا الرأي لأن جبل عامل لم يكن في هذه الفترة داخل حدود الإمارة المعنية.

(٤٧) العرفان، سنة ١٩٢٢ : ٦٥٧.

(٤٨) آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص. ١١٢.

(٤٩) المقتطف سنة ١٩١٠ : ٤٢٩ - ٤٣١.

(٥٠) آل صفا، المرجع السابق، ص. ١١٢.

(٥١) قال: «ويظهر أن عاملة استقرت بالانفصال عن المعنيين، وأن الحرب كانت بينهم سجالاً. وقد بقي العامليون على منعتهم إلى نهاية هذا القرن» ويقصد القرن الحادي عشر للهجرة (آل فقيه، المرجع السابق، ج ٢ : ٥٦).

(٥٢) يذكر آل صفا أن شباب جبل عامل لم يكونوا يساقون إلى الجندية، في عهد الإقطاع، كباقي مقاطعات الدولة العثمانية (آل صفا، المرجع السابق، ص. ٩٠ - ٩١) إلا أننا نحجم عن تأكيد هذا الرأي باعتباره يتنافى مع أهم واجبات الإقطاعي تجاه الدولة في ذلك الحين، بالإضافة إلى انه، فيما خلا حالات الثورة والقلاقل، كان العامليون يخضعون للنظم الإقطاعية السائدة في ذلك الحين فيما يختص بالتجنيد والتعبئة ودفع الضرائب وسواها، وقد أثبت ذلك التزام الأمير فخر الدين المعني لجبل عامل، وتقديم اقطاعيي هذا الجبل المقاتلين للإسهام في معارك الأمير في مناسبات مختلفة كما سبق أن رأينا.

(٥٣) آل صفا، م. ن. ص. ٨٢ - ٨٣.

(٥٤) م. ن. ص. ٨٤.

(٥٥) م. ن. ص. ٨٧.

(٥٦) م. ن. ص. ٨٦.

(٥٧) «أضرمت (الحروب) في نفوس بني متوال شعلة النجدة، وباتوا حذرين متأهبين للدفاع... وقد بلغوا بهذه النجدة وهذا التناصر أقصى درجات الشهرة في قوة البأس وشدة الشكيمة في ذلك العصر، عصر الغارات والحروب» (رضا، المقتطف، سنة ١٩٢٠ : ٤٣١).

(٥٨) المقتطف، س. ن. ص. ن.

(٥٩) آل صفا، المرجع السابق، ص ٨٢ - ٩٠.

(٦٠) Baron de Tott, Mémoires sur les Turcs et les Tartares, T. 4, pp. 122 - 123. -

(٦١) Ismaïl, Adel, Documents diplomatiques et Consulaires, T 2, p 205. -

(٦٢) Ibid, p. 210. -

(٦٣) Ibid, p. 212. -

(٦٤) Ibid, p. 225. -

(٦٥) Ibid, pp. 253 - 254. -

(٦٦) Ibid, T. 3, p. 52. -

الخاتمة

التبدّل في ميزان القوى
بعد فخر الدين

بعد فخر الدني، سقطت، عملياً، الدولة المعنية، وانتهى طموح الإمارة التي سعت، خلال نحو نصف قرن من الزمن، إلى بسط سيطرتها ونفوذها على أرجاء واسعة من بلاد الشام، وبعث، من جديد، الصراع الدامي بين الحزبين التقليديين والعريقين في إمارة الشوف، الحزب القيسي والحزب اليمني، أو بين العائلتين اللتين تتزعمانهما، آل معن القيسيين، وآل علم الدين اليمنيين، حيث «تنازع الفريقان الحكم المحلي بمعارك داخلية دامية، وبفضل المساعدات العثمانية، إن لم يكن لأكثر المزايدين فعلى الأقل لآخرهم»(١). وتبع سقوط فخر الدين «مرحلة طويلة من التمزق وعدم الاستقرار السياسي وعدم التوازن المالي» حيث كانت وحدة الأرض نفسها «تضيع ثم تلتقي، مرة بعد أخرى، حسب قوة الأمير وضعفه»(٢) وهكذا عادت الإمارة المعنية، بعد القضاء على فخر الدين، إمارة «شوفية صغيرة»(٣)، وظلت كذلك حتى عام ١٦٦٦، حيث ضمّ إليها الأمير أحمد المعني، بعد هزيمة اليمنيين في وقعة الفلفول، وبرضى الدولة العثمانية نفسها، بلاد الغرب والجرد والمتن وكسروان(٤)، وقد سهّل ذلك ان القيسيين في بلاد الغرب والجرد والمتن، وهم غالبية، ظلوا على ولائهم لآل معن، وان كسروان، بزعامة آل الخازن، ظلت مرتبطة بالإمارة المعنية

ارتباطاً عضوياً[٥]، ورغم كل ذلك، وبرغم الانتصارات التي حققها القيسيون على خصومهم اليمنيين، وبرغم ان سيادة القيسيين على بلاد الشوف وأحياناً كسروان توطدت، بعد فخر الدين، في مرحلتين، الأولى، في عهد الأمير ملحم المعني (١٦٢٧ - ١٦٥٨) والثانية في عهد ابنه الأمير أحمد (١٦٦٦ - ١٦٩٧) فإن اليمنيين الذين بعثهم العثمانيون من رقادهم بعد سقوط فخر الدين مباشرة، ظلوا أقوياء إلى درجة انهم منعوا على المعنيين إمكانية الاستقرار في الحكم، وظلوا، بتشجيع من الدولة العثمانية أحياناً، ينازعونهم السلطة على البلاد، واستمر ذلك التنازع الدموي طويلاً، دون أن يتمكن المعنيون من القضاء نهائياً على خصومهم، ولم يتم ذلك إلا في العهد الشهابي، حيث كان الشهابيون «أقدر» في هذا المجال، من أسلافهم المعنيين، إذ نجحوا، في بدء إمارتهم «في الحد من نفوذ اليمنيين» ثم قضوا عليهم نهائياً في وقعة عين داره عام ١٧١١[٦].

وإذا كنا نعتبر أن الدولة المعنية «سقطت عملياً» بعد فخر الدين، وأن «طموح الإمارة المعنية» بعد الأمير الكبير، قد انتهى، فذلك لأسباب عديدة تعود، في معظمها، أو كلها، إلى عوامل شخصية وجدت عند الأمير فخر الدين ولم توجد عند خلفائه، بالإضافة إلى عوامل أخرى خارجة عن شخصية الأمير، منها: فشل تحالفات الدولة المعنية مع الخارج، وتضافر القوى الحزبية المناوئة للمعنيين في الداخل، ونجاح السلطة العثمانية في الحدّ من سلطة المعنيين باعتمادها أسلوب المناورة بين الفريقين المتنازعين، بحيث تكبح جماح الفريق المنتصر بدعم الفريق المنهزم وتعزيز قدرته، ليقف على قدميه، ويعود للقتال من جديد، فتظل بذلك نار الحرب في البلاد متأججة والخصومة بين أهل البلاد مستمرة.

لقد خلف فخر الدين في زعامة القيسيين والأسرة المعنية الأمير ملحم ابن الأمير يونس شقيق فخر الدين، وقد اعتبره بعض المؤرخين «جباناً وخبيثاً»، و«خسيساً وضعيفاً»[٧]، واعتبره آخرون «حازم الرأي عاقلاً له حسن تصرف، عادلاً، حليماً، جليل القدر»[٨]، ولكن الجميع اتفقوا على أنه انقاد إلى السلطة العثمانية انقياداً تاماً[٩]، حتى أن بعض المؤرخين بالغوا بذلك فقالوا إنه وصل إلى حكم البلاد بعد أن «تذلل للباب العالي»[١٠]، وان كل طموحه كان في أن يعيد ترميم إمارته «ولو بشروط مخزية»[١١]، وقد حصل على ذلك فعلاً، فحكم البلاد نحو عشرين عاماً، برضى الدولة، ورغم انه حكم باسم السلطان وانتحل لنفسه لقب الأمير ملحم الأول الكبير، وبايعه الدروز باللقب[١٢]، فقد كان حاكماً عادياً لم يتميز حكمه بأية قوانين متطورة أو ثورات أو فتوح[١٣].

وخلف الأمير ملحم ابنه الأمير أحمد الذي استطاع ان يحتفظ للمعنيين، حتى وفاته عام ١٦٩٧، بإمارتهم على بلاد الشوف والغرب والجرد والمتن وكسروان[١٤]، إلا انه كان، كأبيه، مخلصاً للسلطان متفانياً في خدمته[١٥]، ولم يكن، في كل حال، طامحاً لاستعادة أمجاد جده فخر الدين.

وخلاصة القول في هذا المجال، إن الأميرين ملحم وأحمد، خليفتي الأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير، لم يكونا بمستوى طموح الإمارة المعنية في عهد فخر الدين، كما لم يكونا بمستوى الأمير نفسه قوة شخصية وحنكة سياسية وسطوة ونفوذاً، لذا، فقدت الإمارة المعنية، في عهد هذين الأميرين، وهجها ولمعانها.

كل هذه العوامل، مجتمعة، أدّت ولا شك، إلى تبدل خطير في ميزان القوى في المقاطعات اللبنانية بعد فخر الدين، فالدولة القوية الطموحة التي كانت قائمة في عهد الأمير الكبير فقدت، بالإضافة إلى أميرها، كل عناصر قوتها

وطموحها، فالجيش القوي قد انهار بمعظمه، إن لم يكن كله، وعجز خلفاء فخر الدين عن إعادة تنظيمه بالشكل الذي كان عليه من قبل، إذ لم يبق لهم منه سوى ما كانوا يتمكنون من جمعه في أثناء القتال، من أبناء البلاد، ومن الحزب القيسي بالذات، وغابت عن هذا الجيش قوة كانت عظيمة الفعالية فيه هي قوّة السكمان الذين كانوا يشكلون، لوحدهم، جيشاً قائماً بذاته، ومرد ذلك لأسباب عديدة أهمها:

- فقدان معظم المصادر المالية التي كانت تغذي خزينة الأمير، والتي كانت تؤمن له تغطية كافية لنفقات الجيش وتنظيمه وإعداده، خصوصاً بعد أن خسرت الإمارة المعنية معظم المقاطعات التي كانت تابعة لها، وأضحت «إمارة وراثية صغيرة مقتصرة على الشوف»[١٦]، وبعد أن أنشئت «باشوية صيدا» التي انتزعت، نهائياً، من الإمارة المعنية، معظم المقاطعات الجنوبية التي كانت تطمح دوماً للإستيلاء عليها.

- استيقاظ النزاعات الدموية، الحزبية والعائلية، في الإمارة نفسها، واعتماد الدولة العثمانية على هذه النزاعات، وتغذيتها لها بكل الوسائل، لكي تستمر في استنزاف القوى الداخلية جميعها، معنية وعلم الدينية، قيسية ويمنية، عملاً بالمبدأ المتبع في أية سياسة مكيافيلية «فرق تسد»، وقد تمّ ذلك فعلاً، إذ لم يتمكن أي من خليفتي فخر الدين، ملحم وأحمد، في خلال تفردهما بالحكم في الإمارة، من التفرغ لشؤون الجيش من حيث التنظيم والإعداد، نظراً لعدم استقرار الحكم، ولاستمرار المنازعات الدموية بينهما وبين خصومهما، في داخل الإمارة وخارجها، مما لم يتح لأي منهما فرصة الاعتناء، حتى بالشؤون الإدارية للإمارة، كما كان الأمر في عهد فخر الدين.

- كانت تحالفات فخر الدين، المحلية والإقليمية والأوروبية، أكبر عون له في إسكات خصومه المحليين، وفي قتاله المستمر ضد خصومه الإقليميين

وضد الدولة العثمانية، وبسقوط فخر الدين، سقطت هذه التحالفات جميعها، مما أفقد الأمير المعني مصادر المال والرجال من أنصاره المحليين والإقليميين، باستثناء الشهابيين وحزبه القيسي، كما أفقده مصادر السلاح والذخيرة من حلفائه التوسكانيين والأوروبيين، فأضحى معتمداً، في صراعه المرير والمستمر مع خصوم أقوياء كاليمنيين، على قواه الذاتية دون سواها.

- وأهم من ذلك كله، بل والسبب الجوهري والأساسي بين كل هذه الأسباب، هو أن كل ما تمكن فخر الدين من جمعه وبنائه وتشييده، من قوّة وتوسّع وانتصارات، وكل ما تمكّن من الحصول عليه من صداقات وتحالفات، بفضل طموحه وقوّة شخصيته، فقدته الإمارة المعنية بعده، بسبب انهياره أمام ضربات الدولة العثمانية، وقد عجز خليفتاه عن إعادة ما بناه سلفهما، بل وعجزا عن ترميم ما تبقى من بعده لهما، نظراً لقصور طموحهما وضعف شخصية كل منهما.

وكانت نتيجة ذلك، ولا ريب، أن قويت المقاطعات اللبنانية المجاورة لإمارة الشوف على حساب هذه الأخيرة، وبسند من الدولة نفسها، فأضحت صيدا باشوية قوية الجانب منذ عام ١٦٦٠ وخسرها المعنيون نهائياً، وأضحت بيروت، بعد عام ١٦٦٠، خارجة عن سلطة المعنيين، وتابعة لباشوية صيدا، ثم مستقلة عنها فيما بعد، ويحكمها ولاة تعينهم الدولة العثمانية(١٧)، واندلعت الثورات في جبل عامل ضد أي حكم غريب حتى ولو كان معنياً(١٨)، وتسلم الحكم في طرابلس ولاة تعينهم الدولة العثمانية(١٩)، وقويت شوكة الحرفوشيين في البقاع وبعلبك، فانفصلوا نهائياً عن المعنيين وأصبحوا أكثر التصاقاً بولاة الشام وتحالفاً معهم(٢٠). وهكذا يمكن القول، في نهاية البحث، أن فترة الحكم في الإمارة المعنية، بعد فخر الدين، شهدت تبدلاً في

ميزان القوى في المقاطعات اللبنانية لم يكن أبداً لصالح هذه الإمارة، بل وأكثر من ذلك، يمكن القول إن فترة الحكم هذه كانت، في الواقع، فترة احتضار للمعنيين كأسرة حاكمة انتهت بانتهاء آخر أمرائها في الخامس عشر من أيلول عام ١٦٩٧، وفترة تفكك الإمارة التي شهدت، مع فخر الدين، أزهى أمجادها، وكان يمكن أن تشهد، مع خلفائه، نهايتها، لولا أن قيّض الله لها أسرة حاكمة جديدة، قريبة وحليفة، بعثت فيها الحياة من جديد، هي «الأسرة الشهابية».

حواشي الخاتمة

(١) Touma, Paysans et Institutions féodales, T. I., p. 63 -

(٢) Ibid., T. 2, p. 635 -

(٣) زيادة، نقولا، أبعاد التاريخ اللبناني الحديث، ص. ٢٩.

(٤) الشدياق، أخبار الأعيان، ج ١ : ٢٩٨ وزيادة، م. ن. ص. ٢٩.

(٥) زيادة، م. ن. ص. ٣٣.

(٦) الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص. ٢٥ - ٣٦.

(٧) هكذا وصفه Puget de St. Pierre, Histoire des Druzes, p. 99 -

et: - Mariti, G. Istoria di Faccardino, p. 273.

(٨) وهكذا قال عنه المحبي (خلاصة الأثر، ج ٤ : ٤٠٩) والدويهي، تاريخ الأزمنة، ص. ٢٥٥، والشدياق، المصدر السابق، ج ١ : ٢٩٦.

(٩) المحبي، م. ن. ج ٤ : ٤٠٩ والدويهي، م. ن. ص. ٣٥٥.

(١٠) Mariti, op. cit., p. 273 -

(١١) Puget de St. Pierre, op. cit., p. 99 -

(١٢) Mariti, op. cit., p. 273 -

(١٣) Puget de St. Pierre, op. cit., p. 100 -

(١٤) يذكر موندريل في مذكراته عن رحلته (من حلب إلى أورشليم) عام ١٦٩٧، ان إمارة الأمير أحمد المعني امتدت «من كسروان إلى جبل الكرمل» قرب حيفا.

- (Maundrell, Voyage D'Alep à Jérusalem, p. 71).

ولكن المعروف هو أن سلفه الأمير ملحم المعني تولى ولاية صفد من عام ١٦٥٤ حتى وفاته عام ١٦٥٨ وأن صيدا أصبحت عام ١٦٦٠ باشوية يحكمها والٍ عثماني، وقد تحولت صفد إلى سنجقية ضمن هذه الباشوية.

(١٥) Puget de St. Pierre, op. cit., p. 101 -

(١٦) زيادة، المرجع السابق، ص. ٣٣.

(١٧) شيخو، بيروت، تاريخها وآثارها، ص. ٨١، ويزبك، جورج، بيروت في التاريخ، ص. ٥٤.

(١٨) آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص. ١١٣.

(١٩) بعد عام ١٦٢٥ خرجت سنجقية طرابلس نهائياً من حكم آل معن ولم يعد لهؤلاء أية علاقة بها أو سلطة عليها كما كان الأمر في أواخر عهد فخر الدين وبعد موت يوسف باشا سيفا.

(٢٠) ظلت هذه المقاطعة، حتى في عهد فخر الدين، تابعة لولاية الشام، وإن كانت باستمرار، موضع نزاع بينه وبين هؤلاء الولاة من جهة، وبينه وبين بعض أمرائها الحرفوشيين من جهة أخرى.

المصادر والمراجع (الجزء الأول)

أولاً - المصادر والمراجع العربية

١ - الكتب:

- ابن الأثير، علي بن أحمد بن أبي الكرم، **الكامل في التاريخ** - بيروت: دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٦.

- ابن القلاعي، جبرائيل - **حروب المقدمين** - بيت شباب: مطبعة العلم، ١٩٣٧ (عن المجلة البطريركية، السنة العاشرة، حزيران وتموز ١٩٣٥ - نشره وعلق عليه الأب بولس قرألي).

- ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة، **ذيل تاريخ دمشق** - بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨.

- ابن تغرى بردى، جمال الدين أبو المحاسن يوسف، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** - القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٣٨.

- ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد، **رحلة ابن جبير** - بيروت: دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٤.

- ابن خلدون، عبد الرحمن، **تاريخ العلامة ابن خلدون** - بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٨.

- ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد، **العقد الفريد** - الطبعة الثانية - القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٢.

- أبو الفدا، عماد الدين اسماعيل بن علي، **التواريخ القديمة من المختصر في أخبار البشر**. تح - وترهينريغ لبرخت فلايشر. ليبزيغ فوغل، ١٨٣١.

- أبو خطار، انطونيوس - **مختصر تاريخ جبل لبنان** - بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩٥٣.

- أبو شقرا، يوسف خطار، **الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية** - الراوي: حسين غضبان أبو شقرا، تحقيق: عارف أبو شقرا، ١٩٥٢.

- الأسعد، شبيب، **العقد المنضد في ديوان أشعار شبيب بك الأسعد** - الآستانة: دار الطباعة ١٣٠٩هـ.

- اسماعيل، عادل، والخوري، اميل، **السياسة الدولية في الشرق العربي** - بيروت: دار النشر للسياسة والتاريخ ١٩٥٩ - ١٩٦١ (ج ١ - ٣).

- اسماعيل، عادل، **السياسة الدولية في الشرق العربي** - بيروت: دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت ١٩٦٤ و١٩٧٠ (ج ٤ و ٥).

- ألوف، مخايل، **تاريخ بعلبك** - الطبعة الرابعة - بيروت: المطبعة الأدبية، ١٩٢٦.

- الأمين، محسن، **خطط جبل عامل** - بيروت: مطبعة الانصاف، ١٩٦١.

- أنطونيوس، جورج، **يقظة العرب** - ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس - بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، ١٩٦٦.

- بن يحيى، صالح، **تاريخ بيروت** - تحقيق الأب هورس اليسوعي وكمال الصليبي، بيروت: دار المشرق، ١٩٦٩.

- البوريني، حسن بن محمد - **تراجم الأعيان من أبناء الزمان** - دمشق: مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٩٥٩.

- جامعة الروح القدس، **أبعاد القومية اللبنانية**، الكسليك، لبنان، ١٩٧٠.

- جودت باشا، **تاريخ جودت**، تعريب عبد القادر الدنا، بيروت: مطبعة جريدة بيروت، ١٨٩١ (الجزء الأول).

- الحتوني، منصور، **نبذة تاريخية عن المقاطعة الكسروانية**، نقحها وهذبها ونشرها يوسف ابراهيم يزبك، الطبعة الثانية، بيروت: ١٩٥٦.

- حتي، فيليب - **تاريخ العرب**. (مطول) الطبعة الرابعة، بيروت: دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، ١٩٦٥.

- حتي، فيليب - **لبنان في التاريخ**، بيروت، نيويورك: مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر، ١٩٥٩.

- الحصري، ساطع. **البلاد العربية والدولة العثمانية** - الطبعة الثالثة. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٥.

- حقي، اسماعيل. **لبنان: مباحث علمية واجتماعية**. تحقيق فؤاد افرام البستاني. بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٧٠.

- الخازن، نسيب وهيبة. **الأصول التاريخية**. مجموعة وثائق تنشر للمرة الأولى. تحرير نسيب وهيبة الخازن والأب بولس مسعد. بيروت: مكتبة صفير، ١٩٥٦ - ١٩٥٨.

- خاطر، لحد. **عهد المتصرفين في لبنان**. بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٦٧.

- الخالدي الصفدي، أحمد بن محمد. **لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني** (وهو كتاب تاريخ الأمير فخر الدين المعني للشيخ أحمد بن محمد الخالدي الصفدي) تحقيق رستم والبستاني. بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٦٩.

- الخوري، بشارة، **حقائق لبنانية**، بيروت: منشورات «أوراق لبنانية»، ١٩٦٠.

- خوري، منير. **صيدا عبر حقب التاريخ**. بيروت: منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، ١٩٦٦.

- الدبس، يوسف. **تاريخ سوريا**. بيروت: المطبعة العمومية الكاثوليكية، ١٨٩٣ - ١٩٠٥.

- الدبس، يوسف. **الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل**. بيروت: المطبعة العمومية الكاثوليكية ١٩٠٥.

- الدويهي، اسطفان. **تاريخ الأزمنة** (١٠٩٥م - ١٦٩٩م) نشره الأب فردينان توتل. بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩٥١. (عن مجلة المشرق، الجزء ٤٤، السنة ١٩٥٠).

- الدويهي، اسطفان، **تاريخ الطائفة المارونية**، بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٨٩٠.

- رستم، أسد، **بشير بين السلطان والعزيز**، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، الطبعة الثانية، ١٩٦٦.

- رستم أسد. **قلعة طرابلس الشام**. موقعها وموادها الأساسية ومساحتها وتحصيناتها ومناعتها ونقوشها الكتابية وأصل بنائها الحالي، بيروت: لا. ت.

- رستم، أسد. **لبنان في عهد المتصرفية**. بيروت: دار النهار للنشر. ١٩٧٣.

- زغيب، جرجس. **تاريخ عود النصارى إلى جرود كسروان**. مصر: مطبعة المقتطف والمقطم لا. ت.

- زيادة، نقولا. **أبعاد التاريخ اللبناني الحديث**. القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية بجامعة الدول العربية، ١٩٧٢.

- زين، زين نور الدين. **الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان**. بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٧١.

- الزين، أحمد عارف. **تاريخ صيدا** - صيدا: مطبعة العرفان، ١٩١٣.

- الزين، سميح وجيه. **تاريخ طرابلس**. بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر، ١٩٦٩.

- الزين، علي، **للبحث عن تاريخنا في لبنان**. بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣.

- الزين، علي، **مع التاريخ العاملي** - صيدا: مطبعة العرفان، ١٩٥٤.

- سالم، عبد العزيز. **دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الاسلامي**. بيروت: جامعة بيروت العربية، ١٩٧٠.

- سالم، عبد العزيز، **طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي** - مصر: دار المعارف، ١٩٦٧.

- سميليانسكا. **الحركات الفلاحية في لبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر**. تعريب عدنان جاموس. بيروت: دار الفارابي، ودمشق: دار الجماهير، ١٩٧٢.

- الشدياق، طنوس. أخبار الأعيان في جبل لبنان. تحقيق رستم والبستاني. بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٧٠.

- شهاب، موريس. تاريخ لبنان العسكري. لا. ت.

- الشهابي، حيدر أحمد، تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابي، (كتاب الغرر الحسان في تاريخ حوادث الأزمان) مطبعة السلام، مصر ١٩٠٠.

- الشهابي، حيدر أحمد، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين. وهو الجزء الثاني والثالث من كتاب الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان، تحقيق رستم والبستاني. بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٦٩.

شيخاني، أسد (معرّب) يوميات في لبنان، بيروت: دار المكشوف، الطبعة الثانية، ١٩٤٩.

وهو فصول مختارة ومعرّبة من كتاب لروبنسون وسميث، بعنوان:
Biblical and researches in Palestine and the Adjacent Region. A journal of travels in the Year 1833. by E. Robinson and E. Smith, LONDON 1860.

- شيخو، لويس - بيروت، تاريخها وآثارها - بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٢٥.

- شيخو، لويس - جبيل، تاريخها، أديانها، آثارها. بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٢٤.

- صفا، (آل) محمد جابر - تاريخ جبل عامل - بيروت: دار متن اللغة، لا. ت.

- الصليبي، كمال - تاريخ لبنان الحديث - بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٦٩.

- ضاهر، مسعود - تاريخ لبنان الإجتماعي - بيروت: دار الفارابي، ١٩٧٤.

- ضاهر، مسعود - بعض السمات الأساسية لتطور النظام المقاطعجي اللبناني - بيروت: ١٩٧٥.

- طربين، أحمد - أزمة الحكم في لبنان منذ سقوط الأسرة الشهابية حتى ابتداء عهد المتصرفية - ١٨٤٢ - ١٨٦١. دمشق: ١٩٦٦.

- طربين، أحمد - **لبنان منذ عهد المتصرفية إلى بداية الانتداب** - القاهرة: مطبعة نهضة مصر، ١٩٦٨.

- ظاهر، سليمان - **تاريخ قلعة الشقيف** - صيدا: المطبعة العصرية، لا. ت.

- فريحه، أنيس - **معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية** - الطبعة الثانية، بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٧٢.

- فقيه (آل)، محمد تقي - **جبل عامل في التاريخ** - المطبعة العلمية، ١٩٤٦ (الجزء الثاني).

- قرألي، بولس - **علي باشا جنبلاط والي حلب ١٦٠٥ - ١٦١١** - بيروت: منشورات دار المكشوف، ١٩٣٩.

- قرألي، بولس - **فخر الدين المعني الثاني، حاكم لبنان، ودولة توسكانا** - حريصا (لبنان): مطبعة القديس بولس، ١٩٣٨. (الجزء الثاني).

- القلقشندي - **صبح الأعشى** - القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر، لا. ت.

- كرد علي، محمد - **خطط الشام** - دمشق: مطبعة الترقي، ١٩٢٧ (الجزآن الثاني والخامس).

- لامنس، هنري - **تسريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من آثار**. الطبعة الثانية، بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩١٣ - ١٩١٤.

- لبنان، وزارة الدفاع الوطني، قيادة الجيش اللبناني ومؤسسة الدراسات الفلسطينية - **القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني** - بيروت: ١٩٧٣.

- المحبي، محمد أمين بن فضل الله بن محب الله بن محب الدين الدمشقي، - **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر** - القاهرة: المطبعة الوهبية، ١٢٨٤هـ.

- المديرية العامة للآثار في بيروت (لبنان)، **تاريخ الأمراء الشهابيين بقلم أحد أمرائهم من وادي التيم** - مخطوطة رقم ٦٤٦٨، تحقيق سليم هشي، بيروت: منشورات المديرية العامة للآثار، ١٩٧١.

- المديرية العامة للآثار في بيروت (لبنان) - يوميات لبناني في أيام المتصرفية - مخطوطة رقم ٣٧ - ٦٢ تحقيق سليم هشي، بيروت: منشورات المديرية العامة للآثار، ١٩٧٣.

- المرادي، أبو الفضل محمد خليل - سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر - القاهرة: مطبعة بولاق، ١٣٠١هـ.

- مزهر، يوسف - تاريخ لبنان العام - بيروت: لا. ت.

- المعلوف، عيسى اسكندر - الحاج كيوان نعمة اللبناني، لا. ت.

- المعلوف، عيسى اسكندر - تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني - : بيروت: منشورات المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٦.

- المعلوف، عيسى اسكندر - تاريخ مدينة زحلة - زحلة: مطبعة زحلة الفتاة، ١٩١١.

- المعلوف، عيسى اسكندر - دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف - بعبدا: المطبعة العثمانية، ١٩٠٧ - ١٩٠٨.

- ناصر خسرو، سفر نامه، تعريب يحيى الخشاب، - القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٥.

- المنير، حنانيا - كتاب الدر الموصوف في تاريخ الشوف - وهو الجزآن الرابع والخامس من السنة ٤٨ من مجلة المشرق ١٩٥٤ - ١٩٥٧.

- نوار، عبد العزيز سليمان - وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث ١٥١٧ - ١٩٢٠ - بيروت: جامعة بيروت العربية، ١٩٧٤.

- الهمذاني، أبو محمد الحسن بن أحمد - صفة جزيرة العرب - مصر: مطبعة السعادة، ١٩٥٣.

- اليازجي، ناصيف - رسالة تاريخية في أحوال لبنان في عهده الإقطاعي - حريصا (لبنان): مطبعة القديس بولس، لا. ت.

- يزبك، جورج - **بيروت في التاريخ** - (محاضرة ألقاها جورج يزبك في مربع التباريس ببيروت بدعوة من خريجي المدارس العليا في ١٨ شباط ١٩٢٣) بيروت: ١٩٢٣.

- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح - **البلدان** - الطبعة الثالثة، النجف: المطبعة الحيدرية، ١٩٥٧.

- ينى، جرجي - **تاريخ سوريا** - بيروت: المطبعة الأدبية. ١٨٨١.

٢ - المعاجم والموسوعات:

- البتساني، بطرس - **محيط المحيط** - قاموس مطول للغة العربية، بيروت: ١٨٧٠.

- البستاني، بطرس - **دائرة المعارف** - مصر: مطبعة الهلال، ١٨٩٨.

- ياقوت الحموي البغدادي (شهاب الدين أبي عبدالله) - **معجم البلدان** - مصر: مطبعة دار السعادة، ١٩٠٦.

٣ - المجلات:

- **الآثار** - عيسى اسكندر المعلوف، زحله، السنوات: ١٩١١ - ١٩١٤ و١٩٢٧ - ١٩٢٨، (لبنان قبل عام ١٨٦٠ لعيسى اسكندر المعلوف، عدد أيلول عام ١٩١٢، وتاريخ راشيا والدروز، عدد تموز عام ١٩٢٧).

- **أوراق لبنانية**، يوسف ابراهيم يزبك، بيروت، السنوات: ١٩٥٥ - ١٩٥٨. (معالم بيروت القديمة: الأبراج، لشفيق طبارة، عدد كانون الثاني عام ١٩٥٧).

- **الجريدة الرسمية اللبنانية**: بيروت، تشرين الثاني ١٩٤٢ (محاضر جلسات المجلس النيابي اللبناني المتعلقة بتعديل الدستور اللبناني).

- **الحوادث**: سليم اللوزي، بيروت، عدد ١٠ شباط ١٩٧٨ (بحث للدكتور مسّود ضاهر بعنوان: لبنان شرقي وعربي بشخصية وطنية مميزة).

- دراسات، كلية التربية بالجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٧٥ (بحث للدكتور مسعود ضاهر بعنوان: أضواء على جغرافية التطور التاريخي للمقاطعات اللبنانية).

- العرفان: أحمد عارف الزين، صيدا، مطبعة العرفان، السنوات: ١٩١٠ (المتاولة أو الشيعة في جبل عامل لأحمد رضا، عدد أيار). ١٩١٢ (الأمراء الحرفوشيون لعيسى اسكندر المعلوف، عدد كانون الأول). ١٩٢٢ - ١٩٢٣ (أسماء قرى جبل عامل، لسليمان ظاهر، عدة مقالات). ١٩٢٣ - ١٩٢٤ (الأمراء الحرفوشيون لعيسى اسكندر المعلوف، عدة مقالات). ١٩٢٥ (بنو عاملة لأحمد رضا، عدد نيسان وأيار). ١٩٢٧ (قلعة شقيف تيرون لعيسى اسكندر المعلوف، عدد شباط). والسنوات: ١٩٣٠، ١٩٣٢، ١٩٣٥، ١٩٣٧، ١٩٤٢، ١٩٤٥، ١٩٤٧، ١٩٥٢، ١٩٥٥.

- مجلة كلية الآداب: كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول، القاهرة، مايو ١٩٤١ (بحث للدكتور حسن عثمان بعنوان: فخر الدين أمير لبنان وبلاط توسكانة ١٦٠٥ - ١٦٣٥).

- المشرق: لويس شيخو اليسوعي، بيروت: المطبعة الكاثوليكية، السنوات: ١٩٣٦ (لبنان الكبير في التاريخ لنجيب دحداح، عدد تشرين أول - تشرين ثاني)، ١٩٣٧ (فخر الدين وعلاقاته بالغرب للويس الخازن، عدد نيسان - حزيران)، ١٩٤٢ (لبنان في عهد المماليك لابراهيم عواد)، ١٩٦٥ (قلعة الشقيف، قلعة فخر الدين، لميشال شبلي، عدد أيار - حزيران).

- المقتطف: يعقوب صروف، بيروت والقاهرة، السنوات: ١٩٠١ (تاريخ آل معن لجورج يني، عدد شباط - آذار)، ١٩٠٣ (الأمير فخر الدين المعني لجورج يني، عدد تشرين أول - تشرين ثاني)، ١٩٠٦ (تاريخ الجزار، عدد نيسان)، ١٩١٠ (الشيعة في جبل عامل لأحمد رضا، عدد أيار - تشرين أول) والسنوات: ١٩٢١ و١٩٢٤.

٤ - الصحف:

- ملحق النهار:

- العدد الصادر بتاريخ ١٩٦٦/٧/٣١ (مقالة للدكتور كمال الصليبي بعنوان: أصل فخر الدين الكبير غامض).

- العدد الصادر بتاريخ ١٩٦٦/٨/٢١ (مقالة للدكتور الصليبي بعنوان: انفجار في سلالة الأمير الكبير سلطان البر جدّ فخر الدين).

- العدد الصادر بتاريخ ١٩٧٢/١٠/٢٩ (مقالة لمنير اسماعيل بعنوان: عودة إلى المجالات الفخر الدينية).

- العدد الصادر بتاريخ ١٩٧٢/١٢/٣١ (مقالة لنسيب وهيبة الخازن بعنوان: الجدل الفخر الديني أيضاً وأيضاً).

٥ - المخطوطات:

- ابن اسباط، حمزة بن أحمد - **تاريخ، نيسان ١٦٨١** (١٠٩٢هـ) نسخة مصورة عن نسخة الفاتيكان وموجودة في مكتبة الجامعة الأميركية ببيروت.
(Vaticano - arabe, Manuscrit N. 270).

٦ - الخارطات:

- لبنان.
- سوريا.
- فلسطين.
- شرق الأردن.

BIBLIOGRAPHIE

1 - EN LANGUE FRANÇAISE

1 - Les ouvrages:

- **Berchem, Max Van**, *Château de Bânias et ses inscriptions*, Paris: Imprimerie Nationale, 1889.

- **Berchem Max Van**, *Voyage en Syrie par Max Van Berchem et Edmond Fatio* (en 1895).

Le Caire: Imprimerie de l'Institut Français d'Archéologie Orientale. 1914 - 1915.

- **Bernard, Henri**, *Leçons d'Histoire Militaire*.

Imprimerie Médicale et Scientifique, 2ème édition, Bruxelles, 1951.

- **Boucher de la Richardière**, Nouveau voyage de l'Egypte, de la Terre-Sainte, du Mont-Liban, de Constantinople et des échelles du Levant - Lisbonne 1702.

- **Boucher, Jean**, Le bouquet Sacré ou le Voyage de Terre-Sainte, Rouen: 1696.

- **Boulos, Jawad**, Les Peuples et les Civilisations du Proche-Orient.

Ed. Mouton et Co. Paris - La Haye 1968.

- **Bouron, Narcisse**, Les Druzes

Ed. Berger Levrault. Paris 1930.

- **Chibli, Michel**, Fakhreddin II Ma'an, Prince du Liban

Beyrouth, Inprimerie Catholique,1946.

- **Chevallier, Dominique**, La société du Mont-Liban à l'époque de la Révolution industrielle en Europe.

Geuthner, Paris, 1971.

- **D'Arvieux, Laurent**, Mémoires du Chevalier d'Arvieux

Paris: C. J. B - Delespine, 1725

- **D'Arvieux, Laurent**, Voyage dans la Palestine,

Amsterdam, Steenhouwer et Uytwerf, 1718.

- **D'Aumont, Michel**, Cours d'Histoire Militaire Générale

Armée Libanaise - Ecole Militaire - 2ème année 1969 - 1970.

- **D'Ohsson, Constantin Mouradgéo**, Tableau Général de l'Empire Ottoman

Paris: 1788-1824.

(T. VII, Livres III et VIII).

- **De la Croix**, La Turquie Chrétienne sous la puissante protection de Louis le Grand, protecteur du christianisme en Orient

Paris, 1695.

- **De la Roque**, Jean, Voyage de Syrie et du Mont-Liban,

Paris, 1722.

- **De la Trinité**, Philippe, Voyage d'Orient

Lyon, 1648.

- **De Tott, (Baron)**, Mémoires sur les Turcs et les Tartares (Amsterdam 1784).

- **Dopping, George Bernard**, Histoire du commerce entre le Levant et l'Europe

(Depuis les Croisades jusqu'à la formation des colonies d'Amérique) -

Paris, Imprimerie Royale, 1830.

- **Des Hayes, Louis, Baron de Courmenin**, Voyage du Levant

Paris, Taupinari, 1624.

- **Dib, Pierre,** L'église maronite

Beyrouth, éd La Sagesse, 1962.

- **Doubdan, Jean**, Le voyage de la Terre-Sainte,

Paris, 1666.

- **Dussaud, René**, Syrie (article tiré de la grande Encyclopédie - 1900).

Bibliothèque Orientale de l'Université Saint-Joseph à Beyrouth. Doss. N°XII.

- **Elisseeff, Nikita**, Nûr Ad-din
Un grand prince musulman de Syrie au temps des Croisades.
Institut Français de Damas
Damas, 1967.

- **Fermanel, Gilles,** Le Voyage d'Italie et du Levant
Rouen: J. Viret, 1668.

- **Goujon, Jacques**, Histoire de voyage de la Terre-Sainte,
Lyon, 1671.

- **Guys, Henri**, Relation d'un séjour de plusieurs années à Beyrouth et dans le Liban
Paris: Librairie Française et étrangère, 1847.

- **Hammer, Purgstall, Joseph, Freiher, Von,** Histoire de l'Empire Ottoman, depuis son origine jusqu'à nos jours
Paris, 1844. 2ème édition, traduit de l'allemand par M. Bochez.

- **Hasselquiest, Frédéric**, Voyage dans le Levant dans les années 1749, 1750, 1751 et 1752.
Paris, 1752.

- **Hayward, John Forrest**, Les armes à feu anciennes
Office du Livre - Fribourg 1963.

- **Ismaïl, Adel**, Histoire du Liban du XVIIe siècle à nos jours
Paris - Librairie Orientale et Américaine, 1955, T. I.

- **Ismaïl, A.**, Le Liban, Documents diplomatiques et consulaires, Ed. des œuvres politiques et historiques, Beyrouth, 1975.

- **Jouplain (Paul Noujaim),** La Question du Liban
Paris: Librairie Nouvelle de droit et de jurisprudence, 1908.

- **Lamartine, Alphonse de**, Voyage en Orient
Paris: Hachette, 1910-1911.

- **Lammens, Henri**, La Syrie
Beyrouth - Imprimerie Catholique, 1921.

- Lamouche, Léon, Histoire de la Turquie depuis les origines jusqu'à nos jours Paris, Payot, 1934.

- **Le Brun, Corneille**, Voyage au Levant (traduit du flamand) A. Delfet, 1700.

- **Le Gouz, François. Sieur de la Boullaye**, Les voyages et observations du Sieur de la Boullaye, Le Gouz, Paris: F. Clousière, 1653.

- **Lindsay, Merill**, Histoire des armes à feu du XVe siècle au XXe siècle - Office du Livre - Fribourg

Switzerland, 1972.

- **Lot, Ferdinand**, L'art militaire et les armées du Moyen Age en Europe et dans le Proche Orient,

Paris, Payot 1946.

- **Mariti-Giovanni**, Voyages dans l'île de Chypre, la Syrie et la Palestine, avec l'histoire générale du Levant, Traduit de l'italien

Paris, Belin 1791.

- **Masson, Paul**, Histoire du Commerce français dans le Levant au XVIIe siècle.

Paris, Librairie Hachette, 1896.

- **Nantet, Jacques**, Histoire du Liban

Paris, Ed. de minute, 1963.

- **Naud, Michel**, Voyage nouveau de la Terre Sainte,

Paris, 1679.

- **Poidebard, A. et Lauffray, J.**, Sidon, aménagements antiques du port de Saïda, République Libanaise, Ministère des Travaux Publics, Beyrouth 1951.

- **Rabbath, Edmond**, La formation historique du Liban Politique et Constitutionnel.

Beyrouth: Université Libanaise, 1973.

- **Ristelhueber, René**, La France en Syrie au XVIIe siècle -

Extrait des Etudes, Août 1915.

Beyrouth, Bibliothèque Orientale, Côte 7/B5, Carton 1.

- **Ristelhueber, René**, Les traditions Françaises au Liban -
2ème Edition - Paris: Librairie Alcon, 1925.

- **Roger, Eugène**, La Terre-Sainte,
Paris: Bertier, 1664.

- **Saint-Pierre,** Puger de, Histoire des Druzes,
Paris, Ed. Cailleau Librairie, 1763.

- **Savary, François. Seigneur de Brêves,** Relation de voyage de M., de Brêves tant en Grèce, Terre-Sainte et Egypte, qu'aux royaumes de Tunis et Alger.
Paris: N. Gasse, 1628.

- **Thoumin, Richard,** Histoire de la Syrie
Paris, Ed. Desclée, de Broumer et cie, 1929.

- **Tott, Baron de**, Mémoires sur les Turcs et les Tartares - Amsterdam, 1784.

Touma, Toufic, Paysans et institutions féodales chez les Druzes et les Maronites du Liban du XVIII siècle à 1914.
Beyrouth, Publications de L'Université Libanaise, 1971.

- **Tournefort, Joseph Pitton de**, Relation d'un voyage au Levant, Lyon, 1727.

- Université Saint-Joseph, Mélanges de l'Université St. Joseph, Beyrouth, 1967.

- **Villamont, Jacques**, Les voyages du seigneur de Villamont
Lyon: Claude Lariot, 1607.

- **Volney (Constantin François Chassebœuf)**, Voyage en Egypte et en Syrie, Ed. Mouton et Co. - Paris - La Haye 1959.

2 - Les Encyclopédies:

- Focus Encyclopédique International
Paris: Bordas, 1971 - Tome 1
(Arquebuse - Carabine - Mousquet)

- Grand Larousse Encyclopédique
Paris: Librairie Larousse, 1960
(Arquebuse, Carabine, Mousquet)

3 - Les Revues:

- **Journal Asiatique**: mars-avril 1864.
(Histoire des Emirs Ma'an par Joseph Catafago)
- **Syrie, Revue d'art et d'archeologie, Paris: Librairie Paul Geuthner, 1921, T.11**

4 - Les Manuscrits

- **Bibliotheque National de Paris** - Pavillon Archives -
- **Departement des Manuscrits Français 20. 983**:
Lettres du Comte de Césy (Philippe de Harley), Ambassadeur de France à Constantinople en 1635, adressées à:
- Monsieur le Secrétaire d'Etat
- Sa mère Anne de Harley,
- Sa fille Lurèce de Courtenay,
- Son gendre Louis de Courtenay,
- et son fils Roger de Harley, Comte de Césy, durant les années 1619 - 1646.
Côte: Fr. 20.983.
fol. 89, 90, 91, 93, 94, 97, 98, 99, 100, 101, 102, 103, 105.
- Archives Nationales - Paris, Archives de la Marine B7 et B7-218 (Correspondances concernant le Liban: Correspondances de Pontchartrain, Consul de France à Beyrouth de 1698 à 1700).
- **Archives Nationales - Paris, Archives des Affaires étrangères**
A.E. B1 - 1017 (Correspondances consulaires: Consuls de France à Saïda de 1645 à 1704).
- Service historique de l'Armée de terre - Vincennes (SHAT)

A - Section ancienne:

G4 - 1 Syrie (1806 - 1861).

Correspondances originales du Général de Beaufort d'Hautpoul, chef de l'expédition française en Syrie, avec le ministère de la Guerre, durant les mois de janvier, février, mars, avril, mai et juin 1861 (29 pièces).

B - Section Outre-mer:

Proclamation du Grand-Liban, selon le journal Al-Provence

Beyrouth, le 2 septembre 1920

II - EN LANGUE ANGLAISE

1 - Reference Books:

Carne, John, Syria, the Holy Land

Asia Minor, London 1836 (Vol. 2)

- **Churchill, Charles Henri,** (col.), The Druzes and the Maronites under Turkish rule, 1840 - 1860. London, 15 Picadilly, Bernard Quaritch, 1862.

- **Churchill, Charles Henri,** (col.) Mount Lebanon, a ten years residence from 1842 to 1852.

2nd edition, London, 1853 (Vol. 2 and 3).

- **Maundrell, Henri**, A journey from Aleppo to Jerusalem (1697).

London, Cornhill 1749.

- **Müller - Weiner, Wolgang**. Castle of the Crusaders, London, Thomas and Hudson, 1966.

- **Pollak, A.N.**, Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon, 1250-1900

London, Royal Asiatic Society, 1939.

- **Roblen, Fedden**, Art and Technics, Crusader Castles

London, 1950.

- **Roblen, Fedden, and John Thomson,** Crusaders Castles

Khayat's College Book Corporation

Beirut, 1957.

- **Sandys, George**, A relation of a journey (1610)

(2nd ed. London, 1621).

2 - Encyclopedia

- Encyclopedia Britannica, London 1973, Vol. 13 (Lepante, p. 979)
- The Encyclopedia of Islam, new edition, 1965.
(Fakhr-al-Dîn, by Kamal Salibi, pp. 749-751).

3 - Official documents:

Great Britain, Foreign Office, Affairs of Syria 1860 - 1861.
April 1860.

III - EN LANGUE ITALIENNE

- Mariti, Giovanni, Istoria di Faccardino, Grand Emir Dei Druzi, Liverno 1787.


الوثائق

وثيقة

رقم ١

[illegible]

Monsieur

Je me trouve saisit de deux de vos lettres qui m'ont esté rendues par un mesme ordinaire l'une du 19 de Novembre, et la dernière du 16 de Decembre, et pour continuer à vous rendre mes debvoirs et à vous donner part des occurrences de deçà je vous diray, Monsieur, comme le G. S. est party le 29 du mois passé avec tout ce qu'il a peu faire venir des forces de l'Europe, ayant seulement laissé du costé de Hongrie et de Pologne les gardes de frontières.

L'Emir Facardin qui avoit demandé en grace à la Hautesse de suivre son armée, ne l'a pu obtenir jusques à cette heure: tellement qu'il demeure icy avec deux de ses enfans [illegible] en danger. Le Bacha de la mer laisse la conduite des galères au gouverneur de Rhodes, et luy s'en va par terre avec le grand Sr. qui l'aime extremement, et le veult tousjours auprès de luy. L'on tient pour chose asseurée qu'il veult aller en personne jusques dans la Perse, et que les conseils de ceulx qui le vouloient faire arrester à Conie, ne prévaudront pas sur la volonté qu'il a de passer oultre. Il y a plus de quatre vingts ans qu'aucun prince ottoman n'avoit passé en Asie, c'est à dire depuis Sultan Soliman qui signala son voyage par la prise de Babylone, en quoy ce Sr. voudroit bien l'imiter, car c'est là le principal object de son entreprise.

Nous avons depuis trois ou quatre jours un nouveau Patriarche à la place de Cirille, et ne se peult encore juger ce qu'on en fera. Sur quoy je finiray après vous avoir supplié tres humblement de me croire tousjours

Monsieur

Vostre tres humble et tres aff.né serviteur Césy

رسالة من الكونت دي سيزي، سفير فرنسا في الآستانة، تتعلّق بطلب الأمير فخر الدين المعني الإنضمام إلى الجيش العثماني، وذلك في أثناء وجوده بالآستانة، بعد أسره، عام ١٦٣٥.

وثيقة

رقم ٢

Monsieur

Vous aurés entendu cy devant la prise
de l'Emir Facardin Prince de Sayde
par le Bacha de Damas dans un de ses
chasteaux: comme il fut amené icy
avec ses enfans: et logé dans le jardin
du grand Sr. Et maintenant je vous
diray q. quelques jours après la sortie
de sa Hautesse il vint un ordre
au caymacan de le faire mourir;
ce qui ne surprit en aucune façon
ce pauvre prince; car à l'heure du
disner comme on luy fut dire q.
la viande estoit servie, il ne voulut
[illegible] [illegible] qu'il [illegible], et
[illegible] je ne mangeray point. Je

veulx employer le reste à prier Dieu pour
ce [illegible] aujourd'huy d'une mort
violente. En effect deux heures après
on luy vint dire q. le caymacan le
demandoit, et en sortant du jardin
pour passer dans sa [illegible]
on luy commanda de se mettre a
genoux, ce qu'il fit, après avoir
demandé de quel costé estoit l'orient
pour y tourner le visage: et en
haussant les deux mains au ciel
pour recevoir le coup, il dit
hautement Ô Dieu ayés pitié de
moy. Et [illegible] les Mahometans
[illegible] [illegible] le visage tourné
au midy à cause de la [illegible] de

[illegible] [illegible] [illegible]
Plusieurs [illegible] [illegible]
sa vie, qu'il [illegible] chrestien; et q.
[illegible] en sa croiance de faire avec
ses enfans, il eust faict [illegible]
de Jesus Christ. Mais ses deux jeunes
princes et [illegible] qui
estoit enfermé dans le serrail de
[illegible], qu'il ne croyoit pas devoir mourir
furent tous trois estranglez à l'heure
mesme, et leurs corps jettés dans la
mer, après q. les entrailles en furent
ostées, affin qu'ils ne revinssent point
sur l'eau. L'on tient q. dans un livre
où il lisoit le matin, son Horoscope
y estoit [illegible] de sa main; et

auroit esté trouvé [illegible] [illegible]. Le
grand Sr a donné ordre que l'on
[illegible] au Bacha de Damas de faire
mourir tous les [illegible] de ce Prince
dont [illegible] des hommes q. [illegible]
voyla une [illegible] maison [illegible],
et un pays dont la condition [illegible]
fort [illegible], bien qu'il soit a un
[illegible] grand [illegible], car les gouverneurs
le destruiront entièrement selon
leurs bonnes coustumes. Je n'adjouste
autre chose pour cette heure qui
merite vous estre escrit, je vous
baiseray très humblement les mains et
seray tousjours

Monsieur Vre très humble et très obst
serviteur Césy
[illegible]

رسالة من الكونت دي سيزي، سفير فرنسا في الآستانة،
تصف عمليّة إعدام الأمير فخر الدين المعني عام ١٦٣٥.

وثيقة رقم (٣)

(من الأمير أحمد المعني إلى الدوق هنري دي غيز)

Doc. n° 3

حضرة الامير هنريكو دوكا دكويز المكرم

الى حضرة الجناب العالي مفخر الامراء الكرام ابن العم العزيز الامير هنريكو دكويز المكرم حفظه الله
غب اهداء التحيات صافيات وعز تسليمات وافيات نخص به من نشير اليه اصلح الله
جزيل انعامه عليه آمين اولاً من فرط كثرة الاشتياق الى نظركم الكريم بكل خير وعافية
وبعد ان تفضلتم عنا في السوال لله الحمد بخير ونرجو من كرم الحق سبحانه وتعالى
ان دايما تكون حضرتكم بزايد الخير وسابقا كان المرحوم والدنا ارسل لكم مكتوب محبة
وصداقة جواب مكتوب حضرتكم صحبة المطران تركيش وما يكون الا وصل ودايما المرحوم
بقي يتذكر قدامنا اهليتكم ومودتكم وهذا شي ايضا مذكور عندنا في التواريخ وكذلك
كتخدانا ابو نوفل اخبر لنا امور كثيرة عن مودتكم لجانبنا لما اجتمعوا في حضرتكم
والمرحوم والدكم في فرانشه ملينكران دوكا الله يرحمكم ويبقي لنا مودتكم ولاكن
معلوم جنابكم البعد جفا المرجو ان لا تقطعوا اعلام سلامتكم عنا ليحصل لنا
في ورودها غاية السرور ومهما يعرض لحضرتكم من المصالح في هذه الجانب تعرفونا بها
نقضيها ان شاء الله تعالى بادنا اشارة على ما في خاطركم الشريف باقي دحضرتكم في امان
الله تعالى وحفظه على الدوام والدعاء د حضرة اخونا الامير قرقماش
يهدي لحضرتكم الفاتحة والسلام والدعا محب مخلص

احمد
بك

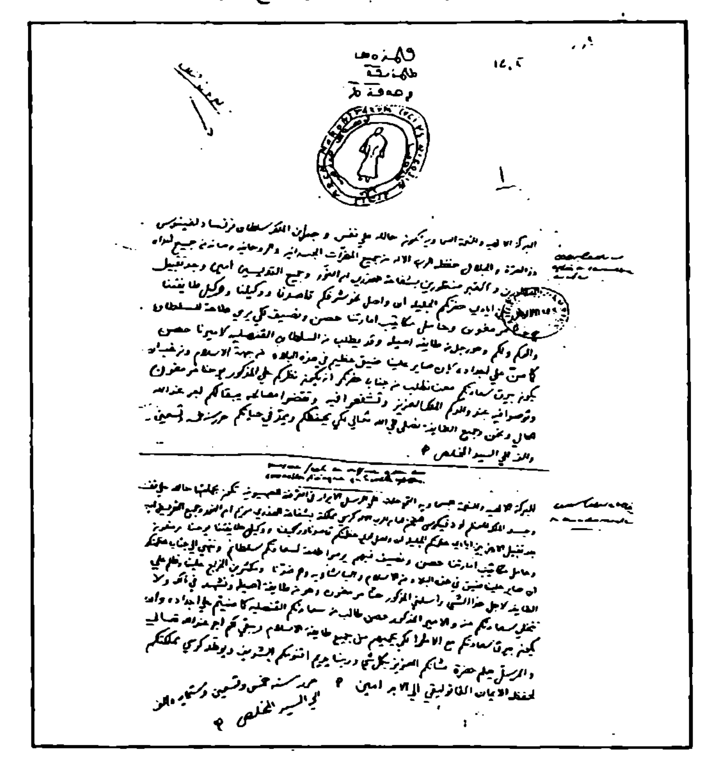
بن
احمد بن
معن

— Archives Nationales - Paris - Archives de la Marine (Dossier Cote B7 - 218 - Marine).

وثيقة رقم (٤)

رسالتان ،

- الأولى: من الأبرشية المارونية في نيقوسيا الى ولي عهد فرنسا.
- الثانية ، من الأبرشية نفسها الى لويس الرابع عشر ملك فرنسا



ملاحظة: إنّ الرسائل من الرقم ٤ وحتى الرقم ٧ ضمناً، هي رسائل معرّبة، في المحفوظات الفرنسية، عن الأصل الكرشوني أو السرياني.

وثيقة رقم (٥)

(من الشيخ ناصيف بن نوفل الخازن الى الملك لويس الرابع عشر)

Doc. no. 5.

79.

الى الجناب العالي وفخر الملوك السلطان لويس المعظم
الى جناب حضرة الملك المنصور وعظيم الشان وكبير بين ساير الملوك السلطان لويس المحفوظ دام الله
منهى العبد بين الايادي سعادتكم خفير الايام دولتكم ونحولكم في الدارين امانيكم سلطاننا ثم
ان سابق الزمن امور دايرتنا كان حاكم بلادنا واحدا اسمه الامير احمد ابن معن وكان قوي
معنا رجال مليح ومحامي بلادنا الذي ثم علمهم نصارى كاثوليكية لما خلينا بعون الله تعالى
ونظركم السعيد بقضا يقوا النصارى والكنايس والوحورة بشي والان تغير خاطر السلطان
ابن عثمان على الامير المذكور ومن عدوه موضعه حاكم البلدان وما لهم حرزه فهذا الحاكم الجديد
قوي مبغض النصارى وما عطانا البلدان التي كانت معنا على زمان ابن معن وقوي ظالم على النصارى
وكنايسهم وتحقيق ان ظلم حاكم فيهم يجزيوا فان رضيتم يكون نظركم السعيد علينا يا عيونكم وتكتبوا
مكتوبا الى السلطان ابن عثمان يطالع لنا امر شريف في بلاد كسروان ومالها ثمانية عشر الف غرش في بلاد
جبيل ومالها ثلاثة عشر الف غرش في بلاد البطرون ومالها سبعة الاف غرش وفي بلاد جبة بشراي
ومالها ست الاف حتى نوردهم لباشة طرابلس في محل الشي ونقدمهم ولا يتغير علينا امر
الى دوام الدولة حتى تظل هذه طايفة النصارى معمرين كنيسة الشرق ويكونوا طول الدهر داعيين
الى سعادتكم بطول العمر والنصرة على من يعاديكم ويرا لكم الجنة وهداوة البال لان هذه الطايفة
من زمان اجدادكم اصحاب الذكر الصالح في حمايتكم وعلى كيس سعادتكم واذا عملتم هذه الحسنة
تكونوا اشتريتوا دين السيد المسيح وعملتوا لكم موضعا في الجنة لان الضيق الذي صارت
فيه هذه الملة هكذا هي عظيمة حتى ما يعلم فيها غير الله تعالى وها يخبر سعادتكم حامل
العبودية وكيلنا هنا [illegible] وهو رجل صادق وابن اجاويد ويكون حسن نظركم السعيد
علينا وعليه يا عيونكم وان رايتم مناسب ولايق ورسلتم عبدكم هنا المذكور الى اسطنبول
في [illegible] الشريف بيتوجه باقي وانتم في السعود الى ايام الخلود تحريرا في اواخر
شهر اذار سنة الف وستماية خمس وتسعين مسيحية

عبدكم الحقير
ناصيف
الخازن

ناصيف
ابن نوفل
خازن

ناصيف ابن نوفل خازن

وثيقة رقم (٦)

(من الشيخ حصن الخازن الى المركيز دي كرواسي وزير الخارجية الفرنسية)

Doc nº 6

الي حضرة عالي الجناب ورفيع الشان الوزير المفخم دي كروسي ادام الله عزه ابدًا امين

والي غير ذلك الذي نطالع به علم حضرتكم الشريف اننا راسلين الي جناب الملك القاهر المدعو
لوحنا مرمضون لكي يرمي طاعته منه لدننا وهو جامل لعظمته مكاتيبنا وقد نتضرع
اليها لكي يرسم ان نكون بمقام قنصل طرابلس كما كان انعم علي جدنا في ذلك في سنة
الف ستماية وتسعين وخمسين ونكون حاملين بيرق الفرانساويه ونكون نظر عظمته التمجيد
علينا لكي نتمجد بين جميع الامم. ونتوسل ايضا الي الجليل احسانه بان يكتب في سبيلنا
الي الحبيب الي اسلام بول يوصيه في مصالحنا عند سلطان المسلمين ولاجل هذا نبغوا من حضرتكم
العظيمه ان تاخذوا بوجه رسولنا وتساعدوه في مصالحه عند الملك لانه وكيلنا في جميع
مصالحنا وهو من اهل حسب ونسب وهو يعلم حضرتكم في جميع مرادنا والله تعالى
يجزيكم عن حسن فعلكم ويلهمكم الالطاف والتحنن علي الذين في ضيق عظيم تحت
حكم الاسلام نرجو ذلك من عزيز احسانكم ادام بقاكم الله ولا زلتم في كنف وقايته امين

حرر سنه الف وستماية خمس وتسعين الي السيد
المخلص في اوايل شهر كانون الاول

حصن
الخازن



وثيقة رقم (٧)

(من الشيخ حصن الخازن الى الكونت دي بونشارترين)*

Doc. no 7

الى حضرة عالي الجناب ورفيع الشان ذو العز والكرام اكبر وزرا لود ويكوس الملك المعظم
دي بونشارترين ازاد الله ايام دولته وحفظه في غاية العظمة والجلال الى الابد امين

والى غير ذكر الذي نبدو الاجلال عظمتكم ان المدعو يوحنا صومفورن هو مرسلنا
الى جناب الملك ذو العظمة والجلال برى طاعة وهو حامل لديه مكاتيبنا وقد نلتمس من
عظمته الجليلة ان نكون بمقام قنصل طرابلس كما كان انعم على جدنا في ذلك نحو سنة الف
وسبعة وخمسين ونكون حاملين بيرق الفرنساويه ويكون نظر عظمته السعيد علينا
ليكون لنا فخر بين جميع الامم الغريبة الذي نحن ساكنين بينهم ونبغوا ايضا من جليل احسانه
ان يمن علينا بكتابة بعض مكاتيب الى الجيبه الى اسلامبول يوصي في مصالحنا
عند سلطان العثمانية والى القناصل الذي حولنا وبعلمنا باسامته اليكم والا لا
الذي لكم عند عظمته نطلب من حضرتكم ان تقبلوا مرسولنا وتوضوا مصالحه عند
الملك لانه وكيلنا في جميع مصالحنا ولا تتخلوا عن المذكور لانه من طايفة اصيلة
ابا عن جد وهو يعلم حضرتكم بكل شي ويكون لكم اجر عند الله تعالى لان صاير
علينا ظلم وحط خراج للبيوت ويه وذلك عندنا من اعظم الجمايل وشرفا لطايفة
الفرانساويه ولانتشار الايمان القاتوليقي حفظكم الله ولا زلتم في امنه
امين حرر سنه خمس وتسعين وستمايه بعد الالف
في السيد المخلص في اوايل شهر كانون الاول

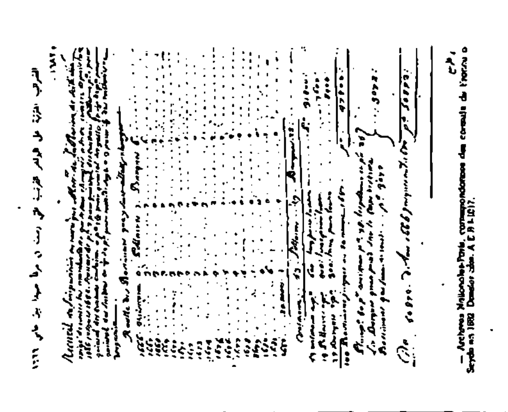
عبد
حصن
الخازن

(حصن الخازن)

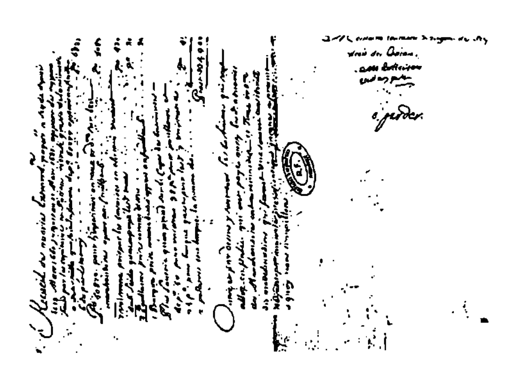
* لويس فيليبو Louis Phélypeaux كونت دي بونشارتران (١٦٤٣ - ١٧٢٧) وزير الدولة الفرنسية لشؤون البحرية (١٦٩٠ - ١٦٩٩) ومستشار فرنسا (Chancelier de France) (١٦٩٩ - ١٧١٤).

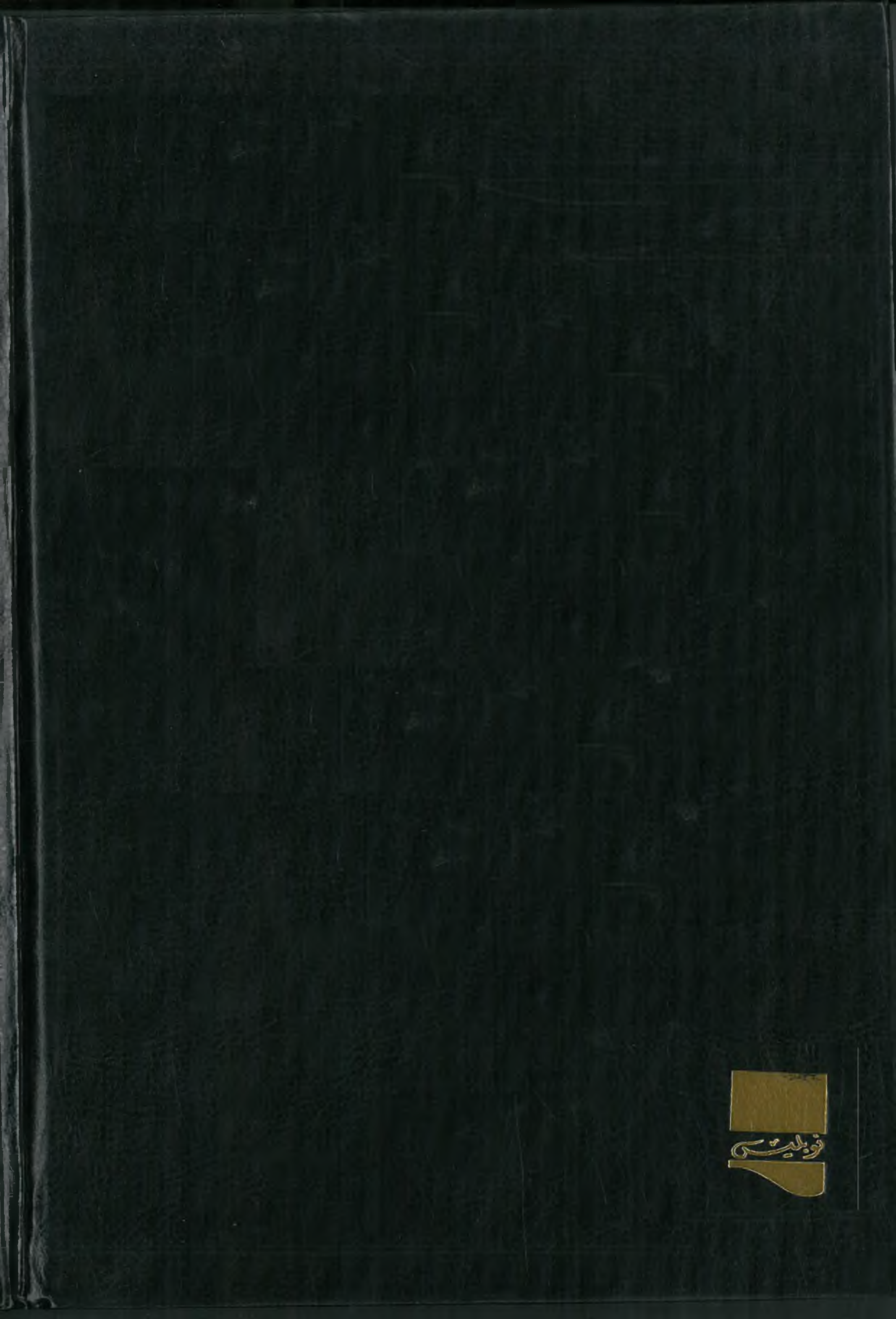
(المؤلف)

وثيقة رقم ٨



— Archives Nationales-Paris, correspondance des consuls de France Seyde ... 1682 Dossier ... A E B I 1017.




نوبليس